

من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية



تأليف الدكتور الألف

مناجى الأولياء العظمى
وزعمهم والإسلام إلى نهاية الدولة الأموية

بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم

ألف كتاب

(١٣٦)

تاريخ الدولة العثمانية
من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية

تأليف المستشرق الألماني

يوليوس فلهوزن

راجع الترجمة

دكتور حسين مؤنس

بجامعة القاهرة والمعهد المصري بمطبعة

نقله من الألمانية وعلق عليه

دكتور محمد عبد الهادي بوريه

بجامعة القاهرة والجامعة القبطية

نشرته

مكتبة النهضة المصرية والنشر

القاهرة سنة ١٩٦٨

هذه ترجمة كتاب :

Das Arabische Reich und sein Sturz

تأليف

von

Julius Wellhausen

الطبعة الثانية

١٩٦٨

محتويات الكتاب

| | |
|---|------------|
| كلمة المترجم عن مؤلف الكتاب | ج |
| كلمة المترجم عن الكتاب | ز |
| كلمة تمهيدية للمؤلف | ق |
| الفصل الأول : مقدمة | ١ |
| الفصل الثاني : على ^١ والحرب الأهلية الأولى | ٧٠ |
| الفصل الثالث : السفينانيون والحرب الأهلية الثانية | ١٠٧ |
| الفصل الرابع : بنو مروان الأولون | ١٩٦ |
| الفصل الخامس : عمر بن عبد العزيز والموالي | ٢٥٩ |
| الفصل السادس : المروانيون المتأخرون | ٣٠٢ |
| الفصل السابع : مروان بن محمد والحرب الأهلية الثالثة | ٣٥٦ |
| الفصل الثامن : القبائل العربية في خراسان | ٣٨٠ |
| الفصل التاسع : سقوط الدولة العربية | ٤٦٧ |
| فهرس الأشخاص | ٥٣٥ |
| فهرس الأماكن والمواضع | ٥٥٣ |
| فهرس الموضوعات والمواد | ٥٦٥ |

كلمة عن مؤلف الكتاب

بوليوس فلهوزن : عالم ألماني مبرز في ميدان الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس ، يقسميه القديم والجديد ، وباحث محقق في ميدان التاريخ العربي .

ولد في مدينة هاميلن ، على نهر الفايزر (وسفاليا) في ١٧ مايو ١٨٤٤ ، ودرس اللاهوت في مدينة جوتينجن ، وفي هذه المدينة نفسها ، بدأ حياته الأكاديمية في سنة ١٨٧٠ ، مدرساً في ميدان تاريخ العهد القديم ، وفي سنة ١٨٧٢ صار أستاذاً لللاهوت في جامعة جرايفسفالد ، لكنه استقال من هذه الوظيفة في سنة ١٨٨٢ ، بعد عشر سنين من البحث والتفكير في العهد القديم ، تبين له في أثناءها ، أنه لا يستطيع فيما بينه وبين ضميره أن يظل متمسكاً بفكرة أن الكتاب المقدس وحى إلهي . فصار أستاذاً للغات الشرقية في مدينة هاله ، ثم انتقل في سنة ١٨٨٥ إلى جامعة ماربورج ، وفي سنة ١٨٩٢ إلى جامعة جوتينجن ، وتوفي في ٧ يناير ١٩١٨ .

وترجع شهرة فلهوزن إلى دراساته النقدية في ميدان دراسات العهد القديم وتاريخه : وهو قد كان مفكراً متحرراً ، يعتد بالعقل ويعنى في دراساته بالنقد . وقد نظر في الكتاب المقدس خصوصاً الأسفار الأولى من العهد القديم ، متبعاً منهج النقد العلمي ، ودراسته كما يدرس النص ، فوجد أنه تنقصه الوحدة والانسجام ، سواء من حيث الفكرة أو من حيث الأسلوب والعبارة ، فلا يمكن أن تكون نسبته إلى من يُنسب إليهم صحيحة ، أي أنه ليس وحياً إلهياً أصيلاً ، بل كتبه الناس . وبهذا وصل فلهوزن بالنقد إلى نهايته ، وفتح الطريق أمام الدراسات النقدية للكتاب المقدس . ورغم أنه قد عاداه وعارضه كثير من علماء وشرّاح الكتاب المقدس ، فإنه قد تبين ما في رأيه وطريقته من الصواب ، وعدل علماء

للكتاب المقدس عن التطرف في التمسك بالفكرة القديمة وميزوا بين المعنى والفكرة باعتبارهما الوجداني ، وبين اللفظ والعبارة باعتبارهما للبشري .

ولما لم يستطع قلهوزن أن يظل أستاذاً للأهوت ، تحول من الميدان الذي بدأ حياته بالتخصص فيه ، إلى ميدان الدراسات العربية ، فعنى بدراسة الوثنية العربية في كتاب قيم عنوانه : « بقايا الوثنية العربية » (١) ، واعتمد فيه خصوصاً على ما كان معروفاً في ذلك الوقت من مقتطفات كتاب الأصنام لابن الكلبي ، لكنه رجع أيضاً إلى مراجع كثيرة ، مكنته من جمع مادة غزيرة متنوعة في الميدان الذي أراد توضيحه ، وعنى بدراسة الفترة المدنية من الدعوة الإسلامية ، فترجم كتاب المغازي للواقدي بعنوان : « محمد (عليه السلام) في المدينة » (٢) ، ونشر بعض أشعار المهديين ، وعمل دراسات أخرى كثيرة ، واهتم خصوصاً بتاريخ الدولة العربية ، فأثمر اجتهاده الكبير هذا الكتاب العظيم الذي نشره في مصر بالعربية ليكون في متناول المهتمين والباحثين العرب ، بعد أن ظل زمناً طويلاً في أصله الألماني وترجمته الإنجليزية ، مرجعاً أساسياً في تاريخ صدر الإسلام عند الأوروبيين .

برهن قلهوزن ، بهذا الكتاب ، على أنه مؤرخ من الطراز الممتاز . وقد أشاد العلماء بموهبته في كتابة التاريخ ، والحق أن هذا العالم الألماني الفذ ، ظهر في ميدان تاريخ العرب مؤرخاً من نوع نادر وجديد ، فلقد كتب كثير من العلماء الأوروبيين في تاريخ صدر الإسلام ، أعنى تاريخ الفترة التي انتهت بسقوط دولة بني أمية ، لكن قلهوزن فاقهم جميعاً من وجوه كثيرة ، فهو بدلاً من أن يعتمد على مؤلفات المستشرقين الذين سبقوه ، رجع إلى

(٨)

المصادر العربية الأصلية ، فقرأها قراءة "شاملة" وتمثل مادتها تمثلاً كاملاً ، وهذا بالنسبة للمؤرخ ، كما لاحظ المستشرق الألماني بيكر (C. H. Becker) هو الطريق الوحيد الصحيح ، لا الطريق الوحيد الممكن .

وهو قد استقبل البحث من غير تعصب ، وخصوصاً من غير مجموعة الأفكار التي يقبلها بعض الباحثين مقدماً ، فتفسد عليهم تصور الوقائع وفهمها ، وتقديرها التقدير الصحيح ، وإنما كانت طريقته أن يستوحى النصوص ، لا أن يحاول بكل الوسائل أن يستغلها في إثبات آراء أو فروض قد بدأ بها من عنده ، كما فعل بعض من كتب في تاريخ العرب وتاريخ الإسلام من المستشرقين : لكن ليس معنى هذا أن فلهوزن أخذ النصوص على حلاتها ، بل هو انتفع بها في كثير من التحليل والنقد ، وهو في الكامة التي مهد بها لكتابه ، قد وصّف الروايات التاريخية العربية في شخص ممثلها الكبار وأبان عن طريقته ، ثم جرى في ثنايا كتابه على منهج النقد للروايات ، واختيار ما يطمئن إليه المؤرخ الحريص على الحكم الصحيح . ومما امتاز به فلهوزن على أسلافه من المؤرخين الأوروبيين وغير الأوروبيين الذين كتبوا عن الدولة العربية ، أنه إلى جانب اعتماده على المراجع العربية ، رجع إلى مراجع غير عربية معاصرة للحوادث التي تناولها والأشخاص الذين تعرض لهم ، مثل كتاب ثيوفانيس المؤرخ البوزنطي ، وكتاب الصلة لتاريخ ايزيلور ، وبعض ما كتبه المؤرخون السريان .

وهو وإن كان غير مولع بالنقد فإنه قد اضطر إلى نقد بعض أسلافه من المؤرخين الأوروبيين ، أمثال دوزي ، وفون كرىمر ، و : مولر . ولو نظرنا فيما خالفهم فيه ، لتبين لنا الفرق واضحاً بين روحه وروحهم ، وطريقته وطريقتهم .

كان فلهوزن عالماً يتمسك بروح البحث العلمي ويعتد بالوقائع ، وإذا كان بعض من شاركه في ميدان البحث قد جرى أحياناً وراء الخيال ، أو عمد إلى

التهويل بالألفاظ والأساليب المنمقة ، فإنه هو لم يلبجأ إلى شيء من هذا الذي قد يحاول به البعض أن يسترخوا ما في علمهم من فجوات .

لقد أشار العالم الألماني ك . ه . ب كتر - في كلامه^(١) عن فلهوزن - إلى هذا الذي ذكرناه ، وزاد على هذا بأن عقد مقارنة "قصيرة" بين فلهوزن في كتابه عن الدولة العربية (الدولة الأموية) ، وبين الراهب اليسوعي ه . لامانس في كتاباته عن العصر الأموي ، ولاحظ بحق أن لامانس رغم حداثة قد فشل فيما نجح فيه فلهوزن : فكتابات لامانس أشبه شيء بمجموعات من "الفيشات" ، أما كتاب فلهوزن فهو بناء ضخم ، ولامانس يلون شخصياته التي تكلم عنها جزءاً جزءاً ، لكنه يقع على اللون غير الصحيح ، أما فلهوزن فهو يزهد في جمع القطع الملونة الأخاذة ، وتكادما ينحت شخصياته من الحجر الأصيل .

والحق أن فلهوزن في كتابه الذي نقدمه اليوم لقراء العربية ، قد جمع بين الجهد العلمي والعمق والعدالة ، إذا قورن بغيره ، وهو كما لاحظ بكر ، قد جمع بين روح العالم وموضوعيته ، وبين روح الفنان وذاتيته . وهو يقرأ المراجع ويستوعبها استيعاباً تاماً ، ويدرك جملتها بحس عجيب ، وهو من أبرع من هرقت في الاختصار الذي يلم بجوهر الموضوع ، وهو يكتب مستوحياً حذسه الكلي وسط المادة التي جمعها ، وهو بارع أيضاً في تصوير الأشخاص تصويراً دقيقاً لا يخلو من طرافة .

كان فلهوزن طويل النفس في بحثه ، يسر بيانه للحوادث كما يسر النهر الكبير ، وأنت تمس تمام الإحساس ، وهو يأخذك معه أخذاً قوياً ، أنه حين يصل إلى نهاية النقطة التي يعالجها ، لا يكون قد بقي شيء "تشعر أنه غير موجود" ، وهذا صحيح ، سواء فيما يتعلق بوصف الحوادث أو بتصوير الأشخاص .

المترجم

محمد عبد الهادي أبو ريدة

كلمة المترجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه
إلى يوم الدين - وبعد :

فهذا كتاب في تاريخ دولة العرب ، من لدن ظهور الإسلام إلى سقوط
أسرة بني أمية وقيام أسرة بني العباس في المشرق ، فهو يشمل ما يقرب من
قرن ونصف من تاريخ العرب ، وهذه هي فترة مجدهم الخالد ، وفترة
التجربة الكبرى في تاريخهم .

بيّن المؤلف في هذه الفترة كيف قامت دولة العرب العالمية على أساس
الدين وقوة الإيمان به ، وعلى أساس قوة الجنس العربي وخصائصه وصفاته ،
وكيف خالف ساسة العرب تلك المبادئ الاجتماعية والتنظيمية التي جاء بها
الإسلام ، خصوصاً مبدأ المساواة بين المسلمين ، وكيف لم يستطيعوا التخلص
من سلطان الانقسام القبلي والعصبية والقبلية ، فتنازعوا ، ثم خرج منهم قوم
على دولتهم ، واغتنم أعداؤهم الفرصة ففرضوا بعضهم ببعض ، وأسقطوا
تلك الدولة العنيدة التي كان يمتد سلطانها من داخل أرض الصين في المشرق ،
إلى الجنوب الغربي من فرنسا في المغرب .

على أنه رغم سقوط هذه الدولة لأسباب كثيرة بعضها ما ذكرناه فإن
ههنا كان عهد تجربة تاريخية كاملة :

في تلك الفترة ظهر العرب بوصفهم أمة ، عماداً لدولة عالمية من الناحية الحربية

(ح)

والإدارية ، واستطاعوا بفضل شجاعتهم النادرة ، وبطولتهم الفائقة ، ونضحياتهم الهائلة في ميادين القتال المترامية ، أن يفتحوا الدنيا وأن يقهروا الأمم واستطاعوا بفضل مواهبهم الممتازة وهدى دينهم القويم ، أن يؤسسوا إمبراطورية هائلة تكونت لها شخصيتها المتميزة ، ونظامها السياسي والإداري والاقتصادي ، وتحقق ذلك كله على يد خلفاء سياسيين ، وقادة عسكريين ، وحكام إداريين جديرين جميعاً بأن يدخلوا في التاريخ العالمي ، ويتبوؤوا أرفع مكان فيه ، وفي هذه الفترة نشر العرب دينهم وأسسوا الحواضر التي صارت حواضر الحياة الفكرية والدينية ، دون أن يحاولوا القضاء على دين أو استئصال أمة .

في هذه الفترة نجد التجربة كاملة فيما يتعلق بجميع مظاهر حياة الدولة : كيف تنشأ وتقوى على أساس مبادئ إن خالفتم لم تستطع البقاء ، وكيف تضطر اضطراراً إلى الخضوع للمقتضيات التي لا بد من مراعاتها إذا أرادت المحافظة على قوتها ، وكيف تقع الفتن والثورات والحروب الداخلية بسبب قوة العناصر وضرورة الصراع بينها ، وكيف يكون النجاح والفشل ، ويظهر الشر والنقص ، وتتجلى الخصال العالية ، وتبين الأبصار السليمة كوامن الأخطار المؤدية إلى الانهيار ، فلا يمكن تفاديها ، وتنفذ القوانين التي تحكم حياة الدول . . . وهكذا .

لا شك في أن الكفاح من مظاهر الحياة على هذه الأرض بإطلاق معنى الحياة ، وهو ظاهرة جوهرية في الحياة البشرية وحياة الإمبراطوريات الكبرى ، وهو في الإمبراطورية العربية الأولى ، قد كان بين الفكرة العليا وواقع الحياة الناقصة ، بين فكرة الدولة الدينية وواقع الدولة الدنيوية ، بين الثمرات والمشاعر الخاصة وسلطة الدولة ، بين المصالح والاعتبارات القبلية أو الفردية ومقتضيات الواجبات العامة والاجتماعية ، بين القومية العربية والقوميات غير العربية التي اشتملت عليها الإمبراطورية . فلا غرابة أن يشتمل تاريخ الإمبراطورية العربية

(ط)

على كثير من ضروب الفتن والمنازعات والثورات ، ومن ضروب الصراع
الفردى والقبلى والإقليمى وصراع الأجناس والقوميات ؛

ولكن كان لدولة العرب أهداء حاولوا الكيد لها من أول الأمر ،
وتلبسوا لذلك بكل صورة ، واغتنموا له كل فرصة سانحة . وأشنع ما في
الأمر أنهم استغلوا المواقف التي ما كانت تحتاج إلا إلى الإصلاح ، فجعلوها
سبيلاً للثورة وسفك الدماء . واستغلوا الروح القبلية وما يترتب عليها من
إحساسات ، فجعلوا منها وسيلة لتفريق كلمة العرب وصدد وحدتهم ،
حتى نعلز عليهم الاتحاد ، وأظهروا العطف على من حسبوا أنفسهم
مظلومين ، فانضوا تحت لوائهم بغية ضرب عناصر الدولة بعضها ببعض ؛
وكانت هذه بالإجمال هي الصورة التي عليها سقطت إمبراطورية العرب
الأولى ممثلة في دولة بني أمية في المشرق الإسلامى ، وقامت على أنقاض
مجددها السيامى والحربى العظيم دولة بني العباس ، غير معتدة بالعرب ، بل
يجتهد من الأعاجم صادروا مع مرور الأيام عماد الدولة ، وأصحاب الأمر فيها
وفي الخلفاء أنفسهم .

لا شك أن في دراسة التاريخ وتأمله عظة وعبرة ، والعظة من تأمل
تاريخ دولة بني أمية يجب أن تكون كاملة وبالغة ، لأن التجربة أو المحنة
التي مرت بها هذه الدولة كانت كاملة أيضاً .

إن العرب أمة ، أراد الله لهم أن يكونوا وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ،
وهم أيضاً أمة ، قد وضعت على كاهلهم رسالة ، هي رسالة الإيمان بالله الخلق
وبكرامة الإنسان الذى كرمه الله ، واستخلفه في الأرض ليعمرها بالحق والعدل
والخير والرحمة . وهم لكي يهضوا بهذه الرسالة ، لابد لهم من أن يحافظوا على
كيانهم وقوتهم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا الاعتصام بحبل الاتحاد والتعاون على
البر والتقوى ، لا على الإنم والعنوان . والسبب في ضرورة هذا الاتحاد أن رسالة
العرب لم ترق من أول الأمر - ولا تروق حتى اليوم - لكثيرين من الخلق ممن

يكره العدل والحق ، فعادوا العرب من حيث هم أمة ، ومن حيث هم دولة ،
ودأبوا على محاولة كسر شوكتهم بتفريق كلمتهم وإشعال نار الفتنة بينهم .
وإذا كان أحد أصحاب النظر الصائب البعيد والإحساس العربي العميق^(١) ،
في أواخر أيام بني أمية ، لما تكشف الخطر الداهم من جانب أعداء العرب ،
وأفلح هؤلاء في صدع بناء الوحدة العربية ، قد قال هذه الأبيات :

| | |
|-------------------------------|----------------------------------|
| أبلغ ربيعة في مرو وإخوتها | أن يغضبوا قبل ألا ينفع الغضب |
| ما بالكم تُلقيحون الحرب بينكم | كان أهل الحجبى من فعلكم غيب |
| وتفركون عدواً قد أظلكم | من تأشب لا دين ولا حسب |
| ليسوا إلى عرب منا فتعرفهم | ولا صميم الموالى ، إن هم تُسيبوا |
| قومٌ يدبسون ديناً ما ممعت به | عن الرسول ولا جاءت به الكتب |
| فن يكن سائل من أصل دينهم | فإن دينهم أن تُقتل العرب |

فإن فكرة هذه الأبيات ستظل — ولا بد أن تظل — أمام عقل العرب
وأمام أبصارهم ، ما داموا يريدون المحافظة على كياناتهم كأمة ، وما داموا
يحرصون على تحقيق رسالتهم في التاريخ ، وسط الصراع بين الأمم ونظم
الحياة والمثل العليا الروحية والإنسانية التي يتمسك بها الناس ، وما على
العرب إلا أن أخذ بأسباب الإصلاح الذي يجعلهم منطقيين مع أنفسهم ، وعلى
وفاق مع أساس شأنتهم التاريخي ، ومع طبيعتهم وخصالهم وفضائلهم ومثالمهم
العليا المميزة لهم .

* * *

إن هذا الكتاب ، الذي يبين لنا كل ما تقدم ، هو من تأليف عالم أوروبي .
جليل اعتمد كل الاعتماد على المراجع العربية ، وهو في بيانه للمسائل قد تابع هذه
المراجع متابعة دقيقة ، ونقل نصوصاً طويلة أو قصيرة ولخصها ، وفي بعض الأحيان

(١) هو نصر بن سيار حاكم خراسان من قبل بني أمية .

(ك)

فهم النصوص فهماً إجمالياً ، محيطاً بجوهر الموضوع ، ثم عبر بعبارة ألمانية موجزة وبحسب طريقة الألمان في التصور والتعبير ، وقد ينحيل للقارئ أحياناً أن تفكيره شخصي ، لكنه في الحقيقة يتضمن المعنى العربي ؛ ولذلك لم يكن بداً عند الترجمة من الرجوع إلى المصادر العربية في كل شيء ، ومن إعادة الكلام إلى وضعه الأصلي المباشر ، ومن اختيار العبارة في ضوء النصوص الأصلية . وكل ترجمة لهذا الكتاب لا تتابع النصوص أو لا تستنطقها وتستوحيا - كما فعل المؤلف نفسه في بيانه للمسائل - لا يمكن أن تعبر عن الحقيقة والواقع التعبير الصحيح ، بل ربما أدت إلى تحريف أو خطأ أو كانت غير مفهومة أصلاً .

وأيضاً قد عمد المؤلف في بعض المواضع من كلامه إلى الإيجاز الشديد ، وأغلب الظن أنه فعل ذلك مراعاة للقارئ غير العربي الذي قد لا يحتاج في بعض الأحيان إلى التفصيل ولا إلى تصور الموقف كله ، أو هو قد لا يسهل عليه تصوره ، ومن أجل هذا كان لابد للمترجم في مواضع معينة ، ومن مراعاة القارئ العربي بذكر الشيء مفصلاً بالقدر الذي لابد منه ، لكي تتكون في ذهنه الصورة الكاملة الواضحة للحوادث والمواقف والأشياء ، وهذه الطريقة التي جريت عليها هنا ، هي الطريقة التي جريت عليها من قبل ، في ترجمة كتاب العلامة الأوروبي آدم منز عن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، والتي أعتقد أنها عادت على القراء والباحثين بعظيم الفائدة . وقد أشرت في العادة إلى التفصيل الذي قُت به ، لا من هندي ، بل معتمداً على النصوص التي أشار إليها المؤلف وأخذ منها كلامه الجميل الذي قدمه للقارئ غير العربي ؛ ومن غير هذا التفصيل قد لا يكون الكلام مفهوماً . وإذا كان هناك من قد يخطر له أن يقابل بين الترجمة والأصل الألماني ، فإنه في بعض المواضع سيجد الزيادة من نقطة معينة ، وما عليه إلا أن يمضي قليلاً ليتصل كلام المؤلف بعد التفصيل .

(ل)

وأسلوب فلهوزن في لغته الألمانية أسلوب علمي ، وإن كان ليس غير
رشيق في نظري . وإني لأعترف أنه قد جاء ملائماً لما أحبه من التعبير العلمي
الذي لا يصل على كل حال إلى الخفاف ، وهو أيضاً أسلوب صعب بعض
الشيء بسبب علميته وإحكامه وتركيزه . ولم يكن بدّ في بعض الأحيان من
ترجمة المعنى ترجمة دقيقة وافية بالغرض ، دون تعنت في التمسك بالترجمة
اللفظية ، وخصوصاً إذا كانت الألفاظ العربية المؤدية للمصطلحات الألمانية ،
لم تتوطن بعد في أذهان غالبية القراء العرب ، لأنها لم تتوطن بعد كمصطلحات
في اللغة العربية .

لكنّ هنا شيء أحب أن أنبه عليه : قد يلاحظ بعض القراء العرب
غراهة في بعض الألفاظ أو العبارات أو صيغ التفكير والتعبير ، فليعلم القارئ
أن بعض ذلك يرجع إلى النصوص العربية ، التي كانت أساساً اعتمد عليه كل
من المؤلف والمترجم -- ولم أشأ أن أبعد بالقارئ عن الجو الذي لا بد له عند
المزيد من البحث والتحقيق من الرجوع إليه ، أما بعضه الآخر فهو تجديد
في التصوير والتعبير دعت إليه ضرورة الترجمة الدقيقة ، وهو ليس عجزاً
عن الأخذ بالأسلوب العادي المؤلف .

وأيضاً إذا كان القارئ في مواضع قليلة ، قد لا يتحرر أمامه وجه
الكلام بسهولة ، فذلك مقصود من جانبي ، لكي تسمح العبارة العربية بما تسمح
به العبارة الألمانية من احتمالات المعنى ، لأن المؤلف قد انتقل إلى جوار ربه ،
وهو وحده القادر على تحديد معنى كلامه التحديد الدقيق ، فلم يكن بدّ من
تفادي تصوير فكرته على وجه قد لا يكون صحيحاً .

ولقد كانت الترجمة تقتضي الاجتهاد في الاطلاع على جميع النصوص
التي رجع إليها المؤلف : وقد عزّ على أن يضيع كل هذا الجهد سدى ،
خذكرت النصوص حيث يحتاج إليها القارئ سنداً لكلام المؤلف ،
وذكرتها أحياناً مكررة بغية توضيح الفكرة أو تفصيلها أو إصلاحها ،

(م)

وأشرت إلى مواضع في المراجع لم يذكرها المؤلف ، وإن كان قد رجع إليها^(١) .
وقد أردت بذلك إرضاء حاجة القارئ الباحث ، وتوفير كثير من العناء
الذي كان لا بد أن يحتمله ، إذا أراد البحث عن النصوص ، كما أردت
أيضاً تشويق القارئ لمواصلة الاستفادة من النصوص في دراسات أخرى .
وبما دعاني إلى ذكر النصوص أيضاً رغبتي في تأكيد سلامة الترجمة أمام من
قد يعترض عليها .

وفي أثناء هذا كله صححت كثيراً من الأخطاء دون الإشارة إلى ذلك
تجنباً للفضول وتطويل الكلام ، وقد ذكرت أسماء الأعلام كاملة أو أكمل
حما ذكرها المؤلف على كل حال .

• • •

ومؤلف الكتاب مفكر متحرر ، لكنه يسرف في تحرره أحياناً ، كما
يسرف أحياناً أخرى في تطبيق تصويره الشخصي ، فلم يكن بد من التنبيه على
ذلك ، ومن الرد على بعض كلامه المجانب للحق . فعلمت على ما رأيت أن
إحقاق الحق يدعو إلى التعليق عليه ، لكن دون أن أسرف أو أبالغ في ذلك ،
تاركاً للقارئ أيضاً نصيبه من النقد والتعليق .

وكذلك أحسست بعد الاطلاع على النصوص بحاجة ملحة إلى تعليق يشبه
التعليق التاريخي ، وإن كان إنما يمس بعض الأحكام المتعلقة بالوقائع
أو الأشخاص . وكان هذا التعليق في الغالب تحليلاً للموقف أو بياناً لعناصر
الحكم الأقرب للصواب ، وكان بعضه إكمالاً وتفصيلاً للموضوع لا بد منه للقارئ

(١) على أنه رغم الاجتهاد البالغ في البحث عن النصوص بقيت مواضع قليلة جداً أشار
إليها المؤلف فجاءت الإشارة خطأ في أغلب الظن ، فلم أحتد إليها .

(ن)

العربي ، أو تصحيحاً لا بد منه طبقاً للنصوص : وإنما أردت بهذا مساعدة القارئ على إدراك الموقف التاريخي أو لاتباع التاريخي .

* * *

لقد تم طبع هذا الكتاب منذ أكثر من عام ، لكن سفرى للخارج إلى جانب ضرورة إعادة طبع شطر كبير منه ، حال دون ظهوره قبل اليوم .

وهذه الترجمة العربية أصح وأدق وأصدق تعبيراً عن الموضوع من الترجمة الإنجليزية ، لأنني استطعت مراجعة الأصول العربية ، وهو ما لم يكن أمراً سهلاً على صاحبة الترجمة الإنجليزية رغم جهدها المشكور .

وتفترق ترجمتي أيضاً عن ترجمة الزميل الأستاذ الدكتور يوسف العشري التي ظهرت في سوريا . ولا شك أن أسلوب كل كاتب أمر شخصي لا معنى للمشاحة فيه ، وقد تم طبع ترجمتي قبل ظهور ترجمته ، ولكنني وجدت عند المقارنة كثيراً من الخلاف الذي ليس لفظياً في الغالب . على أن الزميل الفاضل قد ترجم عن الإنجليزية ، وهو وإن كان يراجع النصوص فقد كان أمام عقبة لم تكن أمامي ، ولا سبيل إلى معرفة حقيقة كلام المؤلف إلا بالرجوع إلى الأصل الألماني في ضوء النصوص العربية .

* * *

بيّن المؤلف كيف سقطت دولة العرب الأولى - وهي الدولة الأموية في رأيه - بسبب الصراع الداخلي والنزاع والقتال بين العرب ، وكيف كان أعداؤها - وهم الأعاجم - قد دأبوا من قبل على تأليب الشعوب على بني أمية ، بدعوى أنهم سادوا عن مبادئ المساواة التي جاء بها الإسلام بين معتقيه ، ففرقوا بين العرب والأعاجم ، وميزوا الأولين على الآخرين ، ثم جاءت مطامع العباسيين فاستغلها الأعاجم ، وشقوا صفوف العرب بأن اجتذبوا قوماً منهم إلى اعتناق قضية

(ص)

المظلومين : وسقطت دولة بنى أمية التي كانت تعتمد على العرب والعروبة ، وقامت دولة بنى العباس التي اعتمدت على الأعاجم من الفرس وغيرهم ، على أساس مبدأ المساواة الإسلامى . ويرى المؤلف بناء على هذا ، أن دولة العرب بإطلاق المعنى قد سقطت وانتهت بانتهاء حكم بنى أمية ، وهو لذلك حنون كتابه هكذا : « الإمبراطورية العربية وسقوطها » : ومعنى هذا أن دولة بنى العباس ليست دولة عربية بل إسلامية فحسب ، لكن فى هذا تساهلاً كبيراً ، لأن العباسيين كانوا عرباً ولأن الأمويين كانوا مسلمين ، هذا إلى أن دولة بنى أمية قامت فى الأندلس والمغرب من جديد ، ولم يزل للعرب منذ ظهور الإسلام دولة موحدة أو دولة متفرقة . ورغم أن القيادة الحكومية ، العسكرية والإدارية ، فى الدولة الإسلامية قد آلت إلى أجناس غير عربية ، كالترك على تنوعهم ، فإن العرب بوصفهم أمة لم يخفقوا ، وظهروا كدول بمجرد تصدع الإطار الخارجى الظاهرى للأجناس الأخرى ، وكانت قوة الدولة - أو الدول - العربية ، على قديم الأيام وحديثها تستند إلى دعامتين أساسيتين : الإسلام كعقيدة ونظام فى الحياة ، وللعروبة العرقية الحضارية بالنسبة للعرب الخالص أو العروبة اللغوية والحضارية بالنسبة للأجناس التى استعربت . وقد امتزج العرب بغير العرب على مر الزمان امتزاجاً كبيراً ، مما جعل للعروبة بمعناها التاريخى والحضارى ، بل والإنسان والسياسى ، معنى خاصاً لا ندخل فيه هنا .

ونظراً لأن تعريب العنوان الذى اختاره المؤلف لكتابه تعريباً حرفياً ، يؤدى إلى اللبس ولا يتفق مع الواقع ، فلم يكن بد من اختيار ترجمة للعنوان بحسب الموضوع المحدد الذى اختاره المؤلف ، وهو : تاريخ الدولة العربية ، من ظهور الإسلام إلى سقوط أسرة بنى أمية وقيام دولة بنى العباس فى المشرق الإسلامى ، وهذا ما راعيته من حيث المبدأ ، فى ترجمة عنوان كتاب « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، فقد كان عنوانه بحسب الترجمة

(ع)

الحرفية هو : « نهضة الإسلام » والمقصود هو العصر الذي يقابل من ناحية الحضارة والتنظيم عند المسلمين ، عصر نشأة الدول الأوروبية الحديثة أيام حركة إحياء العلوم والنظم القديمة .

ومن أجل هذا كله وبعد تفكير طويل ، اخترت للكتاب عنوان « الدولة العربية » تاريخها من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ، وجعلت العنوان الألماني وترجمته الحرفية في ظهر الغلاف .

* * *

قرأتُ هذا الكتاب القيم في لغته الأصلية ، أيام دراستي في جامعة بازل بسويسره واستمعى إلى محاضرات أستاذي المحبوب الدكتور رودولف تشودى عن تاريخ العرب والأمم الإسلامية . وقد أعجبت بالكتاب في تلك الأيام لأنه أكثر من كتاب تاريخ بالمعنى العادى ، فهو قد جمع بين روح العلم والفن والفلسفة وبين العناية بحقائق التاريخ ووقائعه عنابة موضوعية وتصوير الأشخاص والمواقف والأحداث تصويراً فنياً رائعاً ، وبيان القوانين المتنوعة والعوامل التى تحكم ظهور الأحداث وتطورها من وجهة نظر كلية ، مع استقصاء العمل والأسباب وبيان النتائج التى تلزم عنها ، ومع الاهتمام البالغ بوضع المشكلات وتحديد لها ، مما هو جدير بأن يجعل كتابه تاريخاً بالمعنى العلمى ، دون أن تعوزه صبغة فلسفية من بعض الوجوه ، ومع أن اهتمام المؤلف كان متجهاً خصوصاً إلى الناحية السياسية ، فإنه لم يهمل الناحية الاقتصادية والإنسانية الاجتماعية .

ولذلك فإنه لما عرضت على إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم ترجمة هذا الكتاب ، قبلت المهمة على ما فيها من مشقة ، وكان مما رغبتى فى احتمالها ، قلة من يجمع بين معرفة اللغة الألمانية ، والصبر على متابعة المؤلفين الإوروبين فى انتفاعهم بالمراجع العربية .

(ف)

وقد راجع الترجمة زميلي الأستاذ الدكتور حسين مؤنس أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة ، ومع ذلك فإني أعتبر أنى المسئول الأول عن الترجمة ، وأنا المسئول الوحيد عن التعليقات لأنها من عملى وحلى .

وفىما يتعلق بترجمة ما فى الكتاب من نصوص يونانية ولاتينية ، استعنت بعالمين مختصين هما : السيد الدكتور هـ . فون دن شلتين ، بقسم الدراسات القديمة بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، والسيد الدكتور أمين سلامة صاحب الخبرة الجيدة باللغتين القديمتين : وقد جمعت بين الاستفادة من خبرة هذين العالمين توجهاً لليقين ، ومع ذلك فإني إلى جانب الترجمة ، قد ذكرت النصوص بلغتها الأصلية ، لكى يرى فيها من يعرف اللغات القديمة ما يشاء .

وأيضاً فيما يتعلق بالنقط الملتبسة أو الصعبة من ناحية اللغة ، رجعت إلى الأستاذ فون دن شلتين وإلى أستاذنا الفاضل العلامة المتواضع الدكتور روبرت ران ، المستشار الثقافى بالسفارة السويسرية بالقاهرة .

فأحب أن أعبر عن شكرى العميق لهؤلاء العلماء جميعاً ، لصدق معاونتهم ، وحسن إرشادهم ، وتضحيتهم بوقتهم الثمين .

وقد قرأ الكتاب بعد تمام طبعه زميلي الأستاذ الدكتور شوق ضيف ، فلاحظ ملاحظات قيمة ستكون موضع الاهتمام ، فله الشكر الجزيل .

هذا وقد اشترك معى أخى الأستاذ عبد الفتاح أبوريدة فى تصحيح شطر من تجارب الطبع ، وفى إعداد مادة الفهارس المتنوعة التى زودت بها الكتاب ، فله التقدير والشكر .

وأخيراً أحب أن أشير إلى المؤلف طويل النفس ، قسم كتابه إلى أقسام رئيسية لها عناوينها ، ثم قسم كل قسم إلى أجزاء أعطاها أرقاماً ، وتكاد تكون

(ص)

الجميل الأولى من كل جزء مشتملة على عنوانه وموضوعه . ولما كان الكتاب مرجعاً للبحث ، لا كتاباً دراسياً بالمعنى الخاص ، فقد تركت تقسيم المؤلف كما هو ، ولم أتدخل بينه وبين الباحث والقارئ بإضافة عناوين تفصيلية ، وإن كان ذلك قد يخطر لي . وإنما أردت أن أترك الباحث والقارئ يسير كلاهما مع المؤلف ويأخذ من كلامه ما يشاء في الموضوع التفصيلي الذي يعنيه ، وهذا ما جريت عليه أيضاً في كتب ترجمتها من قبل . والمهم أن الكتاب في ترجمته العربية مزود بفهارس مفصلة كافية .

أما المراجع العربية التي رجع إليها المؤلف واعتمدت عليها فهي بحسب الطباعات الأوروبية .

لقد بذلت جهدي في ترجمة الكتاب والتعليق عليه والإشراف على طبعه ، ولكن نظراً لكثرة أسماء الأشخاص والأشياء وتشابهها ، ولضرورة الاستعانة بالإملاء في « تبييض » هذا الكتاب الطويل ، فقد وقعت أخطاء قليلة استندركتها في آخر الكتاب^(١) . وإلى أبعد ما أكون عن أن أدعي لنفسى كمالاً أو عصمة من الزلل ، فكل جهد إنساني دون الكمال ، والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى . والله أسأل أن يحقق بعلمي النفع ، ويحسن به العظة ، ويجعله خالصاً لوجهه ، وهو ولي التوفيق .

المترجم

بنغازي في ١٤ ربيع الثاني سنة ١٣٧٧ هـ
٦ نوفمبر سنة ١٩٥٧ م محمد عبد الرهاني أبو ريرة

كلمة تمهيدية

إن الروايات القديمة المتعلقة بعصر بني أمية توجد حتى اليوم على أوتق مما تكون عليه عند الطبري ، لأنها لم تختلط ولم تتناولها يد العوفيق والتنسيق ، وهي في القسم المجيد من كتابه ، أعني الجزء الذي ظهر منذ ما يقرب من عشرين عاماً في السلسلة الثانية من طبعة لندن . والطبري قد حفظ لنا خصوصاً قطعاً كبيرة جداً من روايات أبي مخنف ، الراوية المصنفة ، فحفظ لنا بذلك أقدم وأحسن ما كتبه ثائر هربني نعرفه . وكان أبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف من أزد الكوفة ، ويدل نسبه الطويل على أنه كان ، من حيث نسب أبيه ، من أصل نابه . والأغلب أن مخنف بن سليم ، رئيس الأزد في موقعة صفين ، كان جده ، وأن محمداً وعبد الرحمن ابني مخنف كانا أخوين لجده ، ونحن لا نعلم متى ولد أبو مخنف ، ولكنه لما قامت ثورة ابن الأشعث في سنة ٨٢ هـ كان في سن الرجال ، وكان صديقاً لمحمد بن السائب الكلبي (الطبري ج ٢ ص ١٠٧٥ و ١٠٩٦) . ويرجع لابن الكلبي المشهور ، وهو ابن محمد بن السائب ، الفضل الأكبر في حفظ كتب أبي مخنف وروايتها وتوريثها للأجيال . والطبري في العادة يذكر روايات أبي مخنف بحسب رواية ابن الكلبي لها . وقد حاش أبو مخنف حتى شهد سقوط خلافة بني أمية في دمشق ، وآخر الروايات المأثورة عنه تتعلق بحوادث سنة ١٣٢ هـ .

على أن أبا مخنف يذكر في بعض الأحيان رواة آخرين أقدم منه أو معاصرين له ويعتمد على رواياتهم ، مثل عامر الشعبي وأبي الخارق الراسي ومجالد بن سعيد ومحمد بن السائب الكلبي ، أما في الأغلب فإنه لم يأخذ ما رواه بعض أقرانه من الرواة المتقدمين ، بل هو جمع رواياته من سماعه لها بنفسه ومن

السؤال عنها في مختلف مظانها وعند كل من استقها من مصادرها أو حضره
 بنفسه من الناس . وعلى هذا فإن الإسناد الذى تقوم عليه رواياته كان لا يزال
 عنده شيئاً حقيقياً ، ولم يكن مجرد صيغة أدبية ؛ وسلسلة الرواة الذين
 يذكروهم هي دائماً قصيرة جداً ، وهي أخيراً تنكشف انكماشاً تاماً ، نظراً
 إلى أن المسافة التى تفصل بينه وبين الأحداث التاريخية التى روى أخبارها
 كانت لا تزال تقصر شيئاً فشيئاً ، هذا إلى أن سلسلة الرواة تتنوع بحسب
 اختلاف الأحداث وتنوع الروايات الخاصة بها ، بحيث نجد أمامنا طائفة
 كبيرة جداً من أسماء رواة نجهلهم جهلاً تاماً . وهؤلاء الرواة الذين شهدوا
 الحوادث لا يدركون ما يروونه إدراكاً كلياً شاملاً ، بل هم يذكرون أقل
 الحوادث شأناً ولا يغفلون عند وصف الحادثة ذكر الأسماء المتصلة بها ،
 وهم يجعلون الأشخاص في أفعالهم وأقوالهم في المحل الأول ، كما أنهم
 لا يزالون في مختلف الروايات يذكرون الشيء نفسه من غير اختلاف إلا في
 أشياء قليلة الشأن . ومن أجل ذلك صار التقدم في الرواية بطيئاً جداً ، ولكن
 وفرة التفاصيل من شأنها أن تعوض هذا العيب الذى في الرواية . وإلى جانب
 ذلك حفظ لنا الأثر المباشر الذى أوجدته الحوادث في النفوس وكذلك أول
 ما قيل عنها . ثم نجى الصيغة الشعبية للرواية فزيد في حيويتها . وكل
 الروايات تذكر في صورة حديث بين الأشخاص الذين كانت تدور حولهم
 الحوادث ، وكل الروايات وصف لمسرح هذه الحوادث . وقد ذكرت
 أمثلة تبين ذلك في بحث لى عن الحوارج والشيع (بمدينة Oöttingen سنة
 ١٩٠١) خصوصاً ص ١٩ و ٦١ فما بعدها (١) .

وقد قال مومسين (Mommsen) مرة إنه لا حاجة حتى بالنسبة لغير العلماء

(١) [يشير المؤلف إلى بحث يجد القارئ عنوانه الكامل بعد قليل فيما يلى . والمواقع
 التى يحيل القارئ إليها في أثناء كلامه عن الحوارج والشيع هي في البحث نفسه - المترجم] .

(ش)

إلى إثبات أن روايات الأحداث إذا أخذها الراوية عن الأشخاص الذين
اشتركوا فيها ، هي في العادة روايات غير صحيحة ، ولكن ينبغي للإنسان
أن يتمنى ألا يسرف غير العلماء في استعمال العقل السليم . ولو أن أبا مخنف
لم يكتب لخسر التاريخ خسارة كبيرة ، وكيف كان يمكنه أن يسلك فيما
كتب طريقاً غير الذي سلكه ؟ فلم تقدم له المصادر المكتوبة مادة كبيرة .
يستطيع أن يعتمد عليها ، وهو قد انتفع بها ما كانت في متناول يده ، ولكن
من غير أن يجتهد في البحث عنها وفي جعلها أساساً على نحو منظم ، وأكثر
ما يرويه في معرض ذكر الشواهد التي تؤيد رواياته قصائد وأبيات من
شعر الشعراء ، وأهم ما صنع من حيث تقدير قيمة الروايات هو أنه جمع
طائفة كبيرة من روايات متنوعة ومن أخبار عن الشيء الواحد مختلفة في
مصادرها ، بحيث يستطيع الإنسان أن يوازن بينها ويعرف الصحيح المؤكد
منها من غيره . وأبو مخنف قد توصل بذلك إلى أن صارت الأشياء الثانوية
تتوارى ، لأنها لا تظهر إلا مرة واحدة ، كما صارت الأشياء الأساسية
لا تزال تزداد بروزاً ، لأنها تتكرر في جميع الروايات : وهو يربط
الروايات المختلفة التي تتناول الشيء الواحد ترتيباً ملائماً بحيث لا يزال
ما بينها من ارتباط يزداد وضوحاً . على أنه في مثل هذا الجمع للروايات لا يمكن
تفادي شيء من التخيير لها والتوفيق بينها ، ولا يظهر هناك تناقض في النقاط
الجوهرية ، والروايات تتضافر حتى يخرج منها إجماع على ما فيها . والصورة
الإجمالية التي تتكون عند الإنسان ثابتة متسقة ، وليس هذا فيما يتعلق بالوئاع
فحسب بل فيما يتعلق بالأشخاص أيضاً . ورغم ما في مادة الروايات المختلفة من
عموض واضطراب بادي بين فإنه ترفرف فوقها خطة المؤلف والفكرة الإجمالية التي
كوتها لنفسه : ومع ذلك فإن أبا مخنف لا يتناول برواياته فترة كبيرة من الزمان
وهو لا يربط بين أجزائها ربطاً يراعى الوقائع كما هي ويراعى ترتيبها التاريخي .

(ت)

وبعوزه ترتيب الحوادث ترتيباً تاريخياً مُطَرِّداً ، فهو لا يذكر إلا تواريخ متفرقة ، وفي كثير من الأحيان لا يذكر إلا اليوم الذي وقعت فيه الحوادث بين أيام الأسبوع من غير ذكر الشهر والسنة ؛ فهو لا ينظم الحوادث في خيط يصل بينها ، بل يصف كل حادث على حده مستقلاً عما عداه ، ويسهب في ذلك أكبر الإسهاب من غير أن يهتم بالاختصار على ما هو جوهري ، ويذكر ابن النديم صاحب كتاب الفهرست لأبي مخنف اثنين وعشرين كتاباً بعنوانها .

وما يتميز به أبو مخنف أن رواياته لا تبتدئ بصدر الإسلام ، بل هي لا تبدأ إلا بعصر الفتوحات ، وأنه يخبرنا في الأغلب عن فترة كان هو نفسه يعيش فيها ، وهي تبدأ بموقعة صفين . ويرجع إلى ذلك أن اهتمامه اقتصر على المكان الذي كان يعيش هو فيه ، أعني على العراق وعاصمته الكوفة . أما فيما عدا هذه الفترة المحددة وهذا المكان المحدد فليس عنده علم صحيح يختص به . ونظراً إلى أن الكوفة والعراق كانت مقر الحزب المعارض لحكومة الدولة فإن أبا مخنف يتكلم خصوصاً عن ذلك ، والموضوعات التي يتناولها بتفصيل وشغف خاص هي ثورات الخوارج والشيعة ، التي كان على رأسها المستورد بن علفة التيمي وشبيب بن يزيد ومجهر بن حدي والحسين ابن علي وسليمان بن صرد والمختار الثقفي ، وثورة أهل العراق بقيادة عهد الرحمن بن الأشعث . فأبو مخنف يمثل الروايات العراقية ، وهواه في جانب أهل العراق على أهل الشام وفي جانب علي بن أبي أمية ، ومع ذلك فإن الإنسان لا يلاحظ عند أبي مخنف شيئاً من الإغراض يستحق الذكر أو هو على الأقل لا يلاحظ إغراضاً من شأنه تزيف الوقائع تزيفاً إيجابياً ، وكل ما يمكن أن يقال هو أن أبا مخنف ، فيما يظهر ، قد أغفل في بعض الأحيان شيئاً مما لا يعجبه كإغفاله مثلاً أن عقيل بن أبي طالب كان في موقعة صفين يحارب في صفوف أعداء أخيه علي بن أبي طالب .

(ث)

وقد اعتمدتُ على أبي مخنف خاصة في بحثي الذي كتبتُه عن أحزاب المعارضة الدينية - السياسية في صدر الإسلام^(١) . أما في تاريخ الدولة العربية الذي هو موضوع هذا الكتاب فإن أبا مخنف لا يقدم المادة العزيرة التي يستطيع المؤرخ أن يستفيد منها ، وليست الروايات الكوفية هنا هي أحسن مرجع ، بل أصدق مرجع هو للروايات المدنية ، فهي أهم الروايات القديمة ، وهي من حيث أصولها أقدم من الروايات الكوفية ، غير أن أصحابها الذين وصلت إلينا عنهم روايات كافية أحدث عهداً من أبي مخنف ، وهم لم ينهوا إلا في العصر الذي بدأت فيه حركة التأليف تنتقل من المدينة إلى بغداد . وأهم حملة هذه الروايات المدنية هم خصوصاً ابن إسحاق ، وهو مولى ، وأبو معشر ، وهو مولى أيضاً ، والواقدي ، وهم لم يكونوا يجمعون مادة الروايات من مصادرها الأصلية ، كما فعل الرواة قبلهم ، بل إنما وصلت إليهم الروايات من حفظ رواية العلماء لها ، وهؤلاء نظروا فيها ونخلوها وكتبوها من جديد ومزجوا بينها ، ولكنهم ، خصوصاً ، ربطوا بينها ربطاً أوسع وأدق مما كان قبلهم ، وهم في الوقت نفسه رتبوها ترتيباً زمنياً مطّرداً ، بحيث خرج على أيديهم من الروايات المفككة لأخبار الأحداث الكبرى المتفرقة تاريخ متصل . ويمكن أن يُعتبر ابن إسحاق مؤسس هذا التاريخ ، وهو يتميز ، هو ومن جاء بعده ، بكتابة التاريخ في صورة ذكر الأحداث التي وقعت في كل عام ، وهي الصورة التي أصبحت متبعة . أما ترتيبهم للحوادث بحسب تاريخ وقوعها فهو يقوم على بحث هلمى وعلى موازنة . ولم يقصر علماء المدينة في ذلك ، بل وصلوا إلى نتائج ثبتت أمام التحييص إلى درجة تسترعى النظر ، ويجوز أنهم قد استطاعوا

(١) [يشير المؤلف إلى بحثه بعنوان Die religiös-politischen Oppositionsparteien im alten Islam ، وهو ضمن رسائل الجمعية الملكية لعلوم في مدينة جوتينجن ، القسم الفيلولوجي التاريخي ، السلسلة الجديدة ، مجلد ٥ عدد ٢ ، عام ١٩٠١ - المترجم] .

(خ)

في بعض الأحيان ، أن يعتمدوا على ما كتبه رهبان النصارى وخصوصاً
السريان ، وذلك ، على سبيل المثال ، فيما يتعلق بذكر تاريخ الزلازل وغيرها
من الأحداث الطبيعية . ويلاحظ الإنسان كيف ازداد شأن الاهتمام بوضع
الحوادث موضعها في الترتيب الزمني . ثم جاء خلفاء ابن إسحاق فزادوا
عليه في كمال الترتيب التاريخي (Vaquidi p. 15s.)^(٢) . أما أبو معشر فيظهر
أنه لم يكن له اهتمام ولا مقدرة إلا في معرفة التواريخ ، وهذا الاهتمام هو
الغالب أيضاً على الواقدي . وليراجع القارئ فيما يتعلق بالصلة بين هذين
المؤرخين الطبري (ج ٢ ص ١١٧٢ ص ١٠ و ص ١١٧٣ ص ٦) .

وكانت المدينة نواة الجماعة الإسلامية وقلب الدولة العربية ، وقد كان
ما للمدينة من أهمية كبرى نظراً لما كان يتولد فيها من عوامل التطور في التاريخ
العالمي هو الذي جعل للروايات التي نمت فيها طابعها الخاص . وكان أول
ما اهتمت به الروايات المدنية بطبيعة الحال هو ذكرى أوائل ذلك العهد
الحبيد المقدس ، أيام كان الإسلام لا يزال وحدة غير منفصلة العرى من
الناحية الدينية والسياسية ، وكان بطمح لأن يُوحّد العالم كله تحت رايته ،
وكانت الموضوعات الكبرى التي يظهر أن ابن إسحاق قد اقتصر عليها من
تلك الروايات هي السير والمغازي - أعني سيرة النبي عليه السلام وتأسيسه
للأمة الإسلامية وتأسيسه هو وخلفاؤه من بعده للدولة الإسلامية في فترة
الفتوحات . ولكن الروايات المدنية لم تُغفّل ما يتعلق بقاب الدولة وبسائر
أنحائها ، حتى بعد أن انتقل مركز الثقل في الدولة من المدينة إلى دمشق ،
فلم تنتقل الروايات نفسها إلى دمشق ، بل بقيت - المدينة ، وظلت المدينة ،
حتى في أيام بني أمية ، مقر الطبقة الأرستقراطية من العرب ، وليس هذا
فحسب ، بل ظلت أيضاً المركز الروحي للثقافة الإسلامية إلى أن حلت بغداد من

(٢) يقصد المؤلف كتابه بعنوان *Muhammed in Medina* ، وهو ترجمة مختصرة

لكتاب المغازي الواقدي ، وقد ظهر في برلين ١٨٨٢ م .

(ذ)

هذا الوجه محلها . وقد استرعى اهتمام علماء المدينة تاريخ الدولة العربية ، حتى فيما يتعلق بتطوره السياسى الدينوى الخالص ، وإن كان علماء المدينة لم يكونوا راضين عن الحكومة . ولقد كان اهتمامهم بالشام أكثر بكثير من اهتمامهم بالعراق أو حتى بخراسان ، ونجد أنه عند أبى معشر والواقدى لا تزال تتكرر بانتظام الأخبار الرسمية - إذا صح التعبير - كالمعلومات المتعلقة بتاريخ ولاية الخلفاء وتواريخ وفاتهم ، ومتى كان يعين أهم الولاة ومتى كانوا يُعزلون ، ومن الذى كان يحج بالناس فى كل عام ، ومن الذى كان يقود الحملات الحربية التى كان يوجهها الخلفاء لمحاربة الروم . وهذه المعلومات تكون سدى كتب التواريخ المدنية التى تذكر حوادث السنين ، وإنما يزيد ما ينسج حولها من مادة الروايات إذا كانت هذه تتعلق ببعض الأزمات والأعمال الكبرى ، أما فى العادة فهذه المادة ليست غزيرة ، واهتمام العلماء منتجاً إلى الوقائع الجافة ، بحيث لا يجد الإنسان كثير شيء من الولوع بالتفاصيل ومن التمسس للحوادث ومن العطف على الأشخاص الذين تدور حولهم الروايات . ولم يكن فى المدينة ميل لبنى أمية ولا لأهل الشام ، فلا يستطيع الإنسان أن ينتظر منهم أكثر من الحكاية الموضوعية :

ولا شك أنه قد كان هناك عند أهل الشام أيضاً ، أحنى عند عرب الشام ، ماثور من الروايات ، ولكن هذا الماثور ضاع ولم يصل إلينا . ويجد الإنسان آثاراً له عند البلاذرى ، وربما وجدها أيضاً عند حوالة الكلبي ، الذى كان يقطن الكوفة ، ولكن كانت له من طريق قبيلته صلات بالشام ، ويذكره الطبرى فى كثير من الأحيان عند روايته لأخبار الشام ، وذلك بحسب رواية ابن الكلبي عادة . أما روح هذا الماثور الشامى فيستطيع الإنسان أن يعرفه أحسن معرفة إذا رجع إلى كتب التاريخ النصرانية خصوصاً إلى كتاب الصلة لتاريخ إيزيدور (Continuatio des Isidor von Hispalis) . فالأمويون فى هذه الكتب

(ض)

النصرانية يظهرون في ضوء آخر مغاير كل المغايرة لما في الكتب الأخرى ، وهو يظهرهم على صورة أحسن بكثير من الصورة التي اعتدنا أن نراهم عليها ، أما في كتب التاريخ العربي فقد كانت الكلمة الأخيرة لأعدائهم ، وقد ألحق ذلك بتاريخهم ضرراً كبيراً .

والمداني يدبوا ما يشبه أن يكون مكاناً وسطاً بين أبي مخنف وبين مؤرخي المدينة ، فهو مؤرخ عالم ، لكنه يُسهب في الرواية ، وله اهتمام إقليمي ظاهر فما يتعلق بالبصرة وخراسان ، وتكاد كل الروايات المتعلقة بهما تكون مأخوذة عنه ، هذا إلى أنه يمثل وجهة النظر العباسية تماماً ، وهو يروي سقوط بني أمية وقيام الأسرة المباركة رواية تتمشى مع ذلك .

وإن أكتفى بهذا القدر من الكلام في بيان ما يختص به هؤلاء الرواة الكبار عند الطبري ، وهو في بعض أجزاء كتابه يروي عن كثيرين من الرواة الآخرين الذين ضاعت كتبهم ولم تصل إلينا ، ولكني لا أريد في هذا المقام أن أُلِمَّ إلزاماً وإهياً بأقدم تدوين كان للتاريخ العربي ، خير أنه قد بدا لي أنه لا بد من إرشاد القارئ إلى أصول هذا التاريخ ، وفي هذا يكفي ما قدمته ، ويستطيع القارئ إذا أراد الاستكمال ، أن يرجع إلى فهرس فوستنفلد في المجلدين الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من رسائل جمعية جوتينجن

(Abhandlungen der Göttinger Societät)

وقد كان مقصودي في أول الأمر أن أتناول عصر بني أمية على نحو ما تناولت عصر الفتوحات الكبرى في القسم السادس من كتابي (Skizzen und Vorarbeiten وأن أعتنوه بنفس العنوان (وهو Prolegomena zur ältesten Geschichte des Islams = مقدمة لدراسة تاريخ فجر الإسلام) ، ولكنني هناك استطعت أن أكتفي بأن أضع ما ذكره سيف بن عمر لزاء سائر

(ظ)

الروايات الأخرى المذكورة عند الطبرى ، وأن أبين أنه تحوير مُغرض
لهذه الروايات . ولكن ما يذكره سيف ينتهى عند موقعة الحمل ، ومنذ
تلك الموقعة لا يمكن القيام بالنقد التاريخي طبقاً لوجهة نظر تظل ثابتة هي
هي ، ولا يستطيع الإنسان منذ تلك المعركة أن يسير مهتدياً بما دُون من
روايات ، بل يجب عليه أن يحكم على الحوادث حكماً يستند إلى أسس من
الواقع ، مهتدياً من واقعة إلى واقعة غيرها ، كما يجب عليه أن يتعمق في
بحث قيمة ومبررات كل قضية وأن يسير على طريق فيه كثير من النقد والتخبر
بين الروايات وفيه أيضاً كثير من محاولة التوفيق بينها . على أن الراية يتفاوتون
دائماً في مقدار استحقاقهم للثقة ، ولكنهم لا يختلفون في رواياتهم إلا بين
آونة وأخرى ولا يختلفون دائماً في الاتجاه الواحد ، وإذا أمكن التمهيص
ولم يكن منه بد فإنه يصبح أشد صرامة وأقل سماحة ، ولكنه ليس دائماً
ممكناً ، لأن المادة التي نحت يد الباحث لا تكن للكل ، وهو أيضاً ليس
دائماً ضرورياً ، لأن الرواة مضعفون أو هم تكمل رواية بعضهم رواية البعض
الأخر . وفي كثير من الأحيان يمكن ، ويجب ، أن يستعاض بذلك
الروايات كما هي عن التمهيص لها . وإذا أردنا أن نقارن بين ما كتبناه أولاً
وبين ما نكتبه الآن فلنأنا نقول إن ذكر الروايات كما هي هو الغالب في هذا
الكتاب ، أما إذا حُبب علينا المزج بين طريق الرواية والتمهيص فلنأنا نقبل
ذلك على أنفسنا ، فقد كانت ضرورة مراعاة ما في الروايات من تنوع
التفاصيل هي السبب في تنوع طريقتنا في بيان الموضوع . على أنه فيما يتعلق
بمعالجة كثير من المسائل لم نتمكن من ذلك مادة البحث بقدر ما نحفز
إليه سألنا من الكتاب ، ولم يكن لي بد من أن أجيب في بعض المشكلات
إجابة تختلف عن إجاباتهم :

فَلِهَوَزَن

جوتينجن في يولييه ١٩٠٢

الفصل الأول

مقدمة

١ - نشأت الجماعة السياسية في الإسلام من الجماعة الدينية ، ويكاد أن يكون اعتداء محمد [عليه السلام] إلى طريق الحق^(١) قد حدث مع نهوضه لتبليغ الرسالة . نعم ، هو قد بدأ بنفسه ، وكان أول ما استولى على قلبه اليقين بالله القادر على كل شيء واليقين بيوم الحساب . ولكن ذلك اليقين الذي ملأ نفسه كان من القوة بحيث فاض عنها ، فلم يجد بداً من أن يرشد إخوانه إلى نور الهدى وإلى «الصراط المستقيم» ، ليخرجهم من ظلمات الخيرة وينقذهم من متاهات الضلال ، ولم يلبث حتى أنشأ في مكة جماعة دينية صغيرة^(٢) .

وكان الذي يؤلف بين قلوب هذه الجماعة هو الإيمان بإله واحد ، لا تدركه الأبصار ، خالق هذا العالم ، ومحاسب كل نفس بما كسبت ، كما كان يجمع بينها عبداً خلق بلزم عن ذلك ، وعباده أن يعبد الإنسان الله ، لا يشرك به شيئاً ، وأنه

(١) [يستعمل المؤلف كلمة *Bekehrung* ، ومعناها الانتقال من عقيدة إلى عقيدة ، ويحوز أن يقصد شيئاً من قبيل ما جاء في القرآن من قول الله للنبي عليه السلام « ووجدك ضالاً فهدى » أو من قبيل ما يؤثر عن النبي متعلقاً بكيفية بدء الوحي ، على أنى لا أعرف من مصنفات المؤلف الأخرى سوى اعتباره النبي عليه السلام أحد الخنفية الذين أهرسوا عن الشرك الجاهل . أما الحق فهو أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول كارسل قبله . ولا يوجد دليل على رسالة كارسل إلا وهو موجود على رسالته . والقرآن هو الدليل على رسالته ، وهو مهما اشترك مع الملتزمة والإنجيل في بعض المادة فهو يختلف عنهما - المترجم] .

(٢) [وفي رأى المؤلف في كتابه عن الوثنية الجاهلية أن تأسيس جماعة دينية هو الفارق بين النبي عليه السلام وبين الخنفية . والحق أن الخنفية بحسب الشواهد التاريخية ، هم بقايا دين تظايراهم عليه السلام ، وهو الدين الذي كان لا يزال حتى عهد النبي موجوداً في مكة . والفرق كبير بين الخنفية وبين النبي ، كما أنه كبير بين اليهودية والنصرانية من جهة وبين الإسلام من جهة أخرى - المترجم] .

يسمى إلى نجاة روحه من شرور الدنيا ، زاهداً في حطامها ، وأن يتشد الحق والعدل ،
والخير والرحمة ، ولا يشهد متاع الدنيا . وللتوحيد ، كما يتجلى في أقدم سور القرآن ،
صبغة خلقية كاملة ، وهي لا تقبل في قوتها عما نجده عند حاموس النبي أو في خطبة
الجبل^(١) . والإيمان بالخالق لا يكاد يدخل القلب حتى يبعث فيه^(٢) ، كما هو الحال .
في الإنجيل^(٣) ، فكرة أن كل إنسان ، بعد مفارقتها هذه الحياة ، مسئول^(٤) عما
كسبت يده . وهذا الإيمان من شأنه أن يستولى على الروح استيلاء تاماً ، وهو
لا يكتفى بأن يبعث في نفس الإنسان الرضا بإرادة الله ، بل هو يدفعه أيضاً إلى
العمل بما يريد الله . والإسلام الأول ليس استسلاماً (Fatalismus) بالمعنى السائر
هذه الكلمة ، وليس إلهة عبارة عما يسمى المطلق (Das Absolute) ، أخفى
أن الإسلام ليس إيماناً بشيء غير مفهوم ، هو إلى السلب منه إلى الإيجاب أقرب ،
بل إله الإسلام هو الذات التي لها القدرة على كل شيء ، والخير والعدل في حقيقتها
ملازمان للقدرة ، لا ينفكان عنها . ويبرز في القرآن شأن القدرة الإلهية تارة وشأن
العدل الإلهي تارة أخرى ، وذلك بحسب ما كان يحسن به النبي [عليه السلام] ،
دون مراعاة للتوازن بين الطرفين ، ولا يشعر محمد [عليه السلام] بما في ذلك من
تناقض ، لأنه لم يكن فيلسوفاً ولا واضعاً للذهب نظري في العقائد (Dogmatiker)^(٥) .

(١) [كلام حاموس النبي موجود في التوراة ، وخطبة الجبل هي من كلام السيد المسيح عليه السلام ، وهي في الإنجيل - المترجم] .

(٢) [ويقصد المؤلف أن هذا في الإسلام ، لأن الكلام هنا عن الإسلام أولاً وقبل كل شيء - المترجم] .

(٣) [يقصد المؤلف أن الذات الإلهية في الإسلام ذات حقيقية لها صفات الخلق والتدبير والعناية ، وذلك في مقابل إله الفلاسفة الذي هو أشبه بمعنى مجرد - أما ما يقول عن رجحان الكلام عن القدرة في القرآن تارة ورجحان الكلام عن العدل تارة أخرى بحسب أسئلة النبي النفسية فهذه نظرية بعض المستشرقين في الآيات المتشابهة في القرآن سواء آيات الصفات الإلهية أو الآيات المتعلقة بالمشيئة الإنسانية وعلاقتها بالمشيئة الإلهية (مسألة الجبر والاختيار) . والحق أن القرآن منه ما هو محكم ومنه ما هو متشابه ، وهذا المتشابه هو تفصيل الحكم ، ولو تأمل الإنسان القرآن تأملاً عقلياً فلسفياً لوجد أنه فيها يتعلق بذات الله يتكلم عنها في ذاتها أحياناً ، ...

وكان يربط بين الجماعة الإسلامية من الخارج القيام بعبادات واحدة ؛ وإذا كانت أقدم تسمية أطلقها على المسلمين من لم يدخل في زميرتهم هي تسميتهم بالصابئين ، فلا يمكن أن يكون لها سبب غير ذلك (١) . وتدل أقدم سور القرآن على وجود صلوات وركوع وسجود وتهجد في الليل ، غير أنها لم تكن قلة جددت ونظمت على النحو الدقيق الذي نجده فيما بعد .

وكان أول من اتبع عمداً [عليه السلام] أفراد ، من أصدقائه وأقربائه ومن الموالي والرفيق ، غير أنه كان يعتبرهم طلاباً لأتباعه ، لأن طموحه كان منذ البداية متجهاً إلى ضم أهل مكة جميعاً إلى دعوته : عشيرته من بني هاشم وعبد المطلب ، وقومه قريش . ولقد كان محمد [عليه السلام] حربياً ، فكانت له ، بحكم ذلك ، إحساسات بالشعيرة والقبيلة (أهي ما يقابل الأمة) على النحو الذي نحس به نحن بما يربطنا بالأسرة في نطاقها الضيق . [أما الدولة] من حيث هي نظام منفصل عن الجماعة ومستقل عنها في وظيفته ، ومن حيث أن لهذا النظام سلطاناً يخضع له الناس ، فلم يكن بعد ذلك وجد بين العرب ؛ بل كانت الدولة عندهم هي الجماعة في مجملتها (Collectivum) ، ولم تكن هيئة لها نظامها الخاص (Institutur) ولا كانت لها أرض محددة . فلم يكن هناك في الحقيقة دولة (Staat) وإنما كانت هناك

— وهو أحياناً أخرى يتكلم عنها مجازاً للدلالة على صفاتها ، وهذا هو معنى الآيات التي فيها ذكر اليد والعين بالنسبة لله ، ولوجد أيضاً أن القرآن فيما يخص بأفعال الإنسان ومشيته يتكلم عن دخول ذلك في دائرة المشيئة والقدرة الإلهية — وهذا صحيح وهو الحق في أمر الخالق والمخلوق وليس في القرآن مطلقاً ما ينفي مشيئة الإنسان وفعله ومسؤوليته ، بل فيه ما يؤكد ذلك ، ولكن بحيث لا يشعر المخلوق أنه مستقل عن خالقه في الفعل والمشية ، لأنه إذن لا يكون مخلوقاً ؛ فلا تناقض في القرآن بل فيه بيان للعلاقة بين المخلوق والخالق — راجع ما قلناه في مسدا في تعليقه على فكرة شبيهة بما يقوله المؤلف هنا — وذلك في كتاب « تاريخ الفلسفة في الإسلام » لدى بور ص ٤٦ - ٦٦ من الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٤٨ - المترجم [.

[ربما يكون قصد المؤلف ما لوحظ من شبه بين بعض عبادات الصابئة وبعض العبادات الإسلامية وما قيل من أن الصابئة هم الحنفية أتباع دين إبراهيم عليه السلام — راجع تاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بور ص ١٩ (هامش) — المترجم]

أمة (Volk) ؛ فلم يكن هناك نظام [سياسي] من صنع الإنسان ، بل كان هناك كيان اجتماعي طبيعي بالغ درجة النماء ؛ لم يكن هناك موظفون يدبرون شئون الجماعة بالمعنى الذي نعرفه في الدولة ، وإنما كان هناك رؤساء العشائر والبطون والقبائل (١) ؛ ولم تكن الأمة تتميز عن الأسرة إلا بأنها أكبر من الأسرة . أما اللحمة التي كانت تؤلف بين أفرادها فهي نفس اللحمة التي تربط بين أفراد الأسرة ، أعنى لحمة الدم ، فكانت وحدة الجماعة تقوم على لحمة الدم وعلى تقديس هذه اللحمة ، دون حاجة إلى قوة من خارج تقهر الجماعة على التماسك . وكان للاشتراك في النسب أو للاعتقاد بهذا الاشتراك - وهما من حيث النتائج العملية شيء واحد - ما للدين من تأثير ، وكان هذا الدين بمثابة الروح التي تجعل القبيلة كالجسد الحي الواحد ؛ وإلى جانب روابط الدم والنسب كانت هناك روابط للاشتراك في شعائر دينية ظاهرة ، ولكن لم يكن هناك دين له من قوة الإلزام وتوثيق أواصر الوحدة بين الناس شيء يفاير ما لتأثير رابطة الدم والنسب . ولقد كان في وسع محمد (عليه السلام) ، من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتقبي الدائرة التي ترسمها رابطة الدم ، أن يحطم رابطة الدم هذه لأنها لم تكن يرثى من العصبية وضيقها ، ولا كانت ذات صبغة خارجية عارضة ، هذا هو الذي جعلها لا تتسع لقبول عنصر غريب ضئ . ولكن محمداً [عليه السلام] لم يرد ذلك ، ومن الجائز أيضاً أنه لم يكن يستطيع أن يتصور إمكان رابطة دينية في حدود غير حدود رابطة الدم (٢) ، ولذلك فإنه لم ير أن رسالته هي أن

(١) ولا يزال أهل البادية حتى اليوم ميالين إلى أن يتصوروا الدولة ، أعنى الدولة التركية ، على أنها قبيلة وإلى أن يقيسوا قوتها بحسب ما تملكه من الإبل (Doughty 1, 230) . وكذلك الحال بالنسبة للسن ، فلم تكن المدينة (Polis) هي الوحدة السياسية بل كانت القبيلة هي هذه الوحدة ، مثل قريش في مكة وثقيف في العائف . وكان كل من القرشيين والثقيفيين يسمرون بأنهم مرتبطون من الناحية السياسية ، حتى عندما كانوا يقطعون سائر مكة أو الطائف .

(٢) [هذا يخالف الواقع ، لأن الدعوة الإسلامية جاءت للناس كافة ولأن القرآن والحديث قد أعلن أن الناس جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم كلهم أمة واحدة ومنشؤم من أصل -

يضم إلى دعوته أتباعاً متفرقين هنا وهناك . نعم ، كان لابد له أن يبدأ بضم أفراد ، لكنه كان يرمى إلى ضم الجماعة كلها فكان يطمح إلى أن يعمل أمته العربية كلها جماعة دينية له ، أما إنشاء جماعة دينية صغيرة مضطهدة (ecclesiola pressa) في مكة فهذا ما لم يكن ليَرْضَى طموحه ؟

فلما لم يوفق إلى هداية قومه قريش في مكة إلى الإسلام ، حاول أن يتصل بقبائل ومدن أخرى . وقد أتاحت له الأسواق والأعياد التي كانت تعقد حقول مكة سبيلاً إلى ذلك ، فعرض على شيوخ ثقيف في الطائف أن يدخلوا في الإسلام هم وقومهم جملة . وأخيراً وضع قدمه في يثرب ، أعنى المدينة ، وكانت هجرته إليها حادثاً جديلاً ، بدأ به عهد جديد ، على أن هذا العهد الجديد لم يكن معناه التنصل من الماضي تنصلاً مقصوداً ، لأن محمداً [عليه السلام] لما صار رئيساً سياسياً ، بعد أن كان مباشراً ونديراً لم يتنكر لنفسه ، وذلك أنه منذ البداية لم يكن يرمى إلى اجتلاب أفراد ، بل إلى ضم القبائل بجماعتها ، وكان من أول الأمر أيضاً يرى أن النبي هو الرسول الذي يرسله الله ليكون على رأس قومه ، ولم يكن يفصل بين الجماعة السياسية والجماعة الدينية . وهو إذا كان قد أراد أن يظل في المدينة على ما كان عليه في مكة من قبل ، وهو أن يكون نبي الله ورسوله ، فلم يكن ذلك منه لعباً ولا نفاقاً ، لكنه في مكة لم يوفق . أما في المدينة فقد نجح وشق الطريق . هو كان في مكة فائراً على قومه مخالفاً لما هم عليه ، أما في المدينة فقد بلغ ما كان يرمى إليه : وقد أحدث هذا تغيراً كبيراً لا مجرد فرق ظاهري ، وذلك أن

= واحد وإن أكرمهم عند الله أتقاهم ؛ وكان فرض الدعوة الخروج بالناس من ضيق العسيرة القبلية والجنسية إلى أفق الإنسانية الموحدة . وهذا ما صرح به في القرآن والسنة . أما الاعتماد على مؤمنين يحملون الدعوة وينشرونها ويمنمونها من أصدائها بفضل ما يكون بينهم من التحام بالنسب وبفضل ما ينشأ من ذلك من قوة فهو لا يتعارض مع الغاية الكبرى التي تحققت فعلاً . ومعنى المواطن في الدولة الإسلامية هو المؤمن بالله والمتبع لوصي أنزله الله سواء كان مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً ، غير أنه في الدولة الإسلامية تكون مهمة حكم الدولة والدفاع عنها للمسلمين وحدهم ، ولهذا فرضت الجزية على أهل الكتاب لأنهم مغفون من الواجبات الحربية - المترجم [.

المعارضة دائماً تتغير عندما تصل إلى الرياسة (١) وأن السياسة عند تطبيقها تبعد كثيراً عن الفكرة التي عليها ، لأن تقديرها للأشياء يكون في أول الأمر بحسب الإمكان لا بحسب الواقع . ولا تستطيع جماعة لها تاريخها أن تنكر للأسس الموجودة التي تقوم عليها تنكراً تاماً ، والقوة - إذا أرادت أن تحافظ على كيانها وأن تزداد - لا بد لها من أن تجري على سنتها الخاصة بها ، وهذا هو الذي يفسر لنا أن النبي صار رئيساً سياسياً تغير عما كان عليه لما كان لا يزال طامحاً في الرياسة ، وأن الحكومة التيوقراطية (Theokratie) ، من حيث السياسة الفعلية ، تغيرت عنها لما كانت فكرة . وعلى هذا صار الطابع السياسي يزداد بروزاً والطابع الديني يزداد تراجعاً ، ولكن على الإنسان مع هذا ألا ينسى أبداً أن الدين والسياسة امتزجا وسار يداً بيد ، وإن كان قد جعل يتميز بين السياسة الدينية والسياسة الدنيوية ، وبقي للتقوى إلى جانب ذلك مكانها في القلوب .

٢ - وكانت اليهودية والنصرانية قد مهدتا الأرض في المدينة لعمد [عليه السلام] ، فكان هناك كثير من اليهود ، وكانت المدينة تقع على حدود ذلك الجزء من جزيرة العرب المعرض للتأثير اليوناني - الروماني والنصراني - الآرامي . أما الأحوال السياسية فكانت موالية له أكثر من ذلك ، ففي مكة كان يسود الهدوء والنظام ، وكانت العوامل التي تربط بين الجماعة تؤدي وظيفتها على نحو مرن ، ولذلك أحس المكيفون بأن الشيء الجديد الذي أراد النبي أن يدخله في مكة نظام يهدد حياتهم ويكلر صفوها ، فعمدوا على القضاء عليه . ولكن

(١) [إن المؤلف هنا ونما يل يصر في القياس السياسي . ولقد كانت رسالة النبي عليه السلام أن يؤسس ديناً ويكون أمة وينشئ دولة ، وقد تم له ذلك كله . وقد كان لهذا بطبيعة الحال مقتضيات فرضتها طبيعة الأشياء وطبيعة التطور في الدين وتكوين الأمة وإنشاء الدولة ، وكل ذلك بإرشاد إلهي هو الذي نجده من أول الأمر إلى آخره مسجلاً في القرآن . ولا يصح أن يصرّف المؤرخ في اعتبار التطور تغيراً وتحولاً ولا وضع النظام السياسي طغياناً على المصلحة الدينية - المترجم] .

درهاط الدم والنسب لم يكن له في جميع أجزاء جزيرة العرب من القوة ما كان له في مكة ، وهو لم يكن في جميع مراتب التلاحم في النسب بقوة واحدة ، بل كان في الدوائر الصغرى للنسب أقوى منه في الدوائر الكبرى ، فكان في الأولى طبعاً وفي الثانية التزامياً ، ولذلك كان ما من شأنه أن يجمع الشمل يصبح سبباً من أسباب الانحلال ، إذا تعارضت مصلحة الأسرة مع مصلحة العشيرة أو مصلحة القبيلة ، وخصوصاً لم تكن الأسرة تستطيع أن تتخلى عما يوجبها عليها الأخذ بالثأر حتى من الأسر التي يجعلها النسب وإياها قبيلة واحدة ، وعند ذلك تتوارث القبائل إحسان الثرات وحروبها ، لأنه لم تكن هناك قوة فوق قوة المتخاصمين تستطيع أن تفرض السلم على الناس وتعاقب من يخلف به منهم . وهذه الأحوال سمحت قد طرأت في المدينة ، فانقسمت الجماعة فيها إلى معسكرين متعادين ، هما الأوس والخزرج ، فكان القتل والسفك شيئاً مألوفاً ، ولم يكن أحد يجرؤ على الخروج من حبيته دون أن يعرض نفسه للخطر ، وسادت المدينة حالاً من قلة الأمن جعلت الحياة فيها غير ممكنة ، فكانت الحاجة ماسة إلى رجل يدخل في الفرجة المفتوحة بين الفريقين ويقضي على الفوضى لكن كان لا بد أن يكون رجلاً محايداً ، لا تشوبه شائبة التورط في المناهضات الداخلية بين القبيلتين ، ولذلك جاء النبي من مكة في الوقت المناسب ، وكأنما نودى لذلك ، سولاً كانت لحمة الدم قد فشلت في أن تكون رباطاً يولف بين الناس ، فقد أحل النبي محلها رابطة العقيدة ، وهو قد نجاء ومعه قبيل من المؤمنين ، هم الذين هاجروا معه من مكة ، وقد كون في المدينة على أساس الدين جماعة موحدة ، من حيث أنها «أمة الله» ، ولكن ذلك لم يكن دفعة واحدة ، ولا كان بدون مراحل متعددة ، بل هو تحقق بخطى مستمرة ثابتة . ولم يكن محمد [عليه السلام] يستطيع أن يؤسس جماعة لها رياسة دينية (١) ،

(١) [يقصد المؤلف إنشاء رئاسة دينية يتحدد موقفها إزاء الرياسة السياسية التي تكون عند ذلك قائمة ، كما تحددت الرياسات الدينية الناشئة في داخل الدولة أيام انتشار النصرانية - المترجم] .

حتى لو أنه كان يريد ذلك ، لأنه لم تكن هناك دولة بعد [ولا رياسة على الإطلاق] وكان الأمر اللازم إذ ذاك هو الواجب الأول الذي ينحصر في إقامة النظام والسلام والقانون . ولما لم تكن هناك سلطة أخرى غير سلطته ، فقد أخذت السلطة الدينية مكان الصدارة وصارت لها القوة وتوطدت أركانها بفضل أنها حققت ما كان يُرجى منها : وقد أبدى محمد [عليه السلام] مواهب شخصية ، وذلك بأن أثبت في تدبيره للأمور جدارة كاملة : وكان إذا ارتاب في أمر ، يسأل أهل ذلك الأمر ، وكان من حسن حفظه أنه وجد بين المهاجرين معه في مكة ، وكانوا هم أقرب دائرة تحيط به ، رجالاً يعتمد عليهم ويستطيع أن يثق بهم .

وفي هذه الأحوال تجلت قوة الدين ، ولها طابع سياسى غالب ، فأنشأ جماعة وأوجد فوقها سلطة مطاعة : وكان الله هو رمز رئاسة الدولة ، والشئ الذى يحدث عندنا اليوم باسم الملك كان يحدث هناك باسم الله ، وكان الجيش يسمى « جيش الله » : وكانت النظم تسمى بأن تُنسب إلى الله . وهكذا ظهرت بين العرب من طريق الإيمان بالله فكرة الرياسة بعد أن كانت حتى ذلك الحين بعيدة عن أذهانهم ، وقد ظهرت بظهور ذلك فكرة أخرى ، هى أن الحق فى السيادة لا ينبغي أن يكون لقوة إنسانية تفرض نفسها على الناس من خارج ، بل هو إنما يكون لسلطة فوق الإنسان ، يعترف بها الإنسان فى قرارة نفسه . والحكومة القوقراطية معناها إنكار الملك [الدنيوى] الذى يوضع فى يد الإنسان ، وليست السلطة المخولة للحاكم قسرية خاصة بتصرف فيها صاحبها على النحو الذى يعود عليه بالنفع ، بل الملك لله ، ولكن وكيله الذى يعرف ما يريد والذى ينفذه هو النبي ، فليس النبي مجرد مُبَلِّغ للحق ، بل هو أيضاً الرئيس السياسى الشرعى الوحيد على الأرض ، ولا يوجد إلى جانبه مكان الملك ، بل ولا لني آخر ، ولا يوجد فى كل زمان سوى نبي واحد : وفكرة النبي - الملك هذه ترجع إلى اليهود فى عصرهم الأخير ، وهى تتجلى على نحو مميز فى الفرق بين صموئيل وشاول ، كما نجد ذلك فى الكتاب .

المقدس : صموئيل الأول ، إصحاح ١١ و ٨ . فالنبي هو ممثل السيادة الإلهية في الأرض ، والله ورسوله يُذكران معاً دائماً ، وهما يدخلان معاً في العقيدة . ويستطيع الانسان أن يُعرّف الحكومة التيقراطية بأنها الجحاحة التي لا يكون على رأسها ملكٌ أو سلطة مغتصبة أو موروثه ؛ بل يكون على رأسها نبي الله وشرعُ الله .

والذي كان راجحاً في فكرة الألوهية هو العدل لا القداسة^(١) ، وكان معنى السيادة الإلهية هو سيادة الحق والعدل ، فكانت الحكومة التيقراطية من هذا الوجه هي حكومة العدل ، ولكن لا يصح أن يخطر ببال إنسان هنا [أن معنى سيادة الله هو] سيادة قانون نظري مجرد لا علاقة له بإرادة ذات حقيقة تريده ، ذلك أنه لم يكن هناك قانونٌ بعد ، وكان « الإسلام » موجوداً قبل نزول القرآن^(٢) ؛ وأيضاً لم تكن الحكومة التيقراطية تشبه نظام الحكومة الجمهورية بأى وجه ، رغم القول بأن جميع رعايا الله يقفون أمامه سواسية ، وذلك أن المميز الأكبر لنظام الجمهورية ، وهو الانتخاب والاقتراع من جانب الشعب ، لم يكن موجوداً بالكلية ، ولم تكن قوة السيادة للشعب ، وإنما كانت للنبي ، فكان له وحدته وظيفته ثابتة بل مقدسة ، وعن السلطة المخولة له كانت تنفرع أنواع السلطان التي دون سلطانه . ولكنه لم يكن يعين موظفين بالمعنى الحقيقي ، وإنما كان يكلف من يشاء بمهام معينة يؤدونها ، وهم بعد أدائها يعودون إلى ما كانوا عليه من تلقاء أنفسهم ، وكان مستشاروه أيضاً رجالاً ليسوا بموظفين ، بل أصدقاء اصطفاهم وجعلهم من خاصته .

(١) [لا يمكن أن يقصد المؤلف أن الله ليس مقدساً . بل المقصود هو أن تصور الناس له يغلب عليه الشعور بعدالة الله . ولكن لا يمكن أن يجد المؤلف من النصوص الإسلامية سنداً لما يقول - المترجم] .

(٢) [يقصد المؤلف غالباً ما جاء في القرآن من أن الإسلام لله دين الأنبياء جميعاً هم ومن اتبعهم وأنه دين الكائنات كلها - المترجم] .

وأبعد ما يمكن أن يُقال في وصف الحكومة الإسلامية الأولى أنها كانت حكومة قديسين (Hierokratie) ، فهي لم تأخذ طابع منظمة ذات قداسة خاصة ومن هذا الوجه لم تكن شبيهة بالحكومة الدينية اليهودية بعد نبي اليهود (١) ، ولم تكن بين المسلمين طبقة من الرهبان ، ولا كان هناك تمايز بين الرهبان وبين غيرهم ولا بين الأمور الدينية والدينية . فكانت الكلمة لله في كل وظائف الجماعة ومنظمتها على حد سواء ، وكان للقضاء والحرب من القداسة ما للصلاة ، وكان المسجد يقوم مقام مكان الاجتماعات العامة ومقام ميدان التدريب العسكري ، وكانت الجماعة هي الجيش أيضاً ، وكان الإمام في الصلاة هو القائد .

ولم تتمخض فكرة السيادة الإلهية عن أية صورة خاصة من صور الدستور (٢) ، ولكن عنصر النظام الذي أدخله محمد [عليه السلام] وسط تلك الفوضى كان على كل حال سبباً في توحيد القوى والعناصر ، لم يكن معروفاً حتى ذلك الحين ، وقد بدا كأنما قد ابتلعت الجماعة القائمة على أساس الدين تلك الجماعات القديمة المقدسة القائمة على رابطة الدم ، ولكن تلك الجماعات بقيت في الحقيقة كما هي ، وإن كان الشأن الأول قد انتقل منها إلى الجماعة الكبرى ، فدخلت الطوائف التي كانت موجودة حتى ذلك الحين ، أعني القبائل والبطون والعشائر ، في الجماعة الكبرى الجديدة ، ولم ينشأ عن الإيمان بالله وسيلة من شأنها أن تحل محلها شيئاً

(١) إن حكومة القديسين عند اليهود بعد نفهم كانت نتيجة السيادة الأجنبية عليهم ، ولم يكن لها استقلال سياسي ، فكانت لذلك تختلف عن الدولة وإن لم يكن ذلك بدرجة اختلاف الكنيسة المسيحية في مرحلة البداية ، وذلك لأنها ، على الأقل ، كانت شاملة للأمة . ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون هناك وجه للمقارنة بالدولة - الكنيسة ، لأن الكنيسة لم تكن دولة بل كانت لها دولة (W. Sichel) . والحكومة الدينية الإسرائيلية القديمة هي وحدها التي تشبه الحكومة الدينية العربية شياً كبيراً ، رغم أن فكرة أن الرئيس الحقيقي في الحكومة الدينية هو النبي لا الملك كانت بعيدة عن الحكومة الدينية الإسرائيلية في مبدأ الأمر .

(٢) [إن الله بحسب القرآن هو الشارع والمهادي للإنسان ولكنه يقول في حق المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) ويقول النبي : (شاؤهم في الأمر) - المترجم] .

آخرة ومبدأ المساواة السياسية بين المسلمين ، وهو المبدأ الذي يلزم عن فكرة الحكومة
التيوقراطية ، لم يُطَبَّقْ على النحو الذي من شأنه أن يحو الفوارق التي كانت
موجودة بالفعل ، فبقى المكبون الذين جاءوا مع النبي [عليه السلام] ، وهم المسمون
المهاجرة ، على حلتهم ، و بقيت إلى جانبهم قبائل العرب التي كانت تسكن المدينة ،
وهو المسمون الأنصار ، على حلتها ، وكذلك بقيت قبائل اليهود في المدينة على
حلتها ، وبقى التابع تابعاً والمولى مولى والنزيل نزيراً ، وإن كانوا قد
اعتنقوا الإسلام .

وقد حفظت لنا الأيام من العصر الأول بعد الهجرة ، قبل موقعة بدر ،
كتاباً (١) لـ [محمد] عليه السلام [يبين بعض النقاط الكبرى في القانون الذي ينظم
الحياة العامة والسياسية وكان معمولاً به في المدينة أول الأمر . ويتجلى من هذا
الكتاب إلى أي حد قد تغيرت الأحوال القديمة ، وإلى أي حد لم تتغير ، وذلك
إذا عرفنا أن المدينة قد أصبحت منذ ذلك الحين أمة واحدة . وكلمة « الأمة »
هنا ليست اسمياً للجماعة العربية القديمة التي تربطها رابطة النسب ، بل هي تدل
على الجماعة بالمعنى المطلق . وهي تدل في العادة على جماعة تقوم على الدين ، ولم
يكن ذلك منذ ظهور الإسلام فحسب ، بل كان قبل ذلك أيضاً ، (ديوان النابغة ،
قصيدة ١٧ ، بيت ٢١) (٢) . وللأمة في هذا الكتاب صبغة دينية أيضاً (٣) ، فهي

(١) [ويسمى أيضاً السحيفة ، والخطاب موجود بنسخة في سيرة ابن هشام بحسب رواية
ابن إسحاق - المترجم] .

(٢) [إن البيت الذي يشير إليه المؤلف في قصيدة النابغة هو هذا :
حلفت فلم أترك لنفسك ربة وهل يأمن ذو أمة ، وهو طالع
ولكن كلمة : أمة ، هنا - وهي تضبط على أكثر من وجه - لا تدل على الأمة بالمعنى
الذي نحن بصدده ، بل على الاستقامة والدين - المترجم] .

(٣) رأس الأمة هو الإمام ، ولكن كلمة الأمة وكلمة الإمام لا ترتبطان ارتباطاً
مباشراً ، وربما لا يكون بينهما ارتباط على الإطلاق ، فالأمة مشتقة من الأم ، أما الإمام فن
فعل أم بمعنى تقدم .

جماعة الله التي ترضى مبادئ السلام ومبادئ حماية الجار [ونصر المظلوم] والله هو الشهيد الذي يشرف عليها ، ومحمد [عليه السلام] يشرف عليها باسمه ، ولكنه مع ذلك لا يوصف قط بأنه نبي (١). فالإيمان هو رباط الاتحاد ، والمؤمنون هم ممثلو معناه ، وهم أول من يجب عليهم الوفاء للاتحاد ، وهم في الوقت نفسه أول من يتمتعون بالحقوق التي ينحولها لهم . وأيضاً فالأمة لا تشتمل على المؤمنين وحدهم ، بل هي تتألف أيضاً من كل من يتبعهم ويحارب معهم ، أي من كل أهل المدينة . والأمة لها منطقة من الأرض إجمالية ، لكل جوف المدينة ينبغي أن يكون حرمًا وأرض سلام ، لا يعتدى فيها أحد على أحد . وكان بين الأنصار قومٌ مشركون ، لكنهم يستبعدون من الأمة ، بل أذنبوا فيها بنص صريح ، وكذلك اليهود شتمتهم الأمة ، وإن كانوا لا ينتمون إليها انتهاءً وثيقاً كالمهاجرة والأنصار ، وإن كان لليهود أيضاً لا تقع عليهم نفس الواجبات وليس لهم نفس الحقوق . وعلى هذا فليست درجة الانتماء للأمة واحدة ، بحيث بقى ما يشبه التمايز العربي القديم بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع ونزيل . ومما له نفس الأهمية أن الأمة رغم أنها كانت تشمل المشركين واليهود ، فإنها لم تكن تتكون من أفراد ، وإنما كانت تتكون من جماعات ، فالفرد لا ينتمي إلى الأمة إلا من طريق العشيرة والقبيلة . فقد جاء في الكتاب الذي نحن بصدده أن بقى القبائل كما هي وأن تدخل في الأمة كما هي ، ولم يخطر على الأذهان قط إمكان تقسيم للجماعة بحسب مبدأ جديد مغاير لما هو معروف ، وكذلك ترك رؤساء القبائل كما هم ، ولم يحل محلهم موظفون دينيون .

أما فيما يتصل بالعلاقة بين الأمة والقبائل وبتمديد سلطة كل منهما وواجباتها فقد بقيت على القبائل النفقات التي ليست ذات صبغة خاصة وخصوصاً دفع

(١) [ولكن يوجد في أول الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم » : هذا كتاب من محمّد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم . . .] المترجم .

الدية وغداء الأسرى ، ذلك أنه لم تكن قد وجدت بعد خزانة للأمة . وكذلك
يتميت للعشيرة والتبيلة مسألة الولاء ، فلا يسوغ لأحد أن يدعو مولى إلى مخالفة
مولاه . بل إن حق الإجارة لم يُقيد ، فلكل فرد الحق في أن يجبر شخصاً غريباً ،
وهو بذلك يُلزم الجماعة كلها ، وإنما حرمت [على أهل هذا الكتاب]
إجارة قريش الذين كانوا الأعداء للأعداء لمحمد [عليه السلام] .

وبمقتضى ذلك أصبح واجباً على القبائل أن تتنازل عن حق الأخذ بالنار
فيما بينها ، أحق من قبائل المدينة ، لأن أول غاية للأمة هي منع الحرب في
الداخل فإذا قام نزاع وجب أن يعرض على القضاء . وجاء في هذا الكتاب :
« وأنكم مهما اختلفتم في شيء فإن مردّه إلى الله وإلى محمد عليه السلام ،
وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن
مردّه إلى الله وإلى محمد رسول الله صلعم » . فإذا تعكر السلام في الداخل
بسبب القتل أو الفساد وجب لا على المخني عليه أو على قبيلته وعلى الجماعة
كلها فحسب ، بل على أقرباء المخاني نفسه ، أن يهبوا متكاتفين عليه وأن
يسلموه إلى صاحب النار لكي لكي يقتاد منه بالعدل . وعلى هذا أصبح
لا يمكن أن يتحول الأخذ بالنار إلى نار يحرثاً ، بل انكسرت شوكتها الخطرة
التي كانت تهدد السلام ، وهذب فئار عقاباً بالمثل ، وكان هذا العقاب
بالمثل موجوداً قبل الإسلام ، ولكن الأخذ به كان نادراً ، وذلك أن جملة
القبيلة كانت معادلة لأجزائها وملتبسة بهذه الأجزاء بحيث لم يكن لها قوة القهر ،
أما في المدينة فقد نُفِذ مبدأ العقاب بالمثل تنفيذاً صارماً ، لأن الله في
المدينة فوق في رابطة الدم ، وكان معترفاً له بسيادة حقيقية من حيث
الفكرة على الأهل ، ولم يكن العقاب بالمثل قد صار عقاباً بالمعنى الحقيقي ،
لأن تنفيذه كان متروكاً للمعنى عليه ، وكان له أن يثار لنفسه أو أن
يتنازل عن الثأر ويأخذ الدية . ولكن العقاب بالمثل مع هذا صار نقطة
الانتقال من الأخذ بالنار إلى الأخذ بمبدأ العقاب ، وذلك أنه بانتقال حق التأديب
من الفرد إلى الجماعة حدثت خطوة هامة في سبيل الأخذ بالنار شأناً

من شئون الدولة وجعله عقاباً من هذا الطريق : وكانت خطوة كافية لتفادي الترات الداخلية ؛ ولذلك لى يسود السلام فى داخل منطقة المدينة ويكون شاملاً لا استثناء فيه . وعلى هذا لم تكن هناك جماعات تراعى السلام وحماية الجار ، متعددة بتعدد القبائل ، مما جعل حمايتها غير كافية أو على الأقل غير فعالة على الوجه المرصى خارج حدود القبيلة ؛ بل أصبح هناك سلام واحد شامل ، هو سلام الأمة .

أما الغرض الثانى للأمة فقد كان اتحاد القبائل لردّ العدوان من الخارج ، وعلى المؤمنين أن ينصر بعضهم بعضاً دون « الناس » ، وهم يتماثلون بينهم ، وهم أمة من دون للناس ، يدهم على من سواهم ، وهم على من بغى منهم . وليس واجب الأخذ بالثأر من الأعداء واقماً على كاهل الأخ لثأر لأخصيه بل على كاهل المؤمن لثأر للمؤمن . والحقيقة أنه يذاك خرجت الحرب من أن تكون داخلية ضمن الثأر للدم ، بعد أن كانت من قبل هى والثأر للدم شيئاً واحداً ، بل أصبحت الحرب حرباً فحسب . وكذلك صار السلام مع قوم أجانب ، شأنه شأن الحرب ، أمراً بعم بحيث لا يستطيع أحد منهم أن يعقد سلاماً لنفسه لا يكون سلاماً للجميع .

ورغم هذا فإنه لم يُقضى على حق العشيرة والقبيلة بالأخذ بالثأر من مواها: قضاء تاماً ، وأمر هذه المفارقة هو أمر مفارقة أخرى مقابلة لها ، وهى أن حق الإجارة أيضاً ، وهى التى تضمن للغريب حق التوطن فى المدينة لم يكن قد نُزع بعد من الفرد ، وإن كان يلزم الجماعة كلها ويجب لذلك بطبيعة الحال أن يكون من حقوق سيادة الأمة ورئيسها ، أعنى الإمام (١) . وليس كل شيء واضحاً تماماً فى هذه العلاقة بين الجماعة وأجزائها ، فلم تكن الأمة قد تكونت بعد تكويناً

(١) ومثل هذه المفارقات كان موجوداً عندنا إلى عهد قريب ، فقد منح الدكتور Schnelle بحكم ما كان له من حق أيام الاتحاد الألماني لـ هوفمان فون فلورلين (Hoffmann von Fallersleben) الذى طرد من كل مكان حق التوطن فى ضيقته بونهولتر التى كانت له بامتياز ، فارساً فى مقاطعة ميكلينبورج . ويلاحظ الإنسان أن شيئاً كهذا له مزاياه .

تاماً ، ولكن كان المؤمنون وعلى رأسهم النبي هم روحها ، فكانوا هم الخميرة والعنصر الروحي الأقوى الناهض ومنه كانت تصدر الحركة والدعوة ؛ وكلما كان الدين ينتشر كانت أركان الأمة تتوطد أيضاً .

٣ - أما أعداء الأمة البارزون في هذا النظام الذي تكلمنا عنه لحماية المدينة فهم قريش الذين فرّ منهم النبي [عليه السلام] وأتباعه من مكة . وقد نشأت من هارات صغيرة حرب لم تلن قناتها ، وهذه الحرب ساعدت أكبر مساعدة على توطيد أركان الأمة في الداخل ، وانتهى أول اشتباك كبير عند بدر في السنة الثانية من الهجرة بانتصار محمد [عليه السلام] انتصاراً لم يكن في الحسبان ، وأحسن الناس أن هذا النصر المبين برهاناً إلهي على صحة الدين ، فأحدث أثراً لا يُمحى ، وكان له أكبر تأثير معنوي ، فساعد مساعدة غير مألوفة في زيادة نفوذ محمد [عليه السلام] وفي كسر شوكة خصومه وفي تثبيت قدم الإسلام في الأمة تثبيتاً تاماً وفي إدماج العناصر الأجنبية التي تُسمح لها حتى ذلك الحين بالدخول في الأمة الإسلامية أو في إخراجها منها . ولم يبق الإسلام على تسامحه ، بل شرع في الأخذ بسياسة الإرهاب في داخل المدينة ، وكانت إثارة مشكلة المنافقين علامة على ذلك التحول ، فلم يسمح للمشركين بأن يبقوا داخل الأمة على شركهم كما كان الحال حتى ذلك الحين ، وكان لا بد لهم تحت ضغط الظروف من أن يعتنقوا الإسلام ، ولكنهم اعتنقوه بقلوب تلتنازعها مختلف الإحساسات ، وكانوا لا يخفون همتهم إذا بدا أن الحظ لم يستمر مواتياً للنبي ﷺ ولكن موقف اليهود كان أسوأ من موقف المنافقين ، فيقول الواقدي إنه تحول بعد وقعة بدر إلى غير مصالحتهم تحولا كبيراً ، وحاول محمد [عليه السلام] أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد^(١) ،

(١) [يؤخذ من كتاب المغازي لواقدي (ص ١٦٧ و ١٨١ من طبعته كلكته) أنه النبي عليه السلام لما قدم المدينة وادعته اليهود ، فكتب بينه وبينهم كتاباً ألحق فيه كل قوم بحلفائهم ، وجعل بينه وبينهم أماناً وشرط عليهم ، وكان ما شرطه ألا يُظهروا عليه عدواً -

وفي غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية أو قضى عليها في
الواحات المحيطة بالمدينة حيث كانوا يكونون جماعات مناسكة كالقبائل
العربية . وقد اتهم لذلك أسباباً واهية ، وأعطى ما كان لهم من مزارع
والنخيل الخصبة إلى المهاجرة الذين لم تكن لهم حتى ذلك الحين أرض ولا
ممتلكات ، بل كانوا يعتمدون على كرم الضيافة من جانب الأنصار باعتبارهم
نزلاء عندهم أو كانوا يعيشون من التجارة أو الغزو ، وبذلك أغناهم عن
الأنصار وجعلهم مستقرين وأصحاب أرض في المدينة ، وبهذه الطريقة أيضاً
زاد في قوته هو ، لأن المهاجرة كانوا أشبه بحرسه الخاص ، هذا إلى أن
الثور الذي لم تكن كل آثاره قد زالت بين قبائل الأنصار ، وهم الأوس
والخزرج ، جعل للمهاجرة شأنًا راجحاً .

وبعد أن هزمت قريش عند بدر جمعت قوتها وتوجهت ، تحت قيادة أبي
سفيان بن حرب بن أمية ، في حملة للانتقام من محمد [عليه السلام] . وقد
انتصرت عليه بالفعل عند جبل أحد قرب المدينة ، ولكن قريشاً لم تستفد من
هذا النصر ، بل اكتفت برد شرفها وقفلت راجعة ، ولذلك فإن هذه الهزيمة لم
تضر النبي كثيراً ، فاستطاع أن يحتملها وأن يعيد إرهاب سلاحه ، ثم إن قريشاً
فشلت في هجوم ثان قامت به على المدينة وحالفت فيه المشركين واليهود . ثم
أتحدت قبائل صغيرة مجاورة للمدينة تنضم إلى الجماعة الناشئة فيها انضماماً سياسياً
خالصاً في أول الأمر ، ثم انضماماً دينياً بعد ذلك ، وشق الإسلام طريقه ، وأخذ
يخرج شيئاً فشيئاً من طور الدفاع إلى طور الهجوم ، وكانت الجزيرة العربية تتطلع

= فلما انتصر عليه السلام في موقعة بدر حمده اليهود وأظهروا الفسح ولاح منهم ما زلزل ثقة
النبي في وفائهم له ، فدعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ، واستمروا على إظهار العداء ولبث العهد .
وحدث أن عبث يهودي بأمرة من الأنصار كانت جالسة عند صائغ ، فتعص درعها إلى ظهرها ،
بوهى جالسة لا تشعر بذلك ، فلما قامت بدت عورتها ، ففسحك منها الناس . فقام رجل من
المسلمين فقتل اليهودي ، فتجايش اليهود وقتلوا الرجل ، فحاصروهم النبي وأجلاهم وأخذ أموالهم -
هذا ما وجدته عند الواقدي في هذا الصدد - المترجم [.

باهتمام شديد إلى ما سيتجلى عنه الصراع الكبير بين المشركين وبين المؤمنين بالله ، وهو الصراع الذى كان قائماً بين مكة والمدينة .

وفى أثناء هذا الصراع الذى كان دائراً فى الظاهر بين الإسلام وبين الوثنية العربية تم على نحو يستلقت النظر تعريب داخلى للإسلام نفسه . وقد كانت نقطة البداية فى دعوة محمد [عليه السلام] اقتناعه ، فى أول الأمر ، بأن ما جاء به من دين يتفق مع اليهودية والنصرانية ؛ فكان ينتظر طيقاً لهذا الاقتناع ، أن يهود المدينة سيستقبلونه مرحبين . ولكنهم لم يعترفوا له بأنه نبي ، ولم يعترفوا بأن الوحي الذى أنزل إليه هو الوحي الذى عندهم ، وإن كان اليهود دخلوا فى أول الأمر ، من الوجهة السياسية ، فى الأمة التى أسسها محمد [عليه السلام] ؛ وعلى هذا خاب أملهم فى اليهود خيبة مريرة . ولما كانوا لم يعتبروا اليهودية مثل الإسلام ، بل جعلوا منها خصماً له ، فإنه من جانبيه جعل الإسلام خصماً لليهودية ، ثم خصماً للنصرانية أيضاً . فجعل لدينه علامة تبدو لنا غير ذات معنى وإن كانت فى الحقيقة عظيمة الأهمية ؛ وهى لاتعبر عن الانفاق بين الإسلام وبين الشريعتين المؤنختين له ، بل تعبر عن تمايزه عنهما . فجعل يوم الجمعة^(١) ، بدلا من يوم السبت أو الأحد ، يوم الصلاة الجامعة ، وجعل نداء المؤذن بدلا من الأبواق والأجراس ، وألقى صيام يوم عاشوراء الذى هو يوم صوم الأنفراة عند اليهود ، وأحل صيام شهر رمضان محل صيام الأربعين (Quarantana) عند النصراني . وهو إذ جعل الإسلام يقوم على أسسه الخاصة متمسكاً ببلد المظاهر اليهودية والنصرانية ، قد أخذ يقترب بالإسلام فى نفس الوقت من دين إبراهيم اقتراباً إيجابياً^(٢) ، وكان لا يزال من

(١) [جاء فى الحديث الشريف ما يدل على أن يوم الجمعة وأنه اليوم المقدس الأصل ، راجع مثلا لفتح الباري ٢ - كتاب الجمعة - المترجم] .

(٢) [كان دين إبراهيم معروفاً فى مكة حتى عهد النبي ، ويدل النصوص الكثيرة على ذلك ، كما يدل المأثور العربى الذى لاشك فيه على أن إبراهيم هو الذى أسس البيت الحرام ليكون بيتاً يمد فيه الله ، ولا شك أن التوراة لم تنتسب كل تاريخ إبراهيم ، فليس فيها شيء يذكر عن إسماعيل . ومن غير المقبول على كل حال أن يظل دين إبراهيم مقصوراً على الطرف الشمال من جزيرة العرب - المترجم] .

قبل يعتبر نفسه النبي المرسل إلى الغرب خاصة الذي يتلقى الوحي الموجود في التوراة والإنجيل ويبلغه بلسان عربي^(١) . ويظهر أيضاً أنه لم ينكر أبداً ميله الطبيعي للكمة في مكة ولرب الكعبة ، أما الآن فإنه بحكم تأثير الظروف قد خطا خطوة حاسمة في هذا الاتجاه ، فغير القبلة وأمر الناس بأن يولوا وجوههم في صلاتهم ، لا إلى بيت المقدس ، كما كان يفعل ، بل إلى مكة^(٢) . وصارت مكة بدلاً من بيت المقدس تعتبر البيت المقدس حقيقة وبيت الله الحقيقي على الأرض ، وأصبح الحج إلى الكعبة ، بل تقبيل الحجر المقدس ، من الشعائر الدينية المفروضة ؛ وبذلك دخل في الإسلام مركزاً للشعائر وعيد وثني شعبي ، وكان لابد في تبرير هذه للصنيع من الاستشهاد بالتاريخ ، كما هي العادة ، فقبل إن البيت الحرام في مكة والشعائر الدينية المكية كانت في أول الأمر للتوحيد ، وإن إبراهيم هو الذي

(١) [إن الدعوة الإسلامية موجهة إلى الناس كافة ، وهذا ثابت بنص القرآن في سورة مكية - سورة ٢٤ (سبأ) آية ٢٨ . ومنذ أول الأمر يصرح القرآن بأنه جاء مصداقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، ولكنه يكمل الوحي السابق ويهيمن عليه - المترجم] .

(٢) [كان النبي عليه السلام وهو في مكة يصل متجهاً إلى بيت المقدس ، وفي رواية: ابن عباس أنه كان يحمل الكعبة بيته وبين بيت المقدس . فلما هاجر عليه السلام إلى المدينة أمره الله أن يصل متجهاً إلى بيت المقدس تألفاً لليهود ، كما يقول المفسرون ، ولعث حل ذلك ستة عشر شهراً . وقبل موقعة بدر بشهرين أمره الله بالاتجاه في صلاته إلى البيت الحرام . وفي أثناء الفترة التي كان فيها وهو بالمدينة يصل متجهاً إلى بيت المقدس لم يقبل اليهود الدعوة الإسلامية ، فكان في ذلك شيء من الحرج ، وعصواً أن اليهود كانوا يتمنون أن يظل النبي متجهاً إلى قبلتهم ، وكان النبي يقلب وجهه في الصلاه منتظراً الأمر الإلهي بتحويل القبلة إلى الكعبة لأنها قبله إبراهيم عليه السلام ، ولأن البيت الحرام أول بيت وضع للناس ، فنزل القرآن بتحويل القبلة إلى البيت الحرام . ورغم ما في هذا كله من سياسة إلهية حكيمة في التألف وفي الامتحنان فإن البعض منذ عهد النبي عليه السلام تساءل ، في شيء من الاستنكار ، عن سبب تغيير القبلة ، فوصفهم الله بأنهم « سفهاء » ونههم إلى الحكمة في ذلك . والإسلام قد أراد جمع كلمة أهل الديانات المنزلة كلهم فلم يستجيبوا له ، فأراد تجارز الخلاف بينهم بالتسلك بدين إبراهيم والاتجاه إلى البيت الذي رفع قواعده إبراهيم ، لأن أهل الديانات الثلاث ينتسبون إليه - راجع تفسير سورة البقرة آية ١٤٠ ، ١٤١ فامدها - المترجم] .

أسسها ، ولكنها بعد ذلك فسدت وصارت وثنية^(١) . وبذلك انتزع إبراهيم ، أو التوحيد من اليهود وجعل مؤسساً للإسلام عربى قبل الإسلام ، واعتُبرت مكة هي مركز هذا الإسلام . ومن هذا الطريق فُصل الإسلام عن اليهودية فصلاً نهائياً وجُعِل ديناً عربياً قومياً .

وهكذا أدعت مكة في الإسلام من الناحية الروحية قبل أن تُفتَح . أما فتحها فقد جاء بعد ذلك ، في العام الثامن من الهجرة ، وقد تم فتحها صلحاً ، بأمان أُعطى سرّاً لأبي سفيان . أما ما كان هناك من خوف من أن تفقد مكة ، بسبب الإسلام ، جاذبيتها الدينية عند العرب ، وهي الجاذبية التي كانت مصدر حياتها الاقتصادية ، فقد زالت أسبابه مُقَدِّماً . والحق أن مكة قد استفادت أكثر مما كانت تستفيد من قبل ، وذلك لأنها وحدها هي التي بقى لها بيتها المقدس عند العرب ولأنها احتفظت بالعبد الذي يقام قريباً منها ، على حين أنه قد قضى على جميع الأماكن الأخرى التي كانت للشعائر الوثنية القديمة . وقد ألحقت الحرب بين قريش وبين محمد [عليه السلام] أضراراً كبيرة بقريش ، فلما انتصر حرص على أن يثبت لهم كم من الخير لهم أن يكونوا له أصدقاء ، فوهب لكبارهم عطايا كبيرة ،

(١) هذا رأى المؤلف ، وليس عليه إيهان أصلاً . ومن أين عرف أن إبراهيم لم يؤسس البيت الحرام ، إذا كان العرب يعرفون ذلك قبل الإسلام . ولو فرض أن النبي عليه السلام هو الذي أخبر بذلك ، فلماذا لم يمارضه العرب على شدة حرصهم على معارضة الحق ؟ إن العرب هم وحدهم الذين يعرفون من الذي إى البيت الحرام بمكة ، والمعروف أن المؤلف في كتاب آخر له يعمل فاهور الإسلام تمليلاً طبعياً ويصنع التوحيد العربى ثمرة للمبقرية العربية وتأثير يهودى نصرانى ، وأين هذا كله بالنسبة للدين الجديد المبين في القرآن . إن الإسلام الذي جاء به محمد عليه السلام شيء آخر غير ما في اليهودية والنصرانية ، وإن كانت هناك وجوه شبه عامة وظاهرية بين الإسلام من جهة وللهياتين السابقتين عليه من جهة أخرى . والتوحيد السامى لا يمكن أن يكون قد ظل مقتصرأ على شمال جزيرة العرب ، فلا بد ، بحكم جميع ظروف الجوار والاتصال من أن يتصرب التوحيد السامى من الشمال إلى الجنوب ، كما تصربت اليهودية والنصرانية بعد ذلك ، أما ما يسمى الوثنية العربية في مكة فهو التوحيد القديم ثابتة شوائب وثنية ، ويعرف مؤرخو العرب - وهذا ما يدل عليه القرآن أيضاً - أن العرب كانوا موحدين ، ولكنهم كانوا يتقربون إلى الله بأصنام أو آلهة اتخذوها وسيلة لذلك - المترجم] .

ومعهم بآيات كرمه ، وسمى هذه الطريقة لإقناعهم بالإسلام « تألف القلوب » . وكان حبه الفطرى لوطنه الذى ولد فيه يلعب دوراً فى ذلك ، وقد ذهب فى سعيه إلى تألف القرشيين بإظهار رضاه عنهم بكل الوسائل إلى حد أن الأنصار خافوا من أن يجعل مكة مقر الرئاسة ويترك يثرب ، ولكن هذا الإشفاق لم يكن له ما يبرره ، فبقيت يثرب عاصمة الحكومة ، ولم ينتقل محمد إلى مكة ، بل هاجر القرشيون الطاهون الذين أرادوا التقرب منه ومن الحكومة ، إلى المدينة ، وكان أبوسفیان وبنو أمية من أول من هاجر إليها . ولكن هذا لم يكن فى مصلحة الأنصار ، لأن المهاجرة (١) صاروا يزادون باستمرار فى مدينتهم ، آتين لامن مكة فبحسب ، بل من جميع أنحاء جزيرة العرب ، وصارت للمدينة جاذبية كبيرة أثرت فى ذوى الطوائع المتنوعة الذين أرادوا تجربة حظهم ، وقد رحب بهم النبي كما يرحب بقبول ما تزداد به قوته ، دون مبالاة بما كانوا عليه ، ولو كان وراء أحدهم ماضٍ غير نبي تماماً .

وقد انتظرت القبائل العربية حتى ذلك الوقت . وبعد فتح مكة وما أعقبه بسرعة من إخضاع هوازن أذعنوا للمتصرف قبيلة بعد الأخرى واعتنقوا الإسلام . ولم يكن الأفراد هم الذين فعلوا ذلك ، بل فعله أمراء العرب بالنيابة عن قبائلهم ، وصالح رؤساء العرب وشيوخهم محمداً [عليه السلام] ، وحاولوا ما استطاعوا أن يصلوا إلى شروط ملائمة لأقوامهم ولأنفسهم أيضاً . فإذا كانت إحدى القبائل مثلاً قد انقسمت بسبب النزاع حول الإمارة فإن أحد الفريقين المتخاصمين كان يحاول من طريق الدخول فى الإسلام ، أن يتقوى على الفريق الآخر ، وكثيراً ما عرضت هذه الفرصة للملائمة لمحمد [عليه السلام] . وعلى هذا كان الدخول فى الإسلام عملاً سياسياً وانضماماً إلى الأمة فى المدينة ، وكان الأمر مقصوداً على قبول

(١) [يستعمل المؤلف نفسه هذه الكلمة وهى موجودة فى كتب التاريخ ، لكن الأشهر هى كلمة المهاجرين ، وقد استعملها القرآن - على أننا لم نغير ما اختاره المؤلف - المترجم] .

مظاهر الإسلام وعلامات سيادته ، خصوصاً الصلاة والأذان ودفع الزكاة ، حتى إذا تمّ الاتفاق على دخول الإسلام بعث النبي إلى بلاد القبائل من يقيم الصلاة بينهم ويعلمهم أصول الدين وأحكام الشريعة ، فكان الاعتراف بالاسان كافياً ، وكان الإيمان ، في أقوى درجاته ، إيماناً ضمنيّاً (fides implicita) .

وكانت خاتمة إدماج جزيرة العرب كلها في الإسلام تلك البراءة التي كانت في السنة التاسعة من الهجرة وأيضاً حجة الوداع في السنة العاشرة ، فأهلين أن الحج إلى مكة وأن العيد الذي يقام إلى جوارها أشياء إسلامية خالصة ، فلا يصبح للمشركين أن يحجوا إلى مكة ، وبذلك أبعادوا عن ميراثهم الخاص ، وهو الميراث الوثني الخالص^(١) : ولم يكف هذا ، بل اعتُبرت جزيرة العرب كلها أرضاً للإسلام وحده ، فأما جميع العرب الذين كانوا لا يزالون على الشرك فقد أُنذروا بذلك وبأنهم لا عهد لهم ولا ذمة بعد أجل حدّد لذلك^(٢) ، وأما الذين دخلوا في الإسلام وحكومتهم التيقراطية فلهم السلام من الله ، ولا يجوز أن تكون بينهم حروب . وكان الإسلام قد جرت القلم على الماضي وعلى أسباب الحرب من قبل ، أما الآن فهو أعلن أن كل مطالبة بدم سابق أو بدمية سابقة يجب أن تكون تحت الأقدام^(٣) .

(١) [لا يزال المؤلف يتكلم على أساس نظريته ، وهي أن التوحيد العربي تطور من الوثنية ، وهذا عكس الواقع في مكة ، فالتوحيد هو الأصل والوثنية طارئة ، وكما قلنا من قبل لا يعقل أن يبق دين إبراهيم أو التوحيد السامي دون أن يتسرب إلى داخل جزيرة العرب في المصور القديمة ، كما أن اليهودية ، والمسيحية بعدها ، تسربت في مصور ثانية ، هذا إلى أن في مأثور العرب أنفسهم ما يدل على أن الوثنية التي كانت في مكة جاءت قبل الإسلام بقرون قليلة ، بل إن اسم من جلب هذه الأصنام معروف . والمؤلف نفسه يعرف ذلك كما يدل عليه ما يذكره عن كتاب الأصنام لابن الكلبي ، وهو قد ذكر ذلك في كتابه : بقايا الوثنية العربية ، والعرب هم الحجة في معرفة تاريخهم ، وكل الفروض والاستنتاجات مهما كان فيها من الخلق لا تقوم حجة على العرب - المترجم] .

(٢) [حسداً ما تدل عليه الآيات الأولى من سورة براءة ، فليرجع إليها القارئ وإلى تفسيرها والروايات المذكورة في ذلك - المترجم] .

(٣) [يشير المؤلف إلى ما جاء في خطبة حجة الوداع من وضع أي إلهاء دعاء الجاهلية وما كان فيها من ربي ، ومن تقرير بده حياة جديدة ليس فيها ثأر ولا عصبية ، وهذه الخطبة =

وكان ذلك ضرباً من إسقاط الديون (Seisachtie) مغايراً كل المغايرة لما فعله سولون وأبعد منه أثراً وأوسع نطاقاً . ومن المدينة انتشر سلطان الدولة التيوقراطية على كل جزيرة العرب ، وبقيت القبائل على محالها ، وبقي أشرفها على ما هم عليه ، ولكن كان لأصحاب النبي الذين أرسلهم فيهم ضربٌ من الإشراف عليهم في كثير من الأحيان ، ودخلوا جميعاً في بناء دولة واحدة ، مقر حكومتها في المدينة : وكان تأسيس هذه الدولة التي قضت على الفوضى وأزالت الفرقة التي شملت جزيرة العرب ، إن كانت دولة مفككة ، هي الحجر الأخير في البناء الذي شاده محمد [عليه السلام] . فهو لم يَمُتْ كما يموت شهيد مضطهد ، بل هو مات وهو في أوج النجاح ، وليس ثم ما يدعو الإنسان لأن يعيب عليه أنه حقق إنشاء مملكة الله [في الأرض] على الأساس الطبيعي الذي وجدته أمامه فهو وإن كانت الضرورات العملية ، في كثير من الأحيان ، قد اضطرت له أو هي انحرفت به إلى استعمال وسائل غير مقدسة^(١) ، من غير أن يسند ذلك لا إلى الله ، فلا يسوغ للمؤرخ من أجل ذلك أن يعتبره منافقاً .

٤ - وقد حسبت قبائل العرب أنها إنما بايعت للنبي فحسب ، وساد بين العرب الرأي القائل بأن هذه البيعة لا تربط صاحبها إلا بشخص من أعطيت له ، فبعد أن توفي النبي ارتدوا عن الإسلام ، ولكن ارتدادهم لم يكن عن الإيمان بالله ، بل هم أرادوا التنصل من حكومة المدينة . وكان الموقف في داخل المدينة نفسها موقفاً حرجياً ، ولكن الحكومة التيوقراطية تغلبت على الموقف الحرج

١٠ بما تضمنته من إعلان الحقوق وبيان الواجبات المفنونة وثيقة من أهم الوثائق في تاريخ الإسلام ، فليراجع القارئ هذه الخطبة في كتب التاريخ والحديث والأدب - المترجم] .

(١) [كالحرب أو إخراج اليهود الذين خانوا في مكة في رأى المؤلف ، كأنما يعتبر ذلك وسائل غير مقدسة وغير صحيحة ، والحق أنها هي الوسائل التي لا بد منها في الدفاع عن الحق ودفع خطر الباطل عليه . ولا يوجد دين حق إلا وقد اضطرت أن يدافع عن نفسه بالجهاد والاستشهاد . وينبغي ألا يفكر الإنسان في ذلك بقدر ما يفكر في عناد أهل الباطل ، وأنه لا يمكن دمه شرمهم إلا بالدفاع عن النفس بالقوة - المترجم] .

الذى نشأ على أثر تغير الحاكم، وأرغمت جزيرة العرب على الطاعة مرة أخرى^(١)، وبدأ أن خير وسيلة لأرب الصدع هي التوسع نحو الخارج ، هذا التوسع الذى أعقب إخضاع التمرد الداخلى على الفور . وكان الجهاد ، وهو الحرب فى سبيل الله ، وسيلة إلى جعل القبائل المتمردة تحرص على مصلحة الإسلام وجعلها ترضى به . ولم يكن الجهاد لنشر الدين أكثر من ذريعة وتعلة للحرب^(٢) ، كما لم تكن دعوة أعداء الله إلى الدخول فى الإسلام قبل محاربتهم إلا مسألة شكلية^(٣) ، لأنه لم يكن ينتظر منهم أن يلبوا هذه الدعوة حقيقة ، أما فيما يتعلق بما هذا جزيرة العرب فقد كانت هناك قاعدة غير القاعدة التى اتبعت بالنسبة للعرب ، ذلك أنه لم يترك للعرب مجال للاختيار ، بل كان لا بد لهم أن يدخلوا فى الإسلام . وكان المقصود من هذه السياسة هو أن لا يكون فى جزيرة العرب كلها دين " إلى جانب الإسلام"^(٤) . وقد ذهب اعتبار الإسلام والعروبة شيئاً واحداً إلى حد أنه لم يكن من الممكن أن يدخل أحد فى الإسلام دون أن يلحق بقبيلة عربية أو يندمج فيها . أما غير العرب فلمهم لم يُكرهوا على الدخول فى الإسلام ، بل كان أول ما يُظن هو فى الواقع أن يبقوا على دينهم السابق . وهم ، من حيث أنهم ليسوا عرباً ، لم يكن ينطبق عليهم معنى العضو المواطن الأصيل فى الدولة التيقراطية ، ولا

(١) [يقصد المؤلف القصاص العرب بعد وفاة النبی عليه السلام ومصيبتهم ما أدى إلى حروب الردة - المترجم] .

(٢) [ولكن الاتجاه نحو الخارج كان مواصلة لسياسة النبی نفسه عليه السلام ، فهو قد ذهب إلى شمال جزيرة العرب دوماً لغزو محتمل أو لمعرفة أحوال الحدود . ولو لم يفر العرب من حولهم لفزاهم من حولهم - المترجم] .

(٣) [هنا لا يصدق على الفتوحات الأولى ، وقد حدث فيها بعد أن بنى القواد كان يؤثر الفتح عنوة على الصلح لما يجره الأول من غنمة ويوطئه من سلطان - المترجم] .

(٤) [أما تغلب التى سمح لها أن تبقى نصرانية ، فقد كانت تقطن أرض الجزيرة . [وفى حديث عن النبی عليه السلام أنه قال : لا يبقى دينان فى جزيرة العرب . ولا شك أن هذا كان لأجل حماية الإسلام فى موطنه الأول . ولذلك أجل عمر بن الخطاب فصارى نجران لما شالوا شروط الصلح التى كانت بينهم وبين النبی وصاروا خطراً يتربص منه الفساد إلى المسلمين - المترجم] .

كان يجوز لهم أن يدخلوا أعضاء مواطنين فيها ، وإنما كان يجب أن يلحقوا بسيادتها فحسب : وكان هذا هو الغرض من محاربتهم (١) .

وهكذا نشأت من الدول العربية التي كان قد أسسها محمد عليه السلام إمبراطورية بعد موته ، أعقبت دولة تيوقراطية سادت العالم . وكانت هذه الدولة تشتمل على طبقتين من المواطنين ، متمايزتين من الناحية السياسية ومن الناحية الدينية : وكان سادة هذه الدولة هم العرب من حيث هم مسلمون ، وفي الوقت نفسه من حيث هم محاربون وفاتحون ، وتحولت الجماعة المحمدية إلى جيش تحولاً تاماً ، وصارت الصلاة والصيام وبقية الشعائر الدينية في المرتبة الثانية بعد الجهاد ، وأشرق الإسلام في نفوس أهل البادية على هذه الصورة ، فكان بمثابة الراية التي تقودهم إلى النصر والغنيمة ، وعلى أسوأ الاحتمالات إلى الجحنة . وفي الظروف والأحوال التي جاءت بعد ذلك بدأ تنظيم الدولة التيوقراطية في البلاد المفتوحة ، كما ينظم الجيش تماماً ، فكان سجل المواطنين المشتمل على أسمائهم هو سجل ديوان الجيش ، وكانت القبائل والعشائر هي التي تولف فصائل الجيش وكتائبه ، ولم يكن جميع

(١) [هذا غير صحيح ، بل الصحيح الذي وقع وسبق له المؤلف في أكثر من موضع في كتابه هو أن من أسلم صار عضواً في الدولة الإسلامية له ما للمسلمين وعليه ما عليهم . ومن لم يسلم من أهل الكتاب فعليه الجزية في مقابل تمتعه بحريته ودينه وماله وإحلاله من الواجبات الحربية . أما غير هؤلاء فلا بد أن يدخل في الإسلام أو دين منزى آخر . والمؤلف يصور الإسلام على أنه دين العرب وحدهم ، مع أن القرآن والحديث صريحان في أن النبي عليه السلام أرسل إلى الناس كافة وأن آدميين من أب واحد وأم واحدة وهم سواء ، وأن القرآن دعا كل الناس من أهل الكتاب ومن غيرهم إلى الدخول في الإسلام ، وأن النبي عليه السلام جعل مولاة ، ولم يكن عربياً ، قائداً على كبار العرب ... الخ ، وإنما انزلت قدم المؤلف بسبب أنه نظر في مسألة فرض الإسلام على العرب فظن أن الإسلام = العروبة ، وأن الإسلام = دولة العرب على من عداهم ، والحق أن إلزام العرب الدخول في الإسلام كان لحماية الإسلام في داخل وطنه ، وأن الإسلام يعطي صاحبه الحق في أن يكون مواطناً في الدولة الإسلامية . أما إذا كان العرب لم يرغبوا أن تكون الخلافة في غير العرب وقتلوا عليها فهذا شيء طبيعي ، وكيف يكون الأمر طبعياً لو أن العرب حملوا الإسلام ودافعوا عنه وأسسوا دولته عشرات السنين ثم تولى أمرهم غير عرب لم يعرف الإسلام به ، مع أن الدولة دولة دينية - المترجم] .

العرب يقيدون في ذلك الديوان بل المقاتلة منهم فحسب ، وكان المقاتلة يسمون ،
تميزاً لم عن يبقون في ديارهم « بالمهاجرة » أي الذين ينتقلون إلى المعسكرات
الكبرى التي منها كانت تُنظَّم الحرب وتوجّه ، وذلك أن الهجرة لم يكن لها معنى
الحرب بل الهجرة (بالأهل والولد) إلى المراكز السياسية الحربية لأداء أعمال^(١) ،
ولم يكن يستطيع الإنسان في الإسلام أن يتمتع بما للمواطن من حقوق كاملة إلا في
الجيش وفي المذنوم معسكرات الجيش الكبرى . أما الأحراب الذين بقوا لا يعملون
شيئاً ، في ديارهم ومع قطعانهم ، فلم يكونوا يعتبرون مواطنين بالمعنى الكامل ،
وكادوا ألا يعتبروا مواطنين على الإطلاق^(٢) . وكانت دار الهجرة الأولى أو دار
الإسلام هي المدينة ، وإليها كان يسير فيض أهل التوب والطموح ، ثم أضالت
إليها عواصم الأقاليم (مصور ، جميع مصر) فكانت الهجرة إليها ، من حيث
المعنى ، ممكنة . وكانت توجد في الشام من قديم مدن اختبرت لذلك . أما في
غير الشام ، فقد بنيت مدن حربية ، كالفسطاط في مصر ، والقيروان في إفريقية
الرومانية ، وبخصوصاً البصرة والكوفة في أرض العراق .

ومن هذه المدن التي كان العرب قد تجمعوا فيها فرض العرب طاعتهم على
البلاد التي فتحوها ، وكان الأمر أمر سيادة حربية صرفة ، وكان الأمراء الذين

(١) نجد هذا المعنى للهجرة في كتاب الحماسة مثلاً ، ص ٧٩٢ بيت ٣ :

فأجنت الفردوس هاجرت تبتلى * ولكن دهاك الخبز ، أحسب ، واقتر

قارن أيضاً دهران القطامي . ق ٤ ، بيت رقم ٢٥ :

فليس من الأحياء إلا مسود * ربيعة ، أهرايبة ومهاجرة

(٢) كتاب الخراج ليعقوب بن آدم ص ٥ ص ١٨ ، ص ٥٩ ص ١٥ - ٢٠ ، قارن مقال

عن الخوارج (في Göttinger Ges. der Wiss. 1901, p. 9.) [في المواضع التي يشير
إليها المؤلف من كتاب الخراج حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في أمر أحراب المسلمين أنه
ليس لهم في الثروة والنعمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن لم يجاهدوا ولم يك فقيراً أو شغل
بتجارة أو عمل غير ذلك فلا شيء له في النعمة والثروة ، إلا أن تصيبه حاجة فيدخل مع أهل
الحاجة - المترجم] .

تفتتح بلاد تحت قيادتهم هم أول الولاة الذين يعينون عليها . وكذلك كان من جاء بعدهم قواداً حربيين قبل كل شيء ، ولكن كما أن الجيش كان في نفس الوقت هو الأمة ذاتها ، فكذلك كان الأمير هو الإمام ، إمام الصلاة في المسجد ، خصموصاً يوم الجمعة ، وفيه كان يخطب خطبة الجمعة ، فكان يُعَيِّن على الحرب والصلاة ، وكانت الحرب والصلاة معاً من اختصاصه ، وإلى جانب ذلك كانت له بطبيعة الحال السلطة التنفيذية ، ولحق بها الفصل الأعلى في أمور القضاء ، لأن من مقتضياته القوة القاهرة على فرض السلام . وكان الأمير يباشر القضاء بنفسه في أول الأمر ، ثم صار يعين قاضياً في العاصمة (١) .

وكان الأمير يترك الإدارة الداخلية ، والقضاء إلى حد ما ، لمن يليه في حكومة ولايته . وكذلك احتفظ العرب في الأقاليم التي فتحوها بنظامهم القبلي السابق ، غير أن فرقاَ ظهر بالنسبة لما كان الحال قبل . ففي الوطن العربي الأول لم يكن يتألف اتحادٌ حقيقي إلا من جماعة صغيرة نسبياً ، وهي الجماعة التي كانت محل للرعى معاً وترحمل معاً ، وكانت تعدّ نفسها مع غيرها من القبائل تابعة لجماعات أكبر فأكبر ، ولكن هذه الجماعات لم يكن لها من هذه الناحية العملية كبير شأن . أما بعد أن اجتاز العرب حدود صحرائهم على نطاق واسع فقد تغير هذا الوضع ، ولم تكن القبيلة كلها تهاجر إلى الخارج وتقيم مجتمعة في مكان واحد بعينه ، وإنما كانت أجزاء من القبيلة تخرج إلى هنا وإلى هناك ولا تستطيع أن تعيش وحدها فكانت لذلك تنضم إلى أجزاء أخرى من قبائل قد هاجرت أيضاً وتشترك معها في نسب أعلى ، وذلك لكي يتسنى الوصول إلى الانسجام الذي لا بد منه في الجماعة . وكان هذا أسهل ما دام لم يكن للقبائل ما كان لها من قبل من مكان

(١) لم يكن يوجد في عهد عمر الأول [عمر بن الخطاب] مثل هذا القاضي ، ويرى أنه في ذلك الوقت لم تحدث منازعات على الإطلاق ، وأول ما نسمعه عن وجود قاضٍ في الكوفة في عهد معاوية أو ابنه يزيد . وفي طبقات ابن سعد ج ٦ ص ٩١ أن شريحاً كان قاضياً عنه عمر بن الخطاب على الكوفة .

وحب تنتشر عليه وما داموا يعيشون معاً مجتمعين في معسكرات ومتصلين فيما بينهم اتصالاً وثيقاً ؛ ففي الكوفة مثلاً ، كان هناك ما يشبه خريطة حقيقية تبين توزيع القبائل التي هاجرت من البادية ، على نفرعها الكبير ، وهذا يفسر كيف أنه من طريق نوع من أنواع الاندماج صار لبعض الجماعات التبتلية الكبيرة شأن جديد لم يكن لها من قبل ولم يكن لها من بعد في جزيرة العرب نفسها ، ولم يزل هذا الاتجاه إلى تكون جماعات من القبائل يزداد نطاقاً بتأثير طروء أحوال أخرى ، حتى أصبح عاملاً خطيراً في التاريخ الداخلي للدولة العربية .

وكان موقف غير العرب بالنسبة للأرستقراطية الحربية العربية هو موقف الرعايا^(١) الخاضعين ، وكانوا هم الدعامة المالية للدولة ، فكان لا بد لهم أن يسهّلوا الحياة لسيادتهم من طريق الخراج المفروض عليهم والضرائب التي يدفعونها كرهاً والتي كانت تُشعِرُ بالفضاضة وكانت وطأتها عليهم أشد من وطأة الزكاة التي كان يدفعها المسلمون . وكان تدخل الدولة العربية في شئونهم الداخلية — إذا لم تدع إلى ذلك حاجة — أقل من تدخلها في شئون القبائل . أما في الجهات التي كانت من قبل تابعة للدولة الرومانية فكثيراً ما بقي الأساقفة رؤساء مدنيتين لطوائفهم الدينية ، كما كانوا من قبل . وفي فارس ظل الدهاقنة رؤساء ، وكان هؤلاء الرؤساء من أهل البلاد ، أيها وجلوا ، هم المسئولين عن الضرائب . ولم تكن الحكومة يهتمها سوى حمل الخراج إلى بيت المال على المقدار المفروض له ، وكان على الوالي أن يفرض الطاعة على الرعايا ، حتى يؤثروا الخراج ، ثم صار يضم إليه في بعض الأحيان حامل على الخراج مستقل بذاته ، ولم يكن ذلك مما يُسرُّ له الوالي ، لأن عمله عند ذلك كان يصبح مقصوراً على أن يمسك البقرة من قرونها حتى تسكن ، على حين يحلبها شخص آخر .

(١) إلى استعمال كلمة : رعايا (Untertanen) بهذا المعنى الضيق في مقابل العرب ، أصحاب السلطان الحقيقيين في الدولة .

وكان الأساس لفرض الضرائب على الرعايا ولتنظيم مركزهم القانوني بوجه عام هو قانون الغنائم العربي القديم ، في الصورة المعدلة بعض الشيء والتي أقرها محمد [عليه السلام] بحسب القرآن . فكان إذا خضعت مدينة أو أرض للمسلمين صُلحاً بغير قتال أصبح أهلها آمنين على حياتهم وحريةهم وما يملكون ، لكن كان يجب عليهم في مقابل هذا الأمان وفي مقابل الحماية من جانب الدولة أن يدفعوا إتاوة بمقدار معلوم بحسب قاعدة يُنصُّ عليها في كتاب الصلح (١) . أما إذا سلموا عنوة فلأنهم يقعون تحت طائلة قانون الحرب ، أضفى أنه يسقط كل حق لهم ، فكانوا يعتبرون هم وكل ما يملكون غنيمة للمنتصر ، وكان الخُمس يؤخذ لله ، أي للدولة ، وكذلك كانت صوائف الملوك والضبياع والقرى التي يتركها أهلها ويهربون عنها تصبح للدولة (٢) . أما ما عدا ذلك ، لا الممتلكات المنقولة فحسب ، بل الأرض والناس أيضاً ، فكان ينبغي ، طبقاً للقانون ، أن يُقسَّم ، لكن لا على جميع المسلمين ، بل على مقاتلة الجيش الذي قام بالفتح . ولكن هذا القانون لم يمكن تنفيذه ، لأن مثل هذا التغير الهائل في الممتلكات كان مستحيلاً ، حتى لو لم يصب أهل الطبقات الدنيا إصابة كبيرة ، لأنهم لم يكونوا يملكون الأرض ، وإنما كانوا يزرعوها . ولم يكن العرب يستطيعون أن يقتسموا فيما بينهم نصف العالم ، إلا إذا كان يُرادُ له أن يتحول إلى أرض خربة ، ولا كانوا أيضاً يستطيعون أن ينتشروا في تلك الأرض الواسعة لكي يزرعوها ، بل كان لابد لهم أن يتجمعوا في معسكرات إن أرادوا المحافظة على سلطانهم . ويروى أن النبي عليه السلام قال (٣) : « جُعِلَ رزقُ أمتي في سنايك خيلها وأزجة رماحها ،

(١) وفي بعض الأحيان كانوا يقومون بخدمة عسكرية على حدود الدولة ، وعند ذلك كانوا يدفعون من دفع الإتاوة لأن الإتاوة كانت تعتبر مقابلاً للإعفاء من الخدمة العسكرية وقيام العرب بها .

(٢) يحيى بن آدم ح ٤٥ .

(٣) يحيى بن آدم ٥٩

ما لم يزرعوا ، فإذا زرعوا كانوا من الناس . وفوق هذا كان لابد للعرب أن يُفكروا في المستقبل ، فلو أن كل شيء قُسم على الفور بين الفاتحين الحقيقيين ، لتبددت الغنيمة التي حصلوا عليها بالسرعة التي غنموها بها^(١) . ولذلك اعتُبرت الأرض بمثابة رأس مال ثابت وأُعيدت للملاكها الأصليين على أن يزرعوها ويؤثروا غلتها^(٢) . وهذه الغلة وحدها هي التي كانت نصيب العرب المحاربين ومن يرثهم من ذرائعهم ، فهم لم يكن لهم رأس المال ، بل ما يخرج منه . وعلى هذا النحو لم تكن المدن والقرى التي فُتحت عنوة بأسوأ حالا ، في الحقيقة ، من المدن التي سلمت صلحاً ، وكذلك كان اسم الإتاوة في الحالين واحداً^(٣) ، خبر أن الإتاوة في الحال الثانية كانت تُحدد في شروط الصلح وكان لا يجوز تغييرها على المولى^(٤) .

وهكذا نشأ التمايز بين الغنيمة والفتىء العصر الذي جاء بهد محمد [عليه

(١) [جاء في كتاب الخراج لمحيى بن آدم ص ١٣ ص ١٢ - ١٧ ، أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن الفتح العراق : « أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس به إلى العسكر من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأعرابي والأنهار لعمالها ، ليكون ذلك في أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء » - المترجم] .
(٢) وكذلك نجد في سفر التكوين ، ١٧ ، أن الفريضة التي كان على الزراعتين المصريين أن يدفعوها للفرعون علامة على أن أرضهم ملك للفرعون وأهم عبده له .

(٣) يقول يحيى بن آدم (ص ١١) إن كل أرض سقتها الأنهار أو سقى إليها الماء منها فهي أرض خراج ، راجع أيضاً : ص ١٣ ، ٣٣ ، ٣٥ لما بعدها .

(٤) لكن الآخرين أيضاً افعلوا لأنفسهم ، فيما بعد ، وثائق تسليم ، ولم يكن هذا حسراً فظراً لقلة المعرفة بالدبلوماسية والقبوض التاريخية التي سرعان ما أحاط بمصر الفتوحات المضطرب [وفيما يتعلق بعدم جواز التغيير فيما صدق عليه أهل الصلح الذين غلب بينهم وبين أرضهم ، راجع كتاب الخراج ص ٩ و ٩ : هل أهل الصلح أن يؤدوا ما صدقوا عليه ولا يوضع عليهم شيء ، ما أدوا عليهم ؛ فإن عجزوا عنه خفف عنهم ، وإن احتملوا أكثر مما يؤدرون فلا يزداد عليهم شيء ، ولا يطرح عنهم شيء لموت من مات أو إسلام من أسلم منهم ، ويؤخذ بجملة ما عليهم من بقى منهم ، ما كانوا يطبقونه ويحتملونه . فالقاعدة هي أنه لا يزداد من أهل الصلح شيء ، ولا يخفف عنهم شيء من خراج أو جزية إلا إذا عجزوا عنه . أما القاعدة العليا فهي ألا يكلفوا فوق طاقتهم - المترجم] .

السلام] فكانت الغنيمة هي الممتلكات المنقولة التي تُحمل إلى العسكر ، وكذلك الأسرى الذين كانوا يقسمون بين المحاربين كما كانت الحال من قبل : أما الفتى فكان هو ما يُغنم من أرض ثابتة هي ومن حليها من السكان ، وهي لم تُقسّم بل تُركت للمالكين القدماء في مقابل إتاوة ، بحيث كان لا ينال مالكوها الحقيقية بحسب قانون الحرب إلا غلتها^(١) ، ولكن الدولة كانت

(١) كلمة التي مأخوذة من القرآن (سورة ٥٩ (الحشر) آية ٦ و ٧ . لكن لم يكن يفرق فيه بين الغنيمة والتي ، بل هذه التفرقة غير جائزة ، ومعنى الكلمة هو في الحقيقة معنى الكلمة اللاتينية : *reditus* أي : العائد المردود كزبح . . . (يحيى ص ٣٣ - وابن هشام ص ٨٩٠ و ٧) . ولكن لا تستعمل في الدلالة على ما يرتفع من الغلة فحسب ، بل أيضاً على رأس المال الذي يأتي منه الثمن ، والفقهاء المسلمون يعتبرون ، بطبيعة الحال ، أو للفرق بين الغنيمة والتي فرق قديم ، ولا يسمون بأنه لم ينشأ إلا فيما بعد ، عند التطبيق الفعلي ، خلافاً لما يؤخذ من القرآن . [وأهم الآيات التي ورد فيها ذكر التي والغنيمة هي : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله ولرسوله ولأهل القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لا يكون حيلة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » (سورة الحشر ٥٩) (آية ٧) : « واعلموا أنما غنمنا من شيء فإن الله غنمه ورسوله ولأهل القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم اتق الجمعان ، والله على كل شيء قدير » (سورة الأنفال ٨) ، آية (٤١) . فالآية الأولى تفصل بين أصحاب الحق في التي ، والثانية تبين نصيب أصحاب الحق في الغنيمة على الإطلاق . وهم أصحاب الحق في التي تماماً . ومن الواضح أنه بحسب هاتين الآيتين لا فرق بين الغنيمة والتي ، من حيث دلالة اللفظ . ويؤخذ مما جاء في كتاب الخراج لمحمى بن آدم (ص ٣ - ٥) أن الغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذه عنوة ، وهي جميع ما أصابوا من شيء ، قل أو أكثر ، حتى الإبرة . أما التي فهو ما صولح عليه المسلمون بغير قتال ، من جزية أو خراج ، وهو كله لمن سمى الله من المستحقين له ، والغنيمة فيها الخمس لله ، وهو مردود من الله على من ذكره من المستحقين له للذين هم أصحاب التي أيضاً ، ولا يصح أن يوضع في غيرهم ، والإمام يعطيه لمن حضره منهم بعد اجتهد الرأي وتحرى العدل ، أما ما بقى بعد الخمس فهو ، من حيث المبدأ ، للذين جلبوا عليه من المسلمين وأوجفوا عليه ، راجلين أو بحيل وركاب .

أما الأرض التي تؤخذ عنوة ، فللإمام إما أن يأخذ الخمس منها ليكون فيئاً ويقسم الأربعة الأخماس الباقية على من ظهر على أرض العنوة من جيش المسلمين ، وإما أن يفتقها كلها على جميع المسلمين . ويرى أن النبى [عليه السلام] وقف بعض ما ظهر عليه من الأرضين فلم يقسمها وأنه قسم بعض ما ظهر عليه ، فللإمام بحسب ما يرى من المصلحة أن يقف أرض العنوة كلها فيجعلها فيئاً ، كما صنع عمر بن الخطاب بأرض السواد في العراق ، وإنما أن يقسمها ، بعد أن يأخذ

مجبى هذه الغلة بواسطة موظفيها ، ولم تكن بعد ذلك تعطى الغلة الكاملة في كل عام للمقاتلة أو لوارثيهم ، بل كانت تدفع لهم أعطيات وأرزاق ثابتة ، على حين يبقى ما يفضل عن ذلك في بيت مال الدولة .

وعلى هذا ظل التنظيم الإداري في البلاد المغلوبة جزءاً من نظام الاحتلال العسكري إلى حد كبير ، مما يؤدي إلى استغلال الرعايا . على أن ذلك لم يغير من الوضع الذي كانت عليه الأشياء حتى ذلك الحين إلى قليلا . فتغيرت السيادة ولكن موقف سواد الشعب البائس الذي يحمل عبء دفع المال (misera contribuens plebs) بنى كما كان تقريباً واقتصرت الإدارة العربية على الناحية المالية ، وكان ديوان إدارة الدولة ديوان حساب ، وقد احتفظ العرب بالكتاب اليونان والفرس . وكان هؤلاء الكتاب هم الموظفين الفنيين الوحيديين الذين عندهم ، وهم أيضاً قد احتفظوا في الحملة بأسماء الضرائب القديمة وأنواعها ، ولم يغيروا كثيراً في وضعها وجبايتها . ويروى ما كان من أمر الرجلين اللذين كانا قد قلعا من المدينة لمسح أرض العراق وفرض نزعها أنهما كانا من الحكمة بحيث فعلا أقل ما يمكن . واقتصاداً في استعمال مواهبهما كل الاقتصاد^(١) . وفي كثير من الأحيان

- خذها . ومن الواضح أن لكل من الاحتمالين سنداً في القرآن : فآية سورة الحشر تجعل الثروة في مستحقين بمنهم فجاء لتوزيع الثروة توزيعاً عادلاً ، وآية سورة الأنفال تجعل خمس الغنيمة - ويظهر أن المعنى هو المعنى المطلق - لأصحاب الثروة أيضاً . أما بقية الغنيمة فهي للمسلمين الذين حصلوا عليها ، ويدخل في ذلك - إذا أريد الاستنباط الدقيق - كل غنيمة من أرض أو غيرها . ولكن أمر جعل أرض السواد قبلاً ، وقسم ما ليس أرضاً ، أي الغنيمة بمعناها الضيق - وثم أشياء من أرض أو غيرها ، هرب أهلها وتركوها من غير قتال ، فهذه للإمام يضعها حيث يرى ، كما فعل النبي من قبل ، فيستطيع الإمام ، إن شاء ، أن يقيم فيها من يمهدها ويؤدى عنها شيئاً إلى بيت مال المسلمين ، ويستطيع ، إن شاء أيضاً ، أن يستأجر من يقوم فيها ويكون فضلها للمسلمين ، ويستطيع ، إن شاء أخيراً ، أن يقطعها رجلاً - المترجم] .

(١) [هذه ترجمة حرفية بقدر الإمكان لكلام المؤلف ، وهو لم يشر إلى أي مرجع يمكن الرجوع إليه لفهم ما يريد - المترجم] .

كان الخليفة بقر الإجراءات المؤقتة التي يتخذها قواده ، وكان هؤلاء يضطرون إلى الأخذ بالأوضاع المحلية .

وقد تمت معظم الفتوحات في عهد عمر ، وهو يعتبر المنظم لها . على أنه يتضح مما تقدم أنه لم يكن مبدعاً لنظام جديد ، لكن يرجع له الفضل في أنه نحى قانون الغنائم العربي جانبا ، وأنه أدخل الدولة بين الجيوش وبين الأمم المغلوبة ، فحمى الرعية بعض الحماية ، واستند إلى تقوية الدولة على الجيوش معتمداً على الخراج الذي كانت تدفعه هذه الرعية .

هـ - ولم يستطع القانون السياسي أن يلاحق في نموه خطى القوة السياسية المتزايدة ، ولم يكن في التراث العربي القديم ما يمكن أن يؤخذ منه قانون عملي لتنظيم الحياة العامة للدولة ، ولا كان يمكن أن يؤخذ هذا القانون من مجرد فكرة الحكومة التيقراطية ، ولم يلبث أن أحس المسلمون بهذا النقص عند ما نشأت المشكلة الخطيرة ، مشكلة من الذي له الحق في الرئاسة العليا للدولة الدينية .

ولم تظهر هذه المشكلة في حياة النبي [عليه السلام] ، فكان هو خليفة الله والرئيس الديني الحقيقي ، وكانت الحكومة التيقراطية مرتبطة بشخصه ارتباطاً وثيقاً ، ولم يحدث ما كان يظن من أن ساعة القيامة ستجىء مع موته ، فلم تنته الدنيا ، وتوفى هو دون أن يكون قد تلافى ترك رعيته من خيرا . نعم ، لقد ترك القرآن والسنة ، ولكن لم يرد في القرآن والسنة من الذي يعين خليفة بعده . على أن ذلك لم يكن معناه إمكان الاستغناء عن خليفة بالكلية ، بل كان لا بد من إمام يعينه يوم الناس في الصلاة ويرأس الحكومة ، ولم تكن توجد طريقة للانتخاب المنظم ولا كان هناك حق وراثية النبوة (١) .

(١) [بعد أن قرر القرآن مبدأ المساواة بين المسلمين ، وقرر أن « أمرهم شورى بينهم » وأوصى النبي عليه السلام بأن يشار أصحابه ، لم يكن هناك ما يدعو إلى النص على خليفة للنبي -

وقد بدا أن موت النبي [عليه السلام] معناه القضاء على الحكومة
التيوقراطية ، وكان بين المؤمنين من لم يرد أن يصدق إمكان موت النبي (١) ،
وارتدت قبائل العرب عن الإسلام ، وكان الانقسام يهدد المدينة نفسها . ولما
لم يكن أمر الخلافة بعد النبي قد اتخذت له الأهمية من قبل فلم يبق في الإمكان
إلا التصرف الحازم . وكان أقرب الناس إلى الحكومة في عهد النبي عليه السلام
هم أتباعه وأصحاباؤه القدماء من أهل مكة ، وكانوا رجالا قلائل ، وكانوا يحكم
سابقهم في الإيمان هم أشراف الحكومة التيوقراطية ، وكانوا أشرافا من أصل
إسلامي حقيقي ، وذوى روح إسلامي حقيقية . وهم وإن لم تكن لهم مناصب
رسمية ، فإنه قد كان منهم في الحقيقة « مجلس » الرسول ، وكان لهم مكان كبير
ههنا . فلما زالت عنهم حماية النبي لم يدعوا أمر الحكومة يفلت من أيديهم ،
بل قبضوا على أزمتها بقوة عندما وقعت من يديه . وكان رئيسهم وعقلهم المفك
هو عمر بن الخطاب ، وهو الرجل الذى يمكن أن يعتبر مؤسس الحكومة
التيوقراطية الثانية ، الحكومة التيوقراطية من غير نبي . وكان عمر آدم مشرفا

عليه السلام ، وما ذلك إلا لأن الإسلام يريد نظاما ديمقراطيا ويريد أن يجعل اختيار الإمام
من حق الأمة ، ولذلك لم ينص النبي عليه السلام نصا صريحا على من يخلفه ، ولكنه هاهنا السلام
كأنما أراد أن يعرب عن رأيه هو في ذلك حينما عهد إلى أبي بكر بالصلاة بالناس ، وهى الوظيفة
الدينية الكبرى ، وكان من الطبيعي أن يخلفه أبو بكر بحكم سابقته في الإسلام وطول صحبه له .
ولقد كان من الحكمة السياسية البعيدة التى يفلل عنها كثير من النقاد أن النبي لم يعين له خليفة
قاركا الأمر للمسلمين ، لأن الناس لا يفسعون لرئيس معين لخصومهم لرئيس يختارونه ، وهذا
هو الذى يدعو إلى الاستقرار . هذا ولم يكن النظام الديمقراطي جمعاء المعروف في العصر الحديث
نشأما في ذلك الزمان ، بل كان اختيار الرئيس باتفاق كلمة كبار الرجال ، وهم السمون وأهل
الحل والمقد ، وهذا ما قد حدث عند مبايعة أبي بكر وعمر لله ، فهو وعمر لم يكونا
مختصين بالخلافة ، بل حريصين على ما هما أهل له ، وقد رضى الناس جميعا ، طوعا من جانب
من عرف قدرهما وكرها من جانب الخاسدين الطامعين فيما ليسوا أهلا له . - المترجم [.

(١) [يشير المؤلف إلى ما يحكى من أمر عمر بن الخطاب وذهواه واضطرابه لما قيل له
بأن النبي عليه السلام قد مات . - المترجم] .

على الناس من طوله ، كأنه راكب . وكان إذا تكلم أجمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع ، والروايات تصوره دائماً والدة في يده ، ولم يكن ليناً ، ولا كان يتكلم رويداً ولا ينصد في مشيه كما يصنع النساك المتكلفون ، ولكنه كان مع ذلك يخاف الله حقيقة ، ولم يكن غافلاً قط (١) ، ولكنه قدم أبا بكر ، أنخص أصحاب النبي . ولما توفى أبو بكر ، بعد فترة قليلة (٢) ، تولى الخلافة عمر ، فصارت له الرياسة من حيث الاسم أيضاً (٣) ، وقد عهد إليه أبو بكر بالخلافة في وصية له قبل موته (٤) . ولكن هذه الوصية لم تكن من جانب أبي بكر أكثر من إقرار لشيء طبيعي . وكان أبو بكر وعمر يعلمان أنهما لم يتوليا الخلافة بفضل حق شرعي ، بل من طريق الاختصاب ، وهما لم يستطيعا أن يسبقا على رياستهما ، التي كانت غير شرعية في أول الأمر ، ثوباً شرعياً إلا فيما بعد ، وذلك بأن سارا في الحكم على المبادئ التي تقضى بها الحكومة التيقراطية ؟ ولما كانت حكومة النبي عليه السلام ، وهو الوكيل الحلي لله والحاكم باسمه ، قد انتهت فإن أبا بكر وعمر جعلوا الحكم لله بأن جعلوا مرجعتهما في الحكم على الأشياء الأخطأ بما في القرآن ، وهو كلام الله ، واتباع سنة النبي عليه السلام . فهما لم يريدوا سوى أن يكونا خليفتين لرئيس الحكومة التيقراطية الشرعي الحقيقي الوحيد ، وهو النبي ، وقد عبثاً عن ذلك باللقب الذي اختاراه لأنفسهما ، وهو لقب الخليفة . وقد سمى أبو بكر نفسه خليفة رسول الله ، وسمى عمر نفسه خليفة خليفة رسول الله ، حتى بدا في ذلك

(١) [راجع صفات عمر وسيرته عند الطبري ملاحج ٢ ص ٢٧٢٨ فما بعدها - المترجم]

(٢) [كانت مدة خلافة أبي بكر سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام - المترجم]

(٣) [يشير المؤلف إلى ما كان لعمر من نفوذ كبير في أيام أبي بكر - المترجم]

(٤) وصية المهدي عند العرب قديمة ، وكان يجوز للأمير في الحرب ، بل كان يجب عليه ،

أن يعين خليفة له ليتولى الأمر بعد موته ، بل كان أحياناً يعين خليفة لخليفته وهكذا ، وكان المسلمون

يشعرون دائماً أنهم أشبه بميمون . قارن كتاب Contin. Isidori Hispana ط Mommsen

شيء من التكلف والتطويل في التسمية فصار لقب الخليفة ، مع إسقاط المضاف إليه ، لقباً قائماً بذاته ، وإلى جانب ذلك كانا يلقبان بلقب : أمير المؤمنين^(١) ، وقد خرج الخلفاء الأولون من صفوف قدماء الصحابة وكبارهم ، فكان أهل عشرينهم وهم قريش ، يشاركونهم فيما لهم من نفوذ ، ولم يكن ذلك مقصوراً على القرشيين الذين هاجروا إلى المدينة عام الهجرة ، أو على الأقل قبل فتح مكة ، بل كان يتمتع به القرشيون الذين لم يدخلوا في الإسلام إلا مكرهين ، بعد أن كان قد تم له النصر . وعلى هذا احتفظ النسب والدم بقوتها إلى جانب الدين .

والقرشيون ، وإن كانوا قد عارضوا الإسلام ما استطاعوا ، فقد كانوا يشعرون بأنهم يحملهم أصحاب الحق في رئاسة الدولة التيوقراطية ، لأن محمداً عليه السلام منهم ، وقد شد أزهرهم فيما طمحووا إليه النبي نفسه بالفعل وأصحابه من بعده . ومن جهة أخرى كان العرب في الحملة لا يرون بأساً في أن تبقى الرئاسة في العشرة أو القبيلة ، وإن لم تنسحب في أسرة بعينها ، معتبرين أن السيادة ميلك لهم جميعاً ، وإن كان لا يتولاها إلا شخص واحد . ولم يعارض في تقدم قريش إلى المرتبة الأولى معارضة جدية إلا الأنصار . فهم قد استقبلوا القرشيين في أول الأمر ، عندما هاجروا إليهم ، استقبالا كريماً . وقد هبتوا لهم المقام والمعاش والحماية ، ولم يعارض الأنصار أيضاً في أول الأمر في أن يختص النبي أتباعه المكسبين من وجوه شتى ، ولا في أن يقع على كاهلهم هم العبء الأكبر في القتال ولا في أن يكون لأولئك نصيب الأسد من الغنيمة ، كما حدث مثلاً عند تقسيم أرض الجاهات اليهودية التي أجلبت عنها . ولكن بمرور الأيام أخذ يزداد بينهم الشعور بأن هؤلاء القوم الذين اجتلبوهم أصبحوا أقوى منهم ، فقاموا بمحاولات لكي يظهروا

(١) [جاء في الطبري ج ١ ص ٢٧٤٨ : لما ولي عمر قيل له :

يا خليفة خليفة رسول الله ، فقال عمر : هذا أمر يطول ، كلما جاء خليفة قالوا : يا خليفة خليفة رسول الله ؛ بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم ، فسمى : أمير المؤمنين - المترجم]

أنهم سادة في ديارهم ، وأنهم لا يحبون أن يرضوا بكل ما يفعله ضيوفهم ، وانفجر ثلهم في مناسبات كثيرة ، وقد أذكاه بنوع خاص سيد من قبيلة الخزرج كان له نفوذ كبير من قبل ورأى أنه بعد مجيء النبي عليه السلام ، قد نُحِىَ جانباً . ولكن خيرة القبيلة الأخرى ، قبيلة الأوس ، لم تلبث أن تحركت ضده ، وذلك لأن الانقسام الخطير القديم بين القبيلتين لم يكن قد زال ، وكان مفيداً للطرف الثالث الذى كان فوق النزاع . وكان من السهل حل النبي في هذه الظروف أن يهدئ الأنصار دائماً ، وقد كانوا في الحقيقة أيضاً مدينين له بالشكر ، لأنه أنقذهم من إغناء بعضهم بعضاً بما كان بينهم من مسافات ، فكانوا إذا هادوا إلى صوابهم يقرّون بأنهم ليس لهم عن النبي غنى^(١) . وقد أفلقهم كل الإقلاق ما كان يُظن من أن النبي بعد أن تم له فتح مكة سيترك مدينتهم ويعود إلى مكة . وهكذا سارت الأمور إلى أبعد مما لبعدأت به ، ولم تزل أقدام القرشيين تزداد في المدينة رسوخاً ، وازدادت قوتهم بفضل مهاجرين كثيرين جاءوا إلى المدينة من قبائل أخرى ، وكانوا يسمون أيضاً : مهاجرة . وأشرف الأنصار على فقدان الكثرة العددية في المدينة وصاروا باستمرار ينزلون إلى المرتبة الثانية . وكانوا عند وفاة النبي عليه السلام قد تحركوا حركة قوية لكي يحصلوا على حقهم في السيادة في مدينتهم أو ليحافظوا على الأقل على استقلالهم فيها ، ولكنهم نسوا أن المدينة ، منذ زمان ، لم تعد مدينتهم ، بل صارت مدينة الرسول التي جعل منها الرسول شيئاً آخر . خير ما كانت عليه من قبل ، فجعلها عاصمة جزيرة العرب وعاصمة الإسلام . وقد فوجئوا بحزم عمر وغيره من الصحابة ، ولم يلبثوا أن انقسموا [بسبب ما كان بينهم من عداوة قديم ، وفقدوا الغالبية العددية ، بعد تدفق

(١) [راجع مثلاً سيرة ابن هشام ، ط . جوتجن ص ٨٥٨ ترى كيف تدخل النبي

عليه السلام فأنقذهم من القتال - المترجم]

المهاجرين من أعراب المناطق المجاورة إلى المدينة ، وقد أخذ هؤلاء الأعراب جانب المهاجرين .

وكان من حسن الحظ أن بدأ في ذلك الوقت التمرد الكبير على سلطان المدينة من جانب قبائل العرب ، فاختفى الانقسام الداخلى بين أهل المدينة أمام الخطر الخارجى الذى كان يهددهم جميعاً . وكان الأنصار أوفياء لتعاليدهم ، فأخذوا مرة أخرى مكائهم فى الطليعة فى محاربة العدو ، وكان لهم أيضاً الفضل الأكبر فى الفتوحات ، خصوصاً فى فتوح الشام : ومنهم كانت تتألف نواة الجيش الإسلامى ، وإن لم يكونوا هم القواد . ولقد بقوا معارضين بعض الشئ للحكام ، ولكن معارضتهم اندمجت فى التيار العام المعارض للحكومة القائمة بالحكم ، وهو التيار الذى كان يترجمه أهل التقى من المتمسكين بسلامة نظام الحكومة التيقراطية . وصارت المدينة مقر التراث الإسلامى وملاذ الطبقة الأرستقراطية الإسلامية التى أزيلت عن مكانها . وكانت معارضة المدينة للحكومة تظهر فيها بعد ذلك معارضة إجماعية دائماً . ومن أكبر الخطأ أن يخطر الأنصار وحدهم على بال الإنسان فى هذا المقام ، فإنهم فى أثناء التمرد الكبير الذى انتهى بموقعة الحرة^(١) كانوا يقاتلون إلى جانب المهاجرين لمزينة بنى أمية ، فهم قد اتبعوا أصحاب الحق من قريش ولم يظهروا حزباً خاصاً^(٢) . على أن سيادة قريش نالت اعتراف جميع العرب هذا الخوارج ، وإن كان اعترافها غير برىء من التلذذ . وقد وقعت قريش

(١) [يقصد المؤلف ارتداد بعض العرب عن الإسلام وامتناع بعضهم عن أداء الزكاة مما أدى إلى حروب الردة التى انتهت بموقعة الحرة - المترجم]

(٢) يقال إن الأنصار كانوا مصدر حزب المعارضة الذى كونه البنيون فيها بعد . ولا أعرف سند هذا القول . وقد كان بين الشام هم قبيلة كلب . أما فى الكوفة فكانوا همدان وملحج وكندة ، وفى البصرة وخراسان كانوا أزد عمان . وكان هؤلاء أشد هم قسراً ، ولم يكن للأنصار علاقة بهم جميعاً ، وكذلك لم تكن لهم مشاركة كبيرة فى تكوين حزب الشيعة ، وإن كانوا قد تعلقوا بعل فى حياته ، أما أن العلويين كانوا يعتبرون المدينة وطناً لهم وكانوا فيها موضع الإجلال ، فهذا شئ آخر .

من التنافس بين القبائل موقفاً محايداً ، ومهما كان سخط القبائل العربية على
صادة قريش العزيمين في الرياسة والمحتكرين لها ، فإن حظ القبائل المتتالية
أ في الحصول على حق الرياسة كان أقل من حظ قريش .

ولم تكن قريش في الحقيقة تؤلف وحدة متماسكة ، فلم يكونوا في أول
أمرهم [في المدينة] سوى أصحاب النبي عليه السلام والرجال الذين يلونه في الأمر
ويعتد بهم . ولم تبلغ قريش شأنها في الإسلام إلا بفضل هؤلاء الصحابة ، لأن
قريشاً قبيلتهم وقرابتهم في النسب . ولكن نشأ بينهم ، بين أفراد هذه
الأرستقراطية الإسلامية الحقيقية التي تتألف من الصحابة ، أخطر تنافس .

وحدث ذلك بعد موت عمر ، فقامت عند ذلك الوقت مشكلة الخلافة
من جديد . ولم يكن عمر قد أوصى لعلي . وكان لعلي ، بحكم أنه ابن عم
النبي وزوج ابنته ، مطامع في الخلافة ، بل هو كان يشعر من قبل أنه قد
تخطى . أما الذي فعله عمر فهو أنه أوصى بأن يكون تعيين الخليفة الذي
يخلفه من طريق الاختيار ، ولكن أصحاب الشورى [الذين كان عليهم أن
يختاروا الخليفة] لم يكونوا بحاجة المسلمين ، ولم تدخل الأنصار في ذلك ،
فكانت المدينة وحدها هي المدينة الرئيسية التي تنقرر فيها أمور الدولة ،
بل في المدينة نفسها أغفل شأن الأنصار إغفالا تاماً . ومن جهة أخرى لم
تدخل قريش بجملتها في الأمر ، وكان أصحاب الشورى هم أقدم ستة كانوا
لا يزالون أحياء من أصحاب النبي : وكان عليهم أن يتفقوا على واحد من
بينهم ، كأنهم مجلس من الكرادلة (Cardinalscollegium) أما بقية أهل
المدينة فلم يكن لهم إلا الحق في المبايعة لمن يُنتخب ، أو هم بالأحرى كان
يجب عليهم ذلك . فكان لا بد من أن تبيح البيعة بعد الانتخاب ، وكان
لا بد أن تتم البيعة في المدينة .

وتخطى أصحاب الشورى الستة ، هم أيضاً ، علياً ، لأنهم لم يشاءوا أن يعترفوا له

بأنه صاحب الحق الأول ، فانتخبوا الصحابي المسنّ عثمان بن عفان ، من بيت أمية ، وكان أقل الستة تميزاً وشأناً ، وهو كما كان قد رشح نفسه لديهم عندما قال لهم : لأن تعينوا حَجَرًا خَيْرٌ من أن تعينوا مرة أخرى رجلاً مثل عمر . ولكن النتيجة جاءت مُخَيِّبَةً لظنّهم ، لأن ما كان عليه عثمان من ضعف لم يحمي مفيداً لهم ، بل مفيداً لبيته ، لأنه خضع راضياً أو مجبوراً لتأثير بيته . وكان الأمويون ، شأنهم شأن أمرة النبي عليه السلام ، من بيت عبد مناف ، لكنهم كانوا أشد قوة وأكثر مالا وأعظم قباة من بني هاشم وبني عبد المطلب ، وكانوا منذ موقعة بدر قد احتلوا مكان قبيلة مخزوم ، بعد أن انكسرت قوتها في معركة بدر^(١) ، وكانوا أيضاً قد توصلوا إلى السيادة في مكة بفضل زعيمهم الماهر أبي سفيان ، وهم الذين ظلوا يتزعمون الحرب التي استمرت سنوات بين قريش من جهة والمدينة ومحمد عليه السلام من جهة أخرى ، وهم وإن كانوا قد هزموا في هذه الحرب ، فإنهم لم يقدوا مكانهم وما كان لهم من نفوذ ، بل هم أنقلوها ودخلوها في الجماعة الجديدة التي اضطروا أن ينضموا إليها ، وقد بسّر محمد عليه السلام لهم هذا الانتقال ، وحرص على أن يبين لهم أنهم لن يخسروا بذلك ، ولما كانت مكة قد فقدت قيمتها السياسية ، فإنهم هاجروا إلى المدينة ، ولم يلبثوا فيها أن صاروا قريبين من دقة تدبير الدولة . ونظراً لأنهم هجروا مع ربيع العصر وقبلوا الدين بحسب ما كانت تقتضيه الظروف ، فإنهم ارتفعوا حالياً بفضل قوة الموجة التي كانت توشك أن تبطلهم د ومنذ عهد أبي بكر وعمر نجد يزيد بن أبي سفيان ، ونجد بعد موته أخاه معاوية أشخاصاً لهم شأنهم الكبير ، وإذا كان بروزهم لم يكن في المدينة فقد كان في الأمصار . فلما تولى عثمان وصل الأمويون إلى الخلافة بالفعل ، لأن رياسة عثمان كانت رياسة بيته ، فالتخذ ابن عمه مروان بن الحكم

(١) راجع فيما يتعلق بالنفاسة بين مخزوم وعبد مناف ، سيرة ابن هشام ص ٢٠٢

فابعدا و ص ٤٢٩

كاتباً له في المدينة ، وترك له الأمر ، فلأمر وان كل مناصب الولاية بأهل قرابته ، وبهذا أثار عثمان على نفسه زملاءه ، بقية أعضاء مجلس الشورى ، وكانوا خمسة : علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة ابن الزبير والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص . أما سعد فلم يكن له طموح سياسي (١) ، وأما ابن عوف فقد مات قبل عثمان ، ولكن حات محلهما السيدة عائشة أرملة النبي الشابة التي كانت تعتبر نفسها من أكبر أهل الرأي في الإسلام ، وكانت تتمتع باحترام عظيم . وأحسن كبار الصحابة أن ارتفاع شأن أسرة حاكمة ، [أعني بيت بني أمية] ، يهدد مكانتهم التي كانت لهم حتى ذلك الحين ، وكان هذا هو سبب عداوتهم للأمويين (٢) ، فهل يرضون لأنفسهم ، وهم خلاصة المؤمنين في الدولة البيروقراطية وأصحاب القدم الراسخة في الإسلام ، بأن تزيلهم عن مكانتهم أسرة من الأشراف الوثنيين. القديما بعد أن كانت هي التي تزعمت قريشاً في حربها للإسلام (٣) ؟ فحاول كبار الصحابة ، في بادئ الأمر ، أن يبعدوا بن الخليفة وبين بطانته ، كما قالوا ،

(١) [قارن الطبري مثلاً ج ١ ص ٣٣٥٥ - المترجم] .

(٢) كأن المؤلف لا يمتنع أن هناك إسلاماً في قلوب هؤلاء الصحابة ولا حرصاً على العمل بأحكامه من إقامة العدل والتمسك بالخير والحق ، فهم في الحقيقة لم يمدوا أحداً إلا حرصاً على الدين وعلى الحكم العادل ، وإلا فكيف يفسر المؤلف الفكرة التي قام عليها كتابه وهي أن الثورات التي قامت على الأمويين وانتهت بإسقاطهم كانت تستند إلى الدين . إن المؤلف مؤرخ ولكنه أحياناً ينظر لتاريخ نظرة سياسية أكثر مما ينبغي - المترجم] .

(٣) [يحكي الطبري مثلاً (ج ١ ص ٢٩١٩) أن أحد ثوار العراق الذين ذهبوا إلى معاوية بالشام قال له في أثناء المناقشة : إنا نأمرك أن تتول علك ، فإن في المسلمين من هو أحق منك ! قال : فمن ؟ قال : من كان أبوه أحسن قدماً من أبيك ، وهو بنفسه أحسن قدماً منك ، في الإسلام .

قارن أيضاً رأى علي بن أبي طالب في معاوية وأبيه أبي سفيان عند الطبري ج ١ ص ٣٢٧٨ - ٣٢٧٩ . وهذا يدل على الأساس الذي عليه كان الصحابة يمارضون بني أمية ، ولم يكن الطموح السياسي وحده هو السبب في المعارضة ، كما يؤخذ من كلام المؤلف فيما سبق - المترجم] .

فلما لم يصلوا من هذا الطريق إلى غرضهم انقلبوا عليه هو ، فتعمدوا تفويض هيئته في المدينة ، وغلوا سخط الساخطين عليه من العرب في الأمصار .

٦ - ومهما يكن من شيء فقد بدأ التحفز للثورة في الأمصار (١) ، أعنى في المدن التي كان يسكنها العرب . وكانت الظروف ، بعد أن توقفت حروب الفتوحات الكبرى ، قد تغيرت ، وجاء الهدوء بعد الهياج ، والتفكير المتزن بعد الاضطراب ، وتنفس المحاربون العرب بعد أن كانت الحروب المتواصلة لا تترك لهم إلى الراحة سبيلاً ، فوجدوا فراغاً للتفكير ، وطالما كانت الغنيمة ، وكانت في الحقيقة نهباً مستمراً ، تندفق من غير انقطاع إلى أبدي الجند من طريق الحملات الحربية المتواصلة ، فإنهم كانوا لا يبالون ولا يهتمون أن تضع الحكومة يدها على الشيء وعلى الناس وعلى الممتلكات الثابتة في البلاد المغلوبة ، لأن الجند ما كانوا ليعرفوا ما يضعون بذلك . أما الآن فقد أدركوا أنهم ، من غير أن يشعروا ، قد تركوا غيرهم وسط الهياج والاندفاع في ذلك العصر ، يستحوذ على غير ما في الغنيمة ، فلو أنهم أعطى لهم ، على الأقل ، كل مال الفسء ، أعنى جملة مال الخراج الذي يدفعه المغلوبون كل عام ، لرضوا بذلك . ولكن حتى هذا لم يحدث ، كما رأينا ، فكان الخراج الذي يدفعه المغلوبون يجرى كله ، مع بقية أنواع دخل الدولة ، إلى بيت المال العام ، ولم تكن الحكومة تعطى للمحاربين العرب من ذلك سوى إعطيات لرضيتهم لهم ، فاستولت الحكومة على الأموال التي كانت في الحقيقة من نصيب الجيش . واستطاعت الحكومة بفضل الحكومات التي تمت على يد الجيش ، والتي هي ، بحكم القانون ، غنيمة له ، أن تستقل عن الجيش وتتخلص من سلطانه ، وذلك لأنها لم تقسم الأرض والناس على المحاربين ، بل استولت .

(١) [يستطيع القارئ أن يتتبع تاريخ الثورة هل عمان عند الطبري مثلا ج ٦

ص ٢٩٠٧ فما بعدها إلى شطر كبير من الكتاب - المترجم] .

على الخراج الذى يرتفع من الأرض والناس ، فنزل الجيش إلى مرتبة الافتقار للحكومة والاعتماد عليها عن طريق أعطيات كانت الدولة تستطيع أن تمنحها بالمقدار ، وإلى المدى ، الذى تشاؤه ، وكانت تستطيع أن تمنعها أيضاً فبعد أن كانت الحكومة تعيش من يد الجيش ، أصبح الجيش يعيش من يد الحكومة ، فلا عجب أن يعتقد المقاتلة أن الدولة قد غلبتهم على حقوقهم وهرتهم من أموالهم وأخذتها لنفسها وأنها تستند إلى الخزنة ، فتعالى بذلك عليهم وتأخذ بزمامهم . فزعموا أن المال الذى يجتمع من الخراج ، إنما هو لهم وليس للدولة ، وقالوا إنه مال المسلمين وليس مال الله (الطبرى ج ١ ص ٢٨٥٨ وما بعدها)^(١) ، وتمسكوا بدعوى أن أموال الفتن يجب أن تقسم ، وفى بعض الأحيان نهبوا بيوت المال فى الأصبهر . وهم على أى حال لم يرضوا بأن يُحمل ما يفضل عنها إلى بيت المال الكبير للدولة ، وكانت خبرتهم من الدولة سبباً فى إثارتهم بطبيعة الحال على عمالها الذين كانوا يتصرفون فى سلطان الدولة ومالها ، ورأوا أن العمال يبعدونهم عن الحيوان ، فسخطوا ذلك^(٢) .

(١) [هذه قصة أبى ذر القارى مع معاوية فى الشام وقصته فى المدينة أيضاً ، من دعوة الناس إلى الزهد ومن نهيه عن اقتناء الأموال ، وحفسه الأضياف على الخروج عن أموالهم إلى الفقراء . والذى يؤيد ما حكاه الطبرى أن ابن السوداء وهو عبد الله بن سبأ اليهودى الذى أظهر الإسلام وأحدث الفتن بين المسلمين هو الذى أوحى إلى أبى ذر بما فعل فقال له يوماً : يا أبى ذر ، ألا تعجب لمعاوية ! يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحجب عنه دون المسلمين ويحصر اسم المسلمين . وكان هذا بحسب رواية الطبرى ، نقطة البداية فهما فعله أبى ذر فى الشام وفى كلام معاوية هناك وفى ولوع الناس بكلام أبى ذر حتى لحق الألفياء من الفقراء شيء من العنت . ويجد القارئ قصة ذهاب أبى ذر إلى المدينة ، إلى عثمان ، بعد أن شكوا إليه معاوية أمره ، وأمر عثمان بتوجيه أبى ذر إليه فى المدينة ، وكذلك ما كان من تطور حياة أبى ذر ، كل ذلك عند الطبرى ج ١ ص ٢٨٥٨ - ٢٨٦٢ - المترجم] .

(٢) إن الاسم الديوى للحكومة أو لرياسة أو للدولة هو كلمة سلطان ، أما فى نظر الدين فالسلطان والملك لله . وكلمة « سلطان » ذات أصل آرائى ، ومعناها فى الحقيقة هو : $\kappa\upsilon\rho\iota\sigma\tau\eta\varsigma$ لا $\kappa\upsilon\rho\iota\sigma$ فى اليونانية .

وكان هذا في الواقع اعتراضاً موجهاً إلى النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب ، لأن عمر هو الذي كان قد انتزع النزع من يد الجيش من حيث لا يشهر الجيش ، وجعله للدولة ، مخالفاً للقرآن في ذلك . وإن كان متفقاً مع اتجاه في النظام المالي اتبعه النبي عليه السلام إلى حد كبير^(١) . أما إن المعارضة لذلك لم تظهر في عهد عمر نفسه ، ولم تشتد وبعلو صوتها إلا في عهد عثمان ، فلا يمكن تفسيره بمجرد تغير ظروف العصر ، بل بتغير شخصية الحاكم أيضاً . ولقد قال عثمان بحق إن الشيء الذي ما كان أحد يجرؤ على أن يعيبه على عمر أصبح يعيبه عليه^(٢) .

ولقد كان يعوز عثمان ما كان لعمر من هيبة السلطان ، ولذلك تجلى السلطان الأمراء والعمال في عهده وتجلي جرئتهم وراء مصلحتهم الخاصة على نحو أكثر سفوراً مما كان في عهد عمر ، لأنهم كانوا يخشون بأس عمر^(٣) . وقد كان أثر

(١) وكان النبي من قبل قد جعل لبيت المال ما يقع في يد المسلمين من غير حرب ، وهو قد سبق مرأياً في مصادرة الأسماء (جمع حي) القديمة وفي المنع من جعل أسماء جديدة تكون مرأى لإبل الصدقة وغيرها ، وبذلك أعطى النبي مثالا لمصادرة الأسماء ، راجع كتابنا *Reste arabischen Heidentums* (١٨٩٧) ص ١٠٧ لما بعدها .

(٢) [راجع ما قاله عثمان لعمر بن العاص بعد أن بدأ في هذا التشريع على عثمان - الطبري ج ١ ص ٢٩٦٦ وقارن ص ٢٩٢٩ - ٢٩٤٠ . قال عثمان لعمر مثلاً : والله لو أخذتكم بما أخذتكم به عمر لاستقمتم ، ولكني لنت لك فاجترأت على - المترجم] .

(٣) [لما كلم على بن أبي طالب عثمان في استعماله ألقابه ، احتج عثمان بأنه إنما وصل رجلاً وسد نخلة وآوى ضالماً وولى شقيماً بمن كان يوليه عمر ، فقال له على : إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى لنا يظن على صباه إن بلغه عند حرف جلبة ... وأنت لا تفعل ، ورفقت على أقربائك . فلما قال عثمان إن عمر عين معاوية قال له على : أنشدك الله ! هل تعلم أن معاوية كان أعرف من عمر من عرفاً ، غلام عمر ، منه ؟ قال عثمان : نعم ! فقال على : لأن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها ، فيقول قذاس : « هذا أمر عثمان » ، فيبلغك ذلك ولا تقول على معاوية - راجع الطبري ج ١ ص ٢٨٣٨ - ٢٨٣٩ . أما فيما يتعلق بخشية الناس بأس عمر فهي تتجلى من كلام عثمان قاله لعلى بعد أن دخل عليه ونهيه إلى بعض ما يؤخذ عليه : « وقد والله عيتم على بما أقررتهم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وعظكم بوجهه وضربكم بيده وقسمكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم وكبرهتم ، ولنت لكم وأوطأت لكم كفى وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأت على - الطبري ج ١ ص ٢٩٢٩ - المترجم] .

ذلك في النفوس شديداً ، وخصوصاً أن عثمان جرى على اختيار الأمراء والعمال من آل بيته ، وبدا كأنما قد تحولت الدولة ، من كل الوجوه ، مأكلةً لطائفة ممتازة لها أن تجني خيرات الأمصار .

وقد اتقى على البغض لبطانة عثمان أهل الأمصار وكبار أصحاب النبي في المدينة ، وكانت الغالبية الكبرى في العاصمة ، خصوصاً الأنصار ، وراءهم . وكان على رأس الصحابة على "طلحة والزبير" على أن غضب الصحابة على بطانة عثمان كان له أسباب أخرى ، وقد كان من السهل عليهم أن يجعلوا لمنافستهم تلك البطانة الصبغة الدينية اللازمة ، وأن يظهروا مدافعين عن الكتاب والسنة ، وأن يستغلوا السخط السائد لمصالحتهم . ولكن بالرغم من جرأتهم على عثمان وعدم احترامهم له ، فإنهم لم يشاءوا أن يستعينوا بأهل المدينة ويحاربوه هم أنفسهم حرباً سافرة تحت سمعه وبصره ، بل هم آثروا أن يقدفوا النار في الأمصار ، وفي الأمصار كانت تركز ، على كل حال ، القوة الحربية والمالية للدولة . فأما المدينة فلم يكن مركزاً فيها سوى السلطة الأدبية للإسلام . ففي عام ٤٤ هـ (٦٥٤ - ٦٥٥ م) كتب للصحابة إلى أهل الأمصار : إن كنتم تريدون الجهاد فكانه الآن في المدينة (١) . وكان كلامهم مُلهِياً للكوفة قبل غيرها ، وكانت الكوفة أكبر مركز لمعارضة

(١) [هذا ما يقوله المؤلف ، نقلاً عن الطبري في الدال ، وهو كلام عام ، وغير كاف في وصف الموقف ، أما الطبري فهو يقول ، نقلاً عن الواقدي : « لما كانت سنة ٣٤ هـ كتب أصحاب رسول الله صلعم بنفسهم إلى بعض أن أقدموا ، فإن كنتم تريدون الجهاد فمعدنا الجهاد . وكثر الناس على عثمان وقالوا منه أفزع ما نزل من أحد ، وأصحاب رسول الله صلعم يرون ويسمعون ، ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب إلا ففر منهم زيد بن ثابت ... » ، ويقول للطبري في موضع آخر : « لما رأى الناس ما صنع عثمان ، كتب من بالمدينة من أصحاب النبي صلعم إل من بالآفاق منهم ، وكانوا قد تفرقوا في الثغور : إنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا ، فبه سبيل الله عز وجل ، تطلبون دين محمد صلعم ، فإن دين محمد افسد من خلفكم وترك ، فهللوا فأقبلوا دين محمد صلعم . فأقبلوا من كل أفق حتى قتلوه » . - المترجم نقلاً عن الطبري ص ٢٩٣٦ - ٢٩٨٢] .

المقاتلة للحكومة . وبينما كان الولاة في آخر عام ٣٤ هـ (يونيو ٦٥٥) عند الخليفة في مكة ، قامت الثورة في الكوفة يقودها مالك الأشتر ، وهو من كبار اليمانيين المواليين لعلي بن أبي طالب . ولما عاد إلى الكوفة سعيد بن العاص أميرها من مكة وقف ألفاً من أهل الكوفة أمام مدينتهم ومنعوه من الدخول فيها . فعزل عثمان سعيداً دون تردد ، وعين على الكوفة عاملاً يرضاه الثوار ، وبذلك هدأهم مؤقتاً (١) .

ولكن ثوار أهل مصر جاءوا إلى المدينة بدلاً من الكوفيين . وكان عثمان قد عين ابن عمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، رغم أن النبي عليه السلام كان قد طرده وأباح دمه ، مكان فاتح مصر عمرو بن العاص ، ولذلك احتقد عليه عمرو ، وهو الرجل الداهية الخطر ، وكان يمرض عليه في المدينة ، ولعله أيضاً لم يخل من التحريض عليه في مصر (٢) . وفوق هذا ثار في مصر محمد بن أبي حنيفة ،

(١) [يحكى الطبرى في حوادث سنة ٣٢ هـ (ج ١ ص ٢٩١٥ - ٢٩١٦) أن سعيد ابن العاص والى الكوفة من قبل عثمان ، قال وهو في مجلس من وجوه أهلها ، فيهم مالك الأشتر : إنما هذا السواد بستان قريش ، فقال مالك الأشتر ، وكان حاضراً : أترى أن السواد الذى أئاه الله علينا بأسافنا بستان لك وتقولك ، والله ما يزيد أوفاكم نصيباً إلا أن يكون كأحدنا ! ثم قامت مناقشة بينهم وبين الوالى ، فدخل صاحب الشرطة ، فوثبوا عليه ووطئوه وطئاً شديداً حتى غشى عليه ، فأخرجهم سعيد من جماعة سواره ، فصاروا يجلسون في مجالسهم ويوتهم ويشتمون عثمان وسعيداً ويقولون عليهما ، واجتمع الناس إليهم . ثم تطورت الثورة وأتهم حاكم الأشتر سعيداً إلى جانب زعمه أن السواد بستان قريش بأنه يريد إلغاس الأحداث المفروضة للرجال والنساء فلما عاد سعيد من مكة خرج أهل الكوفة يسوقهم لرده ، فرجع إلى عثمان فعزله وولى أبا موسى الأشمرى استصلاحاً لأهل الكوفة وإسقاطاً لحجبتهم . وكتب إليهم كتاباً بذلك . ولم يرض أبو موسى أن يصل بهم إلا بعد أن اترفوا بالسمع والطاعة لعثمان - المترجم . نقلاً عن الطبرى ج ١ ص ٢٩٣٠ - ٢٩٣١ ، ٢٩٣٤ ، ٢٩٣٦] .

(٢) [يحكى الطبرى (ج ١ ص ٢٩١٦) لما بعدها : أن عثمان عزل عمرو بن العاص عن الخراج واستعمله على الصلاة واستعمل عبد الله بن سعد على الخراج ، ثم جمعها له ، فلما قدم عمرو إلى المدينة جعل يطمئن على عثمان ويؤلب عليه الصحابة والحجاج ويمرض عليه جميع الناس حتى الراعى في غنمه في رأس الجبل ، كما يقول عمرو نفسه . وبعد أن حوضر عثمان خرج عمرو من المدينة وظل يترقب أخبار الفتنة ، فلما بلغه مقتل عثمان قال : أنا أبو عبد الله ، إذا حكمت قرعة فكأنها - المترجم نقلاً عن الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٢] .

وكان من قبل يتيماً في حجر عثمان^(١) ، كما ثار محمد بن أبي بكر ، أحد أولياء عليّ المتحمسين ، وكانا في المعركة البحرية الكبيرة^(٢) التي كانت بين المسلمين والهرقل (اسمه Contsans) قرب شواطئ لوقية ، فانفصلا بحركتهما عن الأسطول العربي قائلين : أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً ، وقد عابا على عثمان ما عابه غيرهما في العادة ، خصوصاً أنه ملأ جميع المناصب التي تدر الخيرات بأبناء عمومته ، وبذلك بدروا بدوراً خطيرة للفتنة ، وكان ذلك عام ٣٤ هـ . وفي العام التالي أبي خمسة عربي من مصر ، الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله لقتال العدو الداخل ، فظهروا أمام المدينة في حوالى الشهر العاشر من عام ٣٥ هـ (يونيو ٦٥٦ م) وطالبوا الخليفة بأور وهددوا باستعمال القوة إن هو لم يستجب إليها . وقد وقف أهل المدينة ، إلا القليل ، إلى جانبهم وأيدوهم : لكن لما لم يكن تحت تصرف عثمان ، وهو رئيس أقوى دولة على الأرض في ذلك الحين ، حرس مقر دولته يحمونه بالقرية ، فإنه رضى لمفاوضة الثوار ، وأفلح في إقناع أهل مصر بالانصراف ، بأن وعدهم بإزالة أسباب شكواهم ، لكنهم ما كادوا يبتعدون حتى جاء مروان بن

(١) [كان محمد بن أبي حذيفة من أقارب عثمان وكان يتولى إيتام أهل بيته ويحتمل كتابتهم . أما سبب ثورته على عثمان فهي ترجع ، بحسب حكاية الطبرى ، إلى أن عمداً بعد أن تولى عثمان الخلافة طلب من عثمان أن يوليه حملا ، فلم يجده أهلا لذلك ، فطلب الخروج طلباً للرزق ، فأذن له عثمان وجهزه من عنده وحمله وأعطاه . فلما وقع محمد بن أبي حذيفة إلى مصر كان من تغير على عثمان ، لأنه منعه الولاية - المترجم نقلاً عن الطبرى ج ١ ص ٣٠٢٩ ، قارن أيضاً ص ٣٢٣] .

(٢) [يشير المؤلف إلى الغزوة المشهورة بدزوة الصواري التي كانت عام ٣١ هـ (الراقدى) أو عام ٣٤ هـ (أبو معشر) ، وكان فيها عبد الله بن سعد بن أبي سرح هو القائد البحرى ومعاوية بن أبي سفيان القائد البرى . ولما التقى الأسطولان آمن الجيشان بعضهم بعضاً حتى قرأوا بين صواري السفن . وقد انشق محمد بن أبي حذيفة انشقاقاً روسحياً سياسياً أكثر منه حربياً . وأخذ يعيب على عثمان بعض ما صنع ، خصوصاً استعمال عبد الله بن سعد ، فنبذ عبد الله وقاتل وحده - راجع الطبرى ج ١ ص ٢٨٦٧ فما بعدها - المترجم] .

الحكم ونفر من بنى أمية فجعلوه يرجع عما كان منه . وفي يوم الجمعة التالي خطب في المسجد قائلاً : « إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان قد بلغهم عن إمامهم أمرٌ ، فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم رجعوا إلى بلادهم » . وعند ذلك قامت عاصفة من الغضب عليه من جانب أهل المدينة ، وكانوا يولّون جمهور المصلّين ، فلم يكتفوا بأن رفعوا أصواتهم معترضين على ما قاله ، بل هم حصّبوه حتى صرّح عن المنبر مشياً عليه . واحتُمل إلى داره ، وكان هذا آخر ظهور لعثمان في الناس في مسجد المدينة .

ثم أخذ أهل المدينة^(١) يتجمعون بكثرة أمام دار عثمان^(٢) ، وكانت إلى جانب المسجد ، ولم يستجيبوا لدعوة من دهاهم إلى التفرق والانصراف . وبعد أيام قلائل وصل المصريون فجأة ، وأحضروا خطاباً من الخليفة إلى حامله بمصر يأمره بقتلهم وصلبهم أو جلدهم وحبسهم ، وأطلعوه عليه فأقسم بالله أنه ما كتبه ولا أملاه ولا أشار به ولا علم به . فقالوا إنهم وجدوه مع غلامه وعلى جملة وهو بخط كاتبه وعليه خاتمه ، فأجاب أن كل ذلك بغير علمه وأمره وأن الخط قد يشبه الخط وأن الخاتم يجوز أن ينتقش مثله ، فقالوا : أيسجترأ عليك ، فيبيح غلامك على جملتك وينقش على خاتمك ويكتب إلى حاملك بهذه الأمور العظام ! فلما أن تكون ضعيفاً مغلوباً أو غافلاً لا يصح أن يلى أمور المسلمين ! ثم طلبوا منه أن يعتزل ويخلع نفسه . ولكنه رفض ذلك رفضاً حاسماً ، وقال : ولست خالفاً قبيحاً

(١) [هذا ما يقوله المؤلف ، والغالب أن الذين تجمعوا هم والفوار من أهل الأمصار .

الترجم] .

(٢) الدار جملة بيوت أو حجرات متصلة ذات باب واحد ، ولا يفرق العرب بين

مجموعة البيوت أو مجموعة الحجرات .

كسانيه الله عز وجل» (١)، ومنذ ذلك الحين أصبح عثمان مُحاصراً بالمعنى الحقيقي وكان يحمية في داره غلماناً وحششته وبعض أقاربه . ونحلى أهل المدينة بين المصريين وبين ما أرادوا أن يفعلوا ، ولم يتدخلوا منهم ، ولو أنهم أرادوا ذلك لما شق عليهم أن يقضوا على مئات قليلة من الثوار ، فأهل المدينة بدأوا بإثارة العاصفة على الخليفة ، «ولما تركوا لإتمام الثورة إلى ثوار من غير أهل المدينة ، بل هم ، خصوصاً بعض الأنصار ، ساعدوا الثوار بالفعل . أما كبار الصحابة الذين كانوا يحملون أكبر الوزر في اندلاع نار الثورة ، وهم على وطلحة والزبير ، فإنهم لم يبدلوا أى جهد لإخمادها ، وربما كان موقفهم من الخليفة هو أنهم أظهروا أنفسهم أنهم لا يستطيعون مساعدته لأن أيديهم مقيدة ، ولكنهم إنما كانوا يظهرون غير

(١) [راجع تفاصيل الفتنة ومقتل عثمان عند الطبرى ج ١ مخصصاً ص ٢٩٦٥ ووصلحات كثيرة لالية .

والؤلف قد اقتضب هنا اقتضاباً كبيراً وأغفل ذكر الدور الذى كان لعبه الله بن سبأ (ابن السوداء) في إثارة الفتنة أولاً وتنظيم الاتصال بين الثوار في مختلف مدن الأمصار . ومهما طویل في دور ابن سبأ فهو مذكور في كتب التاريخ ولا يصح إغفاله . وتجد أخبار الفتنة كلها عند الطبرى مثلاً ج ١ ص ٢٩٠٧ - ٣٠٥٠ . ولا بد للباحث هنا من نقد الروايات وترتيبها وإبراز مختلف العوامل من دينية واقتصادية ، وعوامل للفساد من جانب العرب وغير العرب ، وإبراز الدور الذى كان لأهل المدينة ومساهى كبار الصحابة لتهدئة الفتنة وإفساد عروان بن الحکم وقومه مخطط الصحابة . وعلى كل حال الذى يوغد من الروايات في جعلها أن حاشية عثمان من بنى أمية استغلت نفوذها باسمه وأنه لم يكن عند عثمان حرس يحمية ، فعرض عليه معاوية أن يذهب معه إلى الشام ، فأبى إيثراً منه البقاء في المدينة إلى جوار رسول الله صلعم . وأيضاً أبى عثمان أن يتنازل عن الخلافة بحافة النزاع عليها في أثناء فتنة ، مما قد يؤدي إلى حرب أهلية ، وخصوصاً أن هوى كل مصر من الأمصار كان مع أحد الصحابة الكبار . وقد حاول الصحابة أن يتدخلوا فنصحوهم لثمان وكان يلتصق ، ولكن حاشيته من بنى أمية كانت تؤثر عليه حتى مل الصحابة ذلك وقروا ألا يعودوا إلى الكلام معه . وتدل القرائن على أن الخطابات التى استند إليها الثوار كانت مزورة على عثمان . وأخيراً لما تفاقم الأمر وأوشك القتال أن ينشب أمر عثمان من في داره ألا يدافعوا عنه عنيفة ازدياد الفتنة ، فاستسلم لأمر الله وقتل . وكأنما كان أمر الفتنة قد تفاقم وأصبح لإيقافها مستعجلاً وأصبح التدخل لإيقافها بالقوة أعظم منها شراً ، فلم يتدخل الصحابة وتركوا الحوادث تسير سيرها إلى النهاية المحتومة ، وكل شيء بقدر - المترجم [.

ما يُبطنون ؛ أما الحقيقة فهي أنهم لم يعملوا أبداً على إيقاف سير الحوادث
آملين أن تنتهى بالفائدة لهم ^(١) .

وجاء التحول الحاسم نحو الشر ، أعني أول إراقة للدماء ، من قبل
المدافعين عن الدار ، وذلك أن واحداً منهم رمى حجراً فأصاب رأس أحد
الصحابة ، وكان شيخاً كبيراً واقفاً خارج الدار ، بين الجميع المحتشد ، فقتله .
ثم امتنع عثمان من تسليم القاتل ، فحصر محاصروه عند ذلك أن لم الحق ،
بل هلبهم الواجب ، ألا يبالوا بكل الاعتبارات ، وشرعوا يقتحمون
الدار . وكان يقودهم عبد الرحمن بن عديس البلوخي من أهل مصر ،
ملتجئاً بظهرة إلى المسجد ، وقد قاتل خلعاء عثمان دون باب الدار ،
بل هم حاولوا ، عندما أشعل الثوار النار في أبواب الدار أن يصدوا
المهاجرين ، ولكن جماعة من هؤلاء اقتحموا الدار آتين من الدور التي

(١) [لاشك أن في هذا مهالة كبيرة ، فالثابت من الروايات أنهم لعبوا دوراً جدياً
في إزالة الفتنة ، ولكن خططهم لم تنجح . ولو أنهم تدخلوا بالقوة ، مع هادئ بوجود أسباب
حقيقية للشكوى استند إليها الثوار ومع علمنا بأن الثوار من قبائل شتى ، لكان معنى ذلك أنهم
يقودون الفساد الذي صنمته حاشية عثمان من جهة وكان معناه الحرب بين العرب على لملاق واسع
يشمل الأمصار من جهة أخرى . وقد اندلش بعض الصحابة من قتل عثمان - وهذا ثابت في
الروايات - لأنهم لم يكونوا يتوقعون أن يجترأ الثوار على قتله . ويظهر أن القتل كان
تطوراً أخيراً أفلت زمامه حتى من يد القاتلين أنفسهم .

وإذا كان للإنسان أن يعجب فله أن يعجب من تأخر معاوية عن نصرة عثمان ، مع أنه رأى
أوائل الفتنة ومع وجود جند الشام تحت يده وطوع أمره ومع أنه توقع اشتداد الفتنة حتى
لقد أوصى الصحابة بثمان ، ولكن كان معنى هذا وقوع الحرب في المدينة ، في عاصمة دولة
لا تزال حديثة العهد .

الواقع أن مقتل عثمان يرجع إلى الدرجة التي بلغها نمو الدولة نفسها ، فلم يكن هناك جيش
في المدينة ، ولا كان هناك حرس خاص يسمى الخلافة ، ولا كان هناك مجلس يراقب أعمال حاشية
الخلافة . ولا يصح أن ينسب المؤرخ أننا في عاصمة دولة دينية تقوم على فكرة أكثر مما تقدم
على جيش ، ودستورها فكرة أيضاً . وكانت الفتنة ، إلى حد كبير ، قائمة على فكرة القضاء على
خضاد حاشية الخلافة ، تمسحاً مع فكرة العدل ومع ضرورة القضاء على المحسوبية . ولا تستطيع قوة
أن تقف في وجه فكرة أكثر من وقوفها أمام سيل جارف . ولم يكن الصحابة يريدون قتل
عثمان جرياً وراء فائدة لهم ، بل هم لم يكونوا يتوقعون القتل ولم يريدوا إذكاء الفتنة - المترجم

حولها ، واندفعوا إلى غرفة الخليفة نفسه ، وكان يصلى ، واضعاً القرآن أمامه ، غير مببال بما كان يجري خارج الدار . وكان محمد بن أبى بكر ، ابن صديقه وسلفه ، أول من امتدت يده إليه ، ثم اتبعه كنانة بن بشر التجيبى ، بالضربة القاتلة ، وطعن آخرون الجنة إطفاء لما فى نفوسهم . بعد هذا لم يصبح لمقاومة المدافعين معنى ، واستطاع من بقى منهم أن ينجوا بأنفسهم من غير مشقة . وكان ذلك يوم الجمعة ثمان عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ (١٧ يونيه سنة ٦٥٦ م) وتأخر دفن الخليفة المقتول أياماً ، إلى أن تجاسر على دفنه ، بعد رجاء شديد من جانب أرملة نائلة الكلبية ، جماعة من الخلفاء ، ودُفنت الجنة بسرعة بين المغرب والعتمة من غير أن تُغسل ، وحملت على باب ، كانت رأس الجنة تفرعه ، ورجعها البعض بالحجارة وتكلموا بكلمات السوء . ودعا الحال إلى دفنها فى موضع كان اليهود يدفنون فيه موتاهم ، بل لم يسمح الأنصار بدفنها فى مقابر المسلمين وهكذا دفن الخليفة كما يدفن غير فى مزيلة (١) .

٧ - كان مقتل عثمان حادثاً حاسماً لا يكاد يدانيه فى خطره حادث آخر فى التاريخ الإسلامى . فبعد ذلك الحين صار للسيف القول الفصل فى أمر رئاسة الحكومة التیوقراطية : وفتُح باب الفتنة ولم ينسد بعد ذلك أبداً انسداداً تاماً (٢) . ولم يمكن منذ ذلك الحين المحافظة على وحدة ممثلة فى شخص إمام على رأس الجماعة إلا فى الظاهر على الأكثر ، وبالقوة والقهر . فللحقيقة أن الجماعة قد انشقت .

(١) [الواقع أن الطريقة التى تم عليها دفن عثمان لا تلحق به . وقد دفن فى مكان يسمى حش كوكب ، وحمل على هجل مخافة اعتراض السفهاء لثمنه ، وكان ذلك فى الليل على ضور السرج ، ودفن فى مكان شبه مجهول مخافة أن ينهب قبره . ولما جاء معاوية أزال الحائط الذى كان حول القبر وأمر الناس ، خصوصاً بنى أمية ، بدفن موتاهم حول قبره حتى اتصل بالقيع بمقابر المسلمين - المترجم] ..

(٢) ولذلك يسمى الخليفة المقتول بالباب المفتوح [ليراجع القارئ كلمات عثمان التى وجهها لخصمه يذرم بالفتنة المتصلة والفرقة ، وهى موجودة عند القلىرى فى المواضع التى أشرنا إليه من قبل - المترجم] ..

وتفرقت شيعاً وأحزاباً ، كل منها يحاول أن يفرض سلطانه السياسى وأن يلجأ للسيف تأييداً لإمامه على الإمام الحاكم بالفعل ، وكانت المشكلة مؤلة لأهل الديانة والورع^(١) ، فكانوا بين أن يتراجعوا فيسُخِلُوا بما أوجبه الإسلام وشدته فيه من إعلان الرأى والدفاع عن الحق بالقول والفعل ، وبين أن ينضموا إلى فريق فيخالفوا أصلاً أساسياً من أصول الحكومة التيقراطية ، وهو ألا يحارب المؤمنون إلا الكافرين ، وألا يحارب بعضهم بعضاً ويريق بعضهم دماء بعض . وكانت الإجابة عن سؤال : ما قولكم فى مقتل عثمان ؟ هى التى تكشف عن اختلاف الناس فى آرائهم :

أما ثمرة تلك الفسلة المُحَمَّلة بالبلاء فقد وقعت فى حجر هلى . وذلك أن هلى ، ختن النبى ، كان بعد موت أبى بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف أكبر الصحابة غير مدافع ، وكانت له مكانة أكبر مما كان لطاحة والزبير ، وكان فى أثناء حصار الدار هو الذى يصلى بالناس كما أنه هو الذى حج بهم ، وكان فى نظر كافة أهل المدينة ، خصوصاً الأنصار ، هو الخليفة الطبيعى لعثمان ، وكان هوى المصرين معه أيضاً ، ومن أجله كانوا يعملون لا من أجل خبره ، وكانت كلمتهم ، فى تلك الساعة المضطربة ، هى الكلمة الفاصلة . وقد تلقى البيعة العامة فى المسجد ، فى نفس اليوم الذى قتل فيه عثمان ، ولكن كان من الطبيعى أن تعقب الهياج والاضطراب حركة تكوص . فلحق النقوس شىء من الانقباض ، ولم يهتل أهل المدينة للخليفة الجديد الذى تلقى البيعة وسلطان الخلافة من أيدي غير بريئة من الإثم^(٢) . وهم لم يؤيدوه تأييداً قوياً ، وكانوا كان من حسن محظه أن طلحة

(١) ومن أجل ذلك تسمى الحرب الأهلية بالفتنة .

(٢) [جادت فى الطبرى (ج ١ ص ٣٠٦٦ فما بعدها) أخبار مبايعة الناس لعلى وما روى من امتناعه ثم قبوله وما قيل فى بيعة طلحة والزبير طوعاً أو على كره منهما . ويظهر أن هلى قد اضطر إلى قبول الخلافة ، بعد أن كان يرى أن تترك للشورى ، بسبب المواقف ، وهو أنه لو رجعت الوفود إلى الأنصار بعد الحج من غير أن يكون هناك خليفة لوقع انقسام كبير ، ويجد القارئ =

والزبير ، وهما اثنان من الثلاثة الكبار بين الصحابة ، انقلبا عليه انقلاباً مخزيّاً ، لأنه بتلقيه البيعة نال دونهما نجاحاً قانونياً . وهما في حياة عثمان لم يألوا جهداً في الكيد لعثمان . وكان يبدو أن ذلك لأجل على ، فقد قدماه على أنفسهما ، لكنهما الآن خرجا عليه خروجه المنافسين ، واتهماه بأنه هو الذي دبر مقتل عثمان وأنه هو الذي استفاد منه . فتركوا المدينة وانتقلا إلى مكة . وكانت هناك عاتشة أم المؤمنين ، وقد انسحبت من الثورة على عثمان ، بعد أن اشتركت فيها بالفعل اشتراكاً قوياً^(١) ، وللتجأت إلى مكة قبل أن يبلغ الأمر غايته ، وذلك لتعلن براءتها من دم عثمان وتستطيع أن تكيف موقفها بحسب ما يوئول إليه أمرُ الفتنة . على أنها كانت تبغض علياً^(٢) ، فلما سمعت أنه تلقى البيعة لم تردد في تقديس عثمان ، ونادت إلى الأخذ بالثأر له من الخليفة الجديد^(٣) ، وقد التفت حولها عددٌ من الهُرَّاب الذين تساقطوا إلى مكة ، اختلف الحكم في أمرهم اختلافاً كبيراً . وانضم إليها طلحة والزبير واستثرا وراءها ، وكانوا ثلاثتهم رؤساء وقواد الثورة على علي في جزيرة العرب . ولكنهم لم يستطيعوا أن يبدأوا محاربته من مكة ، لأنه كان في المدينة ، وكانت المدينة أكثر هدداً من مكة بكثير ، فقرروا أن

كل ما يتعلق بأحداث خلافة علي عند الطبري ج ١ ص ٢٠٦٦ - ٣٤٧٤ . ونظراً لأن كثيراً من هذه الأحداث معروف مشهور فقد أضربنا عن ذكر بعض النصوص مكتفين بالإشارة الإجمالية إليها . والمؤلف اقتضب في عرضه للحوادث اقتضاباً كبيراً ، ونظراً إلى المسألة بمنظار سياسي خالص وأغفل روايات أصحاب الحديث ، ومنها ما جاء عند الطبري ج ١ ص ٣١٦٩ لها بعدها والروايات التي تدل على رغبة كبار الصحابة وعاتشة في الصلح وعلى إفساد قتلة عثمان خططهم (الطبري ج ١ ص ٣١٨١ - ٣١٨٦) وعلى الدور الذي قام به الشيعة وعلى عامل الإخراج في الحرب - المترجم] .

(١) [راجع مثلاً الطبري ج ١ ص ٣٠٩٨ ص ٧ - ٩ و ص ٣١١٢ - المترجم] .

(٢) [راجع ، خلافاً لهذا ، الطبري ج ١ ص ٣١٧٠ - المترجم] .

(٣) [راجع الطبري مثلاً ج ١ ص ٣٠٩٦ فما بعدها : قالت عاتشة في خطة لها بمكة إن الذين قتلوا عثمان هم غوغاء أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة وإن « أصبح عثمان غير من طباق الأرض أنثاهم » ، ثم دعت إلى الاجتماع على قتال القتلة « حتى يتكلم بهم غيرهم ويشرد من بعدهم » ودافعت عن عثمان ودعت إلى الأخذ بثأره - المترجم] .

(٤) [الطبري مثلاً ج ١ ص ٣١٠٢ ، ٣١٠٤ - المترجم] .

يخرجوا من جزيرة العرب وأن يصدوا البصرة ، وكان لهم بها صنائع ولأهلها هوى في طلحة ، فاستطاعوا أن يستولوا على البصرة وأن يستقروا فيها . وإزاء ذلك رأى على* أيضاً أنه لا يستطيع البقاء في المدينة ، فأتبعهم إلى العراق ، وقصد الكوفة أولاً ، وكان مالك الأشتر ، ذلك اليماني صاحب الكلمة النافذة ، قد مهد الأرض هناك : وخرج على أهل الكوفة ، وهاجم أهل البصرة ، فانتصر عليهم على مقربة من مدينتهم ، في موقعة الجمل^(١) . (٩ ديسمبر سنة ٦٥٦) ، وهي تسمى بهذا الاسم لأنها كانت تدور رحاها حول الجمل الذي كانت عليه عائشة . فأما طلحة والزبير فقد وقعا قتيلين ، وأما عائشة فلأنها بعد هذا الإخفاق انسحبت من على المسرح . ثم صالغ أهل البصرة علياً ، وباع له أهل العراق جميعاً : فأقام هناك وجعل الكوفة مقراً له .

وقد كانت النتيجة الأولى لمقتل عثمان هي أن الخلافة القديمة قد انتهت في مدينة الرسول ، وأن الخلافة الجديدة جعلت مقرها بعيداً عن المدينة . وقضى على قداسة الخلافة ، وصار الحكم في النزاع عليها إلى السيف : ولكن قوة الدولة كانت في الأمصار ، وكانت غالبية القبائل قد هاجرت إلى مدن المعسكرات ، وانتقل مركز الثقل في جزيرة العرب من وسطها إلى أطرافها . وكان أهل المدينة أنفسهم قد خطوا الخطوة الحاسمة في ذلك ، لأنهم دعوا أهل الأمصار إلى مدينتهم وحكّوا بينهم وبينها ، يفعلون فيها ما يشاؤون . وبذلك تنازل أهل المدينة عن سيادتهم التي كانت شاملة : ويمكن القول إن كبار الصحابة ، بنوع خاص ، قد ارتكبوا انقحاراً سياسياً ، لأنهم هدموا السيادة الأدبية التي كانوا يستندون إليها ، وذلك لأنه إذا كان الأمر أمر القوة المادية ، فإن غيرهم كان أقوى منهم . ومنذ ذلك الحين نزلت جزيرة العرب عن مستواها الذي كان لها قبل الإسلام نزولاً

(١) [الطبري ج ١ ص ٢٢١٨ : كانت وقعة الجمل في جمادى الآخرة سنة ٨٢٦ -

الترجم]

كبيراً ، وذلك بسبب هجرة العرب منها على نطاق واسع ، وبسبب ما لحقها من خراب على أثر الهجرة . ونجد صدئى للبكاء الأليم على ذلك في القصائد القديمة^(١) . فلم تعد المدينة عاصمة الدولة ، وكل الجهود التي بُذلت لاسترداد مجدها المفقود ذهبت سدى ، ولم يبق لها من الشأن سوى أنها أصبحت داراً للتراث الإسلامي الذي صار موضوعاً لمصنفات العلماء ، كما أنها غدت ركناً تنزوي إليه الطبقة الساخطة التي تندحر جانباً والتي كان الفضل في تكوينها للنبي ، فكانت من معزها هناك تحاول من حين إلى حين أن تصل إلى تحقيق مطامعها : على أن المدينة قد احتفظت بمجاذيبها من حيث أنها وطن لقوم يحبون أن يقيموا أينما شاءوا ، أو لقوم أخفقوا في دورهم السياسي ، أو لقوم انسحبوا لأسباب أخرى . وهكذا صارت مدينة أهل الصلاح والديانة مدينة الطبقة الغنية من أشراف العرب الذين أرادوا اللهو ، ومدينة التسلية والموسيقى والغناء واللهو والخبون .

واستطاع على من مقر خلافته في الكوفة ، أن ينشر سيادته على جزيرة العرب كلها ، هذا الشام وحدها : وقد كان لهذه الولاية مركز الفردت به ، لأن معظم العرب الذين كانوا يقطنونها لم يذهبوا إليها مهاجرين كغيرهم . وكان لهم ، إلى جانب ذلك ، تقاليد غير التي كانت لأهل الكوفة والبصرة ، وكانوا منذ زمان طويل واقعين تحت التأثير اليوناني الروماني ، وكانوا قبل الإسلام تابعين للدولة هي دولة الغسانيين ، ولذلك كانوا متعودين على النظام والطاعة بعض التعود ،

(١) فيشكو البريق بن حواش شاعر الهذليين من أنه بقى وحده شيخاً هرمًا ومعه قليل من النساء والأطفال في بلاد كان يهملها ناس كثيرون ، ويردد ذلك أبر غراش وغيره . ويروى أن قتي جاء إلى عمر يطلب السماح بالجيش ، فقال له عمر إن يقاهم برأ بوالديه خير من الهجرة . وهذا هو ما يتفسمته إنجيل نرقص (الإصحاح السابع ، الفقرة ٧ فإيها) [ويجه القارئ شعر البريق هذا فيما نشره المؤلف من شعر الهذليين ، ضمن الجزء الأول من كتابه *Skizzen und Vorarbeiten* ، برلين ١٨٨٤ ، ص ٢١ - ٢٣ من القسم العربي - المترجم] .

قلم يثوروا على أميرهم مع أنه كان أموياً ، وهو معاوية بن أبي سفيان : وكان معاوية قد لبث على ولاية الشام عشرين عاماً ، ورضى عنه الناس جميعاً ، فلم يَسْبُدْ له عند ذلك أن يخلى المجال ويباع لعلّ ، وكان موقفه إزاء على يختلف من موقف طلحة والزبير ، وكان أكثر مواتاة له من موقفهما ، وهو لم يكن من المستحقين للخلافة ، ولا هو طالب بها ، بل اختط لنفسه في تلك الولاية التي كان يدبر شئونها سياسة خاصة ، فهو لم يعتبر أن ولايته قد انتهت بمقتل عثمان ، وحافظ على منصبه إزاء الثورة . وقد استطاع أن يسجل على رايته الولاء والطاعة للحكومة الشرعية ، وذلك خلافاً لأصحاب الفتنة التي لم تزل لها صفة الفتنة ، وإن كان الدين قد أثاروها هم أهل الدين والصلاح باسم الإسلام . وقد كان مما أفاده أنه كان ، بحكم أنه ابن عم الخليفة المقتول ، صاحب الحق في التأثير لمقتله ، وأن واجب التأثير يقع على عاتقه . وإنما كان على معاوية هذا الواجب دون غيره من أقارب عثمان ، لأنه كانت لديه دونهم جميعاً الوسائل الكفيلة بالوصول إلى ذلك ، فقد كانت له الإمرة في الشام على جيش وطني بالمعنى الحقيقي .

وبعد موقعة الجمل أسرع على في أهل العراق قاصداً أهل الشام ، فالتقى بمحبيهم على حدود الفرات . وهناك عند صِفِّين ، وقعت معركة حامية الوطيس ، ومال النصر فيها أخيراً إلى جانب على : حتى إذا رأى أهل الشام أنهم على وشك الهزيمة ، رفعوا المصاحف على أمتة رماحهم . وفهم أهل العراق المقصود من ذلك : إنكم تريقون دمّ قوم مسلمين ، هم مثلكم ينضمون تحت راية كلام الله . ولقد كان لهذا أثره في أهل العراق ، وذلك أن القيام لأجل الحق في الحكومة التيقراطية ساقهم إلى قتال عثمان ، ثم محاربة عائشة وأهل البصرة ، وهو الآن يسوقهم إلى محاربة معاوية وأهل الشام ، وإذن فالجماعة الإسلامية قد انشقت على نفسها ، فمن الذي منهم على الحق ؟ ولما كان هذا الموقف الملتبس قد تبين لهم ،

في ساحة مضطربة ، على صورته الواضحة ، فإنهم اضطربوا وتحيروا ، فكان أهل الدين الموجودون في المقدمة والذين يضربون المثل لغيرهم ، هم أول من خفض السلاح أمام القرآن ، فحذا الآخرون حذوهم ، وأجبروا علياً أيضاً على الكف عن القتال وعلى ألا يجعل تقرير أمر الخلافة للسيف . بل للقرآن ، أى على يد محكمين يصدر عن حكمهم عن القرآن ، فلما مانع في ذلك هددوه بأن يكون مصيره مصير عثمان . ولكنهم لما خرجوا من صفين ، وكانوا في طريقهم إلى الكوفة أدرك جند علي كلهم أنهم قد أخذوا عن النصر خدعة نعسة ، وكان أشدهم ندماً أولئك الذين كانوا أول من وقع في شرك الخديعة فأضلوا غيرهم ، واعتبروا أنه قد كان من أكبر الإثم أنهم سمحوا للاضطراب أن يتطرق إلى إيمانهم وأنهم تحيروا حيناً في اعتقادهم بمشروعية الثورة على عثمان . ولكنهم ، من جهة أخرى ، لاموا علياً أيضاً ، لأنه قبل التحكيم ، ولأنه يقوله إياه قد جعل القضية العادلة لا كانوا يحاربون من أجلها موضع شك بالفعل . فطلبوا منه أن يبادر بالرجوع عن الخطوة التي كانوا هم أنفسهم أجبروه على أن يخطوها ، وأن ينقض المعاهدة التي عقدها مع أهل الشام : فلما لم يكن في استطاعته أن يتبعهم ولا أن يتأرجح طبقاً للنغمة التي يضربونها ، عند ذلك خرجوا عليه ونزلوا معسكراً خاصاً بهم في حروراء ، فسُموا الملك بالحرورية . أما الاسم الشامل الذي يطلق عليهم فهو اسم الخوارج .

ولكنهم في هذه المرة لم يأخذوا سواد الناس معهم ، وذلك أن أهل العراق — ويجب أن يكون المفهوم عند إطلاق هذه التسمية هو أهل الكوفة دائماً وقبل كل شيء — ظلوا في الحملة مواليين لعلي ، ولكن موقفه بينهم كان مغايراً لموقف معاوية بين أهل الشام ، ولم يكن موالياً له موافقة مكانة معاوية عند أهل الشام : وذلك أن معاوية لم يصل إلى منصبه مرفوعاً من أسفل ، بل هو عين من فوق ، من قبل الخليفة ، فلم يكن في منصبه مديناً لمن دونه من الرعية ، وكان موقفه منهم

موقف المستغنى غير المحتاج . وكان أهل الشام يطيعونه إذا أمر ، وكانوا أيضاً ، بطبيعة الحال ، مقتنعين بأنه على الحق في محاربته قتلة عثمان ، على أنه مهما كانت الظروف فإنهم كانوا ، بلا شك ، جاعلين قضيتهم قضيتهم . وكانوا يعرفونه ويحبلونه منذ سنين طويلة ، وكانوا ، إلى جانب هذا ، قد اعتادوا من قبل شيئاً من النظام الحربي : أما عليّ فقد كان لاصقاً به أن مصدر خلافته يرجع إلى الثورة ، ولم يكن لديه لا الزمن الكافي ولا المقدرة على التغلب على هذا النقص بصفات شخصية ممتازة . ولم ينس له أهل العراق أنهم هم الذين رفعوه إلى منصبه ، وكانوا أبعد عن روح النظام ، أو هم كانوا أكثر تديناً وورعاً من أن يطيعوا خليفتهم حينما يوجههم . ولقد اندموا بعد صنفين أشد الندم ، لأنهم أفسدوا عليه سياسته ، ولكنهم لم يريدوا أن يصلحوا ما ارتكبوا من خطأ ، فيؤيدوه إذا استتوفى القتال مع أهل الشام تأييداً قوياً ، بعد أن تبين أن الحكم انتهى بمهزلة . فلم يستطع عليّ أن يستنصرهم إلى حرب جديدة ، ولم يطيعوه طاعة الجند ، رغم شدة إلتاحه عليهم في ذلك ، وتركوا معاوية بفتح مصر ويقلق العراق بفرق من جيشه تغير بسرعة حتى تقترب من الكوفة . حتى إذا جمع أهل العراق همهم أخيراً وكانوا على أهبة المسير ، قُتل عليّ . وأحسن ابنه وخليفته الحسن أنه أضعف مما يقتضيه منه الموقف ، فباع حقه في الخلافة لمعاوية ، وتمكن معاوية من دخول الكوفة واضطر أهل العراق إلى أن يبايعوه ، وانتهت بذلك الحرب الأهلية :

٨ - وهكذا توصل الأمويون إلى الخلافة ، ولكن أقدامهم لم تكن راسخة إلا في الشام (ومعها الجزيرة ومصر) . أما فيما عدا ذلك فكانوا يصطدمون بمعارضة خفية وسافرة ، فلم يستطيعوا أن يحافظوا على سيادتهم إلا بالقوة ، وكان عليهم دائماً أن يعملوا على تفادي الثورة عليهم أو على إخمادها . وكان موطن الثورة عليهم في العراق ، خصوصاً في مدينة الكوفة ، كما كان الحال من قبل :

ولقد هُزم أهل العراق في الحرب مع أهل الشام ، أو هم ، على الأقل ، فقدوا الجولة . وكان من أثر ذلك أن انتقلت الخلافة ، وانتقل معها في الوقت نفسه بيت مال الدولة ، من الكوفة إلى دمشق . وكان لهذا وقعٌ أليم في نفوس أهل العراق ، بعد أن كان قد سبق السيفُ العذل : فقد كانت لهم الدولة ، أما الآن فقد نزل شأنُ بلادهم ، فصارت مصراً من الأمصار ، وخرج من أيديهم ما كانت تدره البلاد التي فتحوها من غنيرات ، وأصبح لا بد لهم أن يقنعوا بفتنات الأعطيات التي تلساقط من مائدة سادتهم . وقد اضطروا إلى الإذعان بسبب حاجتهم إلى الدراهم ، وكانت هذه تنقص بحسب إرادة ما يحبها ، أو كانت تُقَطَّع أيضاً . فلا عجب أنهم كانوا يرون في سيادة الشام عليهم فبراً قاسياً ، وأنهم كانوا مستعدين أن يطرحوه إذا بدا لهم أن الفرصة مواتيةٌ للملك . وكانت أعنف الثورات على الأمويين تأتي من جانب أهل العراق ، لا من فريق معين ، بل من جانب جميع العرب المقيمين هناك ، لأنهم كانوا مجتمعين على الحق بسبب ضياع ما كان لهم من سيادة ، ومجتمعين على بغض لمن غصبهم إياها . فكان لابد للدولة دائماً من همال ذوي حُنُكة ممتازة لإلزام تلك الولاية الجامعة حدود الهدوء والطاعة . على أنه بمضي الزمن أصبح ذلك غير مُستطاع إلا نتيجة الجند المحليين وباجتلاب جنود احتلال من أهل الشام وإقامة سيادة حربية بالمعنى الحقيقي ، لم يكن مقرها في العاصمة القديمة للبلاد ، بل في مدينة حصينة جديدة أنشئت لفرض السيادة عليها^(١) .

ثم بدأ أهل العراق يجعلون قضيتهم قضية الإسلام نفسه ، وجنّدوا الدين ومبدأ الحق والعدل في محاربتهم للقوة الغاشمة ، وهكذا حالفت المعارضةُ الدينَ على الدولة الأموية . ومن الواجب على المسلم أن يأمر بالمعروف ، وأن ينهى عن المنكر بلسانه ويده ، ولا يسوغ له أن يكتفى هو نفسه بالامتنال لإرادة الله ، بل

(١) [يقصد المؤلف إنشاء مدينة واسط على يد الحجاج - المترجم] .

يجب عليه أن يعمل على أن تكون إرادة الله هي العليا في المجتمع ، فلا محل
للسكوت على الأوضاع الفاسدة ، لأن الدين يلزم الفرد بالتدخل في الحياة
العامة ، وذلك أن الدين يعتبر الفرد مسئولاً عن نصيبه فيما يجب عليه للجماعة ،
وميدان النشاط الديني هو السياسة ، وهذا هو معنى الحكومة التيقراطية^(١) ،
ومن جهة أخرى كان في الإمكان أيضاً استخدام الدين من حيث أصوله
في تأييد النظام الذي كان قائماً ، وفي تنبيه الناس إلى ما يجب عليهم من طاعة
أولى الأمور من المحافظة على وحدة كلمة الجماعة . ولكن معظم قوة الدين
كانت في الواقع ، في جانب المعارضة ، وكانت مبادئ الحكومة التيقراطية
لا تقر صراحة الحكم التي كانت عليها الجماعة الإسلامية إذ ذاك ، فكانت تلك
المبادئ حائلاً دون ضرورة التسليم بأن التاريخ له من القوة ما يجعل بعض
الأوضاع مشروعة ، وبأن للدولة أن تصفى إلى « عقلها » الخاص ، وأن
تتوخى من الأغراض ما يحفظ من كيانهما ويزيد من قوتها ، وأن الدولة التي
كانت قائمة ما كانت لتستطيع أن تتفادى ذلك بسهولة . ولكن أحداً ، من
جهة أخرى ، لم يتنسأ أبداً للأمويين أنهم كانوا من أول أمرهم أخطر
أعداء النبي [عليه السلام] ، وأنهم لم يعتنقوا الإسلام إلا في الساعة الأخيرة
مكرهين ، وأنهم عرفوا بعد ذلك كيف يجنون لأنفسهم ثمرة انتصاره
وسيادته ، وذلك من طريق استغلال ضعف عثمان أولاً ، ومن طريق
المهارة في استغلال مقتله بعد ذلك . وقد كان أصل الأمويين لا يعلمهم أهلاً
للقيادة الأمة المحمدية ، وكان من السخرية بفكرة الحكومة التيقراطية أن يظهر
الأمويون مُستغلبينها الأعلىين ، فهم كانوا ممتصين ، وظلوا كذلك ، ولم يكونوا

(١) كانت العبرة التي أخذت من مفاسد السياسة سبباً في أن ظهر في الإسلام أيضاً اتجاهٌ
شبيه بالاتجاه الإنجيلي ، وهو يريد أن يعتمد على السجاسة باعتبار أنها فتنه ، ولا يثق بمزاعمها
الدينية . وكان لهذا الاتجاه ممثلون بلغوا غاية الذل ، منهم سعيد بن المسيب في المدينة ، والحسن
البصري في البصرة .

يستندون إلا إلى قوتهم الخاصة ، إلى قوة أهل الشام . ولكن قوتهم لم تستطع
قط أن تصير حقاً شرعياً . ولقد زاد في البغض للأمويين قِدَمُ الشكوى من
« السلطان » وأفعاله ، وظلت هذه الشكوى موجهة إليهم خاصة ، باعتبار
أنهم أصحاب السلطان في ذلك الزمان ، وكانت موضوعات الشكوى هي
هي : أن العمال يسيئون استعمال سلطتهم ويظلمون الناس ، وأن أموال
الدولة تجرى إلى جيوب أفراد قلائل يستأثرون بها ، على حين أن معظم
جيوب غيرهم تبقى خالية ، وأن الزنا والعهر والشراب والميسر أصبحت
لذات للسادة لا يُعاقبون عليها ، لأن الحدود معطلة (١) .

وكان لسانُ حزب أهل الدين والورع الساخطين على الحكومة هم الفقهاء
والقراء ، أحنى علماء الشريعة وعلماء القرآن . وكان موقفهم من الأمويين
شبيهاً تمام الشبه بموقف علماء الكتاب والفاروسيين من اليهود إزاء بيت
الحشمونيين . وكان الحق الذي يعارضون به القوة الحاكمة أيضاً حقاً إيجابياً
ثابتاً تماماً ومكتوباً ومأثوراً ، وكان موجوداً في القرآن والسنة . وكانوا
يستنبطونه بالتأويل من الكتاب ، وكانوا يضعونه في الأحاديث النبوية ، لأنها
لم تكن في ذلك الوقت في صورتها الأخيرة الثابتة ، وذلك بأن كانوا يذهبون
أن الفصل في المسائل السياسية التي لم تكن قد ظهرت إلا فيما بعد قد ورد
على لسان النبي [عليه السلام] ، ولم يكن ذلك يخالو بطبيعة الحال
من تناقض :

وكان أشد ممثلي المعارضة الدينية تطرفاً وأتقى الأنقياء ، هم الخوارج . فقله
أخذ الحق الديني عندهم صورة مبدأ ثوري بالمعنى الكامل ، وكانوا يفخرون بأنهم

(١) الظلم والاستئثار (بأنق) وتعطيل الحدود . وكذلك طوطب بأن ميسال المال من
أعمالهم ، وأن يعطوا القرد من أنفسهم في الظلم الذي يرتكبونه هم في مناصبهم . ولم يستجيب
الخلفاء إلى هذه الشكاوى ، لأن محاسبتهم لم كانوا يبحثون بهم من المال كانت مقصورة على
محاسبتهم على أن يحملوا إلى الخلفاء من الأموال أكثر ما يستطيعون .

هم أصحاب الفسحة الثورية الكبرى ، وهي مقتل عثمان ، فبينما كان هناك قوم يخرجون من هذه الكائنة بعد أن وقعت ، جعل الخوارج الاعتراض الصريح لها شعاراً لهم وقد اشتركوا مع بقية أهل العراق وفي الثورة على معاوية أولاً ، لأنه لم يسلم بأرائهم . ولكنهم كانوا قد عارضوا علياً أيضاً عند ما ساوم وفاوض في حق الله ، وانشقوا عليه لذلك . وهم وإن كانوا قد عملوا على تأييده ، فإنهم لم يريدوا أن يكونوا حزبه بالمعنى الذى كان به أهل الشام حزباً لمعاوية ، لأنهم قالوا إن الدين ليس لمعاوية ولا لعلى ، بل هو الله وحده ، ومن ضحى في أمر من الأمور بعقيدته الدينية السياسية من أجل صاحب الأمر ، أو جعل طاعته مقدمة على طاعة الله ، فقد اتخذ صنما له ، وصناد الأصنام عباد أصنام وليسوا بمسلمين . فكان الخوارج يرون أنهم وحدتهم هم المسلمون ، ورأوا أن اسم المسلمين لهم وحدهم . ولذلك أراقوا دماء غيرهم من المسلمين دون تخرج ، ولم يجاهدوا إلا المسلمين ، وإلا المسلمين وخدمهم : أما تهمة تمزيق الجماعة على هذا النحو فلم يروا أنها تصدق في حقهم ، وكانوا ناثرين على ملهـب « الجماعة » الفاسد الذى لا يفرق بين الحق والباطل ولا يميز الفـث من السمين ، وكانوا يرون أنهم وحدهم ، وهم الخارجون على الدين ، هم « الجماعة » بالمعنى الحق ، وأن الإسلام لا يتجاوز حدود معسكرهم . وقد هاجروا من ديار « الجماعة » المزيفة ، متأسين بهجرة النبي [عليه السلام] . وهم وإن لم يكن من مبادئهم التسك بأسرة حاكمة ، فإنهم هم أيضاً ، من حيث أنهم ممثلو الجماعة الموحدة للمؤمنين ، كان لهم خليفتهم أو إمامهم الذى يصلـى بهم ويقودهم في الحرب لكنهم كانوا يراقبون حركاته وسكناته ، ويعترضون عليه إذا أخطأ ، في نظرهم ، ويخرجون عليه ويعتبرونه كافراً ، إن لم يرجع عما فعل . ولذلك افرقوا ، فيما يتعلق بمسألة معرفة الإمام الحق ، لا عن سائر المسلمين فحسب ، بل هم سرعان ما انقسموا فيما بينهم أيضاً ، وكان انقسامهم من أجل خلافات في الرأي ليس لها كبير شأن . وقد تطرفوا في الأخذ بمبدأ الحكومة التوقراطية وجعلوه

مسألة اعتقادية وموضوعاً للنبيّة المخصّصة ، حتى ذهبوا به إلى المحال ، وحتى صارت فكرتهم عن الدولة ، إن لم تأخذ صورة مطلقة معقولة ، غير صالحة لتكوين جماعة وغير مؤدية إلا إلى الفساد والهدم . وقد وضعوا كل قوتهم في محاولة تحقيق غاية لا يمكن تحقيقها ، فسار بهم تديّسهم إلى سياسة نشيطة كل النشاط ، ولكنها سياسة يائسة مخالفة تماماً لكل سياسة . وهم لم يجعلوا النجاح غرضاً لهم ، وإنما كانوا يريدون نجاة أرواحهم من شرور الدنيا . وقد قنعوا بطلب الشهادة في ميدان الجهاد ، فباعوا أرواحهم لله في سبيل الجنة . ورغم هذا ، وربما من أجل هذا نفسه ، كانوا يغلبون جيوشاً كبيرة : وقد أرحبوا العالم الإسلامي في بعض الأحيان . ورغم أنهم كانوا دائماً يؤلفون جماعة صغيرة ، فإنه لم يمكن القضاء عليهم ، كما كانوا كلماً قضى عليهم ينهقون من الأرض نباتاً . وكانت لأرائهم جاذبية متجددة دائماً . أما مقاومة غيرهم للحكومة القائمة فإنها ، مهما لبست ثوب الدين والورع ، كانت دائماً مدخولة بأغراض دنيوية ، وكانت لذلك تتلون بألوان شتى . وكثيراً ما كان يستغلّها رجال من أهل الطموح والتغلب ، لا يقصدون سوى الوصول إلى السلطان : وفي وسط اضطراب الحركات والأغراض تمسك الخوارج بالمبادئ الأساسية التي رسمها الإسلام ، ولم يهيدوا عنها . وكانوا في جهادهم في سبيل « دولة الله » أشد ما يكون المجاهدون إخلاصاً وأقوامهم عزماً . ولكنهم كانوا في حربهم ، بطبيعة الحال ، أشد ما يكون المحاربون قسوة ، وذلك من أجل وضع خيال لا يتيسر لبني الإنسان .

وكان الشيعة يختلفون عن الخوارج اختلافاً تاماً ، وإن كان منشوئهم هم أيضاً يرجع إلى الثورة على عثمان . وكان الشيعة أشد من الخوارج بغضاً لبني أمية ، لكن بغضهم هذا لبني أمية لم يكن يرجع إلى أنهم كانوا ينكرون أن تكون الحكومة التيقراطية في أسرة ما ، بل لأنهم أرادوا أن يُزيلوا الأسرة الزائفة ويحلّوا محلّها الأسرة الصحيحة صاحبة الحق الشرعي ، أعني بيت النبي [عليه السلام]

الذى يرأسه بعد وفاته ابن عمه وختنه على بن أبى طالب . واسم الشيعة اختصار
 لعبارة : شيعة على . وكان شيعة على ، فى أول الأمر ، هم أهل العراق فى الحملة ،
 وذلك فى مقابل أهل الشام ، شيعة معاوية . وقد ظل على عند أهل العراق ،
 حتى بعد وفاته ، رمز سيادتهم المفقودة ، ولم يكن تشييعهم يستلزم أن يكون
 تعبيراً عن شعور العداء لبني أمية من جانب ولاية العراق المغلوبة ، خصوصاً
 الكوفة ، وهى العاصمة التى نزلت مكانتها . وكان رؤساء القبائل والعشائر فى
 الكوفة يشاركون غيرهم هذا الشعور فى بادئ الأمر ، ولكن مركزهم
 كمشؤولين اضطرهم إلى الحيلة ، فلم يشاركوا غيرهم فى ثورات لا ينتظر لها
 النجاح : وكانوا يمسكون زمام سواد الناس إذا أرادوا الاستجابة لمن يريد
 أن يستخفهم معه ، ووضعوا نفوذهم باسم الهدوء والنظام فى خدمة الحكومة ،
 لكيلا يعرضوا مركزهم للمتعاب ، وبذلك نفروا من كان من الشيعة أكثر
 صراحة وأميل إلى العمل الإيجابي وأثاروا عداوتهم ، هؤلاء الشيعة الذين
 لم يقتلوا فشلتهم فى مظاهرات عاطفية خيالية قاموا بها من تعاليتهم بآل بيت
 النبي ، بل زادهم تعلقاً بهم . على أن معارضة الشيعة لسيادة الطبقة
 الأرستقراطية من زعماء القبائل قد زادت من تقاربهم وتشددهم ، فسلكوا
 طريقاً غير طريق سائر العرب ، وبذلك ارتفع فى الكوفة شأن "لحزب كان ،
 حتى ذلك الحين ، متوارياً فى الظلام ، واتخذ اسم السبئية . وقد غير هؤلاء
 السبئية الإسلام من أساسه ، وذلك بأن جعلوا من شخص النبي شيئاً إلى
 جانب القانون المستقل عن الأشخاص (كما هو فى القرآن والسنة) وفوق هذا القانون
 لدى رضى به الناس بعد وفاة النبي ، وكان خصوصاً عند الخوارج هو الحججة التى
 لا يكون إلى جانبها أى تقديس أو تأليه لأحد من الناس ، فذهب السبئية إلى أن
 شخص النبي لم يموت بموت محمد [عليه السلام] ، بل هو باق فى سلالاته واحداً بعد
 واحد ، وبنوا مذهبهم على القول بتناسخ الأرواح ، ووجهوه توجيهاً خاصاً ،
 فقالوا إن روح الله الذى يسرى فى الأنبياء ينتقل بعد موت كل نبي إلى النبي

الذى بعده ، وإن روح محمد [عليه السلام] خاصة انتقل إلى علي ، وإنه باق في سلالة : وعلى هذا فإن علياً لم يكن في نظرهم هو الخليفة الشرعي لمن قبله وحسب ، بل كان في مرتبة أعلى من مرتبة أبي بكر وعمر اللذين يزعم الشيعة أنهما دخلا بيته وبين محمد [عليه السلام] وأغتصبا حقه ، بل ذهب السبئية إلى أن علياً هو الروح الإلهي المتجسد وأنه وارث النبوة : ولذلك فلا يمكن في زعمهم أن يكون بعد وفاة النبي خليفة غيره في الدولة الديمقراطية ، لأن هذه لا يمكن أن تخلو من ممثل حي لله يكون على رأسها (١) . ويقال إن السبئية سموا بذلك من اسم يهودى يعنى هو عبد الله بن سبأ ، وكانت لهم أوكار في بعض قبائل العرب في الكوفة ، لكنهم بعد ذلك درجوا منها والتشروا في الكوفة نفسها ، خصوصاً بين موالى الفرس الكثيرين الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام . وإذن فإن انتشارهم إنما كان بين قوم من غير العرب ، وقد صار لهم شأن سياسى على يد المختار ، أحد أشراف ثقيف ، وهو الذى اتخذهم جيشاً له ، ثم استمال قداماء الشيعة أيضاً وعمل حيناً من الدهر على اختتام ما تجدد من فوضى وانقسام ، فأراد أن يسقط الأرسطراطية العربية في الكوفة من على عرشها ويقيم هناك تحت رئاسته حكومة يقضى فيها بفضل التشييع على التمايز بين العرب والفرس وبين السادة والرعية . ولكن نجاحه كان قصير الأمد ، فتم القضاء على شيعته ، ولكنها توصلت إلى النصر فيها بعد على الطريق الذى شقّه لها :

٩ — ولكن المعارضة الدينية ، أو المعارضة التى لبست ثوب الدين ، ما كانت تتكون لها تلك الخطورة على حكومة الأمويين لولا ما انضاف إليها من تنافس بين القبائل العربية ، وهو تنافس لم يكن له بالحكومة الديمقراطية شأن ، بل عروقه ضاربة في الروح العربية نفسها . وقد زاد هذا التنافس بعد ذلك الملك

(١) وهم وإن كانوا قد جعلوا اسم النبي لمحمد وحده ، فإنهم في الواقع جعلوا ورثته مساوين له في المرتبة ، واعتبروا أن لهم سلطة إلهية ، وقالوا بأنهم معصومون .

العريض الذي وصل إليه العرب بسبب الفتوحات زيادة تجاوزت كل ما كان معروفاً أيام الجاهلية . وقد زاد عمال الدولة خاصة من حدة هذا التنافس ، لأنه لم يكن تحت تصرفهم مباشرة سوى عدد قليل من الشرطة ، وكان جندهم ، فيما عدا ذلك ، يتكونون من المقاتلة في الولاية ، أي من مقاتلة القبيلة ، وكان العمال يستطيعون ، بالسياسة الماهرة ، أن يضربوا القبائل بعضها ببعض ويجعلوا أنفسهم فوقها ، ولكن لم يفلح في هذه السياسة إلا القليلون من الولاة ، وفي أول العصر الأموي خاصة . أما الذي كان يحدث في الغالب فهو أن يستظهر الوالي بقبيلة واحدة على غيرها ، وكان يستظهر خصوصاً بقبيلته هو ، وكان هو الذي يأتى بها معه أحياناً ، وعند ذلك كانت قبيلته التي يتخذها حدة له في ولايته تشاركه في الحكم وفي المزايا التي كان يكسبونها بالتصرف في المناصب والأموال . ولكن كانت تتولى دفعة الأمور مع كل حامل جديد قبيلة جديدة ، فكان الأمر ينتهي بأن تقع القبيلة المخلوعة في العداء المرير للقبيلة الحاكمة . وهكذا سرى السم إلى الفوارق والخلافات القبلية من جراء السياسة والنزاع على المغامرات السياسية . وأسوأ ما نجمت ذلك في ولاية خراسان التي كانت ملحقة بالبصرة . فهناك ارتفع شأن قيس على يد عبد الله بن حازم ، كما ارتفع شأن أزد عمان على يد المهلب ، وحل محل التنزع القديم بين بكر وتميم التنزع بين قيس وتميم أولاً ، ثم بين الأزد وقيس ، وأخيراً بين ربيعة وقيس - تميم ، أما في الشام والجزيرة فقد تنوع موقف قيس وكلب من النزاع حول الخلاف ، فأخذوا بجانب ابن الزبير حيناً وجانب الأمويين حيناً آخر ، وقد اتخذ نزاعهم صورة دامية ، وبقيت العداوة بينهم إلى بعد زوال سببها السياسي الأصلي بزمان طويل . وما زاد في خطورة النزاع على كل حال ميل كان موجوداً عند القبائل إلى تكوين مجموعات كبرى^(١) .

(١) قارن ما تقدم من ٢٤ والصفحات التالية .

وقد لعبت قيس في الشام وفي خراسان دوراً سياسياً كبيراً ، وكانوا منتشرين في كل مكان ، وكانوا بفضل ما ينتمى إليهم من ثقيف يشتغلون كثيراً من المناصب العليا ، وكانوا أشد ما تكون القبيلة اتحاداً ، وكانوا أول من كوّن عصبة بالمعنى الحقيقي في جميع أنحاء الدولة . وقد شقوا طريقهم إلى الحكم بأشد الوسائل خزيّاً ، وكانت تميم تنحى أيضاً إلى الجبهة الكبيرة التي كانت تنحى إليها قيس ، وكانت تميم أكثر ما كانوا عدداً في البصرة وخراسان ، وكانوا يتميزون بشعور قبل زهو جاء موثقاً لهم ، فلم يكن طموحهم كبيراً إلى تولي المناصب ، وكانوا قلّ ما يتدخلون في السياسة العليا ، ولم يكونوا على وثاق مع قيس في مبدأ الأمر ، لكنهم اتحدوا معهم أخيراً وانضموا إلى حزب مُفسّر الكبير . ومن جهة أخرى كان أزد عمان ، في البصرة وخراسان ، ألد أعداء قيس و تميم ، فانضموا إلى بقية اليمنيين الذين كانوا ، في خراسان ، يشتملون فيما يشتملون ، على قبائل وبيعة (بكر) . وفي آخر الأمر دخلت في هذه المجموعة قبائل قضاة (كلب) الشاميين ، وقد اعتبروا يمينيين ، أما إنهم كانوا كذلك فهو موضع شك : وإنما الذي ألقاهم بن أذرع حزب اليمنيين فهو في الحقيقة عداوتهم لقيس (١) . وهكذا كان نطاق الانشقاق والخلاف الخطر لا يزال يتسع (٢) . ولم يستطع القروشيون والأمويون أن يرتفعوا بأنفسهم عن هذا الانقسام الذي شق العالم العربي إلى معسكرين .

ودخل الأحاجم في الفرجة التي انفتحت بين المعسكرين ، فدخلوا في الإسلام زرافات ، وخصوصاً تلك الطوائف الكبيرة من أسرى القرويين في

.. (١) قارن القنطاري (ط . هارت) ص ٢٩ ، ٥٦ ، ٩٣ ، فابعدا .

(٢) ولكن التمزج لم يكن ثابتاً تماماً ، بل كان يختلف بحسب البوارجع المعارضة في بعض الأحيان ، فكانت القبيلة تؤكد هذا الوجه أو ذلك من نسبها لكي تثبت ارتباطها بحاكم قوي يحميها أن تنال عطفه ، أما الشعراء خاصة فلما كانوا يتزلفون إلى أكبر رأس .

الكوفة والبصرة . ولقد توصلوا بذلك إلى الحرية في أشخاصهم^(١) ، لكنهم لم يصلوا إلى التمتع بالحقوق المدنية للمواطنين ولا بالحقوق الحرية ومزاياها المادية ، فاعتبروا موالى للقبائل العربية ، ولم تتسع لهم الدولة التیوقراطية إلا حل هذه الصورة ، أعنى على صورة التبعية للقبائل العربية . ولم يكن الإسلام وحده كافياً في ضمان المساواة لهم ، ذلك لأن الدولة التیوقراطية الإسلامية كانت في الواقع دولة عربية خالصة ، دولة العرب التي جعلتهم فوق الأمم المغلوبة ، وكان هذا في ذاته مناقضاً لفكرة الحكومة التیوقراطية ، فهي لا ينبغي أن تكون مملوكاً ولا يجوز أن يكون لها مظاهر المملوك . وأشد ما تكون المناقضة إذا ظلت حقوق السادة من العرب قائمة بالنسبة للمسلمين من غير العرب : ذلك أن الإيمان بالله والاعتراف له وحده بالمملوك كان من شأنه أن يدهو إلى تبدل كل تمايز بين الأمم من أساسه ، وكان من السهل استخدام مبادئ الإسلام وسيلة لإعطاء الموالى نصيبهم في الدولة التیوقراطية وفي انتزاع حقوقهم من يد العرب ، وكان أهل الديانة والورع من العرب أنفسهم يقفون إلى جانب الموالى في مطالبهم بحقوقهم ، وحاولت أحزاب المعارضة ، بنوع خاص ، أن تجد لها فيهم خلفاء على بنى أمية ، وكان يتو أمية في الواقع يمثلون سيادة الأمة العربية لاسيادة الإسلام^(٢) . وقد سبق

(١) حل أن إطلاق الأسرى أحراراً إذا اعتنقوا الإسلام لم يكن واجباً بل عادة حسنة ، ولم يطبق المبدأ القائل بأن المسلم ، بحكم إيمانه بالله وبحكم شريعة الله ، لا يمكن أن يكون عبداً لمسلم . ولكنه كان الهدى أن يتبع العبد دين سيده خصوصاً إذا ولد في بيته .

(٢) [لا شك أن حكومة بنى أمية كانت حكومة عربية إلى أكبر حد ، وما كان غير ذلك ممكناً ولا طبيعياً ، لأن العرب هم الذين أقاموا دولتهم ووسعوا رقعتها وأغلوا المكان الطبيعي لهم في رئاسة الدولة وفي إدارتها وفي قيادة جيوشها . وكان لا يمكن إعطاء مناصب الرياسة والإدارة الموالى ، على حداثة عهدهم بالإسلام ومعارضتهم لسيادة العرب ، إلا إذا أريد للدولة الانهيار المبكر . وكان في العرب أنفة واستعلاء لما أصلهما ومبروها . فاستبعاد العرب في أيام الدولة الأموية كان ضرورة طبيعية وسياسية ، أما القول بأن سيادتهم لم تكن سيادة الإسلام فهو قول مبالغ فيه ولا يصح أن يقال إلا من جهة أنهم لم يسووا بين الموالى وبين أنفسهم . ولكن هل كان « عقل الدولة » يسمح بذلك ؟ لم يكن يسمح ، ولا يصح من أجل هذا أن يقال إن دولة بنى أمية لم تكن إلا دولة العروبة ، فقد كانت دولة الإسلام التي يمثلها العرب - المترجم] .

الخوارجُ إلى ذلك ، فقبلوا الموالي في جماعتهم وفي جيشهم ، وجعلوهم على قدم المساواة مع العرب . وقد ترسم الشيعةُ خطي الخوارج في ذلك ونجحوا أكثر منهم بكثير . وقد رأينا كيف أن حزباً شيعياً^(١) اتخذ في الكوفة مع من فيها من الموالي ، فاستطاع بذلك أن يرتفع وأن يرفع الأعمام معه في نفس الوقت ؛ ولكن لم يلبث أن مضى العربُ على هذا الحزب في الكوفة نفسها ، فاختفى في الظلام ، ولكنه انتقل فيما بعد من الكوفة إلى أرض الأعمام الحقيقية ، إلى خراسان ، وانتشر هناك بين من دخل في الإسلام من سكان تلك البلاد ، ونمت راية الإسلام ، أفضى تحت راية التشيع ، استطاع الخراسانيون أن يطردوا العرب من أرضهم أولاً ، وأن يقضوا بعد ذلك على السيادة العربية جملة ، وأن يُحيلوا العباسيين محل الأمويين .

١٠ - إن الآراء المألوفة عن الشرق والروح الشرقية تحتاج في الجملة إلى تصحيح كبير : ويجب ، مهما كان الأمر ، ألا يكون لها اعتبارٌ فيما يتعلق بتاريخ الإسلام طول الفترة التي كان العرب فيها هم الأمة الحاكمة . وإن السياسة ، لا أى شيء آخر ، كالحضارة مثلاً ، هي الموضوع الذي يحتل هنا المكان الأول ويستأثر بالاهتمام . ولم تكن سياسة العرب عبارة عن فكرة الشرقيين عن القدر المحتوم (Fatum) باديةً في ثوب الحكم الاستبدادي المطلق ، بل هي كانت شأنًا مقدساً عند جميع المسلمين ، اشتركوا فيه بأرواحهم وجوارحهم ، وإن كانوا لم يفهموا طبيعة الجهاد الإنسانية وحدودها^(٢) .

وقد تحكمت في هذه السياسة نزعاتٌ عامة ، دينية وقومية واجتماعية . ونظراً

(١) [يقصد المؤلف المختار الثغنى وأتباعه - المترجم] .

(٢) [يظهر أن المؤلف يقصد أن العرب لم يفهموا أن أعضاء الجماعة التي تكون الدولة يجب أن يكونوا سواسية بحيث لا تكون هناك طبقات متمايزة ، وأن من طبيعة الجماعة السياسية أنها لا تقبل الفوارق والتمايز السياسي - المترجم] .

لتشابك هذه النزعات ، ونظراً لصراعها مع نظام الحكم الذى كان قائماً ،
والذى كان يندر أن تُستَـثْلَه حكوماتٌ طويلة الأجل أو أشخاص أطول
عمرًا (١) ، فقد حدث اضطرابٌ كبير ، وكان الاتساع الهائل لمسرح تلك
السياسة ، واشتغال ذلك المسرح على أمم وبلاد من المحيط الهندى إلى المحيط
الأطلسى لا يجعل الإلمام بها والإشراف عليها جميعاً أمراً سهلاً .

وقد بدا لنا أن هذا الفصل التمهيدى ضرورى لإعداد ذهن القارئ
وتوجيهه ، حتى يفهم ما يلى ولا يفقد المحيط الذى يهديه ، لكن مقصده
أيضاً هو أن ينبّه من قد يخطئ فيعتبر أن الفصول التالية تستوعب تاريخ
صدر الإسلام ، وذلك أن هذه الفصول تدور في جوهرها حول دولة
الأمويين ، وحول الصراع الذى قام بين هذه الدولة التى تمثل السيادة العربية
وبين القوى التى كانت تعارضها ، وحول سقوط هذه الدولة أمام الثورة
التي لم تزل قائمة منذ انتهاء الخلافة في المدينة . فأمّا تناول الأحزاب والأقاليم
بالبحث تناولاً مفصلاً ، كلٌ منها على حدته ومن زاويته الخاصة ، فهذا
ما لم يمكن أن يتسع له المقام هنا ، وإن كان تناول الأحزاب والأقاليم
بالبحث ليس قليل الشأن في فهم أحوال الدولة الإسلامية . وقد جُمِعَت
روايات عن ولاية خراسان ، التى لها أهمية خاصة ، وجعلتها داخلة في أحد
فصول الكتاب . أما فيما يتعلق بالخوارج وبالشيعة وكذلك بالحروب مع
الروم في ذلك العصر ، فلنأني أنبّه القارئ إلى مقالتي التى نشرتها ضمن
رسائل وأخبار جمعية العلوم في جوتنجن ، في القسم الفلسفى التاريخى
عام ١٩٠١ .

(١) كان معظم الخلفاء وأمراء الأمصار صفراء ، ولم يمتد بهم الأجل إلى الكبر ،
أما معاوية ونصر بن سيار فكانا أشبه بالثي الساذ . وكان حكم الخلفاء والأمراء قصيراً أيضاً
في العادة ، وإن كان تغير الأمراء قد كان أكثر من تغير الخلفاء .

الفصل الثاني

على والحرب الأهلية الأولى

١ - حكى المدائني عن أبي مخنف (الأغاني ج ١٥ ص ٧١) أن نائلة زوجة الخليفة المقتول عثمان كتبت إلى معاوية وقصت عليه خبر مقتل عثمان وبعثت بقميصه الملطخ بالدم ، وذكرت لمعاوية الآية التاسعة من السورة التاسعة والأربعين [الحجرات] (١) . أما سيف فهو في روايته التي حفظها لنا الطبري (ج ١ ص ٣٢٥٥) يحكى أن النعمان بن بشير قدم إلى دمشق بقميص عثمان الذي قتل فيه ، مخضباً بدمه وبأصابع نائلة زوجته مقطوعة بالبرجم وشيء من الكف . وإذن فأمر الأصابع شيء جديد ، ولذلك فليست نائلة ، بحسب هذه الحكاية ، هي التي بعثت بالقميص . وبعضى سيف في روايته فيقول : إن معاوية وضع القميص على المنبر وكتب بالخير إلى الأجناد ، وثاب إليه الناس ، وظل القميص يوضع كل يوم على المنبر والأصابع معلقة في أurdانه سنة كاملة ، ذلك أنه كان بين مقتل عثمان وبين معركة صفين عام كامل . وكان قصبه معاوية أن يُشير أهل الشام (٢) . أما المدائني ،

(١) [هذه هي الآية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فأصلحوا بينهما ، فإن بدت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تهي ، حتى تنز . إل أمر الله » ، فإن قامت فأصلحوا بينهما بالعدل وأتسلوا إن الله يحب المقسطين » - المترجم] .

(٢) [وقد بلغ معاوية غايته ، وذلك أن رجال أهل الشام بكروا عثمان وآلوا ألا يقربوا للنساء حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء ، واهتموا علياً بأنه قتل عثمان وآوى قتلته ، وصمموا على ألا ينتهوا عنه ، حتى يقتلهم أو يقتلوه - المترجم ، نقل عن الطبري ج ١ ص ٣٢٥٥] .

تقلاً عن عوانة (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٤ وما بعدها ؛ قارن الكامل ص ١٨٣ فما بعدها ؛ والدينورى ص ١٦٦ فما بعدها) فهو يقتصر على حكاية أن علياً وجهه جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية ، يدعوهُ إلى بيعته ، وأن معاوية أظهر لإجماع أهل الشام على الأخذ بثأر عثمان (١) ، وأنه بذلك أحدث في نفس الرسول الأثر الذى أراده ، وعلى هذا فقد صارت المسألة ، فى الحقيقة ، مجرد مناورة تخلق علياً وتضابق نفسه ، فلا يهجم على معاوية ، أما الذى يؤخذ من رواية الواقدي (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٢ فما بعدها) فهو أن قوماً حرضوا معاوية على " أكثر مما حرض معاوية نفسه الناس على " ، فنجد فى أبيات حفظها لنا الطبرى (ج ١ ص ٣٢٥٨) أن الوليد ابن حبة ، ابن حم معاوية ، يلوم معاوية على إضاعته الوقت فى مكاتبة علي ، وعلى عودته فى دمشق وتوآنيه عن القيام بما يقضى به واجب القرابة من الثأر لمقتل عثمان . لكن معاوية كان سياسياً بطبعه ، ولم يكن متعجلاً ولا مثلهفاً على محاربة أهل العراق ، لأنه كان فى ذلك الوقت مهتماً دماً من قبل الروم ، وخصوصاً من قبل أهل مصر الذين كانوا فى جانب علي ، ولم يكن بطمع إلى الخلافة ، وإنما كان غرضه الأول هو ، على الأقل ، أن يحافظ على ولاية الشام ، وأن يستولى على مصر ، التى كان لا يصح أن يتركها لخصومه ، إن أراد أن يحصى ظهوره (٢) . وقد دفعه إلى ذلك عمرو بن العاص خاصة ، وكان عمرو

(١) [لا نجد هنا إثارة معاوية لمشكلة مقتل عثمان ، بل نحن نجد فيها فى مناسبة أخرى . - راجع الطبرى ج ١ ص ٣٢٧١ وص ٢٢٧٥ - ٣٢٧٦ - المترجم] .

(٢) [وأيضاً لعظم خراج مصر وقيمتها فى تقوية شأن من يظهر عليها - راجع الطبرى ج ١ ص ٣٣٩٦ ، ٣٤٠٩ . وكان قيس بن سعد بن عباد والياً لعل على مصر وكان أميراً حازماً فاجعاً ، فكان أقل خلق الله على معاوية . وكان معاوية يخشى أن يقبل عليه على فى أهل الكوفة وأن يقبل قيس فى أهل مصر فيقع بينهما معاوية ، الطبرى ج ١ ص ٣٢٣٨ - المترجم] .

قد اشترك في الثورة على عثمان^(١) ، وأراد أن يتخذ من ذلك وسيلة إلى استعادة ولايته القديمة مصر. وبعد مقتل الخليفة المُسَيَّن حالف عمرو معاوية على قتال على حلفاً أشبه ما يكون بالتحالف بين الصبية الأشقياء^(٢) ، وذلك لكي يبلغ غرضه (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٣) فلما بعدها ، قارن الدينورى ص ١٦٧ وما بعدها) . فتوجه معاوية وعمرو قاصدين مصر أولاً ، ونجحوا في استدراج محمد بن أبي حذيفة وإلى مصر من قبيل على^٣ ، حتى أخذه أسيراً (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٢ فلما بعدها وص ٣٤٠٧ فلما بعدها) ، ولكنهما اضطرا إلى الرجوع لكي يتوجها إلى قتال على نفسه : وكان على هو المهاجم ، وكان يعتبر نفسه صاحب الحق في الخلافة^(٤) وفي رئاسة جميع المسلمين ، فبعد أن استوثق من العراق واستكمل عدته خرج آنحر حام ٣٦ هـ . (أوائل صيف ٦٥٧ م .) من معسكره في النخيلة^(٥) ، قرب الكوفة ، حيث كان يوجد عدد من أهل البصرة أيضا ، وسار متجهاً إلى الغرب : وكان معاوية وعمرو ينتظرانه على حدود الشام في سهل صفين على الفرات ، غير بعيد من الرقة^(٥) .

(١) راجع إلى جانب ما تقدم ذكره من تحريض عمرو بن العاص على عثمان ، الطبرى ج ١ ص ٣٤٠١ - المترجم] .

(٢) [حاله على أن تكون عمرو ولاية مصر طامة ما بق - الطبرى ج ١ ص ٣٣٩٧ - المترجم] .

(٣) [راجع كلامه عند الطبرى ج ١ ص ٣١١٠ ، ٣٢٧٨ - ٣٢٧٩ - المترجم] .
(٤) إلى الغرب أو إلى الشمال من الكوفة على الطريق إلى الشام (الطبرى ج ١ ص ٣٣٤٥) . وكانت تقع هناك أيضاً بويب ، وتسمى موقعة بويب أيضاً موقعة للنخيلة .

(٥) بين Barballissus و Caesarium (تيوفانيس في أخبار حوادث سنة ٦١٤٨ من تاريخ الخليفة) و Barballissus هي SaBalis (= بالس البلاذرى ص ١٥٠ فلما بعدها ، 333 O. 2 Assem. Balis) . واسم Sapphin المذكور عند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦١٥١ ، وفي النقوش الشامية في حشش (Juorn As. 1900 II. 285ss) في عهد السلوقيين (Sel. 968) يسمى Sapphe أو Sepphe في stat. emph. ، وكذلك عند الكوسموجرافى .
الرافى ، حيث نجد أن Sephe و Barballissom يذكران معاً .

ولا نكاد نجد من أخبار موقعة صفين عند الطبرى إلا ما يذكره أبو مخنف : سلك على مع حملة جيشه الطريق الحربي العادى مع نهر الدجلة ، ثم اخترق أرض الجزيرة ، وعند قرقيسيا لحقت به مقدمة جيشه التى كان عليها أن تسير مع الشاطىء الأيمن للفرات ، وبعد أن عبر على الفرات هتد الرقة التقت مقدمة جيشه بطلائع جيش الشام عند سور الروم . وانصرف طلائع جيش الشام قبل التقاء السيوف . فلما طلب على موضعاً لمسكره تبين أن أهل الشام أدخلوا عليهم الطريق إلى الماء ، أى الفرات . ولما لم يستجب أهل الشام إلى أن يخلوا بين جيش على وبين الماء بالحصى ، قاتلهم جيش على حتى غلبهم على الماء وأراد منهم منه ، لولا تدخل على ومنته من ذلك بعد أن انتصر جيشه (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٩ - ٣٢٧١) ، وعسكر الجيشان أحدهما أمام الآخر شهرين كاملين ، ذا الحجة سنة ٣٦ هـ والمهرم سنة ٣٧ هـ [لم يكن بينهما من قتال إلا مناوشات كثيرة فى ذى الحجة ، أما المهرم فتوابع فيه الجيشان طمعاً فى الصلح] . وأخيراً بدأ القتال على أوسع نطاق يوم الأربعاء ٨ صفر سنة ٣٧ هـ (١) ، واستمر صباح الخميس كأشد ما يكون القتال ، وكان أهل الشام أحسن حيلة ، وكان مظهرهم أكثر تضامناً من أهل العراق (الطبرى ج ١ ص ٣٣٢٢) ، وانكشف يمين الكوفة أمام أهل الشام ، وكانوا على ميمنة على ، وذلك رغم استماتة قرأتهم ، ولكن لما اقترب المساء أوقفهم مالك الأشتر ، ثم أخذ يردتهم خطوة خطوة على أعقابهم ، وظل يكشفهم ، حتى ألحقهم بالصفوف المحيطة بمعاوية (٢) ، وانتهى بهم إلى مسكرهم ، ودام القتال طوال الليل حتى ارتفع الضمى ، وكانت هذه هى ليلة الحرير الحقيقية ، لا ليلة

(١) الأربعاء ٢٦ يوليه سنة ٦٥٧ م . = ٦١٤٨ من تاريخ الخليفة = ٦٦٨ من حكم السلوقيين ، قارن الهامش المتقدم .

(٢) [كان من أهل الشام قوم يأمروا معاوية على الموت فقتلوا أنفسهم بالهائم وألفوا صفوفاً كثيرة أحاطت بمعاوية - الطبرى ج ١ ص ٣٢٨٣ ، ٣٣٠٠ - المترجم] .

تهاوند^(١) وفكر معاوية في الفرار منهزماً ، ولاح النصر للأشتر ، وعند ذلك اضطر أن يترك النصر يضيع من يده وأن يغمد السيف ، بعد أمر متكرر من عليّ . وذلك أن أهل الشام رفعوا المصاحف على أسنة رماحهم ، لكي يخرجوا من الاحتكام إلى السيف الذي أوصلك أن ينتهي إلى غير مصلحتهم ويلجأوا إلى حكم كلام الله ، وقبيل أهل العراق أن يُخذعوا ، وأكرهوا علياً على الكف عن القتال وعلى أن يفاوض معاوية ، وهددوه بالقتل إن لم يقبل ذلك . واختير ، بناء على اقتراح معاوية ، حكمان ليحكمكما بحسب القرآن في مسألة من له الخلافة ؛ واختير عمرو بن العاص نائباً عن أهل الشام ، وأبو موسى الأشعري نائباً عن أهل العراق . وتقرر أن يصدر الحكم في رمضان التالي ، في مكان واقع بين الشام والعراق .

وحكاية أبي مخنف لموقعة صفين طويلة جداً في الحقيقة ، وهي من طراز أخبار مواقع القادسية وناهوند . ويحتل الكلام عن مقدمات المعركة ، قبل بدء الالتحام الحقيقي ، فراغاً كبيراً . على أن المحرم ، على كل حال ، ينتهي نهائياً من القتال ، ولا يذكر قتال إلا في الشهر الذي قبله والشهر الذي بعده ، وذلك على نحو واحد : فيحكى أولاً أنه بدأت مفاوضات لاصلاح ، وأنه بدأت بعد ذلك ، عند فشل المفاوضات ، مبارزات فردية ، كان فيها مناسبة لإظهار الأنصار البارزين لكل من معاوية وعليّ ؛ أما أن أسماء الأشخاص الذين قاموا بذلك تختلف في هذه الرواية ، فإن ذلك لا يغير من مادة الحكاية ، ويميل الإنسان إلى الاعتقاد بأن ما جرى أولاً في شهر ذي الحجة هو في الحقيقة ما جرى في شهر صفر ، وهو غير

(١) الطبري ج ١ ص ٣٣٢٧ ، الكامل ص ٧٥٣ ، ويجب أن يكون ذلك ليلة الجمعة ؛ ولكن الطبري يذكر أن ليلة موقعة صفين كانت ليلة الخميس ، وكذلك في رواية لأبي مخنف .
تأريخ كتاب أنساب الأشراف ص ٣٤٩ من ٣ .

منفصل عن المعركة الحقيقية طُولَ شهر المحرم^(١) وعلى هذا تكون فترة الانتظار قبل الموقعة أقصر كثيراً مما يُروى . ولا يصح ، بطبيعة الحال ، أن يكون هناك شك في أن كلاً من الفريقين كان مشفقاً من حسم النزاع بجدد السيف (الدينورى ص ١٩ س ٥ ، ١٩٥ س ٩ ، ٢٠١ س ١٥) ولم يكن أحد يتعجل البدء في الحرب ، وربما كان للتخوف الموروث قديماً من لمرأقة الدم في شهر المحرم شيء من التأثير في عدم الإسراع إلى القتال ، وإلى ذلك يشير بيت مذكور عند الدينورى ص ١٨٢ والمسعودى ج ٤ ص ٣٥٠ ، وهو :

لما دون المنايا غير سبيح يقين من المحترّم أو ثمان

ونحن لا نظفر ، فيما يتعلق بسير المعركة الحقيقية ، بصورة واضحة ، لافق وصفها من الاضطراب الكبير مثل ما كان في مجراها . نعم ، نحن نجد في كثير من الأحيان معلومات دقيقة عن تقسيم الجند وترتيبهم وقيادتهم ، ولكن هذه المعلومات غير متفقة فيما بينها ، ولا تكاد تكون لها ، من أجل ذلك ، أية قيمة عملية فيما يتعلق بمجرى القتال الحقيقي . ويتكون وصف هذا القتال من مجرد روايات متفرقة لحوادث عرضية ، وهى روايات لا تبين إلا ناحية واحدة ، ولا ينجح الكاتب في محاولته أن يجعل منها وحدة منسجمة الأجزاء ، فوصف المعركة يعوزه ارتباط بين الأجزاء ، كأنما يتبين الإنسان أشجاراً متفرقة من بعيد ولا يتبين أنها في الحقيقة غاية . وكل من شهد المعركة يحيل إلى أن يعتبر أن المكان الذى كانت فيه قبيلته هو النقطة المركزية ، وإلى أن يجعل الفضل كله

(١) لا يذكر الدينورى أمر المبارزات الفردية إلا مرة واحدة ، وهو يجعلها في المحل الثانى ، بحيث تصبح مقدمة للاشتباك . وهو بالإجمال يذكر كل شيء ، خصوصاً التفاسيل الصغيرة ، أدق ما تجده عند أبي مخنف ، فيقول إن أول مصحف رقه أهل الشام كان مصحف دمشق الأعظم ، فربط على خمسة أرماع يحملها خمسة رجال . فروايته شبيهة برواية سيف ، وهو يتفق معه في الرواية . والأبيات التى يذكرها الدينورى قيمة جداً على كل حال .

لأبطال قبيلته ، ونهاية المعركة هي وحدها ، التي تبين بوضوح أن مالكا
الأشتر كان البطل الحقيقي في ذلك اليوم . لكن لا يصفه بأنه كان كذلك وصفاً
واضحاً إلا النجاشي الشاعر في أبيات له (الدينوري ١٩٨) ، وقد اشترك
النجاشي بنفسه في المعركة ، فهو يقول :

رأيتُ اللواءَ كظلِّ العقابِ يفتحُه الشَّامِيُّ الأنحُرُ
دهونا له الكبشُ ، كبشُ العراقِ ، وقد خالطَ العسكرَ العسكرُ
فردَّ اللواءَ على حَقْبِهِ وفازَ بحُطُوتِهَا الأشترُ

أما فيما عدا ذلك فهو لا يزيد على كثيرين غيره ممن ذكرت أعمالهم
المجيدة بتفصيل لا يقل عن تفصيل أعماله^(١) . وإذا صرفنا النظر عن قواد
المعركة وجدنا من الأبطال الذين برزوا في القتال على بن أبي طالب نفسه
وابن عمه عبد الله بن عباس . ويوصف قتالُ القرَّاء وثباتُهم ، عند فرار
غيرهم أمام جند الشام ، كما يذكر أنهم اقتحموا الموت من أجل على ،
فهم بدمائهم شهود له ، وهم أقوى دليل على أنه على حق ، ويذكر من
قادتهم عبد الله بن بديل بن ورقاء وهاشم بن حنبل وخصوصاً عمار بن ياسر
للصحابي المسن الذي يروي أن النبي عليه السلام قال فيه إنه ستقتله الفئة
الباغية (ابن هشام ص ٣٣٧) . وبذلك يصبح الأشتر في مكان أقل
بروزاً ، والمتأخرون لا يميلون إليه ، وربما كان ذلك لأنهم ، مثل سيف ،
كانوا يعتبرونه ثائراً : ولا يريد المسعودي واليعقوبي أن يذكرا من أمره .
شيئاً ، وهما يعلنان كل الفضل لكفاءة على في القيادة ، والطبري أيضاً يفعل .

(١) ومنهم أيضاً من يظهر أنهم لم يكونوا قط حاضرين مثل قيس بن سعد بن جادة ،
قارن ما يل رقم ٣ . أما ما ينسب إلى أبي الدرداء الصحابي الورع فقد اخترعه الدينوري (ص
١٨١) [يحكى الدينوري أن أبا الدرداء « هجر صفين وتدخل في سبيل الوصول إلى حل لانزاع
بين علي ومعاوية ، فلم يوفق ، فانسحب ولحق هو وأبو أمية ببعض السواحل - المترجم] -

ذلك (ج ١ ص ٣٣٢١ فما بعدها) : أما أبو مخنف فهو لا يذهب إلى هذا الحد ، بل هو يصف بإعجاب كبير ، ذلك المظهر الحربي الرائع للبطل اليماني (الطبري ج ١ ص ٣٢٩٧) ، ووصفه يُشعر بأن البطل قد أقام الدليل على ما كان لشخصه من شأن . فكان لا يقف حيث يضعه على ، بل على رأس قبيلته ، نزع ، وقد جعله إقدامه واستياقه العدو على نحو مفاجئ قائداً لحمدان ومذجع معاً ، واستطاع بهم أن ينزع النصر من يد أهل الشام . وكان هو وحده أيضاً الرجل الحكيم ، عند ما قبل الآخرون أن يُتخذوا وأن يؤخذ منهم النصر ، فكان هرباً نبيلاً بلزاء أهل الورع القصبري النظر ، وبلزاء أهل التراخي أو المكر من الساسة .

ولم تصل إلينا حكاية للمعركة من الجانب الشامي ، فلعلها كانت تختلف عن حكاية أبي مخنف ، وإن كان يبعد أن تكون أجدر بالثقة من رواية أبي مخنف ، كما يؤخذ من حكاية ثيوفانيس ، فهو يقول (في أخبار سنة ٦١٤٨) : « إن من كان مع معاوية تغلبوا ، واستولوا على الماء ، ومن كان مع علي تركوا القتال وفرّوا بسبب العطش : على أن معاوية ، لم يكن يريد أن يقاتل ، لكنه أحرز النصر بدون مشقة » ومن البين بنفسه أن أبا مخنف يتحيز إلى أهل العراق وحزب عليّ على أهل الشام ومعاوية ، فعلى في نظره هو صاحب الحق وأنصاره هم أهل الديانة ، أما حكاية أن أخاه حنظل بن أبي طالب كان يحارب في صفوف العدو^(١) فلا يذكرها أبو مخنف ، على حين يذكر أنه كان في أهل الشام أبناء أبي بكر وعمر ، إلى جانب أربعة آلاف من القرّاء ، ومعنى هذا أن القرّاء لم يكونوا في جانب عليّ وحده ، كما يذكر أن أهل الشام كانت ضمايرهم مطمئنة كأهل العراق ، فلم يكن هؤلاء جميعاً مقتنعين بحق عليّ اقتناعاً راسخاً ، وكانوا يطلبون الأدلة ، وكانوا يتجادلون فيما بينهم ويمجادلون خصومهم مجادلات استمرت

(١) البخاري طبعة بولاق ١٢٨٩ ج ٢ ص ٦٧ فما بعدها و ص ١٣٩ و ١٤٥ و ج ٢

ص ١١ ، راجع أيضاً مجلة : Deutsche Morgenl. Zeitschr. (DMZ) 1884 88.

لما بعد صفين بزمان طويل ، بل هي وصلت إلى الدار الآخرة^(١) . ولم يكونوا متحمسين للقتال مع إخوانهم في الدين وفي النسب ، وقد سرهم وقف القتال : فكانت الخصومة بين الحزبين لينة في أول الأمر ، وإنما اشتدت مع تطور الحوادث^(٢) :

٢ - وفيما يتعلق بمجرى الحوادث بعد ذلك يحكى لنا أبو مخنف : رجع أهل العراق إلى أنفسهم ، وهم في طريق العودة من أقرب طريق على الشاطئ الأيمن من الفرات ، ولأم بعضهم بعضاً ولاموا حلياً أيضاً ، وإن كان لم يوقف المعركة إلا مضطراً . ولما دخل الكوفة خرج عليه اثنا عشر ألف رجل ، وعسكروا في حروراء ، فسموا الخوارج أو الحرورية^(٣) ، وكان شعارهم عبارة احتجاج على التحكيم ، وقالوا : لا حكم إلا لله . وكان رؤسائهم شيبث بن ربعي الرياحي وعبد الله بن الكواء اليشكري ويزيد بن قيس الأرحبي ، وهم أكبر رجال قبائل تميم وبكر وحمدان الكبيرة في الكوفة . وقد نجح على أن يعيد هؤلاء الرؤساء إلى جانيه ، وقد وعد أحدهم بولاية إصفهان والري وأعطاه إياها . ثم عاد

(١) تراءى لعقمة النخعي أخوه الذي قتل في صفين في المنام وقال له : إن قتل أهمل العراق وأهل الشام تنازحوا بعد قتلهم أيهم كان حل الحق وأن الله أحق أهل العراق . وتفسير رجلائه في المشكلة ، فأحاطها حليلة المدائن إلى ما يحكى عن النبي من أن هار بن ياسر قتلته الفتنة الباهية . أما فيما يتعلق بأطعنات ضائل أهل الشام فنجد شاهداً من أخصار كتب بن جهميل وغيره من الشعراء عند الدينوري ص ١٩١ فابعدا وص ٢٠٦ [لا يشير المؤلف إلى المراجع التي اعتمد عليها في كلامه في أول هذا الحاشي - المترجم] .

(٢) [راجع موقف أهل العراق من حل وخروجهم عليه وما كان من مناقشات بينه وبين الخوارج وقلة رغبة أتباعه في الحرب معه وعدم استجابتهم له وتدخلهم في سرية المكتاتبات في أيام التحكيم ونحو ذلك في مواضع كثيرة عند الطبري في حوادث سنة خلافة علي ؛ بخصوصاً ج ١ ص ٣٣٣٣ - ٣٣٥٠ - ٣٣٥٤ ، ٣٣٨٧ - ٣٣٨٨ ، ٣٤٠٩ ، ٣٤١١ - ٣٤١٢ ، ٣٤١٩ وغير ذلك من المواضع - المترجم] .

(٣) قارن فيما يتعلق بأحزاب المارضة السياسية - الدينية في صدر الإسلام Abh. der:

الحرورية إلى الكوفة وانضموا إليه ، لكنهم انظروا ، وزعموا أنه وعدهم أن يقودهم ، دون إبطاء ، إلى محاربة أهل الشام ، فلما لم يفعل ذلك بل بعث أبا موهب لإفاد الحكومة في دومة الجندل في رمضان عام ٣٧ هـ ، اعتبروا ذلك خلفاً منه للوعد ، فخرجوا عليه من جديد وحينئذ منهم خليفة عليهم استقلوا به عن عليّ ، هو عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي ، وبإيعاده في اليوم العاشر من شوال عام ٣٧ هـ . (٢١ مارس سنة ٦٥٨ م .) ثم خرجوا من الكوفة وحلفاءً مُستخفين واجتمعوا في النهروان على الجانب الآخر من دجلة (١) ، وهناك أيضاً عرضوا على خوارج في البصرة - وكانوا خمسمائة رجل - أن ينضموا إليهم تحت قيادة مسعر بن فدكي الغنيمي .

وبعد أن انتهى التحكيم كما تنتهي المهزلة ، شعر عليّ أن له الحق في أن يستأنف القتال مع أهل الشام ، فجمع جيشه في معسكر النخيلة ، ودعا الخوارج أيضاً للانضمام إليه ، لكنهم لم يستجيبوا لدعوته ، وطالبوه بأن يشهد على نفسه بالكفر لقبوله التحكيم ويستقبل التوبة - وهذا هو تصورهم لاستجابته مرغماً لقبول التحكيم في صفين - فأراد عليّ عند ذلك أن يذهبهم ويمضي إلى قتال أهل الشام ، ولكن جيشه ألح عليه في أن يقاتل الخوارج ، لأن خوارج البصرة ، وهم في طريقهم إلى النهروان ، قتلوا عبد الله بن خباب بن الارت ، ابن أحد السابقين الأولين من الصحابة (ابن هشام ص ٢٣٤) ، بقروا بطن أم ولده عما في بطنها [وقتلوا] آخرين واعترضوا الناس . فاضطر عليّ أن يستجيب لإلحاحهم ، وحاول ، عبثاً ، أن يقنع الخوارج بأن يدفعوا إليه القتلة ، كما حاول هو [ورجاله] عبثاً أن يبين لهم أنه وإياهم في الحقيقة غير مختلفين ، وأنه إنما يريد أن يجعل السيف

(١) النهروان (Naqra) اسم للنهر المعروف في بلاد جوغى من أعمال المدائن (الطبري ج ٢ ص ٩٠٠) ، وهو أيضاً اسم لمكان يسمى باسم أدق هو : جسر النهروان (الدينوري ٢١٧ ، وقيل يتعلق بأرض جوغى انظر الطبري ج ٣ ص ٢٧٥ و ٣٨٥ و ٤٠٦ .

حكماً بينه وبين أهل الشام أعدائه وأعدائهم ، فأجابوهم : لو بايعناكم اليوم
حكمتنم غداً ، يقصدون أن علياً وشيعته سيفعلون ما فعلوه في صفين من
قبول التحكيم ، ولم يقبلوا أى شىء ، وتهيئوا للقتال ، فقتلوا : الرواح
الرواح إلى الجنة !

ويقول أبو مخنف إن موقعة النهروان كانت عام ٣٧ هـ ، قرب آخر هذا
العام ، لأن الخوارج لم يخرجوا من الكوفة إلا في شوال ، أى في الشهر
العاشر . وقد تركهم قوادهم الذين كانوا في حروراء ، واشترك شبت في
محاربتهم حرباً شديدة ، وكذلك فعل الأشعث الذى كان أول الأمر على
مذهبهم ، وهم أيضاً لم يكونوا بالكثرة التى كانوا عليها في حروراء ، فلم يزد
عددهم على أربعة آلاف ، ومن هؤلاء رجعت طائفة متفرقين ، فنزلت
الكوفة ، وانتقل منهم نحو من مائة رجل إلى جانب على " علانية " ، وانحاز
خسمائة فارس على رأسهم فروة بن نوفل إلى الدمكرة ، وقتل الباكون
حتى لم يبق منهم إلا ثمانية أشخاص .

على أنه بعد القضاء على الخوارج اعتقد أهل الكوفة أنهم قد فعلوا ما فيه
الكفاية ، ولم يبق لهم أى ميل إلى محاربة أهل الشام . واضطر على إلى الإذعان
للواقع . ولكنه لم يلبث أن اضطر إلى التفاوض لإخضاع ثوار آخرين تعللوا
أيضاً بمسألة التحكيم ، لكن على نحو مغاير تماماً لما عند الخوارج . وكان
الخيريت بن راشد ، من قبيلة ناجية ، قد تبع علياً إلى الكوفة بعد موقعة الجمل
ومعه ثلاثمائة رجل ، وحارب مع على في صفين والنهروان أيضاً . فلما لم يعترف
على بحكم المحكمين بجاهره الخيريت بالخروج والعداء ، وانجبه معه أصحابه إلى
الأهواز من طريق المذار ، وتلاحق بهم قوم من أصحابهم ، كانوا معهم في الكوفة ،
وانضم إليهم طائفة من العرب يرون رأيهم ، واجتمع إليهم علوج وأكراد من أهل
الأهواز ، لم يريدوا أن يدفعوا الخراج ، وبعد أن هزمهم جيش كوفى تحت قيادة

معقل بن قيس التميمي عند رامهرمز ، رجع الخريت إلى بلاده في البحرين ، وأخذ يوثب قومه من بني ناجية ، وكانوا قد امتنعوا منذ عام ٣٧ هـ من دفع الصدقة (الزكاة) ، بل هو أخذ أيضاً يفسد قبائل عبد القيس [ومن والاهم من سائر العرب] ويوثبهم على عليّ ، وكان يقول لكل صنف من الناس ما يرضيهم ويُسِرُّ إليهم أنه على رأيهم ، فكان إذا تكلم مع الخوارج أظهر أنه على رأيهم وأنهى على عليّ لأنه حكّم الرجال في أمر الله ، وإذا تكلم مع الآخرين أظهر لهم رأيه الذي كان رآه حين خرج من الكوفة ، وهو أن علياً ما كان ينبغي له أن يرفض حكم المحكمين بعد أن رضى بالتحكيم واختار نائباً عنه ، وإذا تكلم مع من امتنع من دفع الصدقة قال لهم : شددوا أيديكم على صدقاتكم ، وزاد على ذلك بأن أوصاهم أن يصلوا بها أرحامهم وأن يعودوا بها على فقرائهم ولا يعطوها إلى بيت المال : وكذلك استطاع أن يضم إليه نصارى كانوا قد أسلموا ثم ارتدوا إلى النصرانية لما رأوا الخلاف بين أفراد الأمة الحمديّة وسفكهم الدماء ، وذلك بأن نبههم إلى أنهم ليس لهم أن ينتظروا من عليّ عقاباً على ارتدادهم عن الإسلام إلا أن يضرب أعناقهم . ولكن معقل بن قيس ، بعد أن طرده من الأهواز ، لم يتدع عنه يثبت سلطانه في البحرين ، فلحقه وقاتله ، وصمدت قبائل بني ناجية ، هضمت ثلاث مرات هجوم جيش يزيد عليها في العدد ، حتى إذا قتل الخريت ومعه مائة وسبعون رجلاً ، تفرق الباقون وانتهت المعركة (١) .

هذا ما يحكيه أبو مخنف كما يذكر الطبري (ج ١ ص ٣٣٤٥ - ٣٣٨٦ ، ٣٤١٨ - ٣٤٤٣) (٢) . ولا سبيل إلى تصحيح روايته بالرجوع إلى يعقوب

(١) [نجد ما كان من الخريت وكيف انتهى أمره عند الطبري ج ١ ص ٣٤١٨ - ٣٤٤٣ وقد راعينا الأصل العربي بقدر الإمكان - المترجم] .

(٢) في مخطوط الطبري قبوة ، وقد ملك في طبعة لندن (ص ٣٣٦٤ - ٣٣٦٨) جلالستمانه بابن الأثير .

أو الكامل أو الدينوري ؛ ولكنها ليست ، بأى حال ، يرثى من المطاعين «
خصوصاً فيما يتعلق بترتيب التواريخ . فهو بعد أن يقول إن الخوارج لم
ينتخبوا لهم خليفة ولم يخرجوا إلى النهروان إلا بعد شهر من التحكيم ، يؤخذ
من كلامه ، بعد ذلك ، أنهم كانوا هناك عند ما علم على بحكم المحكمين
وبدأ يجمع جيشه في النخيلة لمحاربة أهل الشام : ومعنى هذا أنهم لابد أن
يكونوا قد خرجوا من الكوفة قبل التحكيم ، وإذا كان الحرث قد حارب
مع على في النهروان ثم انشق عليه بسبب رفضه الإذعان لحكم المحكمين ،
فلا بد أن تكون موقعة النهروان نفسها قد وقعت قبل التحكيم (١) ، على أنه
نظراً لهذا الخلاف في ترتيب الحوادث تزعزع كل شهادة أبى مخنف ودقته
في وصف الواقع كما كان ، وذلك أن حلياً ما كان يستطيع التفكير في
محاربة أهل الشام إلا بعد صدور حكم المحكمين : فإذا كانت موقعة النهروان
قد وقعت قبل ذلك ، فلا يمكن أن يكون تجمع الجند في النخيلة مقصوداً
به أهل الشام ، بل مقصوداً به الخوارج : وإذن فلا صحة للقول بأن الكوفيين
أرغوا حلياً على حرب الخوارج بدلاً من حرب أهل الشام .

ولا يقتصر خطأ أبى مخنف على تحديد تاريخ موقعة النهروان بالنسبة لغيرها ،
بل هو يشمل التحديد المطلق لهذا التاريخ ، فهو يجعلها في الشهرين الأخيرين
من سنة ٣٣٧ هـ . وقد اعترض الطيرى على ذلك لأسباب وجيهة (الطيرى ج ٩
ص ٣٣٨٧ - ٣٣٨٩) . ونحن نعرف الآن التاريخ الدقيق من كتاب الأنساب
للبلاذرى (راجع DMZ, 1884, 393) وهو أن المعركة كانت يوم ٩ صفر
سنة ٣٨ - الموافق ١٧ يولييه سنة ٦٥٨ م .

(١) ويوجه أدق ، قبل وصول العلم بحكم المحكمين إلى الكوفة ، أما الحكم نفسه فيمكنه
أن يكون قد صدر في نفس الوقت الذي كانت فيه موقعة النهروان ، بل ربما كان قبل ذلك ،
والأمر هنا هو دائماً أمر علم على بحكم المحكمين .

وعلى هذا فلم تُعقد محكمة المحكمين في رمضان سنة ٣٧ هـ ، بل هي
لم تعقد إلا في سنة ٣٨ هـ . ويقول الواقدي ، كما في الطبري (ج ١ ص
٣٤٠٧) ، إنها عقدت في شعبان سنة ٣٨ هـ — بعد شطر كبير من السنة ،
إذا كان معاوية قد عاد في صفر سنة ٣٨ هـ (بعد صدور محكم المحكمين مع
خير شك — قارن الطبري ج ١ ص ٣٤٥٠ ص ١٦) إلى القتال مع أهل
مصر ، كما يقول الواقدي أيضاً (الطبري ج ١ ص ٣٤٠٦ فما بعدها) ؛
على أنه إذا كانت محكمة المحكمين لم تعقد إلا في أول سنة ٣٨ هـ فمن العجيب
أن ينفى عام كامل بين الاتفاق على التحكيم في صيفين وبين انتهائه .
ويقول الزهري وهو من أقدم الرواة المدنيين ، إن الأجل الذي حُدِّد ، في
أول الأمر ، لإصدار الحكم قد أُخِّر ، وقد كان الاتفاق أن يلتقى الحكمان
في دومة الجندل ، أو ، إذا حال دون ذلك حائل ، في أذرح ، في العام
التالي (الطبري ج ١ ص ٣٣٤١) . والواقع أنهم التقوا في أذرح ^(١) (الطبري
ج ٢ ص ٨) ، وأيضاً في العام التالي لموقعة صيفين ، أعنى عام ٣٨ هـ .
وكل من الواقدي (الطبري ج ١ ص ٣٣٥٣ لما بعدها وص ٣٤٠٧) وأبي
معشر (الطبري ج ٢ ص ١٩٨) يذكر أذرح كما يذكرها الزهري .
وأبو مخنف لا يبين في وثيقة الاتفاق مكان اجتماع المحكمين ، فيقول : وإن
[مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكان] عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام
(الطبري ج ١ ص ٣٣٣٧) ، وبعد ذلك يذكر دومة الجندل عادة ،
ولكنه يذكر دومة الجندل وأذرح معاً كأنهما شيء واحد ، [إذا كان نص
الطبري (ج ١ ص ٣٣٥٤ ص ١١) صحيحاً] .

وهكذا نلاحظ قلة الدقة في الرواية المتعلقة بزمان ومكان حادث من أكبر

(١) وهذا المكان الواقع في بلاد إدوم القديمة ، ربما كان اختياره مراعاة لأهل المدينة
الذين كان لهم الحق في أن يقولوا شيئاً .

حوادث تاريخ صدر الإسلام . أما فيما يتعلق بما تضمنته هذا الحادث ويسير القضية وما انتهى إليه الحكم فيها ، فإن الروايات أقل من أن تفي بالحاجة ، ويذكر أبو مخنف روايتين في ذلك (الطبري ج ١ ص ٣٣٥٤ والصنفحات التالية) ، إحداهما ترجع إلى الشعبي . فإلى جانب أبي موسى بعث عليّ إلى مكان عقد المحكمة أربعائة رجل ، عليهم شريح بن هانيّ الحارثي ، وبعث معهم عبد الله بن عباس يصل بهم ، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعائة رجل ، وكان هناك أيضاً من مستحقّي الخلافة بعد الحصريين ، وركبة الأرسطراطية الإسلامية التي كانت تحيط بالنبي عليه السلام وكان منها مستشاروه في شئون الحكم ، مثل عبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير وغيرهما ، ولكن لم يحضر الصحابيّ المسن سعد بن أبي وقاص (١) . فأما عمرو فإنه أراد أن يثبت حق معاوية في الخلافة مستنداً إلى أن معاوية وآل معاوية هم أولياء عثمان ، وقد قُتل عثمان مظلوماً ، وذكر عمرو قول الله عز وجل : « ومن قُتل مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوَلِيِّهِ سُلْطَانًا ، فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا » (الإسراء آية ٣٣) . ثم أكمل عمرو دليله بالكرشرف معاوية ومكانه من صحبة النبي ومصاهرته له وحسن سياسته وتدبيره ، ثم عرض لأبي موسى بالسلطان وبأن معاوية إن تولّى الخلافة فهو مكرم إياه كرامة لم يكرمها خليفة . وكان أبو موسى في نفسه يرشح عبد الله بن عمر ، فلم يفتر بكلام عمرو ، وقال له : ليس أمر الخلافة أمر استحقاق بالشرف ، وإلا كانت الخلافة لغير معاوية ، بل الخلافة لأهل الدين والفضل ، وإذا كان الأمر أمر شرف فعلىّ بن أبي طالب أفضل قريش شرفاً . ثم قال إن المهاجرين الأولين أحق بأن يكونوا أولياء لدم عثمان من معاوية ، ثم ختم كلامه رداً على عمرو في تعريضه له بالسلطان الكرامة من معاوية فقال : والله لو خرج لي من سلطانه كله ما وليّته ، وما كنت

(١) [كان سعد قد أثر الابتعاد عن الفتنة خصوصاً بعد مقتل عثمان وقيام النزاع بين علي ومعاوية (راجع الطبري مثلاً ج ١ ص ٣٣٥٣ - ٣٣٥٥) - المترجم]

لأرثشى في حكم الله عز وجل ، ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمرو بن الخطاب (١) . وهنا تنقطع رواية الشعبي ، ولا نجد فيها حداً ذلك من روايات سوى اعتراض عمرو بن العاص على ترشيح عبد الله بن عمرو . أما أبو مخنف فهو يأتي برواية أخرى عن ابن جناب الكلبي ، وهي الرواية الوحيدة التي تصف نهاية مفاوضات التحكيم : التقى عمرو وأبو موسى في دومة الجندل ، وكان عمرو قد هودأ أبو موسى بأن يقدمه في كل شيء ، وإنما قصد بذلك تقديمه في الكلام عند إصدار الحكم الذي اتفقا عليه ، وهو خلع على معاوية . وقد أراد عمرو وأبو موسى على معاوية فأبى ، وأراد على ابنه فأبى . وأراد أبو موسى صمراً على عبد الله بن عمر فأبى عليه ، فقال له عمرو : أخبرني فما رأيك ؟ قال : أرى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا ، فقال له عمرو : فإن الرأي ما رأيته : وليس المقصود من هذه الشورى أن يترك الأمر لانتخاب الشعب ، بل بلحاظ مختارة من الأرستقراطية الإسلامية ، على مثال البلحاظ التي ألفها عمر ، واتفقت على انتخاب عثمان . وأقبل الحكمان إلى الناس ، وهم مجتمعون . وبعد أن طلب عمرو من أبي موسى أن يعليم الناس باتفاق الرأي بينهما ، وتكلم أبو موسى فقال : إن رأيي ورأي عمرو قد اتفقا على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة ، عند ذلك قال عمرو : صديقٌ وبيدٌ يا أبا موسى ، تقدم فتكلم ! وتقدم أبو موسى ، فأراد عبد الله بن عباس أن يمنعه من الكلام قبل عمرو خشية الغدر من جواب عمرو : ولكن أبا موسى كان مُعْتَمَلاً ، فقال : إنا قد اتفقنا ، وأخذ يتكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نرأصلح لأمرها ولا ألم لشعبها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر ، فيؤتوا منهم من

(١) [يقصد ترشيح عبد الله بن عمرو للخلافة - المترجم]

أحبوا عليهم ؛ وإنى قد خلعتُ علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم وولتوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً . ثم تنحى أبو موسى وقام مقامه عمرو ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا أنخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبتتُ صاحبي معاوية ، فإنه ولّى عثمان بن عفان والطلبُ يده وأحقّ الناس بمقامه ؛ وعند ذلك تشام الحكمان ، وقام أحدُ أنصار عليّ على عمرو فضربه بالسوط . وقام الناس ، وركب أبو موسى ولاحق بمكة هارباً من أهل الشام ، وانصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة . ورجع قوم عليّ إلى عليّ ، فكان عليّ إذا صلتى الغداة يفتنّت ويلعن معاوية وعمرأ وغيرهما من أنصار معاوية ، وبلغ ذلك معاوية ، فكان إذا قنت لمن علياً وابن عباس وغيرهما من آل عليّ .

ولا بد من التنبيه على ما يشعر به الإنسان من أن أبا موسى قد وقع على هذا النحو في شرك الخديعة ؛ أما عمرو فقد غدر غدرأ شائناً . ولا شك أن أكثر الناس حنكة ربما وقع في مثل الشرك الذي وقع فيه أبو موسى . وإذا كان هناك خداع فهو من جانب عمرو ؛ ولم يكن عمرو في الحقيقة بالرجل الذي يُخدع . وهذه الحكاية في أمر نهاية محكمة التحكيم غير جديرة بالتصديق ، وإن كان الواقدي يُعَوِّل عليها فيما يظهر (الطبري ج ٢ ص ٨٤)^(١) . والمغالب أن حكاية الشعبي تختلف عن ذلك ، ولكن نهايتها مفقودة للأسف ، ولدى المؤرخ وسيلة لتصحيح الخطأ بالرجوع إلى ما حكاه أبو مخنف من أمر الخريت بن راشد . وذلك أن الخريت أخذ عليّ أنه لم يقبل حكم أبي موسى الذي يقضى بترك اختيار

(١) ويحكى أبو عبيدة فيما يتعلق بحوادث في البصرة شيئاً شبيهاً بهذا وقع فيها بعد (راجع الطبري ج ٢ ص ٤٤٦) فابعدا وقارن ص ٤٤٤) [في هذين الموضعين من كتاب الطبري تحكيم أهل البصرة رجلين ليغتارا لم والياً بعد موت يزيد بن معاوية وقد أرح أحد الحكيمين بالآخر - المترجم]

«الخليفة إلى الشورى بين المسلمين»^(١) ، وما يأخذه الخريبت على علي لا بد أن يكون مَرَّجِعُهُ إلى قبول أهل الشام أن يكون أمر الخلافة للشورى ، وإلا لما كان هناك محلٌّ للوم الخريبت علياً . أما معاوية فإنه لم يفقد بذلك شيئاً لأنه لم يكن خليفةً بعد ، ولم يُسَمَّ بـ «خليفة» في الحقيقة إلا عام ٤٠ هـ ، في بيت المقدس . ولكن علياً لم يكن يستطيع أن يتنازل عن الموقف الذي أخذته ، ولأن يجعل حقه متوقفاً على الشورى ، وكان من السهل توقع الرفض منه . وقد تصرف عمرو بدهاء عندما وافق أبا موسى على خلع الرجلين ، وهو قد غرر بأبي موسى على كل حال ، لأن معاوية لم يكن خليفةً ، فيُخْلَعُ بالمعنى الذي يُخْلَعُ به علي . وكان الخلع وإنكار الحق في الخلافة لا يصيب إلا علياً . وبعد أن أخطأ علي في الخطوة الأولى أصبح مضطراً في إصلاح الخطأ إلى النكث ورفض حكم الحكمين . وروايات أهل العراق تميل كل الميل إلى إخفاء هذا النكث الذي يُعَدُّر صاحبه على كل حال ، وهي تجعل كل الوزر على عمرو وأبي موسى ، الحكمين اللذين لم يُؤَفَّقَا إلى خير (الطبري ج ٢ ص ٧١٠ س ٩ - ١٠ وص ٩٢٩ س ١) .

٣ - وقد فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٣٨ هـ ، ويظهر أن فتحها وقع بعد انتهاء التحكيم على الفور ، وقد حاول معاوية فتح مصر من قبل في سنة ٣٦ هـ ، وقد أشرت إلى ذلك فيما تقدم ، ولكني أعود إليه هنا في سياقه ، لكي يزول كل غموض :

يقول أبو مخنف (الطبري ج ١ ص ٣٢٣٤ فما بعدها و ٣٢٤٣ و ٣٣٩٢ والصفحات التالية) إن محمد بن أبي حذيفة ، بعد أن سرب المصريين إلى عثمان ابن عفان حتى حاصروه ، وثب هو بمصر على عبد الله بن سعد بن أبي سرح ،

(١) هكذا عند الطبري ج ١ ص ٣٤٣٤ س ١ و ص ٣٤٢٧ س ٢ . وخلافاً لهذا يبدو الخريبت خارجياً محضاً (الطبري ج ٢ ص ٣٤١٩ س ١) ؛ وهذا خطأ إذا نظرنا إلى جملة الحوادث ، ولكن من السهل أن ندركه ، إذا نظرنا إلى تصدير أبي مخنف لجري قضية التحكيم .

هامل مصر حينئذ من قبل عثمان ، فطرده منها ، وصلى بالناس . فخرج ابن أبي سرح ونزل على تخوم فلسطين ، وانتظر ما يكون من أمر عثمان في المدينة وما تنتهي إليه الفتنة . وتلقى محمد بن أبي حذيفة مع خبر مقتل عثمان كتاباً على بن أبي طالب بتعيين قيس بن سعد بن عبادة ، أنبأه رجال الأنصار ، والياً على مصر : وجاء قيس ومعه الكتاب ، ويرجع تاريخه إلى صفر سنة ٥٣٦ هـ : وقد جاء قيس من غير جيش ، ولم يكن معه إلا سبعة نفر من أصحابه ، وكان لأتباع عليّ البند العليا في مصر ، ولكن كان فيها بطبيعة الحال قوم مائلون إلى عثمان أيضاً^(١) . وكان قد تجمعوا في قرية يقال لها خصر بتا ، في الدلتا ، وهاهم يزيد بن الحارث الكنانى ، ولكن قيساً هادن يزيد ، كما هادن مسلمة بن مخلد الأنصارى ، وكان من رهط قيس ابن سعد نفسه ، وكان مسلمة قد وثب يدعو إلى المطالبة بدم عثمان ، ولذلك لم يستطع معاوية أن ينال أنصاراً في مصر على شدة اهتمامه بذلك ، فحاول عند ذلك أن يضم قيساً إلى جانبه ، فوعده ببغال الذهب إن هو انضم إليه^(٢) . ورغم أن معاوية لم يصب نجاحاً في ذلك فإنه نحمد أن يبيع أن قيساً من شيعته وأنه لا يؤذى قوم معاوية بمصر . بل استغلّ معاوية كتاباً جاءه من قيس ردّاً على كتاب منه إليه لأن فيه قيساً لمعاوية ، واختلق كتاباً آخر من قيس يعلق فيه انضمامه إليه^(٣) : وقصد معاوية بذلك أن يثير الريبة من قيس في نفس عليّ ، وقد أفلح معاوية في الوصول إلى غرضه . وأراد عليّ أن يمتحن ولاء قيس له ،

(١) ولكنهم لم يكونوا بأى وجه في جانب معاوية في أول الأمر ، وليس معنى ما هم . عثمان أنهم كانوا يميلون إلى بني أمية . وكان في الكوفة أيضاً قوم يميلون إلى عثمان ولا يتممون . حزب أهل الشام من أجل ذلك ، بل هم اتحدوا موثقاً بجائداً على نصر ما ، كما فعل أبو موسى .
قارن الطبرى ج ٢ ص ٦٥٩ والمقدمى ص ٢٩٣ س ١٢ .

(٢) [وعد معاوية قيساً بسلطان المراقين ووعده لمن أحب من أهل بيته بسلطان الحجاز — المترجم] .

(٣) [يجد القارئ المكاتبات بين معاوية وقيس عند الطبرى ج ١ ص ٣٢٣٨ - ٣٢٤٦ .
وكتاب قيس الأول لمعاوية غير صريح ، فتصور معاوية أن قيساً مقارب مباح ، ولم يأمن أن .

فكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتا ؛ فلما امتنع قيس وبين لعل وجهه نظره في سياسته ومداراته لقوم أشداء ، أبي عليّ إلاّ قتالهم ، وأخيراً كتب قيس إلى عليّ : إن كنت تهمني فاعزلني عن عملك وابعث إليه غيره ؛ فعزله عليّ وعين مكانه محمد بن أبي بكر^(١) . وكان في ذلك دخل للدسائس من جانب بطانة عليّ ضد قيس بن سعد بن هبادة ، الذي كان أبوه سعد بن هبادة قد نازع أبا بكر في الخلافة من قبل ؛ وقد فوجئ قيس بوصول خلفه ، ولكن ولاءه لعل لم يزعزع ؛ وبعد فترة قليلة قضاه في المدينة خرج حتى قدم على عليّ في الكوفة ، وحارب إلى جانبه في موقعة صفين (عام ٣٧ هـ) . أما محمد بن أبي بكر الذي كان كتاب تعيينه مؤرخاً غرة رمضان عام ٣٦ هـ ، فإنه لم يلبث في ولايته شهراً كاملاً حتى بعث إلى القوم المعتزلين الذين كان قيس بن سعد قد وادهم ، فخيرهم بين أن يدخلوا في طاعته وبين أن يرحلوا عن البلاد . فاستمهلوه حتى ينظروا ما تصير إليه أمورهم ، فلما أبي عليهم امتنعوا منه وأخذوا حذرهم ، حتى كانت وقعة صفين وهم له هائبون . فلما أتاهم صبر معاوية وأهل الشام لعل وأن علياً وأهل العراق رجعوا عن معاوية وأهل الشام وصار أمرهم إلى التحكيم ، اجتمعوا على محمد بن أبي بكر وأظهروا له المبارزة . فوجه إليهم بعضاً فقتلوا قائده ، ثم بعث آخر فقتلوا قائده ، ثم وثبوا بقيادة معاوية بن حذّج السكوني يدعوون إلى المطالبة بدم عثمان ؛ وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر ، ولم يستطع أن يكبح جماح الثوار ، فاضطر عليّ إلى أن يقرر لإرسال مالك الأشتر ، صاحب النصر يوم صفين ، إلى

م يكون في الحقيقة مكاييداً ؛ ثم جاء خطاب قيس الثاني سريعاً في تأييد عليّ والظن على معاوية وأصحابه . ويظهر أن قيساً لما رأى قوة العثمانيين بين عرب مصر أثر السياسة والمواودة ، وإلاّ لأن تاريخه يدل على استقامة الكلمة وعلى الصراحة وعدم المساومة ، لا في شره ولا في موقفه السياسي . - المترجم] .

(١) [وفي رواية أخرى أن علياً عين مالكا الأشتر مكان قيس بن سعد وأن مالكا مات مسجوماً من يد أنصار معاوية بمصر (الطبري ج ١ ص ٣٢٤٢ ، ٣٢٩٣ ، ٣٣٢٤) . - المترجم] .

مصر ، وكان مالك يومئذ في نصيبين على حدود أرض الجزيرة التي كانت تابعة للشام . وجاء مالك أيضاً من غير جيش ، وشق على معاوية تعيين مالك على مصر ، فبعث إلى الجليستار ، رجل من أهل الخراج ، وطلب منه أن يحتال لمالك ويكفيه إياه ، ووعدته ألا يأخذ منه خراجاً طول مدة حكمه ، إن فعل . فخرج الجليستار إلى القلزم واستقبل مالكاً ، واحتال حتى استطاع إخافته ، ثم دس له السم في شربة عسل ، فمات . وكان معاوية قد طلب من أهل الشام أن يدعوا الله أن يكفهم مالكاً الأشتر ، فكانوا كل يوم يدعون الله عليه ، حتى إذا بلغ معاوية موته قام في الناس خطيباً في دمشق وأعلن موت الأشتر لإعلان المنتصر ، وعند ذلك كتب عليّ إلى محمد بن أبي بكر ، فأزال ما كان في نفسه من موجدة بسبب تعيين الأشتر على مصر ، فرفضت نفسه ، وبقي في منصبه المثلث بالمتاهب .

ولكن رواية أبي مخنف هذه ، وهي السائدة في الكتب الحديثة للتاريخ الإسلامي ، يمكن تصحيحها بمعلومات أكثر دقة . لم يكن قيس بن سعد أول والٍ لعليّ في مصر ، بل جاء خلفاً لمحمد بن أبي حذيفة (١) . وكان محمد قد بقى في مصر عند ما خرج الثوار على عثمان من هنالك قاصدين المدينة ، وذلك بعد أن كان قد طرد عبد الله بن سعد بن أبي سرح واستولى على مصر لعليّ (الطبري ج ١ ص ٢٩٦٨) . ولكن معاوية وحمصاً نجحاً عام ٣٦ هـ في استدراج محمد بن أبي حذيفة ، الثائر الشاب ، إلى العريش عند حدود مصر ، ولم يتوغل في مصر أكثر من ذلك (رغم ما جاء في الطبري ج ١ ص ٣٤٠٧ س ١٧) ، لأن العثمانيين بمصر لم ينضموا إليهما ؛ وفي العريش أحاطا بآبني حذيفة وأخذاه أسيراً ، ثم

(١) الواقدي ، عند الطبري ج ١ ص ٣٢٥٢ والصفحات التالية ، والبلادري ص ٢٢٧ فابدها ، ويوافق ذلك ما جاء في الطبري ج ١ ص ٣٢٣٣ ، وهي رواية لا إسناده لها .

عُتِل بعد ذلك . ولكن الروايات لا تتفق تماماً فيما يتعلق بزمان القتل وكيفية ،
فيقول المؤرخ السرياني الذي نشر نولده كتابه (DMZ, 1893, 89) إنه في
سنة ٩٦٩ من حكم السلوقيين (= ٣٨ - ٣٩ هـ) قُتِل حذيفة بن أخت
معاوية بأمر معاوية^(١) ، ويؤيد هذا التاريخ ابن الكلبي ، كما يذكر الطبري
(ج ١ ص ٣٤٠٨) . على أنه يروى أنه لما فر ابن أبي حذيفة^(٢) من سجنه
كان معاوية يحب له أن ينجو (قارن الطبري ج ٢ ص ٢١٠ والدينوري
ص ١٦٧ س ١٥) . وقد قُتِل رجل من خشم ، على كره من معاوية . وقد
كان ابن أبي حذيفة قد اختبأ في غار ، فلجأت إليه حُمُرٌ وحشية أصابها
المطر ، فلما رآته فرحت ونفرت . ورأى ذلك حصادون ، فتنهبوا إليه ،
ودلّوا الرجل الخشعمي على مكانه ، فقتله . أما الواقدي (الطبري ج ١
ص ٣٢٣٣ س ٧ وص ٣٤٠٧ س ١٥) فهو يجعل قتل ابن أبي حذيفة في
نفس السنة التي أسرف فيها ، أعني عام ٣٦ هـ . والأرجح أن هذا خطأ .

وبعد أسر ابن أبي حذيفة جاء قيس بن سعد خلفاً له . فن العسير أن يكون
قد ترك ولايته في رمضان سنة ٣٦ هـ ، وأن يكون قد اشترك في موقعة صفين ،
كما يقول أبو مخنف . أما الزهري (الطبري ج ١ ص ٣٢٤١) فابعداها وص ٣٢٤٦
وص ٣٣٩١ فابعداها فيقول إنه حُزِل بعد تلك الموقعة ، وإنه لم يبادر الذهاب
إلى علي بالكوفة راضى النفس ، بل هو لحق بالمدينة . ولكن مروان ابن
الحكم وغيره من الأمويين أخافوه أن يؤخذ أو يقتل ، فخرج قيس حتى قدم
على علي . وتغيظ معاوية أشد الغيظ على من أخرج قيساً حتى لحق بهلي ، لما
كان لقيس في نظر معاوية من الرأي والمكانة ، حتى كان ذلك أشد عليه من

(١) هو يسميه حذيفة ، وإن كان أبوه لم يكن يسمى أبا حذيفة تبعاً لاسمه ، ويعتبره
ابن أخت معاوية ، وإن لم يكن في الحقيقة ابن أخته بل ابن خاله (ابن هشام ص ١٦٥
و ٢٠٨) [في الطبري ج ١ ص ٣٤٠٨ أنه كان ابن خال معاوية - المترجم] .

لمداد على بمائة ألف مقاتل : وجاء الأشر إلى مصر بعد قيس مباشرة ، ولم يأت محمد بن أبي بكر إلى مصر إلا بعد أن دُسَّ السمُّ للأشر بعد أن كان قد دخل أرض مصر . على أن ابن الكلبي (الطبري ج ١ ص ٣٢٤٢) يذكر خلافاً لذلك أن الأشر إنما أُرسل إلى مصر بعد سقوط محمد بن أبي بكر ، وهذا خطأ تام على كل حال .

على أن معاوية وحمراً استأنفا ما كانا قد رجعا عنه من الهجوم على مصر سنة ٣٦ هـ ، فعادا إلى ذلك في عام ٣٨ هـ ، بنجاح أكبر ، وحاربا محمد بن أبي بكر . والروايات في ذلك أيضاً متضاربة عند الطبري ، فيقول أبو مخنف (الطبري ج ١ ص ٣٣٩٦ والصفحات التالية) إن معاوية ، بعد انتهاء التحكيم ، ولم يكن له هم سوى مصر ، وكان لأهلها هائباً خائفاً ، لقربهم منه وشدة بهم على من كان على رأى عثمان . وكان معاوية يرجو أن يظهر على مصر ، فيظهر على حرب على ، لعظم خراجها (١) . فكان يعلم أن بها قوماً قد ساء لهم قتل عثمان ، وخالقوا عليه ، منهم مسلمة بن مخلد الأنصاري ومعاوية بن حنظل الكندي : وكان محمد بن أبي بكر قد ناصبهما الحرب ، وشجع معاوية هذين الثائرين في كتاب منه إليهما ، ووعدهما المواساة في الدنيا والسلطان ، فكتبوا له بأمرهما وأنهما بدلا أنفسهما لأمر الله ، لا يرجون إلا ثوابه ، وطلبا أن يعجل بإرسال المدد ، بعد أن كانا من قبل لا يقبلان منه شيئاً . فخرج عمرو في ستة آلاف رجل قاصداً مصر ، حتى إذا نزل له في نفس الوقت بكتاب تهديد ووعد من معاوية . فطوى ابن أبي بكر الكتابين وبعث بهما إلى على ، وأبلغه نزول عمرو أرض مصر في جيش لجب واجتماع أنصار معاوية إليه ، ووصف له ما بدا على الناس من القتل ، وطسب المدد

(١) [قارن ما تقدم ص ٧١ - المترجم] .

من عليّ . فكُتب له عليّ أن يصبر ويحصن حتى يأتيه المدد ، وأن يردّ
عليّ ما وصله من كتب التهديد . ولكن مدد عليّ لم يأت ، واضطر محمد
ابن أبي بكر إلى أن يعتمد عليّ موارده الخاصة^(١) . فدعا الناس إلى القتال ،
فنهض معه نحو من ألفي رجل ، وكان أشدهم نجدة وبأساً كنانة بشر التجيبي
قاتل عثمان^(٢) ، وهو الذي أوصى عليّ محمد بن أبي بكر بانتدابه . وبدأت
المعركة ، وقاتل كنانة قتالاً شديداً ، حتى قُتل أمام قوة كبيرة من جند
الشام أساطت به من كل جانب . وعند ذلك تفرق الباقون عن محمد
ابن أبي بكر ، حتى بقى وما معه أحد ، فخرج يمشي في الطريق حتى
انتهى إلى غربة ، فأوى إليها . وخرج معاوية بن حُديج في طلبه حتى
اهتدى إليه واستخرجه من الغربة ، ثم قتله ، وهو مجرد من السلاح ، ثم
وضعه في جوف حمار وأحرقه بالنار . فلما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعاً
شديداً وقتلت عليه في دهر كل صلاة ، تدعو عليّ معاوية وعمره ،
وقبضت عياله إليها ، وصارت لا تستطيع أن تأكل لحم الشواء (قارن
الطبرى ج ٣ ص ٣٦٨) :

أما الواقدي فيحكى غير ذلك ، فهو يقول (الطبرى ج ١ ص ٣٤٠٦) فلما
بعدها إن تمهراً خرج إلى مصر في أربعة آلاف رجل فيهم معاوية بن حُديج
وأبو الأعور السلمي ، ومعنى هذا أن معاوية بن حُديج لم يكن في مصر من قبل
ويذكر الواقدي أن المعركة كانت عند المُسنّة^(٣) . وبعد قتال شديد قُتل
كنانة ، ولم يجد محمد بن أبي بكر من يقاتل معه ، فانهزم واختبأ عند جبلية ابن
مسروق ، حتى دُلّ عليه معاوية بن حُديج ، فأحاط به ، فخرج محمد
وقاتل حتى قتل ، وكان ذلك في صفر سنة ٣٨ هـ .

(١) قارن بهذا ما يقوله سيف في حكمة على هذا الرجل .

(٢) [نجد في الطبرى ج ١ ص ٣٤٠٣ ، ٣٤٠٥ ، ٣٤٠٦ أن محمد بن أبي بكر يترف
بقتله عثمان وأنه قُتل بمِثْان - المترجم] .

(٣) المُسنّة ، ويسمى السعدى هذا المكان كوم فريك ، وهذا خلط - قارن ياقوت

ونهاية محمد بن أبي بكر كما يحكيها أبو مخنف ، أكثر دخولا في باب الروايات القصصية مما هي عند الواقدي ، وهي تشبه ما يروى من نهاية محمد (بن أبي حليفة) الذي قُتل ، كما يقول المقرئ (١) ، كما يقتل الحمار ، والذي يذكر ابن الكلبي أيضاً أن قتله كان بسبب شجر نفرت من الغار الذي كان مختبئاً فيه ، فدانت بذلك عليه . ولا حاجة للمؤرخ أن يحكم في الأمر حكماً قاطعاً ، وهو يرى مقدار اضطراب الروايات المتعلقة بذلك العصر .

٤ - ساء موقف علي بعد صفتين سوءاً شديداً ، فكان الخوارج في العراق يحاربونه حرباً شديدة ، وكان أهل البصرة مترخين مثاقلين عن نصرته ، إذا استثنينا أشخاصاً قلائل مثل أبي الأسود الدؤلي . وكان أهل الكوفة معه بأهوائهم ، لم يكونوا معه بكل قواهم ، وكان بينهم بعض المهادين وبعض المائلين إلى عثمان ، ولحق بعضهم بمعاوية . وقد كان لضعف مركز علي في قلب الدولة أثره على مكانته وهيئته في الأطراف ، ففي سنة ٣٧ هـ ، قبل ثورة الخريت ، امتنع عرب البحرين عن دفع الخراج وصدقة المال ، وارتد بعضهم إلى النصرانية ، وتمردت الولايات الفارسية وتراخت عقدة طاعتها للحكومة المركزية . وطمع أهل فارس وكرمان في كسر الخوارج ، وغلب أهل كل ناحية على ما يليهم وأخرجوا العمال (٢) . ولا بد أن يعجب الإنسان من ولايات فارس لم تستطع في ذلك الوقت أن تطرح عن عاتقها النير الأجنبي جملة ، وأن تطرد جنود الاحتلال العرب طرداً تاماً . وكان أكبر رجلين من رجال علي ، بعد موت ملك الأشتر ،

(١) انظر 58 p. *Violen, Recherches* (وذلك في *Verhandl. der Amsterdam*)
Akademie 1894 — 1.3 *Letterkunde* .

(٢) وعصموا خراسان ، كما يقول البلاذري ص ٤٠٨ طبعها ، والطبري ج ١ ص ٣٢٤٩ وما يليها و ص ٣٢٨٩ وما يليها . وكذلك أذربيجان والري وفارس والأموال (الطبري ج ١ ص ٣٢٥٤ و ٣٢٤٥ و ٣٣٩٣ و ٣٤٢٩ و ٣٤٣٠ و ٣٤٤٩)

هما قيس بن سعد بن عبادة وزبيد بن أبيه . أما عبد الله بن عباس ، الذي ولاه عليّ على البصرة ، فقد أثبت أنه وال غير أهل للولاية وأنه لا يعول عليه .

وكانت أقوى ضربة حقيقة أحس بها عليّ هي فتح مصر على يد عمرو ، لأن معاوية أصبح على أثر ذلك مطلق اليدين ، وكان عندئذ قد أمّن نفسه من اعتداء الروم بأن عقد هدنة مع الهرقل كوستانس (Constane) في مقابل إتاوة سنوية . والروايات العربية لا تذكر ذلك إلا ذكراً هامراً^(١) . ولكننا نعرف مما كتبه ثيوفانيس أن ذلك كان عام ٦١٥٠ من تاريخ الخليفة = ٣٨ هـ - ٣٩ هـ^(٢) . ولم يجترأ معاوية على أن يهجم على عليّ هجوماً حقيقياً ، واكتفى بأن فرق جيوشه على الأطراف التي في طاعة عليّ هنا وهناك . ففي سنة ٣٨ هـ وجه معاوية إلى البصرة عبد الله بن عمرو بن الحضرمي لكي يعرض قبائل تميم على الثورة ضد عليّ ، وكان عبد الله بن عباس قد خرج من البصرة إلى عليّ بالكوفة واستخلف زياد بن أبيه ، فاحتسب زياد بقبائل الأزدي ، فأخذ هؤلاء نار الثورة ، وقتلوا ابن الحضرمي بعد أن تصدع عنه كثير من كان معه . وهذا ما يحكيه المدائني ونجدته عند الطبري (ج ١ ص ٣٤١٤) والصفحات التالية) : ويروي المدائني عن عوانة (الطبري ج ١ ص ٣٤٤٤) ما بعدها : أنصار الجيوش التي وجهها معاوية إلى العراق . فهو قد وجه النعمان بن بشير إلى حين التمر ، وسفيان بن عوف إلى هيت والانباء ، وعبد الله بن مسعدة الفزاري إلى تيماء ، والضحاك بن قيس إلى القسطنطينية^(٣) .

(١) البلاذري ص ١٥٩ س ١ و ص ١٦٠ س ٨ والنظر DMZ : ١٨٧٥ ص ٩٦ ، قارن ما يحكيه الطبري (ج ٢ ص ٢١١ والدينوري ص ١٦٨) ، ويحكى المسمودي (ج ٥ ص ٢٢٤) ذلك عن عبد الملك بن مروان .

(٢) تكلمت عن العلاقة بين سني العالم عند ثيوفانيس وبين التاريخ السلوقي في مجلة Göttinger Nachrichten ، عام ١٩٠١ ص ٤١٤ والصفحات التالية .

(٣) قارن اليعقوبي ج ٢ ص ٢٢٨ س ٦ و ٢٢٩ س ٣ و ص ٢٣٠ س ٩ ، والأغاني ج ١٥ ص ٤٥ ما بعدها . ويقول أبو معشر والواقدي (الطبري ج ١ ص ٣٤٤٧) إنه معاوية سار بنفسه سنة ٣٩ هـ إلى دجلة حتى شاربها ، ثم تكمن راجعاً .

وتبدو هذه الحملات مجرد غارات ، فكان يعود أهل الشام بالغنائم ، وكان أهل الكوفة يطاردونهم ويلسكونهم ويقتلونهم .

ويربط البعض بين غارات النهب هذه وبين الحملة المشهورة التي قام بها يسر بن أرملة في الحجاز واليمن (الأغاني ج ١٥ ص ٤٥ وما بعدها ، واليعقوبي ج ٢ ص ٢٣١) : ويذكر البكائي عن حوالة (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٠ فما بعدها) أن ذلك كان في أواخر أيام علي : فيروى أن جارية بن عُدانة علم بمقتل علي ، وهو في طريقه لهاربة يسر . أما عند الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٢٢) فإن هذه الحملة لم تقع إلا عام ٤٢ هـ ، بعد وفاة علي .

ويذكر البكائي (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٢ و ٣٤٥٣) نقلاً عن ابن اسحاق (١) أن مهادنة جرت في سنة ٤٠ هـ بين علي وبين معاوية ، بعد مكاتبات طويلة ، وأنهما تراضيا على وضع الحرب بينهما ، وتكون لعل العراق ومعاوية الشام ، فلا يدخل أحدهما على صاحبه في حملة يجيش ولا غارة ولا غزو ، وذلك بعد أن رفض كل فريق أن يعطى صاحبه الطاعة ، وبعد أن كتب معاوية إلى علي يقترح عليه كف السيف عن الأمة والإمسالك عن إراقة دماء المسلمين : ويروى أنهما اتفقا . فأقام معاوية في الشام بجنوده ، يجيها وما حولها ، وعلى بالعراق يجيها ويقسمها بين جنوده . ولا يمكن أن تكون هذه المهادنة إلا قصيرة الأمد ، لأن معاوية اتخذ لنفسه في أول سنة ٤٠ هـ لقب الخلافة في بيت المقدس ، وأخذ البيعة من أهل الشام على ذلك ، وقد كان هذا تحدياً جديداً لعل ، فأجاب علي بأن أحد حملة كبيرة لهاربة أهل الشام ، ولكن اغتياله حال دون تنفيذها .

ويقدم المؤرخ السرياني الذي نشر تاريخه نولذكه شاهداً على تنصيب

(١) هكذا يدلنا من قول الطبري : أبي اسحاق ، ذلك أن البكائي في كتاب السيرة هو الراوية المتوسطة بين ابن هشام وبين ابن اسحاق .

معاوية نفسه خليفة في بيت المقدس عام ٤٠ هـ : وهو يذكر في هذا الحادث روايتين مستقلتين ، إحداهما بعد الأخرى ، فيقول : « في عام ٩٧١ من حكم السلوقيين اجتمع كثير من العرب في بيت المقدس ونصبوا معاوية ملكاً ، فصعد معاوية إلى جبل الجبلجة (Golgota) ، وصلى هناك ، ثم صعد إلى جبلسماني ، ثم هبط إلى قبر السيدة مريم وصلى : « وفي شهر يوليه سنة ٩٧١ اجتمع الأمراء وكثير من العرب وبايعوا معاوية ، وصدر الأمر بأن يُنادى به ملكاً في جميع أنحاء بلاده (١) ، ولكنه لم يحمل تاجاً ، كما يحمله ملوك العالم ، على أنه أقام عرشه في دمشق ، ولم يرد أن يذهب إلى مقر النبي « المدينة » . ويتبدى شهر يوليه من عام ٩٧١ من حكم السلوقيين (٦٦٠ م :) في ١٦ صفر سنة ٤٠ هـ . ويقول المسروقي أيضاً ، كما يحكي الطبري (ج ٢ ص ٤ فما بعدها — قارن أيضاً ج ١ ص ٣٤٥٦) أن أهل الشام بايعوا معاوية بالخلافة في إيلياء سنة ٤٠ هـ . ولكن من الخطأ القول بأن ذلك لم يحدث إلا بعد وفاة علي . ومما يستلفت النظر أن معاوية أخّر أخذ البيعة لنفسه إلى ذلك الوقت . وفي كتاب Continuatlo Isidori Byz. Arab. § 25 (ط : Mommsen) أن معاوية ظل خمس سنين مواطناً عادياً ، أي من ٣٦ إلى ٤٠ هـ . وظل بعد ذلك خليفة حشرين عاماً .

ويقول المؤرخ السرياني أيضاً إن علياً كان يريد قبل وفاته بقليل أن يعاود الخروج لقتال معاوية . غير أن هذه الرواية تُذكر في سنة غير صحيحة (٩٦٩ هـ) بدلاً من ٩٧١ أو ٩٧٢ السلوقية) ، ولكنها صحيحة في ذاتها ، واليعقوبي (ج ٢ ص ٢٣٥ س ١٥ و ٢٣٨ س ٢٠) يحكي نفس الشيء : « والروايات متفقة على أنه كان تحت قيادة علي عند وفاته جيش " من أربعين ألف رجل ، يطالبون بالخروج

(١) إن الكلمة التي لم يستطع تولده أن يقرأها إلى جانب كلمة *παύσις* هي : *παύσις* التي منها في غالب الظن كلمة : *qualles* السريانية (= ينادى) .
(٧ - الدولة العربية)

لقتال أهل الشام ، فَمَنَّ غير عليّ أحدٌ هذا الجيش للحرب ولأى غرض
أُعيد ، إن لم يكن ذلك لقتال أهل الشام ؟

وقد حدث الاعتداء الذي مات بسببه عليّ في يوم الجمعة (١) ١٥ رمضان
سنة ٤٠ هـ ، في مسجد الكوفة (الكامل ص ٥٥٣ س ٩) ، وتوفي عليّ يوم
الأحد التالي لذلك ، ٢٤ يناير سنة ٦٦١ م . وما يذكره الواقدي (الطبري ج ١
ص ٤٤٦٩ ، وج ٢ ص ١٨) يؤيد صحة هذه التواريخ ، كما يلاحظ
ما يخالفها . أما القاتل ، وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي النجفي بوجه أدق
(الكامل ص ٥٥٣ س ١٧) فقد كان خارجياً . والخوارج يذكرونه فخورين
ويقولون إنه أخوهم ، أخو مراد (الطبري ج ٢ ص ١٨) ، وتشهد آيات
ابن أبي ميثاس المرادي (الطبري ج ١ ص ٣٤٦٦) أن الذي حرضه عليّ
قتل عليّ امرأة يقال لها قطام ، كانت فائقة الجمال ، ورآها ابن ملجم ،
فالتبست بعقله فخطبها . وكان أبوها وأخوها قد قُتلا يوم النهروان ، فجعلت
فيما جعلت من مهرها قتل عليّ بن أبي طالب ثأراً لقتلها . وهذا تسقط
الرواية (٢) التي وصلت بذلك وصلاً مصطنعاً والى تقول إن ابن ملجم كان
أحد ثلاثة من الخوارج تأمروا في مكة عليّ أن يريحوا الأمة الإسلامية في يوم
واحد من أئمة الضلالة الثلاثة - في رأيهم - وهم عليّ بن أبي طالب ومعاوية
ابن أبي سفيان وعمرو بن العاص . ومن جهة أخرى فلإن مثل هذا التآمر
السري بين الثلاثة المتآمرين لا يتفق مع عادات الخوارج القدماء ، كما
لاحظ ذلك ابن الأثير (٣) : أما القول بأن معاوية هو الذي استأجر ابن
ملجم لقتل عليّ ، كما أوما إلى اتهامه بذلك أبو الأسود الدؤلي في

(١) يؤيد من الطبري ج ١ ص ٣٤٥٧ ، ٣٤٦٨ - ٣٤٦٩ أن احتمال عليّ كان ليلة
الجمعة ١٧ رمضان . أما وفاته فكانت بعد ذلك بيومين - المترجم [.
(٢) [تجدها عند الطبري مثلاً في ج ١ ص ٣٤٥٦ ، وفي الكامل المبرد ص ٥٤٩ -
المترجم [.

(٣) ولا يجوز إنكار أن اعتداءات وقعت على معاوية وعمرو ، أما التمسك فهو الربط
بين الاعتداءات والقول بأنها كانت بناء على اتفاق مدبر ..

أبيات له (١) ، فإنه لم يجد أبداً من يصدق به أقل تصديق حتى من أعداء معاوية . فأما القول باغتيال عليّ أفاد معاوية فلا شك في ذلك على كل حال ، لأنه يصل إلى الخلافة إلا بذلك . والحسن بن علي (الطبري ج ٢ ص ٣) يذكر أن مما جعله يسخو بنفسه عن أهل العراق أنهم قتلوا أباه . ويقول الخليفة المنصور مثل ذلك (الطبري ج ٣ ص ٤٣١) . ويظهر أن منشأ هذا هو أن ابن ملجم وقطام كانا من أهل الكوفة (قارن الطبري ج ٣ ص ٣٤٥٦) فما بعدها ، وص ٣٤٦٥ فما بعدها ، واليعقوبي ج ٢ ص ٥٢١ ، والكمال ص ٥٤٦ فما بعدها وص ٥٨٣ .

٥ - ثم صار معاوية هو المهاجم (اليعقوبي ج ٢ ص ٤٥٥) ، فأخذ الطريق الحربي المعتاد . وعبر أرض الجزيرة إلى العراق ، ونزل بمسكره في مسكن ، على حدود الدجلة من الموصل إلى جهة السواد ، ولكنه انتظر هناك حيناً بعد وفاة عليّ . وفي أثناء ذلك قامت ثورة علي الحسن ، بعد أن كان قد بويج على الخلافة بعد أبيه . ولكن الحسن كان زاهداً في الحرب ، لا يرى القتال ، رغم أنه كان وراءه أربعون ألف رجل ، كانوا قد بايعوا علياً على الموت . واتمس الحسن سيلاً إلى مصالحة معاوية ، وتنازل عن الخلافة بعد نصف عام . وهذا هو المعروف بالإجماع معرفة واضحة ، ولكن الروايات في تفصيل ما جرى بعد مقتل عليّ مضطربة ، وفيها فجوات ، فيحكى عن الزهري ما يلي : كان عليّ قد أسند إلى قيس بن سعد قيادة الجليش ، ووعدته بولاية أذربيجان مكافأة له (٢) ، وهزل الأشعث - المقصود به هو الأشعث بن قيس عن هذه الولاية . وكان قيس يريد الحرب ،

(١) [الطبري ج ١ ص ٣٤٦٧ - المترجم] .

(٢) [نجد عند الطبري - والمؤلف يتابعه غالباً - هذا : « جعل عليّ م قيس بن سعد على مقدمته من أهل العراق إلى قبل (التي قبله) أذربيجان وعل أرضها (أصحان) وشرط الخميس (الجليش) التي ابتدعها العرب ، وكانوا أربعين ألفاً بايعوا علياً على الموت » . الطبري ج ٢ ص ١ . وقد نقلنا النص كما هو وأضفنا القراءات بين قوسين . والمعروف عن سعد أنه كان لا يسأل أجراً ولا مكافأة عما يفعل - المترجم] .

ولكن الحسن كان لا يرى القتال ، وكان يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية . وقد عرف أن قيساً لا يوافقه على رأيه ، فزعه وأمر عبد الله بن عباس (الطبرى ج ٢ ص ١ - ٢ ، قارن ج ١ ص ٣٣٩٢) . وكان الحسن لما بايعه أهل العراق على الخلافة طفق يشترط عليهم : إنكم سامعون مطيعون ، تسلمون من سالت ، وتحاربون من حاربت ، فارتاب أهل العراق في أمرهم ، حين اشترط عليهم هذا الشرط : وقالوا : ما هذا لكم بصاحب ، وما يريد القتال . فلم يلبث الحسن بعد ما بايعوه إلا قليلاً حتى طعن طعنة أشوته ، فازداد لهم بغضاً وازاد منهم ذعراً ، ولا يذكر الزهرى تفاصيل المناسبة التي أدت إلى هذه الطعنة . على أنه لما قام للحسن الدليل على موقف أهل العراق منه ، كاتب معاوية وأرسل إليه بشروط ووعده ، إن وفى له بها ، أن يسمع له ويطيع . وأعطاه معاوية ما شرط ، فتنازل الحسن عن الخلافة لقاء مال كثير . وكان معاوية ، قبل أن يقع في يده كتاب الحسن ، قد أرسل إلى الحسن بصحيفة ببضاء ، وقد ختم عليها في أسفلها بختمه ، وكتب إليه أن يشترط فيها ما شاء ، فهو له . فأراد الحسن أن يأخذ أضعاف ما كان قد شرط أولاً ، فلم يخطيه معاوية ذلك (الطبرى ج ٢ ص ٥ فما بعدها) . أما عبد الله ابن عباس فإنه لما علم بما أراد الحسن أن يأخذه لنفسه من معاوية ، لم يبال بأنه كان قائد الجيش ، وكتب إلى معاوية يسأله الأمان ويشترط لنفسه على الأموال التي كان قد أخذها . فشرط ذلك له معاوية ، فترك جنده بغير قائد ، والحق بمعاوية .

ولما صالح الحسن معاوية كتب الحسن إلى قيس بن سعد يدعوهم إلى الدخول في طاعة معاوية ، فقام قيس خطيباً فيمن كان معه من الجيش ، وخبرهم بأن يدخلوا في طاعة إمام ضلالة ، أو أن يقاتلوا مع غير إمام . فاختاروا الأولى وبايعوا لمعاوية ، وانصرف عنهم قيس . وفي رواية أخرى للزهرى أنه بعد أن صالح الحسن وعبد الله بن عباس معاوية ، وترك عبد الله جيشه بلا أمير ، اجتمعت الشرطة

وأمرت قيس بن سعد على أنفسهم ، وتعاهدوا هو وهم على قتال معاوية حتى يشترط لشعبة على^١ ولمن كان اتبعه الأمان على أموالهم ودمائهم وما أصابوا في الفتنة . ولما انتهى معاوية من مصالحة الحسن وابن عباس خلص المكايدة قيس ، فأرسل إليه يقول في كلام له : على طاعة من تقاتل ، وقد بايعني الذي أعطيتك طاعتك ؟ فأبى قيس أن يابن ، حتى أرسل إليه معاوية بسجل^٢ قد ختم عليه في أسفله ، وقال له أن يكتب في السجل ما شاء فهو له ، وأراد حمرو بن العاص أن يفرى معاوية بأن يحارب قيساً ، ولكن معاوية ضنّ بدماء أهل الشام وقال إنه إن يقاتل قيساً حتى لا يجد من قتاله بداً . أما قيس فلم يشترط في السجل المضمون بتمتع معاوية إلا الأمان لشيعته على ما أصابوا من الدماء والأموال ، ولم يسأل معاوية في السجل مالا . فأعطاه معاوية ما سأل : ولم يرض قيس أن يجعل شخصه محلّ مساومة^(١) .

أما البكتائي فهو ينقل عن هوانة^(٢) غير ذلك (الطبري ج ٢ ص ٢ - ٤) ، فيقول : لم يكن قيس قائداً للجيش كله ، بل لائى عشر ألف رجل في المقدمة (وهم الشرطة) ، وبقيت له الإمرة عليهم إلى ما بعد مقتل على^٣ أيضاً . وخرج الحسن بنفسه في الجيش كله حتى نزل المدائن ، وبعث قيساً أمامه على مقدمته لكي يلاقى معاوية (في مسكن) ، وبينما الحسن في المعسكر بالمدائن إذ نادى مناد في المعسكر : ألا إن قيس ابن سعد قد قُتِلَ ، فانفروا ! فانفروا ! فنفروا الناس ونهبوا مراكب الحسن ، وخرج الحسن ناجياً بنفسه حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن . ومن هنالك بعث إلى معاوية يطلب الصلح ، رغم معارضة أخيه الحسين ، وحصل من معاوية على ما أراد : أن يأخذ ما في بيت مال الكوفة ، وكان خمسة آلاف ألف

(١) جئنا هنا بالكلام طبقاً للأصل العربي الذي اعتمد عليه المؤلف ، لأن المؤلف قد اقتضب اقتضاباً خلا ببيان المقصود على النحو الذي لا بد منه للقارئ العربي - المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١ - ٨ .

(٢) إن أول حكاية هوانة ساقط ، وتكملها رواية أخرى ، لكن يقال فيها إنها تنفق مع حكاية هوانة .

درهم ، والخراج الجارى من دار الجرد ، والوعدة من معاوية بالآل يُسْتَم على^١ ،
ومعاوية يسمع ذلك^(١) .

أما عند اليعقوبى (ج ٢ ص ٢٥٤ ف١ بعدها) فنجد الحكاية على نحو
آخر : وجه الحسن حبيد الله بن عباس فى النى عشر ألف رجل لقتال
معاوية ، وجعل قيساً مشيراً له ليعمل بأمره ورأيه . فعاول معاوية أن يُسْتَم
قيساً ، فلم يفلح ، ولكنه استطاع أن يضم إليه حبيد الله بأن أعطاه ألف
ألف درهم ، فصار إليه فى ثمانية آلاف رجل . وكان الحسن مع حملة
الجيش فى المدائن ، فأرسل معاوية إليه المغيرة بن شعبه ومفاوضين
آخرين ، فلما خرج هؤلاء من عند الحسن أذاعوا فى المعسكر أنه قد أجاب
إلى الصلح . فعند ذلك ولب الجند بالحسن وانهبوا مضاربه وما فيها ، فركب
الحسن فرساً ومضى إلى قلعة ساباط ، ولكن الجراح بن سنان (وفى رواية :
ابن قبيصة) كان قد كمن له ، فجرحه بمحلول فى فخذه وروى لحيته ، فحُصِّل
إلى المدائن وقد نزف نزفاً شديداً واشتدت به العلة ، وفى أثناء ذلك تفرق
عنه أصحابه ، واستولى معاوية على العراق ، فلم يبق أمام الحسن أخيراً إلا
أن يتنازل عن الخلافة . والدينورى (ص ٢٣٠ ف١ بعدها) يحكى مثل ذلك ،
وإن كانت روايته تختلف عن رواية اليعقوبى بعض الاختلاف ، فهو يقول إن
العين وبيعة الكوفة خلصوا الحسن فى ساباط من أيدي مضر الكوفة .

على أن هاتى اليعقوبى متفقان فى الرواية بالإجمال ، وهما يخالقان الزهرى ،
وحكاية الزهرى للحوادث ليست واضحة تماماً ، وهى تختلف عن رواية غيره
الاختلافات لايسهل تفسيرها ، فهو أحياناً يفصل بين طعن الحسن ، من حيث
زمانه ومكانه ، وبين نهب سرادقه ، وهو أحياناً أخرى يربط بين الحادثتين ،

(١) عند الطبرى فى بعض المواضع شواهد الحكايتين ، فى ج ١ ص ٨ وما بعدها
وج ٧ ص ١٥ ، نجد أن الأربين ألف رجل ليست هى الفرطة ، بل الجيش كله ، وحبس
رواية للزهرى كان لقيس ولابن عباس إمرة الجيش كله .

فأما بعض الاختلافات الأخرى فيمكن تفسيرها بأنها مفترضة : فنحن نجد أن اليعقوبى والدينورى أيضاً حريصان على تبرئة الحسن وإلقاء التبعة على أهل الكوفة (الدينورى ص ٢٤٢ س ١٤) . أما عند الزهرى فيظهر الحسن في ضوء غير جميل ، فأما الخلاف الأكبر الذى يتجلى فيه الغرض فهو المتعلق بمسلك عبد الله ابن عباس جد الأسرة العباسية : ولا غرو أنه فى عهد الخلافة العباسية كان يقول : الحق من هذا القديس يعرض نفسه للأذى ، وعلى الأقل كان لا بد إما لإظهار الدور الذى لعبه فى صورة أحسن مما كان ، أو السكوت عن هذا الدور جملة (١) .

ويؤخذ من رواية الزهرى ، وهو رواية من أقدم الرواة ، توفى قبل العصر

(١) يحكى سيف (Skizzen, 6, 146) أن عبد الله بن عباس منذ كان فى المدينة ، كان موضع ثقة على وكان دائماً يحضه النصيح ، ولكن حلياً لم يكن دائماً يستمع لنصيحته ؛ ثم حين والياً على البصرة . وفى أيام ولايته استنفر الناس وبعث منهم جيشاً لمعونة على (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٦ و ٣٣٧٠) . ويحكى أبو مخنف أن ابن عباس قاتل قتالا شديداً يوم صفين ، وكان على ميمنة جيش العراق (الطبرى ج ١ ص ٣٢٨٥ - ٣٢٨٦ ، ٣٢٨٩) . وكان على يريد أن يلتذ به حكماً فى دومة الجندل (الطبرى ج ١ ص ٣٣٣٣) ، ولكن حلياً ، رغم أنه لم يستطع ذلك ، بعثه إلى الدومة ؛ وكان يكاتبه (الطبرى ج ١ ص ٣٣٥٤) هو ، متجاهلاً أبا موسى . ولكن أبا معمر (الطبرى ج ٢ ص ٣٢٧٣ س ١٦) واليعقوبى (ج ١ ص ٢٥٤ س ٣) يقولان إنه فى سنة ٣٦ هـ (وأيضاً فى سنة ٣٥ هـ) كان أياً على الحج ؛ وعلى هذا فلا يمكن أن يكون قد اشترك فى موقعة صفين على الإطلاق . وذلك لا تعجب المدافى هذه الرواية ، فيقول (الطبرى ج ١ ص ٣٤٤٨) ، متابعاً لأبي معمر ، إن عبد الله بن عباس لم يشهد الموضع فى عمل سبق قتل على . وفى سنة ٣٨ هـ خرج عبد الله من البصرة إلى على بالكوفة ، لكن يعزى بنفسه صديقه الحبيب فى خسارته بفيلد مصر ، ولم يرجع إلى البصرة إلا عندما انتفض الأمر فى الولايات الفارسية ، ووجه عبد الله زياد بن أبيه إلى فارس ، وهذا ما يقوله المدافى (الطبرى ج ١ ص ٣٤١٤ ، ٣٤٢٠ ، ٣٤٤٣ ، ٣٤٤٩) . ويحكى أبو مخنف غير ذلك (الطبرى ج ١ ص ٣٤١٣ ، ٣٤٤٧) ، فيقول إن عبد الله بن عباس عزى حلياً بكتاب يث به إليه من البصرة ، وإن الذى وجه زياداً إلى فارس هو على نفسه ، لا ابن عباس . ثم ظهر ابن عباس مرة أخرى ، لما أراد معاوية لإكراه كبار الأشراف فى المدينة على مبايعة ابنه يزيد . فيحكى المدافى (الطبرى ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٧٦) أن خمسة نفر امتنعوا من البيعة ، وبذلك كفرهم عبد الله بن عباس ، ولكن معارضة ابن عباس هذه اللطيفان ، على ما فهمنا من بطولة ، لم تأت له بأية نتيجة ، ولا بد أنه قد أوجبه كثيراً أن معاوية ويزيد تجاهله تماماً ، وكذلك يتجاهله أيضاً فى هذه المسألة معظم الرواة .

العباسي ، أن عبد الله بن عباس عرف ما أراده الحسن من مصالحة معاوية ، فسبقه وأخذ الأمان من معاوية واشترط لنفسه على ما أصاب من أموال . ثم بعث إليه معاوية خيلاً عظيمة ، فخرج إليهم ليلاً حتى لحق بهم ونزل معسكر أهل الشام ، وترك الجيش الذي كان عليه بلا أمير . وحوالة يسكت في هذه النقطة . أما اليعقوبي فهو يذكر بدلاً من عبد الله المشهور أخاه الأصغر عبيد الله بن عباس .

وقد عرف المدائني اختلاف الرواة حول ما إذا كان عبد الله أو عبيد الله هو الذي انتقل إلى جانب معاوية أيام الحسن (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٦ ، وقارن ص ٣٤٥٣)^(١) ، فليس الأمر إذن مجرد خلافات في الاسم بين المخطوطات ، مرجعها إلى الناسخ^(٢) . والمدائني يقرر أن الذي انتقل هو عبيد الله ، ويتابعه في ذلك عمر بن شبة (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٣ والصفحات التالية) والبلاذري (DMZ, 1884, 392a) . ولكن عبيد الله كان والياً على اليمن من قبل علي ، لما قاد بُسر بن أبي أرطاة بجيش معاوية إلى هناك ، ووقع ولدان صغيران له في يد بُسر ، فذهبهما ، وأصبحت أمهما بالحنون لذلك ، ويقول الواقدي إن هذه الحملة وقعت عام ٤٢ هـ . ومعنى هذا أن عبيد الله كان ما يزال في اليمن في ذلك الحين معادياً لمعاوية ، فلا يمكن أن يكون قد انتقل إلى جانبه قبل ذلك بعام أو عامين : ومهمة يكن من شيء فإنه لا يمكن أن يكون الواقدي قد عرف شيئاً على الإطلاق . عن هذا الانتقال : أما حوالة فيقول إن هذه الحملة وقعت في النصف الثاني من عام ٤٠ هـ : فلا يمكن أن يصدق أحد أن عبيد الله يتعجل إلى همدان الحدة في مصالحة قاتلي ولديه : على أن من الممكن معرفة الباحث الذي من أجله وُضع

(١) هذا ما يراه دي غوي - راجع : DMZ, 1884, 393 ، وهو على هذا الفرض يريد أن يقرأ عبيد الله بدلاً من عبد الله في كتاب الطبري ج ٢ ص ٢ من ٧ و ١٢ ، قارن .
(٢) [المؤلف هنا في هذه النصوص حول من شهد الصلح بين الحسن ومعاوية - المترجم] .

اسم حبيد الله بدلاً من اسم حيد الله معرفة أسهل بكثير من العكس ؛ فلم يكن يصح أن يظل " لاحقاً يجد العباسيين الذين عاش المدائني في أيامهم ، وكاذ موالياً لهم ، ذلك العار ، وهو أن يكون أول من يصالح الأمويين الفجرة ؛ أما أخوه حبيد الله فلم يكن هناك بأس من التخلي عن الدفاع عنه .

على أن ذكر حبيد الله على أخيه حيد الله لا يمكن أن ياقى من حيد الله الوزر لبقاء تاماً ؛ فالأموال التي يقول الزهري إنه أصابها وإن معاوية أعطها له كانت أموالاً من بيت مال البصرة ، وكذلك الخمسة آلاف التي أعطيت للحسن كانت هي ما في بيت مال الكوفة ؛ ويؤيد هذا ما يقول أبو حبيدة (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٣ - ٣٤٥٦) ، وهو يتفق مع الزهري على أن حيد الله بعد مقتل علي " خرج من البصرة وشخص إلى الحسن ، وأنه عند ذلك حمل معه مالا " ، وهو يستعمل الأمر على كل حال بأن يقول : إنها كانت أرزاقاً قد اجتمعت له وأنه حمل معه مقدار ما اجتمع له . ومعنى هذا أنه لم يأخذ أكثر مما قد استحقه رزقاً له (١) ؛ ولكن مما يستلفت النظر أن المدائني وعمر بن شبة والبلاذري أيضاً لا ينكرون أن حيد الله خرج بيت مال البصرة ، غير أنهم يزعمون أنه فعل ذلك في عهد علي " ، بعد موقعة النهروان بقليل (DMZ, 1884, 302) وأن ذلك لا علاقة له بانتقاله إلى بجانب معاوية (٢) ؛ وعلى هذا تكون هناك خيانة مزدوجة : فابن العباس المتشابهان كثيراً في الاسم قد تركا منصبهما ، أحدهما بعد الآخر مباشرة على نحو مخفي ، وأثريا في هذه المناسبة بأخذ مبالغ كبيرة من المال ، ولكن

(١) [في رواية لابن شبة (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٣ - ٣٤٥٤) أن أبا الأسود الدؤلي شكاً لعل " أكل حيد الله بن عباس ما تحت يده من أموال بغير علم علي ، فكتب علي لابن عباس في الأمر ، وانتهت المكاتبة بأن كتب ابن عباس لعل أن يبعث من يحب والياً بدلاً منه وأنه ظاعن من منصبه - المترجم] .

(٢) لم يكونوا يعتبرون إنفاذ بيت المال شراً كبيراً ، لأن العادة جرت بذلك (الطبري ج ٢ ص ٧٥٢ و ٨٧٢) . أما مصالحة معاوية فشيء لا يفتخر .

الأرجح أن ذلك لم يحدث إلا مرة واحدة . وإذن فالزهري على حق في أن المقصود هو عبد الله ، الذي كان موضع ثقة الحسن وثقة علي من قبل ، لا عبيد الله ، وأن عبد الله قد باع نفسه لمعاوية قبل أن فعل الحسن . بل نحن نجد في رواية المدائني أن عبد الله كان مع علي في سنة ٣٩ هـ . ولكن لا نلبث أن نجد ، بعد الصلح ، في مجلس معاوية (الطبري ج ٢ ص ١١) ودانت الجاهة الإسلامية كلها لمعاوية في النصف الأول من سنة ٤١ هـ ، في صيف ٦٦١ م (١) ، ولكن الروايات مضطربة في تحديد تاريخ ذلك . فأما إلياس النصيبى (Elias Nisibenus) فيقول إن الحسن تنازل عن الخلافة لمعاوية يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول سنة ٤١ هـ ، أى الاثنين ٢٦ يولييه سنة ٦٦١ م . أما الواقدي فيقول (الطبري ج ٢ ص ٩) إن معاوية دخل الكوفة في غرة ربيع الآخر سنة ٤١ هـ (أغسطس سنة ٦٦١ م) . وفي رواية لا يذكّر صاحبها (الطبري ج ٢ ص ٨) أن الصلح بين الحسن ومعاوية تمّ في شهر ربيع الآخر ، وأن معاوية دخل الكوفة في غرة جمادى الأولى . أما المدائني فيقول إن معاوية دخل الكوفة لخمس بقين من ربيع الأول أو لخمس بقين من جمادى الأولى سنة ٤١ هـ (الطبري ج ٢ ص ٧) . لكنه على كل حال كان في الكوفة في شهر رجب ، لأنه حينئذٍ هناك كان يسر بن أبي أرطاة في البصرة ، وذهب يسر إلى البصرة في رجب وبقي بها ستة أشهر (الطبري ج ٢ ص ١٢) . على أن معاوية ولّى المغيرة بن شعبه على الكوفة في جمادى الأولى سنة ٤١ هـ (الطبري ج ٢ ص ١١١ و ١١٤) .

(١) ولا يخالف ذلك إلا اليعقوبى ، ج ٢ ص ٢٥٦ .

الفصل الثالث

السفنيان والحرب الأهلية الثانية

قام معاوية بن أبي سفيان طول مدة حكمه بمحاربة الروم في البر والبحر في همة ومن غير انقطاع ، مما لا يجده عند من جاء بعده ، وقد طرق أبواب هاصمة أهدافه ذاتها مرتين^(١) . أما مهمة توطيد سلطانه في العراق بعد إخضاعها فقد تركها لولائه في الكوفة والبصرة . والروايات التي وصلت إلينا توجه اهتمامها إلى هؤلاء الولاة دون غيرهم ، وهي تقص علينا من أخبار المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه أكثر مما تقص من أخبار معاوية نفسه ، كما أنها أيضاً تجعل عبد الملك ، وهو من هذا الوجه شبيه بمعاوية ، متوارياً وراء الحجاج . وكان هؤلاء الولاة الثلاثة المشهورون ثقيفيين كلهم ، فكانوا من الطائف ، تلك المدينة المرتفعة بالحميلة الموقع ، على مقربة من مكة . وقد ارتفع شأن الطائف ، كما ارتفع شأن مكة والمدينة ، بفضل الإسلام ، وانخلت الطائف ، من حيث هي مدينة ، موقفاً ممتازاً فوق عصبية القبائل ، كما تجلّى ذلك أيام الردة في سنة ١١ هـ ، وقد انضم الثقيفيون من أول الأمر ، خلافاً للأنصار ، انضماماً نهائياً إلى قريش صاحبة السيادة ، وخصوصاً إلى الأمويين ، وكان هؤلاء صلات وثيقة بالطائف ، وكانوا فيها أصحاب ثراء . وكان الثقيفيون مشهورين بالدهاء والفتنة^(٢) ، وقد أقاموا الدليل على أنهم

(١) قارن في ذلك مجلة Göttinger Nachrichten ١٩٠١ ص ٤١٤ وما يليها ، حيث جمعت أخبار حلات الأمويين ضد الروم .

(٢) لما حاصر النبي عليه السلام مدينة الطائف سنة ٨ هـ انضم إلى جهته عيينة الغزاري لا لكي يقاتل ثقيفاً ، ولكنه كان يأمل أن يتم للنبي عليه السلام فتح الطائف ، فيصيب هو جارية بتبطنها ، لعلها أن تلد له رجلاً ، لأن ثقيفاً كما يقول « قوم مناكير » ، يعني أنهم دهاة غفلتون ، أما عيينة نفسه فلم يرث دهاء ولا يستطيع أن يورثه [لم يذكر المؤلف المصدر الذي

كذلك ؛ وقد ظهر منهم في عصر الأمويين عدد كبير من ذوى المواهب .
فكان منهم المختار الثقفى ومحمد بن القاسم ، في كثيرين غيرهم من الرجال
المبرزين :

وكان وراء المغيرة بن شعبه لما ولاه معاوية الكوفة عام ٤١ هـ (الطبرى
ج ٢ ص ١١ وما يليها وص ١١١ و ١١٤) حياة " مملوءة " بالأحداث ،
والروايات تعطينا صورة حية لهذا الرجل المُتَمَسِّك القليل المبالاة بالمبادئ ،
كان المغيرة طويل القامة جسيما ، وكان قد فقد في الحرب إحدى عينيه
وإحدى ذراعيه ، وكان ضخيم الهامة ، أقلص الشفتين ، أصهب الشعر -
وكان في أواخر أيامه يصيغ شعره بالسواد - وكان شعره أربع صفائر
مُتَدَلِّاة (١) . وقد فر المغيرة إلى المدينة قبل سنة ٨ هـ ، وهو ما يزال قتي ،
وكان ذلك على أثر غدر دؤبى برفقاء له ، قتلهم وهم نيام . وكان الإسلام
يقبل من مثل هذا المجرم أن يبدأ حياة جديدة ، وكان يغفر له ماضيه ،
ولكن المغيرة ، وإن كان قد صار بحكم الظروف إنساناً جديداً ، فإنه
بقى على ما كان له من الصفات القديمة النافعة : وقد تقرب إلى النبي عليه
السلام ، وكان النبي يمكن أن ينتفع به ، فكلفه في سنة ٩ هـ بهدم صنم
لللات في مدينة الطائف ، فلما قام بذلك احتاز مال اللات وحليتها من
الذهب والجوزع ، وكان جيد المعرفة بالمكان لأنه كان من الأسرة التي
كانت لها سدة ذلك الصنم : ولما دُفِن النبي عليه السلام طرح المغيرة
شعثه في القبر قبل أن يمال فيه التراب ؛ فكان بعد ذلك يزعم ، على
الأقل ، أنه كان آخر من لمس الدفين الطاهر عليه السلام ، لكي يبقى
على ذلك ما سيزعمه من حقوق : وقد أثبت « وصوليته » وطموحه الجبرى
فيما بعد أيضاً ، فحاول أن يوهم الناس أنه من سادة الأرسقراطية الإسلامية ،
- اعتمد عليه في هذه الحكاية ، وقد وجدناه في سيرة ابن هشام ص ٨٧٤ من الطبعة
الأوروية - المترجم] .

(١) إن أول الحكاية هذه في كتاب الأغاني غير موجود في طبعة بولاى ، لكنها
موجودة في مخطوط بمدينة ميونيخ ، وقد نشرته عن هذا المخطوط في مجلة DMZ ، عام ١٨٩٦ م .

فكان يحضر الأمور الكبيرة وأمور الدولة مثل جماعة الشورى التي حينها عمر ،
ومثل محكمة المحكمين في دومة الجندل ، من غير أن يدعى لذلك ؛ فإذا
منع من حضور الأمر مرة جاء دون حرج في المرة التالية . وكان ، بمقدار
ما كان عايه من جراءة وورع ، يدعى أنه يستطيع أن يتكلم عن الإسلام
مع الفرس المسلمين أحسن من غيره ، وكان يختار لكي يبعث رسولا
ومفاوضاً ، وكانت معرفته بلسان الفرس تهيئته لذلك (الطبرى ج ١ ص
٢٥٦٠) . أما المنصب الذي كان يطمح إليه فقد وصل إليه في البصرة أولاً ،
وذلك أنه ذهب مع هُتَيْبَةَ بن غزوان ، أول والٍ عليها - وكانت امرأة
هُتَيْبَةَ من الطائف . فلما مات هُتَيْبَةَ خلفه المغيرة على البصرة ، ويقال إنه
نظم الديوان في البصرة ، فكان بذلك أسبق من غيره . ويحكى أنه هزم
فيلكان إسكوباد (١) ، وأنه فتح ميسان ، بل الأهواز أيضاً . ولكن أسقطه
حبسه الشديد للنساء ، فعزل سنة ١٧ هـ ، بسبب جريمة زنا غزوية ، وإن كان
التحقيق في إثبات الجريمة عليه ، رغم أن ذلك كان تحت إشراف عمر بما هو
معروف عنه من شدة ، قد انتهى كما تنتهى المهزلة (٢) . لكن الدور الذي قد قُدِّرَ
للمغيرة أن يلعبه لم ينته بسبب ذلك ، فشهد موقعة نهاوند وبرز في القتال فيها ،
وبعدها بقليل ، في سنة ٢١ هـ ، جاء إلى الكوفة خلفاً لعمَّار بن ياسر . وفي أيام
ولايته تمت الفتوحات في بلاد ميديا (الجل) وأذربيجان على يد أهل الكوفة ،
وكان أبو لؤلؤة غلاماً للمغيرة ، بعث به إلى المدينة ، فأذن له أن يعمل صانعاً
هناك ليؤدي للمغيرة ما عليه من خراج . وأبو لؤلؤة هذا هو الذي قتل عمر بن

(١) يرى ماركشارت أن هذا هو النطاق الصحيح لكلمة إيركوباد أو إيركوباد ،
انظر : Marquart, Eranschahr ، ص ٤١ [في الطبرى ج ١ ص ٢٣٨٦ إيرقياد ،
إيرقياد - المترجم] .
(٢) الحقيقة أنه لم تتوفر الشهادة الشرعية التي بدونها لا يمكن إقامة الحد . ويحده
القارئ ذلك عند صاحب الأغاني ، ج ١٤ ص ١٤٥ - ١٤٧ ، والطبرى ج ١ ص ٢٥٢٩ -
٢٥٣٣ - المترجم] .

الخطاب . أما في عهد عثمان فقد اندحر المغيرة إلى المحل الثاني ، وهو لم يكن من الأمويين الذين كانت تستند إليهم جمع المناصب ، ولا من خاصة الرسول الذين كانوا يعارضون الأمويين . ولم يشترك المغيرة في الثورة على عثمان ، لكن شأنه ارتفع من جده بسبب تلك الثورة . ويروى أنه أشار على عليّ بأن يولى معاوية على الشام ويأمره بأن يأخذ البيعة له ، فلما لم يستمع عليّ لمشورته انصرف عنه وتوجه إلى معاوية . وقد افتعل كتاباً على لسان معاوية لكي يقيم الحج للناس في سنة ٤٠ هـ . وعرف معاوية كيف يقدر مثل هذا الشريك ، فلم يلبث ، بعد فتح العراق ، أن أحاد إليه منصبه القديم في ولاية الكوفة .

وصل المغيرة ، وهو كبير السن ، وبعد ماض فيه بعض التقلبات ، إلى المستقر الذي أراد أن يبقى فيه . وفي أيام ولايته حرص على ألا يصطدم بمن فوقه ولا بمن تحته ، فكان موقفه إزاء معاوية وإزاء صراع الأحزاب في الكوفة موقفاً خالياً من الحماسة على أحد سواء ، بل هو لم يكن يخفى ذلك (الطبري ج ٢ ص ٣٨) ، وهكذا يصفه أبو مخنف على الأقل في حكاياته عن المستورد بن علفة التيمي الخارجي وحجر بن عدي ، ولا شك أن أبا مخنف يحقّق (١) . وكان كلُّ همّ المغيرة في سياسته أن يحافظ على منصبه ، وقد أفلح في ذلك أيضاً . فاستطاع أن يتفادى ما همّ به معاوية أحياناً من عزله (الطبري ج ٢ ص ٧١ فما بعدها و ص ١٧٣ فما بعدها) و ص ٢٠٨ فما بعدها (٢) . وقد قضى بسهولة على الخوارج الذين ثاروا تحت

(١) انظر ما ذكرته عن الخوارج في Abhandl. der Göttinger Societät 1901, V, 9

ص ١٩ والصفحات التالية ، وعن الشيعة ص ٥٦ فما بعدها من نفس المصدر .

(٢) [غشى المغيرة مرة أن يعزله معاوية ، فذهب إلى معاوية يسأله أن يعزله ويقطع له منازل في قرقيسيا بين ظهري قيس . فارتاب معاوية بالمغيرة وخاف بائقة منه وقال له : لترجعن إلى عمك . فأجح المغيرة ، فإزداد معاوية اتهاماً له وردّه إلى عمله . ويحكى أنه لما خاف العزل دخل على يزيد وعرض له بالخلافة ، فأدى ذلك يزيد إلى أبيه ، وعند ذلك ردّ معاوية المغيرة إلى الكوفة وأمره أن يعمل في البيعة ليزيد - المترجم] .

رئاسة المستورد (١) ، لأن أهل الكوفة أنفسهم بادروا إلى أن كَفَّوْهُ إياهم ، ولكن الخوارج كان لهم شأن أكبر من ذلك ، وكانت الغالبية الكبرى من أهل الكوفة تميل إلى علي ، لأنه المحارب الأول لاستقلال العراق السيامي ، وكان أهل الكوفة ، من هذا الوجه شيعي النزعة ، وهم أيضاً لم يخفوا ذلك ، وتجرأ البعض منهم على إظهار الكلام في فضل علي علانية في المسجد ، مما لا يحتمله معاوية . ولكن المغيرة لم يشتد في منعهم من ذلك : وهو بدلا من أن ينهض للقضاء على بدايات الفتنة كان يرى ظهور نتائجها السيئة بشئ من الرضا ، لأنه كان على يقين أنه لن يشهد لها حياً ، وقد أراد العافية لنفسه ، وآثر أن يلقى العباء الكريه ، الذي كان منصبه يوجب عليه أن يحمله ، على كاهل من يخلفه (٢) . وكان أهل الكوفة راضين عن ذلك كل الرضا بطبيعة الحال ، وقالوا فيما بعد ، إنهم ما وليهم وآل بعده مثله . (الطبري ج ٢ ص ١١٢) . وكان دائم الكذب ، وظل متمتعاً بما ينبغي حتى نهاية أمره : أما عن تاريخ وفاته فالروايات مضطربة بين سنة ٤٩ إلى سنة ٥١ هـ (قارن الطبري ج ٢ ص ٧٦ - ٨٧ و ١١٤ ، والأغاني ج ١٤ ص ١٤٨) .

على أنه بعد أن كانت العراق قد خضعت لمعاوية ثار في البصرة حمران ابن أبان ، فغلب عليها : فوجه معاوية إلى هناك قائده بُشَيْرَ بن أبي أرطاة ، فبعده أن أحاد المدوء إلى نصابه قفل بجيشه راجعاً (٣) . ويقول الواقدي (الطبري ج ٢ :

(١) [لم يذكر المؤلف مرجعاً هنا ، والأغلب أنه يقصد ما جاء في الطبري ج ٢ ص ٢٨ : فابعدهما و ص ٤٠ فابعدهما المترجم] .
 (٢) وهو يشترك في هذه الروح مع ولادة آخرين في ذلك العصر : ابن هاشم (الطبري ج ٢ ص ٦٧) والوليد بن عتبة (ج ٢ ص ٢١٩) والتميم بن بشير (ج ٢ ص ٢٣٩) وبه (ج ٢ ص ٤٥٩ و ٤٦٥ فابعدهما) .
 (٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١١ فابعدهما - المترجم] .

ص ٢٢) أنه عند ذلك قام بحملته في الحجاز واليمن . وكان أول وال حقيق حينه معاوية على البصرة (آخر سنة ٤١ هـ :) هو عبد الله بن عامر الأموي ، الذي كان قد تولى البصرة من قبل في عهد عثمان بن عفان كثيرة . وكان السلطان في البصرة في يد القبائل ، لا في يد الحكومة . ولما كانوا دائماً منقسمين ولا يخطر ببالهم أن يغفر بعضهم لبعض شيئاً ، فإن الإنسان يستطيع أن يتصور ما يكون لذلك من نتائج . وكان ما أصاب الأمن العام في الكوفة ، في ظل الصراع السياسي - الديني بين الأحزاب ، قليلاً . أما البصرة فقد غلب عليها سفهاؤها حتى أكلوها ، وضعف سلطان الدولة فيها ، فكان السلب والقتل في الشوارع والأسواق فاشين في النهار المبصر . وكان هذا هو الميراث الذي خلفه عبد الله بن عباس . ولكن ابن عامر كان رجلاً ليناً كريماً لا يأخذ على أيدي السفهاء ، وقد رأى كما رأى المغيرة في كبره من قبل ، ألا يصح بما كان يؤثره لنفسه من العاقبة في سبيل تأييد سلطان الدولة . وكان لا يقطع يد لص ، فلما قيل له في ذلك قال : « أنا أتألف الناس ، فكيف أنظر إلى رجل قطع أباه أو أخاه ؟ » . وقد ضجر معاوية من ذلك آخر الأمر ، فكتب إليه يستزيه في سنة ٤٤ هـ ، فقدم على معاوية . فلما انتهت الزيارة ، سأله معاوية أشياء ، وسأل هو معاوية أشياء ، فكان مما سأله معاوية إياه أن يعتزل منصبه ، وكان مما سأل هو معاوية ألا يحاسبه على ما أصاب من أموال ، وأن يزوجه ابنته هنداً ، فزوجه معاوية إياها . وهكذا صار ابن عامر حراً وصهرًا لمعاوية (١) . وكان الذي خلف ابن عامر الحارث بن عبد الله الأزدي ، لكنه لم يكن يُقصد منه سوى أن يكون كالفارس المحتل ، لأن معاوية كان يريد أن يُعَيِّن زياداً . فلم يبق الحارث في الولاية إلا أربعة أشهر ، وهذا هو ما يرويه المدائني (الطبري ج ٢ ص ١١ فما بعدها و ١٥ و ٦٧ و ٦٩ فما بعدها) .

(١) كان ابن عامر والد زوجة يزيد بن معاوية .

ومعظم الروايات المتعلقة بزياد ، عند الطبري ، ترجع إلى المدائني أيضاً ، وكان زياد ، شأنه شأن المغيرة بن شعبه ، الذي كان يظله بحمايته ، من أهل ثقيف الذين لم يلبثوا أن انتقلوا إلى البصرة ، لما أسست . وكان زياد على التدقيق من أسرة أبي بكرة التي كانت في البصرة ذات نباهة وكانت تملك أرضاً كثيرة (الطبري ج ٢ ص ١٢)^(١) . ولم يكن زياد من أصل كريم ، وكان يسمى باسم أمه تميمية ، لأن أباه كان مجهولاً . لكن الإسلام فتح له أيضاً طريق الحياة ، فكان ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، يتولى الكتابة عند بعض النخلاء وقسمته ، أو يتولى قسمته في جيش البصرة ، لأنه كان يقرأ ويكتب ، ولا بد للحساب من معرفة القراءة . ويروى أن الخليفة عمر فطن منذ ذلك الحين إلى ما كان لزياد من مواهب فائقة ، وفي أيام علي كان زياد شخصية بارزة في البصرة ، وقد استخلفه عبد الله بن عباس عليها ، لما خرج إلى علي بالكوفة ، فأحمد زياد الثورة التي قامت بها تميم بإيعاز من معاوية . وقد ساعد الأزدي زياداً في ذلك ، وظل هو ذاكرهم بدهم حسده وإجارتهم له (الطبري ج ٢ ص ٨٠) . وبعد ذلك بعثه علي إلى فارس لكي يُلزم هذه الولاية ، بعد أن تمردت عايبه ، حدود الطاعة والنظام ، فقام بما كُلف به ، متبعاً سياسة المداراة واللين حيناً والدهاء . وضرب أعدائه بعضهم ببعض حيناً آخر ، حتى صفت له فارس من خير جرب . وكان ذلك موضع إعجاب ، حتى قال أهل فارس ، ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتي^(٢) . وبعد موت علي تمحصن زياد في قلعة قريبة من مدينة اصطخر ، وحض "كل" رجاله على أن يثبتوا أطول ما يمكن في المقاومة

(١) قارن فيما يتعلق بصفات هذه الأسرة المباركة للشائنة التي يذكر الطبري (ج ٢ ص ٨٠٦) أنها قيلت لعبيد الله بن أبي بكرة وهي : « إنما أنت ابن كلبة تعاورها الكلاب ، فجات بأحر وأسود وأصفر ، من كل كلب بما يشبه » - قارن أيضاً ابن هشام ص ٨٧٤ ص ١٧ .
(٢) [الطبري ج ١ ص ٣٤١٤ - ٣٤١٨ و ٨٤٤٩ - ٣٤٥٠ - المترجم] .

لمعاوية : وأراد بُسرُ بن أبي أرطاة ، وكان معاوية قد وجهه إلى البصرة بعد مصالحة الحسن ، أن يُكثِرَه زياداً على الشخصوس لمعاوية ، فحبس أولاده الثلاثة — وكان زياد قد خلفهم في البصرة — وهدّده بقتلهم ، فلم يستجب إليه : فجاء أبو بكره إلى بُسر ، وكان يسرق قد أخذ أبناءه أيضاً ، فاعترض على هذا الظلم للأبرياء وعلى مخالفة الأمان الذي أعطاه معاوية في صلحه مع الحسن لشبهة على ، وسأل بُسرَ أن يُوجِّله سبعة أيام ، حتى يذهب إلى معاوية ، فركب أبو بكره إلى معاوية ، وكان بالكوفة ، فذهب وغاد في سبعة أيام ، وقتل تحته دابتين . وفي اليوم السابع أخرج بُسرُ بني زياد ليقتلهم عند غروب الشمس ، واجتمع الناس لذلك ، وأعينهم طامحة ، ينتظرون أبا بكره ، إذ بدا أبو بكره على راحته المكندودة ، وهو يُلبس بثوبه : وكبر ، وكبر الناس ، وأقبل يسعى على رجله حتى أدرك بُسرَ قبل أن يقتل الأولاد الأبرياء ، ودفع إليه كتاب معاوية الذي يأمره فيه بالكف عنهم ومخيلة سيئهم : وهكذا نجوا أبناء زياد في آخر لحظة بفضل أبي بكره (١) : وكلّف معاوية المغيرة بالبحث عن أموال لزياد كانت مودعة عند رجل من البصرة وأمره بتعذيبه ، فعليه تعذيباً صورياً حتى يبلغ معاوية خبر التعذيب ، ثم كتب إلى معاوية أنه لم يُصِبْ عند الرجل شيئاً بل له أن يأخذه — وذلك أن الثقي لا يبرزاً ثقيلاً مثله ، على أن للمغيرة تلتطف لزياد حتى أقنعه بأن يشخص إلى معاوية ويوصل حبله بحبله ويصالحه ، ووقع ذلك سنة ٤٢ هـ . وقد أغضى معاوية عما لحق إليه زياد من حيلة لاحتجاج ما كان قد صالح معاوية على حمله إليه مما كان في بيت مال فارس ، وإن كان معاوية قد استشف الحيلة ، وكان الأمر

(١) هذه القصة أسطورة بلا شك . ولكن لا يصح البحث عن وجه صحيح لها على النحو الذي يذهب إليه أ . مولر (Islam 1. 337) من أن أبناء زياد كانوا في البصرة . قد أسدثوا ثورة وأسروا فيها ، ذلك لأنهم كانوا أصغر سناً من أن يقوموا بذلك . [ويجد القارئ موقف زياد إزاء التهديد وما قاله عن معاوية وما قاله لبسر ، وما كان بينه وبين معاوية حتى تم بينهما الصلح : عند الطبري ج ٢ ص ١٠١ - ١٥٠ ، ٢٢٠ - ٢٧٠ ... المترجم] .

في الواقع أمر صفيقة بين أخوين حرف كل منهما لصاحبه قدرةً فيما بعد ، ولم تكن الفائدة التي عادت على كل منهما من ذلك بالفائدة القليلة ،

وكانت آخر خطوة خطاها معاوية هي أن ألحق زياد بن سمينة بأبيه أبي سفيان ، وذلك ليربطه بنفسه وبأسرته ربطاً تاماً ، وكان ذلك فضيحة كبرى لا يذكرها الطبري ولا يؤرخها ، بل يتكلم عنها كشئ وقع فحسب (الطبري ج ٢ ص ٦٩ فما بعدها ، قارن أيضاً ج ٣ ص ٤٧٧ فما بعدها) . أما بقية الأمويين ويزيد بن معاوية نفسه فلم يرضوا عن ذلك وظلوا فترة طويلة متباعدين عن هذا الابن غير الشرعي لأبي سفيان الذي يجوز أنه لم يكن له ابناً ، لا شرعياً ولا غير شرعي ، على الإطلاق ، والأبيات المشهورة التي كثيراً ما تذكر استهزاءً ببنته ليست لابن مفسرغ المغني المتجول الذي قد قال هو أيضاً مثل هذه الأبيات ، بل هي لعبد الرحمن ابن الحكم ، أنشئ مروان بن الحكم الذي صار خليفة فيما بعد (الطبري ج ٢ ص ١٩٤) . وكان لما صالح زياد معاوية سأل معاوية أن يأذن له في نزول الكوفة ، فأذن له ، فشنّ زياد إلى الكوفة ، وكان عليها المغيرة ابن شعبه ، فكان لزياد كالأب الكريم ، وكان يكرم زياداً ويعظمه ، وكان زياد يتردد على المغيرة في بيته ويتودد إلى زوجته الشابة (١) . ثم دعى معاوية زياداً إلى الشام ، وألحقه بأبيه أبي سفيان ، فلما رجع زياد إلى الكوفة ، داخل المغيرة الخوف من أنه بعد أن ربى زياداً سيحل هذا محله في الولاية . ولكن سرعان ما ورد من دمشق كتاب بولاية زياد على البصرة وعلى الولايات التابعة لها في المشرق : وهي خراسان وسجستان والهند والبحرين وعمان : وقدم زياد البصرة في آخر ربيع الثاني أو أول جمادى الأولى من سنة ٤٥ هـ ، والنسق في البصرة ظاهرٌ فاش ، فأعلن عن سياسته في خطبة مشهورة ألقاها من على المنبر ، ولم

(١) [لا يؤخذ هذا مما يقوله الطبري ج ٢ ص ٢٧ . راجع ما يلى ص ١٢١ حيث جئنا بكلام الطبري في هذه المناسبة نفعها - المترجم] .

يبدأها بالحمد والتسليم ، بل تكلم فيها أراد أن يتكلم فيه مباشرة ، ولذلك
سميت خطبته « البتراء » ، وقد قال فيها (١) : « أما بعد فإن الجهالة الجاهلة
والضلالة العمياء والغنى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل
عليه حلماءكم ، من الأمور العظام ، ينشبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها
الكبير ، كأن لم تسمعوا بأى الله . . . ولا تذكر أنكم أحدثتم فى الإسلام
الحدث الذى لم تسبقوا إليه ، من ترككم هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة
المسلوبة فى النهار المبصر . . . قريتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتلدون بغير
العذر ، وتغضضون على المختلس ، كل امرئ منكم يدب عن سفيهيه ،
صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالعلماء ، ولقد اتبعتم
السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون ، من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حرم
الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً فى مكائس الرئس . حرام على
الطعام والشراب حتى أسويتها بالأرض هدماً وإحراقاً . إني رأيت آخر هذا
الأمر لا يصلح إلا بما يصلح به أوله : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير
حنف . وإني أقسم بالله لأخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالطاعن ، والمستقبل
بالمدير ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل
منكم أخاه فيقول : « أنج سعد ، فقد هلك سعيد ! » ، أو تستقيم قناتكم .
إن كذبة المنبر بقاء مشهورة ، فإذا تعلقت على بكذبة فقد حلت لكم معصية .
فإياي ودكيج الليل ، فإني لا أوتي بمكذبة إلا سفكت دمه . . . وإياي ودعري

(١) [ذكر المؤلف بعض الخطبة دون ذكر المرجع ، وقد تابعت فى التماسه بقدر الإمكان
وجدت للقارئ الخطبة كاملة فى الجزء الأول من كتاب البيان والتبيين للجاحظ . وتدل هذه
الخطبة على عقلية سياسية وعمل روح خاصة ، ولم يقبل زياد بعد أن ألغاه مدح متعلق ، بل
قبل ملاحظة المنتهين ، وأجاب على من اعترض على ما فى كلامه من تمصف ومن مخالفة لنص
القرآن الذى جاء فيه : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، بأن قال له : « إنا لا نبلغ ما نريد
فيك وفى أصحابك ، حتى نخوض إليكم الباطل خوفاً » ؛ فليست المقوية فى نظر زياد للإصلاح
أو القصاص فحسب ، بل هى الردع ، وليس للوصول إلى الغاية الشريفة مقصوداً على استصناع
الوسائل اللينة - المترجم] .

الجاهلية ، لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعتُ لسانه ؛ وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناهم ، ومن نقب بيتاً نقبنا قلبه ، ومن نبش قبراً دفنناه فيه حياً ، فكفُّوا عن أيديكم والسننكم اكفُّف عنكم يدي ولساني . ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلى ضربت عنقه ؛ وقد كان بيني وبين قوم إحسن ، فجعلتُ ذلك دبراً أدني وتحت قدمي ؛ فمن كان منكم مُحسناً فليردد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فليزج من إساءته ؛ إني لو علمتُ أن أحدكم قتله السلُّ من بغضٍ لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له سرّاً ، حتى يُبدى له صفحته ، فإذا فعل ذلك لم أناظيره ؛ فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، قرب مبشركم بقدمنا سيئسّر ، ومسرور بقدمنا سيئبتكس . أيها الناس ! إنا قد أصبحنا لكم ماسةً وعنكم ذادة ، لسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ولذود عنكم بنى الله الذي حولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما علينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم لنا واعلموا أنسى مهما قصرتُ فلن أقصر عن ثلاث : لست عنجباً عن طالب حاجة منكم ، ولو أتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إيسانه ، ولا مجسماً لكم بعثاً ، فادعوا الله بالصالح لأمتكم ! فإنهم ماستنكم المودبون لكم ، وكهفكم الذي إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تُشربوا قلوبكم بغضهم ، فيشتدّ لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تتركوا له حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرّاً لكم : : : وإيهم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى .

وقد مكّن هيئته في النفوس بأن ضرب أمثلة من الشدة التي لا تعرف الهوادة ،

وجرى على ذلك من أول الأمر^(١) . فأفلح أن يُقَرَّ الأمن في نضابه ، لا في البصرة وحدها ، بل في الولايات الفارسية أيضاً ، وحتى في الصحراء العربية . هل نحولم يعهده الناس من قبل . وتحكى عنه عجائب حقيقية . وقد خضع له خوارج البصرة أيضاً وكانوا لا يختلفون إلا من حيث الاسم عن اللصوص الأدياء ، وكانوا يستحقون أن يعاملوا كما يعامل اللصوص^(٢) .

ولمات المغيرة في ٥٠ أو ٥١ هـ ، خلفه زياد^٣ على ولاية الكوفة ، فصارت له الكوفة والبصرة معاً ، وهو أول من جُمِعَتَا له وكان يقيم في كل منهما ستة أشهر . وإن كان مقره الحقيقي البصرة وكان عليه أن يصلح أمور الميراث السيئ^٤ التي خلفه له المغيرة في الكوفة ، وذلك أن الشيعة هناك - وكان على رأسهم حجر بن عدي الكندي - حضبوا خليفته عمرو بن الحريث بينما كان يخطب في المسجد ، فأمرع زياد من البصرة لكي يؤدبهم وكان من حسن الحظ لزياد أن أنصار حجر منعه من الاستجابة إلى دعوة زياد ، لما أرسل زياد في طلبه ،

(١) [راجع مثلاً الطبري ج ٢ ص ٧٧ ، تجد أن زياداً ، بعد خطبته البتراء قتل أحراباً أغلده صاحب الشرطة ليلاً ، بعد الوقت المحدد للتجول ، هذا مع أن الأحراب لم يكن يعلم بما اتفقه زياد من إجراءات ، و ص ٨٨ ، تجد أن زياداً قطع أيدي قوم حصونه ، وهو يخطب في الكوفة . وراجع أيضاً الكامل للمبرد ص ٥٨٢ من الطبعة الأوروبية تجد أنه قتل امرأة وعمرها لأنها خرجت مع قوم من الخوارج ، فلم يفرق النساء بعد هذا على الثورة مع الخوارج . وتجل حزم زياد كما تجلت قسوته أيضاً في قصائه على حجر بن عدي وأصحابه - الطبري ج ٢ ص ١١١ - ١٥٥ - المترجم] .

Chavarig. p. 248. (٢)

[فيما يتعلق بشدة زياد وحزمه ونجاحه في سياسته يقول الطبري : وكان زياد أول من شد أمر السلطان وأكد الملك لمعاوية وألزم الناس الطاعة وتقدم في العقوبة وجرّد السيف وأغلده بالظنة وعاتب على الشبهة ، وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً ، حتى أمن الناس بعضهم بعضاً ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يمرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها . وساس الناس سياسة لم ير مثلاًها ، وهابه الناس هبة لم يهابوها أحداً قبله ... وكان زياد يقول : لو شاع حبيل بيني وبين خراسان طمت من أغلده - المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ٧٧ - ٧٨] .

واتبع معهم بطريق العصيان والمقاومة ، وبذلك جلب الأذى لنفسه وجنى عليها . وقد تمكن زياد من التغلب على المتمردين دون كبير مشقة : وذلك أنه لما بدت بوادر الشر طلب زياد من أشرف الكوفة أن يبعثوا قومهم وأقرباءهم عن حجر بن عدى ، ففعلوا ، وهكذا أعان أهل الكوفة أنفسهم بمثل الدولة ، رغم قلة حبّتهم له ، على إخوانهم في المذهب . وقد وقعوا على شهادة ياتهام حجر بن عدى وأصحابه بأنهم خلعوا طاعة الخليفة ودعوا إلى الحرب والفتنة . فأرسل حُجْرٌ وأصحابه إلى الخليفة في دمشق ، فقتل منهم ستة بسبب خلتهم الطاعة ودعوتهم إلى الفتنة ، ولأنهم لما سُئِلوا عن رأيهم في عثمان وعلى عابوا عثمان وأبوا أن يتبرأوا من على . ولكن الأمر لم ينته بذلك ، لأن قتل مثل هؤلاء الرجال الكبار أهاج النفوس إهاجة عميقة ، وأزيفت بعض القبائل أن تتخلّى عن إقناذ رجالها من يد الدولة ، واحتبر الشيعة حُجْراً وأصحابه في المحنة شهداء^(١) .

وتذكر الروايات بعض الإصلاحات والإجراءات الإدارية التي قام بها زياد فقد قام بإصلاح كبير في مسجد الكوفة (الطبري ج ١ ص ٢٤٩٢) وأمر بإلقاء الحصى فيه ويقول البلاذري (ص ٢٧٧) إن زياداً فعل ذلك لأن الناس كانوا يصلّون فإذا رفعوا أيديهم ، وقد تزيّست ، نفضوها ، فخشى زياد أن يظن الناس على مرور الأيام أن نفض الأيدي سنة في الصلاة ، فأمر بالحصى فجُمع وألقي في صحن المسجد^(٢) . وأهم من ذلك إجراء آخر اتخذ زياد ، وهو تقسيمه جند الشرطة

(١) Schia. p. 56as.

[راجع أيضاً فيما يتعلق بقصة حجر بن عدى و قتله هو وأصحابه الطبري ج ٢ ص ١١١ - ١٥٥ ، لعبد التفصيل اللواتي لما أوجزه المؤلف - المترجم] .

(٢) [لا نجد عند الطبري والبلاذري في الموضعين اللذين أشار إليهما المؤلف ما يقوله من أن زياداً رفع الحصى من الأرض وأحل محله بلاطاً ثابتاً ، وذلك لكي لا يحصب المصلون الخطيب إذا أرادوا معارضته . ولما كان البلاذري يقول إن الحصى ألقى في المسجد فوق التراب ، فإن زياداً لم يرفع الحصى ، وهذا لا يكون ثمة أساس لكلام المؤلف ، ولذلك عدلنا عنه - المترجم] .

في الكوفة أربعة أقسام ، في كل قسم منها تتمثل القبائل المختلفة ، من غير أن يكون على رأسهم رئيس القبيلة ، بل رئيس تُعَيِّنُهُ الحكومة (١) : أما في تقسيم جند البصرة نفسها مماثلاً إلى خمسة أقسام ، فقد كانت القبيلة أكثر ظهوراً (٢) . ويستطيع الإنسان أن يلاحظ أن زياداً أراد أن يخفف من حدة التوتر السياسي في العراق ، وذلك لأنه حول خمسين ألفاً من أهل الكوفة والبصرة بعيالهم إلى خراسان وأسكنهم فيما دون النهر (الطبري ج ٢ ص ٨١ ، ١٥٦ ، والبلاذري ص ٤١٠) :

وتوفي زياد يوم الثلاثاء لأربع خلون من رمضان سنة ٥٣ هـ (الثلاثاء ٢٣ أغسطس سنة ٦٧٣ م .) ، وهو بلغ حوالي ثلاثة وخمسين عاماً . وتذكر حكايتان لا تخلوان من دلالة على روحه . فثلاً في سنة ٣٨ أو ٣٩ هـ خرج ابن عباس من البصرة قاصداً حلياً بالكوفة ، واستخلف على البصرة زياد ابن أبيه ، وبعث معاوية بابن الحضرمي إلى البصرة ، فنزل في تميم بقصد إثارته على سلطان علي . فعند ذلك بلغ زياد إلى صبرة بن شيمان ، أحد رجال الأزدي لكي يحبره هو وبيت المال . ثم أراد زياد أن يختبر الأزدي ، فقال لجابر بن وهب الراسبي : لا أرى ابن الحضرمي يكف ، ولا أراه إلا صيفاً لكم ، ولا أدرى ما عند أصحابك ، فأمرهم ، وانظر ما عندهم ! فبعد أن صلى زياد جلس في المسجد واجتمع الناس إليه ، فقال جابر : يا معشر الأزدي تميم ترحم أنهم هم الناس وأنهم أصبر منكم عند الهأس ، وقد بلغني أنهم يريدون أن يسروا إليكم حتى يأخذوا جاركم ويخرجوه من الميصر قسراً ، فكيف أنتم إذا فعلوا ذلك ، وقد أجرموا وبيت مال المسلمين ؟ فقال صبرة ابن شيمان ، وكان متحفظاً : إن جاء الأحنف جئت ، وإن جاء الحنات بن يزيد.

Schä. p. 58. n. 1. (١)

(١) [وجاء في الطبري ج ٢ ص ٧٩ : وقيل إن زياداً أول من سير بين يديه بالحرايب ومضى بين يديه بالعهد واتخذ الحرس رابطة خميصة ... فكانوا لا يرحلون المسجد . قارن ص ٧٧ - المترجم] .

جئت ، وإن جاء شيبان ففينا شيبان . وقد كانت هذه الكلمات ، بما فيها من سداجة ، سبباً في إثارة الضحك في نفس زياد ، وكان يقول بعد ذلك : « لئن استضحكت ، ونهضت ، وماكدت مكيدة قط كنت إلى القضيحة بها أقرب مني للقضيحة يومئذ ، لما غلبني من الضحك » (١) . ويحكى أيضاً أن زياداً كان يقول لزوجة المغيرة بن شعبة - وكانت شابة جميلة - وقد تزوجها زياد فيما بعد ، ألا تستر منه لأنه من أهل قرابتها ولا خطر منه ، لأنه « أبو المغيرة » : والواقع أن أحد أبناء زياد كان يسمى المغيرة ، على اسم المغيرة بن شعبة وإلى الكوفة (٢) . فيبدو من هذا أن زياداً لم يكن وجلاً مستزماً في جده : أما في أمور منصبه فلم يكن يسمح لأحد أن يمزح معه ، وهو لم يكن والياً غشوماً مستبداً إلا بالمعنى الذي يفهمه العرب ، والعرب يرون أن كل حكم قوي يجب أن يكون استبداداً ، خصوصاً إذا احتاج إلى السيف في قمع الرعايا الثائرين . أما ما فعله زياد مع الشيعة في الكوفة فقد رواه لنا أبو مخنف - وكان شيعي النزعة - أو في رواية وأدقها :

(١) الطبري ج ١ ص ٣٤١٤ - ٣٤١٥ ، ولا يستطيع الإنسان من نص طابعة ليدن أن يدرك ما هو الشيء المضحك في كلام صبرة بن شيبان . وأسماء الأعلام رفقة هناك ، ويمكن إصلاحها بالرجوع إلى الطبري ج ١ ص ٣٤١٨ من ١ وابن دريد ص ١٥٠ و ١٥٤ . وأسماء الأعلام أسماء تقوم من تميم ، ولكن لها ، إلى جانب ذلك ، دلالة على أشياء أخرى . ويؤيد من كلام صبرة أن الأزدي ينتظرون ما تفعله تميم وهم مستعدون لأن يقتلوا رجال تميم برجال أكتفاء لهم . وقد تكلم صبرة في جد وزهو والفتخار ، وكان ذلك ، بما فيه من سداجة ، هو الشيء المضحك الذي ضبط زياد نفسه لكي لا يتفجر ضاحكاً لما سمعه . [ترجعنا كلام المؤلف في الصلب متشبين مع الأصل العربي ومفصلين بعض التفصيل ، وإلا لما فهم المقصود منهما تماماً ، كما أننا جئنا بكلام صبرة في الصلب أيضاً ، لا في الهامش ، كما فعل المؤلف - المترجم] .

(٢) [هذا ما يقوله المؤلف . ولم أجد ما يدل على كل ما يقول . ونجد عند الطبري ج ٢ ص ٢٧ ما يأتي : « ودخل عليه (أي المغيرة بن شعبة) ، وعند المغيرة أم أيوب بنت حمارة بن عتبة بن أبي صبيط ، فأجلسها بين يديه وقال : لا تستري من أبي المغيرة ! فلما ساتت المغيرة تزوجها زياد ، وهي حدثه » . ومن الواضح في النص أن الذي قال : لا تستري ، هو المغيرة بن شعبة ، فهو يقول لزوجته ، مداعباً زياداً : لا تستري من أبي المغيرة . لأن أحد أبناء زياد كان يسمى المغيرة . وليس في الكلام ما يدل على جمال الزوجة ولا على أن زياداً هو الذي ظلمها . ويظهر أن المؤلف أخطأ في فهم ما تعود عليه الضمائر - المترجم] .

ولا يزيد كلام أبي مخنف عن أن زياداً أقر بعض الثوار الحديد ، ممن حمل السلاح خارجاً على أمره واكتفى بذلك . وهذا مما يبرر الشك في الروايات الغامضة التي تذكر أحياناً عن قسوته في تعقب الشيعة بوجه عام (الطبرى ج ٢ ص ٢٦٦ ، ٦٢٤) . وفي البصرة لم يكن للشيعة في الحملة كبير شأن ، وهم لم يخلقوا المتاعب ، وكان لرئيسهم شريك بن الأعور الحارثي مكان كريم عند زياد وعند أبنائه من بعده . ولكن شريكاً لم يكن براً بثقتهم فيه ، فقد أراد أن يستغلها ليفقد بهيب الله بن زياد الذي تولى العراق بعد أبيه . وذلك أن شريكاً مرض ، فذهب إليه هيب الله عائداً له في داره ، فأراد شريك أن يقتله ، وسخرض على ذلك رجلاً كانوا في داره ، لكنهم استقبحوا هذا الغدر الشائن وكرهوه . ومات شريك بعد أيام ، ولم يتم له ما أراد (الطبرى ج ٢ ص ٢١٨) . أما الخوارج فكانوا في البصرة أخطر من ذلك ، وكانوا مختلفين ، فكان منهم أهل ورع وديانة ، وكان منهم متطرفون قليلو المبالاة بالمبادئ ، في غريزتهم ميل إلى سفك الدماء . ولم يتعرض زياد إلى أهل الورع منهم ، بل هو ضرب على أيدي المجرمين ، ولم يقتل إلا بعض الثوار والمجرمين الذين جيء بهم إليه وقام الدليل على إجرامهم . وهو لم يلجأ إلى المذابح الرادعة . وقد أبان أبو بلال ، وهو أكبر رجل بين خوارج البصرة ، عن رضاه عن صنع زياد ، وذلك بأن دعا على قومه الذين ألحقوا العار باسم الخوارج بسفكهم الدماء من غير تمييز (١) ، أما ما يروى من أفعال زياد بخلافاً لذلك فيجب أن يعتبر تشنيعاً مفرضاً .

فأما الأداة الطيعة في أعمال القسوة المزهومة التي تنسب لزياد في البصرة فهو سمرة بن جندب ، كما يقول المدائني وتلميذه عمر بن شبة . وكان سمرة على الشرطة ،

(١) [لم يذكر المؤلف المرجع الذي اعتمد عليه ، وقد وجدت في كتاب الكامل للمبرد ص ٥٨١ - ٥٨٢ من الطبعة الأوربية أن أبا بلال دعا على رجلين من الخوارج سفكا دماء بغير حق . ولا يخرج ما في الطبرى (ج ٢ ص ٩٠ - ٩١) عن ذلك - المترجم] .

ويقال إن زياداً أكثر من عدد الشرطة ليتخذها أداة لطغيانه ؛ ولكن المعروف أنه لم يخذ ثورة الشيعة في الكوفة بواسطة الشرطة ، بل بدعوة أهل البصرة أن يكفّوه أولئك الشيعة (١) . وقد استطاع زياد في العراق ، كما استطاع في فارس ، أن يصل إلى غرضه دون الالتجاء إلى وسائل غير عادية ؛ وكان بحسب العادة القديمة ، يجمع حوله في سمره جماعة من الأشراف فرض لم عطاء شرفياً . وكان يتحدث معهم في الشؤون العامة حديثاً حراً (٢) . وهو أيضاً قد جعل رؤساء القبائل مسئولين عما يحدث من قبائلهم . وقد مكّنه ما كان بين القبائل من تنافس من أن يضرب بعضها ببعض . وأهم ما كان تحت يده أموال الدولة ، وكان هو المسيطر على بيت المال الذي يجري منه الأرزاق والأعطيات ، فكان عند الضرورة يهدد بمنعها (٣) . وكان تحت تصرفه شرطة ، لكنها لم تكن أكثر حدة منها في عهد سلفه ؛ فلم يكن تحت يده من الوسائل إلا ما كان تحت يد غيره من عمال الدولة ، غير أنه عرف كيف يستعملها خيراً مما استعملوها . وتدل كل الدلائل على أنه كان حاكماً منصوراً معاناً بأمر الله ، وهو لم يفشل في شيء . وكان المسجد ، وهو المكان الذي يجتمع فيه عامة المسلمين ، هو مكان عمله ومكان نجاحه . وكأنه كان يعرف ما تجسسه ضائير الناس ، وكانوا يحسّون بأنه يصيب منهم ما يخفون ؛ وكان يعلن للناس ما يريد أن يتخذ من إجراءات ، ولم يكونوا يشكّون أنه سيكون عند قوله . وقد استطاع أن يحكم الناس بالكلام لا بالسيف ، وكان خبيراً بقومه العرب . وكان العرب ، من قديم ، ذوى فراسة دقيقة وذوى إعجاب فطري بالتفوق العقلي ، إذا تجلّى في البصيرة النافذة إلى القلوب وإلى حقيقة

(١) [راجع فيما يتعلق بالبصرة الطبرى ج ٢ ص ٩١ ، وبالكوفة ص ١١٧ - المترجم] .

(٢) [لا يذكر المؤلف مرجعاً هنا ، وفي الطبرى (ج ٢ ص ٧٨) أنه « كتب خمسة من مشيخة أهل البصرة في صحابته ، فرزقهم ما بين الثلاثمائة إلى الخمسمائة » - المترجم] .

(٣) [راجع مثلاً الطبرى ج ٢ ص ٩١ - المترجم] .

الأشياء ، وإذا تجلّى في التصرف الحازم الحاسم^(١) . وقد مدحه الحارث بن بدر الغداني أحد أشرف تميم ، وكان شخصية قوية مستقلة ، بقصيدة تشهد بما كان له من صفات كريمة ؛ ووصفه فيها بأنه وزير نعم الوزير^(٢) لأخيه . الخليفة معاوية وإذا كان الفرزدق الشاعر^(٣) ، لما طلبه زياد ، قد خاف زياداً كما يخاف الصبي الأحمق حقيقة ، ففرّ منه ، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فإن هذا لا ينال من قدر زياد ومن صفاته :

وكان الواجب الأول الذي لا بد من القيام به ، في البصرة والكوفة ، هو تثبيت سلطان الدولة ؛ فكان لا بد في البصرة من كسر شوكة القبائل والعشائر التي كان المبدأ الأهل عندها هو الوقوف إلى جانب أفرادها ، بل إلى جانب مجرميها ، مهما كان جرمهم ، وحمايتهم من القبائل الأخرى ، بل من سلطان الدولة . فقد طغت روح العصبية القبلية في البصرة أكثر من طغيانها في غيرها ، وكان لذلك في مدينة كالبصرة مزدهة بالسكان من النتائج ما لا يمكن احتماله ، وكان أنظع مما حُرِفَ في حياة البادية . فتعرض النظام والسلام إلى الخطر ، بعد أن كان محمد عليه السلام ، بفضل إقامة السلام والنظام ، قد خلص العرب من الفوضى ؛ أما في الكوفة فقد كانت المعارضة للحكومة مصطبغة بصبغة دينية أكثر مما كانت لها هذه الصبغة في المدن الأخرى . ولم تكن هذه المعارضة موجهة لسلطان الدولة في ذاته ، بل موجهة إلى حق الحكومة التي كانت قائمة ، أعني حكومة الأمويين ، في الحكم . ولم يكن بين الناحيتين فرقاً في نظر زياد ، فهو بعد أن

(١) [يظهر أن المؤلف قد أخذ بعض ما يذكره من صفات زياد من قصيدة قالها الحارث ابن بدر الغداني في مدحه له (الطبري ج ٢ ص ٧٨) وأنه قد تصرف فيها أخذ - المترجم] .
(٢) (الطبري ج ٢ ص ٧٨ ص ١٠ و ص ١٤٦ ص ١٦ . وهذه أول مرة تظهر فيها هذه التسمية ، فيما أعلم .

(٣) [تهجد حكاية الفرزدق وفرواره لما طلبه زياد عند الطبري ج ٢ ص ٩٤ - ١٠٨ -

المترجم] .

هذه الأسرة الحاكمة لم يعرف الخضوع لسيادة غير السيادة القائمة بالفعل ، وعلى هذا الأساس نهض لإقامة النظام في الجماعة ولإيجاد الرخاء في الحياة العامة وإلزام الناس القيام بواجب الطاعة المفروض عليهم كمواطنين . وهو إن كان ، تمشياً مع العادة السائدة ، لم يتنس نفسه ، بل جمع أموالاً كثيرة ، فإنه لم يجعل همه استعمال سلطانه وسيلة في استغلال الولايات التي عهدت إليه إدارتها استغلالاً يحقق له أغراضه الخاصة . وكان يستخذ موقفاً فوق الأحزاب وفوق القبائل ، وكان يشعر تمام الشعور بأنه عامل من عمال الدولة ، وكان جاداً كل الجدة في القيام بالواجبات التي يقتضيها منصبه والشعور به ، غير مبالي بالعافية لنفسه ، وغير مبالي بما جاء في القرآن^(١) الذي استطاع كل حاكم أن يستنبط منه السياسة التي تناسبه . وقد عُرِف له إخلاصه ، وعاد ذلك على أبنائه من بعده ، وكان ابنه عبيد الله أكبر شأنًا ، ومن ولاية العراق أيام معاوية ، إلى جانب من تقدم ذكرهم ، بحسب رواية أبي معشر والواقدي : تولى الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد سنة ٥٣ هـ ، والضحاك بن قيس الفهري سنة ٥٥ هـ ، وعبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي سنة ٥٨ هـ ، والنعمان بن بشير الأنصاري سنة ٥٩ هـ . وتولى البصرة حمزة بن جندب الفزاري سنة ٥٣ هـ ، وعبد الله بن عمرو بن حيلان سنة ٥٤ هـ ، وعبيد الله بن زياد سنة ٥٥ هـ . وقد كان عبيد الله أشد من أبيه على خوارج البصرة ، حتى اضطغن عليه المعتدلون منهم ، وما يروى من حكايات شهداء الخوارج يرجع إلى عهد^(٢) .

أما أهل الشام الذين كان يحكمهم معاوية نفسه فلا نسمع عنهم إلا قليلاً ، إذا

(١) [يقصد المؤلف بطبيعة الحال مجاوزة زياد لبعض حدود الشرع عندما كان يريد القضاء على الفساد . راجع ص ١١٦ - ١١٧ بما تقدم - المترجم] .

(٢) Chavarig p. 250. [راجع أيضاً الطبري ج ٢ ص ١٨٥ - ١٨٨ - المترجم] .

قيس بما نسمعه عن غيرهم ، وذلك أن اتفاق مصلحتهم ومصلحته في السيادة جعلتهم متحدين معه ، لأن السيادة كانت للشام . وهذا يتجلى في امتلاكها لبيت المال ، وفي ارتفاع الأعطيات فيها^(١) . وكانت الشام أيضاً تختلف عن العراق اختلافاً داخلياً ، وذلك أنه لم يكن للكوفة والبصرة تراثٌ غير تراث حياة البادية وغير تراث الإسلام ، وكانت حروب الفتح قد قلّدت إليها جيوش عربية تتألف من مختلف القبائل . فأقامت هناك أشبه شيء بالمستعمرات العسكرية . ووجدت هذه القبائل نفسها قد انتقلت دفعة واحدة من ظروف حياة البادية إلى ظروف الحضارة وصارت في النقطة الوسطى لإمبراطورية كبرى ، فلا عجب ألاّ يتحول العرب دفعة واحدة من حياة البداوة إلى حياة المواطنين المهذبين . على أنه قد هاجر إلى الشام أيضاً على أثر الفتح الإسلامي كثيرٌ من العرب ، خصوصاً من قيس الذين انتقلوا إلى شمال الشام ، ولكن الغالبية في الوسط كانت لكلب ولقبائل قضاة ، إلى جانب قبائل أخرى من أزد الصراة . وكانت هذه القبائل قد توصلت هناك منذ قرون ، ولم تكن قد جاءت مع مجيء الإسلام^(٢) . وكانوا معرضين لتأثير الحضارة اليونانية - الرومانية والكنيسية المسيحية والدولة الرومانية ، فلم تحل هذه العوامل كلها من أن تترك أثرها فيهم . ولم تكن مظاهر الدولة المنظمة ولا روح الطاعة الحربية والسياسية معاني جديدة عليهم . وكانت لهم أسرة قديمة من الأمراء ذانوا لها بالطاعة دهرًا طويلاً ، ثم آل ما تعودوه من الطاعة إلى معاوية باعتماده الوازث الشرعى لأسرتهم السابقة ، فلم يكونوا بحاجة إلى أن يُلَقَّسُوا حقوق الدولة عليهم ، وكانوا يعترفون بشرعية الرياسة الإنسانية

(١) « لقل معاوية بيت مال الدولة (من الكوفة) إلى دمشق وزاد في عطاء أهل الشام وأنقص عطاء أهل العراق » هذا ما يقوله تيوفانيس (في أخبار حوادث سنة ٦١٥١ ، ٦١٥٢) .
(٢) وكانوا يفتخرون بأنهم لم يهاجروا إلى الشام حديثاً كالأمويين (الحاشية ص ٦٥٩ - بيت رقم ٥) .

القائمة ، ولم يمتحنوها بالرجوع إلى مقاييس القرآن وإلى المبادئ التي يجب أن تقوم عليها الحكومة التيقراطية . وكانوا يطيعون أميرهم أينما وجههم ، لأنهم لم يكونوا في داخل أنفسهم يبالون بالإسلام أكثر مما يبالى هو نفسه . وقد أثبتوا أنهم كانوا من الناحية الحربية يفوقون العرب جميعاً ، ولا سيما أنهم لم يضعف تعودهم للحرب ، بل كانوا بسبب الحروب الدائمة مع الروم يتدربون تدريباً منظماً . وقد كان معاوية من الحكمة بحيث حافظ على حماسهم وحميتهم ، وإن كان هو من حيث النسب ، قد كان أقرب لقيس منه لغيرها ، ولم يكن الخلاف بين القبائل قد اتخذ في ذلك العصر صورة التنازع الحبيث بين الأحزاب السياسية . وكان معاوية يقيم في دمشق ، في المنطقة التي كانت تسكنها كلب ، غير بعيد من مقر ملوكهم السابقين . وتزوج امرأة من أشراف كلب ، وجعل ابنها يزيد وارثاً لعرش الدولة . وكان التصاهر ، بحسب تفكير العرب ، بمثابة التحالف السياسي . وقد تبين أيضاً أنه كذلك ، فكانت كلب كلها تشعر أنها أصهار للخليفة وأحوال لولى هذه^(١) . ولم يكن من الممكن أن يصبح حرب للشام الذين أدمجوا في الدولة العربية بعد الفتح في المرتبة الثانية بعد العرب الذين دخلوها فاتحين ، ذلك أن دخول حرب الشام في الإسلام جاء مبكراً ، وكان لهم فيه نصيب من الاختيار ، وإن كان إسلامهم قد كان مجرد انضمام لراية العروبة المنتصرة . ويستطيع الإنسان أن يفترض أن الصلة التي نشأت بين معاوية وبينهم أيام كان والياً كان لها أثر في علاقته بأهل الشام من غير العرب الذين ظلوا على النصرانية ، ولا يبدو أن التعارض بين السادة والرعية كان في الشام على الحدة التي كان عليها في العراق في أول الأمر . ولم يكن المسلمون في الشام يعيشون بمعزل وفي مستعمرات مخصصة لهم . بل كانوا يعيشون بين أبناء البلاد في المدن القديمة مثل دمشق وحصر

(١) وكانت ثلاثة زوجة عثمان بن عفان من كلب أيضاً . ومن الجائز أن يكون الثار لقتل عثمان لى قبولاً بين كلب نفسها لهذا السبب ، وأنه ربما بين أحضان معاوية .

وقنسمرين وغيرها ، بل كانوا أحياناً يقامونهم بيتاً لله ، نصفه مسجد* ونصفه كنيسة . وكان التراث المسيحي في فلسطين والشام موضع تقدير كبير من جانب المسلمين (ديوان النابغة ، قصيدة رقم ١ بيت رقم ١٢٤) . وكانت للشام في نظر المسلمين أيضاً أرضاً مقدسة : وفي بيت المقدس نصب معاوية نفسه خليفة ، وصلى بعد ذلك على جبل الجبلجلة ، ثم صلى عند قبر السيدة مريم . ولا يصح بطبيعة الحال أن يغالى الإنسان في تقدير ما لذلك من دلالة . وقد أظهر معاوية مقدار تهكمه واستهزائه لإزاء العقيدة المسيحية في أنه لما جاء إليه البعاقبة والمارونية ليفصل ، بينهم في نزاعهم في العقيدة ، حرّم البعوثيين ، بعد أن ضُلبوا أمام خصومهم ، عشرين ألف دينار ، أدخلها منهم وأرسلهم . على أن معاوية لم يكن في قلبه تعلق عميق بالإسلام ، وكان ، من حيث هو ميساسى ، متساعاً مع رعاياه المسيحيين . وقد نال محبتهم وعرفانهم لفضله ، وكانوا يشعرون أنهم تحت حكمه في عافية لا تقل عما كانوا عليه تحت حكم الرومان ، وهذا ما يثبته الإنسان عن روح الروايات التي ترجع إليهم .

ويتكلم تيوفانيس (في أخبار سنة ٦١٧٠ لتاريخ الخليفة) عن رعاية معاوية لانتصارى (σπουδή τὸν χριστιανῶν) ! وقد برهن عليها معاوية بأن بنى لأهل البرها كنيستهم التي هُدمها الزلزال . وكان سرجون بن منصور من أكبر مستشاريه نقوذاً ، وقد أورله ابنه يزيد ، وكان سرجون نصرانياً^(١) . أما ما يروى من أن

(١) [بيت النابغة هو :

عحبهم ذات الإله ودينهم قوم لما يرجون غير المواقب
وهذا البيت قاله النابغة في مدح الحارث الأصغر الفسافي معتدراً له مما رؤى به إليه لمن
أمر المجردة . ودلالة البيت على ما يقوله المؤلف غير دقيقة وغير كبيرة - المترجم] .
(٢) الطبرى ٢ ص ٢٠٥ و ٢٢٨ و ٢٣٩ . انظر أيضاً التنبيه ص ٢٠٢ و ٢٠٧ .
٣١٢ . أما عند تيوفانيس في أخبار سنة ٦١٦٣ فنجد أن Σέργιος ὁ τοῦ Μανουσίου ἀνὴρ أن
χριστιανιστῶν (سرجيوس بن منصور ، الرجل النصراني) لا يذكر إلا في أيام عبد الملك -

معاوية استعمل والياً نصرانياً على خراج حصص فهو خبر موضوع من غير شك^(١). ويستطيع الإنسان أن يأسف من أن معاوية ، بدلاً من أنه صار خليفة ، لم يقتصر على الشام فيؤسس هناك دولة وطنية ، ربما كانت تكون أثبت دعائم من تلك الدولة العالمية التي لا تنتمي إلى أمة معينة والتي أنهار فيها سلطان العرب في المشرق ، ويجوز أنه قد خطرت له هذه الفكرة ، لكنه أحسن أن تنفذها مستحيل ، لأنه كان لا بد له في ذلك من أن يتصل من الإسلام وينضم إلى الكنيسة المسيحية ، وذلك أن الإسلام في ذلك الحين لم يكن يسمح بوجود دول خاصة .

وكان الثأر لمقتل عثمان هو الأساس الذي بنى عليه معاوية حقه في وراثة الخلافة^(٢). أما بأى معنى قام بالثأر لعثمان فهو يجعل في أنه من أجل ذلك المحمّد مع عمرو بن العاص الذي ألب على عثمان أخبث تأليب . ولم تكن التقوى ولا البر بعثمان باعثاً لمعاوية ، وهو أيضاً لم يتبع سنة سلفه المقتول ، ولقد قبل النتيجة الإجمالية لحكم عثمان ، وهي سيادة بني أمية ، ولكنه لم يعط للأمويين جميع المناصب التي تدرّ المنافع . ولقد عمل محاولات باستعمالهم^(٣) ، لكنه كان في العادة

= قارن أيضاً الطبري ج ٢ ص ٨٣٧ [إن سرجون بن منصور الرومي كان كاتب معاوية وصاحب أمره ، وكان يستشير . ويذكر الطبري أن يزيد بن معاوية كان يستشير أيضاً . وكتاب « التنبيه » الذي يذكره المؤلف هو كتاب التلبيح والإشراف للمعتمد طبعه بدمشق سنة ١٨٩٣ م . وهو الجزء الثامن من المكتبة الجغرافية - المترجم] .

(١) البغدادي ج ٢ ص ٢٦٥ [قارن الطبري ج ٢ ص ٨٢ - المترجم] .
 (٢) [لبراجع القارئ إلى جانب ما هو معروف في كتب التاريخ كتاباً كتبه معاوية إلى علي (الكامل للمبرد ص ١٨٤) ، وهو يبين موقف معاوية وموقف أهل الشام ، ولحقه مطالب معاوية : ١ - بضرورة ماقبة قتلة عثمان . ٢ - بأن يكون أمر اختيار الخليفة بعد ذلك شور بين المسلمين . ويقول معاوية . ١ - إنه هو نفسه لم يبايع علياً ، ومن هذا الوجه لا يعتبر خارجياً عليه ، مثل طلحة والزبير ، ٢ - وإن أهل الشام لم يبايعوه ، فلا تلزمهم طاعته كما تلزم أهل البصرة . هذا ولا يدفع معاوية مكانة علي في الإسلام - المترجم] .
 (٣) [جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٦٧) أن معاوية كان إذا أراد أن يولي رجلاً من بني سحر ولاية الطائف ، فإذا رأى منه خيراً وما يعجبه ولاية مكة معها ، فإن أحسن الولاية يجمع له معها المدينة . فهل المقصود من عبارة المؤلف مثل هذا أيضاً ؟ والمعروف أن معاوية يولي بعض الأمويين أمصاراً أخرى - المترجم] .

لا يلبث أن يعزظمه ، ولم تصبح دمشق مقرهم الرئيسى ، بل بقيت المدينة مقراً لهم . وبعد أن كانت المدينة حتى أيام معاوية عاصمة للدولة وجدت نفسها وقد رجعت إلى مركزها القديم ، شأنها في ذلك شأن الطبقة الأرستقراطية التي كانت لا تزال تقيم فيها . وقد جعل معاوية ولاية المدينة من نصيب الأمويين عادةً ، ولكن ابن مروان بن الحكم ، وهو في عهده أمير على المدينة ، من مروان ابن الحكم الذى كان في عهد عثمان كاتب الدولة ، الذى لا يخرج عن أمره شيء ! فلا عجب أن ينظر مروان بن الحكم إلى ابن عمه المقيم بدمشق والذى يظلمه بحمايته بعين غير عين الرضا ، وأن أقرباء معاوية في المدينة كانوا بالإجمال يطمعون عليه . وقد تجلت روعهم خصوصاً في خبرتهم من زياد ، لأنهم كانوا يخشون أن تتجه إرادة معاوية إلى تقوية بيته على الأسرة كلها من طريق زياد وأن يجعل لزياد الخلافة من بعده . أما معاوية فقد حاول من جانبه أن يثير الشحنة بين فروع أميرة بنى أمية في المدينة لكي يضعف بذلك من قوتهم (الطبرى ج ٢ ص ١٦٤ - ١٦٥)^(١) . وأيضاً لم يصل الوثام بين معاوية وبين قريش بوجه عام إلى ما كان ينبغي أن يكون عليه . وقد اشتكى هو من ذلك ، وقال إنه لم يوثقهم إلا لأنهم انصرفوا عنه . وكانت العلاقات متوترة بينه وبين قبائل مخزوم خاصة ، وكان هؤلاء منذ زمان طويل يحددون على بنى أمية ، لأن بنى أمية هم الذين زحزحوهم عن المحل الأول الذى لم يزل لهم في مكة حتى وقعة بدر . وقد فعل معاوية إلى جانب ذلك ما يجعل لبغضهم له سبباً خاصاً ، وذلك أن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومى ، صاحب المكانة الكبيرة ، كان عظيم الشأن في الشام ، وقد مال إليه

(١) [كان معاوية يُهين بين سميح بن العاص ومروان بن الحكم . فكتب للأول ، وهو وال على المدينة ، يأمره بمصادرة أموال الثانى ، فلم يفعل ، فزاله . ثم والى الثانى ، وأمره أن يصادر أموال الأول ، فلم يفعل ، وكتب لمعاوية يبر من تعجبه من أنه يُهين بعض الأمويين على بعض ، ويدخل بينهم القطيعة والشحنة - ويرد عليه معاوية متصلاً من ذلك - المترجم] .

أهلها ، « لِمَا كَانَ عَنْدهم من آثار أبيه خالد بن الوليد ، ولغنائهم عن المسلمين في أرض الروم » وكان عاملاً على حصص ، في وسط الشام ، وكان له نفوذ كبير مستقل بذاته . فخافه معاوية وخشي على نفسه منه ، فأمر معاوية الطبيب النصراني ابن أثال أن يمتل في قتله ، وضمن له ، إن هو فعل ذلك ، أن يضع عنه خراج ما عاش ، وأن يولييه جباية خراج حصص . ففدس ابن أثال لعبد الرحمن شربة مسمومة ، فشر بها مات (١) . ويستطيع الإنسان أن يتصور مبلغ تأثير ذلك في نفوس بني مخزوم ، أما علاقة معاوية بأشراف المسلمين وبيت الرسول ، وبآل الصحابة الأولين وبالأَنْصار أيضاً ، فكانت بطبيعة الحال ، علاقة ريبة وعداوة :

أما كبار العمال الذين ولاهم معاوية أهم الولايات فلم يكونوا أمويين ، بل هم لم يكونوا من قريش ، إذا استثنينا واحداً منهم . وكان معاوية ثاقب النظرة في معرفة من يصلح لخدمته ، فكان يختاره لها ، وكان يعرف كيف يضم إلى جانبه من يعنيه أن يضمه وأن يرتبطه معه ، بل كان يعرف كيف يستخدم في أغراضه من يرئاب هو به ، كما فعل بعمر بن العاص الذي كان وهو وال على مصر لا يشعر أنه حامل من قبيل معاوية بقدر ما كان يشعر أنه حليف له (الدينوري ص ٢٣٦) ، ونجد أحياناً كثيرة لإحصاء خدمه وأصحاب

(١) [يذكر المؤلف دس المم لعبد الرحمن بن خالد بيد الطبيب النصراني دون أن يصرح بأن ذلك كان بإيعاز من معاوية ، ثم يقول : وظن أن ذلك كان بإيعاز من معاوية . ولكن كيف يمكن تحليل حرص الطبيب على قتل عبد الرحمن بن خالد ، وقتل خالد ابنه الطبيب نفسه بعد ذلك . مهما يكن من شيء فالحكاية موجودة عند الطبري (ج ٢ ص ٨٢ - ٨٣) ، وهي كما ذكرناها ، ويمكن المؤرخ أن ينقدها . على أنه جاء في كتاب الأغاني (ج ١ ص ١٥ س ١٣) حكاية دس ابن أثال المم لعبد الرحمن وحكاية أن معاوية كان قد سأل أهل الشام فيمن يستخلفه عليهم ، فقالوا : عبد الرحمن بن خالد ، فسكت معاوية وأخبرها في نفسه . وقد حرص معاوية على قتل مالك الأشتر ، فقتله عامل خراج نصراني في مصر يدس المم له أيضاً - المترجم] .
(٢) [كتب معاوية إلى عمرو يطلب - نظراً لكثرة النفقات التي لا بد له منها - أن يعينه بخراج مصر ، فأجابه عمرو في أبيات شعرية : أنه لم يأخذ مصر لا ميراثاً ولا ولاية ، بل بشرط ، يقصد بطبيعة الحال اتفاقه مع معاوية على أن تكون له مصر طعمة ، نظير مساعدته لمعاوية على بني أبي طالب - المترجم] .

ثقتهم^(١) ، ومعظمهم يبدون رجلاً جلدُداً (homines novi) ، وكان معاوية يشاورهم ، معتبراً إياهم مستشاريه (σύμβουλοι) ومعتبراً نفسه المستشار الأول (πρωτοσύμβουλος)^(٢) وعند الطبرى (ج ٢ ص ١٤٦ فما بعدها) مثالٌ على ذلك . وقد كانوا يستطيعون أن يعارضوه ، وهم فعلوا ذلك أيضاً (الطبرى ج ٢ ص ١٤٤ و ١٨٥) ولكن معاوية كان لا يدع الزمام يخرج من يده ، وكان يعرف كيف يهذب من يمنحهم شيئاً من الحرية : وكانت لا تفضيه خشونة الناس ولا ظهورهم بالانفعال المستعرف . وكانت شيمته هي شيمة السيد العربى ، من الطراز القديم ، ولم يهبه الله الشجاعة العسكرية ، وإن كان لم يزل يوجه أهل الشام لقتال الروم قتالاً لم ينقطع . وبمقدار حرمانه من الشجاعة العسكرية توفرت له صفات أخرى من صفات السيد فى أهل صورها : اللين الحكيم الذى كان يستطيع به أن يتجرده الخصم من سلاحه وأن يخزئته ، والحلم الكامل ، وضبط النفس فى أكمل صورة . وتروى حكايات لا تخص فى تصوير معاوية ، هو والأحنف بن قيس التميمى ، مثلاً أهل هذه للصفات . وكان الأحنف معاصراً لمعاوية ، وكان معاوية يقدره تقديراً عظيماً . فقد كان معاوية فى جوهر أمره رجلاً دبلوماسياً وسياسياً ، وكان يترك الأمور حتى تنضج ، ولم يكن يتعجلها إلا فى بعض الأحيان ، وربما استعمل خس السم فى الوصول إلى ما يريد . ولم يكن ينكر أن أصله من طبقة التجار .

(١) الطبرى ج ١ ص ٣٢٧٢ و ٣٣٦٠ و ج ٢ ص ١٣٩ و ١٩٧ و ٢٠٥ و كتاب الأمان ج ١ ص ١٢ .

(٢) نجد عند تيوفانىس (فى أخبار سنة ٦١٦٩) هذه العبارات Μαυίας και οι σύμβουλοι αὐτοῦ (معاوية ومستشاروه) (فى أخبار سنة ٦١٧١) Μαυίας ὁ πρῶτος Σαρακηνῶν πρωτοσὺμβουλος (معاوية المستشار الأول العرب) . وقد انتقلت هذه التسمية إلى ما بعد أن فقدت مبررها بزمان طويل ، حتى وصلت إلى الخلفاء العباسيين . ونجد عند تيوفانىس (فى أخبار سنة ٦١٦٥) لقباً خاصاً δὲ δεύτερος ἀδελφός (الأخ الثانى) . وكان ساجب (Majordomus) ملك النبط يسمى أخاه . وكان بعض كبار موطنى السلوقيين يسمون أبنائهم ، فإذا كان هناك أكثر من أخ كان هناك ترتيب فى الدرجة .

وكان لا يلجأ إلى القوة إلا كارهاً . وقد استولى على العراق ، وهو لم يصل إلى ذلك من طريق فتحها بأكثر مما وصل إليه من طريق شرائها : وكان إذا استطاع أن يصل إلى غرضه بالمال لم ييخل به ولكنه كان لا يعطي شيئاً بدون غرض ، وربما كان يبد شيئاً من المتعة في أن يجيب أمل من يطمع منه في كرم لا يعرف التمييز أو من يظن أنه يستطيع أن يخدعه . وفي رواية عن الشعبي ، وهو من أقدم الرواة ، عن قبيصة بن جابر الأسدي أنه قال : صحبت معاوية ، فما رأيت رجلاً أحب رفيقاً ولا أشبه سريرة بعلاية منه ، وكان إذا استمع اتكأ ووضع إحدى رجله على الأخرى وكسر عينه . ورغم أنه كان طويلاً مُسَمِّياً ، فإنه كان يبدو في عين العرب جميلاً مهيباً إذا لبس عمامته السوداء واكتحل^(١) . ويقول الواقدي إنه توفي يوم الخميس لمنتصف من رجب سنة ٦٠ هـ وهو يوافق ١٨ يولييه سنة ٦٨٠ م ويقول إلياس النصيبى (Elias Nisibenus) إن يزيد ابنه تولى الخلافة يوم الجمعة منتصف رجب ، أما أبو مخنف (الطبرى ج ٧ ص ٢١٦) فيقول إن ذلك كان في هلال رجب ، ويذكر أبو معشر أن مدة حكمه تسعة عشر عاماً وثلاثة أشهر ، ويزيد الواقدي على ذلك سبعة وعشرين يوماً . وقد فُين عند الباب الصغير في دمشق ، وكان على قبره بيت منبى . وظل يزار قروناً ، وكان قبره يفتح للزيارة كل يوم الثين والخميس^(٢) .

٢ - ولما مات معاوية كانت مسألة من يخلفه مُسْئِرةً بالمناصب ، كما هو

(١) [يجد القارئ الكثير ما يرجع إليه كلام المؤلف هنا عن معاوية والكثير من أخبار في كتب التاريخ ، خصوصاً عند الطبرى ج ٢ ص ٢٠٥ - ٢١٦ والمسعودى في المروج ج ٢ ص ٥٤] فما بعدها من طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ ، وفي الثانية ص ٣٠٢ من الطبعة الأوروبية ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢ فما بعدها من الطبعة الأوروبية . وراجع فهرس الأغاني والكمال الجرد - المترجم .

(٢) المسعودى ج ٥ ص ١٤ . وقد بنا الكيت للشاعر من غضب الخليفة هشام إلى قبر ابنه معاوية [أى معاوية بن هشام لا معاوية بن أبي سفيان كما يظن المؤلف - المترجم] (الأغاني ج ١٥ ص ١١٥ و ١١٧ و ١٢١) .

الحال دائماً . وقد عمل معاوية ، خلافاً لمن تقدمه ، على أن يدلّل المصاحب قبل ظهورها ، وكما أنه هو لم يربط أشراف العرب بنفسه إلا من طريق البيعة التي أخذها لنفسه منهم أنفسهم ، فإنه أراد أن يضعها ، وهو ما يزال حياً ، في أعناقهم لولده يزيد ليكون خليفة من بعده ، ولكنهم ، فيما هذا أهل الشام بطبيعة الحال ، كانوا يأملون أن يُلْقُوا بعد موته النير من على أعناقهم . وزعموا أنه بإرادته جعل الحكم وراثياً من الأب لولده ، على ما هو معروف عند السامانيين والروم^(١) ، إنما يرثك بدعة منكدة على أنه وإن كانت الرياسة عند العرب تورث في داخل نطاق القبيلة أو العشيرة ، فإنها ليست وراثية في أفراد البيت الواحد من الأب إلى الولد . أما بحسب الإسلام ، فليست الرياسة لبنى الإنسان على الإطلاق ، بحيث يدعون الحق في وراثتها . ورغم هذا ، فإن الضوضاء التي قامت حول ذلك لم تكن في حقيقة الحال مطابقة لسببها المزعوم ، وذلك أن حق الأمير في أن يعين من يخلفه بعد وفاته كان مقررأ ، وحتى إذا كان الإبن ليس هو صاحب الحق في ذلك فإنه لم يكن بحال من الأحوال محروماً منه فأما الذي يظهر أنه لم يكن موجوداً فهو البيعة مقلداً قبل وفاة الخليفة . ولكن المسلمين كانوا إذ ذاك في أوائل تاريخهم ولم يكن ثمّ "سنة" مقررّة في هذا الباب على الإطلاق ، ولم يكن هناك أى نظام مقرر لوراثة الخلافة .

أما رواية ما فعله معاوية ، وهو ما نجده عند ج . فايل (G. Weil) و أ . مولتر (A. Müller) ، فهو موجود عند ابن الأثير (ج ٣ ص ٤١٧ فـا بعدها) على هذا النحو : كان ابتداءً أخذ البيعة ليزيد قد جاء من قبيل المغيرة بن شعبة ، وكان قصده المغيرة في الحقيقة سيئاً . فقد أبلغه ابن معاوية يريد عزله عن الكوفة ، فرأى أن يشخص إلى معاوية ويستعفيه ، لتظهر لمعاوية كراهته للولاية ولكي يستريب

(١) إن الآيات المذكورة عند المصمودي (ج ٥ ص ٧١) تذكر بالآيات التي قالها الخليفة عند أبي بكر .

معاوية من خروجه منها ، فيبقى في منصبه : ثم دخل المغيرة على يزيد ففأتمحه في وجوب عقد البيعة له ، وحدث يزيد أباه بذلك ، فأحضر المغيرة وسأله ، فعرض الفكرة ، وراقت الفكرة معاوية ، فأمره معاوية أن يرجع إلى عمله ويتحدث مع من يثق إليه في ذلك . فلما عاد المغيرة إلى الكوفة قال لمن كان ينتظر نتيجة سعيه للبقاء في الولاية : « لقد وضعت رجلاً معاوية في غمرتي بعيد النقي على أمة محمد ، وفقت عليهم فتناً لا يترتق أبداً » . ولكن لم يلبث أن جاء إلى دمشق وفد من رجال الكوفة ، كان المغيرة قد أعطاهم شيئاً من المال ، يطالبون بعقد البيعة ليزيد (١) . ولكن معاوية أثار الأناة وكتب إلى زياد يستشير ، فاستشار زياد هُبَيْدَ ابن كعب الغنوي ، وقال له : إن أمير المؤمنين كتب إلى أنه قد عزم على بيعه يزيد ، وهو يتخوف تفرقة الناس . ويزيد صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أُلح به الصبيد : ثم طلب زياد من هُبَيْد أن يلتقي معاوية ويخبره عنه بأحوال يزيد ويوصيه بالأناة في الأمر ، فإن ذلك أجدر أن يحقق لمعاوية ما يريد . فقال له هُبَيْد : لا تُفسد على معاوية رأيه ولا تُسميت إليه ابنه ! واقترح هُبَيْد أن يلقى يزيد سراً وينصح له بترك ما ينقم عليه الناس من أجله ، حتى تستحكم الحجة لمعاوية عليهم : وأراد هُبَيْد بذلك أن يرضى معاوية وأن ينصح ليزيد . وقد قبل زياد هذه المشورة وعمل بها ، فبعث هُبَيْد بن كعب إلى دمشق ، وكتب هو إلى معاوية يقترح عليه التوادة : على أن معاوية لم يكشف عن نيته إلا بعد موت زياد ، وبدأ باستطلاع الجو في المدينة ، وعلى عاصمة الإسلام الأولى التي كانت لا تزال تعتبر المكان الحقيقي للبيعة ، وخصوصاً أن كبار المسلمين

(١) [جاء على رأس الوفد موسى بن المغيرة أو أخوه عروة . فقاموا خطباء وتكلموا معربين عن حرصهم على وحدة أمة محمد وما يجب على معاوية ، وأقصد كبير ، من تعيين خلف له ، لكن لا ينثر عقد الأمة ، ثم أشاروا بيزيد . وسأل معاوية موسى أو عروة ، بعد أن تكلموا : بمك اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ؟ قال : بكذا ، قال معاوية : لقد وجد دينهم عندهم رخيصاً - المترجم] .

الذين كان لابد أن تؤخذ منهم البيعة قبل غيرهم كانوا يسكنون فيها ، فكتب معاوية إلى مروان بن الحكم ، حامله على المدينة : إني قد كبرت سنّي ودقّ عظمي وخشيت الاختلاف على الأمة بعدي ، وقد رأيت أن أتخبرهم من يقوم بعدي وكرهت أن أقطع دون مشورة من حينئذ ، فاهرض ذلك عليهم وأعلمني بالذي يردون عليك . فلما هرض مروان عليهم الأمر قالوا : أصاب ووفّق ، وقد أحببنا أن يتخبر لنا ، فلا يألو . وكتب مروان إلى معاوية بما قالوه ، فردّ معاوية عليه ، وذكر حرمة على اختيار يزيد خليفة بعده . فلما أبلغ مروان كبار أهل المدينة بدأت مظاهر الاعتراض والنقد من جانبهم ، وكان الاعتراض آتياً من قبيل أبناء كبار الصحابة خاصة ، كالحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر^(١) وعبد الله بن الزبير . ولكن معاوية لم يراجع عما أراد ، فكتب إلى عماله أن يوفدوا الوفود من ذوى النباهة من جميع الأمصار إلى دمشق ، وخطب فيهم مُعظماً أمر الإسلام ومتكلماً بوجه عام في حرمة الخلافة وحقوقها وفيما يجب على الرعية من طاعة أولى الأمر ، ثم ذكر فضل يزيد وصفاته وعلمته بالسياسة وهرض بيعته . وكان معاوية قد أوعز من قبل إلى رجل منهم لكي يتكلم بعده ويدهوه إلى بيعة يزيد ويحثه عليها : فقام الضحّاك بن قيس الفهري وغيره ، فتكلموا وخلصوا إلى الغاية التي هرض بها معاوية دون أن يصرح بها ، وطالبوا بأخذ البيعة ليزيد ، ولم يتكلم منهم إلا الأحنف ابن قيس ، فتكلم مُعبراً عن ارتيازه^(٢) : ولكن الذهب حى ما كان لكلامه .

(١) [لما أبلغ مروان بن الحكم كبار أهل المدينة عن معاوية أنه اختار فلم يأل وأنه حزم على استخلاف يزيد بعده ، قال عبد الرحمن بن أبي بكر : كذبت واقه يا مروان ، وكذب معاوية] ما الخيار أردتما لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل - المترجم] .

(٢) [تكلم من تكلم منهم في وجوب صون وحدة الأمة من الفرقة وسفك الدماء وفي صفات يزيد ، غير الأحنف بن قيس فإنه لما سأله معاوية : ما تقول ؟ أجاب : تخافكم إن ...

من أثر . وتلقى يزيد بيعة الوفود ، ولم تبق إلا بيعة أهل الحجاز : فركب معاوية بنفسه إلى هناك في ألف فارس ، فلما وصل إلى المدينة خرج التفرُّ الممتنعون الذين كان يهْمُهُ أن يأخذ البيعة منهم خاصة ، فيمن خرج للقائه ، فاستقبلهم بكلام شديد جارح ، فخرجوا إلى مكة : فسار وراءهم ، فلما خرجوا للقائه بمكة كلمهم كلاماً ليناً رقيقاً وأكرمهم ووصل كلًّا منهم بصلات . ولكنه لم يستطع أن يبلغ ما أراد إلا آخر الأمر عندما قُرب مسيرُه إلى الشام . وقد حاول أن يبين لهم أنه لا يضيرهم كثيراً أن يكون يزيد خليفة من حيث الاسم ، وأن يكونوا هم الذين يتمتعون بالحكم من حيث الحقيقة والواقع : فسكنوا طويلاً ، وتكلم ابن الزبير آخر الأمر ورفض باسمهم جميعاً ما يريده معاوية منهم^(١) . عند ذلك قال معاوية : « إني قد أحبتُ أن أقدم إليكم ، إنه قد أعذر من أئدر ، إني كنت أخطبُ منكم ، فيقومُ إلى القائم منكم ، فيكذبني على رؤوس الناس ، فأحلُّ ذلك وأصفح ، وإني قائمٌ بمقاله ، فأقسم بالله لئن ردَّ عليَّ أحدٌ كلمةً في مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمةٌ غيرُها حتى يسبقها السيفُ إلى رأسه فلا يبقين رجلٌ إلا على نفسه » ، ثم دعا صاحبَ حرسه بحضرتهم ، فقال : « أقمُ على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيفٌ ، فإن ذهب رجلٌ منهم يردُّ عليَّ كلمةً بتصاديق أو تكذيب فليخبر به بسيفهما » . ثم خرج ، وخرجوا معه حتى رقى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن هؤلاء الرهط ، سادة المسلمين وخيارهم ولا يُبَيِّنُ أمرٌ دونهم ولا يُقَضِّى إلا عن مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وباعوا ليزيد ، فباعوا على اسم الله ، فباع الناس عند ذلك ، وكانوا يتربصون بيعة أولئك التفرُّ . وسكت الأربعة الكبار خوفاً على أنفسهم

— صدقنا ونخاف الله إن كذبنا ١ وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسره وعلايته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله تعالى ولأمة رضى ، فلا تشاور فيه ، وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، وإنما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا — المترجم [.

(١) انظر مايل ص ١٤٠ - ١٤١ هامش .

من القتل ، وأقروا معاوية على كذبه ؛ فخرج معاوية إلى المدينة وأخذ فيها أيضاً البيعة ليزيد ؛

هذه رواية مصنوعة صنعاً ماهرأ ؛ أما ما يروى من أن المغيرة كان أول من بعث فكرة مبايعة يزيد ، وأن عبيد بن كعب الغفيري أشار على زياد بأن لا يعارض معاوية ، فإن المدائني يحكيه لنا أيضاً ، وحكايته موجودة عند الطبري (ج ٢ ص ١٧٣ فما بعدها) في حوادث السنة التي يذكرها ابن الأثير . أما فيما يتعلق باجتماع وفود الأمصار عند معاوية لمبايعة يزيد فلا نجد عند الطبري من ذلك شيئاً ، وهو لا يذكر (ج ٢ ص ١٩٦) إلا مجيء وفد من البصرة على رأسه عبيد الله بن زياد ، وأن معاوية أخذ من الوفد البيعة لابنه يزيد ، ولكن الطبري يذكر ذلك في حوادث سنة ٦٠ هـ ، وهي السنة التي مات فيها معاوية . ويظهر أن حكاية مجيء هذا الوفد البصري صارت فيما بعد حكاية أهم ، فأصبحت تذكر بالنسبة لوفود أخرى ، وقد تم تأريخها . ونجد ما يدل على مرحلة الانتقال إلى هذا التعميم عند المسعودي (١) . أما الحوادث الجوهرية الطريف التي تصل فيه رواية ابن الأثير إلى ذروتها ، أعني ظهور معاوية بنفسه بهذا المنظر العنيف في الحجاز ، فهو مجهول تماماً في الروايات القديمة (٢) (ولا يعرفه المسعودي أيضاً) : ولا نجد عند الطبري (ج ٢ ص ١٧٥ نقلاً عن المدائني) أكثر من أن معاوية بعد وفاة زياد دعا بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد ، إن حدث به حدث الموت ، فيزيد ولي العهد ، فاستوثق له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر (٣) ؛

(١) جزء ٥ ص ٦٩ ، ويذكر أن ذلك كان في سنة ٥٩ هـ . ويجب تصحيح كلمة : الأنصار ، في كلام المسعودي ، جعلها : الأمصار .

(٢) [على أنه عند الطبري (ج ٢ ص ١٧٥ - ١٧٧) رواية مؤجلة تدل بلا شك على أن معاوية قدم الحجاز وتكلم مع النفر الممتنعين من بيعة يزيد ، مع كل منهم على حدة ، في البيعة ليزيد . وهذه الرواية تصور دهاء معاوية ، لأنه أنهم كلا منهم أنه معارض وأنه يتزعم الآخرين وحصل منه على الوعد بالبيعة إن هم بايعوا - المترجم] .

(٣) الخامس ابن عباس ؛ وكان لا بد من أخذ البيعة منه . والمدائني من الموالين المخلصين لبنى هاشم .

ولا يُذكر مكان قراءة هذا الكتاب ، ولا يذكر زمانه ، لأن عبارة : بعد وفاة زياد ، لا تدل إلا على مجيء حادث بعد حادث ، والغالب أن ذلك حدث في دمشق . وعند الطبري (ج ٢ ص ١٩٦) ، إلى جانب ما تقدم ، أن معاوية في سنة ٦٠ هـ أخذبيعة وفد البصرة ليزيد^(١) ، وعهد إليه بما يجب عليه أن يصنع بالفرشيين الأربعة الذين امتنعوا عن البيعة^(٢) : ويحكي حوالة أن معاوية أوصى بما عهد به ، وكان يزيد غالباً ، إلى الضحاك بن قيس الفهري ومسلم بن عقبة المرسي . فاستطيع على هذا أن نفترض أن معاوية حفظ خطبته زماناً طويلاً في نفسه ، وحاول في أواخر حياته تنفيذها : ولكن ذلك لم يُجند نفعاً عند الأشخاص الذين كان الحصول على موافقتهم وبيعهم أهم ما في الأمر ، ذلك لأنهم ، بحسب

- (١) [قدم هذا الوفد مع عبيد الله بن زياد كما تقدم - المترجم] .
 (٢) [قال معاوية في وصيته لابنه : « يا بني إني قد كلفتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأشياء ، وذلت لك الأعداء ، وأخضمت لك أعتاق العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد . وإني لا أخوف أن ينازلك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قرشي : الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر . فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وثقته العباد ، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يذموه حتى يخرجوه ، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رجلاً مائة وحقاً عظيماً . وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليس له همة إلا في النساء والله . وأما الذي يحتم لك جهوم الأسد ويروغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً » (الطبري ج ٢ ص ١٩٦ - ١٩٧) . ونجد عند الطبري وصية معاوية لابنه في صورة أخرى نقلها عن حوالة (ج ٢ ص ١٩٧ - ١٩٨) . وفيها يوصيه بإكرام أهل الحجاز وبلاستجابة لأهل العراق كلها طلبوا عزل وال ، ولو طلبوا ذلك كل يوم ، ففادها للثورة من جانبهم ، وبأن يتخذ أهل الشام بطانة وحدة لنفسه ، لينتصر بهم ، وبأن يرجعهم إلى الشام إذا انتصر على عدوه لكيلا يأخذوا بفسير أغلاقتهم . ثم يبرح معاوية عن خوفة من قرشين ثلاثة : الحسين بن علي وهو رجل خفيف يرجو معاوية أن يكفيه الله يزيد بمن قتل أباه وخلل أخاه ، يعني أهل العراق ، ويوصي معاوية ولده بمراعاة حقه ووجه الصفيح عنه ؛ وعبد الله بن عمر ، وهو رجل قد وقده الدين ، فليس ملتصقاً شيئاً ؛ وعبد الله بن الزبير ، وهو غيب ضب ، لا يد من التردد له ، إلا أن يلتصق صلحاً . ويوصي معاوية ولده أن يقبل منه الصباح ، وأن يحقن دماء أهل الشام ما استطاع - المترجم] .

الإسلام، كانوا أحن بالخلافة من يزيد . أما ما عدا ذلك فليس بمقبول قط (١) ، ولا بيد وأنه مما يتفق مع شيمة معاوية ، وهو السيد الحليم ذوالسنن ، أن يذهب إلى الحجاز في فترة يسود فيها السلام ، على رأس ألف فارس لكي يعامل القرشيين الأربعة تلك المعاملة الفظة ، ثم يذلهم ويتودد إليهم ، ثم يأخذهم بالعنف آخر الأمر (٢) ، ولا يصل بعد ذلك كله إلى شيء في الحقيقة : لأنهم هم أنفسهم — وكانوا أهم من كل من عداهم — رفضوابيعة يزيد رفضاً باتاً . أما القول بأنه دخل مكة على رأس قوة مسلحة ، وفي مكة لا في المدينة أخذ البيعة ، فهو قول أبعد ما يكون عن الإمكان . والكلمات والمناظر المسرحية التي قد زُيّنت بها القصة لا تجعلها أقرب إلى التصديق . ويبدو أن كل الرواية التي تقدم ذكرها لا تعدو أن تكون ظلاً قد أرسل مقدماً للجواري التي وقعت في أول خلافة يزيد ، وسننتقل إلى الكلام عنها :

(١) [راجع ما تقدم ذكره من أن الطبري يحكي ما يدل على ذهاب معاوية إلى الحجاز وكلامه مع النفر الممنعين .. والشاك جاز في مظهر العنف الذي يحكي ابن الأثير أنه ظهر به معاوية في الحجاز . والذي يحصل مما عند الطبري وما عند ابن الأثير : هو أن معاوية قدم إلى الحجاز ، وأنه تكلم مع النفر الممنعين ، لكن ابن الأثير ينفرد بحكاية القتل العنيف — المترجم] .

(٢) [يذكر ابن الأثير أن معاوية لما دنا من المدينة لقيه الحسين بن علي أول الناس ، فلما نظر إليه قال : لا مرحباً ولا أهلاً ، بدنة يترقرق دنها ، والله مهريقه ، فقال الحسين : مهلاء ، فإني والله لست بأهل لهذه المقالة ، فقال معاوية : بل ولغير منها . ولقيه ابن الزبير . فقال : لا مرحباً ولا أهلاً ، عجب عجب ، يدخل رأسه ويضرب بدنه ، وبذلك والله أن يؤخذ بذنبه .. ثم لقيه عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقال له معاوية : أهلاً ولا مرحباً ، شيع قد خرف وذهب عقله . ثم فعل ما بن عمر مثل ذلك . فأقبلوا معه ، لا يلتفت إليهم ، حتى دخل المدينة ، فحضرها بابها ، فلم يؤذن لهم ، على منازلهم ، ولم يروا منه ما يحبون ، فخرجوا إلى مكة وأناموا بها ... ثم خرج معاوية إلى مكة ، فلقه الناس ، فقال أولئك : نلتقاء ، فلعلة قد قدم حل ما كان منه ... فكان أول من لقيه الحسين ، فقال له معاوية : مرحباً وأهلاً يا ابن رسول الله وسيد شباب المسلمين ، وأمر له بدابة فركب وسأيره ، وفعل معاوية مثل ذلك بالباقيين ، وأقبل يصايرهم ، لا يسير معه فيهم ، حتى دخل مكة ، فكانوا أول داغل وآخر خارج ، ولا يغشى يوم إلا ولهم صلة ... حتى قضى معاوية نسكه وحل أنقاله ، وقرب مسيره ، فقال بعض أولئك النفر لبعض : لا تخدعوا ، فما صنع بكم هذا طبعكم . وما صنعه إلا لما يريد ، فأعيدوا له —

يحكي أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٢١٦) لما بعدها أن يزيد بعد أن تولّى الخلافة هلال رجب سنة ٦٠ هـ كتب إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة ، يخبره بموت أبيه ، وأمره في هذا الكتاب (١) ، الذي كان صغيراً حتى كأنه أذن فأرة ، بأن يأخذ الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن الزبير - ولا يذكر في خطاب يزيد إلا هؤلاء الثلاثة - بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة ، حتى يبايعوا . فاستشار الوليد مروان بن الحكم ، رغم أن ما بينهما كان متباعداً ، فأشار مروان بالمبادرة إلى دعوة النفر الممتنعين ، خصوصاً الحسين وابن الزبير ، إلى البيعة والدخول في الطاعة ، فإن فعلوا قبل ذلك منهم ، وإن أبوا فعدّوا ففُضِرَتْ أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ، فإنهم إن علموا به من غير مبايعة وثب كل مرئ منهم في جانب وأظهر الخلاف والمنازلة ودها إلى نفسه . أما عبد الله بن عمر فلم يعتبره مروان مصدر خطر ، ورأى أنه يظن أنه لا يميل إلى القتال ، وهو لا يحب أن يتولى على الناس إلا أن

جواباً ، واتفقوا على أن يكون الخطاب له ابن الزبير ، فأحضرهم معاوية وقال : « قد علمتم سيرة فيكم ، ووصلت لأرحامكم ، وحل ما كان بينكم . ويزيد أخوكم وابن حكم ، وأردت أن تقدموه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تملكون وتؤمرون وتجهون المال وتقسموه ، لا يمارحكم في شيء من ذلك » فسكتوا ، فقال : « ألا تجهون ؟ » مرتين ، ثم أقبل حل ابن الزبير فقال له : « هات ! لعمري إنك خطبهم ، فقال ابن الزبير : « تخبرك بين ثلاث خصال ... تصنع كما صنع رسول الله صلعم ، أو كما صنع أبو بكر ، أو كما صنع عمر » قال معاوية : « ما صنعوا ؟ » قال : قبض رسول الله صلعم ولم يستخلف أحداً ، فأرضى الناس أبا بكر . قال معاوية : « ليس فيكم مثل أبي بكر ، وأخاف الاختلاف » ، قالوا : « صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر ، فإنه عهد إلى رجل من قاصية فريش ، ليس من بني أبيه ، فاستخلفه ، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الأمر شورى في ستة نفر ، ليس منهم أحد من ولده ولا من بني أبيه » ، قال معاوية : « هل عندك غير هذا ؟ » قال : لا ، ثم قال ، فأنتم ؟ قالوا : قولنا قوله ، قال : فإن قد أسيت ... الخ كما في ص ١٢٧ مما تقدم - المترجم] .

(١) [يدخل من الطبري : ج ٢ ص ٢١٦ ، أن يزيد كتب عدا الكتاب الذي فيه نعي أبيه للوليد ، صحيفة أخرى خاصة بأخذ البيعة من الثلاثة القرشيين - المترجم] .

يُدْفَعُ إليه هذا الأمر حفوا^(١) : ولكن الوليد كان رجلاً يحب العافية ، فأرسل الوليد يدعو الحسين وابن الزبير في ساعة لم يجلس فيها للناس ، فصرفا رسوله ، وتكلما فاستنتجا أن معاوية قد مات ، وأن الوليد يدعوهما للبيعة قبل أن يفشو في الناس خبر موت الطاغية . ثم ذهب الحسين إلى الوليد فأقرأه الوليد كتاب يزيد ودعاه إلى البيعة ، فقال الحسين : إن مثله لا يعطى بيعته سراً ، بل على رؤوس الناس علانية ، واقترح على الوليد أن يخرج ويدعو الناس إلى البيعة ويدعوه إليها معهم ، فرضى الوليد بذلك . وأراد مروان أن يقنع الوليد بحبس الحسين حتى يبايع أو يضرب عنقه ، فأبى الوليد ذلك واستقبحه . أما ابن الزبير فإنه لما بعث إليه الوليد جعل يتلأأ ، حتى خرج من المدينة ليلاً ، فبعث الوليد إلى الحسين ، فاستمهل الرسل حتى الصباح ، ثم خرج من المدينة في الليل ، بعد ابن الزبير ليلة ، وذهبا إلى مكة في آخر رجب سنة ٦٠ هـ (أول مايو سنة ٦٨٠ م) . على أن الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٢٢٢) لما بعدها (يحكى أن ابن عمر لم يكن في المدينة لما ورد نعى معاوية ، وأنه لما عاد إليها انتظر حتى جاءت البيعة من البلدان ، فقدم إلى الوليد وبايعه ، وكذلك فعل ابن عباس ، وكان الرأي هو أن تجتمع كلمة الأمة اجتماعاً حقيقياً .

وطبيعي أنه لم يلبث أن عزل الوليد بن عتبة عن المدينة ، فحل محله أموى آخر ، هو عمرو بن سعيد بن العاص ، وكان حتى ذلك الحين لا يزال بمكة ، ويحكى

(١) [كان معاوية صادق النظر في ابن عمر عند ما قال إنه رجل قد وثقته العمادة ، فليس ملتصقاً شيئاً . وفي الطبري (ج ٢ ص ٢٢٣) أنه لق الحسين وابن الزبير ، وهما في طريقهما إلى مكة ، فسأطما : ما وراءكما ؟ فقالا : موت معاوية والبيعة ليزيد ، فقال لهما : اتقيا الله ولا تفرقا كلمة المسلمين . وجاء في كتاب الأغاني (ج ١ ص ١٢) أن ابن الزبير وسط صفة زوجة ابن عمر لدى زوجها لكن يبايع ابن الزبير فقال ابن عمر لزوجته لما أكثرت الكلام في ابن الزبير وأنه إنما انشأ على بني أمية فضبا لله ورسوله والمهاجرين : أما رأيت بفلات معاوية الشهب التي كان يحجج عليهن فإن ابن الزبير ما يريد غيرهن . وكان ابن عمر حريصاً على جمع كلمة الأمة ومستعداً لمبايعة يزيد إذا بايعه الناس - الطبري ج ٢ ص ٢٢٢ - المترجم] .

الواقدي أن ذلك وقع في رمضان سنة ٦٠ هـ ، ويروى آخرون غير الواقدي أنه وقع في ذي القعدة (الطبري ج ٢ ص ٢٢٦) :

ورضى الحسين أن يستخرجه أهل الكوفة من مأمنه في مكة^(١) ، وذلك أنهم التحّوا عليه بالكتب والرسل في أن يقدم إليهم ويتقبل بيعتهم ، ووصل إليه أول رسلهم بكتاب منهم في العاشر من رمضان سنة ٦٠ هـ . فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل قبل أن يذهب هو ، وذلك لكي يرى صدق ما كتبوا به له ولكن يمهّد له الأمر . ولم يلبث حين وصل أن دبّ إليه أهل الكوفة وبايعه منهم عدد كبير (اثنا عشر ألفاً) ، ولكنه لما وجد نفسه ، قبل أن يستحكم له الأمر ، مضطراً إلى قتال عبيد الله بن زياد - وكان يزيد قد عينه والياً جديداً على الكوفة مكان النعمان بن بشير الذي عزل ، لأنه كان حليماً ناسكاً يحب العافية ويكره العنف - نادى بشعاره ، فاجتمع له من أهل الكوفة أربعة آلاف ، وقصد القصر الذي فيه عبيد الله بن زياد ، وكان عبيد الله قد جمع وجوه أهل الكوفة عنده ، فلما وصل مسلم إلى القصر ، ومعه أنصاره من أهل الكوفة ، أشرف وجوه أهل الكوفة على عشائهم وجعلوا يكتفونهم ويصرفونهم عن مسلم . فأخذ أصحابه يتسكّلون من حوله ، حتى أمسى ومعه خمسمائة ، فلما اختلط الظلام ذهبوا أيضاً ، وبقي وحده . يتردّد في الطرق : ثم آوته امرأة كان ابنها مولى محمد بن الأشعث ، فعرف أمره ، وانطلق إلى ابن الأشعث ، فأخبره بأمر مسلم ، وبعث عبيد الله صاحب شرطته ومعه رجاله ، فأحاطوا بالدار ، فخرج إليهم مسلم وقتلهم قتال الأبطال وردّهم مرتين ، وهو يقول :

(١) [راجع فيما يتعلق بهذا وبما يلي من مقتل الحسين الطبري ، (ج ٢ ص ٢٢٧) فما بعدها إلى ص ٣٩٠] ، ومروج الذهب للمسعودي (ج ٢ ص ٨٦) فما بعدها من طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ - المترجم] .

أقسم لا أقتل إلا حُرّاً (١) وإن رأيتُ الموت شيئاً مُرّاً
كلُّ امرئٍ يوماً ملاقٍ شراً أخاف أنْ اكْذَبَ أو اغْتَرَا

وبارزه من المحيطين بالدار بكبير بن حمران ، فخرج كل منهما صاحبه :
ثم أُعطيَ له الأمانُ ، وأُعيدَ إلى عبيد الله مُجَرِّداً من سلاحه ، فأسلمه
لكبير بن حمران ، فلبّحه فوق القصر ورمى رأسه إلى الأرض وألقها بيمينه .
وفعل عبيد الله مثل ذلك بعروة بن هاني المرادي الذي كان أراد نُصْرَةَ
مسلم : وأرسل عبيد الله بن زياد رأس مسلم إلى دمشق ، وصُلِبَتْ جثته
في الكوفة ، فكان أول رأسٍ أُرسِلَ إلى الشام وأولَ جثةٍ صُلِبَت من
بنِي هاشم : وهكذا انتهى أمره نهاية محزنة في ٨ أو ٩ من ذى الحجة ،
وفي نفس الوقت ، في الثامن من ذى الحجة ، خرج الحسين بن علي من مكة
مع أهله وولده ، رغم نصيحة أخيه وأهله له ألاَّ يُغَرَّرَ بنفسه ثقةً بأهل
الكوفة الذين خانوا أباه وأخاه من قبل . وكان قد شجّعه ما كتب به إليه
مسلم في الشطر الأول من مهمته ، يخبره ببينة اثني عشر ألفاً ، ويطلب إليه
القدوم إلى الكوفة : ولقد علم الحسين ، وهو في طريقه ، بالنهاية العسيرة التي
انتهى إليها مسلم ، ولكنه رغم ذلك لم يستطع ، أو هو لم يرد أن يرجع ،
[فقتل وهو يُقاتل جنود الكوفة في كربلاء على نهر الفرات في اليوم العاشر
من المحرم سنة ٦١ هـ (١٠ أكتوبر سنة ٦٨٠ م) . وهكذا انتهت خطوة
الثورة انتهاءً مؤلماً . ولكن استشهاد الحسين كان له شأنٌ معنوي كبير ، وكان
له تأثير عظيم عند الشيعة (١) .

أما ابن الزبير فقد أثبت أنه أخطر من الحسين بكثير . وقد قرئ عنه بخروج
الحسين من مكة ، لأنه تخلص بذلك من منافسٍ أعظم منه في أعين الناس (٢) :

(١) راجع ما كتبنا عن الشيعة Schia § 2 p. 60-71 .

(٢) [راجع مثلاً الطبري ج ٢ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ - المترجم] .

وقد أشفق يزيد من أن يسجد في قتال ابن الزبير ، لأنه كان عائداً بمكة ،
وهي المدينة الحرام التي لا يصح فيها القتال وسفك الدم ، على أن الروايات ،
فيما يتعلق بمسلك يزيد لإزاء ابن الزبير ، ناقصة مضطربة .

ويحكى أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٣٩٥) في أخبار سنة ٦١ هـ
(وهي تبدأ في أول أكتوبر سنة ٦٨٠ م) ، وهي السنة التي كان فيها هرو
ابن سعيد والياً على المدينة (١) ، ما يأتي :

استغل ابن الزبير مقتل الحسين للتشجيع على أهل الكوفة وعلى حكومة
بنى أمية وللتعريض بيزيد . وكان يبايع الناس سرّاً ، فطالبه أصحابه أن يظهر
بالبيعة ، خصوصاً بعد مقتل الحسين وعدم وجود منازع ، فلم يرض بذلك
إلا سرّاً ، أما علانية فكان يظهر أنه حائدٌ بالبيت . ولما سمع يزيد بما يصنعه
ابن الزبير في مكة أعطى الله عهداً ليوثقته في جماعة (سلسلة) ، ولكنه
فكر كيف يبرّ بقسمه ، فأرسل إلى ابن الزبير سلسلة من فضة يضعها حول
عنقه . فلما مر بها البريد على مروان بن الحكم في المدينة ممثلاً مروان ببيت
من الشعر لكي يصور قبول السلسلة دليلاً على الضعف . وعلم ابن الزبير
بذلك ، فرد البريد ورفض السلسلة . وعلا أمره في مكة ، وكاتبه أهل
المدينة ، وقال الناس إنه بعد مقتل الحسين ليس لأحد أن ينزع ابن الزبير ،
فهو الأحق بالخلافة .

وفي رواية ترجع إلى الزهري (الطبري ج ٢ ص ٣٩٧) أن أربعة

(١) لا يمكن أن تهب رواية أبي مخنف (الطبري ج ٢ ص ٢٨٠ س ٨ و ص ٢٩٧
س ٢) ، وهو الحملة وفيما يتعلق بتحديد التواريخ ليس بالقوى ، مخالفة للتواريخ المجددة التي
يذكرها الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٢٢٣) في بعدها (ص ٣٩٩) . وأبو معشر (الطبري
ج ٢ ص ٣٩٥) وكاترمير (Quatremère) على صواب ، خلافاً لما يقوله فايل (Weil 1,326)
على أنه من الجائز أن يكون هرو بن سعيد لم يأت بعد الوليد بن عتبة مباشرة (الدينوري
ص ٢٤٣ س ٢ و ٣) .

رُسِّلَ ، منهم عبد الله بن عضاة الأشعري وعبد الله بن مسعدة ، حملوا تلك
« الجامعة » المكونة من قطع من الورق (العملة الفضية) . فأرسل مروان
ابن الحكم ولديه عبد الملك وعبد العزيز مع الرسل من مكة إلى المدينة ،
وأمرهما ، إذا وصلت إلى ابن الزبير رُسِّلَ يزيد ، أن يتعرضا لابن الزبير
ويتمثل أحدهما أمامه بأبيات من الشعر تدل على أن قبوله للسلسلة علامة على
الدُّل ، وهي :

فَسُخِّدْهَا ، فَلَيْسَ لِلْعَزِيزِ بِخُطَّةٍ وفيها مقال لامرئٍ مثدللٍ
أعامرُ إن القومَ ساموكَ خُطَّةً ومالك في الخبر أن عدلٌ مُعدَّلٌ
أراك إذا ما كنت للقوم ناصحاً يُقالُ له بالدلو : أدبرْ وأقبلْ
ففعلا ، وفهم ابن الزبير مغزى الأبيات ، فقال للغلامين : أخبرا أباكم :
إلى لمن نَبَّهْتُمْ صُمُّ مَكاسِرُهَا إذا تناوحت القصباءُ والعشرُ
فلا ألينَ لغيرِ الحقِّ أسأله حتى يلينَ لغيرِ من الماضِجِ الحَجَرُ (١)

ويذكر وهب بن جرير أيضاً في رواية له في كتاب الأغاني (ج ١ ص ١٢)
هذين الرسولين اللذين تقدم ذكرهما : ويستطيع الإنسان أن يخلص من هذه
الرواية إلى أن الكلام فيها عن الحادث نفسه ، وإن كان يُحكى على نحو آخر .
مختلف كل الاختلاف ، وإن كانت السلسلة الفضية خاصة لا يرد لها ذكر قط .
فيقول ابن جرير إن يزيد أرسل النعمان بن بشير الأنصاري في عشرة نفر - وهو
يذكر أسماءهم (٢) - إلى ابن الزبير . فأخذ النعمان يُكثِّر من الخلوة بابن الزبير
والحديث معه ، فاغتاظ عبد الله بن عضاة من هذه الخلوة بين الأنصاري والمهاجر (٣) .

(١) [اضطررنا أن نوسع الترجمة هنا وأن نذكر الأبيات تحقيقاً لغائدة القارئ العربي
- راجع الطبري ج ٢ ص ٢٢٦ ، ٣٩٨ .
(٢) اقرأ في الأغاني (ص ١٢ ص ٥) : الجذائ بدلا من : الجزائ ، والسكوني بدلا
من : الساول .
(٣) كان ابن عضاة والرسل الآخرون عرباً عاديين من قبائل البدو ، أما الأنصار
والمهاجرة ، وهم أهل المدينة ومن هاجر من مكة إليها ، فكانوا هم طبقة الأشراف بين المسلمين .

وقال لابن الزبير يوماً إن هذا الأنصارى ما أمر بشيء إلا وقد أمرنا بمثله ،
إلا أنه قد أمر علينا ، وإنى والله ما أدري ما بين المهاجرين والأنصار !
فأجاب ابن الزبير : « يا ابن حضاة ! ما لك ! إنما أنا بمنزلة حمامة من
حام مكة ، أفكنت قائلاً حمامة من حمام مكة ؟ » قال : « نعم ! وما حرمة
حام مكة ! يا غلام ! ليتنى بقوسى وأسهمى . . . » ، فأخذ سهماً ،
فوضعه فى كبِد القوس ، ثم سدَّده نحو حمامة من حمام المسجد ، وقال :
« يا حمامة ! أيشربُ يزيد بن معاوية الخمر ؟ » قولى : نعم ! فوالله إن قلنتِ
لأرْمِيَنَّكَ يا حمامة ! أتخطِمين يزيد بن معاوية وتفارقين أمة محمد صلى الله
عليه وسلم وتقيمين فى الحرم حتى يُسْتَحِلَّ بك ! والله لئن فعلتِ لأرْمِيَنَّكَ ! »
فقال ابن الزبير : « ويحك ! أتتكلم الطائر ؟ » قال : « لا ! ولكنك
يا ابن الزبير تتكلم ! أقسم بالله لتبايعن طائعا أو مكرها أو لتعرفن راية
الأشعرين فى هذه البطحاء ، ثم لا أعظم من حقها ما تعظم ! » ،
فقال ابن الزبير : « أو يُسْتَحِلُّ الحرم ؟ » قال : « إنما يُحِلُّه من الحِلَّة
فيه ! » . ولم تخل قصة الحمامة من تأثير على المؤرخين المحدثين ، ولكنها
مجرد قصة مُزَيَّفة ، والفكرة التى فيها تتردد فى صورة أخرى عند
الطبرى (ج ٢ ص ٤٣٠) (١) . هذا إلى أن الأسماء الكثيرة التى تُتَدَكَّرُ
فيها لا تقدم أى ضمان : واسم رئيس الوفد ، بوجه خاص ، يبدو أنه
خطأ . ومن العسير أن يكون النعمان بن بشير قد أرسل من قبيل الخليفة
إلى مكة قبل ذلك بعام فى نفس المهمة التى كان عليه أن يؤديها فى المدينة

(١) بينما كان الحصين بن نمير ، فى جند الشام ، يحاصر ابن الزبير وأصحابه بمكة ،
مات يزيد . وعلم ابن الزبير بموته قبل أن يعلم الحصين ، فصاح ابن الزبير بجند الشام : إن
طاغيحكم قد قتل ، فن شاء منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فليفلح ، ومن كره فليلق
بشامه ! ففدوا عليه يقاتلونه ، فقال ابن الزبير للحصين : أذن مني أسدلك ! فدنا منه ، فدعته ،
فجعل فرس أسدها يحفل ، والجفل الروث ، فجاء حمام الحرم يلتقط من الجفل ، فكف الحصين
فرسه هنن ، فقال له ابن الزبير : مالك ؟ قال : أخاف أن يقتل فرسى حمام الحرم ، فقال
له ابن الزبير : أنتصرج من هذا ، وقرىء أن تقتل المسلمين ! ؟ فقال له الحصين : لا أقاتلك ،
فأذن لنا نطف بالبيت ، ونصرف منك ؟ ففعل ، وانصرفوا .

بعد ذلك بعام . وإذا كان للمؤرخ أن يختار فإن ما يرويه أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٤٠٤) أجدر بالقبول ، وهو أن يزيد أرسل النعمان بن بشير إلى الناس وإلى قومه في المدينة لكي يفتنهم عن النهوض إلى الفتنة ويدعوهم إلى المحافظة على وحدة الجماعة .

ولتكمل سلسلة الروايات بما رواه الواقدي ، وهو موجود عند الطبرى (ج ٢ ص ٢٢٣) فما بعدها) في أخبار حوادث سنة ٦٠ هـ ، وإن كان ابن الزبير لم يظهر إلا بعد وفاة الحسين في أوائل سنة ٦١ هـ : كانت الرسل تجرى بين يزيد وابن الزبير في أمر البيعة ، حتى إذا فرغ صبر يزيد حلف ألا يقبل البيعة من ابن الزبير ، حتى يأتى به في جامعة (سلسلة) في حنقه ، فخرج ابن الزبير أمير مكة من قبل يزيد أن يؤم الناس ، فأمر يزيد عمرو بن سعيد أمير المدينة ، أن يوجه إلى ابن الزبير جيشاً ، فسأل عمرو بن سعيد عمرو بن الزبير ، وكان صاحب الشرطة في المدينة : من رجل نوجهه إلى أخيك ؟ فطلب أن يكون هو ذلك الرجل ، لما كان بينه وبين أخيه من بغضاء . فبعد أن سار عمرو بجيش مخفلف بعض الاختلاط - خرج فيه حرب وموال لأهل المدينة - عسكر أمام مكة ، وأرسل إلى أخيه عبد الله بن الزبير أن يبرئ يمين الخليفة ، وأن يجعل في حنقه جماعة من فضة أو ذهب يلبس عليها برؤساً حتى لا ترى ، وأن يشخص أمام الخليفة ، ليؤدى له البيعة . فلم يستجب عبد الله بن الزبير إلى ذلك ، بل أمر بمهاجمة مقدمة جيش عمرو مهاجمة مفاجئة ، ثم قبض على أخيه عمرو ، وحبسه في سجن حارم وضربه ليقتص منه لكل من كان قد ضربهم من أهل المدينة . وهو على شرطتها ، وجعل نهايته نهاية محزنة ، حتى مات تحت السياط . ويؤيد صاحب الأغاني (ج ١٣ ص ٣٩) فما بعدها) والأبيات التي يذكرها ، حكاية الحملة العسة التي قادها عمرو بن الزبير ، فهي واقعة تاريخية من غير شك . فأما لإرسال السلسلة الفضية فإنه لا يبدو عنصراً منسجماً مع ما في الرواية ، وحكاية إرسالها موضوعية في جملة القصة وضعاً لا يعدو أن يكون مصطنعاً ، وهي ترجع بالأحرى

إلى محاولات المفاوضة السلمية التي وقعت قبل اللجوء إلى الوسائل العنيفة . وفي هذا الباب لا يكون الحق في جانب الواقدي ، بل في جانب الرواة الآخرين ، وعزل عمرو بن سعيد عن ولاية المدينة في أواخر سنة ٦١ هـ ، على أثر دميصة من الأمويين أنفسهم (١) ، لأنهم كتبوا إلى يزيد يتهمون به بالترابي مع ابن الزبير ، وأنه لو شاء لأخذه وبعث به إليه في دمشق . فسار عمرو إلى دمشق ودافع عن نفسه أمام الخليفة ، وشرح له الظروف التي دعت به إلى مداواة ابن الزبير ، ثم حلّ محلّه الوليد بن عتبة الذي كان والياً على المدينة قبله ، والروايات متفقة على أنه حجج بالناس سنة ٦١ هـ ، وظلّ والياً في أثناء سنة ٦٢ هـ ، في أثناء الشطر الأكبر من هذه السنة على الأقل ويحكى أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٤٠٢) أن ابن الزبير عمل بالمكر في أمر الوليد بن عتبة ، وذلك بأن كتب إلى يزيد بن معاوية « إنك بعثت رجلاً أخرق ، لا يتجبه لأمر رشيد ، ولا يرهوى لعظة حكيم ، ولو بعثت إلينا رجلاً سهل الخلق لين الكنف رجوت أن يسهل من الأمور ما استوهر ويتجشيع ما تفرق ، فانظر في ذلك فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله ! والسلام » فعزل يزيد الوليد بن عتبة ، وبعث مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، وكان فقي غيراً حداثاً غمراً ، لم يجرب الأمور ، ولم يحسن كنه السن ، ولم تُضرسه التجارب ، وكان لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله ويؤخذ من الطبري (ج ٢ ص ٤٠٥) ، نقلاً عن أبي مخنف أيضاً فيما يظهر (الطبري ج ٢ ص ٤٠٦ فما بعدها) ، أنه لم يتولّ إلا بعد حجّ سنة ٦٢ هـ . ولكن يظهر (الطبري ج ٢ ص ٣٩٩ س ١٨) أن هذا موضع شك . ومهما يكن من شيء ، فإن هذا التغيير في ولاية المدينة وقع في آخر سنة ٦٢ أو في أول سنة ٦٣ هـ :

وسنة ٩٣ هـ (وهي تبدأ في ١٠ سبتمبر سنة ٦٨٢ م) مملوءة بأجل الأحداث :

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ - المترجم] .

خلافاً للسنتين السابقتين لها . فبحكى أبو مخنف^(١) أن الوالى الجديد أرسل من المدينة إلى يزيد وفدأ من أهل المدينة ، من أشراف الأنصار والمهاجرة على سواء ، وكانوا من ذوى الكلمة المسموعة عند الناس ، ولم تكن أهواء أهل المدينة مع ابن الزبير بصفة حاسمة ، ولكنها لم تكن مع بنى أمية على كل حال . وكان والى المدينة يأمل أن يستطيع يزيد ضمهم إلى جانبه بفضل ما للمال من قوة الإقناع . ولقد أكرمهم يزيد وأحسن جوائزهم^(٢) ، ولكنهم ، بعد أن انصرفوا من عنده وقدموا المدينة ، لم يستطيعوا أن يتأكدوا أنفسهم من حكاية أفطع الأمور عنه . فقالوا إنهم قلموا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ويعزف بالطناير ، وتضرب عنده اللقيان ، ويلعب بالكلاب^(٣) ، ويسامر الخراب والفتيان . على أنه من الخطأ في الفهم القول بأن الوفد كان يتألف من الأنصار ومن أصحاب النبی عليه السلام وحدهم . ويتكلم مولر (A. Müller, I, 367) عن الوفد ، متصوفاً إياه مجموعة "عجيبة من شيوخ طيبين سُدج" ، ولملك ذُعمروا من يزيد . ويكون مولر أفكاره الخاصة عنهم وعن الخليفة ، مع أن الخليفة كان يعلم بطبيعة الحال أحوال المدينة ، وهى أجل مدينة في الإسلام ، هلمأ كافياً ، وكانت له ، شأن جميع العرب ، معرفة كافية بالناس . ويذكر أبو مخنف محاولة أشيرة قام بها يزيد لكى يهدئ النفوس في المدينة ، فهو لم يرد أخذها بالعنف ، لأنه كان فيها من عشيرته من كان لا يجب له أن ينهض في الفتنة فهلك ، فأرسل النعمان بن بشير ، خبير رسول للسلام ، إلى هناك ، فكلّم أهل المدينة من قومه ومن غيرهم ، ودعاهم إلى الطاعة ولزوم

(١) [يجد القارئ قصة إرسال الوفد إلى يزيد عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٠٢ - ٤٠٣ - المترجم] . وتوجد إلى جانب ذلك رواية وهب بن جرير (الطبرى ج ٢ ص ٢٢٢) لا بعدها ، ولكن ذكر التاريخ غير دقيق على الإطلاق ، فهو يقول : بعد وفاة معاوية .
(٢) وعند الطبرى (ج ٢ ص ٤١٩) ما يدل على خلاف ذلك . قال بعضهم ، وهو راجع من عند يزيد : سرنا شهرأ ورجعنا من عند يزيد سفراً .
(٣) الأغاني ج ٢٠ ص ١٠٦ : بالقروء .

الجماعة ، وخوَّفَهم من قوة أهل الشام ومن الفتنة ، ولكنه كان كما
يخاطب آذاناً صماء^(١) .

وكان ابتداء ثورة أهل المدينة ، بحسب رواية الأغاني (ج ١ ص ١٣
تقلاً عن المدائني) منظرًا مسرحيًا في المسجد : كان ابن الزبير قد نادى
بخلع يزيد ، وماله أكثر الناس على ذلك ، فدخل رجال المدينة في المسجد ،
وقد ثارت نفوسهم فجأة : فقام عبد الله بن حنظلة وقال : خلعتُ يزيد ،
كما خلعت عمامتي ، ونزعها عن رأسي ، وقال : إني لأقول هذا ، وقد
وصلني وأحسنَ جائزتي ، ولكنه علو الله سكتي : وتبعه الناس يخلع كل
منهم عمامته أو نعله أو خفيه أو ثوبه ، علامة على التبرؤ والتخلع كما هي
العادة ، حتى حصل من ذلك كومٌ كبير : أما عند الطبري فلا نجد شيئاً
من هذا . ويذكر أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٤٠٥) ما بعدها من علامة
ابتداء الثورة أنه بعد أن عاد الوفد الذي كان قد ذهب إلى يزيد وقالوا فيه
ما قالوا ، أعلنوا : إنا نشهدكم أنا قد خلعناه ، فتابعهم الناس ، وتوا
عبد الله بن حنظلة فبايعوه وولّوه عليهم ليحارب يزيد ويحارب حكومة
بنى أمية : وكان ابن حنظلة عضواً في الوفد الذي توجه إلى دمشق ، وكان
من الأنصار ، وكان مشهوراً ، منذ ولادته ، بأنه ابن الشهيد الذي يُحكى
أن الملائكة غسلته يوم أحد ، وقد ولد حنظلة بعد استشهاده أبيه .
وكانت أول خطوات الثوار أنهم وثبوا على من في المدينة من الأمويين
ومواليهم ومن رأى رأيهم من قريش . وكان بنو أمية نحواً من ألف رجل ،
فخرجوا يجمعهم ونزلوا دار مروان بن الحكم ، أقدم رؤساء الأمويين
بأكبرهم وأشهرهم وأسنهم ، فحاصروهم الثوار ، فكتب مروان إلى الخليفة
يخبره بما هم فيه من ضيق ويقول : « إنا قد حُصِرنا ومُنِعنا العذبَ ورُمينا
بالحبوب (الحجارة) ، فياغوثاه ياغوثاة ! » . وبالرغم من أن يزيد قد سخر من

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ٤٠٤ - ٤٠٥ - المترجم] .

بنى أمية ومواليهم الذين لم يستطيعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار ، مع أنهم أكثر من ألف رجل ، فإنه قرر أن يوجه جيشاً على الفور ، بقوده عمرو ابن سعيد ، ولكن عمرو بن سعيد قال للخليفة : « قد كنت ضبطت لك البلاد ، وأحكمت لك الأمور ، فأما الآن ، إذ صارت إنما هي دماء قريش تُهترأق بالصعيد ، فلا أحب أن أكون أنا أولي ذلك ، يتولاها منهم من هو أبعد عنهم مني » . عند ذلك اتجه يزيد إلى خدام قديم من خدام أبيه ، ثبتت كفايته وثبت إخلاصه وصدق نصيحته ، هو مسلم ابن عقبة المرثى ، وقد رأى مسلم ، لما طلب إليه يزيد الخروج في الجيش ، أن ألف رجل لا يستطيعون أن يقاتلوا ساعة من نهار ، ولا يجاهدون عدوهم ويدافعون عن سلطانهم ، قوم « أدلاء ليسوا أهلاً لكن يُنصروا إلا بعد أن يجهدوا أنفسهم في قتال عدوهم دفاعاً عن سلطانهم ، حتى يستبين الصابرون الذين يقاتلون على طاعة الخليفة من الضعفاء المستسلمين ، ولكنه خرج بعد أن قال له يزيد : ويحك ! إنه لا خير في العيش بعدهم إن هلكوا . وبدأ إعداد الجيش ، ولم يلبث أن وقف اثنا عشر ألف رجل من أهل الشام على قدم الحرب ، بعد أن أدخلوا عطاءهم كاملاً ، وأخذ كل جندي مائة دينار ، ووضعت في يده من ساعته (١) . ولما بلغ أهل المدينة إقبال جيش مسلم ، وثبوا على الأمويين وحصروهم ولم يكفوا عنهم إلا بعد أن أعطوا عهد الله وميثاقه على ألا يهفوا غائلة ولا يدنوا على حورة ، ثم أخرجوهم من المدينة ، فتوجهوا إلى الشام . أما عائشة بنت عثمان ابن عفان ، وكانت زوجة مروان بن الحكم ، فقد توجهت إلى الطائف في حماية علي بن الحسين ، وهو الوحيد الذي قد نجا من أبناء الحسين يوم كربلاء والذي كان من القرشيين القلائل الذين اعتزلوا الفتنة ، ولقي مسلم ابن عقبة وهو في طريقه إلى المدينة أولئك الأمويين الهاربين عند وادي

(١) وكان مسلم الجيش ، كما هي العادة ، من كلب . أما رئيس قيس ، وهو زهير بن الحارث ، فقد كان يحارب في صفوف ابن الزبير - قارن Chavarig P. 54 .

تلقى . وقد كان أول الأمر سائطاً عليهم ، فدها بعمر بن عثمان بن عفان أول الناس ، وقال له : « أخبرني خبراً ما وراءك ، وأشير عليّ » ، قال : « لا أستطيع أن أخبرك ، أخذت علينا العهد ألا نذلّ على حورة ، ولا نظاهر هدوءاً . فانتهره مسلم ، ولم يمنعه من ضرب عنقه إلا أنه ابن عثمان ابن عفان . فبعث مروان بن الحكم ابنه عبد الملك قبيلته ، لعل مسلماً يجترأ به حنة ، فدخل عبد الملك واستطاع ، لحسن الحظ ، أن يرد غضب مسلم ، ووصف له نقطة العمل ، وأشار عليه بما رأى . فأعجب مسلم بنصائح عبد الملك الدالة على العلم والخبرة ، واتبعها تماماً . وفي ذى الحجة سنة ٦٣ هـ كان مسلم يجيشه أمام المدينة معسكراً في الحرة إلى شمال شرقي المدينة ، وأعطى الثوار مهلة ثلاثة أيام ، وقال لهم : إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل ، وإني أكره هراقة دماءكم ، وإني أوجبكم ثلاثاً ، فمن أروى وراجع الحق قبلنا منه وانصرف عنكم وسرت إلى هذا الملحد الذي بمكة ، وإن أبيتم كنّا قد أصلدنا إليكم . ولما مضت الأيام الثلاثة كلمهم مسلم مرة أخرى ، وطلب منهم الدخول في الطاعة ، حتى يجعل حدّ البلطش وشوكتهم على الملحد الذي قد جمع إليه المراق والفُسّاق من كل أوب^(١) . فأجابوا بالإصرار على المقاومة دفاعاً عن المدينة ، بل على قتال جيش مسلم ، إن هو قصد مكة وأراد القتال فيها واستحلال حرمتها وإخافة أهلها ، وخاطبوا مسلماً وجيشه قائلين : « يا أهداه الله » ، وكان أهل المدينة قد حصّنوا ركنها الشمالي المكشوف بأسوار وخنادق ، وكان جيشهم مؤلفاً من أربعة أقسام ، على رأسها رجلاّن من قريش ، ورجل من أشجع ، وابن حنظلة الأنصاري . وكان ابن حنظلة في الوقت نفسه القائد الأعلى وأمير الجماعة كلها^(٢) .

(١) [المقصود هو ابن الزبير - المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ٤١٠ - ٤١٣ - المترجم] .

وإلى هنا تنقطع حكاية أبي مخنف عند الطبرى ، وتكملها حكاية عوانة^(١) وغيره ، وهى لا تتفق تماماً مع حكاية أبي مخنف : خرج أهل المدينة لمقابلة أهل الشام فى الحرّة ، وحملت خيل أهل المدينة ، بقيادة عبد الله بن حنظلة مرة والفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب مرة أخرى ، على أهل الشام ، فأنكشفوا وتقدم فرسان أهل المدينة ، حتى بلغوا المكان الذى كان فيه مسلم بن عقبة نفسه . وتقول إحدى الروايات إنه كان يوم القتال مريضاً يُحتمل على سرير ، وتقول أخرى إنه ركب فرساً له وأخذ يسير فى أهل الشام ويحترضهم على الثبات والقتال . ولكن أهل المدينة هزموا آخر الأمر ، وقتل كثير من أشراف الأنصار ومن قريش ، منهم ابن حنظلة نفسه ومعه ثمانية من أبنائه ويقول وهب بن جرير (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٣) والسمهودى (Skizzen, 4, 26) إن السبب فى الهزيمة هو خيانة بنى حارثة ، لأنهم أدخلوا فى المدينة من ناحيتهم قسماً من جيش الشام ، ضرب المدافعين من ظهورهم . أما تاريخ الواقعة فهو عند الواقدي (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٢) الأربعمائة لليلتين أو ثلاث ليال بقين من ذى الحجة سنة ٦٣ هـ ، الموافق ٢٦ أغسطس سنة ٦٨٣ م . وأباح مسلم بن عقبة مدينة الرسول والخلفاء ثلاثة أيام للجند ، يهبون ما فيها من مال أو سلاح ، ويقتلون الناس : وهذا ما يقوله أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٤١٨) والسمهودى . أما عوانة فهو يحكى غير ذلك ، فيقول إن مسلماً بعد الواقعة بيوم دعا الناس إلى البيعة وأرغم كبار أهل المدينة على البيعة فى قُبَا ، كما يقول إنه فى هذه المناسبة قتل بعض الثوار ، وكان منهم عدد من القرشيين ومعتل بن سنان الأشجعي^(٢) ، وذلك رغم

(١) [نفس المصدر ج ٢ ص ٤١٣] لما بعدها - المترجم] .

(٢) كان معتل ، مثل مسلم نفسه ، من غطفان ، وكان صديقاً قديماً له ، لكنه كان حنفاً عليه ، وقال له مسلم : « أنت الذى لقيتني بطبرية ليلة خرجت من عند يزيد ، فقلت لى : سرفاً شمرأ . ورجعنا من عند يزيد صفرأ ، لرجع إلى المدينة ، فنخلع هذا الفاسق ، وبأبيع لرجل من أبناء -

معارضة مروان بن الحكم في هذا القتل . وهذا الذى فعله مسلم في اليوم
التالى للمعركة لا يتفق مع القول بإباحته المدينة ثلاثة أيام للجند ، يهبون
فيها ويقتلون . ومن العسير جداً أن يجد القول بإسلام المدينة للنهب ما يؤيده
فيما يحكيه السهمودي من أنه نشأ عن ذلك ألف موارء غير شرعى ،
ولا يعرف وهب بن جرير شيئاً عن إسلام المدينة للنهب (الطبرى ج ٢
ص ٤٢٣ س ١٥ فاه بعده) .

وبعد أن فرغ مسلم من قتال أهل المدينة سار إلى مكة ، ولكنه لم يصل
إلا إلى المشلل . وهناك نزل به الموت وضميره مستريح ، مقتنعاً أنه فعل
ما يرضى الله ، ولم يوص بماله لأبنائه ، بل إلى قبيلته وإلى أم ولد كانت عنده ،
وترك القيادة ، على غير ما كان يحب ، إلى الحصين بن نمير السكونى ،
لأن الخليفة كان هو الذى أمر بذلك ، وأوصاه فيها أوصاه ألا يُمكّن من
أذنه قرشياً . وفي هذا تتفق رواية حوالة (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٤ فاه بعدها)
مع رواية أبى مخنف إلى الحد الذى وصلت إليه رواية أبى مخنف . ويقول
أبو مخنف إن وفاة مسلم كانت في آخر المحرم سنة ٦٤ هـ . أما حوالة
والواقدي فيقولان إن الحصين كان في شهر المحرم معسكراً أنام مكة :

على أن ما يقوله المؤرخون المحدثون يختلف اختلافاً صعباً عن الصورة التى
تجدها مرسومة هنا لمسلم بن عقبة ، فيقول دوزى مثلاً (١) : « ربما لا يكون هناك أحد
يمثل العصر القديم والروح الوثنية كما يمثلها مسلم بن عقبة ، فلم يكن فيه أقل ظل
للعقيدة الإسلامية ، ولا كان يقدّس شيئاً مما يقده المسلمون ، ولذلك كان أشد
إيماناً بالخرافات الوثنية ، وكان يؤمن بالأحلام التنبؤية وبالكلمات الخفية التى

- المهاجرين ! فيم غطفان وأشجع من الخلع والخلافة ! إلى آليت يمين لا أنالك في حرب أئمر
فيه على ضرب عتقك إلا فعلت » . وقوله : فيم ... من (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٠ س ٢)
لا يحتاج إلى علامة استفهام .

(١) [ينقل المؤلف ما ينقله عن دوزى وملّك في ضوء من الاختصار والتصرف -
المترجم] .

كانت تأتي من شجر الغرقد . وقد أبان عن هذا لما تقدم ليزيد ، فقال له إنه لا أحد يستطيع أن يقهر المدينة غيره ، لأنه ، فيما قال ، رأى في المنام أنه سميع صوتاً آتياً من شجرة الغرقد يقول : « على يدي مسلم » . هذا ما يقوله دوزي (Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne 197s.) ويضرب ا . مولر على نفس النخمة ، فيقول : « كان في نفس مسلم بن عقبة على الإسلام ، خصوصاً على المسلمين الأولين ، من الحقد ما كان في نفس شمير بن ذي الجوشن قاتل الحسين ، وبالرغم من أنه كان شيخاً كبيراً ومريضاً ، فإن أمه الذي كان ينتظره طويلاً ويرحب به لتأديب أولئك الذين كانوا أهداء لكل ما هو وثني » ، رد إليه قوته حيناً ، وقد خرج في الجيوش معه الحسين بن نمير ليكون خلفاً له ، إن حدث به حدث الموت ، وكان الحسين ، قبل ذلك بقليل ، الدرع الأيمن لعبيد الله بن زياد في الكوفة (١) ، وكان لا يحس من الاحترام لمسجد الرسول وللكتب أكثر مما يحسه أمام جوزتين صمّاوين .

فلأجل شجرة الغرقد التي في رواية الأغاني (ج ١ ص ١٤) والتي لم يستشيرها مسلم بن عقبة حقيقة ، وإنما رآها في المنام (٢) ، يكون مسلم وثقياً لحماً ودماً ، وهو لما في قلبه من بغض أهل المدينة ينتظر الفرصة مثلها ، وينتظرها للبعثهم ، مع أنه كان شيخاً ضعيفاً . إن الروايات القديمة لا تعرف شيئاً من هذا كله ، أما عند الطبري (ج ٢ ص ٤٢٥) فنجد أنه ، وهو على فراش الموت ، يشهد بأن أهم شيء عنده هو الإيمان بالله ورسوله (٣) . وهو لم يتقدم للمهمة التي كلفه بها يزيد ، بل هو لم يقبلتها إلا كارهاً . ولم يكن يريد أن يرد نار غضبه بمحاربة مدينة الرسول ،

(١) هذا خلط بين الحسين بن نمير السكوني من أهل الشام وبين الحسين بن تميم التميمي من أهل الكوفة ، وهذا يجعل وزر أولها أقل ، راجع فيما يتأق بشعر Schia p. 70 .

(٢) مثل الذي يحكى عن الحجاج - الطبري ج ٢ ص ٨٢٩ س ١٥ . [من أنه رأى في منامه أنه أعاد ابن الزبير فسلخه ، وأنه لذلك طلب من عبد الملك أن يبعثه إلى ابن الزبير - المترجم] .

(٣) [قال وهو يموت : « اللهم إني لم أحمل عملاً قط ، بد شهادة أن لا إله إلا الله -

ولمّا حاول ، حتى آخر لحظة ، أن يحافظ عليها ، بل إن من المشكوك فيه أن يكون بعد انتصاره قد أنهب المدينة للجند ثلاثة أيام . ولقد أرغم أهل المدينة على البيعة ليزيد ، لكن ذلك لم يكن على صورة كرهية غير مألوفة (١) . كان مسلم خادماً مخلصاً لسيدته ، وأخضع له الثوار ، وكان يقول : ليم غطفان من الخلع والخلافة ! وكان مسروراً أن المشكلة بالنسبة له ، كواحد من غطفان ، لم تكن موجودة . أما المطامح السياسية فقد تركها لأهل الفتنة والطامعين الذين كانوا عالمين بالمدينتين المقدستين ، وكان يرى أنهم انتهكوا حرمة الحرم وجعلوه بصنيعهم مسباحاً . وعلى هذا عمل ما عمل في عزم المقتنع ، ومع مرور الزمن اعتبر هذا منه إثماً منكراً ، وأصبح رمز الوثنية كما يبدو عند دوزي ومولتر (٢) .

— وأن عمداً عبده ورسوله ، أحب إلى من قتل أهل المدينة ، ولا أرجى عندي في الآخرة — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ٤٢٥ .

(١) كما يفترض دوزي ج ١ ص ١٠٧ — قارن الطبري ج ٢ ص ٤١٨ ص ١٨ .
(٢) [الحق أن مسلم بن عقبة كان قائداً حربياً فيه غلظة وجفاء ، وكان ، كما يصفه المؤلف ، خادماً من خدام الدولة يفكر بمقلها ولا يعرف غير ذلك . وهو من هذا الوجه شبيهة بالحجاج وزيد بن أبيه ، ولا شك في صحة ما يقوله المؤلف من أنه كان حربياً على حدم للعنف ، لكنه بعد أن انقصر كان عنيفاً غليظاً جافياً ، فن ذلك ما يحكيه الطبري (ج ٢ ص ٤١٨ — ٤٢١) من أنه آمن رجلين من قريش ، فأتى بهما ، فقال لهما : بايعوا ! فقالا : نبايع على كتاب الله وسنة نبيه ، فقال : لا والله ! لا أبايعكم هذا أبداً . ثم قدما فحسب أعتاقهما ، فلما اعترض مروان بن الحكم على قتل رجلين من قريش على هذه الصورة نخسه مسلم بقضيب في خاصرته ، ثم قال : وأنت والله لو قتلت بمقاتلتهما ما رأيت السماء إلا برقة . ومن المناظر المؤلمة التي تتجلى فيها قضاظته ، أنه لما شخص عنده معقل بن سنان دعا بشراب . فقال له مسلم : أي الشراب أحب إليك ؟ قال : العسل ، قال : اسقوه ، فشرب معقل سقى ارتوى ، ثم قال له : أنقصيت ريك من شرابك ؟ قال : نعم ، قال : لا والله لا تشرب بعد شراباً أبداً إلا الخمر في نار جهنم ، أذكر مقاتلك لأبي المومنين : « سرت شهراً ورجعت شهراً وأسمحت صغراً ، اللهم غير ! » ، ثم يزيده . ثم قدمه فحسب عنقه ، هذا مع أن معقل بن سنان كان حديقاً لمسلم قبل ذلك . ولما جاءه يزيد بن زعنة ، قال له مسلم : بايع ، قال : أبايعك على سنة عمر ، قال عقبة : أقتلوه ، قال : أنا أبايع ، قال : لا والله لا أقبلك مثل ذلك . فلما كلمه مروان أمر به فوجئت عنقه . وهكذا نجد مسلم بن عقبة يدافع عن الدولة وينتقم من الساطنين على يزيد . وكان يريد من الناس أن يبايعوا ، على أنهم حول ليزيد ، يحكم في دنائهم وأموالهم —

ويواصل دوزى (ج ١ ص ١٠٨) غَزَلَ الحيط الذى ناطه إلى شجرة الغرقد فيقول : « كان عرب الشام قد سوّوا حسابهم مع أبناء المنشقين المتعصبين الذين غمروا جزيرة العرب بدماء آبائهم ، وكان الأشراف القدماء قد قضوا على الأشراف المحدثين . وكان يزيد ، بوصف أنه مثل الأرسطراطية القديمة في مكة ، قد ثار لمقتل عثمان وللهمزة التي ألحقها بجده أبي سفيان أهل المدينة تحت راية محمد [عليه السلام] . وكان رد الفعل من جانب الوثنيين ضد الفكرة الإسلامية قاسياً لا هوادة فيه ، ولم يُشَفَّ الأنصار قط من هذه الضربة ، وانكسرت قوتهم إلى الأبد : وظلت مدينتهم ، بعد أن كادت تخرب ، مأوى للكلاب حيناً من الدهر ، كما ظلت أرضها مأوى للوحوش . وذلك أن معظم أهلها أخذوا يبحثون لأنفسهم عن وطن جديد في بلاد قاصية ، فانضموا إلى جيش أفريقية ، وظل الآخرون في حال يترق لها : وكان الأمويون ينتهزون كل فرصة لكي يُشعروهم ببعضهم واحتقارهم لهم ، لكي يضايقوهم ويجعلوا حياتهم مريرة . » . ويأخذنا : مولد هذه التصورات ، وهي تصورات ضالة تماماً ، ومعظمها خطأ تام . أما الضربة الحقيقية فقد أصابت المدينة لما انتهت الخلافة الشرعية بمقتل عثمان وانتقلت الخلافة الجديدة إلى الأمصار . فأما الضربة الحالية فلم تأت بتغيرات .

٢ - وأهلهم ما شاء . وثم منظر آخر أمان فيه مسلمٌ عمرو بن عفان ، وعاهه هو وأمه وتنف. لحينه . وأسخط من ذلك ما فعله مسلم بدل بن الحسين ، مع أنه ابتعد عن الفتنة وكاتب يزيد. وأوصى يزيد به ، فقد أخافه من غير أدنى مبرر ، حتى إنه ناوله مروان بن الحكم شراباً ، فقال له مسلم في جفاء : لا تشرب من شرابنا ! فأرعدت كف بدل بن الحسين وأمسك القدح بكفه ، لا يشربه ولا يضعه ، ثم قال لعل : إنه لولا ما أوصاه به يزيد لقتله . راجع أيضاً طريقته في مخاطبة خليفته في قيادة الجيش ، عند الطبري ج ٢ ص ٢٤ - ٢٥ . فلا يخرج مسلم عن أن يكون رجلاً جافاً قاسياً وجلفاً خليط القلب ، ولم يجعله مخلصاً للدولة وللخليفة إلا أنه كان ينتمى إلى قبيلة ضعيفة ليس لها شأن ، وهو من هذا الوجه يشبه كثيرين من عمال بني أمية . ولولا أن المسألة مسألة حرب وسياسة يسودها العنف عند العرب لحق للذئب أن يقول إن الإسلام لم يذهب شيئاً من طبع هذا الغطفاني الذي لم يكن على أي حال من أئمة العرب ولا أشرافهم ، وإنما كان قائداً في خدمة الدولة ، ويجب عليه أن يحافظ على سيادتها - المترجم] .

جوهريه ، فلم تحرب المدينة ، ولم يلبث أن رجع إليها أهلها الأمويون الذين كانوا قد أخرجوا منها ، وإن كانوا قد أخرجوا منها مرة أخرى بعد ذلك . وظلت المدينة ، كما كانت من قبل ، مدينة مريحة ومقرأ . لا للتراث الديني وحده ، بل لأرق طوائف المجتمع العربي وأرقاها . ولذلك كان يفضل الإقامة بها من يعتزلون الأعمال ويحبون أن يحيوا حياة اللهو ، كما صارت المدينة ملتقى المغنين والموسيقين والطفيليين ، وكل فصول كتاب الأغاني المتعلقة بهم تقدم لنا الشواهد على ذلك . ولندكر منها ، بنوع خاص ، ما يقال عن أبي قحيفة وعن الأشعب وخصوصاً عن سكينه حفيده الرسول الدكية المستحرة ، وفوق ما تقدم ، فإن من الخطأ أن ننصور أن الأنصار كانوا وحدهم هم الذين أصابهم هواقب وقعة الحرة ، لأنه لا يصرح أن نفهم من ذكر اسم الأنصار أنهم وحدهم هم أهل المدينة ، وذلك لأن المدينة كانت منذ زمان طويل لم تصبح مدينتهم ، وكانوا يقيمون فيها مع المهاجرة الذين كانوا يكاثرون الأنصار في العدد ويزيدون عليهم في القوة . وكانت قريش بن هولاء المهاجرة تحمل المكان الأول ، لأن القرشيين كانوا قد هاجروا منذ سنة ٨ هـ إلى المدينة زرافات كثيرة ، وصارت حاصمة الدولة هي وطهم الحقيق ، وقد اشتركوا في الثورة على يزيد كما اشترك الأنصار ، وكان التمايز بين أشراف الإسلام وأشراف البهايلية ، وقد كان على كل حال تمايزاً موجوداً بينهم ، قليل الشأن . ولم يكن ليزيد حزب بين المدينة ولم يكن هو الممثل للأرستقراطية القديمة ، وإن كان ينتمى إليها ، وقد ألغيت الأرستقراطية في الحجاز كله جبهة كاملة معارضة له ، كما ألغيت من قبله جبهة معارضة لأبيه معاوية . فكانت قبائل غزوم مثلاً ، وهي قبائل نابهة ، زبيرية الهوى تماماً بل لم يكن الأمويون في المدينة على علاقة طيبة مع يزيد ، ولم يريدوا أن يفصلوا علاقتهم بالثوار ، فالوا إلى ابن الزبير ، وكان مسلم ابن عقبة مُحَقَّقاً في غضبه عليهم . فلم يكن في جانب يزيد إلا أهل الشام ، وقد ألغ منهم جيشاً من آلاف كثيرة ، ولكنهم كانوا يتقاضون

أعطيات كبيرة إلى درجة غير عادية . ولما كان هو نفسه غير ممتلي النفس
بالرغبة في معاقبة الثوار ، بل كان يحاول أن يكتسبهم بالحسنى ، فقد أظهر
حلماً كبيراً لإزاءهم^(١) . وكذلك لم يكن جنوده من أهل الشام متحرقين
للقاتل ، ولا شك أنهم كانوا يندهشون لو أنهم عرفوا ما ينسبه إليهم دوزي
من أن حنقهم على « المنشقين المتعصبين الذين غمروا جزيرة العرب بدماء
آبائهم » هو الذي استفزهم للقتال . ولهذا فربما كان أهل العراق ، وهم
ينتمون إلى أهل الردة ، أولى بكثير من أهل الشام بالحنق على أهل المدينة .
أم هل كان أهل الشام ، مثل قبائل كلب ، هم الذين كانوا أكثر من استئزفت
دمائهم ؟ إن دوزي يرسل لخياله وبلاغته العنان ، وهو بهذا قد أفسد
تفكير من اتبعه . أما الحقيقة البسيطة الثابتة فهي أن حرب الشام ، شأنهم
شأن غيرهم ، كان عليهم أن يستجيبوا لما يأمرهم به الإسلام ، على أن
الأمر لم يكن أمر تغير ديني بقدر ما كان أمر تغير سياسى ، ولعل الانتقال
كان في أول الأمر غير محبوب لديهم ، ولكن لم يلبثوا أن تغلبوا على
ذلك لأنه كان لهم في هذا التغير أكبر القوائد ، لأن الإسلام جعل لهم نصيباً في
حولته وسيادته ، وهو قد وضع الدنيا تحت أقدامهم ، ولولا الإسلام ما كانوا
ليصلوا إلى المكانة التي وصلوا إليها والتي احتلوها بعد ذلك . وعلى هذا فلا
يمكن أن يكونوا لا يزالون حنقين على أولئك الذين ساعدوهم على بلوغ الغصن
الأنضر الذي كانوا يجلسون عليه . وأبعد ما يكون من الصواب أن يقال إن
أهل الشام كانوا حنقين على المؤمنين القدماء - وهذه هي التسمية التي يطلقها ،
مولر على أهل المدينة - ذلك أن أهل الشام كانوا يتفقون مع أهل المدينة
في العقيدة والشريعة وفي العادات العامة والخاصة اتفاقاً تاماً ، وكان أهل

(١) [لما وصل إلى يزيد كتاب مروان بن الحكم يستنيث بما فعله أهل المدينة بني أمية
الذين كانوا بها ، قال متشكلاً :

لقد بدلوا الحلم الذي من سيجتي فبدلت قومي خلفاً بليان
وأمر بإعداد الحملة على المدينة - المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ٤٠٦ - ٤٠٧] .

المدينة ، بطبيعة الحال ، أكثر حماسة لأداء الواجبات الدينية ، وكانوا خصوصاً أكثر كلاماً عنها ، ولكنهم لم يكونوا بوجه عام أولئك الشيوخ السذج المشفقين المتعصبين ، الذين يصفهم دوزي ؛ وإن تسميتهم « المؤمنين القدماء » ، وهو اصطلاح حديث ، لا يمكن أن تؤدي إلا إلى تصور معكوس للعلاقة بين تلك الأحزاب المتخاصمة ، ذلك أن الخصومة ، بحسب أفكارنا التي ليست لها صبغة تيوقراطية ، كانت خصومة سياسية فحسب ، فالمشكلة كانت مشكلة : من صاحب الحق في الخلافة ؟ وقد زعم أعضاء طبقة الأشراف الإسلامية ، وهم أبناء لكبار الصحابة الستة القدماء ، مثل الحسين وابن الزبير ، أنهم أصحاب هذا الحق . وكان الرأي العام ، كما كانت غالبية قریش ، إلى جانبهم ، ولا بد أن الأنصار كانوا يؤيدونهم ، كما أيدهم في الثورة على عثمان ، وذلك من جهة أن المسألة كانت مسألة أن تستعيد العاصمة القديمة للدولة ما كان لها من سيادة ، وتوجد بعض الدلائل على أن ابن الزبير هو الذي أرتت نار الثورة في المدينة . وقد كان مسلم بن عقبة يعتبر المسألة كذلك . وكان السفينانيون في دمشق يُعتبرون غاصبين ، ولم يؤيد الحكومة التي كان يبيدها السلطان إلا أهل الشام ، وذلك دفاعاً عن مكان المصداقة الذي كان لولايتهم ، وهم لم يكونوا بأهلون لمسألة الحق الشرعي ؛ غير أن مسألة الحق الشرعي هذه ، وهي في نظرينا مسألة سياسية محضة ، كانت في نظر الإسلام ، من حيث هو دولة تيوقراطية ، جزءاً من الدين ، وكان الدين يدهون الحق في الخلافة يؤيدون مطالبهم بمؤسسات دينية . وكان يزيد يُعشّبو غير أهل للخلافة لأسباب دينية أيضاً . ولكن هذه المبررات الدينية لم تكن ، على السنة زعماء الحركة ، سوى ستار لما وراءها . أما الباحث الحقيقي لم على الثورة فكان هو شهوة المجد والسيادة . وهم لم يكونوا يريدون خلع يزيد ، لأنه كان يشرب الخمر ويلهو ، بل لأنهم كانوا يأملون أن يتوصلوا إلى المنصب الذي كان

يحتله ، ولذلك كان عند أهل الشام من الأسباب ما يبرر لهم أن يروا في مسألة الحق الشرعي التي يثيرها خصومهم تمويهاً ونفاقاً يستر وراءه مسألة التطلح إلى السلطان^(١) . وإلى هذا وحده يرجع ما اتهموا به خصومهم من النفاق ، وقد قابل خصومهم ذلك بأن اتهمهم بالانسلاخ من الدين :

وهوالة هو عند الطبري (ج ٢ ص ٤٢٤ فما بعدها) أكبر الرواة لحصار مكة سنة ٦٤ هـ : فهو يقول إنه بعد موقعة الحرّة ذهب « كلُّ أهل المدينة » إلى ابن الزبير في مكة ، وهو لا يذكر إلا أفراداً من القرشيين بأسمائهم (ص ٤٠٤ س ٢٠ وص ٤٢٦ س ٨ - ١٠ وص ٥٢٨ س ١٢) : وكان بحوارج الإمامة قد بادروا قبل ذلك ، تحت إمرة نجدة بن عامر ، للدفاع عن البيت الحرام أمام هجوم أهل الشام^(٢) . وكان الحصين بن نمير قبل نهاية المحرم سنة ٦٥ هـ قد وصل إلى مكة في جند الشام . ولم يوفّق المدافعون في أول اشتباك وقع بينهم وبين أهل الشام : وفي مساء السبت لثلاثة أيام مضت من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ، الموافق السبت ٣٩ أكتوبر سنة ٦٨٣ م ، قذف أهل الشام البيت بالمجانق وحرقوه بالنار ، كما يقول هوالة .

ورواية هوالة هذه غير صحيحة : ولقد اشتعلت النار في الكعبة حقيقة ، فاحترقت وانصدع الركن واسود ، ولكن أهل الشام لم يكونوا هم الذين أحرقوها . أما أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٥٢٨ س ١٧ - قارن ص ٥٢٩ س ٤) ، فهو يقول : « أحرق البيت » على البناء للمجهول : ولا يذكر الفاعل . ويقول الواقدي (ص ٤٢٧) إن الكعبة احترقت بسبب رجل من أصحاب ابن الزبير ،

(١) [يبالغ المؤلف في نظارته للحوادث نظرة سياسية ، كأن الدولة ليست دولة دينية يرأسها الأكمل الآنق - المترجم] .

(٢) إن التاريخ الذي يذكره أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٤٠١) ما بعدها أسبق من الحقيقة . قارن 75 Schia , 29 Chavarig وديوان الخليفة (ص ٣١٩ س ٢٢) .

أخذ قيساً في رأس رجمه ، فطيرت الريحُ به ، فضرب أستاذ الكعبة ، ويقول المدائني (الأغاني ج ٣ ص ٨٤) إن ابن الزبير نفسه كان هو ذلك الشخص التعس الذي وقع منه ذلك . فيُحكى أنه لما حاصره أهل الشام سمع أصواتاً بالليل فوق الجبل ، فخاف أن يكون أهل الشام قد وصلوا إليه ، وكانت ليلة ذات ربيع شديدة صعبة ، وبرق ورعد ، فرفع ناراً على رأس رجم لينظر إلى الناس ، فأطارتها الريح ، ف وقعت على أستاذ الكعبة فأحرقتها واستطالت فيها . وجهد الناس في إطفائها فلم يقدروا ، وأصبحت الكعبة تنهافت ، أما البيت الذي يستند إليه حوالة (ص ٤٢٦ س ١٥) فليس فيه ذكر النار ، بل هو ، بحسب ديوان الحلياسة (ص ٣١٩) متعلق بمسألة أخرى ، هي حصار مكة في عهد الحجاج (الطبري ج ٢ ص ٨٤٤) فما بعدها (ص ١٥٤٢ س ٣) : وفي أثناء هذا الحصار الثاني ضرب أهل الشام الكعبة ، لكنهم لم يضربوها إلا بالحجارة . وعلى هذا فالظاهر أن الأمر قد اختلط على حوالة ، وربما لا يكون هذا الاختلاط بريئاً من الغرض .

ودام حصار مكة إلى أن بلغها نعي يزيد ، وقد كانت وفاته في ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤ هـ . ويقول الواقدي إن النعمي وصل إلى مكة في يوم الثلاثاء هلال ربيع الآخر سنة ٦٤ هـ ، أي بعد حرق الكعبة بسبعة وعشرين يوماً (١) : أما أبو غنم (الطبري ج ٢ ص ٥٢٩ س ٧) فهو يقول إن نعي يزيد وصل لخمس عشرة ليلة مضت من ربيع الآخر : وأما حوالة (الطبري ج ٢ ص ٤٢٩ س ١٨) فيقول إن النعمي لم يصل إلى مكة إلا بعد وفاة يزيد بأربعين يوماً . والرواية التي بحسبها يكون الخبر قد وصل في أقصر مدة هي الأولى بالقبول : ويقول حوالة

(١) الطبري (ج ٢ ص ٤٢٧ س ٨) . ولا يتفق يوم الأسبوع مع يوم الشهر ، ويجب قراءة ٢٧ يوماً بدلاً من ٢٩ عند الطبري ، لأن حرق الكعبة ، بحسب اتفاق جميع الرواة ، وقع في الثالث من ربيع الأول .

إن خبر موت يزيد بلغ ابن الزبير قبل أن يبلغ أهل الشام : ولم يرد هؤلاء أن يصدّقوا أول الأمر ، حتى تأيّد لهم الخبر من جهة أخرى ، وعند ذلك شرع الحصين بن نمير يفاوض ابن الزبير . وكان الحصين يريد ، وهو لم يجد أمامه غيراً من ذلك ، أن يبايع ابن الزبير على الخلافة ، إذا قبّل ابن الزبير إهدار الدماء التي أريقّت في المدينة ومكة وخرج معه إلى الشام لكي تبقى الشام مقرّ الخلافة : وقد قبل ابن الزبير الشرط الأول أخيراً ، أما الشرط الثاني فلم يقبله^(١) . وهو لم يكن أيضاً يستطيع قبوله إلا إذا قضى على نفسه بالانتحار السياسي ، ولذلك تمطّعت المفاوضات ورحل الحصين ، وقد بدا اليأس على جنوده ، لأنهم لم يكن لهم إمام بعد موت يزيد ، ولم يكونوا يعلمون من أجل من يقاتلون - وإلى هذا الحد كان اتّخاذ الموقف السياسي مرتباً بالبيعة لشخص الإمام . ويروى أن بني أمية الذين كانوا في المدينة طلبوا من جند الشام أن يحملوهم معهم ، وذلك لأنهم لم يكونوا في الحجاز يشعرون بأنهم آمنون على أنفسهم . ولكن رواية هوانة تنافي ذلك (الطبري ج ٢ ص ٤٦٩ س ٣) ، كما تنافيه أيضاً رواية أبي مخنف (الطبري ج ٢ ص ٤٨١ س ١٠) والواقدي (ص ٤٦٧ س ١٠) ، فلم يخرج الأمويون باختيارهم ، وإنما أخرجهم من المدينة ابن الزبير ، وهذا ما يقوله أيضاً صاحب كتاب Continuatio Byz. Ar. § 29 فهو يقول :

Marvan insidiase ab ipso Abdella ab Almedinae finibus cum omnibus liberis vel (=et) suis propinquis pellitur

[أي : أخرج مروان من أرض المدينة محمّداً مع أولاده أو (= و)

أقربائه ، على يد هبيل الله نفسه] .

(١) [لا شك أن ابن الزبير قد رفض الخروج إلى الشام ، وفي رواية أنه رفض إهدار دماء أهل المدينة ومكة . ويظهر أنه قبل الإهدار آخر الأمر ، ورواية الطبري غير صحيحة تماماً - راجع ما دار بين الحصين وبين ابن الزبير عند الطبري (ج ٢ ص ٤٣٠ - ٤٣٢) . ولم يكن ابن الزبير ، من حيث الأسلوب - بصرف النظر عن الموضوع - دبلوماسياً ، ويصدق عليه ما وصف به من أنه كان بلوجاً (الطبري ج ٢ ص ٢٢٤ س ١٢) - المترجم] .

٣- يقول أبو معشر والواقدي وإلياس النصابي إن يزيد مات في حوَّارين (قرب دمشق) يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ، وهو الموافق يوم الثلاثاء ١١ نوفمبر سنة ٦٨٣ م^(١) ، ولما كان قد تولى الخلافة بغير حق شرعى ، وكان إلى جانب ذلك يحمل الإثم في مقتل الحسين وانتهاك حرمة الأماكن المقدسة ، فإنه لا بُدَّ من تخيير عند المسلمين . ولكن يزيد في الحقيقة لم يكن من رجال العنف ، وكان يترك السيف في غمده ما وسعه ذلك . وقد وضع حداً للحرب التي استمرت مع الروم سنين كثيرة . أما الذى يمكن أن يُعَّاب عليه فهو قلة المهمة وقلة الاهتمام بالشئون العامة للدولة ، وكان ، خصوصاً وهو أمير ، لا يباهى لها ، وبذلك جعل ما كان يسعى إليه أبوه من تعيينه خليفة بعده مهمةً حسيرة . وهو لم يشترك في الحملة الكبيرة التي وجهت إلى القسطنطينية سنة ٤٩ هـ^(٢) إلا كارهماً . ويظهر أنه بعد أن صار خليفة قد جمع همته بعض الشيء ، وإن كان لم يترك ، من أجل ذلك ، ما كان يهواه قديماً من نحر وموسيقى وصيد ونحوه من أنواع الرياضة . وفي كتاب الصلة § 27 Continuatio يُقال عنه ما يأتي :

lucundissimus et cunctis nationibus regni eius subditis vir gratissime habitus, qui nullam unquam, ut omnibus moris est, sibi regalis fastigii causa gloriam appetivit, sed communis eum omnibus civiliter vixit^(٣) . ومثل هذا الإطراء لم يُقَسَّلْ عن أحد ،

وهو آت من القلب :

(١) الطبري ج ٢ ص ٤٢٨ ص ٨ وص ٤٨٨ ص ١٤ . أما ما يخالف ذلك (ص ٤٢٧ ص ٣ وص ٥٠٦ ص ٧) فهي أقوال خاطئة . وذكر سنة ٦٣ هـ (ص ٤٦٨ ص ١٥) ، قارن ص ٤١٢ ص ٩) خطأ . ويذكر الزهرى والواقدي أن عمره كان ٣٨ أو ٣٩ عاماً ، ويذكر ابن الكلبي أنه كان ٣٥ عاماً - قارن ، Nöldeke, DMZ, 1901, p. 683a .

(٢) راجع مجلة Göttinger Nachrichten (١٩٠١ ص ٤٢٣) . ويعد أن حضر يزيد القتال مرة تبين أنه شجاع وكفء (الأغاني ج ١٦ ص ٢٣) [هذا في قيادته للحملة الصائفة على الروم ، وقد ضرب يزيد باب القسطنطينية - المترجم] .

(٣) [وترجمة هذا الكلام اللاتيني هي : « كان رجلاً لطيفاً إلى أقصى حد ، وهو بعد أن أخضع جميع أمم مملكته أولاد الناس أحسن تقديرهم . وهو لم يطمح أبداً إلى أى مجد لنفسه »

يقول ابن هرادة ، وهو في خراسان (الطبرى ج ٢ ص ٤٨٨) :
أَبْنَى أُمِيَّةَ إِنْ أَخِيرَ مُلْكُكُمْ جَسَدٌ بِجُورِ بْنِ سَمٍّ مَقِيمٌ
عَلِقَتْ مَنِيَّتُهُ وَحِينَئِذٍ وَسَادِهِ كُوبٌ وَزِقٌ رَافِعٌ مَرثُومٌ^(١)

وقد بدا كأنما قد انهارت دولة بنى أمية لما مات يزيد ، فلم يوثقها
أمراء الأمصار أيضاً . فعقد سلم بن زياد في خراسان وعبيد الله بن زياد
في البصرة البيعة لأنفسهما ، وإن كانا قد فعلا ذلك حتى يصطليح الناس على
إمام يرتضونه . وكان طبعياً أن ينال معاوية الثاني ، ابن يزيد ، وكان أبوه
قد عينه خلفاً له ، اعتراف أهل الشام ، في دمشق على الأقل . وقد أسقط
عند توليه الخلافة ثلث الخراج ، عن جميع أمصار مملكته^(٢) ، ولكنه
مات بعد حكم قصير جداً . ويقول عوانة (الطبرى ج ٢ ص ٤٦٨ -
وللبلاذرى ص ٢٢٩ س ٣) إنه تنازل عن الخلافة قبل موته : أما الواقدي
(الطبرى ج ٢ ص ٥٧٧ س ١) فلا يذكر شيئاً من ذلك . والأغلب أن
رواية تنازله ترجع إلى محاولة تنطية ما وقع من أن الفرع الأحدث من بيت
بنى أمية ، وهو فرع المروانيين ، قد أزال الفرع الأقدم ، وهو فرع السفينانيين ،
عن الخلافة ظلماً وعدواناً ، وهذه المحاولة هي التي تفسر لنا أن معاوية الثاني
لا يذكر في كتب التواريخ القديمة بين الخلفاء ، بل الذي يذكر هو أن
مروان جاء بعد يزيد مباشرة . ومثل هذا وقع في قوائم التاريخ في العهد القديم
حيث يغفل ذكر حكم اشبوشتا (Isboseth) ويعتبر داود نائياً لشاول مباشرة^(٣)

== بسبب ما كان يتمتع به من عظمة الملك ، بل عاش رجلاً عادياً مع الجميع كأحد الرعايا .
والفضل في ترجمة النصوص اللاتينية واليونانية في هذا الكتاب يرجع إلى معاونة الرميل الفاضل
للعلامة الأستاذ أمين سلامة - المترجم [.

(١) ن : مرقوم .

(٢) راجع كتاب Cont. Byz. Ar, § 27 ؛ ومثل هذا الـ ἀρεσις [الإعفاء] كان
عند تولي الملك عادة جارية .

(٣) قارن ما يقوله نولديكه (Nöldeke) في Epimeitron zu Mommsens Ausgabe
der Cont. Isidor وفي مجلة DMZ. ، ١٩٠١ ص ٦٨٣ والصفحات التالية .

وفي حياة معاوية الثاني بدأت ، فيما يظهر ، الاضطرابات في الشام ؛ وسننتقل إلى الكلام عنها . وقد جاءت هذه الاضطرابات من جانب قبائل قيس الذين كانوا يسكنون خصوصاً في شمال الشام وفي الجزيرة على جانبي نهر الفرات (الطبري ج ٢ ص ٧٠٨ م ٤) وفي قنسرين وقرقيسيا وحران . فيقال إن قبائل قيس كانت هي وحدها ، دون جميع أهل الشام ، هي التي امتنعت من مبايعة معاوية الثاني . وكانوا حنقين على ما كان لكلب من شأن بسبب يزيد وابنه معاوية ، لأن أم كل منهما كانت كلبية (الحماسة ص ٣١٩ م ٢ ، ٤) . وكان لحسان بن مالك بن بسندل الكلابي نخل يزيد مركز قوي في الدولة ؛ فكان كالمالك للأمر ، وكان العماد الأكبر لمعاوية الثاني ، وكان أخوه سعيد أميراً على قنسرين . فرأت قيس أن إسناد الإمارة عليهم وفي مدينتهم إلى رجل من كلب أمر لا يمكن أن يطاق ، فبدأوا بأن وثبوا عليه وأخرجوه من قنسرين . وقد فعلوا ذلك تحت إمرة زفر ابن الحارث الكلابي (الأغاني ج ١٧ ص ١١١) ، وكان زفر من قبل في صفوف ابن الزبير يحارب يزيد (الحماسة ص ٣١٩ م ٢٢) . على هذا فقد كان زُبَيْرِيّ الهوى ، وتبعته قيس بعد أن بويع لابن الزبير في العراق المهاجرة لأرض قيس . ولكن ابن الزبير كان له أيضاً بعض أجزاء الشام . وابن بسندل وحده - وهذه هي الصورة المختصرة لاسمه الكامل : حسان بن مالك بن بسندل - هو الذي ظل بعد وفاة معاوية الثاني متمسكاً بسلالة أخته ؛ وأكبر يكون أقرب إلى دمشق ، فإنه خرج من فلسطين التي كان أميراً عليها وانتقل إلى الأردن . أما أمير حمص ، وهو النعمان ابن بشير الأنصاري ، ونحن نعرفه تماماً ، فقد تابع لابن الزبير . وفعل مثل ما فعل أيضاً نائل بن قيس للجنداءي ، فاستولى على فلسطين ، بعد أن تركها ابن بسندل . أما في العاصمة ، وهي دمشق ، فقد كان الأمر في يد الضحاك بن قيس الفهري ، وكان يقف موقفاً متأرجحاً وذا وجهين ، ولكن لما كان معترضاً لخطر فقدان كل من الجانبين ، فإنه وجد نفسه . آخر الأمر ،

مضطراً أن ينضم نهائياً إلى جانب ابن الزبير .

والأخبار متضاربة فيما يتعلق بتطور الحوادث حتى وقوع الصدام الدموي الحاسم في موقعة مرج راهط . فيقول حوالة (الطبرى ج ٢ ص ٤٦٨) فلما بعدها (إن الأمويين الذين كانوا قد أُخرجوا من المدينة ، وكذلك عبيد الله ابن زياد الذى فرّ من البصرة وكان أميراً عليها ، ذهبوا إلى دمشق ، ويظهر أن هذا كان بعد موت معاوية الثانى . وكان الضحاك ، وهو السيد في دمشق ، يهوى هوى ابن الزبير ويدعو إليه سراً ، وكان الذى يمنعه من إظهار هواه الحقيقى أن بنى أمية كانوا عنده . وبلغ ذلك ابنَ بحدل رئيس كلب الذين يَهْتَوُونَ هوى بنى أمية ورئيس البجليين ، فأراد أن يستخرج الضحلب من جحره ، فكتب إلى الضحاك كتاباً ليقرأه على الناس ، وفيه عظم حق بنى أمية وحُسنَ بلائهم عنده وصنيعهم إليه ، وذكر ابن الزبير رُوِّقَ فيه واتهمه بأنه منافق قد خلع خليفَتَيْنِ ، وسرَّح ابن بحدل بالكتاب مع رجل من كلب يدعى ناغضة . ودفع ابن بحدل إلى ناغضة نسخة أخرى من ذلك ليقرأها على الناس ، إن لم يقرأ الضحاك الكتاب الذى أرسله ابن بحدل إليه . وكتب ابن بحدل إلى بنى أمية يأمرهم أن يحضروا ذلك . فقدم ناغضة بالكتاب على الضحاك . فلما كان يوم الجمعة صعد الضحاك المنبر ، ولم يقرأ للكتاب ، فقام إليه ناغضة وطلب منه أن يقرأه ، فلم يفعل ، فأخرج ناغضة النسخة التى كانت معه وقرأها على الناس ، وكان من أثر ذلك منظرٌ قتال هو المعروف بيوم جيرون^(١) . فهاجت قيس وكتب بعضهم على بعض ، واقتتلوا في المسجد . وانقسم الأمويون في البجليين . وقام الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، ثم

(١) تسميته يوم جيرون الأول تسمية غير صحيحة ، لأن ما يسمى يوم جيرون الثانى ليس سوى اختلاف في قراءة النصوص (الطبرى ج ٢ ص ٤٧١ من ١٣ - ١٩) . وكان جيرون بيتاً كبيراً قديماً . ويظهر أن ضرب الضحاك وقع فيه بعد الصلاة . ويسمى أحد الأبوايد الكبيرة في المسجد باسم باب جيرون - قارن الحماسة ص ٦٥٦ بيت رقم ٤ .

يزيد بن أبي النفس الغساني ، ثم سفيان بن الأبرد الكلبى فأقر كل منهم ما جاء فى كتاب ابن بحدل ، وأنكر عمرو بن يزيد الحكى ما جاء فيه ، وبعد الصلاة وثبت كلب على عمرو بن يزيد الحكى فضربوه ومزقوا ثيابه . أما الضحاك فقد أمر بالقبض على المعارضين الذين هاجموا ابن الزبير ، وحبسهم . ولكن قامت كلب وغسان فأخرجوا رجلاً بينهم ، ولم يبق فى الحبس إلا الوليد بن عتبة ، لأنه لم يكن له قبيلة تخرجه ، ولقد قال : « لو كنت من كلب أو غسان لأخرجت » ، فعند ذلك تدخل خالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية ، وهما الأخوان الأصغران لمعاوية الثانى ، فجاءوا ومعهما أخوالهما من كلب فأخرجوه من السجن .

وفى اليوم التالى ندم الضحاك على ما كان منه ، فبعث إلى بنى أمية واعتذر إليهم ، وقال إنه لا يريد شيئاً يكرهونه ، واقترح أن يكتبوا هم إلى ابن بحدل ويكتب هو إليه أيضاً ، فيسير ابن بحدل من الأردن إلى الجابية ، ويسير هو والأمويون حتى يوافوه هناك . ولكن الضحاك انقلب فى آخر لحظة ، بعد أن خرج الناس وخرجت بنو أمية ، وذلك أن ثور ابن مثن بن يزيد بن الأحنس السلمى ، أحد رجالات قيس ، جاء إليه وكلمه قائلاً : دعوتنا إلى طاعة ابن الزبير ، فبايعناك على ذلك ، وأنت تسير إلى هذا الأعرابي ، تستحلف ابن أخته خالد بن يزيد ، : « انتهى الكلام بأن مال الضحاك إلى ما اقترحه عليه ثور من إظهار ما كان يسيره من طاعة ابن الزبير والدعوة إليه والقتال على ذلك . وعطف الضحاك من كان معه من الناس ، وسار بهم حتى نزل بمرج راهط ، قريباً من دمشق . وأظهر هناك البيعة لابن الزبير ، وبايعه على ذلك جبل أهل دمشق ، من اليمن وغيرهم . وكتب الضحاك إلى النعمان بن بشير أمير حمص وإلى زفر بن الحارث أمير قنسرين وإلى نائل بن قيس أمير فلسطين ، وكانوا جميعاً على طاعة ابن الزبير ، يستمدونهم ، فأمدوه بالأجناد . أما بنو أمية فلأنهم ذهبوا إلى ابن بحدل فى الجابية . وكانت

أهواء الناس في الجاهلية المختلفة (١) : وكان أمّاتهم السفيازيون الذين كانت الخلافة حتى ذلك الحين في أسرهم ، وكان يُستلهم بنو يزيد بن معاوية ، وكان يقابلهم في الجانب الآخر الأكبر عدداً بقية الأمويين ، وعلى رأسهم شيخ بني أمية وكبيرهم مروان بن الحكم . وكان هناك خلافاً حول من تُعقد له البيعة : فكان ثَمَّ من يميل إلى خالد بن يزيد من أحواله للذين كانوا يأملون أن يتصعّتهم على رقاب العرب وأن يتجنبوا شرّ مروان ، وكان هناك من يميل إلى مروان بن الحكم ، ممن لم يريدوا أن يبايعوا غلاماً حدثاً ، بل يريدون شيخاً يقف أمام بن الزبير . وقد انتهى الخلاف باقتناع ابن بحدل - وكان هو الوصي على أبناء يزيد - بمبايعة مروان . وأجمع الناس أيضاً على البيعة له ، على أن تكون الخلافة بعده لخالد بن يزيد ثم لعمر بن سعيد بن العاص . وكانت لأسرة عمرو بن سعيد هذا مطامع في الخلافة ، وكان لابد من إرضائها . وخرج مروان إلى مرج راحط ومعه أهل الأردن من كلب ، وأتت السكاسك والسكّون وخسّان ورنج حسّان بن بحدل . وبينما كان الجيشان المتعاديان يعسكر أحدهما أمام الآخر ، وثب يزيد بن أبي الفس الغسّاني على دمشق في عبيدها ، فغلب عليها وأخرج عامل الضحاك بن قيس منها ، وغلب على الخزائن وبيت المال ، وبايع لمروان وأمدّه بالأموال والرجال ، واستمر القتال في مرج راحط عشرين يوماً ، وأخيراً هُزِمَت قيس وأهل الشام ، بعد أن قُتِلُوا مَقْتَلَةً عظيمة ، وقُتِل الضحاك ومعه ثمانون من أشرف الناس من أهل الشام ، كان كل منهم يأخذ

(١) كان من الأمويين فرج ، هو فرج العبّلات ، وكان هذا الفرع نفسه ينقسم إلى العنابس والأعياص . وكان السفيازيون من العنابس ، وكانت معظم بقية الأسر الأموية من الأعياص . ومروان بن الحكم وابن عمه عثمان بن عفان كانا من بيت أبي العاص ، وكان عمرو ابن سعيد من بيت العاص ، وتكرر الأسماء نفسها ، مع فوارق قليلة الشأن ، فيقال : أمية وعبد أمية ، العاص وأبو العاص - قارن الأغاني (ج ١ ص ٨ فا بعدها ، ص ٨٤ س ١٠ و ج ١٠ ص ١٠٣ فا بعدها و ج ٧ ص ٦٢ والطبرى ج ١ ص ٢٥٣٥ .

القطيفة ، والذي كان يأخذ القطيفة كان يتقاضى حطاً مقداره ألفاً دهم .
 وإلى جانب رواية عوانة هذه تقف رواية المدائني (الأغاني ج ١٧
 ص ١١١) . لا يقول المدائني شيئاً عن يوم جيرون ، وهو يحكى عن مروان
 شيئاً آخر . غير أنه يتفق مع عوانة في آخر روايته اتفاقاً تاماً ، فيقول :
 إن مروان لما قدم إلى دمشق ، ومعه الأمويون الذين كانوا في المدينة ، أفتحه
 الضحّاك في أول الأمر ، بالانضمام إلى ابن الزبير ، ورضى مروان بأن
 يتقدم بنفسه على ابن الزبير ببيعة أهل الشام ، ولكن عمرو بن سعيد
 ابن العاص وعبيد الله بن زياد ومالك بن هبيرة والحُصَيْن بن نُمير^(١)
 - والأخيران منهما من قبيلة سَكُون - أفتوه بأن يقرر عقد البيعة لنفسه .
 فلما علم الضحّاك بذلك رجع عن رأيه واعتذر لبي أمية ، واقترح أن يذهب
 معهم إلى ابن بحدل في الجابية ويشترك معهم في اختيار الخليفة . فأقبل
 ابن بحدل في أهل الأردن إلى الجابية . وسار الضحّاك وبنو أمية في أهل
 الشام إلى هناك أيضاً ، ولكن قيساً قبضت على الضحّاك ، في آخر لحظة ،
 وهو يصل ، وقالت له : دَعُونَنَا لبيعة ابن الزبير ، وهو رجل هذه
 الأمة ، فلما تابعتك خرجت تابِعاً لهذا الأعرابي من كلب ، تابع لابن
 أخته^(٢) ، تابعاً له ! فعند ذلك اضطرب الضحّاك أن ينقلب وأن يفعل
 ما أشاروا به عليه من إظهاربيعة ابن الزبير ، وسار حتى نزل مرج راهط ،
 وأقبل ابن بحدل حتى لقي مروان وسار إلى دمشق حيث انضمت إليهما
 الجمانية ، فساروا مع مروان حتى نزلوا المرج على الضحّاك ، وبدأ
 وهم نحو سبعة آلاف رجل ، والضحّاك في نحو من ثلاثين ألفاً ، وبدأ
 القتال فقتل الضحّاك ، وقتل معه أشراف من قيس ، وأقبل زُفَر بن
 الحارث هارباً من وجهه إلى قرقيسيا ، وأقام عمير بن الحباب شيئاً على طاعة

(١) وفي رواية عوانة خلاف يسير - الطبري ج ٢ ص ٤٧٤ ، وقارن ص ٤٨٧ .

(٢) هذا لا يتفق تمام الاتفاق مع المقدمات ، وابن أخت ابن بحدل المقصود هو خالد
 ابن يزيد .

بنى مروان ، ثم أقبل حتى دخل قرقيسيا على زفر بن الحارث ، فأقام معه ،
وذلك بعد يوم خازر ، حين قُتِلَ عبيد الله بن زياد :

أما أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٤٨٠ فما بعدها) فهو يروى رواية
مغايرة للملك تماماً ، فيقول إن مروان والأمويين الذين نفاهم ابن الزبير من
المدينة ومكة ومن الحجاز كله لم يقصدوا دمشق ، لأن الضحاك كان أميراً
عليها لعبد الله بن الزبير ، بل هم نزلوا تدمر ، المقر الرئيسي لكلب والنقطة
للوسطى لتجسّسهم . وبينما كان مروان على وشك أن يركب بنفسه إلى
ابن الزبير ليبيعه بالخلافة ويأخذ منه الأمان لبني أمية ، إذ ظهر عبيد الله
ابن زياد في تدمر آتياً من الهيرة ، فأشار على مروان بأن يأخذ البيعة لنفسه
من أهل تدمر ويسير بهم وبمن معه من بني أمية ، ويُخرج الضحاك من
الشام . ووافق عبد الله بن زياد على رأيه عمرو بن سعيد . ثم أشار عمرو على
مروان بأن يتزوج أرملة يزيد ليكون ابنها خالد في حجره ، وكذلك حدث ،
فأخذ مروان البيعة لنفسه في تدمر وسار بعد ذلك في ستة آلاف رجل لفتح
الضحاك ، وخرج الضحاك في أهل دمشق ، وخرج معه زفر بن الحارث
وغیره من أنصار ابن الزبير وساروا إلى مرج راهط ، فقُتِلَ الضحاك وعامة
أصحابه في المعركة ، وتفرق جيشه . فأما زفر بن الحارث فلم يأخذ وجهاً
من تلك الوجوه هو وشابان من سُلَيْم ، فجاءت خيل مروان تطلّبهم ،
فخاف الشابان السُلَيْمِيَّان أن تدرّكهم جميعاً خيل مروان ، فقالا لزفر :
يا هذا ! أنج نفسك ، أما نحن فمقتولان ! وهكذا ضحّيا بأنفسهما من
أجله (١) . ثم لحق زفر بقرقيسيا ، واحتال على واليها حتى دخل المدينة ،
ثم أخرجهم منها وتحصّن هو بها . وأما نائل بن قيس الجذامي أمير
فلسطين ، فإنه خرج منها هارباً ولحق بابن الزبير في مكة . ولما بلغ
البحر بن بشير أمير حصن الخبر موقعة مرج راهط من أجناد حمص الذين

(١) وتشهد بذلك أبيات لزفر نفسه ، فهو صحيح - قارن كتاب أنساب الأشراف .
ص ٢٥٣ فما بعدها .

انهزموا إليها ، خرج هارباً ليلاً ، ومعه أهله وولده وثقلته . ونحير ليلته كلها ، وأصبح أهل حصص فطلبوه ولحقوه وقتلوه . وبعد هذا النصر أطبق أهل الشام كلهم على مروان واستوسقوا له ، واستعمل عماله على بلاد الشام .

والواقدي يقف في موقف شبه وسط بين أبي مخنف من جهة وبين حوالة والمدائني من جهة أخرى . ويمكن جمع روايات الواقدي المتفرقة عند الطبري وتلخيصها على النحو الآتي : كان معاوية الثاني لما حضرته الوفاة قد أتى أن ستخلف أحداً (الطبري ج ٢ ص ٥٧٧ س ١) ، فبوع الضمحاك مؤقناً في دمشق ، إلى أن يجتمع أمر الأمة الإسلامية (الطبري ج ٢ ص ٤٦٨) ، وكان الضمحاك يعمل من أجل البيعة لنفسه ، ولكن قريشاً دفعوه إلى مبايعة ابن الزبير (الطبري ج ٢ ص ٤٧٣ فما بعدها) ، وانضوى مروان تحت لواء الضمحاك . ثم جاء الحصبين بن تميمير مع الأمويين الذين أخرجهم ابن الزبير من المدينة ، وأخبر مروان بنجر ابن الزبير ، وحثه على أن يعمل هو وبنو أمية على إزالة ما هم فيه من اختلاف شديد وأن يقيموا أمرهم قبل أن يدخل ابن الزبير عليهم الشام فتكون فتنة عمياء صماء . فكان من رأى مروان أن يرحل إلى ابن الزبير فيبايعه . ولكن عبيد الله بن زياد قدم إلى دمشق ، لحسن الحظ ، وشد ظهر بني أمية (الطبري ج ٢ ص ٤٦٧ فما بعدها) . وعند ذلك قصد مروان إلى البهاية ، لكي يتحالف مع ابن بحدل واليمانيين ، وهناك تلقى البيعة لنفسه باعتبار أنه شبيخ بني أمية وكبيرهم ، لأن أهل الشام لم يريدوا أن يبايعوا خالد بن يزيد ، لأنه كان غلاماً حدثاً (الطبري ج ٢ ص ٤٧٢ فما بعدها) . وعند ذلك خرج مروان مع اليمانيين إلى دمشق ، وهُزمت قبائل قيس عند مرج راهط في سنة ٦٤ هـ ، وقتلت متفككة لم يقتل مثلها في موطن قط (الطبري ج ٢ ص ٤٧٣ س ١) .

وأهم النقط التي تختلف فيها هذه الروايات هي : لا يوجد ذكر ليوم جبرون

الذى كان فيه أول مَسْنَعٍ للتوتر الموجود في دمشق إلا عند عوانة ، ولا يُذكر عند غيره قط . ويؤيده كتابُ الحِجَاسَةِ (ص ٦٥٦ بيت رقم ٤) تأييداً لا يُدْفَعُ ، والشارح بخطي* في ذكر مناسبة ذلك (فهو يقول إنها كانت في عهد معاوية الأول) ؛ وليراجع القارى* ، خلافاً لذلك ، كتاب الحِجَاسَةِ (ص ٦٥٧ بيت رقم ٣) وينفرد أبو مخنف بالقول بأن الأمويين الذين أُخْرِجُوا من المدينة ذهبوا إلى تدمر ، ولقيهم هناك حبيد الله بن زياد . وأبو مخنف يخالف في ذلك جميع الرواة ، لأنهم يذكرون أن الأمويين توجهوا إلى دمشق^(١) . على أن الواقع على كل حال هو أن ما حدث على مسرح جيرون حدث أيضاً في دمشق وحضره بعض الأمويين (الطبرى ج ٢ ص ٤٧١ - ٤٧٢) . أما القول بأن جميع الأمويين الذين جاءوا من المدينة كانوا هناك فلا يظهر من وصف ما حدث ، ولا يُذكر مروان وعمر بن سعيد ، وهما لا يظهران حيث يُسْتَنْظَرُ أن يظهرَا . ورغم هذا فإن رواية أبي مخنف قد جُمِلَتْ أهم* مما كانت ، وذلك خطأ على كل حال ، لأن تدمر عند أبي مخنف لا تحمل على دمشق وحدها ، بل محل الجابية أيضاً . وهو يعتبر أن مبايعة مروان ، التي حدثت في الجابية من غير شك ، حدثت في تدمر . وربما كان ذلك لأن تدمر كانت المقر الرئيسي لقبائل كلب ولم تكن الجابية هي هذا المقر :

أما انقلاب مروان فلا يذكره عوانة على الإطلاق . وأما القول بأن مجيء حبيد الله بن زياد هو الذى أحدث هذا الانقلاب ، فهو ما يقوله أبو مخنف والواقدي ، وهما جديران بالثقة ، وخصوصاً أن المدائني يوافقهما فيما يقولان (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٩ ؟) :

ويقول عوانة والمدائني إن الضحاح كان من أول الأمر يهوى هوى ابن الزبير ، وإن كان لم يجاهر بذلك : ويقول أبو مخنف إنه كان أميراً لابن الزبير

(١) انظر أيضاً كتاب . Cont. Byz. Ar. § 29

على دمشق . ولكن أبناء الضحاك قالوا للواقدي (الطبري ج ٢ ص ٤٧٣
فما بعدها) إن ذلك كذب من جانب آل الزبير ، وإن الضحاك أراد أن يبقى
محايداً لكي يصل هو إلى الخلافة ، وإنه لم يبايع ابن الزبير إلا كارهاً .
ويستطيع الإنسان أن يصدق أبناء الضحاك . ويظهر أن الضحاك ، شأنه شأن
مسلم بن حقبة ، قد احتفظ في خلافة يزيد أيضاً بالمركز الذي كان له أيام
معاوية ، وكان هو الساعد الأيمن لمعاوية ، وبعد أن انتهى ملك أسرة معاوية
كان الضحاك هو الخليفة المؤقت في دمشق ، ولكنه لم يستطع أن يحتفظ
بمركزه فوق الأحزاب ، وبعد تردد طويل انضم أخيراً إلى جانب قيس
وابن الزبير .

وكان الذي أخرجه عن الجهاد هو بوجه خاص حسّان بن مالك
ابن بحدل ، منافسه القديم وخصمه الخطير عندئذ . وكانت وراء حسّان
أقبائل كلب ، وظل حيناً ينافح وحده عن راية بني أمية بدفاعه عن حقوق
أبناء يزيد ، وهم أبناء أخته . وقد انضم إليه أمويّو المدينة في ذلك ،
ولكنهم لم يُقدِّموا في أول الأمر مرشحاً للخلافة من بينهم ، بل كانوا
يعتقدون أنهم يجب عليهم أن يسالموا ابن الزبير ، مهما كان في ذلك من خير
أو شر ، ولم يغيّر رأيهم إلا عبيد الله بن زياد ، ذلك أنه لما بيتن عبيد الله
لمروان أنه ليس مضطراً أن يختار بين ابني يزيد الغلامين القاصرين وبين
ابن الزبير وحدهم ، بل يجب عليه أن يتقدم هو للرياسة ، كانت الوسيلة
الوحيدة لذلك هي أن يتفاهم مع ابن بحدل لأن ابن بحدل هو الذي كانت في
يده دون غيره القوة الكافية (الطبري ج ٢ ص ٧٠٨ س ٤ - ٥) .
ولتحقيق هذا الغرض تمّ الاجتماع في الجابية ، ويظهر أن الضحاك كان قد وافق
على أن يحضر الاجتماع ، وهو الذي وصل الاجتماع إلى غايته بعد مفاوضات
طويلة . ومن المؤكد أن هذا الاجتماع وقع فعلاً ، وإن كان أبو مخنف لم يذكره ،
ذلك أنه ما كان شيء " ليتمكن أن يُعْمَل بدون ابن بحدل ، وظل ابن بحدل

يصل بالناس في الجابية أربعين يوماً ، وكان هو المنتصر الحقيقي في مرج راهط (١) . يقول تيوفانيس في أخبار حواث سنة ٦١٧٥ :

Kai συναχθέντες οἱ Φοίνικες καὶ οἱ Παλαιστίνης ἐπὶ τὴν Δάμασκον ἔρχονται καὶ ἕως τοῦ Γαβιθᾶ πρὸς Ἀσαν , ἀμνηστῶν Παλαιστίνης , καὶ δίδουσι χεῖρας δεξιᾶς τῷ Μαρουᾶμ καὶ ἰσχύουσιν αὐτὸν ἀρχειν.^(٢)

أما المؤرخون المحدثون ، وعلى رأسهم دوزي ، فهم يتكلمون عن عداوة متأصلة بين كلب وقيس ، ويزعمون أنها ترجع إلى أزمان لا تعبها ذاكرة التاريخ ولا يمكن الوصول إلى عروقتها ، ولكن شيئاً من ذلك لا يوجد في الروايات السابقة على الإسلام ، فالحقيقة هي أن العداوة لم تكن موجودة قبل فتح الشام على يد المسلمين ولا قبل هجرة قبائل قيس إلى الشام^(٣) . على أن التمايز في النسب بين قضاعة وقيس كان موجوداً من قديم ، ولكنه لم يصبح سبباً في تسم العلاقة بينهم إلا الآن . وقد اشتدت الخصومة بينهم أول الأمر ، لأن قضاعة كانت متوطنة في الشام من قبل وأن قيساً كانت حديثة عهد بالهجرة إلى هناك ، ولكن الخصومة زادت حدة بوجه خاص لأن قبائل كلب أصبحت بفضل مصاهرتها

(١) قارن الحماسة ص ٣١٩ من ٧ :

وما الناس إلا بتحدائي على الهوى ولا زُبَيْرِي عصي فتزبراً

ولكن قارن خصوصاً ص ٦٥٨ بيت رقم ١ - ٢

أَهْبَدَ المَلِيك ما شَكَرْتَ بلاءَنا فَكُلُّ في رِغْما لَأَمِنْ ما أَنْتَ آكِلُ
يُجَابِيَةُ الحَوْلان لولا ابْنُ بِحْسَلٍ هَلَكْتَ وَأَمَّ بِنَطْقٍ لِقَوْمِكَ قَاتِلُ

(٢) [وترجمة هذا النص اليوناني هي : وبعد أن اجتمع أهل فينيقية وأهل فلسطين وذهبوا إلى دمشق ومنها إلى الجابية إلى الحسن أمير فلسطين بايعوا مروان ونصبوه خليفة - المترجم] .
(٣) وقد أصاب جولدنزهر (Muh. Studien I, 78) في القول بأن التنافس بين عرب الشمال وعرب الجنوب لم يظهر حقيقة إلا في الإسلام .

للمعاوية ويزيد قربة من البيت الحاكم . وكان من أثر ذلك أن امتلأت نفوس قيس بالحسد ، لأنهم اعتقدوا أنهم قد زُحِزِحوا إلى المرتبة الثانية : ثم صاروا هم البادئين بالشر ، وذلك أنه لما ارتفع شأن ابن الزبير بعد وفاة يزيد ، انصهروا إلى جانبه ، على حين حافظت كلب على ولائها للأُمويين : وهكذا امتزج الخصام القبلي بالسياسة العليا ، وكانت مجموعات القبائل المرتبطة برابطة النسب هي بالإجمال الأحزاب السياسية التي كانت في أصلها مستقلة عن القبائل : وفي موقعة مرج راهط ، إذا أخذنا بالقصائد القديمة التي قبلت فيها ، كانت قبائل سليم وعامر (هوازن) وذبيان (غطفان) - وكلها قبائل تنتمي إلى مجموعة قبائل قيس - يحاربون تحت إمرة المضحك مع ابن الزبير : أما القبائل التي كانت تحارب لأجل مروان تحت قيادة ابن بحدل فكانت قبائل كلب وفسان وسكُون وسكسك وتنوخ وطبئ وقين ، وهذه المجموعة التي كانت تتألف من قبائل كلب (١) ، وهي القبيلة الرئيسية في قضاة ، كانت أكثر تنوعاً ، وهي تسمى أحياناً باسم شامل هو : اليمن . ولكن اعتبار قضاة داخلة في قبائل اليمن لم يكن قديماً ، ولم تنضم قبائل اليمن كلها في الشام إلى قبائل كلب . وقد انتهت موقعة مرج راهط بانتصار كلب على قيس التي كانت أكثر من كلب ضعفين أو ثلاثة أضعاف . ولكن النزاع بين قيس وكنب لم ينته بذلك ، لأن قيساً كان لابد أن تتأثر لقتلاها الكثيرين . وهنا ، لا قبل ذلك ، يبدأ على وجه أصبح ذلك الخصام المبرير المستمر الذي يعتبره دوزي ظاهرة قديمة جداً يردّها إلى الأزل ، مخالفاً في ذلك للتاريخ مخالفة تامة .

(١) كانت سكُون (من كتلة) تعتبر أنفسهم منهم (الطبري ج ٢ ص ٤٧٥ ص ٢) . وكانت تنوخ وطبئ أيضاً مرتبطة بهم ارتباطاً وثيقاً (الطبري ج ٢ ص ٤٨٤ ص ١٢) . أما فسان (من الأزد) فكانت هي القبيلة القديمة الحاكمة من عرب الشام . وفي كتاب الحاشية (ص ٧١ بيت رقم ٣) تسمى قبائل كلب باسم قنلب ، إذا صح ما جاء في الشرح .
(١٢ - الدولة العربية)

وكان البغض الناشئ من اختلاف الدم يتجدد في كل مناسبة يجد فيها ما يشفيه ، وهو قد كان يُلهب نيرانَ العداوة ، حتى بعد أن زالت الأسباب السياسية ، وبعد أن تُسبِت ، بزمان طويل . والوزن في ذلك يرجع إلى موقعة مرج راهط ؛ وفي هذا ينحصر شأنها الخطير وما جرته من كوارث ، فلقد جاءتْ للأُمويين بالنصر ، ولكنهما في الوقت نفسه زعزعتْ أسس ملكهم . وتلقى مروانُ البيعة في الجابية يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي القعدة سنة ٦٤ هـ ، الموافق الأربعاء ٢٢ يونيو سنة ٦٨٤ م . بعد موقعة مرج راهط (آخر هام ٦٤ هـ) جاءتْ بيعةٌ أخرى كانت ذات صبغة أهم وأقوى احتفالاً ، وذلك في دمشق في المحرم سنة ٦٥ هـ ، الموافق يولييه أغسطس سنة ٦٨٤ م .

وقد وصل مروان ، بفضل إخراجهِ من المدينة ، إلى عرش دمشق دون فضيلة اختص بها^(١) ، بل ودون أن يكون هو نفسه قد أراد ذلك أو حدثتْ نفسه به . وقد بدأ هذا لصاحب كتاب . *Cont. Byz. Arab* شيئاً عجيباً ، وله أن يعجب ؛ فهو يقول^(٢) :

(١) [الحقيقة أنه بعد موت يزيد وتنازل معاوية الثاني ثم موته لم يبق من بيت أبي سفيان سوى غلامين حديثين ، هما خالد وعبد الله ، ابنا يزيد . وكانت تلوح على خالد - الذي اتجه إلى دراسة الحكمة فيما بعد - علامات الذكاء ، ولكنه كان حديثاً لا يمكن اختياره للخلافة أمام ابن الزبير . ولم يكن هناك من بيت النسي نفسه أحد بعد قتل الحسين وولاة الحدين ، وقد استعرض روح بن زنباع الجذامى الموقف في خطبة له (الطبرى ج ٢ ص ٤٧٥ - ٤٧٦) عند تنويع الأهرار حول المرشح للخلافة ، فوجد أن عبد الله بن عمر ، الذي ذكره البهس ، رجل ضعيف لا يصلح لقيادة الأمة الحمديّة ، وأن ابن الزبير ، رغم مكانته ، منافق خارج على الأمة . قد سلك دماء المسلمين ؟ فلم يبق إلا مروان بن الحكم . ويذكر عند الطبرى في مواضع أخرى ، ما كان لمروان من سن وتجربة ، وما كان مسلماً له به من أله شيع بنى أمية وكبيرهم . وإذا فلم يكن انتخاب مروان جزءاً ، بل كان لأنه لم يكن في بيت بنى أمية من يصلح للخلافة غيره . وأولا تعيينه خليفة اتفقت عليه كلمة أهل الشام الذين كانوا عماد الدولة العربية ، لتعرضت هذه الدولة لأعظم الأخطار . أما إنه لم يكن يطمح في الخلافة فهذا صحيح - المترجم] .

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتينى هي : وشاءت إرادة الله أن يمتل مروان العرش (بعد أن كان قد أُخرجَ غدرًا من المدينة) بعد فترة طويلة من الزمان ، وذلك بفضل جماعته من الجيش اتفقت على ذلك - المترجم] .

Marvan (insidiose ab Almidina pulsus) post modica temporis intervalla aliquantis de exercitu consentientibus deo conivente provehitur ad regnum.

وهكذا بقيت الخلافة في بيت بني أمية ، ولكن المروانيين أزالوا السفليانيين عنها^(١) ، وكان زواج مروان من فاختة^(٢) أرملة يزيد ، أشبه بأخذ الميراث منه بأن يكون زواجا ومصاهرة . وقد آلم مروان بذلك نفس خالده بن يزيد^(٣) ، الذي أصبح في حجره ، ألماً شديداً . وكان مروان لا يألو جهداً في إسقاط خالده من أعين الناس (الطبرى ج ٢ ص ٥٧٧) ، وأخيراً حرّمه مما كان قد وعده به في الحجابة من أن تكون له الخلافة بعده ، فأخذ البيعة لابنيه : عبد الملك وعبد العزيز ، على أن يكون عبد العزيز بعد عبد الملك^(٤) . ولم يعارض ابن بهدل في هذا النكت بالعهد ، وربما كان ذلك لأن من شأن هذا النكت أن يُنصَحَى عمرو بن سعيد بن العاص أيضاً ، لأن مروان كان شيخاً قد كَبُرَتْ سِنُهُ ودَقَّ عَظْمُهُ ، وكان لا يُنْتَظَرُ له أن يعيش طويلاً ، وكان خالده بن يزيد ، بحسب رأى العرب ، لا يزال صغيراً لا يصلح لتولى الخلافة ، وعلى هذا كان مآل الخلافة إلى عمرو بن سعيد ، وكان عمرو والفاً من ذلك . ولكن فاختة انتقمّت لابنها خالده من خدر مروان وتعمّده إسقاط خالده في أعين الناس ، فغطّته بالوسادة وهو في سريره حتى قتله ، وهذا ما يرويه الواقدي (الطبرى ج ٢ ص ٥٧٦) فما بعدها .

٤ - ومات مروان بن الحكم ، بحسب رواية الطبرى (ج ٢ ص ٥٧٧ ص ١٧) ، في رمضان ، وبحسب رواية الطبرى أيضاً (ص ٥٧٦ ص ١٦) في

(١) قارن ما تقدم ص ١٦٦ - ١٦٧ و ١٧٥ .

(٢) لم تكن فاختة في رأى A. Müller, I, 375 بدوية أبية ، وإنما كانت قرشية [كيف وقد تقدم أنها كانت أخت ابن بهدل ، سيد كلب - المترجم] .

(٣) راجع البيت المذكور عند ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٧٥ ، وقارن ص ٢٩٦ ص ٨ .

(٤) راجع فيما يتعلق بزمان هذه البيعة ومكانها كتاب أنساب الأشراف (ص ١٥١ ،

١٦٤ فما بعدها) .

هلال رمضان . وبحسب ما يقوله إلياس النصيبى فى يوم الأحد ٢٧ رمضان سنة ٦٥ هـ ، الموافق الأحد ٧ مايو سنة ٦٨٥ م . وتختلف الروايات فى عمره عند الطبرى (ج ٢ ص ٥٧٧ فما بعدها) بين ٦١ و ٨١ عاماً بحسب الأقل والأكثر . ويقول ثيوفانيس إنه حكم تسعة أشهر ، ويقول الطبرى إنه حكم تسعة أشهر أو عشرة . ويذكر فى كتاب Contin. Byz. Ar. § 29 أنه مات بعد عام مملوء بالحروب ؛ وإلى أضيق هذه الحروب إلى حروب ابنه وخليفته عبد الملك ، لأنها ليست إلا البداية ، ولأن الحدود بين حكميهما لا يمكن وضعها فى كل الأحوال وضعاً دقيقاً^(١) .

وكانت أكبر حرب هى الموجهة إلى ابن الزبير ، وعلى الأقل إلى الولايات التى كانت قد بايعت له وكان عليها أمراء من قبيلته^(٢) . وعاد الموقف فى الحملة إلى ما كان عليه بعد مقتل عثمان . فوقفت الشام وحدها أمام جميع البلاد الإسلامية ؛ غير أن سيد الشام عند ذلك لم يكن واقعاً من ولائها له ثقة معاوية من قبل . وبعد موقعة مرج راهط انضمت فلسطين وحمص ، من غير تردد ، إلى الجانب المنتصر . وسلمت قنسرين أيضاً . ولكن قبائل قيس ثبتت على ضفاف الفرات على عنادها وكان سيدها زفر بن الحارث فى قرقيسيا : ورغم هذا ظهر مروان وعبد الملك من أول الأمر مهاجمين لابن الزبير ، وربما كان ما على ابن الزبير أن يواجهه من اضطرابات فى الداخل ، خصوصاً فى العراق ، أشد عليه من هجوم مروان وعبد الملك^(٣) . وبعد أن اجتمع مروان أسر الشام سار إلى مصر ، وأخذ البيعة فيها لنفسه ؛

(١) والحدود المرسومة عند الطبرى (ج ٢ ص ٥٥٨ س ١٤ ، ٥٧٨ س ٩ ، ٧٠٨ س ٤) خطأ من غير شك .

(٢) قارن فيما يتعلق بخراسان الطبرى ج ٢ ص ٨٠٦ ، ٨٣١ فما بعدها ، وقارن الفصل الثامن فيما يل .

(٣) قارن فيما يتعلق بما يأتى : Schia, p. 72ss. Chavârig, p. 82ss.

ثم أقبل راجعاً إلى دمشق ، حتى إذا دنا منها بلغه أن ابن الزبير قد بعث أخاه الأصغر مصعب بن الزبير نحو فلسطين ، فسرّح إليه مروان عمرو بن سعيد في جيش فهزمه^(١) . غير أن محاولة لمروان أراد بها استرداد المدينة باءت بالفشل^(٢) ، ووجه مروان حبيد الله بن زياد إلى الجزيرة لكي يعبر إلى العراق التي كانت قد مزقتها النزاع بين الأحزاب الدينية السياسية ، ويروى أن مروان وعد حبيد الله بأن تكون له جميع البلاد التي يغلب عليها وأنه أمره إذا هو غلب على الكوفة أن ينهيها ثلاثة أيام (الطبري ج ٢ ص ٥٧٨ و ٦٤٢) . وفي أول هذه الحملة ، عندما كان حبيد الله لا يزال عند جسر متّيج على الفرات . كانت مقتلة شيعة الكوفة الذين كان يقودهم سليمان ابن صرد عند عين وردة ، وكان قتلهم على يد الحصين بن عمر قائد حبيد الله ابن زياد يوم الجمعة ٢٤ جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ ، الموافق الجمعة ٦ يناير سنة ٦٨٥ م (الطبري ج ٢ ص ٥٥٩ س ٤ ، ٢٠) . ثم اضطر عبد الله أن يشتغل عند ذلك بقتال زفر بن الحارث ومن معه من قيس نحواً من سنة^(٣) ، وبعد ذلك تقدّم سائراً مع طريق الجبوش العادي إلى العراق قاصداً الموصل ، وذلك في الوقت الذي كان فيه المختار الثقفي قد استولى على الكوفة . وانحاز أمير الموصل من قبيل المختار إلى تكريت (الطبري ج ٢ ص ٦٤٣) ، فهزم حبيد الله الجليش الأول الذي وجهه إليه المختار ، بعد قتال عنيف ، وذلك في العاشر والحادي عشر من ذي الحجة سنة ٦٦ هـ ، الموافق ٩ و ١٠ يولييه سنة ٩٨٦ م (الطبري

(١) الواقدي عند الطبري ج ٢ ص ٤٦٧ س ١٠ ، وأبو مخنف ص ٤٨١ ، وحوالة ص ٥٧٦ ، وقد تم ذلك على يد عمرو بن سعيد ، قبل أن يأخذ مروان البيعة لولده - راجع كتاب أنساب الأشراف ص ١٦٤ س ١٧ .

(٢) حوالة عند الطبري ج ٢ ص ٥٧٨ فـا بعدما وص ٦٤٢ ، راجع أيضاً كتاب أنساب الأشراف ص ١٥٥ س ٢ ، ١٨٠ س ٢ . وكان يوسف الثقفي والد الحجاج مشتركاً في ذلك ، وهذا بحسب مكاية ابن قتيبة ص ٢٠١ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ٤٦٣ ، ويختار فان جيلدر (Van Gelder) في كتابه Muchtar, P. 96, 152) أن هذا خطأ . دون أن يبدى الأسباب الكافية لمسا يقول .

ج ٢ ص ٦٤٦ وما يليها . ولكن عبيد الله لم يلبث أن هُزم بعد ذلك أمام جيش ثانٍ للشيعة يقوده إبراهيم بن الأشتر ، وذلك في موقعة خازر ، في أول سنة ٦٧ هـ (١) ؛ وقُتل عبيد الله نفسه كما قُتل الحصين بن نمير أيضاً (الطبري ج ٢ ص ٧١٤ س ١ - ٣) . وكان طبيعياً أن ترفع قيس رأسها من جديد في قرقيسيا ، وشدت من أزرهم رجالٌ من قبائلهم ، جاءوا تحت إمرة عُمَيْر بن الحباب ، وكانوا من قبل يحاربون في جيش الشام ، ولكنهم انفصلوا عنه في أثناء موقعة خازر أو بعدها . وذهب العمل الذي قضى عبيد الله قرابة عامين في تحقيقه سدى ، وكان لا بد أن يُعْمَلَ من جديد . وكان من حسن حظ عبد الملك أن مصعب بن الزبير ، وكان أميراً لأخيه على العراق ، قد ضابقه الشيعة والخوارج في إمارته نفسها ، فلم يكن يستطيع أن يفكر في الشروع في حرب خارج العراق .

وكان لا بد أن يمضي زمانٌ طويل قبل أن يستطيع عبد الملك أن يستأنف المهمة التي فشل فيها عبيد الله بن زياد ، أحق إخضاع العراق التي كان يحكمها مصعب مستقلاً بعض الاستقلال عن أخيه . وكان على عبد الملك أن يشتغل بمشكلات في الداخل ، لأن نائيل بن قيس ، فيما يظهر ، بدأ يتوَّج من جديد (٢) ، ولكن الذي عاق عبد الملك هو بنوع خاص أن الروم خرقوا السلام ، وأدخلوا يحرّضون الجحراجه (die Mardaiten) في جبال اللكام (Amanus) على العرب (٣) ؛ ولكن مصعباً قُتل في سنة ٧٢ هـ ، وانتهت الحرب الأهلية في سنة ٧٣ هـ . وفيما

(١) أغسطس سنة ٦٨٦ م . وقد ذهبى دى هوى إلى التاريخ الدقيق الموجود في كتاب للتنبه والإشراف المسعودى ص ٣١٢ س ١٧ [هو يوم عاشوراء سنة ٦٧ هـ - المترجم] .
(٢) راجع المقوق ج ٢ ص ٣٢١ والمسعودى ج ٥ ص ٢٢٥ ، لكن ربما لا يكون هنا سوى خطأ في تاريخ السنة .

(٣) Göttinger Nachrichten 1901, p. 488ss. [وجاء عند المقوق ص ٣٢١ ، أنه لما أراد عبد الملك النهوض إلى محاربة نائل بن قيس بفلسطين أتاه الخبر أن طائفة الروم قد أتاخ على المصيصة ، فذكره أن يتشغل بمحاربته مع اضطراب البلدان ، فوجه إليه فصاحه وحمل إليه أموالاً كثيرة - المترجم] .

يتعلق بالمدة بين سنة ٦٧ هـ ، التي قُتل فيها عبيد الله بن زياد ، وسنة ٧٢ هـ نجد الروايات ناقصة . والمهم هو تحديد أزمنة الحوادث ، وهي لا تزال مضطربة اضطراباً تاماً . ويجب ألا يعزب عن البال أن نقطة الانتقال من هام إلى هام ، بحسب التاريخ الهجري ، كانت تقع في ذلك الوقت في الصيف وأن الحوادث التي كانت تتوقف في الشتاء عادة (الطبري ج ٢ ص ٧٩٧ س ١٠) كانت تنقسم بين سنتين من سني الهجرة ، على حين أنه لا تذكر في تحديد تواريخ الحوادث إلا سنة واحدة .

ومن السهل أن نفهم لماذا ترك عبدُ الملك مصعبُ بن الزبير يحارب المختار في سنة ٦٧ هـ ، وأنه لم يُزعج أهل العراق ، وهم يقتتلون ويفنى بعضهم بعضاً . ويذكر الطبري (ج ٢ ص ٧٦٥) وإلياس النصيبى أنه كان في الشام قحطاً شديداً في سنة ٦٨ هـ وبسببه لم يقدر أهلها على الغزو ، ويتكلم ثيوفانيس (في أخبار سنة ٦١٧٩ = ٩٩٨ من حكم السلوقيين = ٦٨ هـ) عن ذلك أيضاً ، أما المدائني (الأغاني ج ١٧ ص ١٦١ س ٢٦) فليس على حق فيما يقوله خلافاً للملك ، وهو يضع المجاعة في سنة متأخرة عن ذلك بعض التأخير .

ويقول رواية العرب وإلياس النصيبى^(١) إن أول خروج عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير كان في صيف سنة ٦٨٩ م = ٦٩ - ٧٠ هـ ، وكان معسكره ونقطة تجمع جيشه وقاعدة تدبير عملياته الحربية في بطنشان حبيب من أعمال قنسرين ، في هذه السنة وفي السنين التالية^(٢) . أما مصعب فكان معسكره في

(١) إن ترتيب الأحداث العربية في هذه السنين مضطرب عند ثيوفانيس اضطراباً تاماً ، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعتمد على ما يقوله عن زياد (= ابن زياد) والمختار وسعيد (= ابن سعيد) وعن مصعب إلا بعد إصلاح ترتيب الحوادث من حيث الزمان .

(٢) إن الرواية القائلة بأن عبد الملك كان مع الجيش في بطنان حبيب منذ سنة ٦٧ هـ تخالف الرواية المتقدمة عليها التي تقول إنه في هذه السنة لم يستطع أن يفوز بسبب القحط . وإنما تذكر هنا كلمة « بطنان » بطناناً ما يحكى من أنه في ذلك الوقت كان تحت أقدام الجيش بطنان الوحل ، وذلك بسبب المطر الذي نزل بعد الجفاف . وسبب التسمية لا بد أنه كان يرجع إلى أحوال دائم لا إلى ظروف طارئة ، كما قيل عن هاربورج Harburg في إنلثم Landdrestel Lüneberg إنها هاربورج الوحل Dreck-Harburg .

باجُستِيرا ، عند تكريت^(١) ، وكل من المعسكرين كان ثغراً ونقطة حدود على الطريق الكبير بين الشام والعراق ، أما أرض الجزيرة فكانت منطقة بين العدنانيين ، غير أنها كانت أقرب إلى أن تكون في يد مصعب منها إلى أن تكون في يد عبد الملك ، وذلك أن قبائل قيس على الفرات كانت أيضاً إلى جانب مصعب ، ولكي يكتفي عبد الملك بنفسه خطراً الروم فإنه صالحهم على أن يحمل إليهم أموالاً كثيرة^(٢) ، ولكن عمرو بن سعيد بن العاص ثار في دمشق وتحصن بها ، يريد الحصول على ما صار له في معاهدة الجابية من حق في الخلافة وحرمه منه مروان بنقضه هذه المعاهدة . فصار عبد الملك مُهتدداً من خلفه ، واضطرب إلى أن يقفل راجعاً لدرء هذا الخطر ، فأعمل السيف وقتل أعداءه (الطبري ج ٢ ص ٨٠٥) ، وقتل بيده عمرو ابن سعيد بن العاص على نحو فيه غدر وقسوة منكورة . والروايات (الطبري ج ٢ ص ٧٨٣) لها بعدها وص ٧٩٦ وكتاب أنساب الأشراف (ص ٢٥) تضع بعض هذه الحوادث في سنة ٦٩ هـ ، وتضع بعضها الآخر في سنة ٧٠ هـ ، ولكن لا يصح أن يُخدع الإنسان بهذا فيعتبرها منفصلة ، لأنها في الحقيقة متصلة وقد وقعت في صيف واحد . والروايات مضطربة أيضاً فيما يتعلق بالمدى الذي ذهب إليه عبد الملك بالفعل في حملته نحو الشمال الشرقي . فيقول الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٧٨٣) وإلياس النصيبى إنه رجع من عند عين وردة ، ولكن الواقدي نفسه (الطبري ج ٢ ص ٧٩٦) يقول إنه لم يكن قد تجاوز بطنان حبيب ، ويظهر أن هوانة (الطبري ج ٢ ص ٧٨٣) لها بعدها) يأخذ بالرواية

(١) يقول ياقوت (ج ١ ص ٦٦٤) إن عبد الملك أيام حربه مع مصعب بن الزبير كان يشتد في بطنان حبيب ، وإن مصعباً كان يشتد في سكن . وكان لمسكن نفس الأهمية الجغرافية العسكرية تقريباً التي لباجُستِيرا - فارن البلاذري (ص ١٤٩ س ٨) .

(٢) راجع Götting. Nachrichten 1801 p. 488 [ويقول الطبري ج ٢ ص ٧٩٦ ، إن عبد الملك صالح ملك الروم على أن يحمل إليه في كل بحمة ألف دينار ، وذلك خوفاً منهم على المسلمين - راجع هامش صفحة ١٨٢ - المترجم] .

الأخيرة ، وهو يقول إن عبد الملك كان في طريقه إلى محاربة زفر بن الحارث في قرقيسيا^(١) ، ولكنه اضطر أن يرجع لأن عمرو بن سعيد - بعد أن كان قد رافق عبد الملك إلى البطنان - رجع خفية هو وآخرون إلى دمشق ، واستولى عليها ، ونجد مثل هذا عند اليعقوبي (ج ٢ ص ٣٢١ فما بعدها) ، وفي السنة التالية ، سنة ٧٠ - ٧١ هـ = صيف ٦٩٠ م ، أهدت الحملة ، وفي هذه المرة أيضاً لم يشتبك الخصمان . وبينما كان مصعب في الميدان (الطبري ج ٢ ص ٧٩٨ - ٨٠٣) دبر عبد الملك ثورة قبائل كلب أو ربيعة (وهم المسمون الجفريّة) في البصرة ، وقد اشترك في قتال مصعب وزفر رجلان من تلقاء أنفسهما ، ولم يكن ناشئاً عن المحبة لعبد الملك بمقدار ما كان ناشئاً عن البغض لمصعب بن الزبير : وهما عبيد الله ابن الحرّ الجعفي من أشرف الكوفة (الطبري ج ٢ ص ٣٠٥ و ٣٨٨ فما بعدها و ٧٦٥ فما بعدها) وعبيد الله بن زياد بن ظبيان البكري من أهل البصرة ، وكان شجاعاً مقداماً ومن أفكك الناس (الطبري ج ٢ ص ٨٠٠ و ٨٠٧ - ٨١٠ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٥ و ٢٦٨ وكتاب الأغاني ج ١١ ص ٦٢) .

ولم ينته هذا اللقاء إلى شيء . يقول الطبري في حوادث سنة ٧١ هـ (ج ٢ ص ٧٩٧) إن عبد الله خرج إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير . ثم يذكر ما كان يقال من أن عبد الملك كان لا يزال يقرب من مصعب حتى يبلغ بطنان حبيب ، وأن مصعباً كان يخرج إلى باجيرا - فكانت المسافة بينهما غير كبيرة - ثم يهجم الشتاء ، فيرجع كل واحد إلى موضعه ، ثم يعودان ، ويمكن الشك فيما إذا كان ما يقال هنا من خروج عبد الملك مجرد تكرار خطأ لما كان

(١) وفي كتاب الحاشية (ص ٦٥٨ بيت رقم ٦) ذكر مجوم قيس على البطنان ، وأن الفضل في رد هجومهم لقبائل كلب .

تحد وقع في سنة ٦٩ - ٧٠ هـ . وثورة الجفربة التي يذكرها الطبري في حوادث سنة ٧١ هـ (قارن الطبري ج ٢ ص ٨١٣ س ١١ وما بعدها) كانت قد وقعت بحسب ما جاء عند الطبري نفسه (ج ٢ ص ٧٩٨ س ٥) في سنة ٧٠ هـ . ويظهر أن الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٨٠٥) يضع هذه الثورة في نفس الوقت الذي يضع فيه ثورة عمرو بن سعيد في دمشق ، ولكنه على كل حال لا يذكر تاريخ الحملة الأخيرة الحاسمة ، فيجعلها سنة ٧٠ - ٧١ هـ (الطبري ج ٢ ص ٨١٣) .

وعلى هذا فلا يمكن في الحملة إلا القول بمحتملين . ولكن الإنسان مع هذا لا يظفر بحقيقة الأمر ؛ وهذا يتبين ، كما سنرى ، إذا حسبنا تاريخ الحوادث من أواخرها . ولكنه يتبين أيضاً من الدلائل المباشرة ، في بيت شعري من ذلك العصر (الأغاني ج ١٧ ص ١٦٢ والمسعودي ج ٥ ص ٢٤١) يتخاطب مصعباً هكذا :

أكل عام لك باجُمَيسِرا تغزو بنا ولا تُفِيدُ خَيسِرا

وفي بيت آخر (الطبري ج ٢ ص ١٠٣٨ س ٤) ذكر كلمة باجبراً في صيغة الجمع ، أهني باجبرات . والمقصود هو جمع الزمان لا جمع المكان . أما المدائني (الأغاني ج ١٧ ص ١٦١ فما بعدها) فهو يصرح يذكر ثلاث حملات في ثلاث سنين متوالية ، ويروي أنه لما كانت سنة ٧٢ هـ استشار عبد الملك رجالاته في المسير إلى العراق ومناجزة مصعب ابن الزبير ، فقال عبد الرحمن بن الحكم : يا أمير المؤمنين ! قد واليت بين هامين ، تغزو فيهما ، وقد خسررت خيالك ورجالك ، وحامك هذا عام حارد ، فأريح نفسك ورجالك ، ثم ترى رأيك . وقال له يحيى ابن الحكم - وكان عبد الملك يقول : من أراد أمراً فليشاور يحيى بن الحكم - فإذا أشار عليه بأمر فليعمل بخلافه - : أرى أن ترضى بالشام وتقيم بها ، وتدع مصعباً بالعراق ، فلعن الله العراق ! وقال له محمد بن مروان :

أرجو أن ينصرك الله ، أقت أم غزوت ، فشمّر ! فإن الله ناصرٌك ،
فاستعدّ عبد الملك للمسير ، وخرج لقتال مصعب ، فجاءت له السنة الثالثة
بالنصر الحاسم .

وكان ذلك في صيف سنة ٦٩١ م = ٧١ - ٧٢ هـ : وقضى عبد الملك
الشرط الأكبر من هذا الصيف في إخضاع أرض الجزيرة . وقد استسلم زُفر
ابن الحارث في قرقيسيا بعد حصار طويل ، أما ابنه الهذيل فقد اضطر إلى
أن يذبح بعبد الملك في حروبه (١) . ونجد الأخبار المفصلة في هذا عند ابن
الأثير (ج ٤ ص ٢٧٥ فما بعدها) ، وعنده توجد أيضاً أخبار غزو
لقرقيسيا قام به قبل ذلك ، بأمر من عبد الملك ، أبان بن حنيفة بن أبي
معيط ، أمير حصن ، ولكنه لم ينته إلى شيء . وبحسب هذه الأخبار لم يستسلم
زُفر أمام جيش كلب وقضاة ، بل هو انضم إلى عبد الملك طوعاً
واختياراً ، بعد أن أعطاه عبد الملك الأمان . ولا شك أن هذا من إلقاء
روح الفخر الكاذب عند قيس ، فهي تريد ، بعد أن انهزمت ، أن تُزيل
مرارة الهزيمة . ولكن كان لابد بعد تسليم قرقيسيا من التغلب على عين وردة
(Rasina) ، وكان عمير بن الحباب لا يزال فيها متحصناً مستمراً في المقاومة (٢) ،
كما كان لابد من التغلب على نصيبين أيضاً . وكان المسمون يأنلحشية ، وهم بقية

(١) راجع كتاب أنساب الأشراف ص ٢٤ س ١٧ فما بعده ، وابن الأثير (ج ٤
ص ٢٦٥) . أما ثيوفانيس فهو يضع الاستيلاء على Ciceclum (قرقيسيا) في سياق حوادث
سجاطي . [وفي كتاب أنساب الأشراف ص ٢٤ - ٢٥ أن زفر بن الحارث لما صالح
عبد الملك اشترط ألا يقاتل معه ، وابن الزبير حتى . ولم يدخل الهذيل بن زفر بن الحارث في
شرط أبيه . فلما سار عبد الملك إلى مصعب سار معه الهذيل ، ثم تحول إلى مصعب ، وقاتل
مع إبراهيم بن الأشتر . . . ثم عفا عنه عبد الملك لشجاعته - راجع أيضاً ابن الأثير ج ٤
ص ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ - المترجم] .

(٢) راجع Barhebr ، ط . Bedjan ص ١١١ . وحباب هو بطيعة الحال ابن
حباب ، راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٤ .

أتباع المختار الثقفي ، لا يزالون يدافعون عما في أيديهم وقد استسلموا أخيراً ، وأذمّجوا في الجيش (١) .

ولما جاء الصدام الحاسم آخر الأمر بين عبد الملك ومصعب كان قد مضى من الصيف شطر "كبير" . وكانت المعركة في دير الجاثليق بين مسكن ، حيث ضرب عبد الملك معسكره كما ضربه معاوية من قبل ، وبين باجْمِسْرا ، حيث كان يعسكر مصعب (الطبري ج ٢ ص ٨٠٥) . وكان الشهر شهر جمادى الأولى أو جمادى الآخرة ، أما السنة فتختلف فيها الروايات بين ٧١ و ٧٢ هـ (راجع الطبري ج ٢ ص ٨١٣ وكتاب أنساب الأشراف ص ٨) . ويذكر الواقدي وإلياس النصببي سنة ٧١ هـ ، ويذكر غيرهما سنة ٧٢ هـ (٢) . وإذا صرّفنا النظر عما تقدم ذكره ، فلأن الدليل على صحة التاريخ الأخير هو أن إرسال الحجاج إلى الحجاز أعقب انتصار عبد الملك في العراق مباشرة ، ولا شك في أن إرسال الحجاج إلى للعراق كان في سنة ٧٢ - ٧٣ هـ (٣) :

وتوجد روايات كثيرة (أو بعبارة أدق: مجموعات من الروايات) فيما يتعلق بسير المعركة . وقد كانت العلاقة بين هذه الروايات مثاراً لمناقشة غير عادية ، وذلك

(١) المسعودي ج ٥ ص ٢٤١ ، وقارن أيضاً الأغاني ج ٥ ص ١٥٥ ، وج ٨ ص ٢٣ ، وج ١١ ص ٤٧ ، وكلامنا عن الشمة Sebta ص ٨٠ ، هامش رقم ١ و ص ٨٤ هامش رقم ٣ .
(٢) هكذا يقول المدائني (الطبري ج ٢ ص ٨١٣ ، ١٤٦٦ ص ٩) ، والأغاني ج ١٧ ص ١٦١ ، وابن الكلبي نقلاً عن جده ، وأبو مخنف في كتاب أنساب الأشراف ص ٢٦ والمسعودي ج ٥ ص ٢٤٢ .

(٣) وفيما يتعلق بسنة ٧١ هـ يستطيع الإنسان أن يعتمد على ما رواه أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٨١٣) من أن المعركة كانت يوم الثلاثاء ١٣ جمادى الأولى أو الثانية . أما المدائني فهو يذكر سنة ٧٢ هـ . ولكن يوم ١٣ جمادى الأولى أو الثانية في هذه السنة لم يكن يوم الثلاثاء ، أما يوم ١٣ جمادى الثانية من سنة ٧١ هـ فكان يوم الثلاثاء . ورغم أن هذا فيبدو لي أنه من المستحيل ومن المخالف للوقائع التي تؤيدها روايات ثابتة لإنقاص عدد الحملات الثلاث التي وجهت إلى العراق إلى حلتين فقط وأن تكون قد مضت سنتان كاملتان بين استئلال الكوفة التي كان نتيجة لمعركة الدير وبين أخذ مكة . وسأعود إلى هذا الموضوع .

أن ألفارت (Ahlwardt) قارن بين ما جاء في كتاب التاريخ الذى نشره ، وهو جزء من كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى ، وبين ما عند ابن الأثير (ج ٤ ص ٢٦٣ فما بعدها) ، ووجد أن ابن الأثير قد اقتبس من ذلك الكتاب أجزاء كبيرة ؛ وقد اعترض نولدكه (Nöldeke) على ذلك ، وربما كان اعتراضه ظناً منه أن الإنسان يستطيع هنا ، كما فى حالات أخرى ، أن يكتفى باعتبار أن الطبرى هو مرجع ابن الأثير . وقد أثبت بروكلمان (Brockelmann) أن هذا غير ممكن ، وذلك بعد أن كانت قد ظهرت نصوص الطبرى المتعلقة بالموضوع والتي لم يكن قد عرفها نولدكه^(١) . ولكن هذا لا يؤدى إلى الفصل فى أمر المشكلة فلا يؤيد ألفارت إلا إلى حد ما ، ذلك أنه لابد من أن تدخل فى الاعتبار رواية أخرى أخفها كل من ألفارت ونولدكه وبروكلمان ، وهى موجودة فى كتاب الأغاني (ج ١٧ ص ١٦١ فما بعدها) وهى من جهة ما تضمنته قربة جداً مما جاء فى الكتاب الذى نشره ألفارت ، ولكنها لا تستند إلى ما فى هذا الكتاب ، وصاحبها هو الزبير بن بكار . وإذن يتبين ما بأتى : ابن الأثير لا يتابع الطبرى وحده ، لكن معرفته بكتاب الذى نشره ألفارت لا تزيد عن معرفته بما جاء فى كتاب الأغاني ، وهو فى الأجزاء المشتركة بينه وبين هذين المصدرين يوافق أحدهما أحياناً ويوافق الآخر أحياناً أخرى ، لكنه يختلف عنهما من حيث صورة الرواية اختلافاً من شأنه أن يجعل القول بأنه رجع إليهما مباشرة قولاً مستحيلاً . هذا إلى أننا نجد فيما يقوله أحياناً — إذ صرفنا النظر بطبيعة الحال عما نقله عن الطبرى — زيادات غير موجودة فى المصدرين ، المذكورين ، كالذى نجده من .

(١) راجع مقدمة كتاب أنساب الأشراف ص ١٧ فما بعدها ، وراجع Göttinger Gel.

Anz. ، عام ٨٨٣ ، ص ١١٠٢ ، ورسالة بروكلمان فى الدكتوراه عن العلاقة بين ابن الأثير

والطبرى Über das Verhältnis von Ibn al-Athir zu Tabari ، شتراسبورج ،

١٨٩٠ ، ص ٤٤ وما بعدها .

حكاية سبب العداوة بين ابن خلبان وبين مصعب . وإذن فالظاهر أنه اعتمد على كتاب آخر يرجع معظم ما فيه إلى مصادر واحدة^(١) ، وبعض الرواة الذين تُذكر أسماءهم هم في الكتاب الذي نشر الفارت وفي كتاب الأغاني هم بأعينهم الرواة الذين يُذكرون عند الطبري ، غير أن الطبري يذكر الواقدي كمصدر ، وهو مرجعه في الرواية الأساسية ، هذه الرواية التي تستمر ، رغم انقطاعات قليلة ، من ص ٨٠٤ إلى ص ٨٠٨ من ٢ .

ولا تكاد توجد من الناحية التاريخية فوارق ذاتُ بال : استفاد عبد الملك من الفترة السابقة على القتال ، وهي الفترة التي انقضت لما كان الجيشان معسكرين أحدهما أمام الآخر في مسكن وباجيرا ، على مسافة غير كبيرة - استفاد منها في مكتبة شيعته من أهل العراق وفي الاتصال بأشراف الكوفة ، فدعاهم لنفسه ووعدهم ومنأهم . وهذا هو عين ما فعله معاوية من قبل وفي موقف شبيه بموقف عبد الملك ، ومن المكان نفسه . ولم يكن لأهل العراق رغبة في القتال ، كما يدل على ذلك البيت الذي تقدم ذكره في ص ١٨٦ ، وهم لم يكونوا قط قد تعودوا التزام النظام والطاعة ، ولم يعلموا من الحروب الحزبية المروعة التي وقعت بينهم في السنين السابقة على ذلك ، ولم يكن عندهم شيء من الوفاء السياسي والحربي ، وكما تريد الموسوعة كل يوم خليلا كانوا يريدون كل يوم أميرا (الأغاني ج ١٧ ص ١٦٢ س ١٧ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦٥ س ٢٣) . ولقد هم أهل العراق بالغدر بمصعب ، فقال لهم قيس بن الهيثم : « ويحكمكم ! لا تُدْخِلُوا أهل الشام عليكم ، فوالله لئن تطعمتموا بعيشكم ليضيقن عليكم منازلكم ! والله لقد رأيتُ سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح إن أرسلته في حاجة ، ولقد رأيتنا في الصوائف وأحدنا على ألف بعير ، وإن الرجل من وجوههم ليغزو على فرسه ، وزادهم

(١) لا يمكن في هذا المقام أن نملي البرهان الكامل على ذلك ، لأن المسألة ليس لها إلا شأن أدبي وليس لها شأن تاريخي ، ومحاولة الحكم في أمر العلاقة بين الكتاب فيها دائما شيء من الصعوبة .

خلفه . ولكن ذلك لم يُجندَ نَقْعاً (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٦ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦٥ فما بعدها ، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٤) ، وكان لابد لمصعب أن يترك أحسن جنده تحت قيادة المهلب ، لكي يحموا البصرة من هجوم الخوارج^(١) . وكانت بين البصريين الذين كانوا معه قبيلة ربيعة التي لم يكن يطمئن إليها والتي كان لابد له في السنة السابقة أن يقضى على ثورتها (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٧ ، والأغاني ج ١٧ ص ١٢٧) . وجاء بمعظم جيشه من الكوفة ، ومنها كان مخرجه (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٤ ، ٨٠٧ ، وابن الأثير ص ٢٦٤ وما بعدها) . ولم تكن أهواء أهل الكوفة إلى جانبه ، ولم يستنجد به أشراف الكوفة ليساعدوه على الاختار إلا لأنهم كانوا مضطرين إلى ذلك ، وكثيرون كانوا يكرهونه ، لأنه جعل دماء أتباع المختار تجري أنهاراً . ولهذا كانت مهمة عبد الملك مهمة سهلة ، فأدخل معقله بين أهل الكوفة ، والأبيات المحفوظة لنا عن ذلك العصر (أنساب الأشراف ص ١١ فما بعدها) تعبر عن الألم من خيانة رجال الكوفة : وكان القواد الكوفيون الذين كانتهم والذين تُذكر أسماءهم ، كوفيين خُلصاً (أنساب الأشراف ص ١٣ ص ٢١ - ٢٣ ، ص ٢٧ ص ١٤) ، وكلّهم شرط عليه ولاية أصهبان ، فأُقيم بها لم كلهم ، جزاء على خيانتهم لمصعب (أنساب الأشراف ص ١٣ ، ٣٢) . وكانت أصهبان تابعة للكوفة ، وكان يتولاها رجال من الكوفة . ولم يستطع مصعب أن يتخذ إجراءات صارمة لإزاء الخطوة الذين كان يرأسهم عبد الملك ، بل هو تركهم في مواضعهم ، رغم أنه قد حذّر من ذلك . وكان الذي حذّره وأشار عليه بقتلهم أو بالقبض عليهم وإبعادهم على الأقل ، هو إبراهيم بن الأشتر ، صاحب النصر في موقعة خازر^(٢) ، فقد أعطى الكتاب الذي تلقاه من عبد الملك إلى مصعب مختوماً من غير أن يقضه أو يقرأه ، وقال

(١) الطبرى ج ٢ ص ٨٠٦ ، وابن الأثير ص ٢٦٥ فما بعدها ، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٤ ، وكلامنا عن الخوارج . Chavarig, 36a.

له إن عبد الملك كتب الكتب إلى جميع القواد ، ولكنهم لم يظهروها له . وكان إبراهيم هو المخلص الوحيد ، وكان في الوقت نفسه أبرز شخصية في الكوفة ، وكان ظاهرة جديرة بالإعجاب في تلك البيئة ، والابن الجدير بأبيه الذي انتصر يوم صفين . وكان عدم استماع مصعب لنصيحته ، وذلك في أوائل المعركة عند دير الجاثليقي ، دليلاً على المزمنة الحاسمة لمصعب ؛ ذلك أن حذاب بن ووقاء التميمي هرب ، وكان على خيل مصعب ، وعصى بقية القواد ورؤساء القبائل القائد الأعلى ، واحتذروا من الهجوم بجندهم بغير العذر . وأخيراً بنى مصعب وحده تقريباً في مكانه ، ونظراً لهذا الموقف الفريد في بابه صارت لموقعة دير الجاثليقي شهرتها : ولا يحتاج الإنسان إلى معرفة بخطط الجيوش وقيادتها لكي يفهم مجراها . وقد بحث عبد الملك أخاه محمداً إلى مصعب يعطيه الأمان . فأبى وقال : إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً . ونادى محمد بن مروان عيسى ابن مصعب - يعطيه الأمان ويحشّه على ألا يقتل نفسه . وحاول مصعب أن يقنع ابنه بقبول الأمان والمضي إلى عبد الملك ، فأنف أن يقال عنه إنه أسلم أباه ، فقال له مصعب : فتقدم بين يدي احتسبك ! فقاتل بين يدي أبيه حتى قُتِل ، وكان عيسى لا يزال صبيّاً ، لأن مصعباً نفسه لم يكن قد تجاوز السادسة والثلاثين . ثم أُتُخِنَ مصعب بالسهم ، فشدّ عليه زائدة ابن قدامة ، وطعنه قاتلاً : بالثارات المختار ! فصرعه ، ونزل إليه هيب الله بن زياد بن ظبيان ، فاختر رأسه وحملها إلى عبد الملك (١) .

وبعد هذا النصر الذي ليس لصاحبه أن يفخر به كثيراً ، دخل عبد الملك

(١) [لما قتل مصعب أمر عبد الملك بدفنه هو وابنه عيسى ، وقال : واروه ! فقد موافقه كانت الحرمة بيننا وبينه قديمة ، ولكن هذا الملك عقيم (ن . عم) - المترجم نقلنا من الطبري ج ٢ ص ٨١١ - ٨١٢) ، وراجع خطبة عبد الله بن الزبير ، لما بلغه خبر مقتل أخيه مصعب ، عند الطبري ، ج ٢ ص ٨١٨ - ٨١٩ - المترجم] .

الكوفة ، وأخذ البيعة من القبائل ، وفرّق أعمال العراق والمصريين :
الكوفة والبصرة ، على عمّاله^(١) . وعسكر أربعين يوماً في النخيلة ، في
ففس الموضع الذي كان معاوية قد عسكر فيه من قبل مع جيش الشام . وفي
ذلك الوقت وجّه الحجاج بن يوسف إلى الحجاز لمحاربة عبد الله بن الزبير .
هذا ما يقوله المهيم بن عدي في كتاب أنساب الأشراف (ص ١٨ ، س ١)
ويوافقه الواقدي في ذلك ، وهو يقول (الطبري ج ٢ ص ٨٣٠ وكتاب
الأنساب ص ٣٨) إنه بعد قتل مصعب بن الزبير أرسل عبد الملك الحجاج
في ألفين من جند أهل الشام إلى مكة ، وذلك في جمادى ، أحدى في الشهر
الذي وقعت فيه معركة الدير ، أو في الشهر التالي ، لأن اسم جمادى يطلق
على شهرين ، وهو يذكر أن ذلك كان سنة ٧٢ هـ . ولا يستطيع أن يذكر
خير ذلك ، لأنه يقول إن حصار مكة لم يبدأ إلا في أواخر سنة ٧٢ هـ وإله
استمر شطراً كبيراً من سنة ٧٣ هـ . ولكن كيف استطاع إذن من قبل أن
يجعل الموقعة الخاصة بذلك في سنة ٧١ هـ ؟ لا يمكن حل هذا الإشكال
بالرجوع إلى المصادر المحفوظة لنا عن الواقدي ، ولا شك في شدة اتصال
الحوادث في العراق والحجاز ، ولا شك أيضاً في أن سنة ٧٢ هـ كانت هي
السنة التي هُزم فيها مصعب .

ويقول الواقدي إن الحجاج لم يقصد إلى مكة رأساً ، ولا هو
حرض للمدينة ، بل ذهب أولاً إلى الطائف ، فوصل إليها في شعبان ،
ولبث فيها عدة أشهر^(٢) . ومن هناك شرع يبعث البعث المناوشة ابن
الزبير في سهل عرفة ، وكانت تحبّله تهزم خيل ابن الزبير وترجع
خافرة . ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك . يستأذنه في حصار ابن الزبير
ودخول الحرم عليه ، ويسأله أن يُمدّه بالرجال . وكان طارق بن
عمرو ومولى عثمان بن عفّان قد احتل المدينة وأخرج منها حامل ابن الزبير (الطبري

(١) فيما يتعلق بخراسان ، راجع هنا وفي حالات أخرى الفصل الثامن ما يلي .

(٢) المسعودي ج ٥ ص ٢٥٩ ، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٣٩ .

(١٣ - الدولة العربية)

ج ٢ ص ٨١٨ ، وكتاب أنساب الأشراف ص ٣٤ فلما بعدها () ، فأمره عبد الملك أن يلحق بمن معه من الجند بالحجاج ليساعده . وبدأ حصار مكة . كما يقول الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٨٤٤ فلما بعدها) ، في هلاك خفي القعدة سنة ٧٢ هـ ، الموافق ٢٥ مارس سنة ٦٩٢ م . ، ورُميت مكة والكعبة بالمنجنيق (١) . وفي أثناء ذلك قام رعدٌ ويرقٌ وصواعقٌ ، وسقطت صاعقةٌ على المنجنيق فأحرته وقتلت بعض رجال الحجاج ، فأعظم ذلك أهل الشام وأمسكوا ، اعتقاداً منهم أن ذلك شيء من الله بسببه مهاجمهم الكعبة ، ولكن الحجاج استطاع أن يذهب عنهم ما اعتقدوه . وأخذ أصحاب ابن الزبير يتفرقون عنه شيئاً فشيئاً ، وأخيراً ألْقَوْا السلاح جميعاً وخرجوا إلى الحجاج يطلبون الأمان ، وكان فيمن خرج حمزة وحبيب ابند عبد الله بن الزبير نفسه . لكن ابن الزبير ، وكان شيخاً في الثالثة والسيعين من العمر ، شجّل من ذلك ، فودّع أمّه وقبل رأسها ، وخرج يقاتل وحده ، وقتل (كتاب أنساب الأشراف ص ٣٨ فلما بعدها وكتاب الحامسة ص ٣١٩) (٢) .

(١) انظر ما تقدم ص ١٦٣ .

(٢) [جاء في الطبري (ج ٢ ص ٨٤٤ - ٨٥٢) أن ابن الزبير لما تفرق عنه أصحابه دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر ، فقال لها : « يا أُمّهُ ! خذلي الناس حتى ولدي وأهل ، ولم يبق معي إلا الهجير من ليس عنده من البغ أكثر من صبر ساعة . والقوم يطولني ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ » فقالت : أنت والله يا بني أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قُتِل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبته . يظلم بها غلمان بني أمية ! وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فهنس العبد أنت ! أهلكك نفسك وأهلكك من قتل معك . وإن قلت : كنت على حق ، فلما ومن أصحابي ضللت ، فهذا ليس فعل الأسرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ! القتل أحسن ! » فلما ابن الزبير قبل رأسها ، وقال : « هذا والله رأيي والذي قُتِل به » . ثم بين لها حقيقة مقصده وتمسكه بالحق والعدل ، وخرج من عندها ، وهي تدعو له ، وقاتل قتال الأبطال ، وهو يتشعل بأبيات في للشجاعة والصبر من الشعر الجاهلي . وكان يشد وحده على الجمل الفقير ، وكان كاسد في أجرة . حتى قتل . ولما بلغ مقتله الحجاج سجد شكراً لله . وعلقت رأسه ورأس بعض أصحابه في المدينة ، ثم أرسلت إلى دمشق . وكان ابن الزبير في شجاعته موضع إعجاب أعدائه . راجع تفصيل مقتله عند الطبري - المترجم] .

ويقول الواقدي إن ذلك حدث بعد بدء حصار مكة بستة أشهر وسبعة عشر يوماً ، وذلك في يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ ، الموافق ١٨ سبتمبر سنة ٦٩٢ م ، (الطبري ج ٢ ص ٨٤٤ ، هامش ٤) ؛ ولكن اسم اليوم غير موافق لتاريخه ، ففي كتاب الطبري (ج ٢ ص ٨٥١ س ١٠) وكتاب أنساب الأشراف (ص ٥٧) أن الشهر لم يكن جمادى الأولى بل جمادى الآخرة . ويذكر إلياس النصيبى أن ذلك كان يوم الاثنين ١٧ جمادى الآخرة ، واسم اليوم بحسب ما يقوله إلياس أيضاً ، غير متفق مع مكانه من الشهر . ولم يكن تسليم مكة^(١) سوى الفصل الأخير القليل الشأن في الرواية ، وذلك أن الحجاز ، منذ مقتل عثمان ، كان قد أصبح ركناً ميبأً ، ولم يكن من الممكن جعله مركزاً للحياة السياسية ، ولا شك أن ابن الزبير كان يرمى إلى هذا ، وكان لابد له أن يجعله غاية له ، تمشياً مع طبيعة الحركة التي ارتفع شأنه بسببها^(٢) . وقد كشف ، في الوقت نفسه ، عن الصبغة للروحانية لخلافته بأن ظلَّ مقبلاً في الحرم الذي هاذ به ، حتى عندما كانت أبواب مجد الدنيا مفتوحة أمامه . ولكن الأمر انتهى إلى أن أصبح هو نفسه في أثناء الفتنة التي سُمِّيتَ باسمه في مكان ثانوى إلى أبعد حد . وكان القتال ، من حيث الاسم ، يدور حول شخصه ، ولكنه لم يشترك فيه ، وتقررت نهاية القتال بدونه أيضاً . ولم يكن شأنه في جزيرة العرب نفسها ، في أثناء سنين طويلة ، أكبر من شأن نجدة الخارجي (الطبري ج ٢ ص ٧٣٧ ، وما قلناه عن الخوارج في بحث لنا ص ٢٩ فما بعدها) . وهو قد أُخِذَ في المكان الذي هاذ به ، وفيه قُتِل . وبذلك انتهت الفتنة الكبرى وعادت الجماعة الإسلامية إلى وحدتها .

(١) تجد تهنته شعرية لذلك في شعر المهديين ، قصيدة رقم ٢٥٩ بيت ١٧ فما بعده ، واقرأ : وقد . [ويشير المؤلف إلى نشرته لشعر المهديين في الجزء الأول من كتابه المسى Skizzen und Vorarbeiten ، برلين ١٨٨٤ ص ٩١ - ٩٢ - والشعر لأبي صخر في قصيدته التي أولها : هفت ذات عرق عملها فرثاها - المترجم] .

(٢) انظر ما تقدم ص ١٦١ .

الفصل الرابع

بنو مروان الأولون

١ - على أن العواصف في العراق لم تسكن بانتهاء الحرب التي استمرت مئتين طويلاً مع ابن الزبير ، بل ملأت هذه العواصف كل مدة خلافة عبد الملك تقريباً ، كما سنرى . وفي الشام أيضاً استمر صخب العداء بين قيس و كلب . وقد ألقى زفر بن الحارث في قرقيسيا السلاح في السنة التي قُتل فيها مصعب بن الزبير ، ولكن العداء بين القبيلتين لم ينسَته بذلك ، بل ظل إلى ما بعد تلك الحرب الطويلة . ولكن يدرك الإنسان هذا العداء في جملة الحوادث المتصلة به ، لا بد له أن يرجع في الماضي ، حتى يصل إلى موقعة مرج راهط (الأغاني ج ١١ ص ٦١ س ٣١) ، ففي هذه المعركة دفعت قيس حسابها واقتتيد منها . لكن كان لابد لها ، بحسب العادات العربية ، من أن تثار لدماء قتلاها من المنتصر . وكانت قيس هي الموتورة ، فكانت هي التي بدأت ، وإنما كانت كلب تدافع عن نفسها . وقد اشتركت في هذا العداء من قبائل قيس قبائل حامر وسليم و غني وباهلة^(١) ، وذلك بمقدار الجماعات التي نزلت من هذه القبائل في شمال الشام وجنوب أرض الجزيرة على ضفتي الفرات . أما في جانب كلب فكانت سائر قبائل قضاة^(٢) ، ولكن يظهر أنه لم يدخل في القتال بالفعل إلا قبائل كلب : والمصادر لمعرفة « الأيام » المتفرقة المتباعدة أحياناً ، والتي كان

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٦ س ١٠ و ١٥ و ص ٢٥٨ س ١٨ و ص ٢٥٩ س ١٧ و ص ٢٦٠ س ٢٤ و ص ٢٥٦ س ١٠ يجب قراءة : أعسر ، كما في ص ٢٥٦ س ١٥ .
(٢) وتسمى قضاة باليمنيين في بيت شمر لزفر بن الحارث - ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٦ س ١٨ .

فيها ذلك القتال الطويل ، هي القصائد الشعرية التي نرجع إلى ذلك العصر والحكايات المرتبطة بها : وكلها قد بقيت إلينا عند ابن الأثير وفي كتاب الأغاني وكتاب الحماسة وعند الميداني . ومعظم هذه الأخبار جذيرة بكل ثقة ، غير أنها منقطعة الصلة فيما بينها أحياناً ، وليس ثم ما يدل على زمانها ، ولا شك أن ثم وسيلة لوضعها في ترتيب مقبول ،

يقول صاحب الأغاني (ج ٢ ص ١٢٠ فما بعدها) إن القتال بدأ بأن أغار زُفَر بن الحارث الكلبي في قرقيسيا ، وهو رئيس عامر ، على جماعة من كلب في المصبيخ ، وقتل منهم عشرين رجلاً : فقامت كلب ، وعلى رأسها حُمَيْد بن حُرَيْث بن بحدل ، وهو ابن حم الحسان بن مالك ابن بحدل المشهور^(١) ، للأخذ بالنار ، فقتلوا ستين رجلاً من حُمَيْر ، كانوا يعيشون بينهم في تدمر . ويقال إن زفر بعد ذلك قتل خمسمائة أو ألف من كلب وأنه قتل منهم في يوم الإكليل مقتلة عظيمة ، وأنه بعد هذه الفعلة الكبيرة رجع إلى قرقيسيا آمناً لم يُصِبه سوء ، ومن غير أن يستطيع حُمَيْد أن يلحق به . ولكن غارة يوم الإكليل ، في موضع آخر من كتاب الأغاني (ص ١٢٢ ص ١٧ فما بعده) ، لا تُنسب إلى زُفَر ، بل إلى حُمَيْر ابن الحباب ، رئيس سليم . أما الذي لا شك فيه فهو أن حُمَيْراً كان منذ ذلك الحين هو القائم الحقيقي بالنار لقيس من كلب ، ذلك أن القتال الكبير بين الشام والعراق حول الخلافة صرف زُفَر عن حروب التيارات التي كانت تجري في البادية . وقد تلقى زفر في أول الأمر هجمات عبد الملك وقاومها سنين طويلة ، كما رأينا ، وكان ماثلاً لمصعب بن الزبير مدافعاً عن جاهه ، على أن ظهور حمير في الميدان يعطينا نقطة نستطيع منها تحديد أزمنة الحوادث ، لأنه كان لا يزال موجوداً في معركة خازر في الجليش الشامي ، ولم ينضم إلى زفر

(١) والشراح في كتاب الحماسة ص ٦٥٨ بيت رقم ٢ يخلط بينهما .

إلا بعد ذلك ، أعنى أنه لم ينضم إليه قبل سنة ٦٧ هـ . وتذكر مجموعة كبيرة من « الأيام » التي كان يشهدها ويبرد فيها نار النار ، وتسمى هذه « الأيام » بأسماء مواضع مختلفة من بلاد السهولة . وعند أرض كابة أفلت منه حميد بن حريث ، ركضاً على فرسه السريع ، وماكاد يقلت ، حتى إذا ألح حُمَيْيرٌ على قبائل كلب التي كانت تسكن في متناول غزواته ، اضطرت إلى أن ترحل عن البلاد آنحز الأمر ، فهاجرت إلى بلاد الغور ، من أعمال فلسطين حيناً من الزمان .

وعند ذلك قفل حُمَيْير راجعاً عبر الفرات ، ونزل هو وقومه من سليم بإزاء بلاد الحابور ، وكان هذا هو السبب في الصدام بين تغلب النصرانية ، التي كانت قد هاجرت إلى هناك حتى بلغت نهر دجلة وماوراءه ، وبين قيس . وقد بلغت تغلب إلى زُفر لكي يأمر سُلَيْمًا بالرحيل عن قرى الحابور ، لأنهم صاروا يغيرون عليهم ويوجدون أسباباً للحروب . ورأى زُفر أنه غير قادر على ذلك . وهكذا بدأ العداء والقتال بين تغلب وسليم ، وقد حاول زُفر أن يتدخل لإنهاء هذا القتال ، لأنه لم يحب أن يدفع تغلب إلى إلقاء أنفسهم بين أحضان أهل الشام . ولكن عميراً ، وهو الرجل المشنوم ، عارضه في ذلك واستقر وراء مُصَنَّب بن الزبير ، وسمى بتغلب لأنهم نصارى ، فاتهمهم بالميل إلى أهل الشام ، واستطاع أن يهاجمهم باسم حكومة ابن الزبير ، وأن يطلق العنان للانتقام منهم ، فذهب منهم الكثيرين في يوم ماكس أو ماكسين . وعند هذا تنتهي رواية صاحب الأغاني (ج ٢٠ ص ١٢٠ فما بعدها) ، وهي نجد ما يكملها عند ابن الأثير (ج ٤ ص ٢٥٥ فما بعدها) وفي الأغاني (ج ١١ ص ٥١ فما بعدها و ٦١ فما بعدها) . ونجد هنا أن زُفر أيضاً قد أُجِيع في القتال دون رغبة أو إرادة منه ، ووقعت غارات واشتباكات كبيرة . وأماكن هذه الغارات ، وهي تذكر أيضاً في أشعار

الأنحط^(١) . كانت عند نهر الخابور ونهر البليخ ونهر الثرثار وفي ناحية دجلة ، وكانت تغلب في معظم الأحيان هي التي تُسمّى بالمزينة ، على أنهم انتصروا في أول الأمر عند الحشاك على نهر الثرثار الذي يصب في دجلة غير بعيد من حمكرت إلى جهة الجنوب ، وقتلوا حمير بن الحباب سنة ٧٠ هـ ، وبعثوا يرأسه إلى عبد الملك في دمشق . ولكن قيساً عند ذلك اضطرت زفر إلى أن يتولى الأخذ بثأر حمير ، فغضب تغلب ضربة قاسية عند مدينة الكحول ، على نهر دجلة ، وقتل مائتين من أسراهم وقعوا في يده . ولكن الأحداث الكبرى التي وقعت سنة ٧١ و ٧٢ هـ ، وكان مسرحها أرض الجزيرة ، وضعت حداً للغارات الدموية هناك ، وأنقذت تغلب .

ولكن الحرب بين كلب وقيس ثارت من جديد بعد ذلك في موضع آخر . (الحماسة ص ٢٦٠ فما بعدها ، والميداني ١٤ ، ٨٥^(٢) والأغاني ج ١٧ ص ١١٣) فما بعدها وياقوت ج ١ ص ٧٣٩ . فقد أصاب حمد بن حريث بن بخدل الرئيس السابق لـ كلب ، في محربه مع حمير^(٣) ، سبباً سهلاً لكي ينتقم من فزارة في جزيرة العرب نفسها — وكان موطنهم الأكبر إلى شرق المدينة — لما فعلته ساجم وعامر على الفرات ، لأنه لم يستطع أن ينال منهم . ولم تكن فزارة هذه قد اشتركت حتى الآن في القتال ، ولكنهم كانوا ينتمون إلى المجموعة الكبيرة لقبائل قيس . ومنهم — من أعضاء بيت الأمراء القديم ، من الذين كانوا مسة طنين في الكوفة — من كانوا قد أهانوا زفر وحميراً (ابن الأثير

(١) لم أستطع حتى الآن أن أراجع لفرة بارت (Barth) لديوان القلماني .

(٢) إن ترجمة فريتاج (Freytag) تحتاج إلى إصلاح كثير .

(٣) يذكر ابن حبيب عند الميداني اسم أبيه حريث خطأ ، بدلا من ذكر اسمه . راجع ، خلافاً لذلك ، كتاب الحماسة (ص ٢٦٠ بيت رقم ١) ، والأغاني ج ١٧ ص ١١٣ أسفل ح ص ١١٤ ص ٢٨ .

ج ٤ ص ٢٥٨ ص ١٩ فما بعده . وجعل حميد خالداً بن يزيد بن معاوية (١) ، وهو الذي كانت جدته من كلب ، يفتعل له عهداً باسم عبد الملك ليأخذ صدقات قبائل البدو . وخرج حميد باعتباره مفوضاً من قبل الحكومة ، ومعه جمع كبير جداً من عبد ود وعُليّ من قبائل كلب ، يجتاز الصحراء ، وأخذ يضرب فزارة ، وكان في الحقيقة يقصدهم ، وارتكب فيهم فظائع منكراً ، مثلماً لذلك الأسباب الواهية . ففجرح وقتل كثيراً ، وخصوصاً عند موضع يسمى العاه . واشتكى من أصابتهم أعماله إلى عبد الملك ، فظن عبد الملك أنه يكفى أن يدفع لهم دية قتلاهم . فأخذوا المال ، لكنهم اشتروا به سلاحاً وخيلاً ، وأعدوا أنفسهم لغارة يثأرون فيها لأنفسهم . فهاجوا منازل لكلب عند منابع بنات قين في أرض السهولة ، وقتلوا تسعة عشر رجلاً من عبد ود وخمسين من عُليّ ، فغضب عبد الملك لذلك أشد الغضب ، وأمر حامله الحجاج بأن يقتص من فزارة . وعند ذلك دفع الرجلان اللذان كان عليهما الوزر ، الشرّ حينئذٍ قومهما بأن قدما على الحجاج طائعين ، فأرسلهما إلى عبد الملك . وكان لابد لكلب من أن تكتفى بقتلهما . ويوم بنات قين هو أشهر يوم في كل الحروب المتواصلة بين قيس وكنب ، وهو لم يقع إلا عند ما كان الحجاج أميراً على المدينة (سنة ٧٣ و ٧٤ هـ) . ولا يمكن أن يكون زمان السبب الذي دعا إلى هذا اليوم ، وهو ما أريق من دم في العاه ، قبل ذلك بكثير (٢) . وعلى هذا فإن القول للسائد في كل روايات

(١) [في كتاب الحاشية ص ٢٦٠ فما بعدها أنه في أيام الحرب بين عبد الله وابن الزبير كان أبناء القيسيات من بني أمية يفسدون على أبناء الكلبيات بما يفعلهم بهم أغواهم للقيس . وكانت قيس مع ابن الزبير ، وكان هذا الفخر سبباً في إغضب أبناء الكلبيات أمثال خالد بن يزيد وعبد العزيز بن مروان . وخالد بن يزيد هو الذي بحث عن يثتم من قيس ، وهو الذي دبر العهد المزور وأعطاه إلى حميد بن حريث بن بحدل - المترجم] .
(٢) هل أنه ليس بمستحيل أن يكون قد وقع في الفترة السابقة على عودة الوحدة للجماعة الإسلامية ، كما يقول ابن حبيب عند الميداني . ولكن دوزي (١٢٠ ، ١) يجعل يوم بنات قين في عهد معاوية ، وهذا خطأ تام .

هذه الحكاية . من أن بشرأ وعبد العزيز ابني مروان المتباغضين^(١) كانا في دمشق يوم بنات قبزن وبعده أيضاً ، هو قول خطأ ؛ بل هما قد كان أحدهما قبل ذلك بكثير أميراً على الكوفة ، والآخر أميراً على مصر ، فلا يمكن أن يكونا قد كانا في دمشق إلا زائرين فترة من الوقت .

وكذلك بقيت للحرب بين سُلَيْمٍ وتغلب بقية ، بعد أن كان النزاع حول الخلافة قد انتهى ، وكان السلام في الدولة عند ذلك قد عاد إلى نصابه منذ وقت طويل (راجع الأغاني ج ١١ ص ٥٩ فما بعدها ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦١ فما بعدها) وكان الأخطل الشاعر هو السبب في إثارة هذه الحرب من جديد ، وذلك أنه قدم على عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السُلَيْمِي ، فسأله عبد الملك : أتعرف هذا يا أخطل ؟ قال نعم : هذا الذي أقول فيه :

ألا سائل الجحاف هل هو فائرٌ يقتل أصيب من سُلَيْمٍ وحامرٍ
والأخطل يقصد ما فعله أحواله من تغلب بقبيلة الجحاف ، وكان الجحاف قد اشترك في قتال تغلب تحت قيادة عُمَيْر بن الحباب . ولما بدأ الأخطل ينشد قصيدته كان الجحاف يأكل رطباً ، فجعل الذوى يتساقط من يده غيضاً . فلما انتهى الأخطل من إنشاد قصيدته أجابه الجحاف قائلا :

بلى سوف نبيحكهم بكل مهندٍ وننعي عُمَيْراً بالرماح الشواجير
وفعل الجحاف ما فعله حُمَيْد بن حريث الكلابي من قبل ، فتأطفت لبعض كتاب الديوان حتى اختلق له ههداً على صدقات تغلب وبكر في الجزيرة . وخرج بصفته عاملاً على الصدقات ، ومعه عدد كبير من فرمان قيس ، وقصد الجزيرة . وفي أثناء الطريق كشف لمن معه عن قصده الحقيقي ، وحدثهم بما كان من الأخطل

(١) [كانت أم عبد العزيز كلبية ، وأم بشر قيسية (الهامة ص ٢٦٠) - المترجم] .

وأنه يريد منهم أن يوقعوا بني تغلب شرّاً وقبيحة ، وقال لهم : إنما هي النار
أو العار ، فمن صبر فليستقدم ، ومن كره فليرجع ! فرجعوا عنه غير
ثلاثمائة آثروا النار على العار ، واتبعوه قائلين : نحن معك فيما كنت فيه
من شر وغير ، وأغاروا على تغلب في سنة ٨٧٣ هـ ، عند موضع يسمى بشاراً
(أو الرهوب) ، فأسرفوا في القتل والفساد ، ويقروا بطون النساء ،
وقتلوا ابناً للأعطل أيضاً . ووقع الأعطل نفسه في أيديهم ، وعليه عباءة
خزينة ، فسألوه ، فذكر أنه عبدٌ من عبيدكم ، فأطلقوه . وبعد ذلك
خلق الجحاف بأرض الروم . ثم تدخلت قيس لدى عبد الملك لكي
بثوثه ، فأذن له بالرجوع بعد زمان طويل ، لكن كان لا بد أن يدفع
لتغلب دية ما أريق من دماء عند بشر ، فلما لم يقدر على ذلك تقدم إلى
الجحاف ، وكان في ذلك الوقت أقوى رجل بين قيس ، لكي يحتمل دفع
الديات ، فاعتذر الجحاف أولاً ، ولكنه قبل آخر الأمر . ثم صلح أمر
الجحاف أخيراً ، فتأله وتسلّك ، وذهب مع القوم الذين شهدوا معه غزو
تغلب إلى الحج ، وقد لبسوا الصوف ونحروا أنوثتهم ، وجعلوا فيها البرى
سحق وصلوا مكة . وتعلق الجحاف بأستار الكعبة ، يدعو دعاء اليأس ،
ويقول : اللهم اغفر لي ، وما أراك تفعل ! فسمعه عبدُ الله بن عمر ، فقال
له : يا هذا لو كنت الجحاف ما زدت على هذا ! فقال : فانا الجحاف ،
ويرى الإنسان أن العرب في أرض الشام والجزيرة لم يتغيروا في
ظروفهم الحديدية عما كانوا عليه ، فلا الإسلام ولا النصرانية استطاعا أن
يتحوّلا بينهم وبين وضع القبيلة والنار فوق كل شيء . فكانوا يوثقون
النار على العار ، وكانوا لا يتدمون إلا أخيراً حين لا ينفع الندم . بل هم
صاروا في ظروفهم الحديدية أشد قسوة مما كانوا عليه في الجاهلية في
وطنهم القديم ، فصاروا يقتلون بعضهم بعضاً على نحو أوسع نطاقاً
وأقل مبالاة ، فكانوا يبقرون بطون من بأسرونه من النساء ، وهذه عادة
لم تكن موجودة في جزيرة العرب بمعناها الحقيقي ، ولكن يشهد بأنها

كانت موجودة في الشام ما يقوله عاموس النبي^(١) ؛ بل إنه بعد أن كان القتال من أجل الخلافة قد انتهى وكان السلام قد عاد ، استمر القتال الوحشي بين القبائل أمام أبواب دمشق ونعت بصر الخليفة ، ومع الاستهانة بهيئته أحياناً .

وكان للعداوات القبلية موطن^٢ ثان في الشرق الأقصى للدولة الإسلامية ، ذلك أن البغض القديم بين تميم وربيعة اشتد في البصرة بسبب هجرة أزد عمان في أواخر أيام معاوية وفي أيام يزيد الأول . فتحالت ربيعة مع الأزد ، وتحالفت تميم مع قيس ، وهكذا نشأت مجموعتان كبيرتان من القبائل . وفي أثناء الفترة التي اضطرب فيها أمر الخلافة بعد وفاة يزيد الأول بدأ القتال في البصرة^(٢) ، واضطرب أمرها ، هبده الله بن زياد ، إلى الحرب . وأراد مسعود بن عمرو ، رئيس الأزد ، أن يحتل منصبه ، واستطاع أن يستولى على القصر وعلى المسجد بالقوة ، يساعده الأزد وربيعة في ذلك . ولكن بينما هو على المنبر في المسجد إذ اقتنحت عليه تميم ، فأنزلوه من على المنبر وقتلوه . وعند ذلك قامت حرب النار بين الأزد وحميم بسبب قتل هذا الأمير القبلي ، ولكن الأحنف بن قيس ، سيد تميم ، وكان حكيماً حنكته السن^٣ ، أفلح في إعادة السلام في مقابل دفع دية كبيرة . ولكن العداوة بين الأحزاب لم تنزل ، ووجدت الصدور المسترعة منزحاً في خراسان^(٣) ، وكانت خراسان أشبه بمستعمرة بصرية ، وإليها انتقلت ظروف الحياة القبلية من البصرة . وكانت الحروب القبلية كلما خبت نارها اندلعت من جديد . وكانت في أول الأمر بين تميم وربيعة ، ثم بين مضر (تميم وقيس) واليمن (الأزد وربيعة) ، وذلك بعد أن دخل الأزد أيضاً على المسرح بفضل المهلب . وكان الخصام بين

(١) [راجع العهد القديم ، عاموس ، الإصحاح الأول ، فقرة ١٣ - ١٤ حيث يذكر عن جرائم بعض بني إسرائيل أنهم يقرؤوا بطون الحواميل - المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ٤٣٣ - ٤٦٧ - المترجم] .

(٣) [راجع الطبري أيضاً ج ٢ ص ٤٨٨ - ٤٩٦ - المترجم] .

مجموعات القبائل في شرق الدولة مرتبطاً في آخر الأمر بالخصام بينها في مغربها : وكان الوزر في ذلك وزر قيس خاصة ، لأن قيساً كانوا موجودين في المشرق والمغرب على سواء ، وكانوا في كل مكان مناسكين فيما بينهم ، كما تناسك أجزاء البتاء ، وقد كان هذا الخصام ينزع إلى أن يمتص في ذاته أنواع الخصومات الأخرى ، وأن يقسم العالم العربي كله قسمين متنازعين .

وقد تسربت مفهوم هذه الخصومة إلى الدوائر الحاكمة ، وكان من العسير تفاديها . فإذا كان يستطيع أمير أن يفعل ، إذا كانت قيس تعتبره أميراً ! فهو إن ردّهم حرم نفسه تأييدهم ولم يجد ما يستند إليه : بل إن بعض الأمراء في بلاط عبد الملك كانوا يتحمسون في الميل إلى أحد الجانبين أو إلى الآخر ، بحسب نسب أمهاتهم (١) .

ولاشك أن الفكرة السياسية للإسلام ، أسمى الوحدة والتضامن في الجماعة الإسلامية ، كان لها تأثيرٌ مُضادٌ لتأثير النزعة القبلية ، وكان الممثلون الطبيعيون للروح الإسلامية هم قريش الذين كانوا ، بحكم وضعهم القانوني فوق القبائل وخارج منافساتها ، وكان القرشيون الحاكون ، أسمى هي أمية ، قد اضطرّوا إلى أن يرموا أنفسهم في الشام بين أحضان كلب لكي يحافظوا على سيادتهم إزاء قيس المائلين مع ابن الزبير . ولكن كانت تربطهم مع ذلك بقيس رابطة الدم (٢) . ومن هذا الوجه كان من السهل عليهم أن يقفوا موقفاً وسطاً . وقد عرف عبد الملك أين مصباحته فكان يحاول أن يرتفع عن منازعات الأحزاب . وبعد أن أفلحت قيس عن

(١) [راجع إلى جانب ما تقدم كتاب الحاشية ص ٢٦٠ فما بعدها - المترجم] .

(٢) قال عويج الطائي يمتلح كلباً والحديد بن جندل في قصيدة له (الطبري ج ٣

ص ٤٨٧ س ١٩ فما بعده) :

فلولا أمير المؤمنين لأصبحت قضاة أرباباً وقيس عبيداً

فالخليفة يعتبر من قيس (الطبري ج ٢ ص ٤٧٢ س ١٨) ، لأنه مظهر من مظهر على الأقل ، وليس من قضاة أو اثنين .

المعارضة له ، عاملهم باللطف وحاول أن يسترضيهم . وكان زفر بن الخارث وابناء هذيل وكوثر من بعده ، من أكبر الشخصيات وأعظمها جاهاً في بلاط دمشق^(١) . وكانت كلب بطبيعة الحال غير راضية عن ذلك ، ولكن ما عابوه على عبد الملك من أنه لم يكن يشكرهم بحسن بلائهم مع بني أمية كما ينبغي له أن يشكر (الحماسة ص ٦٥٦ لما بعدها) هو في الحقيقة مدح له . أما القول بأنه تحول من جانب كلب إلى جانب قيس فهو يعبر عن الموقف تعبيراً معوجاً كل الإعوجاج ، فنحن نجد في مجلس عبد الملك بعد ذلك أيضاً رجالاً ذوى نفوذ ينتمون إلى مجموعة قبائل كلب ، كابن بحدل وروح بن زنباع . والأحرى أن يقال إن عبد الملك تصرف كما ينبغي على الخليفة وعلى السيامي أن يتصرف . فكان الأمويون يعتمدون على أهل الشام ، وهم بمحونة أهل الشام قد أخضعوا أرض الدولة الإسلامية كلها ، وبمحنتهم حافظوا عليها ، ولو أن انشقاقاً حصل في الشام لتضعف الأساس الذي تقوم عليه سيادة بني أمية على الدولة الإسلامية . أما خراسان فقد كانت في ذلك الحين لا تزال في مرتبة ثانوية جداً ، وكان الشقاق في هذه الجهة النائية قليل الأثر على وسط الدولة . أما في الشام فقد كان الأمر على خلاف ذلك ، وكان من المستحيل أن يغيب عن بال أهل الشام أنهم لا بد لهم من أن يتضافروا مع الأسرة الحاكمة لكي يحافظوا على مركزهم هم ، وكان ذلك عاملاً فعالاً في كسر شوكة المصنومة القبلية بينهم : فكانت كل ولايات الدولة ، هذا بلاد أهل الشام ، تعتبر خاضعة مغلوبة ، وكانت بلادهم وحدها هي التي تعتبر الغالبة الحاكمة . وكانت مصلحتهم ، وهي مصلحة مادية إلى حد كبير ، في أن تظل الخلافة والسيادة ملكاً لهم من جملة الأسباب التي أوجدت

(١) قارن الطبري ج ٢ ص ١٣٥٠ و ١٣٦٠ لما بعدها و ١٤٤٥ ، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٧٣ و ٢٥٣ ، وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤٢ و ١٥٣ لما بعدها . ويرى الإنسان من ذلك مقسدار قوة مركز هؤلاء الأمراء القيسيين في عهد بني أمية ، ولكنهم لم يستثمروا استعمال هذا المركز .

شعوراً بالتضامن السياسى بينهم . وقد تجلى هذا الشعور بنوع خاص في المناسبات التي كان لابد لهم فيها ، بوصف أنهم جيش الدولة ، من محاربة أعداء الأسرة الحاكمة في الداخل والخارج ؛ وقد أتاحت لهم فرص "كثيرة لذلك .

٢ - ولكى يزيد خلفاء بني أمية في رجحان كفة الشام من الناحية السياسية ، حاولوا ، فيما حاولوا ، نقل مركز الشعائر الدينية إلى الشام ؛ وكان مما استوجب ذلك أن ابن الزبير ظل "يحتل البيت الحرام في مكة قرابة من عشر سنين ، فلم يكن أهل الشام يستطيعون الحج ، ما داموا على ولايتهم للأسرة الأموية ، إلا بمشقة . وقد استغل "عبد الملك ذلك لمنع رعاياه من الحج إلى مكة ، وحضهم على أن يحجوا إلى بيت المقدس بدلاً من أن يحجوا إلى مكة ؛ وهذا ما يحكيه أوتيفيوس (Eutychius) على الأكل (١) . أما الذى لا شك فيه فهو أن عبد الملك جهد في أن يجعل لبيت المقدس ، باعتباره مكاناً مقدساً في نظر الإسلام ، مظهراً أروع مما كان له ، وذلك أن الدليل على صدق الرواية القائلة بأنه هو الذى بنى قبة الصخرة موجود في النقش الذى لا يزال باقياً في الجزء القديم من هذا البناء . أما النقش الحالى فيلزم فيه اسم المأمون الخليفة العباسى على أنه هو البانى . ولكن دى فوجى De Vogüe (٢) اكتشف أن اسم المأمون إنما أدخل في النقش الأصلي من طريق تصحيح لكتابة سابقة ، وقد فات على المصححين أن يصححوا التاربخ القديم الذى يبين السنة التى كان فيها البناء . ويمكن على هذا أن يكون النص [الأصل على القطع ، هكذا : بنى هذه القبة في سنة ٥٧٢ عبد الله عبد الملك ،

(١) في كتابه في التاريخ (Annales) ط . Pococke ج ٢ ص ٣٦٥ . ويحكي أوتيفيوس مثل هذا عن مروان (ج ٢ ص ٣٦٢) وعن الوليد الأول (ج ٢ ص ٣٧٣) .
(٢) في كتابه Temple de Jerusalem ، ١٨٦٤ ، ص ٨٥ فما بعدها . راجع أيضاً ما يقوله جيلدمايستر Geldmeister في مجلة Zeitschr. des Deutsch. Palästinavereins ، ١٨٩٠ ، ص ١٤ . ولا يرجع الخطأ المطبوع في الأرقام إلى المؤلف الذى كان عند الطبع قد توفى .

أمير المؤمنين . فقد كان للشام في بيت المقدس المكان الوحيد الذي يستطيع أن يبارى مكة ، على ظهر الأرض (الطبرى ج ٢ ص ١٦٦٦ س ٣) . ولم يكن مكاناً مقدساً عند اليهود والنصارى فحسب ، بل كان عند المسلمين أيضاً مكاناً مقدساً من أول الأمر ، ولم يتعدّل عنه محمد عليه السلام إلى مكة إلا فيما بعد ، وذلك نتيجة لما قضت به الظروف من تساهل مع الوثنية العربية^(١) . وقد جعل الخليفة عمر لبيت المقدس بفضل زيارته له شأنًا خاصاً ، وأثار بذلك حسد أهل العراق ، وفي بيت المقدس نصب معاوية أيضاً نفسه خليفة ، وصلى في هذه المناسبة على جبل الجبلجلة وعند جيتسياني . ولكن عبد الملك ترك ما كان ينويه من إحلال القدس محل مكة ، إن كان قد نوى ذلك على الإطلاق ، وذلك بمجرد أن امتد سلطانه إلى ما وراء بلاد الشام . وقد بدا أن فكرة إحلال بيت المقدس محل مكة بالنسبة للأمة الإسلامية كلها فكرة لا يمكن تنفيذها^(٢) . ولكن عبد الملك حاول ، فيما بعد ذلك ، أن يجعل للشام شأنًا دينياً على حساب ما كان للمدينة من شأن ، ومن قبله كان معاوية قد أمر في سنة ٥٠ هـ بأن يُحمّل المنبر النبوي إلى الشام ، فكسفت الشمس حتى روّيت النجوم بادية عند كسوفها . وأعظم الناس ذلك ، فرجع معاوية عما أراد وقال : « لم أردُ حَمَلَهُ ، وإنما خِفْتُ أن يكون قد أُرِضَ ، فنظرتُ إليه ، ثم كسا معاوية المنبر : وقد همّ عبد الملك بما كان معاوية قد همّ به ، ولكن صاحب خاتمه صرفه عن ذلك . ويقال إن ابنه الوليد همّ مرةً أخرى بما همّ به أبوه ، ولكنه كفّ عن ذلك ، لما طلب سعيد بن

(١) [يقصد المؤلف في أغلب الظن تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى مكة ، وهذا التحويل سياسة إلهية حكيمة ، لا يدركها من يريد أن ينظر إلى كل شيء بمنظار السياسة الإنسانية — راجع تفاسير آية : سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ قل : الله المشرق والمغرب ... الآية « (سورة البقرة) — المترجم] .
(٢) (يروى أن خالد بن عبد الله القسري قال : لو أمرني أمير المؤمنين نقستُ الكعبة حجراً حجراً ونقلتها إلى الشام (الأذاني ج ١٩ ص ٦٠) .

المسيب من عمر بن عبد العزيز أن يكلم الوليد في ألا يتعرض لسيخط الله
حز وجل (الطبرى ج ٢ ص ٩٢ فما بعدها نقلاً عن الواقدي) . ولم يكن
الموحدون بحاجة إلى أن يراعوا ، فما يتعلق بالمدينة ، ما يراعونه فيما يتعلق
بمحكمة من اعتبارات ، ذلك أن أهل المدينة جاهدوا بنى أمية بالعناء أكثر من
مرة وأخرجوهم أخيراً من المدينة على بكرة أبيهم ، وقد حملوا ذلك لأهل
المدينة في نفوسهم . ويظهر أن عبد الملك كان يعين من يعينه من أمراء
المدينة ، وفي نفسه شيء من الخلق على أهلها . وقد تميز بروح خاصة من
الشر من بين هؤلاء الأمراء هشام بن إسماعيل الخزوي (تولى إمارة المدينة
مثل سنة ٨٨٢ هـ) .

وكان موقف عبد الملك منذ نشأته من الإسلام مغايراً لموقف سلفه منه ،
فقد ولد عبد الملك في الإسلام وتربى عليه ، فضلاً عن أن ميلاده كان في مدينة
الرسول ، وفيها كان التراث النبوي الذي بقى جزءاً من تراث الحكومة
التيوقراطية ينالُ عناية بالغة ، وفيها أصبح موضوعاً لاهتمام طائفة من العلماء
تفترغوا له ، وقد اجتهد عبد الملك نفسه في صباه في هذه الدراسات الدينية ، وكان
يعتبر من العلماء بالقرآن . وبروى أنه تغير لما تولى الخلافة (أنساب الأشراف
ص ١٦٤ و ١٦٧ و ١٩٠) (١) . ولاشك أنه بعد توليه الخلافة جعل كل شيء
خاصة للسياسة ، وقد عرض الكعبة نفسها للهدم . ولكن عبد الملك ، بحكم
السياسة أيضاً ، لمحاشي أن يجرح العواطف الدينية لرعيته على النحو الذي كان
عليه يزيد بن معاوية من قلة الاكثريات . وقد عرف عبد الملك هذه العواطف

(١) [جاء في كتاب أنساب الأشراف ص ١٦٤ و ١٦٧ أن عبد الملك أنكر مهاجرة
الكعبة أيام يزيد ، ثم ابدى بأن كان ضربها على يديه . وأدخل عليه مرة أسرى ، فأمر بضرب
أعناقهم ، قبل سواهم . فقال له رجل من أهل الشام ، كان له صديقاً أيام تنسكه :
يا أمير المؤمنين ! لقد أقست الخلافة قلبك ، بعد أن كنت رؤوفاً ! قال : كلا ! الخلافة
لم تقس قلبى ، ولكنه أنشأ احتمال الضغن بعد الضغن - المترجم] .

أحسن بكثير مما عرفها يزيد ، وعرف كذلك كيف يحترمها أكثر منه ، فكان رجاء بن حبيوة الكندي ، وهو الرجل الصالح الذي سنمّع عنه فيما يلي ، مقرباً لعبد الملك وصاحب جاهد^(١) . وقد قتل عبد الملك أيضاً رجلاً ادعى النبوة أيامه (كتاب أنساب الأشراف ص ٢٥٣) ، ويذكر أوثيخيوس (Eutychius, 2, 365) أنه أراد أن يضم كنيسة القديس يوحنا في دمشق إلى المسجد الذي كان إلى جانبها ، ولكنه عدل عن ذلك احتراماً للصناري ، على أنه تعوزنا المادة للحكم في أمر حلاقة عبد الملك برهاياه للصناري ، ولكننا نعرف أن نصرانية تغلب لم تفسرهم ولم تفسر شاعرهم الأخطل في نظر عبد الملك على كل حال . أما ما يذكره تيوفانيس (في حوادث سنة ٦١٨٦ لتاريخ الخليفة) من قتل الخنازير في الشام ، فقد نشأ عن العداء للصناري ، ولكنه لم يأت من قبل الخليفة ؟

وحينما كان الإسلام متمشياً مع العروبة في الأغراض ، فإنه كان يلام أغراض الحاكم ، وكان يخدم أغراض الدولة بسهولة . ولم يلبث عبد الملك ، بعد أن فرغ من القضاء على منافسيه ، أن استأنف على الفور جهاد الروم ، بعد أن ركده هذا الجهاد خمسة عشر عاماً^(٢) . فهزم جوستنيان الثاني في سباسبول سنة ٧٣ هـ التي تبتدئ في أواخر سنة ٦٩٢ م ، وكان قائد عبد الملك هو أخوه محمد بن مروان أمير الجزيرة وأرمينية ، وكانت له أيضاً قيادة الجيش في آسيا الصغرى وأرمينية . وكان المسلمون يقومون بغزو بلاد الروم في كل عام غزوات صغيرة أو كبيرة ، كما كان الحال في أيام معاوية . وهذه الغزوات ، وإن لم تكن لها نتائج ، فإنها كانت مدرسة لتفدية لعرب الشام والجزيرة ، لأنهم بفضلها لم ينقطع تدريبهم على الحرب ،

(١) كتاب أنساب الأشراف ص ١٩٣ . ويرى أن رجاء كان صاحب الخزانة أيام بناء مسجد الصخرة في بيت المقدس (انظر Zeitschrift des Deutschen Palästinavereins ١٨٩٠ ص ٢١) .

(٢) انظر مجلة Öttinger Nachrichten ، ١٩٠١ ص ٤٣١ لما بعدها وكذلك بدأت الحرب في أفريقية من جديد (نفس المصدر ص ٤٣٤ لما بعدها) .

(١٤ - الدولة للمرية)

وكان من إصلاحات عبد الملك المرتبطة باستئناف الحرب مع الروم ، والتي كان لها أيضاً شأن في إرضاء الشعور الديني والوطني ، تغييره لنظام العملة . ويحكى البلاذري (ص ٢٤٠ و ص ٤٦٥ فما بعدها) عن سبب ذلك ما يأتي : كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض مصر ، وكانت الدنانير الذهبية تأتي إلى العرب من قبيل الروم ، وكانت الأقباط تذكر المسيح في رؤوس الطوامير وتنسبه إلى الربوبية ، وتجعل الصليب مكانه . بسم الله الرحمن الرحيم ، فكان عبد الملك أول من أحدث الكتابة في رؤوس الطوامير ، مثل : قل هو الله أحد ، وغيرها من ذكر الله . فكتب ملك الروم إلى عبد الملك : إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً^(١) نكوهه ، فإن تركتموه وإلا أفاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما نكوهونه . فكتب ذلك في صدر عبد الملك ، واستشار خالد بن يزيد بن معاوية ، فأشار عليه بضربه العملة وبتمهيم الدنانير الرومية ومنع التعامل بها ومنع تصدير القراطيس من مصر إلى بلاد الروم ، فكتب القراطيس حينئذ لا تستعمل إلى بلاد الروم ، وبدأ عبد الملك بضرب الدنانير في دمشق سنة ٧٤ هـ ، وبدأ ضرب الحجاج للدنانير في آخر سنة ٧٥ هـ . وكانت الدنانير الرومية والدراهم الكسروية وقليل من الدراهم الحميرية (وعليها صورة البومة الأثينية) هي البخارية . ويقول الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٩٣٩) إن عبد الملك لم يبدأ في ضرب الدراهم الفضية والدنانير الذهبية إلا في سنة ٧٦ هـ ، ولكن إن كان ثيوغانيس (سنة ٦٨٣ من تاريخ الخليفة) على حق فيما يقوله من أن رد جوستنيان الثاني للدنانير الذهبية الدمشقية كان هو السبب في استئناف الحرب بين المسلمين والروم ، فإن الأولى أن يزداد في سنى التاريخ الذي يذكره البلاذري ، لا أن يستقص منها . وكانت العملة الجديدة تضرب عليها : بسم الله ، وكانت تنقش عليها آيات من القرآن تدل على

(١) [الطوامير هي القراطيس ، والمقصود بالكتاب هنا هو الكتابة - المبرج] .

وحدانية الله وصدق رسالة رسوله (١). ولقد كان العرب ، قبل أيام عبد الملك ، يضربون عملة من الفضة والنحاس ، لكن على نماذج رومية وفارسية . ويظهر على كل حال أن معاوية كان من قبل قد حاول أن يفعل ما حققه عبد الملك ، ففي كتاب المؤرخ السرياني الذي نشره نولدكه أن معاوية ضرب عملة فضية وذهبية ، لكنها لم تُقبَل ، لأنه لم يكن عليها الصليب . وكذلك لم تكن العملة التي ضربها عبد الملك تُقبَل في أول الأمر ، خصوصاً في المدينة (البلاذري ص ٤٦٦ فما بعدها) بحجة أن وزنها لم يكن يزيد على وزن الدنانير القديمة المسوَّحة (٢) .

ولم ينجح العمل على التخلص من التأثير الأجنبي من طريق ضرب عملة إسلامية خاصة ، حُملت محاولة مماثلة بقصد الوصول إلى الغاية نفسها ، وهي جعل اللغة العربية لغة الديوان ، أعني ديوان المال ، ذلك لأن إدارة الدولة كانت في الغالب مقصورة على الناحية المالية ، وكان حساب الدولة حتى ذلك الحين يُعمل بالرومية في دمشق ، وبالفارسية في الكوفة . ويبدو من حكاية البلاذري (ص ٣٠٠ فما بعدها ، وكتاب الفهرست ص ٢٤٢) أن بدء التعريب كان في الكوفة ، وكان زاذان فروخ بن بيري (٣) ، أو ابنه مردانشاه ، آخر كتاب فارسي ، وكان مساعده في ذلك صالح بن عبد الرحمن ، فعرض صالح على الحجاج أن يحول :

(١) وقد ذكره الفقهاء من الحجاج أنه كتب على الدراهم اسمه بعد عبارة : بسم الله [ويؤخذ من البلاذري (ص ٤٦٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٣٧) أن الفقهاء كرهوا كتابة القرآن على العملة تعظيماً للقرآن ، حتى لا يمس إلا المطهرون - المترجم] .

(٢) قارن أيضاً ابن الأثير ج ٤ ص ٣٣٧ فما بعدها ، ويتجلى عدم النجاح في تنفيذ وحدة حقيقية في العملة وفي الموازين في الدولة الإسلامية من حديث ينسب إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذكره يحيى بن آدم في كتابه الخراج ص ٥٢ - ٥٣ : منحت العراق درهمها وقفيظها ، ومنحت الشام دينارها ودينارها ، ومنحت مصر إردنها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأت ، وعدتم من حيث بدأت ، وعدتم من حيث بدأت .

(٣) راجع الطبري ج ٢ ص ١٠٣٤ وكتاب أنساب الأشراف ٣٤٣ و ص ٢٥٢ .

الحساب باللغة العربية ، وقد استطاع ذلك ، وإن كانت كتابة الكسور قد شقت عليه - ويظهر أن رموز الأرقام لم تكن تستعمل في الكوفة ، أما السبب الذي من أجله صُرب الديوان في دمشق فإن البلاذري (ص ١٩٣) يقص فيه قصة عجيبة فيقول : إن رجلاً من كتّاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً ، فلم يجد ماء ، فبال في الدواة . فبلغ ذلك عبد الملك فأدّبه ، وأمر بنقل الديوان من الرومية إلى العربية وكتّف سليمان بن سعد بإنجاز هذا العمل ، فأتم ما عهد به إليه في خلال عام ، وكوفي عليه بأن أعطى خراج بلاد الأردن في عام ، وكان مقداره مائة وثمانين ألف دينار . وبقي النظام الرومي والفارسي في الديوان كما هو بطبيعة الحال ، ولم تتغير إلا لغة الديوان ، ولا شك أيضاً في أن الكتّاب الروم والفرس الذين كانوا في خدمة الدولة قد بقوا كما كانوا ، لأنهم كانوا يعرفون العربية ، وكان صالح بن عبد الرحمن الذي قام بنقل الديوان في الكوفة ، هو نفسه ، فارسياً من سجستان (البلاذري ص ٣٠٠ س ١٢ ، ١٣ وص ٣٩٣ س ١٥) ، وكان لا بد للكتّاب من معرفة الفارسية والرومية لكي يستطيع النقل إلى العربية . ولم يزل لسرجون الرومي في دمشق على عهد عبد الملك ما كان له من مركز ونفوذ أيام معاوية ويزيد (الطبري ج ٢ ص ٨٣٧ س ١١) (١) .

ويقول تيوفانيس (في حوادث سنة ٦١٩٩ من تاريخ الخليفة) - وهو ينسب إلى الوليد الأول ، لا إلى من قبله ، لإحلال اللغة العربية محل الرومية في الكتابة في الديوان (٢) - إن العرب قد اضطروا إلى الاحتفاظ بعلامات الأرقام

(١) [النص الذي يذكره المؤلف لا يدل على ما يقوله ، وكل ما فيه أن سرجون كان يكتب لمعاوية على الديوان ، ولكن البلاذري (ص ١٩٣) يقول إن سرجون كان كاتباً لعبد الملك ، وإن عبد الملك عرض عليه عمل سليمان بن سعد - المترجم] .

(٢) وقد نقل الوليد الديوان إلى اللغة العربية بمصر سنة ٨٧ هـ ، لكن [حلال اللغة للعربية لم يكن محل اليونانية بل القبطية ، كما يقول المقرئ (الخطط ج ١ ص ٩٨) .

للرومية ، وإن كتابهم كانوا ما يزالون نصارى ، والحقيقة أن الكتاب النصارى فى العصر العباسى ، الذى ألف فيه هذا المؤرخ البوزنطى كتابه ، كانوا أقوى نفوذاً وأعظم سلطاناً مما كانوا فى أى وقت مضى ، ولكن البغض لهم لم يبلغ ما بلغه فى ذلك العصر أيضاً . ومهما يكن من شيء فإن العرب كانوا يُعتبرون غير صالحين لتولى شئون الخراج ، ولم يكن ذلك لجرد قلة المعرفة الفنية عندهم (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٨ ، ١٤٧٠ (١)) .

ويبدو للإنسان أن عبد الملك قد أقام الدولة من وجوه أخرى على قواعد جديدة ، فأصبحت إدارتها فيما يظهر ذات طابع فى ومتدرج أكثر مما كانت عليه من قبل ، وإن لم تبلغ فى ذلك إلا درجة أقل بكثير مما بلغت إدارة الدولة العباسية : ومن المناصب العليا فى الدولة ما لا ذكر لوجوده قبل عهد عبد الملك ، ولكن لا يتحتم أن يؤخذ من ذلك أن هذه المناصب لم تكن موجودة من قبل . على أنه من المؤكد مثلاً أن لقب الـ *Πρωτοσύμβουλος* (= المستشار الأول) أصبح لا يلائم عهد الملك ، وقد كان لقباً يلقب به عند مؤرخى الروم الخلفاء الأولون من بنى أمية . وقد اختط عبد الملك فى معاملته لعماله خطة صارمة أوشك معها أن يكون جافياً غليظاً ، حتى مع الخجاج ، على حلو فضله ومكانته ، فكان يعامله معاملة تختلف كل الاختلاف عن معاملة معاوية لزياد ، وقد أصبح عهد الملك أيضاً لا يسمح للدوى النباهة من الرجال ، الذين كان - بحسب العادة القديمة - يجتذبهم إلى مجلسه ويشاورهم ، بأن يرفعوا الكلفة بين أنفسهم وبينه ، كما كان يفعل معاوية من قبل ، مطمئناً إلى أن رجحان عقله كفيل بأن يسعفه ، ولم يكن لعبد الملك ولا مان بجاء بعده من خلفاء بنى أمية ، ذلك اللطف المعروف عن الخلفاء السفينيين ، وهو

(١) [أخذ على عبيد الله بن زياد أنه استعمل الدهاقين فى جباية الخراج ، فعزل ذلك بأنه وجدهم « أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأهون فى المطالبة من العرب » - المترجم نقلاً عن الطبرى ج ٢ ص ٤٥٨] .

اللطيف الذي ربما كان لهم ، كما كان للسيد العربي القديم ، أشبه بفضيلة مكتسبة منه بأن يكون صفة فطرية . وإنما أراد عبد الملك أن يظهر بمظهر السيد الصارم . (كتاب أنساب الأشراف ص ١٧٨) (١) .

وكان عبد الملك ، إذا كان الأمر أمر خلافة ، لا يأبه لأى اعتبار ، فقتل بيده ابن عمه عمرو بن سعيد ، لأنه تطاول للخلافة . وقد عارضه أخوه عبد العزيز فيما أراده من جعل الخلافة فى أبنائه ، فلم ينقله من بطش عبد الملك إلا الموت . على أن عبد الملك أعطى أقاربه من بنى أمية من التمتع بالسيادة نصيباً أوفر مما كان يعطيه إياه من كان قبله من الخلفاء ، فكادت تكون فى أيديهم فى أول الأمر كل إمارات الأمصار ، فكان عبد العزيز بن مروان أميراً على إفريقية ومصر ، وربما كان ذلك بفضل وصية أمربها مروان فى كبره ، ويروى أن مروان كان يريد أن تكون لعبد العزيز ولاية العهد بعد عبد الملك (١) . وكان محمد بن مروان أميراً على الجزيرة وأرمينية ، وكان لهذه الإمارة خطرتُها ، نظراً للحرب مع الروم . وتقلد بشر بن مروان ، على صغر سنه ، إمارة الكوفة ، ثم ضُمَّت إليه إمارة البصرة ،

(١) [يجد القارئ فى خطبة لعبد الملك خطبها فى المجاز هذه العبارات مثلاً : « أيها الناس ! لست بالخليفة المستصفي ، بئى عثمان ، ولا بالخليفة المداخن ، بئى معاوية ، ولا بالخليفة المأفون ، بئى يزيد . ألا وإن من قبل من الولاة كانوا يأكلون ويؤكلون ، وإنى والله لا أأديكم إلا بالسيف هذا عمرو بن سعيد قال برأسه كذا ، فقلنا بسيفنا كذا إن الله عز وجل فرس فرانس وسدد حدوداً ، فإزلم تردادون فى اللذوب وترداد فى العقوبة ، حتى اجتماعنا وأنتم عند السيف . . . » - المترجم ، نقلاً عن أنساب الأشراف ص ١٧٧ - ١٧٩ .

(٢) جاء فى كتاب : Cont. B.A. § 29 :

Marvan antequam moreretur . . . Aegyptum vel (= et) : ultioris Aethiopiae partes, Tripolcos Africae et usque ad = Oaditana freta adiacentes provincias Habellaziz filio derelquit [وقبل أن يموت مروان كان قد ترك لابنه عبد العزيز مصر أو (= و) أجزاء من الحبشة القصبوى وطرابلس أفريقية والولايات المجاورة ، حتى مضيق قادس - المترجم] . وقد غضب عبد العزيز من عبد الملك ، لأن عبد الملك طلب منه أن يحمل له خراج مصر ؛ ولم تكن أم عبد العزيز أما مروان (أنساب الأشراف ص ٢٣٩ ، ٢٤١) .

وقبل ذلك كان أموى آخر ، هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، يتولى
البصرة . وكانت جماعة بنى أمية فى مجلس الخلافة ، منذ أن خرجوا مع مروان
من المدينة إلى دمشق ، أكبر بكثير من ذى قبل . وكان هناك شأن أيضاً لخالد بن
يزيد بن معاوية . وقد حاول عبد الملك أن يخفف عليه وطأة ما كان يحس
به من مضاضة بسبب إقصائه بغير حق عن وراثة الخلافة ، فقتله إليه
وزوجه من ابنته . وقد تزوج عبد الملك نفسه إحدى بنات يزيد ، وكان اسمها
حاتكة ، وكانت زوجه الأثيرة عنده ، وكان لها عنده شأن عظيم .

وتذكر فى كتاب أنساب الأشراف الذى نشره ألفارت (١) حكايات
كثيرة عن هذا الخليفة الذى بلغ من الشهرة ما لم يبلغه أحد من خلفاء أسرة
بنى أمية . وهذه الحكايات تزيد فى معرفتنا بشخصه وتعطينا إلى جانب ذلك
أيضاً كل ما أحاط به من طرائف : فهى تحدثنا عن الأماكن التى كان يغير
بينها مقامه بحسب فصول السنة ، وعن نسائه وعن أسرته ، وعما كان قد
اعتاد أن يباشره فى كل يوم من أعمال ، وعن حنائه بتأديب أولاده ، عن
فضائله ووجوه ضعفه ومعايبه - كان فاسد الفم - وعن الانقلاب الذى كان
يلقب بها ، وهو قد شاب قبل الأوان ، وتوفى عن ستين عاماً فى دمشق (٢) ،
يوم الخميس ١٤ شوال سنة ٨٦ هـ : (= ٩ أكتوبر سنة ٧٠٥ م) .

(١) [راجع الكتاب المذكور ص ١٦١ - ٢٣٨ - المترجم] .

(٢) يذكر الواقدي عن أبي معشر (الطبرى ج ٢ ص ١١٧٢ -) قارن أنساب الأشراف
ص ٢٦٤) أن عبد الملك مات يوم الخميس لنصف من شوال ، وبحسب Wüntenfeld
وافق يوم الخميس الرابع عشر من الشهر ، وهذا هو أيضاً التاريخ الذى يذكره إلياس
النصيسى . أما عزه فيذكر المدائنى (الطبرى ج ٢ ص ١١٧٣) وصاحب أنساب الأشراف أن
عبد الملك مات وله اثنتان وستون أو ثلاث وستون سنة ، أما أبو معشر فيقول إنه مات وله
ستون سنة ، والواقدي يذكر أنه مات وهو ابن ثمان وخمسين (الطبرى ج ٢ ص ١١٧٣) وأنساب
الأشراف ص ١٦٣ ، وكذلك الأنساب ص ١٥٢ بالقراءة الصحيحة) : ورقم ٦٠ هو الأصل
كما فى الطبرى (ج ٢ ص ٤٦٧ ص ١١) .

ويسمى عبدُ الملك أبا الملوك ، لأن أربعة من أبنائه صاروا ملوكاً من بعده ، وكان خلفاء بني أمية بعده كلهم من ذريته ، ولم يخرج عن ذلك إلا اثنان من خلفاء بني أمية المتأخرين : وكان أخوه عبد العزيز ، أمير مصر ، قد عُيِّنَ خلفاً له ، وبويع أيضاً على ذلك . وقد جهد عبد الملك في أن يحمله على التنازل عن الخلافة لكي يصرفها إلى أحد أبنائه عنده ، ولكن جهده لم يثمر : فامتنع عبد العزيز امتناعاً شديداً ، ولم يُفِدهُ معه الترهيب ولا الترغيب . ولكن القدر أسعد عبد الملك بأن مات عبد العزيز قبله (الطبرى ج ٢ ص ١١٦٤) فما بعدها ، قارن أيضاً ص (١١٧١) ، وعند ذلك جعل عبدُ الملك ولاية العهد في الوليد أكبر أبنائه . ثم ارتقى الوليد عرش الخلافة ، وفي عهده وثبت سيوف العرب وثبة جديدة ، فاحتلوا حصن طوانه (Tyana) بعد حصار طويل ، وأعدت حملة كبيرة على القسطنطينية نفسها . وهكذا بدأت من جديد فترة من الفتوحات الكبيرة ، فغلب العرب على ما وراء النهر وعلى أسبانيا . وفي داخل الدولة سادت السكينة بعد طول انتظار ، وبنى الوليدُ ثمرات عمل أبيه ، وهو قد ترمم آثاره ، فتمسك بالحجاج ، أمير المشرق الذي أثار على نفسه كثيراً من العداوات وكان بمثابة العلامة المميزة لحكومة الخلفاء الذين نحدتهم . وقد كان الوليد حريصاً على أن يظهر بمظهر السيد والأمر ، ويقال إنه كان أول من تَجَهَّرَ من الخلفاء (كتاب أنساب الأشراف ص ٢٤٣) ، ونسب إليه كلمات من قبيل *oderint modo metuant* (١) (الطبرى ج ٢ ص ١١٧٨) (٢) . وقد عمل على تقوية الإسلام من حيث هو دين الدولة ، وربما كان له في قلبه محبة عميقة أيضاً ، فوضع حداً لإبذاء أهل الدين والورع في المدينة على يد أميرها هشام بن إسحاق المخزومي ، وعيّن مكانه ابن عمه عمر بن عبد العزيز .

(١) [معنى هذه العبارة اللاتينية هو : فليكرهوا ، ما داموا شائقيين - المترجم] .

(٢) [ختم الوليد أول خطبة خطبها بعد أن افتتح من دفن أبيه بقوله : بعد حفظ الناس على الطاعة والامتداد : أيها الناس ! من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه - المترجم] .

وكان تعيينه موافقاً لهوى الفقهاء (الطبرى ج ٢ ص ١١٨٢ فا بعدها) ،
وكان الوليد يحتم على الناس جميعاً أن يقرعوا القرآن ويعرفوه ، وكان يجعل
ذلك شرطاً في قضاء حوائجهم وصلة أرحامهم (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧١) ،
وإن كان هو في شبابه قد كان يلحن في اللغة التي نزل بها القرآن لحناً
فاحشاً ، مما اهتم له أبوه كثيراً (أنساب الأشراف ص ٢٣٦ فا بعدها و ص
٢٦٠) . وقد نقل الوليد ما يقال إن أباه عبد الملك كان قد عزم عليه
ثم تركه ، وهو أنه أخذ من النصارى في دمشق كنيسة القديس يوحنا ، فوسع
بها المسجد الملاصق لها وجددّه تجديدًا رائعاً في سنة ٨٤ هـ (البلاذرى ص
١٢٥ فا بعدها والطبرى ج ٢ ص ١٢٧٥) . وأخذ من كنيسة نصرانية
في بعلبك قبتها النحاسية المطلية بالذهب ووضعها في بيت المقدس فوق
الصخرة المقدسة (Eutych. 2, 373) . وكذلك أمر بإعادة بناء مسجد المدينة
(البلاذرى ص ٦ ، ٧) . على أنه قد أغضب أهل الدير في المدينة بذلك ،
كما أغضبهم بأنه في سنة ٩١ هـ خطب فيه الخطبة الأولى من الخطبتين ،
وهو جالس ، على حادثه في الشام (الطبرى ج ٢ ص ١٢٣٣) . وكان
مولعاً بكل أنواع البناء وبتخطيط الضياع وتحسينها ، فانتقلت هذه
الروح منه إلى الناس (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٢)^(١) . وقد جلب
له الخجاج الجهموس من الهند إلى إقليم المستنقعات عند خليجان إلوسوس ،
على أنه عني أيضاً بأهل العاهات ، فأعطى المجذمين وأعطى كل منعه
مخدماً وكل ضرير قائداً ، لكيلا يضطروا إلى سؤال الناس (الطبرى ج ٢
ص ١٢٧١) . وكان أهل الشام أكثر من استفاد منه ، وكانوا
يعتبرونه أفضل خلفائهم (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧١ ص ٣) . ومن العسير أن

(١) [جاء في الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٢ - ١٢٧٣ : أن الوليد كان صاحب بناء
واتخاذ المصانع والضياع ، وكان إذا التقى الناس في زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء
والمصانع . فولى سليمان بن عبد الملك ، فكان صاحب نكاح و طعام ، فكان الناس يسأل بعضهم
بعضاً عن التزويج والحواري . فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل :
« ما وردك الليلة ، وكتم تحفظ من القرآن ، ومتى تقيم ، وما تصوم من الشهر ؟ » - المترجم] .

نصدق أنه كان في الشام متحيزاً إلى قبيلة قيس ، لأنه لم يكن بحاجة إلى ذلك ، ولأن المؤرخين القدماء لا يذكرون شيئاً من ذلك ، ونحن لا ينبغي أن نستنتج من أمه ولادة بنت العباس العباسي كانت قيسية (أنساب الأشراف ص ١٧٢ س ١٩ فما بعده ، والحجاسة ص ٦٧٢) وأن الحجاج ، وهو قيسى النسب ، كان ساعده الأيمن : ويميل المؤرخون المتأخرون إلى وضع كل الرجال الذين لعبوا دوراً في تاريخ الدولة في جانب أو في آخر ، ويقلد دوزى في ذلك . وقد مات الوليد في يوم السبت منتصف جمادى الآخرة من سنة ٩٦ هـ ، وهو في حوالى الأربعين من العمر (الطبرى ج ٢ ص ١٢٦٩ فما بعدها) ، وكان يوم السبت يوافق ١٣ جمادى الآخرة = ٢٣ فبراير سنة ٧١٥ م^(١) .

٣ - وفي خلافة عبد الملك وابنه الوليد ظل العراق سنين طويلة تحت إمرة الحجاج بن يوسف بن الحكم بن حنبل الثقفي الذي تقدم ذكره كثيراً والذي ظهرت مواهبه في مكة والمدينة أول الأمر ، وكان تاريخ العراق في تلك الحقبة هو التاريخ الحقيقي للدولة الإسلامية .

ولما تولى الحجاج على العراق كانت تنتظره مهام ثقيلة ، فكانت تلك الولاية يغلي باطنها كالمرجل ، ولم يكن ذلك لجرد الصراع الذي استمر سنين طويلة حول الخلافة ؛ وقد أعمدت الثورة العنيفة التي قام بها شيعة الكوفة ومن انضم إليهم من الموالي ، بقيادة المختار الثقفي ، ولكنها خلقت في النفوس ناراً متوقدة^(٢) ، ولم تكن البصرة قد تحررت بعد من الخوارج الذين كانوا يقفون أمام أبواب هذه المدينة مهلدين لها^(٣) . ولم يكن مصعب بن الزبير قد استطاع أن

(١) لعل عبارة « منتصف الشهر » كانت لا تدل قديماً على اليوم الخامس عشر من الشهر على التحقيق ، كما يفهم ذلك عادة . ويذكر إلياس النصيبى أن الوليد توفى يوم الأحد الرابع عشر من جمادى الثانية سنة ٩٦ هـ .

(٢) انظر ما كتبه من الشيعة . Schia p. 74ss .

(٣) انظر ما كتبه من الخوارج . Chavarig p. 32ss .

يقضى عليهم ، وقد فتوا في عضده وهو يحارب أهل الشام ، حتى اضطر
أن يترك وراءه أحسن قواده لحماية البصرة من الخوارج : فلما هُزم مصعب
وقتل على نهر دجلة أمام عبد الملك ، كان المهلب في ميدان القتال مع
الأزارقة ، فأدرك جملة الموقف وتصرف طبقاً لذلك ، فانضم إلى المنتصر ،
وعرف له المنتصر قدره . ولكن الأمراء الأمويين الذين أرسلهم عبد الملك
أمراء على العراق لم يكرنوا يصلحون إلا لتولى المنصب بلا عمل : فلم يكن
من خالد بن أسيد الذي عين على البصرة إلا أن نهي المهلب عن القيادة
وجعله على خراج الأهواز ، وتولى هو في أول الأمر القيادة في محاربة
الخوارج ، أولئك الثوار المتعصبين الخطرين ، ثم عهد بها لأخيه عبد العزيز ،
فجاءت على أثر ذلك هزيمة قبيحة لحقت بجيوش الدولة . فلما كتب خالد إلى
عبد الملك يخبره بها ، رد عليه عبد الملك مسفهاً رأيه في إبعاد المهلب ،
وهو البصير بالحرب المقاسي لها ، وفي جعله أخاه قائداً مع أنه أعزب من
أهل مكة ، وأمره بأن ينتفع بالمهلب ويستشير به في كل ما يتعلق بقتال العدو ،
ثم إن عبد الملك ولي المهلب حرب الأزارقة ، ولكنه ، بعزله خالداً عند
ذلك وتعيينه أخاه بشراً بدلاً منه وإسناذه إليه إلى جانب إمارة الكوفة إمارة
البصرة ، لم يسمعف المهلب ، لأن بشراً ، وكان غلاماً أخرق معجباً بنفسه ،
لم يكن أحسن صنفاً ممن سبقه من أمراء بني أمية ، وقد شق عليه أن إمارة
المهلب جاءت من قبل الخليفة مباشرة ، فامتلاً قلبه حقداً عليه . وهو قد شد
أزر المهلب بجند الكوفة بناء على الأمر الأعلى الآتي له من الخليفة ،
ولكنه أمر قائدهم أمراً صريحاً بأن يستبد على المهلب بالأمور ، وبألا يقبل
له مشورة وألا يحترمه . وكان بشر أخرق فيما صنع ، لأنه استجهل القائد
وطلب منه ما لا يصح طلبه وأغراه بالمهلب مع أنه ابن عمه ، ولذلك
فإن ذلك القائد لم يكن منه إلا أنه تجاهل كلام الأمير الشاب واستخف

بعقله . وكان من الحظ الحسن أن بشراً توفي عام ٧٤ هـ (١) ، فوجه عبد الملك الحجاج والياً على العراق ، وقررت بذلك عين المهلب . وقد تولى الحجاج عمله في أول سنة ٧٥ هـ (٢) . وهذا هو مجمل حكاية أبي مخنف ، كما نجدتها عند الطبري (ج ٢ ص ٨٢١ لها بعدها ، وص ٨٥٥ لها بعدها) .

وتقدم الحجاج إلى أهل الكوفة بخطبة خطبها لما دخل الكوفة لمباشرة مهام منصبه ، وهي ليست دون خطبة زياد بن أبيه ، شريكه في الوطن وسلفه في المنصب — تلك الخطبة التي ألقاها في البصرة . وما جاء عند الطبري ج ٢ ص ٨٦٣ لها بعدها) من أخبار ذلك يرجع إلى عمر بن شبة (نقلاً عن أبي خسان والمدائني) ، ويمكن مقارنته بما في كتاب أنساب الأشراف (ص ٢٦٦ لها بعدها وكتاب الكامل ص ٦٦٥ لها بعدها) . وقد صعد الحجاج المنبر مثلياً ، ولبت لا يتكلم . فقال محمد بن حمير بن عطار : ماله ، ترّحه الله ، لا يتكلم ! ما أحياء وأشتاه وأذمه . . . ثم أخذ كفاً من حصي ليحصب الحجاج (٣) . وأخيراً قام الحجاج ليخطب خطبته التي أوليها :

أنا ابنُ جلا وطلاعُ الثنايا متى أضغُ العمامة تعرفوني

وهي الخطبة التي تهدد فيها أهل العراق وتوعدهم . وتبين لابن حمير أن الحجاج ليس عبياً ولا ضعيفاً ، فجعل الحصا يتساقط من يده ، كلما استمر الحجاج في كلامه . وكانت أول مهام الوالي الجديد إهادة النظام بين جنود الكوفة والبصرة ، وكأنما كان هؤلاء الجند قد رأوا أن موت بشر بمثابة إشارة لترك معسكر المهلب في راحته ، دون إذن لهم بذلك . وهم قد كانوا سئموا البقاء في ميدان القتال بعيداً عن

(١) يقول الرازي (الطبري ج ٢ ص ٨٥٢ ص ٨ وص ٨٥٤ ص ١) إنه مات سنة ٧٣ هـ ، ولكن هذا مستحيل .
 (٢) لا في رمضان كما يذكر عند الطبري (ج ٢ ص ٨٧٢) ، قارن الطبري ج ٢ ص ٩٤٤ ص ٩ وص ٨٧٦ ص ٣ ، وأنساب الأشراف ص ٢٧٠ ص ١ .
 (٣) فالظاهر إذن أن زياداً ترك بعض الحصى في المسجد [راجع ما تقدم ص ١١٩ — المترجم]

أهلهم وأولادهم زماناً طويلاً ، وكانوا قد اعتادوا الرغد الحقيقي في ديارهم (الطبرى ج ٢ ص ٨٦٥ فما بعدها^(١)) . فأنذر الحجاج على الفور أهل الكوفة من أعلى المنبر ، أن من رثى في المدينة من الجند الهاربين من عصاة الجيوش بعد ثلاثة أيام فالذمة منه بريئة ، وماله نهيب ، ودمه مباح ، وقد عرف كيف يؤكد هذا التهديد ، فضرب أمثلة قاسية كان لها أثرها ، ثم بدأ الحجاج عمله في البصرة بمثل ما بدأه به في الكوفة ، وكان حظه من التوفيق هناك مثل حظه هنا . وتزامن الجند الذين كان عليهم أن يعودوا إلى الجيش على قنطرة دجلة ، لكنهم يعودوا إلى رامهرمز ، وذهب الحجاج بنفسه معهم إلى أن بلغ رستخاد . وكان عليه في شعبان سنة ٧٥ هـ أن يقضى هناك على ثورة بسبب انقاص الزيادة التي كان ابن الزبير قد زادها في أعطيات أهل العراق . وتدل رواية صاحب كتاب أنساب الأشراف (ص ٢٨٠ فما بعدها) ورواية ابن الأثير (ج ٤ ص ٣٠٩ فما بعدها) على أن هذه الثورة كانت أخطر بكثير مما يبدو من الرواية المقتضبة الموجودة عند الطبرى (ج ٢ ص ٨٧٩) ، وبعد للقضاء عليها أصبح من الممكن توجيه القتال إلى الأزارقة بوسائل كاذبة ، وإن كان لم يمكن القضاء عليهم قضاء تاماً إلا بعد مضي أكثر من عامين^(٢) .

وفي الوقت الذي لم يكن قد تم فيه التغلب على الأزارقة في المشرق ، قام خوارج آخرون في أول سنة ٧٦ هـ ، في غرب العراق ، كانوا يتميزون بأنهم ينتمون في الأغلب إلى قبيلة واحدة أبيتة ، هم بنو شيبان من بكر . وكانوا قد تركوا مواطنهم الأولى على الضفة اليمنى للفرات ، في بادية الكوفة والبصرة ، وهاجروا منذ زمان قصير إلى شمال أرض الجزيرة . وكان أشهر زعمائهم وأنظرهم

(١) يعتمد المؤلف في هذا على ما جاء في خطبة الحجاج في الكوفة من قوله إن أهل العراق أشبه بأهل قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنهم الله ... الخ ، ودلالة هذا على ما يقوله المؤلف ليست مباشرة - المترجم [.
(٢) راجع ما كتبناه من الخوارج ص ٣٩ فما بعدها من كتابنا .

شبيب بن يزيد^(١) الذي كان بفضل سرعة فرسانه كثير الظهور والاختفاء ، كأنه في كل مكان ، وكأنه ليس في أي مكان ، بل هو في سنة ٧٦ هـ خرج من الجزيرة إلى العراق وهزم جيوشاً كثيرة أرسلها الحجاج لمقاتلته ، وبلغ منه أن طرق أبواب العاصمة . وكانت الأرض التي اختارها بلجولاته هي الأرض القديمة للخوارج الأولين ، أضي أرض جوسى على النهروان والجهال التي تقع إلى شمالها . وبعد أن لبث فترة طويلة في بلاد أذربيجان الجبلية ، تقاطر إليه في أثناءها خلق كثير ، تقدم في النصف الثاني من سنة ٧٧ هـ ، ومعه جيوش كبيرة ، نحو الجنوب ، يحاول هجوماً حاسماً على الكوفة . وقد أمر الحجاج جيوشاً شتى لكي يجتمع لمناجزته ، ولكنه هزم جيوش الكوفة كلها هزيمة شنعاء جعلتهم يلوذون بالفرار ، ثم ترك الميدان . وكانت موارد الحجاج من الجند قد نضبت ، فوجد نفسه مضطراً إلى أن يطلب إلى الخليفة أن يرسل له جنداً من الشام ، وجاء هؤلاء في الوقت المناسب تماماً ، وطردها شبيباً ، فقل راجعاً إلى أرض جوسى أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن ارتحل عنها إلى بلاد كرمان النائية ، أضي إلى حصن الأزارقة المنيع ، ثم خرج من هناك والتقى عند دُجَيْل (في الأهواز) بجيش الشام الذي أرسل وراءه ، وغرق ، وهوراجع عبر النهر ، وذلك في سنة ٧٧ هـ (ربيع سنة ٦٩٧ م) . وهكذا أنقذ أهل الشام الكوفة ، وسرى الثمن الغالي الذي كان لابد أن يُدفع لبقاء معونتهم . وإلى أبي مخنف^(٢) ترجع رواية أخبار شبيب في الرواية المفصلة التي حكها الطبري (ج ٢ ص ٨٨١ - ١٠٠٢) .

(١) كانت أسرة شبيب تقطن غير بعيد من الموصل ، لكنها كانت قد هاجرت إلى هناك (انظر فيما يتعلق بالكوفة الطبري ج ٢ ص ٩٧٧) من ماء الصف ، أو الصف ، في هاديّة الكوفة (الحماسة ص ١٥) ، وبني بعض أفراده يقطن هناك . وكان شبيب وأبوه يختلفان إليهم (الطبري ج ٢ ص ٩١٥ ، ٩٧٨) . وربما كان تفرق بني شبيب لم يأت اختياراً ، بل بسبب من معاوية .

وفي سنة ٧٨ هـ ، بعد أن كان قد تمّ القضاء على خطر الخوارج في شرق العراق وغربه ، ضمّ عبدُ الملك خراسانَ ومجستان إلى الحجاج ، وذلك زيادة على ما كان له من إمرة الكوفة والبصرة (الطبري ج ٢ ص ١٠٣١)
فما بعدها ، وأنساب الأشراف ص ٣١٠ فما بعدها ، فأعطى الحجاج ولاية خراسان للمهلب بن أبي صفرة الأزدي ، قاهر الأزارقة ، الذي كان قد اكتسب مجداً وشهرة هناك من قبل (البلاذري ص ٤٣٢) . وبقي المهلب هناك حتى وفاته (آخر سنة ٨٢ هـ) ، وقد أورث أسرته وقبيلته ما كان له من سلطان ؛

ووجه الحجاج إلى سجستان (١) عبيد الله بن أبي بكرة (٢) ، وهو بصري نابه من البيت الثقي المعروف الذي ينتسب إليه زياد بن أبيه . فقام عبيدُ الله في سنة ٧٩ هـ بحملة وجهها إلى زنبدل (٣) كابل وزابل ، لأنه منع الخراج ، فاستدرجه الزنبدل إلى الإمان في البلاد ، حتى انتهى إلى شيعب ، ثم أخذ عليه الطريق ، فلم يستطع عبيدُ الله أن ينجو ويشق طريقه راجعاً إلا بعد مصالحة الزنبدل ، وقلد تكبد خسائر جسيمة أصابت جنده الكوفة خاصة ، وحزن حزناً قصراً أجله . فيقال إنه مات كهداً ، وذلك في سنة ٧٩ هـ (كتاب أنساب الأشراف ص ٣٢٠) ، أو في سنة ٨٠ هـ (للطبري ج ٢ ص ١٠٤٦) . وكانت سجستان محتاج إلى قائد

(١) فيما يتعلق بالتاريخ السابق لسجستان قارن البلاذري ص ٣٩٢ فما بعدها .
(٢) [تجد حكاية حملة ابن أبي بكرة على الزنبدل عند الطبري ج ٢ ص ١٠٣٦ فما بعدها :
وفي كتاب أنساب الأشراف ص ٣١١ فما بعدها - المترجم] .
(٣) النطق الصحيح هو زنبدل (اسم علم ولقب في وقت متأخر) لا زنبدل (راجع ما يقدّم له .
كاننجهام (Cunningham) في أعمال المؤرخ النول العاشر للمستشرقين ، مجلد ١ ص ٢٤٤ ،
وراجع Justl, Namenbuch, 385 وكتاب Marquart, Eranachahr, 37) ، قارن الطبري .
ج ٢ ص ١٦٥٢ ص ١٨ و ٣٣ ص ١٩٤ ص ٣ ، ويوجد زنبدل اليمنى عند الطبري ج ١ ص ١٨٥٥ ص ١٦ ، ويسمى الزنبدل مسند الترك - الطبري ج ٢ ص ١١٢٢ فما بعدها
و ١١٣٧ ص ٢ و ١٠٤٢ ص ١٢ . وكان أهل البلاد إيرانيين ، لكن الأسر الحاكمة (والهند) كانوا تركاً ؛ قارن ديوان الفرزدق طبعة بوشيه ص ٢٠٦ ص ١٠ (؟) .

محنتك يكون والياً عليها ، فاختار الحجاج لذلك كوفياً ألباً من قبيلة ملوك كندة القدماء ، وهو عبد الرحمن بن محمد الأشعث ، الذى كان فى بلاد كرمان^(١) المجاورة لسجستان ، وشده أزره بجيش كبير كامل الأعطيات تام الأهبة والعدة ، انتخبه من أهل الكوفة والبصرة ، ولذلك سُمى هذا الجيش « جيش الطواويس » .

وكان هذا هو الموقف لما اندلعت على الحجاج فى سجستان ثورة جيش العراق ، وهى الثورة التى هزّت دولة الأمويين هزاً شديداً . ويذكر الطبرى^(٢) فى ذلك رواية أبى مخنف ، وهى رواية حية مُفَصَّلة ، مؤثراً لها على غيرها ، أما رواية كتاب الأنساب (ص ٣٠٨ فما بعدها) ، وهى أيضاً مفصلة تفصيلاً وافياً ، فهى ترجع إلى رواية كثيرين . اتبع عبد الرحمن ابن محمد — وهو يسمى عادة بابن الأشعث نسبة لجدّه — طريقة مغايرة لطريقة سلفه ، فلم يقدّم بغارات متفرقة ، بل بحرب حقيقية منظمة ، وأراد أن يحذر مغبة التسرع فى التوغل فى البلاد ، فكان لا يفتح حصناً ولا يجاوز مُحَرَّراً إلا خَلَّفَ فيه قائداً ، معه حامية من المسلمين ، ونظّم المراسلات بالبريد بين البلاد ، وجعل الأجناد على العقاب والشعاب ، ووضع المسالِح بكل مكان مخوف . وبعد أن حاز أرضاً عظيمة وامتلاّت يداه بالغنائم ، حَسَسَ الناس

(١) يقول أبو عبيدة (أنساب الأشراف ص ٣٢٠ فما بعدها ، والطبرى ج ٢ ص ١٠٤٦) إنه كان هناك لإخاد ثورة قام بها هيمان بن عدى السدوسى السكرى (قارن كتاب الأنساب ص ٣٤٢) وفى روايات أخرى (الأنساب ص ٣١٨ س ٢ ، ٣٢٠ س ١٠) ، خلافاً لذلك أنه كان هناك لماربة الخوارج . وبحسب كتاب الأنساب (ص ٣٠٩) كان فى أول الأمر قد ذهب إلى سجستان من أجل ميراث له ، فجعل يختلف إلى بعضى يقال لها ماهوش ، فأخيه معها . ولكن بحسب كتاب الأنساب (ص ٣٣٤ فما بعدها) كانت هذه تسكن كرمان ولم تسبوه هو بل استبوه عرباً ذليلاً غيره ، حتى دهن من أجلها سرج خصائه وطلب من ابن الأشعث أن يفرّج عنه حتى يستطيع أن يركب معهم ، قارن ديوان الفرزدق ، طبعة بوشيه (ص ٢٠٩ س ١٢) .

(٢) [تجد رواية الطبرى فى الجزء الثانى ص ١٠٤٢ فما بعدها و ١٠٥٢ فما بعدها ، و ١٠٦٣ فما بعدها و ١٠٧٠ فما بعدها و ١٠٨٥ فما بعدها و ١٠٩٨ فما بعدها حتى ص ١١٣٨ — المترجم] .

عن الوجود في البلاد حتى يتعود جنوده على طبيعة الجبال ، بما فيها من
شعاب وعقاب ، وكتب إلى الحجاج بذلك . ولكن الحجاج ، وهو الرجل
السريع القليل الصبر ، كما هي عادته ، كتب إليه يتهمه بالضعف والجبن
ومحبة المهادنة والمواذعة ، وحثه في كتب متلاحقة على التقدم في بلاد العدو
والتوغل فيها ، وهدده ، إن لم يفعل ، بأن يجعل القيادة لأخيه إسحاق
ابن محمد بن الأشعث ، حتى يصير هو من تحت يده كبعض الجند . فغضب
عبد الرحمن وجمع رؤوس الناس وأخبرهم بما تضمنته كتب الحجاج ، وقال
لهم : إني لكم ناصح ولصالحكم مُحِبٌّ ولكم في كل ما يحيط بكم نفعه
مُحَاطَرٌ ، ولقد كان من رأيي فيما بيني وبين عدوكم رأيٌ استشرت فيه ذوي
أحلامكم وأولى التجربة للحرب منكم ، فرضوه رأياً . . . وقد كتبتُ إلى
أميركم الحجاج ، فجاءني منه كتاب يُعَجِّزُنِي ويضعفني ويأمرني بتعجيل
الوجود بكم في أرض العدو ، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس -
موتهم عبد الرحمن كلامه قائلاً : « وإنما أنا رجل منكم ، أمضى إذا
أمضيتُمْ ، وآبى إذا آبَيْتُمْ » . وكان أهل العراق يبغضون الحجاج ، وكرهت
تفوسهم ما يتوقعونه من حرب طويلة شاقة في بلاد قاصية ، فكانوا يرحبون
بكل فرصة تسنح للعودة إلى أوطانهم . وكان ابن الأشعث يعلم تماماً
ما سيفعلون في جوابهم . فلما انتهى من كلامه ثار الناس فقالوا : لا ، بل
ثأري على عدو الله ولا نسمح له ولا نطيع . ثم قام أحدهم فقال : إن
الحجاج لا يرى فيكم إلا رأي من قال لأخيه : إجل عبيدك على القرم ،
لأن هلك هلك ، وإن نجا فلك ! إن الحجاج والله لا يبالي أن يخاطر بكم
فيقحمكم بلاداً كثيرة اللغوب والعقاب والأشب ، فإن ظفرتم فغنتم
أكلَ البلاد وحاز المال ، وكان ذلك زيادة في سلطانه ، وإن ظفر عدوكم
كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عنهم ولا يبتغي عليهم ، فاخلعوا الحجاج
وبايعوا أميركم عبد الرحمن ! فإني أشهدكم أنني أول خالع . وقام آخر فقال :
لأن أطلعكم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ، وحرَّكم بميرفرون الجنود . . .

ولن تعابنوا الأجابة ، فيما أرى ، أو يموت أكثركم ، وبايعوا أميركم وانصرفوا إلى الحجاج فانفوه عن بلادكم ! ووثب الناس إلى ابن الأشعث وبايعوه جميعاً على خلع الحجاج وجهاده ، حتى يخرج من العراق . وكان أشدهم حماسة يسمّن الكوفة الذين كان منهم ابن الأشعث (١) . على أن إخوة ابن الأشعث لم يكونوا في جانبه (أنساب الأشراف ص ٣٢٦ فما بعدها) .

ولما أظهر عبد الرحمن خلع الحجاج وأدع الزنيدل وكتب إليه وبينه كتاباً ، وعاهده ألا يرزأ منه شيئاً ، فإن ظفر بالحجاج لم يسأل الزنيدل خراجاً أبداً ما بقى ، وإن انتصر عليه الحجاج جلاً ومن معه إلى الزنيدل ، فمنهم هـ وعين عبد الرحمن خلفاء لنفسه في بسست وزرنج ، حاضرتي سجستان ، ثم تحرك بالجيش في سنة ٨١ هـ ، وانضم إليه في طريقه جند من الكوفة والبصرة ، كانوا في حاميات الأمصار ، حتى إذا صار ابن الأشعث بجيشه إلى فارس ، قال الناس بعضهم لبعض : إنما إذا خلعتنا الحجاج عامل عبد الملك ، فقد خلعتنا عبد الملك ، واجتمعوا إلى ابن الأشعث ، فكان أول من خلع عبد الملك ، وخلعه الناس ، وبايعوا ابن الأشعث على كتاب الله وسنة نبيه وخلق أئمة الضلال . ولم يكن ابن الأشعث بحاجة إلى أن يدفعهم لذلك ، بل هم الذين دفعوه ، ولم يستطع أن يتحلى من سلطان أولئك الجن الذين قد ناداهم . وأقبل الجيش ، كما يقول المهلب في كتاب يثروى أنه كتبه إلى الحجاج يشير عليه بما يفعل ، ومثل السيل المنحط من حل ، ليس بردة شيء حتى ينتهي إلى قراره .

(١) يصرح الفرزدق بأن ربيعة ومضر لم يختلفا ، ولكنه يجعل الوزر الأكبر حل بين الكوفة ، حل السبئية الذين دفعوا المختار اليهودي من قبل (ص ٢١١ بيت رقم ١٠ من الديوان) . والآن يرفعون ابن الأشعث النساج (الديوان ص ٢٠٨ س ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ س ١١) . ويلقب أهل اليمن بالنساجين (الحواكين) على سبيل التشجيع ، كما يلقب أردعاهم بالصيادين والسفانين .

أما المهلب في خراسان فإنه لم ينضم لابن الأشعث^(١) ، ويرى أنه كتب إلى الحجاج يبلغه تحرك جيش ابن الأشعث إليه كالسيل المنحدر ، وأن لأهل العراق شيرة في أول مخرجهم ، وبهم صباية إلى أبنائهم ونسائهم ، ونصحه أن يخلّى لهم الطريق حتى يسقطوا إلى أهلهم ويتنسّموا أولادهم ، فترق قلوبهم ويخلدوا إلى المقام في منازلهم ويتفرقوا عن ابن الأشعث ، وتحدث لهم آراء غير آرائهم^(٢) . ولكن الحجاج لم يستمع إلى نصيحة المهلب ، وكانت جند الشام وفرسانها تسقط إليه في كل يوم . ثم تقدم بجيشه ، ومعه الإمدادات التي بعثها عبد الملك من الشام ، وسار لقتال الثوار . ووقع أول صدام على ميدان القتال القديم عند نهر دجيل ، في مُسْتَر ورستقأباد ، فعبر ابن الأشعث النهر ، وانتصر في مساء العاشر من ذي الحجة سنة ٨١ هـ ، الموافق ٢٥ يناير ٧٠١ م . وفر المهزومون إلى البصرة واتبعهم المنتصرون ودخلوا المدينة . أما الحجاج فإنه أمر الجند بالرحيل عن البصرة ومضى لا يلوى على شيء حتى نزل الزاوية ، إحدى ضواحي البصرة وخندق بها ، وانضم إليه هناك بعض الثقيين والقرشيين من أهل البصرة . وقد صمم الحجاج على أن يهلك ولا يتراجع . ولبت جنوده من أهل الشام وعلى رأسهم سفيان بن أبرد^(٣) للكلبي شهراً كاملاً يقاومون هجمات أهل العراق الذين كانوا قد حسكروا في الخريبة (أنساب الأشراف ص ٣٥٥) ، وقد هزمهم آنحز الأمر هزيمة حاسمة

(١) [كتب ابن الأشعث إلى المهلب يدعوّه إلى الثورة معه ، فقال المهلب : ما كنت لأفكر بعد سبعين سنة ، ثم قال : ما أحب هذا ! يدعوّن إلى الغدر من بعض ولدي أكبر منه ، وقال لرسول ابن الأشعث : قل له : اتق الله في دماء المسلمين . ويقال إنه كتب إليه يلومه على الثورة وترك قتال المشركين والإقبال على قتال المسلمين ، وبنها من فككت البيعة وتفرق كلسة الجماعة . المترجم نقلاً عن أنساب الأشراف ص ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ .]
(٢) هكذا عند الطبري (ج ٢ ص ١٠٥٩) ، أما بحسب أنساب الأشراف (ص ٣٤٣) فإن النصيحة لم تقدم للحجاج إلا في مناسبة بعد ذلك ، قدمها له زاد أنفروخ كاتبه الفارسي أو قدمها عبّاد بن حصين [بل - يذكر صاحب الأنساب ص ٣٣٦ - ٣٣٨ نصيحة المهلب للحجاج] .
(٣) هو قاهر شبيب - قارن الأنساب (ص ٣٣٨ ، ٣٤٢) .

في المحرم سنة ٨٢ هـ (أوائل مارس ٧٠١ م) . وانسحب ابن الأشعث على أثر ذلك مع شطر من جنده من أهل الكوفة^(١) ، وساروا إلى الكوفة التي كانت المركز الحقيقي للثورة وفيها التقت جيوش الحاميات العراقية آتية من جميع نواحي الأمصار . واستخلف ابن الأشعث عبد الرحمن بن العباس الهاشمي القرشي في البصرة ، فواصل القتال ، لكن ذلك لم يدم إلا أياماً ، لأن سواد أهل البصرة قبلوا الأمان الذي نادى به الحجاج بعد انصراف ابن الأشعث إلى الكوفة وأفسحوا له الطريق حتى دخل المدينة (أنساب الأشراف ص ٣٤٩ س ٥) . وفي أول صفر ٨٢ هـ (منتصف مارس سنة ٧٠١ م) استطاع الحجاج أن يبدأ في التقدم نحو الكوفة . ولما انصرف ابن الأشعث إلى الكوفة واصل عبد الرحمن بن العباس الحرب مع الحجاج وقاتل بمن معه خمسة أيام أشد قتال رآه الناس ، ثم لحق هو وأصحابه بابن الأشعث في الكوفة دون أن يلقوا السلاح .

وكان مطر بن ناجية القمي عاملاً للحجاج على المدائن وناحيتها ، فأقى الكوفة ، فلما علم بهزيمة الحجاج وثب بالكوفة واستطاع أن يخرج جنده الشام منها ، واستولى على القصر . فلما صحت عنده هزيمة ابن الأشعث أراد أن يبايع لنفسه خلفاً لابن الأشعث ، فلم يبايعه سوى نفر قليل من قومه ، فعدل إلى أخذ البيعة لعبد الرحمن بن العباس ، وتمت على يد عبد الرحمن ابن أبي ليلى . وأقبل ابن الأشعث والخلاف على هذه البيعة قائم ، فسبقت إليه همدان بالناس ، وكانوا أخواله ، واستطاع أن يقبض على ابن ناجية وأن يحبس ، ثم بايعه ابن ناجية على كره منه بطبيعة الحال . وكان وثوب ابن ناجية بالكوفة أحد الأسباب التي من أجلها وجد ابن الأشعث نفسه مضطراً إلى أن يسرع بالرحيل عن البصرة والعودة إلى الكوفة (أنساب الأشراف ص ٣٤٨ ، ٣٥٤) . ولكن ابن الأشعث

(١) في كتاب الأنساب (ص ٣٤٩ س ١) أنهم كانوا ألف رجل فقط ، وعلى هذا فلابد أن تكون غالبية الكوفيين في جيشه قد انسحبوا إلى مدينتهم من قبل ، وكل القرائن ترجح ذلك .

استطاع أن ينتهي من القضاء على منافسه قبل أن يأتي إليه الحجاج ، وأخذ الحجاج طريقه عبر الصحراء إلى الشاطئ الأيمن من نهر الفرات ، وعسكر في دير قُرة ، عند الكوفة ، حيث كان الطريق مفتوحاً أمام مواصلاته مع الشام ؛ أما فيما يتعلق بالإمدادات فلم يكن أمامه ببطبيعة الحال سوى طريق الفلاليج وعين النمر . وخرج أهل العراق الثائرون إلى خارج المدينة ، على العادة العربية ، واحتلوا معسكراً حصيناً عند دير الجاهم (١) ، أمام جنود الشام ، وذلك في أوائل ربيع الأول سنة ٨٢ هـ (منتصف إبريل سنة ٧٠١ م) . وبروى أنهم كانوا مائة ألف ومعهم مثلهم من مواليم ، وعندك كل جيش في عسكره ، والناس يخرجون كل يوم فيقتلون ، وظلوا كذلك شهوراً كثيرة دون الوصول إلى نتيجة حاسمة . ثم اشتد القتال ، وقلق عبد الملك ، فأشار عليه روثوس قريش وأهل الشام بأن ينزع الحجاج عن أهل العراق ، إن كان ذلك برضيمهم . فأرسل عبد الملك أخاه محمد ابن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك على رأس جيشين (٢) من أهل الشام ، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجاج ، وأن تجرى عليهم أعطياتهم كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أي بلد من العراق شاء يكون عليه والياً ما دام حياً ، فإن قبلوا ذلك عزل الحجاج عنهم ، وإن أبوا فللحجاج القيادة العليا في محاربة الثوار . ولم يكن أمرٌ أشدَّ غيظاً للحجاج ولا أوجع لقلبه من هذا الذي عُرِض على أهل العراق ، فكتب لعبد الملك يُنتبته إلى خدر أهل العراق وسابق أعمالهم مع عثمان ، ولكن عبد الملك أصرَّ على عرض الصلح على أهل العراق . وقد أراد ابن الأشعث أن ينصحهم ويقنعهم بالقبول ، لكنهم

(١) حل هو دير الجبلية ٢٢

(٢) وبذلك عرّى عبد الملك الحدود أمام الروم فاغتنم هؤلاء الفرصة (راجع مجلة

ثاروا وخلعوا عبد الملك من جديد ، وكانوا يأملون أن يهزم أهل الشام وشيكاً بعد ما لحقهم من ضيق وضنك وجماعة .

ولكنهم أخطأوا التقدير . ذلك أن أهل الشام ثبتوا ثبات المستميتين ، أما أهل العراق فقد تركوا القتال بعد أن كان قد استمر مائة يوم ، وفي جمادى الآخرة سنة ٨٢ هـ (آخر يولييه سنة ٧٠١ م) أخلوا الميدان دون ضيـب كاف ، ولم يثبتوا على حاستهم ثبات أهل الشام على نظامهم . وفي آخر يوم من أيام القتال قاتل أهل العراق أحسن قتال ، إذ خرج سفيان بن الأبرد الكلبي ، وكان عليه هنا أيضاً أن يقوم بالعمل الحاسم مرة أخرى ، من قبيل ميمنة جيش الحجاج حتى دنا من الأبرد بن قرّة القمي ، وهو على ميسرة جيش ابن الأشعث ، لما قاتله كبير قتال حتى انهزم ، وكان شجاعاً ولم يكن الفرار له عادة ، فظن الناس أنه قد كان أعطي له الأمان وقد صولح على أن يهزم بالناس . وأثار ذلك ريبة الخيانة وأحدث ذعراً شاملاً بين الجند ، فتقوضت الصفوف من نحوه ، وركب الناس وجوههم وأخلوا في كل وجه هاربين . ولم يستطع ابن الأشعث أن يوقف فرارهم ، وفرّ هو أيضاً . وزاد الحجاج في فرارهم وتبديدهم بأن بلغاً إلى الوسيلة التي بلغا إليها ونجح بها في البصرة ، وذلك أنه أمر منادياً بأن ينادى معلناً الأمان لكل من يعود إلى داره أو معسكره ، وأنه منع جند الشام من مطاردتهم . وهكذا وصل إلى الغاية دون إراقة كثير من الدماء ، واستطاع أن يدخل الكوفة منتصراً ، وهناك تلقى بيعة من أئمة السلاح واضطروهم في ذلك إلى أن يشهدوا على أنفسهم أنهم بشورتهم قد كفروا ، ولم يأنف من إنقاذ حياته بمثل هذا الإذلال لإقليل منهم^(١) .

(١) [جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٠٩٧ - ١٠٩٨) أن رجلاً من خشم ، كان معتزلاً لفئنة ، جاء إلى الحجاج ليبيع مع الناس ، فطلب منه الحجاج أن يشهد على نفسه بالكفر ، فقال : بئس الرجل أنا ، إن كنت عبت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر . قال له الحجاج : إذن أقتلك ، فقال : وإن قتلتني ، فوافقه إلى ما بقى من حمري إلا ظمّ حار ، وإني لأنتظر الموت صياح مساء ، فأمر الحجاج بضرب عنقه ، فرثى له الناس جميعاً من عراق وشام . -

ولكن الكثير من أهل العراق الذين تشتتوا في الكوفة تجمعوا في مواضع أخرى . رجع ابن الأشعث أول الأمر إلى البصرة ، وكان عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس القرشي قد استردها له ، ولكنه لم يلبث هناك طويلاً ، بل رجع على مسكن على نهر الدجيل^(١) ، وهناك انحاز إليه جنود كثيرون وقلوب جاءت من كل ناحية ، فقاوم الحجاج لمّا لحقه ، وكان ذلك في شعبان سنة ٨٢ هـ (سبتمبر - أكتوبر سنة ٧٠١ م) وكان القتال مستميتاً ودام مدة طويلة وانحسم آخر الأمر ، كما يقول الطبري (ج ٢ ص ١١٢٣) لما بعدها ، بأن قامت فرقة شامية يقودها شيخ خبير بالبلاد وطرقها ، فاخترقت المستنقعات ، وحصرت أهل العراق بين نهرى دجيل ودجلة ، وهاجمتهم ليلاً ، ففروا يريدون عبور الماء ، وكان من غرق منهم أكثر من قُتل بحدّ السيف .

وهناك واصل ابن الأشعث تفهقره نحو المشرق ، واتبعه أهل الشام بقيادة حمارة بن نعيم اللخمي ، وأدركوه واضطروه للقتال مرتين عند السوس وسابور ، ولكنه أفلح في صدهم ، وسار من طريق كرمان حيث أقام زماناً طويلاً ، حتى وصل إلى سجستان (آخر سنة ٨٢ أو أول ٨٣ هـ) ، فأغلق عامله وواليه على زرنج الأبواب دونه ، بل وثب هذا الوالي عليه فأوثقه وأراد أن يسلمه للحجاج ليأمن بذلك عنده ويتخذ به عند الحجاج مكاناً . وعند ذلك جاء الزبيل ، فخلصه من الأسر وتعهّد له بأن يمنحه حتى الالنجاء عنده إذا احتاج إلى ذلك ، وأخذ

= وقد امتنع شيخ آخر من أن يشهد على نفسه بالكفر أشد امتناع وأشجع . وجاء رجل بعده ، فقال الحجاج : إني أرى رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر ، فقال الرجل ، يريد النجاة من القتل ، للحجاج : أخادعي أنت عن نفسي ؟ أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون نبي الأوتاد ، فاصحك الحجاج وحل صهيله - المترجم [.

(١) ليست مسكن المنعزلة الواقعة بين الموصل وتكريت ، كما يظن فايل ومولر ، بل هي مسكن أخرى في ايزقباد (الطبري ج ٢ ص ١٠٩٩ و ١٠٢٣) ويقوت ج ٤ ص ٥٢٩ و ٥٣١) .

معه إلى كابل هو ومن كان معه من الفلول الكثيرة وأكرمه وعظمه تعظيماً كبيراً ؛ ولكن كثيراً من فلول جيش العراق لحقت فيما بين ذلك بزعمها الحارب ، وتجمعت تحت قيادة حبيد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس الذي تقدم ذكره وعبد الرحمن بن عباس الهاشمي الذي كان في سجستان ، وطلبوا من ابن الأشعث أن يرجع إليهم ، فرجع أيضاً واستولى على مدينة زرنج ، وهناك عاقب حاملته الخائن : وأخيراً لمّا أقبلت جنود الشام تحت قيادة عمارة بن نعيم ، هربت جنود ابن الأشعث حدود خراسان على غير رضاه ، وكانوا يأملون أن يكونوا هناك بنجوة من القتال : ثم انشق عليه فريق من جيشه وسلك طريقاً آخر غير طريقه ، فاتخذ ابن الأشعث من ذلك سبباً للرجوع إلى الزنبل وتركهم لمصيرهم : فأمرّوا على أنفسهم ابن العباس الهاشمي واستولوا على مدينة هراة وقتلوا هناك حاملها من قبيل يزيد بن المهلب الذي كان قد حل محل أبيه آخر سنة ٨٢ هـ : فاضطر يزيد على كره شديد منه أن يخرج لقتالهم ، فشتتهم بعد قتال قصير : وفي أثناء هذا القتال وقع في يده كثير من الرجال ذوى المكائنة ، فأطلق من كان بينهم من اليمنيين ، شركائه في اللسب ، وأرسل الباقين إلى الحجاج . وكان الحجاج يقيم في مدينة واسط ، وهي إذ ذاك في مرحلة التشييد (سنة ٨٣ هـ) ، فحاصروهم الحجاج بحاكمة أراق فيها دماءهم - وهذا هو ما يحكيه أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١١٠١ - ١١٠٦) : أما رواية المدائني فهي تختلف عن رواية أبي مخنف ببعض الاختلاف (الطبري ج ٢ ص ١١٠٦ - ١١١٠) : ولكن عمارة بن نعيم ، قائد جند الشام ، استطاع أن يستولى على سجستان بعد أن كان قد حاصر طائفة من جيش ابن الأشعث انشقت عليه تريد مواصلة القتال ، وذلك بعد أن آمنهم عمارة فخرجوا إليه ؛ ولكن ابن الأشعث نفسه كان ما يزال مصدر خطر على الدولة : وقد حاول الحجاج أن يغري الزنبل بالترهيب حيناً والترغيب حيناً آخر ، لكي يسلم له ابن الأشعث بعد أن لجأ إليه ، واستطاع أخيراً أن يحصل من الزنبل على

ما أراد وذلك بأن عرض عليه أن يعفيه من الخراج سبع سنين أو حشراً ، ولكنه لم يحصل على عدوه حياً ، بل حصل على رأسه مقطوعاً . و يروى أن ابن الأشعث كان قد مات مريضاً بالسل ، أو أنه انتحر قبل ذلك وأن الزنيدل إنما استر رأسه بعد أن كان قد مات وأريد دقننه ؛ وكان ذلك في سنة ٨٤ أو ٨٥ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١١٣٨ فما بعدها) ؛

وتحديد تواريخ هذه الحوادث ليس يقينياً إلى درجة الكمال . ولا شك أنه قد بقيت بعض الأيام والشهور عالقةً بذاكرة الرواة ، مثل يوم حرفة بالنسبة لموقعة تستر ، وهو في آخر السنة التي بدأت فيها الثورة ، ومثل شهر المحرم بالنسبة للمعارك التي كانت عند البصرة في السنة التالية ، ومثل شهر ربيع وجمادى بالنسبة لمعارك الكوفة ، وشهر شعبان بالنسبة لموقعة مسكين^(١) . أما فيما يتعلق بالسنين فالروايات مضطربة ؛ وقد اتبعت فيما يتصل بتاريخ السنين التاريخ الذى يجعل الثورة قد بدأت سنة ٨١ هـ ، وتكون بحسبه معارك البصرة والكوفة ومسكين قد وقعت في سنة ٨٢ هـ ، ومعارك سجستان وخراسان في سنة ٨٣ هـ . وبحسب ترتيب آخر للتواريخ تكون السنوات متأخرة سنة ، بحيث تكون سنة ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ على التوالي^(٢) ، ثم يأتي موت ابن الأشعث في سنة ٨٤ أو ٨٥ هـ ، على أثر فتح جند الشام لسجستان مباشرة ؛ ولكن مزية الترتيب الجديد ظاهرية فحسب ، لأنه من الممكن أن تكون قد مضت فترة طويلة بين فتح سجستان وبين موت ابن الأشعث ؛ ومما له وزنه ، خلافاً لذلك ، أن الروايات متفقة على أن ابن

(١) ولا ينهض دليلاً قوياً على خلاف ذلك ما يقوله الواقدي من أن موقعة دهر الجاهم كانت في شعبان سنة ٨٢ هـ وأن الثورة قد بدأت في السنة نفسها (الطبرى ج ٢ ص ١٠٧٠ ، ١٠٥٢) . أما إن موقعة تستر كانت يوم حرفة فهو ثابت .

(٢) ويظهر أن أبا مخنف يخلط بين التواريخ المختلفة ، إذ يجعل أول الثورة معركة تستر في سنة ٨١ هـ ، على حين يجعل معركة الزاوية (في البصرة) كما عند الطبرى (ج ٢ ص ١٠١١) في سنة ٨٣ هـ ، لا قبل ذلك ، وهذا أيضاً هو تاريخ معارك الكوفة .

الاشمعت جاء إلى سجستان في سنة ٨٠ هـ ، وشرع في محاربة الزنبيـل على الفور ، وأن الحجاج قد أغضبه في هذه الحملة نفسها ، مما دعاه إلى الثورة . وعلى هذا فليس من الممكن أن تكون الثورة لم تبدأ إلا بعد سنة ٨٠ هـ يعامين . ومما يدخل في الاعتبار أيضاً أنه لما جرى بأسرى هراة الذين بعث بهم يزيد بن المهلب إلى واسط ، لم تكن واسط قد بُدِيتْ ، وهذا ما يوجد صراحة في الروايات (الطبري ج ٢ ص ١١١٩ فما بعدها) ولكن الحجاج انتقل إليها في سنة ٨٣ هـ ، وهو أقام بها في سنة ٨٤ هـ على كل حال . وعلى هذا فمن الممكن أن تكون معارك سجستان وخراسان قد وقعت سنة ٨٣ هـ ، لا في سنة ٨٤ هـ . ولا يستطيع الإنسان للأسف أن يصل من كثرة ذكر أسماء الأيام التي وقعت فيها الحوادث إلى رأى حاسم ، لأن الأيام المذكورة لا تتفق مع مكانها في الشهور ، لا فيما يتعلق بسنة ٨١ هـ ولا بسنة ٨٢ و ٨٣ هـ (١) .

وقد أتى ألفريد فون كريمر (Alfred von Kremer) على ثورة ابن الأشمعت نوراً جديداً ، أحشى به بصر آخرين مثل ا . مولتر ، وج . فان فلوتن (صاحب كتاب بحوث في السيادة العربية) (٢) ، ذلك أنه يجعل ثورة ابن

(١) وبحسب كتاب أفساب الأشراف (ص ٣٤٠ من ١٠) كانت موقعة تستر يوم الجمعة ١٠ ذي الحجة سنة ٨١ هـ ، وكان لزول الحجاج معسكر الزاوية في يوم الخميس ٢٣ ذي الحجة سنة ٨١ هـ (ص ٣٤٢ من ١٠) . وأسماء الأيام المذكورة لا تتفق مع أيام الشهر لا في سنة ٨١ ولا في سنة ٨٢ ، بل في سنة ٨٠ هـ ، وهذه السنة ليست المذكورة في أي من الروايات . ولا يستطيع الإنسان أن يتمسك بها ، ويقول أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٠٩٤) إن قتال المائة يوم بدأ يوم الخميس ٢ ربيع الأول سنة ٨٣ هـ والتهس يوم الأربعاء ١٤ جادى الثانية سنة ٨٣ هـ . وهنا أيضاً لا تتفق أسماء الأيام مع مكانها من أيام الشهر لا في سنة ٨٣ ولا في ٨٢ ، وربما كانت أقرب إلى الاتفاق مع أيام سنة ٨١ ، حيث لا يزيد الفرق على يوم واحد . ويظهر أن مثل هذا الفرق شيء ممكن وأنه ينشأ من الاضطراب في ذكر أول الشهر أو أول اليوم (في المساء أو في الصباح) . وعلى هذا فالظاهر أن الأصح هو سنة ٨٠ و ٨١ لا ٨٢ و ٨٣ هـ ، ولا سنة ٨١ و ٨٢ هـ . وتيوفانيس (في حوادث سنة ٦١٩٢) لا يقول ما يتناق ذلك .

(٢) Recherches sur la domination Arabe ، استردام ، ١٨٩٤ .

الاشمت راجعة إلى طموح من جانب الموالي ، أعنى الرعايا الذين دخلوا الإسلام في الكوفة والبصرة ، للحصول على المساواة بطبقة الأشراف ، الحاكمين ، أعنى العرب ، وللتخلص من دفع الجزية ، وإلى طموحهم إلى أن تُقَيَّد أسيادهم في ديوان أصحاب الأعطيات - وكانت هذه الأعطيات رمزاً يدل على شرف العرب . وأراد الحجاج أن يتلافى التناقص في دخل الدولة ، وهو تناقص لابد أن ينشأ من توسيع نطاق الإعفاء من الضرائب وفرض الأعطيات للمسلمين من غير العرب - أو هو أراد أن يتلافى هذا النقص الذي كان قد حصل بالفعل - فأمر بفرض الجزية من جديد على الموالي الكثيرين الذين دخلوا في الإسلام ، والذين ما كان يجوز بحسب الشرع أن يدفعوا جزية ، وبذلك أضرموا نار الثورة - يقول فون كريم^(١) : « أمر الحجاج بأن يدفع من دخل في الإسلام ، أعنى كل الطبقة الكبيرة من المسلمين الجدد ، ضريبة الرأس ، كما كانوا يدفعونها قبل إسلامهم ، وهذا إجراء كان من أثره ثورة مريعة قام بها المسلمون الجدد ومواليهم^(٢) . وقد اشترك فيها بنوع خاص كثير من الناس من أهل البصرة ومن المقاتلة القدماء والموالي والقرءاء ، وفي رواية أنه كان من هؤلاء الثوار مائة ألف رجل مقيدين في ديوان الأعطيات ، أو إذا أردنا أن نعبر تعبيراً حديثاً ، هم كانوا من فرق المقاتلة في الأمصار ، وقد انضم إليهم مثلهم . وقد قهر الحجاج هؤلاء الثوار وأحادهم إلى رشدهم^(٣) ، وصمم على أن يشتت كل طائفة للموالي تشتيتاً لا يجتمع بعده شمل ، حتى لا يستطيعوا أن يتجمعوا من جديد لتكوين معارضة موحدة ، فأمر باستدعائهم أمامه وقال لهم : إنكم صُجِّمٌ وعلوجٌ أشقياء ، والأجدر بكم أن تبقوا في قراكم ، وبعد ذلك أمر بأن يُفسَّر قوا في القرى ، وشتت جميعهم تشتيتاً تاماً . ولكي

(١) في كتابه Culturgehistilche des Oriente (١٨٧٥) ج ١ ص ١٧٢ وكتابه

Culturgehistilche Streifzüge (١٨٧٢) ص ٢٤ .

(٢) لا أعرف ما يقصده فون كريم من عبارة : ومواليهم (Clienten) التي يضيفها لكلامه

(٣) وفون كريم في كلامه أكثر تسلياً من الحجاج في أفعاله .

لا يستطيع أحد أن يرحل عن القرية التي أمره بالمقام فيها ، فإنه أمر بأن يُطَبَّع على يد كل واحد اسم القرية التي يجب عليه ألاَّ يبتَرَحَها » ، ويعتمد فون كريم على رواية للجاحظ في كتابه « الموالي العرب » المذكورة في كتاب العقد الفريد ، لابن عبد وَّهَّ (ط . بولاق ج ٢ ص ٩٣)^(١) .

ولا شك في أن ثورة المختار لم تقض قضاء تاماً على طموح هؤلاء المسلمين الجدد إلى الارتفاع ، وأن الحجاج كان يعالج الصعوبات التي نشأت من دخول الموالي في الإسلام طلباً للمساواة السياسية وفراراً من الجزية . ولا شك أيضاً في أن ثورة ابن الأشعث كان مهدها الحقيقي في الكوفة ، شأنها شأن ثورة المختار^(٢) . لكن القول بأن ثورة ابن الأشعث كانت في روحها مجرد استمرار لثورة المختار لا يجد سنداً يؤيده في المصادر الأولى الأساسية التي اعتمد عليها الطبري ، ولا في كتاب أنساب الأشراف ، ولم يكن الموالي هم الذين طبعوا ثورة ابن الأشعث بطابعها الخاص . صحيح أن كثيرين منهم اشتركوا فيها ، ويذكر

(١) وذكر عمرو بن بَهر الجاحظ في كتاب الموالي والعرب أن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وحده ابن الجارود وثق ما تلقى من أهل العراق ، وكان أكثر من قاتله وخطمه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالي من أهل البصرة ، فلما علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم أحب أن يسقط ديوانهم ويلحق بجماعتهم حتى لا يتألفوا ويتعاضدوا . فأقبل على الموالي وقال : أنتم ملوج ومجم ، وقرأكم أول يوم ، ففرقهم وفرض جمعهم كيف أحب وصيرهم كيف شاء ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها » . وعلى هذا فقد كان ما اتخذته الحجاج من إلزام الموالي البقاء في قراهم أحد الإجراءات التي اتخذها لكسر القوة التي أصبحت يده التجارب السابقة ، خطراً عليه في مدينة البصرة ، بعد أن قد اتسمت اتساعاً عظيماً . وكان من هذه التجارب ثورة ابن الأشعث ، وكانت قبلها بسنين ثورة ابن الجارود (كتاب الأنساب ص ٢٨٠) فلما بعدها وابن الأثير ج ٤ ص ٣٠٩ فلما بعدها (ولا نجد أكثر من ذلك . أما (الطبري ج ٢ ص ١١٢٢ و ص ١٤٣٥) فيروي أن الموالي الذين كان الحجاج قد أخرجهم ، انضموا هم والقراء الذين كانوا يعطفون عليهم إلى ابن الأشعث ، ولكن لا ذكر عند الطبري للقول بأن الثورة جاءت من الموالي .

(٢) ولذلك استطاع الفرزدق أن يقول ، على سبيل اللمز : إنه كما أن الكوفيين كانوا من قبل سبئية يعني أتباعاً للمختار ، فهم اليوم أتباع للنائر الجديد ابن الأشعث . راجع الديوان ص ٢١١ ب ٣ ، ١٠ ، ١١ .

أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ١٠٧٢) أنه كان فى معسكر دير الجماجم مائة ألف من أصحاب الأعطيات من المقاتلة العرب ، وكان معهم مثلهم من مواليهم ، ولكن هؤلاء الموالي كانوا مجرد مرافقين للسادة العرب ، وكانت العادة أن يأخذ هؤلاء مواليهم معهم ، إن كان لهم موالٍ ، إلى ميدان القتال ويعملون بمقتولهم معهم راجلين ، أما هم فكانوا يقاتلون على ظهورهم الخيل : ومثل هذه العلاقة كانت بين الفرسان وخدّامهم فى العصور الوسطى . على أنه إذا كان الموالي قد اشتركوا فى الثورة فإن ذلك لا يجعلها ثورة الموالي . ومن الجائز أيضاً أنه قد كانت للموالي مصلحة خاصة فى معاداة حكومة الشام التى كانت حماد العروبة ، ولكنهم لم يكونوا أكثر من مؤيدين ، ولم تأت الثورة منهم ، بل من جانب جيش الطواويس ، وهو الجيش الذى كان يؤلفه أهل العراق والذى انضمت إليه مسالح سائر الولايات والشعوب : وقد قام هذا الجيش بالثورة لما صار فى سجستان (١) ،

(١) [الحق أن ثورة ابن الأشعث ولادة لموامل كان لها تأثير فى الأحداث التاريخية الكبرى عند العرب ، وهى قد تولدت من طبيعة الرجال الذين قاموا بها . فكان هناك من جهة عبد الرحمن بن الأشعث الذى يرجع نسبه إلى ملوك كندة . وكأنه كان يشعر أن دم المجد القديم يجرى فى عروقه ، فيروى أنه كان أشد العرب أهبة وكبراً وأنه كان معجباً ذات نحوه وطموح شديد ، وأنه كان يقول : ما رأيت أميراً فوق إلا ظننت أنى أحق بإمرته منه . ونظراً لهذه الروح المعروفة عنه ، فإنه لما أراد الحجاج أن يوليّه قيادة جيش الطواويس جاء إليه إسماعيل بن الأشعث ، عم عبد الرحمن ، يشير عليه بالأوجهه فى الجيش خوفاً من تمرده ، وقال عم عبد الرحمن عنه : إنه ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطاناً . وكان هناك من جهة أخرى الحجاج بن يوسف ، من ثقيف الطائف ، رجلاً ليس من عالية أشراف العرب ، لكنه كان والياً من ولاة الدولة ، وعمل لحدها ويخضع لولئها ويصدر فيما يقول أو يفعل من وجهة نظر الدولة ، يفهم حاجات الدولة من ثبات السلطان وإقرار النظام وحماية الحدود وتوسيعها وزيادة قوة الدولة فى الداخل وخارج ، وكان هناك من جهة ثالثة أهل العراق ، قوم أصحاب ثراء وتحضر وحياة رغدة هائلة ، يدلون بنى بلادهم وخصبها ، ويضمرون فى أنفسهم شيئاً من الاحتقار لأهل الشام الفقراء ذوى العيش الضئيل وديناً كثيراً من الذيرة منهم والمقت لسيادتهم والاستهانة بقدرهم ، ويطمحون للرئاسة -

ثم فتحت له الكوفة والبصرة الأبواب . وقد اشترك في ثورة ابن الأشعث أكابر العرب وأكثرهم نباهة ، فكان منهم رؤساء قبائل ، مثل ابن الأشعث

أو الاستقلال ويتصلقون بكل ثائر على سلطان أهل الشام أيأ كان ، سواء كان من أهل البيت أو من غيرهم .

وكان الحجاج يحكم شخصيته ومنصبه بنفسه . عبد الرحمن بن الأشعث ويقول : « ما بالمراق رجل أبغض إلى منه ، وما رأيته ماشياً أو راكباً إلا أحببت قطعه . وكأنت في عهد الرحمن خيلاء ، فكان الحجاج يلتصق منه ويقول له : « إنك لمنظراني » ، يعني أنه غشاق فخور . فينبذه عبد الرحمن قائلاً : « وعزرائي » ، يعني أن خيلاء بقدر ماله في الحقيقة من مواهب . وبلغ ابن الأشعث ما يمكنه له الحجاج من البغض والحقد والرغبة في القضاء عليه ، فأقسم ليحاول إزالة سلطان الحجاج ، إن طاك بهما العمر . هذا هو الموقف ، فإذا يمكن أن يخرج منه عند وجود أزمة بين سيد عربي وبين أمير للدولة على ولايات من الولايات ، أو بين أمير وبين الدولة التي يعلها ثم جاءت الحرب مع الزبير ، فأخذ الحجاج جيشاً من صفوة أهل العراق وأمر عليه ابن الأشعث ، رغم نصيحة الناصحين له بالأفعال ، وقال لناصره : « إنه لي أهيب وفي أرغب من أن يخالف أمري أو يخرج عن طاعتي » . وظن الحجاج ، وهو رجل الدولة ، أن القائد العربي مطيع له ، وإن اشتد معه ، خاضع لأمره وإن أهانه وصغر من أمره ، ونسى رجل للدولة ، ما في الطبيعة العربية من إباء وألفة من احتمال الضيم ، فكان ما كان من ثورة ابن الأشعث التي ترجع إلى الإباء العربي وإلى بغض أهل العراق للحجاج ولأهل الشام معه ، وإلى غضب أهل العراق من التضييق بأنفسهم وعيشهم الرغد والموت في بلاد العدو القاصية من أجل مجد الحجاج وخليفته بالشام . وإذا عرفنا أن الحجاج كان من قبل قد بحث عبيد الله بن أبي بكره الفقي ، فأهلكه في محاربة الزبير ، ولحقه من ذلك ثم شديد ، فإن لمؤرخ أن يتمحق في معرفة الباحث التي حل الحجاج على توجيه ابن الأشعث وعلى استثنائه على التوغل في أرض العدو الكثيرة الشام والمقارب استثنائاً شديداً ومهيناً ، مع علمه بالمصير المهن الذي لقيه جيش ابن أبي بكره في تلك البلاد من قبل ، ثم على إلحاحه على ابن الأشعث لكي يتقدم مخالفاً ما تلقى به الخطة العسكرية الحكيمة . فلا بد أن يكون البغض الذي كان يملأ نفس الحجاج وابن الأشعث كل على صاحبه ويملاً نفوس أهل العراق على الحجاج وعلى السادة من حرب الشام قد لعب أكبر دور في نفس الحجاج ، حتى خالف نصيحة إسماعيل ابن الأشعث ونصيحة المهلب ، وفي نفوس المتبردين على أوامر الحجاج أولاً ثم في الخروج على سيادة الدولة نفسها بعد ذلك ، اتهاماً طام بالملم ولأصحاب الأمر فيها بالفضائل . ولعبت العصبية القبلية في ذلك دورها ، فغنى الشعراء بمجد ابن الأشعث وبمقرب زوال مجد بني أمية . وقد حاول المهلب أن يثنى ابن الأشعث عن تمرده مشبهاً إياه إلى أنه بثورته يكتسح عهد البهجة ويفرق كلمة الأمة ويستعمل قوته هو ومن معه في قتال المسلمين ودولتهم بدلاً من استمالتها في قتال المشركين ودولتهم . ولكن ذلك لم يجد نفعاً ، وغلب الكبرياء على الإيمان والألفة على واجب الخضوع للدولة . وكثيراً ما حصل مثل هذا في تاريخ العرب - وفيما يتعلق بالنصوص ليراجع القارئ كتاب الطبري (ج ٢ ص ١٠٤٢ فما بعدها) وكتاب أنساب الأشراف (ص ٣٠٨ فما بعدها) - المترجم [.

الكندي ، وجريز بن سعيد بن قيس من همدان (كتاب الأنساب ص ٣٤٠)
وعبد المؤمن بن شيث بن ربيع من تميم (الطبرى ج ٢ ص ١٠٥٤) وبسطام
ابن مصقلة بن هبيرة الشيباني من بكر (الطبرى ج ٢ ص ١٠٨٨ و ١٠٩٩) ،
وكان منهم قرشيون مثل محمد بن سعد بن أبي وقاص (الطبرى ج ٢ ص ١٠٩٩)
وعبد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس ، وعبد الرحمن بن العباس الهاشمي ،
وكان منهم علماء مثل القاضي الشعبي والمؤرخ محمد بن السائب الكلبي صاحب
أبي مخنف (الطبرى ج ٢ ص ١٠٩٦) ، ولا يذكّر إلا اسم مولى واحد ،
هو اسم فيروز حصّين ، وهو رجل صاحب ثراء من سجستان ولعله هو
ابن سبخت الذي يذكره الفرزدق (الديوان ص ٢٠٦) وقد أنفقت
الطبقة الأرستقراطية العربية من قبول المعاملة الجارحة والفطرس التي أبدأها
الحجاج مثل سلطان الدولة الذي لم يكن يعتبر من أشراف العرب ، يقول
أعشى همدان الشاعر (١) (الأغاني ج ٥ ص ١٥٣) :

يأبى الإله وعيزة ابن محمد وجدود ملك قبل آل نمود
أن تأسوا بملتمين ، حروقهم فى الناس إن تُسبوا، حروق هبيد (٢)
كم من أب لك كان يعقد تاجه بجبين أبلج ميقول صنديد
وإذا سألت الجهد أين محله فاجهد بين محمد ومعيبد
بين الأشج وبين قيس باذخ بخ بخ لوالده وللمولود (٣)

(١) [عرج أعشى همدان مع ابن الأئمت وجعل يقول الشعر في مدح ابن الأئمت .
وفى تخريف أهل الكوفة على القتال . وكان للأعشى مع ابن الأئمت مواقف محودة وبلا .
حسن ، وكان الأعشى من أخوال ابن الأئمت - المترجم] .

(٢) من الثقفين ، كالحجاج .

(٣) يظهر أن المقصود بالأشج هو الأئمت ، قارن (كتاب الأنساب ص ٣٣٥) .
وقيس هو أبو سعيد الهمداني المشهور الذى انضم ولد له جريز إلى ولد له الأئمت [الأشج .
هو فى الحقيقة أحد آباء ابن الأئمت] .

إذا دعا لعظيمة حشدت له همدان تحت لوائه المعقود
ما إن ترى قيساً يقارب قيسكم في المكرمات ولا ترى كسعيد

في هذه الأبيات يعبر الأعشى عن روح الطبقات الأرستقراطية . وقد تبعت القبائل العربية رؤسائها ، وكانت القبائل هي فرق الجيش ، وكانوا أشد رغبة في اتباع رؤسائهم ، بعد أن أصبح طول الحرب والإقامة في المسالح القاصية شيئاً بغيضاً إليهم بالحملة ، وصار لا ينقطع حينئذهم إلى أوطانهم ، وكان يمن الكوفة وخاصة من كندة وحمدان وملحج كثيرى العدد بين الجند ، وكانوا في الكوفة هم الغالبة ، وكانوا يعدون ابن الأشعث منهم . ولكن بقية القبائل وقبائل البصرة لم يكن بينهم تنافر . وكان أشد الناس حماسة وأقوام صوتاً في الاشتراك في الثورة هم القراء ، أخص أهل الدين من العلماء بالقرآن ، وكانوا في كل مناسبة كهذه يظهرون في المقدمة باليد واللسان (١) ، وذلك أنه لم يكن هناك بد ، ما دامت الحكومة تيوقراطية ، من بيان السند الديني الذي من أجله تُنتهز السلطة الحاكمة بالظلم ، وعلى أساسه تحل الثورة عليها . ولكن ثورة ابن الأشعث لم يكن لها بالحملة أسباب دينية ، بل هي كانت بالآخرى محاولة جديدة قوية ومستميتة من جانب أهل العراق لطرح نير أهل الشام من على كاهلهم . ولما جاء الحجاج زاد في ضجرهم من هذا النير ، وذلك أنه استبقى جند الشام الذين كان قد جاء بهم لمحاربة شبيب في بلاد العراق ، ولم يكن ذلك بقصد حماية الدولة من العدوان الخارجي بمقدار ما كان لأجل حماية سلطانها في الداخل ، فكان هؤلاء الجند يمثلون السيادة الأجنبية مجسمة (٢) . وكان على جند العراق أن يقتنعوا بأعطيات قليلة ويحتملوا في الوقت نفسه مؤونة جند الشام ، وكانوا يتوجهون في حملات بعيدة

(١) والرواة مولعون بإبراز فضائلهم حتى إن أبا مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٠٨٦) لما بعدها (لهذا) حكاية جيلة بن زحر القارئ كما لو كانت أهم حادث في موقعة دير الجماجم ، حارن ما كتبناه عن الخوارج (في ص ٩ وما بعدها) .

(٢) وكذلك أحدث دخول جند الشام في إفريقية وإسبانيا أيضاً فيما بعد تدمراً .

ويرسلون إلى المسالحي القاصية ، على حين كان يبقى جند الشام في أهلهم ، وإذن فلا يمكن تجاهل طبيعة ذلك الصراع ، فهو لم يكن صراعاً بين الموالى والعرب ، بل كان صراعاً بين حرب العراق وحرب الشام (الطبرى ج ٢ ص ١٠٨٩) ، فكان صراعاً بين ولايتين في الدولة العربية كانتا تتنافسان دائماً . وكان أهل العراق ، أياً كان أصلهم ، متحدين في ذلك الصراع ، وكذلك كان جنود الاحتلال الشاميون يشعرون ، وهم خارج وطنهم ، بما بينهم من أواصر الاتحاد على أنهم كانوا في الأغلب ينتسبون إلى كلب وقضاة ، أما قول شاعر العراق في وصفه موقف أهلها ، بعد رحيلهم مع ابن الأشعث ، وهو :

تركنا دورنا لطغام حك^١ وأنباط للقرى والأشعرينا
(الطبرى ج ٢ ص ١١٠٢) .

ففيه وصف لإجماع أهل الشام ، بذكر البعض بدلاً من ذكر الكل ، ويظهر أنه هجاء لم بأنهم غير متحضرين ، وهم يوصفون (عند الطبرى ج ٢ ص ١٣٩٣) بأنهم الأنباط والأقباط ، يعنى الأعراب الأجلاف غير المتحضرين (١) .

وقد أدى ذلك إلى زيادة في شدة الحكومة العسكرية الشامية في العراق ، وفي سنة ٨٣ هـ بنى الحجاج مدينة واسط ، وجعلها حصناً في منتصف الطريق بين الكوفة والمدائن والأهواز والبصرة ، وجعلها مقراً للحكومة ، ونقل جمهور جند الشام إليها أيضاً . ويقال إنه فعل ذلك لكي يتلافى ارتكابهم للمفاسد في الأحياء التي يقيم فيها الناس في الكوفة والبصرة . ولكن يظهر أن السبب الأكبر هو أنه أراد أن يعزل جند الشام عن أهل العراق (٢) ويجعلهم مهولاً ليكونوا أداة طيعة

(١) [يذكر المؤلف هنا كلمتي Kaffern und Botokunden ، وهما في الغالب تسميتان للقبائل متوحشة في أواسط أفريقية - المترجم] .
(٢) ولهذا السبب نفسه أبى جند الشام بميدين عن غرامان لكي لا ينفث فيهم أهل العراق سمومهم ، فأرسلهم إلى الهند حيث لا يوجد عراقيون (الطبرى ج ٢ ص ١٢٥٧) .
(١٢٧٥) .

نحت يده ، ونقل مقر إقامته هو من وسط الجماعة إلى مركز قيادة حربي ، فأبان بذلك عما يشعر به من أنه في بلاد معادية ، وأخرج الحكومة عن الأساس الديني الأبوي الذي نشأت عليه ، وأقامها على القوة في صورتها الصريحة ، ولم يكن هناك سبيل غير ذلك ، إذا كان لابد من المحافظة على سيادة بني أمية على العراق .

وبعد القضاء على ثورة ابن الأشعث أصبح شرق الدولة كله تحت قدمي الحجاج ، ولم تكن هناك مقاومة إلا من جانب المهالبة في خراسان ، فلمهم كانوا ما يزالون رافعي الرأس ، وكانوا يعتمدون على قوة قبيلتهم ، أزد عمان ، الذين جاء بهم المهالبة إلى خراسان ، وكانوا سبباً في أن تكونت هناك كما تكونت في البصرة من قبل مجموعة من قبائل الأزد وربيعة (اليمن) في جانب ، ومجموعة أخرى من تميم وقيس (مضر) في جانب آخر . وكان على رأس المهالبة ومجموعة قبائل اليمن يزيد بن المهلب ، أمير خراسان ، وكان تابعاً للحجاج . لكن يظهر أن الحجاج لم يكن في مقدوره أن يعزله ، مهما كان من ابن المهلب ما يدعو الحجاج إلى ذلك : ولم يتحرك ابن المهلب للقضاء على أصحاب ابن الأشعث في هراة إلا كارهاً ، ثم أخذ من وقع في يده من أسرى هؤلاء الثوار بالهواة ، خصوصاً اليمنيين منهم . وقد تلكأ طويلاً في تنفيذ الأمر الذي صدر إليه بطرد ثوار قيس الذين كانوا قد ثبتوا أقدامهم في تومل (قرب بلخ) تحت إمرة موسى بن عبد الله بن خازم ، وذلك اتباعاً لوصية أوصاها المهلب لابنه يالداً يتعرضوا لابن خازم ، اعتقاداً منه أن أبناءه سيظلون ولاية ثغر خراسان ما بقى ابن خازم ، فلذا قُتل كان أول طالع عليهم أميراً على خراسان رجلاً من قيس (١) . وقد أراد الحجاج أن يخرج ابن المهلب من خراسان ، فكان يبعث إليه يستزيده فيعتل ابن المهلب بحرب العدو ونحوه من أعمال مانعة ، ولم يستطع الحجاج أن يعزله آنحر الأمر

(١) [راجع هنا وفيما تقدم وما يل الطبري . (ج ٢ ص ١١٥١ - ١١٥٢ ، ١١٥٣ - ١١٥٤)]

إلا بعد إلحاح شديد على الخليفة في سنة ٨٥ هـ فحسبه الحجاج ونحى إخوته شيئاً فشيئاً ، لكنه لم يفعل ذلك إلا بعد موت عبد الملك في سنة ٨٦ هـ .

على أن مسلك عبد الملك من الحجاج كان أحياناً مسلك السيد الأمر ، فلما جاء الوليد بن عبد الملك ، وكان الحجاج من قبل قد عمل جاهداً في أن يجعل له ولاية العهد ، ترك الحجاج يتمتع بكامل سلطته ، بل كان ينصاع له ويستجيب إلى رغباته حتى في دائرة اختصاصه كخليفة . فن أمثلة ذلك أن عمر بن عبد العزيز كان والياً على المدينة ، فلجأ إليها بعض أهل العراق فراراً من حسف الحجاج ، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد ينبئهم إلى ظلم الحجاج لأهل العراق واعتدائه عليهم بغير حق . فلما بلغ الحجاج ذلك كتب إلى الوليد بأن مرّاق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلّوا عن العراق ولبّوا إلى المدينة ، وأن ذلك وهنّ في سلطان الدولة . فطلب الوليد من الحجاج أن يرشح له رجلين ليوليها مكة والمدينة ، فأشار الحجاج بخالد بن جرير ابن عبد الله القسري ، وعثمان بن حيان المبرّي ، فعزل الوليد هُمر بن عبد العزيز وولّى خالداً مكة وعثمان المدينة ، وذلك في سنة ٩٣ أو ٩٤ هـ (الطبري ج ٢ ص ١٢٥٤) فجحد كل منهما في استئصال شأفة أهل الرية والفتنة جداً كبيراً (١) . وفي عهد الوليد جنّى الحجاج ثمرات عمله الشاق الذي قام به في أيام عبد الملك ، فعمت في العراق السكينة ، واغتنم هو ذلك في العمل على مداواة الجروح التي ألحقها برفاهية البلاد حرب استمرت عشرين عاماً . وكان الحجاج لا يقل عن الوليد في العناية باستصلاح الأراضي ، فوجه اهتمامه إلى تعهد الأنهار التي تتوقف عليها

(١) [كانت مهمة عثمان بن حيان هي القضاء على من لجأ إلى المدينة من أهل الفتنة في العراق ، فحبس بعضهم وعاثهم وأرسلهم إلى الحجاج في السلاسل ، وأخرج كل من كان بالمدينة من أهل العراق حتى التجار منهم وطارد أهل الأهواء ، وهدد من يقوى رجلاً من أهل العراق يهدم بيته ، وله شغلة لها دلالة كبيرة على روح أهل العراق وخصالم وإثارهم لفتنة - راجع (الطبري ج ٢ ص ١٢٥٨ - ١٢٦١) - المترجم] .

مخصوبة الأرض التي تغمرها المياه في الحوض الأدنى لدجلة والفرات (٣) ، وفي وسط أرض الشيخ الكبرى التي كانت أرض مستنقعات وقصب أنشأ الحجاج مدينة واسط . وقد حاول أن يوقف ما أدى إليه نقص سكان الريف من تدفق أهلها نحو المدن الكبيرة . ويروى أيضاً أنه منع أهل السواد في العراق من ذبح البقر لكي تكثر الحرث والزراعة (٤) ؛ ولم يتم بحروب إلا مع الأعداء في الخارج ، وقد انتصر انتصارات باهرة ، ففتح قتيبة بن مسلم الباهلي الذي خلف المهالبة على خراسان بلاد ما وراء النهر في عهد الحجاج ، كما فتح محمد بن القاسم الثقفي بلاد السند ؛ ويرجع الفضل إلى الحجاج في اختيار هذين الرجلين للمنصب اللاتقيا بهما ، وقد منحهما أيضاً تأييداً فعالاً بفضل اسمه الذي كان يبعث الخوف في أقصى

(١) عن ملوك الفرس أخذ حنافة بتصفية مياه المناطق ذات المستنقعات وإنشاء ممتلكات لهم فيها ، وكان أحدهم إذا استصلح قطعة من الأرض سماها باسمه . وفي عهد قباد حدث ثقب كبير في السد عند كسكر ، فلمر كثيراً من الأرض وبقي مهمل حتى أصاب أنوشروان الفساد بعض الإصلاح . وفي سنة ٦ و ٧ من الهجرة حدثت من جديد ثقب أكبر ولم تشر كل جهود كسرى برون التي بذلها للإصلاح . وفي أثناء الاضطراب الذي نشأ أيام الفتح العربي الزادات دقة منطقة المستنقعات مما كانت عليه من قبل ، ولم يشطع الدهاقنة (وكانوا ملاكاً للأرض وولاء) بمجهودهم الخاس أن يكانحوا ذلك ، ولم تتغير الأحوال إلا في عهد معاوية وخصوصاً في عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه هشام . فشق الحجاج نهري النيل والزاب ، وجلب الجماروس الهندى إلى إقليم المستنقعات ، ومنها أدخله إلى جلفية . وإذا كان لم يستطع أن يفعل أكثر مما فعل فلنك يرجع إلى أن الوسائل التي كانت في مكتبته كانت محدودة . وقد طلب ثلاثة آلاف ألف لإعادة بناء السدود ، فاستكثر الوليد ذلك ، ولكنه طلب من أخيه مسلمة أن يقوم بالمشروع على نفقته الخاصة ، وحصل مسلمة من ذلك حل وريح عظيم ، وكان الخبير الذي أشرف على التخطيط ، في عهد الحجاج وهشام هو حسان التنبلى . وفي رواية غير جديرة بأن نصدفها أن الحجاج سمع ألا يصلح الفساد الذي أحدثه فيضان عظيم في عهده ، وذلك عقاباً للدهاقنة ، لأنه اتهمهم بالميل إلى ابن الأثمة - قارن الطبرى ج ١ ص ٩٦٠ لها بعدها والبلاذرى ص ٢٩٢ لها بعدها والمسعودى ج ١ ص ٢٢٥ لها بعدها وابن خرداذبه ص ٢٤٠ فما بعدها ويقوت ج ٣ ص ١٧٤ لها بعدها .

(٢) البلاذرى ص ٢٩٠ و ٢٧٥ ، وابن خرداذبه ص ١٥ و ص ٢٤١ والأغانى ج ١٥

ص ٩٨ ويقوت ج ٣ ص ١٧٨ .

المشرق^(١) . وكان الحجاج نفسه لا يذهب إلى الميدان ، ولكنه كان يعنى
أخلص عناية بإعداد الجيش وتجهيزه بكل ما يحتاج إليه حتى أصغر الأشياء
(البلاذرى ص ٣٤٦)^(٢) ، وكان لا يتزين^٣ في ذلك بمال . وكان خمس
للغنيمة يعوض عليه أكثر مما أنفق ؛ فأنفق مثلاً في الحملة الكبرى وجهها
إلى الهند ستين ألف ألف درهم ، وعادت عليه بعشرين ومائة ألف ألف
(البلاذرى ص ٤٤٠)^(٣) . وقد كانت مدة إمارته عشرين عاماً ، ومات ،
كما كان يتمنى ، قبل موت الوليد ، وذلك لتسع بقين من رمضان أو في
شوال سنة ٩٥ هـ = يولييه أو يولييه سنة ٧١٤ م عن ثلاثة وخمسين أو أربعة
وخمسين عاماً (الطبرى ج ٢ ص ١٢١٧ و ١٢٦٨) ؛ وقد عين الوليد
مكانه الأمير الذى اقترحه هو نفسه ، كما أقر جميع عماله في مناصبهم ؛
وكان لأسرة الحجاج في الكوفة شأنها فيما بعد^(٤) :

كان زياد بن أبيه والحجاج أعظم نائبين خلفاء بني أمية في العراق ، وكان
للعباسيون يحسدون بني أمية بحق على هذين الرجلين^(٥) ، وكان كلاهما لا يشعر
بأنه في منصبه صاحب قنينة يستغلها لمنفعته الخاصة ، بل كان يشعر بأنه يمثل سلطان
الدولة . وقد مكنتهما مبادئهما من سلطان كبير وتركوهما في منصبهما إلى آخر

(١) قارن البلاذرى ص ٤٠٠ فما بعدها وص ٤٣٥ ، وما ذكر رايسكه (Reiske) تليفاً
على أبي الفداء ج ١ ص ٤٢٧ . ولهما يتعلق بالكرك الخندى الذى لا يعرف رايسكه أمره ، قارن
الطبرى ج ٣ ص ٣٥٩ و ٣٧٠ .

(٢) يقول البلاذرى إن الحجاج جهز محمد بن القاسم بكل ما احتاج إليه حتى الموهوب
والمسال ، بل أرسل الحجاج معهم الخيل الخفيف على طريقة طريقة نكى يستعملوه في طعابهم وفيها
يحتاجون إليه - المترجم [.

(٣) [أنفق الحجاج في حملة الهند ستين ألف ألف درهم ، وحمل إليه منها عشرون ومائة
ألف ألف ، فقال الحجاج : شقيتا غيظنا ، وأدركنا ثأرنا ، وازددا ستين ألف ألف
درهم - المترجم [.

(٤) الطبرى ج ٢ ص ١٦٩٩ ص ٥ و ١٧١١ ص ٧ - ١٠ و ١٧١٢ ص ٧) .

(٥) [كان المنصور يقول : الخلفاء ثلاثة معاوية ، وكفاه زياد ، وعبد الملك ، وكفاه
الحجاج ، وأنا ، ولا كافى لى . - المترجم نقلاً عن أنساب الأشراف ص ١٧٢) .

حياتهما ؛ وهما في مقابل الثقة التي نالها أدباً واجبات منصبهما بإخلاص ودون مبالاة برضا الرأي العام أو بسخطه . وإن المؤرخ ليشعر بميل إلى المقارنة بينهما : فأما زياد فإنه كان قد وصل إلى مكانة رفيعة قبل أن يجعله معاوية حليفاً له وقبل أن يضمه إلى جانبهِ ، وأما الحجاج فيستطيع الإنسان أن يعتبره من صنع يدي عبد الملك . وكان زياد يعرف كيف يكبح جماح القبائل بعضهم ببعض ويسخرهم في العمل له ، وقد وُفق في ذلك وجنى ثمرته ؛ وكان عمر ابن عبد العزيز يُعجَبُ به ، لأنه قبض على زمام أهل العراق من غير أن يكلف أهل الشام قط مؤونة مساعدته في ذلك (الكامل ص ٥٩٥) (١) : أما الحجاج فلم يكن يستطيع أن يحافظ على سلطانه إلا من طريق الاستعانة بالسيادة الأجنبية ، أعنى مستنداً إلى جند الشام . على أن ذلك كان يرجع إلى تغير الظروف ، لأن التوتر بين الشام والعراق كان فيما بين عصر زياد وعصر الحجاج قد اشتد كثيراً . ولم يقصر الحجاج في أعماله عن سلفه زياد ؛ بل هو قد أثر في توجيه السياسة بعد موته : وكان السؤال هو : مع الحجاج أو عليه ؟ وكانت إصلاحاته الإدارية ، فيما يتعلق بنظام العملة والمكايل والضرائب وفي تنمية الزراعة مبدأ عهد جديد (٢) . وكان يلقى عناء في المحافظة على المستوى العالي لدخول الدولة في العراق التي كثرت الحروب المستمرة وأنضبت مواردها ؛ ولكن خزائنه لم تكن تخلو من مال ، وكان كثير الإنفاق (الطبري ج ٢ ص ١٠٦٢) وأنساب الأشراف ص ٢١٧ (٣) . وكان فصيحاً تنقاد له الألفاظ ، حتى كان مفروراً بعض الفرور بجهال أسلوبه ، وكان يكره

(١) [قال عمر بن عبد العزيز في علانية زياد بأهل العراق : قاتل الله زياداً ، جمع لهم كما تجمع اللذة ، وساطهم كما تحوط الأم البرة ، وأصلح العراق بأهل العراق ، وترك أهل الشام في شأنهم - المترجم عن كتاب الكامل] .

(٢) انظر كتاب الخراج ليعقوب بن آدم في مواضع كثيرة خصوصاً ص ٩٩ فما بعدها .

(٣) [بلغت عبد الملك كثرة نفقات الحجاج وأنه مثلاً ينفق في اليوم ما ينفقه الخليفة في الجمعة . . . الخ . فرد عليه الحجاج أنه قد جاء إلى بلاد ذات فتنة تتصرم بئيران الحوادث ، فهو يستعمل الخرم جاهداً ويعطى إذا لزم العطاء ، وأنه ناصح لأئمة المؤمنين لا يفسح شيئاً - المترجم] .

أن يقال إن أحداً يفوقه في ذلك (الطبرى ج ٢ ص ١١٣٢) (١) ؛ فلا غرو
إذن أن نجد رواية خطبته التي ابتدأ بها ولايته على الكوفة يوشونها بعبارات
مُتَكَلِّفَة ؛ وكان جنانه لا يتزعزع في أى موقف من المواقف ، وإنما
كانت عظمته تتجلى عند الشدائد (٢) . ولكن الحجاج كان فيه تعجّل كبير ،
ولم يكن صبوراً على من يكلفه تنفيذ أوامره ، ولم يضع يده الحديدية في قفاز
من القטיפه ، ولا كانت له الآداب التي تُنال بها محبة الناس ، بل كان غليظاً
وشديداً أحياناً ، ولكنه لم يكن قاسياً (٣) ، ولا كان صغير القلب ولا محدود
الأفق ؛ فقد عفا عن الشعبي الذي ثار مع ابن الأشعث ثم وقع أسيراً في يده ،
وقد أطلقه كرماء منه ، لأنه لم يحاول أن يعتذر بالكذب ، بل قال الحق ،
معتزلاً بأنه ثار وحارب عن قصد (الطبرى ج ٢ ص ١١١٢ - ١١١٣) .
وقد عرف للمختار قدره ، مع أنه كان بثورته قد خالف الدين والنسوة ؛
وكان عند الحجاج من الشجاعة ما يجعله يصرح بإصحابه به . وهو لما ضرب
الكعبة بالمنجنيق ، وجاء رعد وبرق أشعر الناس بغضب الله على هذه الفعلة
الشنيعة ، لم يتردد في أن يفسر ذلك بأنه تحية من السماء تبشر بالنصر (٤) ؛

-
- (١) [استدعى الحجاج رجلاً ذكراً أمامه بالصباحة ، كان يكتب الكتب ليزيد بن المهلب ،
سأله فيما سأله عن نفسه ؛ هل يلحن ؟ فقال ؛ تلحن لحناً خفياً ؛ تزيد حرفاً وتنقص حرفاً ؛
وتجمل أن في موضع إن وإن في موضع أن . فقال له الحجاج ؛ قد أجلفك ثلاثاً ، فإن أجلفك
بعد ثلاث بأرض العراق فقتلك - المترجم نقلاً عن الطبرى في نفس الموضع] .
- (٢) [مرت بالحجاج عن كثيرة ، ولعل أكبر محنة لقها هي محنته أيام ثورة ابن الأشعث
وقزعزع سلطانه وقزعزع ثقة عبد الملك به ، فليراجع القارئ تفاصيل ذلك عند الطبرى - المترجم] .
- (٣) [لو راجع القارئ مثلاً ما فعله الحجاج بالأسرى الذين بعث بهم إليه يزيد بن
المهلب ، وما فعله حين استسلم بعد فتنة ابن الأشعث (الطبرى ج ٢ ص ١١١٨ و ١١٢٣
و ١٠٩٧ ، ١٠٩٨) فربما رأى رأياً غير رأى المؤلف - المترجم] .
- (٤) [لما رأى الحجاج الكعبة بالمنجنيق جاءت صاعقة ، فرعدت السماء وبرقت وعلا
صوت الصاعقة على صوت الحجارة ، فأعظم جند أهل الشام ذلك وأمسكوا ، ولكن الحجاج
لم يأبه بذلك واشترك بنفسه في الرمي . وفي اليوم الثاني جاءت صاعقة تتبعها أخرى فقتلت بعض -

فكان الحجاج أقلّ وقوعاً في حبال الخرافات والمأثورات من معاصريه . ولكنه مع ذلك لم يكن كافراً بالله ، ومن المؤكد أنه لم يكن منافقاً . وكان في حياته وأعماله يراقب ضميره ، ولكن جراته وقلة تحرجه في القضاء على هش الفتنة الذي كان بمكة ، وكذلك عدم قبوله أن يتخذ أهل الفتنة في الكوفة والبصرة من الدين سنداً يبررون به ما يشيرونه من فتنة ، كان بطبيعة الحال كافياً ، عند الرأي العام بالحجاز والعراق ، في إثبات قلة إيمان الحجاج . وقد اتهم الحجاج بفظائع أخرى ، وهي في الواقع مخترعة ، وقد ولدها بغض أعدائه له ، هذا البغض الذي لم يهدأ حتى بعد موته . فيروى مثلاً في رواية لم يذكر صاحبها أنه قتل في البصرة بعد موقعة الزاوية أحد عشر ألف رجل ، بل مائة وعشرين أو مائة وثلاثين ألفاً (الطبري ج ٢ ص ١١٢٣ ، ويظهر أن كلا من فون كريم وفلوتن يصدق مثل هذا المراء ، وهما ، إشاراً منهما لنظريتهما ، يتلمسان في الموالي الدليل على تعطش الحجاج للدم . ولكن الروايات القديمة الصحيحة تقول خلاف ذلك تماماً ، فالحجاج أمر في البصرة والكوفة بعد انتصاره على الفور بالنداء بالأمان الشامل لمن أتى السلاح ، وكان حريصاً كل الحرص على منع جند الشام من ارتكاب المفاسد في المدن التي يفتحونها . أما الذين أصروا على محاربتهم ولم يقبلوا الأمان ثم وقعوا في يده بعد ذلك ، فإنه قتل بعضهم ، كالذي فعله في واسط من قتل بعض القرشيين وغيرهم من الثوار الذين بعث بهم إليه يزيد بن المهلب . ولكنه حتى في ذلك كان يحترم الحقوق المدنية الشخصية ، ولم يجرؤ مثلاً على مصادرة أهوال أحد الموالي

= جنود الشام ، فانكسر أهل الشام ، فقال الحجاج : يا أهل الشام ! لا تنكروا هذا ، فإن ابن تهامة ، هذه صواعق تهامة ، هذا الفتح قد حضر ، فابشروا ! إن القوم يصيبهم مثل ما أصابكم . فصعقت من اللند ، وأصيب بعض أصحاب ابن الزبير ، فقال الحجاج : ألا ترون أنهم يصابون وأنتم على الطاعة وهم على خلاف ذلك ! - المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ٨٤٤ - ٨٤٥ . وأنساب الأشراف ص ٤٧] .

الأغنياء (فيروز حصين^(١)) ، مع أنه لم يوص في شأنها إلا في الملحقة الأخيرة^(٢) .

٤ - وجاء بعد الوليد الأول أخوه سليمان ، وكان عبد الملك قد أدخله له البيعة ولياً للعهد بعد الوليد - في جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ = آخر فبراير ٧١٥ م . وقد سار على أثر سلفه من حيث ما كان ينويه من توجيه ضربة كبيرة للقسطنطينية بعدة وأهبة عظيمة ، وإن كانت هذه الضربة لم تكن موفقة^(٣) . لكن سليمان كان يخالف أخاه في أمور أخرى ، فلم يكن راضياً من ذلك التفوذ الكبير الذى جعله للحجاج ، ولا بد أنه في هذه النقطة قد عارض أخاه ، وهو ما يزال ولياً للعهد ، ففي سنة ٩٠ هـ فرّ يزيد بن المهلب من السجن الذى كان قد حبسه فيه الحجاج^(٤) ، وذهب إلى الرملة في فلسطين ، حيث كان يقيم سليمان بن عبد الملك ، فجعله سليمان في جواره واحتمل بعض المال الكثير الذى كان مطلوباً منه ، وتدخل لدى الخليفة من أجله بإلحاح شديد ، حتى أمر الخليفة الحجاج بأن يكفّ عن يزيد بن المهلب ، وقد ألباه سليمان تسعة شهور عنده ، فوقع تحت تأثيره وقوعاً تاماً وزادت نفسه امتلاءً على الحجاج . ولم يكن الحجاج غافلاً عما كان يريد به سليمان ، فأيد الوليد فيما أراده من خلع أخيه سليمان وجعل ولاية العهد في ابنة عبد العزيز ، فزاد بذلك في كره سليمان له^(٥) ، فكان لدى الحجاج من الأسباب ما يدهوه إلى أن يتوقع

-
- (١) [راجع ما كان بين الحجاج وبين فيروز حصين وتعليل الحجاج له عند الطبرى ج ٢ ص ١١١٩ - ١١٢٢] - المترجم .
 (٢) وقد بقوت لنا قصائد بلخير والفرزدق في مدح الحجاج .
 (٣) راجع مجلة *Ostfänger Nachrichten* ، ١٩٠١ ص ٤٣٩ ، والصدقات التالية .
 (٤) [راجع قصة حرب يزيد بن المهلب وإخوته ، عند الطبرى ج ٢ ص ١٢٠٨ - ١٢١٧ - المترجم] .

(٥) كان هذا بحسب ما يفترض عادة هو السبب في بغض سليمان للحجاج ، ولكن يظهر أنه كان بالأحرى نتيجة له ، ذلك أن أمر نية الوليد جعل ولاية العهد في ابنة لا يذكر إلا في أواخر حكمه (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٤ و ص ١٢٨٣ لما بعدها) ، بل إن التوتر بين سليمان والحجاج كان قبل ذلك : منذ سنة ٩٠ هـ . وهو المبرر لحرب يزيد بن المهلب إلى الرملة .

أكبر الشر من تولى سليمان للخلافة ، وكان دعاؤه المستمر هو أن يجعل الله منيبتة قبل منيبة الوليد (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٢)^(١) . وقد استجاب الله دعاءه ، فلم يستطع سليمان بن عبد الملك أن ينال من الحجاج نفسه ، فصب غضبه على آل الحجاج وأصدقائه وعماله . فعزل عثمان بن حيان المرمى عن ولاية المدينة ، ونحاله بن عبد الله للقسرى عن ولاية مكة (الطبرى ج ٢ ص ١٢٨١ - ١٢٨٢ و ص ١٣٠٥) ، وأمر بقتل آل الحجاج وبسط العذاب عليهم . أما قتيبة بن مسلم^(٢) ، الأمير القوي في خراسان ، فقد أراد أن يسبق القدر الذى كان يهدده ، واعتمد على ماضيه وما كان فيه من فتح ونصر ، فحاول أن يضم إليه جنده في ثورة على الخليفة الجديد ، لكنه لم يفلح . وذلك أن تميمياً ، وكان قد أساء إليهم ، انقلبوا عليه ، فهزموه ؛ لأن بقية العرب تحاذلوا عن نصرته ؛ وأما محمد بن القاسم الثقفى ، فاتح بلاد السند

(١) [لما مرض الوليد رهنقه غشية ، فظن الناس أنه مات وخرجت البرد بذلك . فلما قدم البريد على الحجاج استرجع ثم أمر بجعل فشد في يده ، ثم أوثق إلى أسطوانة ، وقال : اللهم لا تسلط على من لا رحمة له ، فقد طال ما سألتك أن تجعل مني قبل ممته ، ثم جعل الحجاج يدهور . فإنه لذلك إذ ورد عليه يريد بإفائة الوليد . ولما أفاق الوليد قال عمر بن عبد العزيز : « ما أعظم نعمة الله علينا بما فعلتك ، وكأنى بكتاب الحجاج قد أتاك يذكر فيه أنه لما بلغه برؤك غرقه ساجداً ، وأعتق كل مملوك له ، وبعث بقوارير من أنجب الهند . فها لبث إلا أياماً حتى جاء كتاب الحجاج بذلك . ولكن من عبر أحوال النفوس البشرية وهواقب الفناء في خدمة الملوك أن الحجاج لم يمت حتى كان قد ثقل على نفس الوليد ؛ فيحكى أن الوليد كان يتوضأ يوماً فغداه ، فجعل خادمه يصب على يديه الماء ، وهو ساو ، والماء يسيل ، والخادم لا يستطيع أن يتكلم ، فنضح الوليد الماء في وجه الخادم ، وقال له : « أنا من أئت ؟ » وسأله : ما قدرى ما جاء القيلة ؟ قال الخادم : « لا » ، فقال الوليد : « ويحك ! مات الحجاج » . فلما استرجع الخادم قال له الوليد : أسكت ! ما يسر مولاك أن في يده تفاحة يشمها - المترجم نقله عن البرى ج ٣ ص ١٣٧٢] .

(٢) [كان قتيبة بن مسلم ، شأنه شأن الحجاج ، قد أيد الوليد فيما كان يريد من خلع سليمان أخيه وعقد البيعة لابنه عبد العزيز . فلما مات الوليد وتولى سليمان الخلافة ، خاف قتيبة . ولكنه أراد أول الأمر أن يسترضى سليمان ، ثم ثار عليه معتمداً على مجده في الفتح وعظم قدره عند ملوك العجم وعلى أعماله المحيطة في خراسان وحملة على رقاوية أهلها ومدحياً أنه عراقى النسب والحرى والرأى والدين ؛ ولكن لم يتبعه أحد - راجع التفاصيل عند الطبرى ج ٢ ص ١٢٨٣ فابعدا - المترجم] .

فلم يحاول أن يشق عصا الطاعة على الخليفة ، مع أن جند الشام ربما كانوا على استعداد لتأييده (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٥ س ٣) ؛ فجاء به إلى واسط وحبس حيناً ، ثم قتل (١) .

وقد خلف الحجاج في منصبه عدوه الألد ، يزيد بن المهلب ، وهذا هو أكبر ما يميز حكومة سليمان بن حكومة الوليد . ويرى دوزى (Dozy) أن هذا التغير نتيجة للاختلاف في موقف كل من سليمان والوليد إزاء الأحزاب الكبرى التي كانت تتألف من القبائل ، فيقول إن الوليد كان قيسياً لحماً ودماً ، أما سليمان فكان يميني الهوى (٢) ، ويقول : « إن حكومة الوليد كانت قد أبلغت قيساً ذروة قوتها ، فجاء سقوطها بعد موته على الفور ، وكان سقوطاً مريعاً » . على أن يزيد بن المهلب أخذ بجانب اليمن في صورة صريحة ، وكان ، باعتباره أزدياً ، ينتسب إليهم ، وكان معارضاً لقيس : أما الحجاج فإنه لم يضطره إلى معارضة اليمن وإلى

(١) [لما مات الوليد بن عبد الملك روى سليمان واستعمل صالح بن عبد الرحمن على خراج العراق ، حمل محمد بن القاسم مقيماً مع معاوية بن المهلب ، فقال محمد بن القاسم مقيلاً :

أضاحوني وأى فقى أضاحوا ليوم كريمة وسداد ثغر

وقد جزع أهل الهند عليه ، وقال ، وهو في حبس صالح بن عبد الرحمن في واسط :

ظنن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلاً مقلولا

فلترب فتية فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قتيلاً

ويقال :

ولو كنت أجمعت الفرار لو طئت إناث أهدت للوضى وذكور

وما دخلت نخل السكاسك أرضنا ولا كان من حلت على أمير

ولا كنت للعبد المزونى تابعا فيالك دهر بالكرام حشور

[المترجم نقلا عن غيلادى ص ٤٤٠ - ٢٤١]

(٢) راجع كتاب دوزى Histoire des Musulmans d'Espagne ، ج ١ ص ٢١١ ،

الظهور من هذا الوجه بمظهر من يكون في جانب قيس إلا يزيد بن المهلب وابن الأشعث من قبله ؛ وهو من نفسه لم يتنكر لأصله وأنه من ثقيف الذين كانوا يُعَدُّون من قيس ، كما قد آثر أن يختار حاشيته من دائرة من يعرفهم . وكان ذلك شيئاً طبعياً ، ولا يصح أن يبالغ فيه أحد ، ولا أن يعتبره القاعدة العامة ، ولا أن يعتبره نزعة قيسية أصيلة كانت عند الحجاج ؛ وإذا كانت قيس أنفسهم يعتبرون الحجاج منهم فلا يمكن أن يؤخذ من ذلك أنه كان زهيراً لحزب قيس ، ذلك أن القبائل العربية كانت تتعلق بكل رجل قوى تستطيع أن ترتقي إليه بالنسب ولو من بعيد . فالسبب الذي من أجله عين عبد الملك الحجاج ، والذي من أجله تمسك به الوليد ، لم يكن بوجه من الوجوه قيسية كانت عند الحجاج - ولم يكن الحجاج من أسرة ناسية - بل كان السبب هو كفاءته الشخصية . وكان الذي جعل للحجاج شأنه هو شخصه لا قبيلته ، وكذلك كان يفض سليمان منصباً على شخص الحجاج وعلى نفوذه الشخصي . ولا شك أيضاً أنه إلى جانب هذا قد سعى بالحجاج عند سليمان ، وقبل له لأنه ليس هو الرجل الذي يصلح لتهدئة أهل العراق ، بل لأنه الرجل الذي يُبَغِّضُ إليهم حكم بني أمية (الطبري ج ٢ ص ١٣٣٧) ؛ وقد عزل سليمان عمال الحجاج ، لأنهم كانوا صنع يده ، لا لأنهم كانوا قيسيين الهوى . أما خالد بن عبد الله القسري فكان ، خلافاً لذلك ، يعتبر عند اليمن على أنه منهم (الأغاني ج ١٩ ص ٦١) . وأما قتيبة فكان من باهلة ، وهي قبيلة محابدة ؛ وفي خراسان لم يكن أكبر خصومه هم اليمن بل المضريون ، ومن جهة أخرى كانت له محبة في الشام عند قيس الذين كانوا يفتنون أرض الجزيرة وكانت باهلة تقيم بينهم (الطبري ج ٢ ص ١٣٠٠) ، وكان موسى بن نصير في إسبانيا عنيماً ، ويقال إن الوليد أساء معاملته لهذا السبب^(١) . ولكن سليمان أساء معاملة عبد الرحمن بن موسى أكثر مما أساء

الوليد معاملة أبيه ؛ وهذا واقع من شأنه أن يضابق دوزى وتلاميذه (١) . مولر A. Müller ج ١ ص ٤٢٩ فما بعدها (أشد المضايقة . فلاشك أن سليمان لم يكن ينزع نزعاً بمنية ظاهرة ، كما نزع يزيد بن المهلب . وليس ثمة أى أثر يدل على أنه كان فى الشام متحازاً إلى جانب اليمن عن جانب قيس ، بل هو كان يأسف لأنه جرح مشاعر قيس الشام بما صنعه مع قتيبة (٢) . وكانت أم سليمان هى أم الوليد ، وكانت قيسية من عيس ، ومن العسير جداً أن يتنكر سليمان لما يجرى فى عروقه من دم . أما انقسام العالم العربى إلى قسمين متخاصمين على أساس الانقسام القبلى ، فإنه كان فى ذلك الوقت ما يزال فى دور التكوين ؛ وقد كان ما بين الولاة والرؤساء الأقوياء من هداء شخصى سبباً جوهرياً فى تفاقم خطب هذا الانقسام ؛ ولا يصح للمؤرخ أن يعتمد على ما هو نتيجة فى التاريخ فيجعله بمثابة صل وقاعدة يرجع بها إلى الوراء حتى يجعلها فى بدايات ما قبل التاريخ .

وبعد موت الحجاج امتنع الزنبل فى سجستان عن دفع الإتاوة ، ولم يتخرج من أن يصرح بمقدار استصغاره لشأن من جاء بعد الحجاج (البلاذرى ص ٤٠٠ فما بعدها) (٣) ؛ وأيضاً بعد موت الحجاج وموت الوليد بعده بقليل تنفس أهل العراق الصعداء ، ولكنهم لم يلبثوا أن تبينوا أن تغيير الأشخاص لم يأت معه تغيير النظم وأن يزيد بن المهلب ، وإن كان قد آذى آل الحجاج وعماله (الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٩) فإنه لم يسلك فى الحكم طريقاً غير طريق الحجاج . فهو أقام مثله

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٣٠٠ ص ٥ - ٦ - المترجم] .
 (٢) [لما صنع الزنبل العروس التى كان قد صالح الحجاج عليها سأل عمال يزيد بن عبد الملك فائلاً : ما فعل قوم كانوا يأتوننا نحاص البطون سود الوجوه من الصلاة ، نعلم نخوص ؟ قالوا : انقرضوا ، قال : أولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً ، وإن كنتم أحسن منهم وجوهاً . وقيل له : ما بالك كنت تعطى الحجاج الإتاوة ولا تعطيناها ؟ فقال : كان الحجاج رجلاً لا ينظر فيما ينفق ، إذا غلربنيته ، ولو لم يرجع إليه درهم ؛ وأنت لا تنفقون درهماً إلا إذا طعمت فى أنه يرجع إليكم مكانه عشرة - المترجم نقلاً عن البلاذرى] .

في واسط ، واستبقى أهل الشام في العراق ، ووجد أنه لا يستطيع أن يغير شيئاً من نظام الضرائب التي بغضت الحجاج إلى العرب ، إن كان لابد أن يبقى دخل الدولة في المستوى العالي الذي كان عليه . على أن يزيد أراد أن يتقاضي بغض أهل العراق له ، فطلب إلى الخليفة أن يعفيه من ولاية الخراج^٦ وأن يقلدها لعامل آخر أشار به ، ولكن ذلك آل إلى شيء لم يكن يخطر له على بال ، لأن العامل الذي أشار به يزيد وصيسته سليمان على خراج العراق كان عاملاً قديماً من عمال الحجاج ، وكان حتى ذلك الحين يعمل في الديوان ، وقد جعله سليمان مستقلاً على رأس ديوان الخراج^(١) ، وهو صالح بن عبد الرحمن أحد موالى مسجستان ، وهو الذي نقل لغة الديوان إلى العربية ، وكان لصالح في واسط أربعائة من جنود الشام تحت تصرفه يسرون بين يديه إذا خرج ، وكان مستقلاً عن يزيد استقلالاً تاماً . وقد ضُيق على يزيد ، فلم يملكه شيئاً ، ورفض في جفاء أن يُحتمل خزائن الخراج تلك النفقات الكبيرة التي كان يتفقهها يزيد : وأخيراً ضجّر يزيد بسبب هذا التصديق ولم يهتمل المقام في العراق ، وعرف كيف يدبر الحيل ويلتمس السبل حتى أسند سليمان^٢ إليه إمرة خراسان إلى جانب إمرة العراق^(٢) ، فذهل مقر إقامته إلى الولاية القديمة التي كان عليها حيث لا يراقب أعماله أحد^(٣) . ولكنه في خراسان لم يجد ما كان

(١) هذا بحسب رواية أبي مخنف - الطبري ج ٢ ص ١٣٠٦ فما بعدها ، أما كيف أن دوزي يفهم هذه الرواية على أنها فوسططيع القاريء أن يطلع عليه عند دوزي نفسه (Dozy, 3, 226) . على أنه بحسب الطبري (ج ٢ ص ١٢٦٨ - ابن قتيبة ص ١٨٣) كانت ولاية الخراج قد فصلت عن الإمارة في الفترة بين الحجاج ويزيد ، فلا بد أن يكون هذا الفصل قد آلى أيام تولي يزيد للإمارة ، ثم عمل به من جديد بناء على طلبه ، وليس على هذا الذي نفترضه أي اعتراض .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣٠٦ - ١٣١٤ - المترجم] .

(٣) كان ذلك في سنة ٩٧ هـ . وقد احتفظ يزيد مع هذا بالإمارة على العراق .

يحتسب ، فقد كان رجلاً همه الطعام والشراب والنساء^(١) ، وكان يديناً فاسد الصورة ، وتبين الفرق البعيد بينه وبين قتيبة بن مسلم . ولكنه أراد أن يفوق قتيبة بفتح جرجان وطبرستان ، فلم يُوفَّق في ذلك إلا توفيقاً ناقصاً ، وقد كتب إلى سليمان بتعظيم قيمة الفتح وعهد إلى الافتخار وتسميع الناس فبالغ في تقدير قيمة خمس الغنائم التي حصل عليها ، وبذلك حفر الحفرة لنفسه بيديه^(٢) .

وقد احتفظ سليمان بعد أن تولى الخلافة بمقر إقامته في الرملة من أعمال فلسطين . وكان الناس هناك يحبونه كثيراً (الطبري ج ٢ ص ١٨٣١) . ولكنه كان يكثر من الذهاب إلى معسكر دابق في شمال الشام ، وهو المعسكر الذي كان قاعدة لتدبير أمور الحرب الكبيرة الموجهة إلى القسطنطينية ، وهناك مات بعد حكم لم يدم ثلاث سنين كاملة ، وكان موته في صفر سنة ٩٩ هـ (سبتمبر سنة ٧١٧ م) . ويقول للباس النصيبي إنه مات يوم الثلاثاء الثامن من صفر ، أما أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٣٣٦) فيقول إنه مات يوم الجمعة العاشر من صفر^(٣) . وعلى حين كانت أحاديث الطبقة الممتازة في زمان الوليد تدور حول مسائل الزراعة وتخطيط الضياع ، صارت أحاديث الناس في عهد سليمان تدور حول التزويج والحواري ، وكان سليمان نفسه غير متحفظ ، وكان صاحب نكاح وطعام ، ولكنه كان غيوراً شديد الغيرة ، فأمر بمكافحة الفحش في المدينة ، وربما كان ما فعله أمير المدينة من خصي الخنثيين بدلاً من إحصائهم نتيجة لتصحيح في الكتاب الذي

(١) [راجع مثلاً ما يقوله عنه قتيبة بن مسلم وما سكاه عنه عمر بن عبد العزيز (الطبري ج ٢ ص ١٢٨٧ و ١٣١٣ - المترجم] .

(٢) [راجع الطبري (ج ٢ ص ١٣١٧ - ١٣٣٥) . وقد قدر يزيد بن المهلب خمس الغنائم بستة أو أربعة آلاف ألف ، فحاسبه عليها عمر بن عبد العزيز فيما بعد - المترجم] .

(٣) بحسب قوسنفلد يكون يوم الثلاثاء هو التاسع من صفر ويوم الجمعة هو الحادي عشر منه . ومثل هذا الاختلاف في يوم واحد يعرف كثيراً ، وليس يندى بال . [لكن إذا كان يوم الثلاثاء يوافق ٩ صفر فإن يوم الجمعة يوافق ١٢ منه - المترجم] .

وصله (الأغاني ج ٢ ص ٥٩ فاهمدها)^(١) ؛ وهو مع أنه كان شهنشاهياً ، فإن ذلك لم يمنعه من أن يميل إلى أهل الديانة والصلاح ؛ وهذا يتجلى في أنه كان يظهر العطف على معارضة أهل العراق للحجاج ، هذه المعارضة التي كانت دائماً تظهر في ثوب معارضة دينية باسم الله وباسم سلطان الله ضد هشيم الأتوياء ، كما يتجلى في أنه كان يقرب العلويين إليه (الطبرى ج ٢ ص ١٣٣٨ س ٧) وفي أنه عين أحد الأنصار والياً على المدينة ، وهو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الذى كان بلده محمد ضلع كبير في الثورة على عثمان ، على أن أوضح ما يدل على ميله لأهل الدين والورع هو أنه كان يستمع لرجاء بن حيوة ، أحد علماء الدين في القصر ، وإن المكانة التي جعلها خلفاء بني أمية لهذا الرجل هي مقياس لموقفهم من أنفسهم من الإسلام . وقد بدأ تأثير رجاء في عهد عبد الملك ، وازداد في عهد الوليد ، وبلغ أوجه في عهد سليمان . وقد استطاع رجاء أن يقنع سليمان بعمل الخلافة في عمر ابن عبد العزيز ، وعندنا في هذا رواية الواقدي التي ذكرها الطبرى^(٢) .

كان عبد الملك قد عقد البيعة لابنه يزيد على أن يتولى الخلافة بعد الوليد وسليمان ابنيّه . وأخذ عبد الملك العهد من الوليد وسليمان على ذلك . ولكن سليمان لم يلتزم العهد ، فعهد إلى ابنه أيوب بالخلافة أولاً ؛ ولكن أيوب مات

(١) [بلغ سليمان بن عبد الملك ما كان يأتيه المخشون في المدينة من فساد في النساء والرجال ، فلاحظ لتأثير اشتغالهم بالثناء وإجابتهم له في النساء ، فكتب إلى عامله على المدينة أن يحص من رقبته من المخشين المنين . وظن البعض أن كتابه كان فيه « أن يحص » ، ولكن القارئ صحفها ؛ وهذا غير معقول ، وقد صرح الرواة بأنه كذلك - المترجم] .

(٢) ج ٢ ص ١٣٤٠ فاهمدها . وكان الحليم بن واقد ، عم الواقدي ، وهو طفل ، حاضراً في دابق ؛ وقد أصاب يوم استخلاف عمر بن العزيز ثلاثة دنابر (الطبرى ج ٢ ص ١٣٦١) .

في حياة سليمان نفسه ، وقبل أن يجعل سليمان الخلافة في ابنه الثاني داود (١) — وكان هذا مع الجلبش الأموي أمام القسطنطينية — كان على فراش الموت (الطبري ج ٢ ص ١٣٣٥ و ١٣٤١) : عند ذلك وضع رجاء يده في الأمر ، وأقنع سليمان بأن يرضى الله بوصية يستخلف فيها على المسلمين الرجل الصالح . فتخطى سليمان الورثة المباشرين ، وعهد بالخلافة إلى ابن عمه الورع الثاني ، عمر بن عبد العزيز ، على أن يكون العهد بعده ليزيد بن عبد الملك ، وجاءت سكرات الموت تغشى سليمان ، فبقى رجاء عنده ، فلما مات حرقته إلى القبلة وخصص عينيه وسجّاه ، وأغلق عليه الباب واستوثق من إخفاء موته على أهله . ثم جمع الأمويين في مسجد دابق دون أن يقول إن الخلافة قد مات ، وطلب منهم أن يبايعوا على ما أمر به الخليفة في وصيته ومن عني في العهد الذي كتبه ، ولم يذكر رجاء اسم ولي العهد (٢) ، ولم يجبرهم بموت سليمان ولا باسم خليفته الذي عينه بنفسه إلا بعد أن بايعوا ، وكانت مفاجأة كبيرة عند ما وقف رجاء وقرأ كتاب سليمان ، وفيه استخلاف عمر ابن عبد العزيز . وكان عمر من فرع جانبي من بني أمية ، كان قد نجاه عبد الملك ، والآن جاء ابن عبد الملك فأثّره على أمراء الفرع الأساسي ، لبني أمية على كثرتهم . ولم يكن ذلك يخطر ببال أحد ، وربما كان أبعد شيء عن ذهن عمر بن عبد العزيز نفسه ، ولم تقم مع هذا معارضة ذات شأن بسبب تعيين عمر . ويظهر أن رجاء قد أحكم ما صنع ، وقد عارض هشام بن عبد الملك في البيعة بعض المعارضة ، ولكنه أخذ

(١) والأسماء التي سمى بها سليمان أبنائه ، وهي الأسماء الموجودة في التوراة ، ربما كانت دليلاً على ورعه ، وهي فيما عدا ذلك نادرة عند الأمويين في ذلك العصر . أما اسمه هو فقد أعطى له من غير أن يكون له في ذلك دخل على كل حال .

(٢) بحسب رواية الواقدي أن سليمان نفسه ، وهو على فراش الموت ، فعل ما فعله رجاء في المسجد بعد موت سليمان — ومن الواضح أن هذا تكرار في الرواية .

جانب العقل لما هُدِّد بالسيف^(١) . أما عبد العزيز بن الوليد فلم يكن حاضراً
في دابق ، ولما علم بموت سليمان ظن أن زمانه قد جاء ، ولكنه اطمأن لما علم
بأن عمر صابر خليفة^(٢) .

(١) [لما قرأ رجاء كتاب النهدي الذي كتبه سليمان بن يونس والحقى إلى ذكر عمر بن
عبد العزيز ، نادى هشام بن عبد الملك : لا فبايمه أهدأ ، فقال رجاء : أمر ربك والله عتلك قد
قم فبايع ! فقام يجر رجليه - وتفصيل موت سليمان ومبايعة عمر موجود عند الطبري في الموضع
المتقدم ذكره - المترجم] .

(٢) [لم يكن عبد العزيز بن الوليد يعلم بعهد سليمان ، ولا ببومة الناس لعمر بن
عبد العزيز ، فتمه ادواء ودعا لنفسه . ثم بلغه الأمر ، فأقبل وبايع عمر ، فلما سأله عمر عما كان
منه ، قال له بما فعل ، واعتذر بأنه إنما بايع لنفسه خوفاً على الأموال أن تنهب . - المترجم
فقلا عن الطبري ج ٢ ص ١٣٤٥] .

الفصل الخامس

عمر بن عبد العزيز والموالي

١ - كان عمر بن عبد العزيز ابناً لعبد العزيز بن مروان الذي ظل أميراً على مصر لخلفاء بني أمية سنين طويلة . أما أمه فكانت أم حاصم بنت حاصم ابن عمر بن الخطاب ، وكان عمر بن عبد العزيز يعتزّ بذلك ، وولد عمر في المدينة في عهد يزيد بن معاوية (الطبرى ج ٢ ص ١٣٦١) (١) ، وقضى هناك الشطر الأكبر من صباه ، وتغلّط عقله بالتراث الروحي في مدينة الرسول ، وبعد أن مات أبوه (سنة ٨٤ أو ٨٥ هـ) أخذه عبد الملك إلى دمشق وزوجه ابنته ، ثم أرسله الوليد بن عبد الملك إلى المدينة أميراً على الحجاز ، وكان قصده من ذلك نحو الذكرى السيئة التي خلفها الوالي الذي كان قبل عمر واسترضاه أهل المدينة . ووثق عمر بن عبد العزيز صلته بالعلماء الذين اشتغلوا بكتابة العلم وبعلم الحديث ، وكان علم الحديث قد ازدهر هناك . ولم يكن بضايقه أن ينتقد علماء المدينة أساليب حكومة الأمويين ، خصوصاً أساليب الحجاج ، وكان من أثر ذلك أن صار أهل الفتنة والشقاق من أهل العراق يلجأون إلى الحجاز ، فلم يرض الحجاج عن ذلك بطبيعة الحال ، وحُزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة بناء على إلحاح الحجاج (٢) ، ولكن عمر لم يفقد العطف من جرّاء ذلك ، فقد كان أخصاً لامرأة الوليد وظل عنده مكرّماً ، ولم تكن مكانته الكبيرة عند سليمان أقل من ذلك .

قويت الروح الإسلامية في الأسرة الحاكمة ، كما رأينا ، فمنذ معاوية

(١) [جاء في الطبرى ج ٢ ص ١١٨٢ أن عمر بن عبد العزيز ولد سنة ٦٢ هـ - المترجم] .

(٢) [راجع ما تقدم ص ٢٤٣ - المترجم] .

وعهد الملك إلى الوليد وسليمان نراها في ازدياد مستمر : وعمر بن عبد العزيز يقف على رأس هذه السلسلة من خلفاء بني أمية : ولكن تدينه وورعه لم يكونا شبيهين بما كان عند سلفه ، ذلك أن روحه تشربت هذا الورع على نحو آخر تماماً : وكان الورع موجهاً لأعماله في أمور الدولة : ولقد كان سليمان بن عبد الملك رجلاً متبذراً صاحب متاع : أما عمر فبكاد يكون زاهداً ، وقد أتاحت السيادة لسليمان وسائل للمتاع لا حدود لها ، أما عمر فقد ألقت السيادة على كاهله مسؤولية ثقيلة ، وكان في كل شيء يفعلته يتمثل الحساب أمام عينيه ، وكان يخشى دائماً أن يقصر في حلود الله (١) .

ولم يكن عمر ميالاً إلى حروب الفتح ، وكان يعلم حق العلم أنها لم تكن حروباً

(١) [لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى يزيد بن المهلب : « أما بعد ، فإنه سليمان كان عبداً من عبدة الله ، أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفني ويزيد بن عبد الملك من بعده ... وإن الذي ولاه (يعني الله) ليس على يمين ، ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج واعتقال أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ في أفضل ما بلغ بأحد من خلقه . وأنا أخاف فيما ابتليت به حساباً شديداً ومساءلة غليظة إلا ما عافى الله ورحم » . وكتب عمر بن عبد العزيز لأهل الشام : « سلام عليكم ورحمة الله ، أما بعد فإنه من أكثر ذكر الموت قل كلامه ، ومن علم أن الموت حق رغب باليسير » . ويروى أنه قال : « من عمل من غير علم كان ما يفسد أكثر ما يصلح ، ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه ، والرضا قول ، وممراً المؤمن الصبر ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم النؤمها منه فأعاضه ما انتزع منه الصبر إلا كان ما أعاضه غيراً ما انتزع منه ، ثم قرأ هذه الآية : إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . وقد أوصى أحد ولاته في كتاب له : « كن عبداً فاصعباً لله في عبادته ولا تأغلك في الله لومة لائم ، فإن الله أولى بك وحقه عليك أعظم ، فلا تولين شيئاً من أمور المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم والتوفير عليهم وأداء الأمانة فيما استرضى ، وإياك أن يكون ملك ميلاً إلى غير الحق ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ولا تذهبن عن الله مذمياً ، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه » . ولما كتب إليه الجراح بن عبد الله الحكي ، بعد أن ولاء على خراسان ، قائلاً : « قدمت خراسان ، فوجدت قوماً قد أبطرتهم الفتنة ... فليس يكتفهم إلا السيف والسيوط ، وكرهت الإقدام على ذلك إلا بإذنك » . كتب إليه عمر : يا ابن أم الجراح ! أنت أحرم على الفتنة منهم ، لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا في حق ، واحذر القصاص ، فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » . المتروك نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١٣٦٣ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠١ ، ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، ١٤٠٥ ، ١٤٠٦ ، ١٤٠٧ ، ١٤٠٨ ، ١٤٠٩ ، ١٤١٠ ، ١٤١١ ، ١٤١٢ ، ١٤١٣ ، ١٤١٤ ، ١٤١٥ ، ١٤١٦ ، ١٤١٧ ، ١٤١٨ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ ، ١٤٢٧ ، ١٤٢٨ ، ١٤٢٩ ، ١٤٣٠ ، ١٤٣١ ، ١٤٣٢ ، ١٤٣٣ ، ١٤٣٤ ، ١٤٣٥ ، ١٤٣٦ ، ١٤٣٧ ، ١٤٣٨ ، ١٤٣٩ ، ١٤٤٠ ، ١٤٤١ ، ١٤٤٢ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، ١٤٤٥ ، ١٤٤٦ ، ١٤٤٧ ، ١٤٤٨ ، ١٤٤٩ ، ١٤٥٠ ، ١٤٥١ ، ١٤٥٢ ، ١٤٥٣ ، ١٤٥٤ ، ١٤٥٥ ، ١٤٥٦ ، ١٤٥٧ ، ١٤٥٨ ، ١٤٥٩ ، ١٤٦٠ ، ١٤٦١ ، ١٤٦٢ ، ١٤٦٣ ، ١٤٦٤ ، ١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ١٤٦٧ ، ١٤٦٨ ، ١٤٦٩ ، ١٤٧٠ ، ١٤٧١ ، ١٤٧٢ ، ١٤٧٣ ، ١٤٧٤ ، ١٤٧٥ ، ١٤٧٦ ، ١٤٧٧ ، ١٤٧٨ ، ١٤٧٩ ، ١٤٨٠ ، ١٤٨١ ، ١٤٨٢ ، ١٤٨٣ ، ١٤٨٤ ، ١٤٨٥ ، ١٤٨٦ ، ١٤٨٧ ، ١٤٨٨ ، ١٤٨٩ ، ١٤٩٠ ، ١٤٩١ ، ١٤٩٢ ، ١٤٩٣ ، ١٤٩٤ ، ١٤٩٥ ، ١٤٩٦ ، ١٤٩٧ ، ١٤٩٨ ، ١٤٩٩ ، ١٥٠٠ ، ١٥٠١ ، ١٥٠٢ ، ١٥٠٣ ، ١٥٠٤ ، ١٥٠٥ ، ١٥٠٦ ، ١٥٠٧ ، ١٥٠٨ ، ١٥٠٩ ، ١٥١٠ ، ١٥١١ ، ١٥١٢ ، ١٥١٣ ، ١٥١٤ ، ١٥١٥ ، ١٥١٦ ، ١٥١٧ ، ١٥١٨ ، ١٥١٩ ، ١٥٢٠ ، ١٥٢١ ، ١٥٢٢ ، ١٥٢٣ ، ١٥٢٤ ، ١٥٢٥ ، ١٥٢٦ ، ١٥٢٧ ، ١٥٢٨ ، ١٥٢٩ ، ١٥٣٠ ، ١٥٣١ ، ١٥٣٢ ، ١٥٣٣ ، ١٥٣٤ ، ١٥٣٥ ، ١٥٣٦ ، ١٥٣٧ ، ١٥٣٨ ، ١٥٣٩ ، ١٥٤٠ ، ١٥٤١ ، ١٥٤٢ ، ١٥٤٣ ، ١٥٤٤ ، ١٥٤٥ ، ١٥٤٦ ، ١٥٤٧ ، ١٥٤٨ ، ١٥٤٩ ، ١٥٥٠ ، ١٥٥١ ، ١٥٥٢ ، ١٥٥٣ ، ١٥٥٤ ، ١٥٥٥ ، ١٥٥٦ ، ١٥٥٧ ، ١٥٥٨ ، ١٥٥٩ ، ١٥٦٠ ، ١٥٦١ ، ١٥٦٢ ، ١٥٦٣ ، ١٥٦٤ ، ١٥٦٥ ، ١٥٦٦ ، ١٥٦٧ ، ١٥٦٨ ، ١٥٦٩ ، ١٥٧٠ ، ١٥٧١ ، ١٥٧٢ ، ١٥٧٣ ، ١٥٧٤ ، ١٥٧٥ ، ١٥٧٦ ، ١٥٧٧ ، ١٥٧٨ ، ١٥٧٩ ، ١٥٨٠ ، ١٥٨١ ، ١٥٨٢ ، ١٥٨٣ ، ١٥٨٤ ، ١٥٨٥ ، ١٥٨٦ ، ١٥٨٧ ، ١٥٨٨ ، ١٥٨٩ ، ١٥٩٠ ، ١٥٩١ ، ١٥٩٢ ، ١٥٩٣ ، ١٥٩٤ ، ١٥٩٥ ، ١٥٩٦ ، ١٥٩٧ ، ١٥٩٨ ، ١٥٩٩ ، ١٦٠٠ ، ١٦٠١ ، ١٦٠٢ ، ١٦٠٣ ، ١٦٠٤ ، ١٦٠٥ ، ١٦٠٦ ، ١٦٠٧ ، ١٦٠٨ ، ١٦٠٩ ، ١٦١٠ ، ١٦١١ ، ١٦١٢ ، ١٦١٣ ، ١٦١٤ ، ١٦١٥ ، ١٦١٦ ، ١٦١٧ ، ١٦١٨ ، ١٦١٩ ، ١٦٢٠ ، ١٦٢١ ، ١٦٢٢ ، ١٦٢٣ ، ١٦٢٤ ، ١٦٢٥ ، ١٦٢٦ ، ١٦٢٧ ، ١٦٢٨ ، ١٦٢٩ ، ١٦٣٠ ، ١٦٣١ ، ١٦٣٢ ، ١٦٣٣ ، ١٦٣٤ ، ١٦٣٥ ، ١٦٣٦ ، ١٦٣٧ ، ١٦٣٨ ، ١٦٣٩ ، ١٦٤٠ ، ١٦٤١ ، ١٦٤٢ ، ١٦٤٣ ، ١٦٤٤ ، ١٦٤٥ ، ١٦٤٦ ، ١٦٤٧ ، ١٦٤٨ ، ١٦٤٩ ، ١٦٥٠ ، ١٦٥١ ، ١٦٥٢ ، ١٦٥٣ ، ١٦٥٤ ، ١٦٥٥ ، ١٦٥٦ ، ١٦٥٧ ، ١٦٥٨ ، ١٦٥٩ ، ١٦٦٠ ، ١٦٦١ ، ١٦٦٢ ، ١٦٦٣ ، ١٦٦٤ ، ١٦٦٥ ، ١٦٦٦ ، ١٦٦٧ ، ١٦٦٨ ، ١٦٦٩ ، ١٦٧٠ ، ١٦٧١ ، ١٦٧٢ ، ١٦٧٣ ، ١٦٧٤ ، ١٦٧٥ ، ١٦٧٦ ، ١٦٧٧ ، ١٦٧٨ ، ١٦٧٩ ، ١٦٨٠ ، ١٦٨١ ، ١٦٨٢ ، ١٦٨٣ ، ١٦٨٤ ، ١٦٨٥ ، ١٦٨٦ ، ١٦٨٧ ، ١٦٨٨ ، ١٦٨٩ ، ١٦٩٠ ، ١٦٩١ ، ١٦٩٢ ، ١٦٩٣ ، ١٦٩٤ ، ١٦٩٥ ، ١٦٩٦ ، ١٦٩٧ ، ١٦٩٨ ، ١٦٩٩ ، ١٧٠٠ ، ١٧٠١ ، ١٧٠٢ ، ١٧٠٣ ، ١٧٠٤ ، ١٧٠٥ ، ١٧٠٦ ، ١٧٠٧ ، ١٧٠٨ ، ١٧٠٩ ، ١٧١٠ ، ١٧١١ ، ١٧١٢ ، ١٧١٣ ، ١٧١٤ ، ١٧١٥ ، ١٧١٦ ، ١٧١٧ ، ١٧١٨ ، ١٧١٩ ، ١٧٢٠ ، ١٧٢١ ، ١٧٢٢ ، ١٧٢٣ ، ١٧٢٤ ، ١٧٢٥ ، ١٧٢٦ ، ١٧٢٧ ، ١٧٢٨ ، ١٧٢٩ ، ١٧٣٠ ، ١٧٣١ ، ١٧٣٢ ، ١٧٣٣ ، ١٧٣٤ ، ١٧٣٥ ، ١٧٣٦ ، ١٧٣٧ ، ١٧٣٨ ، ١٧٣٩ ، ١٧٤٠ ، ١٧٤١ ، ١٧٤٢ ، ١٧٤٣ ، ١٧٤٤ ، ١٧٤٥ ، ١٧٤٦ ، ١٧٤٧ ، ١٧٤٨ ، ١٧٤٩ ، ١٧٥٠ ، ١٧٥١ ، ١٧٥٢ ، ١٧٥٣ ، ١٧٥٤ ، ١٧٥٥ ، ١٧٥٦ ، ١٧٥٧ ، ١٧٥٨ ، ١٧٥٩ ، ١٧٦٠ ، ١٧٦١ ، ١٧٦٢ ، ١٧٦٣ ، ١٧٦٤ ، ١٧٦٥ ، ١٧٦٦ ، ١٧٦٧ ، ١٧٦٨ ، ١٧٦٩ ، ١٧٧٠ ، ١٧٧١ ، ١٧٧٢ ، ١٧٧٣ ، ١٧٧٤ ، ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ ، ١٧٧٨ ، ١٧٧٩ ، ١٧٨٠ ، ١٧٨١ ، ١٧٨٢ ، ١٧٨٣ ، ١٧٨٤ ، ١٧٨٥ ، ١٧٨٦ ، ١٧٨٧ ، ١٧٨٨ ، ١٧٨٩ ، ١٧٩٠ ، ١٧٩١ ، ١٧٩٢ ، ١٧٩٣ ، ١٧٩٤ ، ١٧٩٥ ، ١٧٩٦ ، ١٧٩٧ ، ١٧٩٨ ، ١٧٩٩ ، ١٨٠٠ ، ١٨٠١ ، ١٨٠٢ ، ١٨٠٣ ، ١٨٠٤ ، ١٨٠٥ ، ١٨٠٦ ، ١٨٠٧ ، ١٨٠٨ ، ١٨٠٩ ، ١٨١٠ ، ١٨١١ ، ١٨١٢ ، ١٨١٣ ، ١٨١٤ ، ١٨١٥ ، ١٨١٦ ، ١٨١٧ ، ١٨١٨ ، ١٨١٩ ، ١٨٢٠ ، ١٨٢١ ، ١٨٢٢ ، ١٨٢٣ ، ١٨٢٤ ، ١٨٢٥ ، ١٨٢٦ ، ١٨٢٧ ، ١٨٢٨ ، ١٨٢٩ ، ١٨٣٠ ، ١٨٣١ ، ١٨٣٢ ، ١٨٣٣ ، ١٨٣٤ ، ١٨٣٥ ، ١٨٣٦ ، ١٨٣٧ ، ١٨٣٨ ، ١٨٣٩ ، ١٨٤٠ ، ١٨٤١ ، ١٨٤٢ ، ١٨٤٣ ، ١٨٤٤ ، ١٨٤٥ ، ١٨٤٦ ، ١٨٤٧ ، ١٨٤٨ ، ١٨٤٩ ، ١٨٥٠ ، ١٨٥١ ، ١٨٥٢ ، ١٨٥٣ ، ١٨٥٤ ، ١٨٥٥ ، ١٨٥٦ ، ١٨٥٧ ، ١٨٥٨ ، ١٨٥٩ ، ١٨٦٠ ، ١٨٦١ ، ١٨٦٢ ، ١٨٦٣ ، ١٨٦٤ ، ١٨٦٥ ، ١٨٦٦ ، ١٨٦٧ ، ١٨٦٨ ، ١٨٦٩ ، ١٨٧٠ ، ١٨٧١ ، ١٨٧٢ ، ١٨٧٣ ، ١٨٧٤ ، ١٨٧٥ ، ١٨٧٦ ، ١٨٧٧ ، ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، ١٨٨٣ ، ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ ، ١٨٨٦ ، ١٨٨٧ ، ١٨٨٨ ، ١٨٨٩ ، ١٨٩٠ ، ١٨٩١ ، ١٨٩٢ ، ١٨٩٣ ، ١٨٩٤ ، ١٨٩٥ ، ١٨٩٦ ، ١٨٩٧ ، ١٨٩٨ ، ١٨٩٩ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠١ ، ١٩٠٢ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ ، ١٩٠٦ ، ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ ، ١٩١٠ ، ١٩١١ ، ١٩١٢ ، ١٩١٣ ، ١٩١٤ ، ١٩١٥ ، ١٩١٦ ، ١٩١٧ ، ١٩١٨ ، ١٩١٩ ، ١٩٢٠ ، ١٩٢١ ، ١٩٢٢ ، ١٩٢٣ ، ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣١ ، ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ ، ١٩٤٠ ، ١٩٤١ ، ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ ، ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧١ ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ ، ١٩٧٩ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ ، ١٩٨٦ ، ١٩٨٧ ، ١٩٨٨ ، ١٩٨٩ ، ١٩٩٠ ، ١٩٩١ ، ١٩٩٢ ، ١٩٩٣ ، ١٩٩٤ ، ١٩٩٥ ، ١٩٩٦ ، ١٩٩٧ ، ١٩٩٨ ، ١٩٩٩ ، ٢٠٠٠ ، ٢٠٠١ ، ٢٠٠٢ ، ٢٠٠٣ ، ٢٠٠٤ ، ٢٠٠٥ ، ٢٠٠٦ ، ٢٠٠٧ ، ٢٠٠٨ ، ٢٠٠٩ ، ٢٠١٠ ، ٢٠١١ ، ٢٠١٢ ، ٢٠١٣ ، ٢٠١٤ ، ٢٠١٥ ، ٢٠١٦ ، ٢٠١٧ ، ٢٠١٨ ، ٢٠١٩ ، ٢٠٢٠ ، ٢٠٢١ ، ٢٠٢٢ ، ٢٠٢٣ ، ٢٠٢٤ ، ٢٠٢٥ ، ٢٠٢٦ ، ٢٠٢٧ ، ٢٠٢٨ ، ٢٠٢٩ ، ٢٠٣٠ ، ٢٠٣١ ، ٢٠٣٢ ، ٢٠٣٣ ، ٢٠٣٤ ، ٢٠٣٥ ، ٢٠٣٦ ، ٢٠٣٧ ، ٢٠٣٨ ، ٢٠٣٩ ، ٢٠٤٠ ، ٢٠٤١ ، ٢٠٤٢ ، ٢٠٤٣ ، ٢٠٤٤ ، ٢٠٤٥ ، ٢٠٤٦ ، ٢٠٤٧ ، ٢٠٤٨ ، ٢٠٤٩ ، ٢٠٥٠ ، ٢٠٥١ ، ٢٠٥٢ ، ٢٠٥٣ ، ٢٠٥٤ ، ٢٠٥٥ ، ٢٠٥٦ ، ٢٠٥٧ ، ٢٠٥٨ ، ٢٠٥٩ ، ٢٠٦٠ ، ٢٠٦١ ، ٢٠٦٢ ، ٢٠٦٣ ، ٢٠٦٤ ، ٢٠٦٥ ، ٢٠٦٦ ، ٢٠٦٧ ، ٢٠٦٨ ، ٢٠٦٩ ، ٢٠٧٠ ، ٢٠٧١ ، ٢٠٧٢ ، ٢٠٧٣ ، ٢٠٧٤ ، ٢٠٧٥ ، ٢٠٧٦ ، ٢٠٧٧ ، ٢٠٧٨ ، ٢٠٧٩ ، ٢٠٨٠ ، ٢٠٨١ ، ٢٠٨٢ ، ٢٠٨٣ ، ٢٠٨٤ ، ٢٠٨٥ ، ٢٠٨٦ ، ٢٠٨٧ ، ٢٠٨٨ ، ٢٠٨٩ ، ٢٠٩٠ ، ٢٠٩١ ، ٢٠٩٢ ، ٢٠٩٣ ، ٢٠٩٤ ، ٢٠٩٥ ، ٢٠٩٦ ، ٢٠٩٧ ، ٢٠٩٨ ، ٢٠٩٩ ، ٢١٠٠ ، ٢١٠١ ، ٢١٠٢ ، ٢١٠٣ ، ٢١٠٤ ، ٢١٠٥ ، ٢١٠٦ ، ٢١٠٧ ، ٢١٠٨ ، ٢١٠٩ ، ٢١١٠ ، ٢١١١ ، ٢١١٢ ، ٢١١٣ ، ٢١١٤ ، ٢١١٥ ، ٢١١٦ ، ٢١١٧ ، ٢١١٨ ، ٢١١٩ ، ٢١٢٠ ، ٢١٢١ ، ٢١٢٢ ، ٢١٢٣ ، ٢١٢٤ ، ٢١٢٥ ، ٢١٢٦ ، ٢١٢٧ ، ٢١٢٨ ، ٢١٢٩ ، ٢١٣٠ ، ٢١٣١ ، ٢١٣٢ ، ٢١٣٣ ، ٢١٣٤ ، ٢١٣٥ ، ٢١٣٦ ، ٢١٣٧ ، ٢١٣٨ ، ٢١٣٩ ، ٢١٤٠ ، ٢١٤١ ، ٢١٤٢ ، ٢١٤٣ ، ٢١٤٤ ، ٢١٤٥ ، ٢١٤٦ ، ٢١٤٧ ، ٢١٤٨ ، ٢١٤٩ ، ٢١٥٠ ، ٢١٥١ ، ٢١٥٢ ، ٢١٥٣ ، ٢١٥٤ ، ٢١٥٥ ، ٢١٥٦ ، ٢١٥٧ ، ٢١٥٨ ، ٢١٥٩ ، ٢١٦٠ ، ٢١٦١ ، ٢١٦٢ ، ٢١٦٣ ، ٢١٦٤ ، ٢١٦٥ ، ٢١٦٦ ، ٢١٦٧ ، ٢١٦٨ ، ٢١٦٩ ، ٢١٧٠ ، ٢١٧١ ، ٢١٧٢ ، ٢١٧٣ ، ٢١٧٤ ، ٢١٧٥ ، ٢١٧٦ ، ٢١٧٧ ، ٢١٧٨ ، ٢١٧٩ ، ٢١٨٠ ، ٢١٨١ ، ٢١٨٢ ، ٢١٨٣ ، ٢١٨٤ ، ٢١٨٥ ، ٢١٨٦ ، ٢١٨٧ ، ٢١٨٨ ، ٢١٨٩ ، ٢١٩٠ ، ٢١٩١ ، ٢١٩٢ ، ٢١٩٣ ، ٢١٩٤ ، ٢١٩٥ ، ٢١٩٦ ، ٢١٩٧ ، ٢١٩٨ ، ٢١٩٩ ، ٢٢٠٠ ، ٢٢٠١ ، ٢٢٠٢ ، ٢٢٠٣ ، ٢٢٠٤ ، ٢٢٠٥ ، ٢٢٠٦ ، ٢٢٠٧ ، ٢٢٠٨ ، ٢٢٠٩ ، ٢٢١٠ ، ٢٢١١ ، ٢٢١٢ ، ٢٢١٣ ، ٢٢١٤ ، ٢٢١٥ ، ٢٢١٦ ، ٢٢١٧ ، ٢٢١٨ ، ٢٢١٩ ، ٢٢٢٠ ، ٢٢٢١ ، ٢٢٢٢ ، ٢٢٢٣ ، ٢٢٢٤ ، ٢٢٢٥ ، ٢٢٢٦ ، ٢٢٢٧ ، ٢٢٢٨ ، ٢٢٢٩ ، ٢٢٣٠ ، ٢٢٣١ ، ٢٢٣٢ ، ٢٢٣٣ ، ٢٢٣٤ ، ٢٢٣٥ ، ٢٢٣٦ ، ٢٢٣٧ ، ٢٢٣٨ ، ٢٢٣٩ ، ٢٢٤٠ ، ٢٢٤١ ، ٢٢٤٢ ، ٢٢٤٣ ، ٢٢٤٤ ، ٢٢٤٥ ، ٢٢٤٦ ، ٢٢٤٧ ، ٢٢٤٨ ، ٢٢٤٩ ، ٢٢٥٠ ، ٢٢٥١ ، ٢٢٥٢ ، ٢٢٥٣ ، ٢٢٥٤ ، ٢٢٥٥ ، ٢٢٥٦ ، ٢٢٥٧ ، ٢٢٥٨ ، ٢٢٥٩ ، ٢٢٦٠ ، ٢٢٦١ ، ٢٢٦٢ ، ٢٢٦٣ ، ٢٢٦٤ ، ٢٢٦٥ ، ٢٢٦٦ ، ٢٢٦٧ ، ٢٢٦٨ ، ٢٢٦٩ ، ٢٢٧٠ ، ٢٢٧١ ، ٢٢٧٢ ، ٢٢٧٣ ، ٢٢٧٤ ، ٢٢٧٥ ، ٢٢٧٦ ، ٢٢٧٧ ، ٢٢٧٨ ، ٢٢٧٩ ، ٢٢٨٠ ، ٢٢٨١ ، ٢٢٨٢ ، ٢٢٨٣ ، ٢٢٨٤ ، ٢٢٨٥ ، ٢٢٨٦ ، ٢٢٨٧ ، ٢٢٨٨ ، ٢٢٨٩ ، ٢٢٩٠ ، ٢٢٩١ ، ٢٢٩٢ ، ٢٢٩٣ ، ٢٢٩٤ ، ٢٢٩٥ ، ٢٢٩٦ ، ٢٢٩٧ ، ٢٢٩٨ ، ٢٢٩٩ ، ٢٣٠٠ ، ٢٣٠١ ، ٢٣٠٢ ، ٢٣٠٣ ، ٢٣٠٤ ، ٢٣٠٥ ، ٢٣٠٦ ، ٢٣٠٧ ، ٢٣٠٨ ، ٢٣٠٩ ، ٢٣١٠ ، ٢٣١١ ، ٢٣١٢ ، ٢٣١٣ ، ٢٣١٤ ، ٢٣١٥ ، ٢٣١٦ ، ٢٣١٧ ، ٢٣١٨ ، ٢٣١٩ ، ٢٣٢٠ ، ٢٣٢١ ، ٢٣٢٢ ، ٢٣٢٣ ، ٢٣٢٤ ، ٢٣٢٥ ، ٢٣٢٦ ، ٢٣٢٧ ، ٢٣٢٨ ، ٢٣٢٩ ، ٢٣٣٠ ، ٢٣٣١ ، ٢٣٣٢ ، ٢٣٣٣ ، ٢٣٣٤ ، ٢٣٣٥ ، ٢٣٣٦ ، ٢٣٣٧ ، ٢٣٣٨ ، ٢٣٣٩ ، ٢٣٤٠ ، ٢٣٤١ ، ٢٣٤٢ ، ٢٣٤٣ ، ٢٣٤٤ ، ٢٣٤٥ ، ٢٣٤٦ ، ٢٣٤٧ ، ٢٣٤٨ ، ٢٣٤٩ ، ٢٣٥٠ ، ٢٣٥١ ، ٢٣٥٢ ، ٢٣٥٣ ، ٢٣٥٤ ، ٢٣٥٥ ، ٢٣٥٦ ، ٢٣٥٧ ، ٢٣٥٨ ، ٢٣٥٩ ، ٢٣٦٠ ، ٢٣٦١ ، ٢٣٦٢ ، ٢٣٦٣ ، ٢٣٦٤ ، ٢٣٦٥ ، ٢٣٦٦ ، ٢٣٦٧ ، ٢٣٦٨ ، ٢٣٦٩ ، ٢٣٧٠ ، ٢٣٧١ ، ٢٣٧٢ ، ٢٣٧٣ ، ٢٣٧٤ ، ٢٣٧٥ ، ٢٣٧٦ ، ٢٣٧٧ ، ٢٣٧٨ ، ٢٣٧٩ ، ٢٣٨٠ ، ٢٣٨١ ، ٢٣٨٢ ، ٢٣٨٣ ، ٢٣٨٤ ، ٢٣٨٥ ، ٢٣٨٦ ، ٢٣٨٧ ، ٢٣٨٨ ، ٢٣٨٩ ، ٢٣٩٠ ، ٢٣٩١ ، ٢٣٩٢ ، ٢٣٩٣ ، ٢٣٩٤ ، ٢٣٩٥ ، ٢٣٩٦ ، ٢٣٩٧ ، ٢٣٩٨ ، ٢٣٩٩ ، ٢٤٠٠ ، ٢٤٠١ ، ٢٤٠٢ ، ٢٤٠٣ ، ٢٤٠٤ ، ٢٤٠٥ ، ٢٤٠٦ ، ٢٤٠٧ ، ٢٤٠٨ ، ٢٤٠٩ ، ٢٤١٠ ، ٢٤١١ ، ٢٤١٢ ، ٢٤١٣ ، ٢٤١٤ ، ٢٤١٥ ، ٢٤١٦ ، ٢٤١٧ ، ٢٤١٨ ، ٢٤١٩ ، ٢٤٢٠ ، ٢٤٢١ ، ٢٤٢٢ ، ٢٤٢٣ ، ٢٤٢٤ ، ٢٤٢٥ ، ٢٤٢٦ ، ٢٤٢٧ ، ٢٤٢٨ ، ٢٤٢٩ ، ٢٤٣٠ ، ٢٤٣١ ، ٢٤٣٢ ، ٢٤٣٣ ، ٢٤٣٤ ، ٢٤٣٥ ، ٢٤٣٦ ، ٢٤٣٧ ، ٢٤٣٨ ، ٢٤٣٩ ، ٢٤٤٠ ، ٢٤٤١ ، ٢٤٤٢ ، ٢٤٤٣ ، ٢٤٤٤ ، ٢٤٤٥ ، ٢٤٤٦ ، ٢٤٤٧ ، ٢٤٤٨ ، ٢٤٤٩ ، ٢٤٥٠ ، ٢٤٥١ ، ٢٤٥٢ ، ٢٤٥٣ ، ٢٤٥٤ ، ٢٤٥٥ ، ٢٤٥٦ ، ٢٤٥٧ ، ٢٤٥٨ ، ٢٤٥٩ ، ٢٤٦٠ ، ٢٤٦١ ، ٢٤٦٢ ، ٢٤٦٣ ، ٢٤٦٤ ، ٢٤٦٥ ، ٢٤٦٦ ، ٢٤٦٧ ، ٢٤٦٨ ، ٢٤٦٩ ، ٢٤٧٠ ، ٢٤٧١ ، ٢٤٧٢ ، ٢٤٧٣ ، ٢٤٧٤ ، ٢٤٧٥ ، ٢٤٧٦ ، ٢٤٧٧ ، ٢٤٧٨ ، ٢٤٧٩ ، ٢٤٨٠ ، ٢٤٨١ ، ٢٤٨٢ ، ٢٤٨٣ ، ٢٤٨٤ ، ٢٤٨٥ ، ٢٤٨٦ ، ٢٤٨٧ ، ٢٤٨٨ ، ٢٤٨٩ ، ٢٤٩٠ ، ٢٤٩١ ، ٢٤٩٢ ، ٢٤٩٣ ، ٢٤٩٤ ، ٢٤٩٥ ، ٢٤٩٦ ، ٢٤٩٧ ، ٢٤٩٨ ، ٢٤٩٩ ، ٢٥٠٠ ، ٢٥٠١ ، ٢٥٠٢ ، ٢٥٠٣ ، ٢٥٠٤ ، ٢٥٠٥ ، ٢٥٠٦ ، ٢٥٠٧ ، ٢٥٠٨ ، ٢٥٠٩ ، ٢٥١٠ ، ٢٥١١ ، ٢٥١٢ ، ٢٥١٣ ، ٢٥١٤ ، ٢٥١٥ ، ٢٥١٦ ، ٢٥١٧ ، ٢٥١٨ ، ٢٥١٩ ، ٢٥٢٠ ، ٢٥٢

في سبيل الله ، بل من أجل الغنائم . على أنه ليس من المحقق على كل حال أنه هو الذي أرجع الجيش الإسلامي من القسطنطينية^(١) : وهو لم يستطع أيضاً ، من حيث المبدأ ، أن ينهي الجهاد مع قيصر الروم ؛ ولكنه ترك المراكز الأمامية وجمع جنود الغزو فيها دونها : وربما كان يرضى عن الانسحاب من بلاد ما وراء النهر ، لولا أن الإسلام كان قد رسخت قدمه في بعض مدنها . ولكنه قد منع على الأقل توسيع الحدود هناك^(٢) ، وكان جل اهتمامه متجهاً إلى السياسة الداخلية ، وهنا نجد أنه قد حصل في عهده تحول ذو طابع مغاير للتحول الذي كان بين عهد الوليد وعهد سليمان وأكبر منه شأنًا بكثير .

وقد شغل عمر أهم المناصب الكبرى بهمال جدد ، فحبس يزيد بن المهلب - وكان عمر يفضيه^(٣) - حبس دفين حتى يقضى ما عليه ، وذلك أن يزيد لم يستطع دفع الخمس من غنائم أقاليم بحر الخزر^(٤) ، وكان قد بالغ في قيمتها على سبيل الافتخار وتسميع الناس . ووجه عمر إلى خراسان الجراح بن عبد الله الحنكي ، وإلى البصرة هدي بن أرطاة الفزارى ، وإلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي الذي ينتسب إلى عمر بن الخطاب ، وإلى العراق عمر بن هبيرة الفزارى ،

(١) [جاء في الطبرى ج ٢ ص ١٣٤٦ أن عمر بن عبد العزيز في سنة ٩٩ هـ كتب إلى مسلمة بن عبد الملك ، وهو بأرض الروم ، وأمره بالقول منها بمن معه من المسلمين - المترجم] .
(٢) وفي عهد عمر بن عبد العزيز فتحت مدينة طبرقة بفرنسا وصنت . فتحها المسلمون من قواعدهم في إسبانيا .

(٣) [كان يزيد بن المهلب يفضى عمر بن عبد العزيز ويقول عنه : « إلى لأظنه مرانياً » ، فلما ولي عمر الخلافة عرف ابن المهلب أنه كان بعيداً من الرياء . وكان عمر يفضى يزيد بن المهلب وأهل بيته ويقول : « هؤلاء سبابرة ، ولا أحب مثلهم » . وقد تبين لابن المهلب أن عمر لم يكن يظهر التقى رياء ، لأنه استدعاء وحاسبه - المترجم نقلاً عن الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٠] .
(٤) [يقول المؤلف : غنائم الخزر ، والمقصود هو غنائم جرجان وطبرستان ، كما تقدم كلام المؤلف - وفيما يتعلق بحسابة عمر بن عبد العزيز ليزيد بن المهلب على ما كان قد كتب به إلى سليمان من خمس الغنائم ليراجع القارئ كتاب الطبرى (ج ٢ ص ١٣٥٠ - ١٣٥٢ ، ١٣٥٩ - ١٣٦٢) - المترجم] .

وإلى الهند عمرو بن مسلم أخا قتيبة بن مسلم . وكان الجراح (الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٤) وعمراً من مدرسة الحجاج ، وكان عدى وابن هبيرة من قبيلة قيس . ولكن عمر لم يعين هؤلاء الرجال على سبيل الانصراف عن الجانب الذى كان ينحاز إليه سلفه ، وعلى سبيل الإيثار لقيس أو للحجاج ، بل لأنهم كانوا رجالاً أكفأ أمناء (الطبرى ج ٢ ص ١٣٨٣ من ٣) . وعين على الأندلس السمع بن مالك الخولاني ، أحد اليمنيين ، وعلى إفريقية إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، لأنه كان يعلم من أمر هذين الرجلين أنهما خير متحيزين لفريق دون فريق ، وأن لما قلباً يعطف على المظلومين . على أن عمر بن عبد العزيز لم يكن يكتفى باختيار رجال يظهر أنهم على شاكلته ، ثم يتركهم بعد ذلك يفعلون ما يشاؤون ، ما داموا يحملون إليه ما يلزم أن يحملوه من أموال ، بل كان يشعر أنه مشغول هو نفسه عما يجرى في جميع البلاد ، ولم يكن همه الزيادة في قوة الدولة ، بل إقامة الحق والعدل فيها ، وعلى يديه صار للفقهاء وأهل العلم كلمة مسموعة (١) ، بعد أن كانوا حتى ذلك الحين أشبه بحزب ذى كيان شرعى مستقل عن الحكومة ومناوئ لها بعض الشيء . ويظهر من هذا الوجه أيضاً أن منصب القاضى قد أصبح على عهد عمر أكثر استقلالاً وأكبر شأنًا مما كان ، فقد جاء في كتاب كتبه عمر إلى حبة ابن زرعة في خراسان : إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها . فالوالى ركن ، والقاضى ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والركن الرابع أنا - يعنى الخليفة (٢) . وكان الحسن المشهور (٣) في عهد عمر بن عبد العزيز قاضياً على

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١١٨٢ - ١١٨٣ - حيث يروى أن عمر بن عبد العزيز بدأ ولايته بالمدينة سنة ٨٧ هـ . باستدعاء الفقهاء وقوله لم إنه لا يريد أن يقطع أمراً إلا برأيهم ، وطلبه منهم أن يدلوه على ما يرون من ظلم ، وفى هذا دليل على روحه بوجه عام - المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٣٦٦ - المترجم] .

(٣) [المقصود بطبيعة الحال هو الحسن البصرى - المترجم] .

البصرة ، وعامر الشعبي قاضياً على الكوفة . وقد أرسل عمر مع عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي أمير الكوفة أبا الزناد الفقيه ليكون كاتباً عنده ، وكانت إدارة الأمصار في الدولة الإسلامية تتلخص في تنظيم الناحية المالية فيها ، وكان إصلاح هذه الناحية أول ما اتجهت إليه همة عمر بن عبد العزيز ، ولكن ليس السهل أن نلین بوضوح نوع إصلاحاته في ميدان نظام الخراج ، والآراء التي جاء بها في هذا الشأن الفريد فون كريمر (Alfred von kremer) وتابعه فيها أوجست مولر (A. Müller) مشوبة بأخطاء حقيقية .

يرى فون كريمر ومولر أن الذي دعا عمر بن عبد العزيز إلى إصلاحاته في نظام الخراج إنما هو القصد إلى العودة إلى النظام القديم (١) ، وأن عمر بن الخطاب

(١) كان ذهن عمر بن عبد العزيز يحكم سلطان الدين عليه بعداً من كل إدراك لما تقتضيه الحكمة السياسية . وإنه وإن كان لا يمكن النزاع في أن بعض ما وضعه من نظم قد أدى إلى تقوية روح الإسلام في ذاته تقوية كبيرة ، فإن كل ما فعله يكاد يكون قد ساعد في الجملة على إفساد نظام الدولة من أساسه ، بعد أن كانت قد أصبحت دولة دنيوية . والرومان ، وهم أكمل الشعوب التي عرفها التاريخ في مسائل السياسة الكبيرة ، إنما قرروا المبدأ الذي قرره عمر بن عبد العزيز فقد انصرف عن الأصول الممتشية مع الواقع والتي وضعها خلفاء الأمويين بعد عصر معارفة ، وأراد أن يستعير منها بضع مبادئ مثالية استلهاها من القرآن والحديث ، حتى ولو كان هذا العمل الخلق بالثناء لا يمكن تنفيذه إلا على أساس علم غير كامل بالظروف الواقعة لا ولكن عمر بن عبد العزيز ، وهو الخليفة الورع ، كان متأثراً بمبادئ حاشيته الدينية إلى حد أنه لم يهتم حتى بمحاولة اصطلاح شيء من العقل عند تطبيق ما في القرآن من مبادئ كبرى على أحوال هذه الدنيا الناقصة ، وكان تفكيره الساذج يقول له إن الله يريد كذا وكذا ، وإنه إذا كان الله يريد ذلك فن الممكن تنفيذه . أما كيف يريد الله من الخليفة أن يحكم فيرى عمر أن الله قد أظهر ذلك للمؤمنين حساً ملموساً بأن أخضع لسلطان الإسلام على يدى عبده أبي بكر . وعمر متمدن العرب أولاً ، ثم فارس كلها والشام ومصر ، وعلى هذا فلم يكن المثل الأعلى لعمر بن عبد العزيز سوى صورة حرفية للتنظيم الذي وضعه للدولة عمر بن الخطاب وغيره في أهم نواحيه خسفت له صورة تغيير لا يمت إلى الدين بسبب . وإذا عرفنا كيف أن هذه التغييرات لم تقض بضرورتها الأهواء الشخصية بل دعت إليها شدة وطأة الوقائع القاسية ، فإنه يصبح من المفهوم بنفسه أن يكون الرجوع إلى تطبيق الأصول القديمة في تدبير أمور الدولة التي نظمها عبد الملك والحجاج بمثابة ما تقع على العين ضربة بجمع اليد . ولكن ثقة عمر بن عبد العزيز ، ذلك الخليفة الجدير بالإعجاب ، بما فيها من روع مؤثر ، لم يكن ينيرها ولو قيس من تلك المعرفة .

كان مثاله أراد أن يتبعه وأن يرجع إلى ما كان قد وضعه من نظم ، كما أراد أن يزيل ضروب الفساد التي استحدثتها خلفاء بني أمية وعملهم حتى ذلك الحين ! وهنا يقوم سؤال مبدئي عن طبيعة المثال الذي أراد عمر بن عبد العزيز أن يحتذيه ،

= فلم يلبث بعد توليه عرش الخلافة أن أمر بإلغاء القانون الذي وضعه الحجاج والذي كان يقضي بأن يدفع من يدخل في الإسلام من أهل اللغة الجزية التي كانوا يدفعونها من قبل ، وذلك ثلاثاً لتقص فيما يدخل إلى بيت المال . ولما كان من شأن هذا الإجراء أن يجعل الدخول في الإسلام مذهباً لجميع المسلمين من جديد ، فإن الخليفة الورع - وكان قد نظم في الوقت نفسه دعوة حارة للشعر الإسلام في جميع الأمصار - قد قررت عينه بأن يرى جسافل المؤمنين في المشرق والمغرب قد زادت ملايين في وقت قصير . وحتى لو كان دخولهم اتفاقاً في بدايته لماله يجب أن لا نلح أن للشريعة الإسلامية كانت من أول الأمر تقضي بالموت على من يرتد عنها ، وعلى هذا كان ارتداد من أسلم مستحيلاً ، وبعد ذلك سيكون معظم الخليل الثاني على الأقل مؤلفاً من مسلمين صادقين ، لذلك فإن أغلبية المؤمنين بالله بالنسبة لغيرهم قد زادت في الحقيقة بفضل هذا الأمر الذي أصدره عمر زيادة كبيرة ، ولكن أسباب الخزانة من جراءه نقص كبير ، ثم جاء أمر أن ليعمر فراد في هذا النقص زيادة أدخلت بالتوازن في مال الدولة إخلالاً كبيراً . على أنه كان من الواضح لغير نفسه أن العودة إلى تطبيق القانون القديم الذي يحرم امتلاك الأرض على المسلمين لا يمكن أن تكون في صورة مطالبة كل من ملكوا أرضاً في الأمصار خلال أكثر من سبعين سنة غلت بأن ينزلوا عنها ، وكان هذا مستحيلاً من الناحية العملية لأسباب كثيرة ، فتركته هذه للتجربة على الأقل بسبب خطورتها التي لا حد لها . ولكن هل حين أن كل فرد للأرض قد صار محرماً على المسلمين بعد ستة مائة للهجرة ، فإن عمر بن عبد العزيز أراد أن يفرق بين المسلمين وأهل اللغة تمسكاً منه بأصول الدين . فألقى الخراج عن أراضي المسلمين التي كانوا قد تملكوها مخاللين للنهي عن ذلك ، وجعلها أرض عشر ، فصار ما يؤخذ عنها أقل مما كان يؤخذ بحراجها بكثير ، فأدى ذلك من جديد بطبيعة الحال إلى نقص كبير في دخل الدولة ، وكان أيضاً لإجراء غير موفق من الناحية العملية ، لأن هذه المحافظة للملك ، إذا قورنوا بمن لم يكن قد ملك أرضاً من قبل ولا يستطيع أن يملك أرضاً من بعد ، بدت في صورة ميزة بنفيسة . وإذا كان للذين لم يملكوا أرضاً قد عرضوا من طريق التقدمة لنظام الأعطيات السنوية ، فإن ذلك لم يأت شافياً قديماً ، لأن هذه الأعطيات لم تكن عالية بدرجة كافية ، وإن كانت بالنظر إلى الزيادة الكبيرة في عدد الداخلين في الإسلام قد كلفت الدولة مبالغ لا تصحور . وإلى جانب كل هذه الإجراءات التي أشرت إليها المال أكبر الضرر بها أمر آخر أصدره عمر ، وقد أوحى به إليه إحساس إنساني بالعدالة ، ولكنه لم يكن موفقاً من الناحية العملية ، وهو يقضي برد جميع الأموال التي ابتزت من الأرحاء ظلماً إلى أصحابها ، ولا نعرف إن كان هذا قد وقع مقصوداً على أحوال فردية . ولكن أكثر المال خيانة ما كان يستطيع أن يعنى فرصة أكثر موثاقه من هذه الفرصة لانتهاج الخزانة من غير أن يناله عقاب . هذا ما يقوله A. Müller في كتابه Geschichte des Islams im Morgen und = Abendlande تاريخ الإسلام في =

وفي هذا الشأن يدخل الاعتبار لإجراء ما ينسب إلى عمر الأول : فبروى أنه منع العرب من أن يقتنوا أرضاً في البلاد التي فتحوها ، وأنه أمر بأنه عند دخول المغلوبين من غير العرب في الإسلام لا ترفع عنهم إلا الجزية ، أما الخراج فيبقى عليهم لأنه يتعلق بالأرض لا بصاحبها ، والحقيقة أن عمر لم يفعل هذا ولا ذاك ،

وبحسب حكم الله وحكم العدل ، كان يجب تقسيم جميع الأرض المفتوحة على العرب المخابرين ، لأنها كانت ، بحسب قانون الغنائم ، ملكاً لهم . ولكنها ، لأسباب عملية ، بقيت دون تقسيم وصارت إما أرض بيت المال ، وإما أرض عامة المسلمين . وكان نصيب بيت المال أو نصيب الخليفة تلك الأراضي التي رحل عنها ملاكها السابقون ، أو الأرض التي كانت للملوك والأشراف وأخذت من غير قتال ، أو الأرض التي ليست ملكاً لأحد مثل مواضع البريد وبيوت النار . وهذه « الصوائف » كانت كثيرة ، خصوصاً في أهم ولاية كان ينظر إليها بالنسبة لبيت المال ، أي أرض السواد^(١) بالعراق . أما ما أخذته جيوش العرب عنوة ،

— المشرق والمغرب ، الجزء الأول ج ١ ص ٤٣٩ ، فابعدا ، نقلنا فيه تصرف من كتاب فون كريمر المسمى تاريخ حضارة المشرق ج ١ ص ١٧٤ فابعدا (A. von Kremer, Culturgeschichte des Orients)

(١) « طول أرض السواد مائة وستون فرسخاً وعرضها ثمانون ، وطول أرض العراق مائة وخمسة وعشرون فرسخاً ، وعرضها مثل عرض أرض السواد ، فيكون طول أرض العراق أقل من طول أرض السواد بـ ٣٥ فرسخاً ، يكون ذلك مكسراً عشرة آلاف فرسخ ، وطول للفرسخ ألف ذراع بالذراع المرسل ، ويكون بلراح المساحة ، وهي الذراع الهاشمية ، تسعة آلاف ذراع ، فيكون ذلك إذا ضرب في مثله ، وهو تكبير فرسخ في فرسخ ، اثنين وعشرين ألف جريب وخمسمائة جريب . فإذا ضرب ذلك في عدد الفراسخ وهي عشرة آلاف فرسخ باع مائتي ألف ألف وخمسة وعشرين ألف ألف جريب يسقط منها بالتخمين مواضع التلال والآكام والسيابح والأجام ومداس الطرق والملاجع ونجارى الأنهار وهواض المدن والقرى ومواضع الأرحاء والبريدات والقناطر والشاردوفات والبنادر ومطارج القصب وأتانيب الأجر وغير ذلك ، البتلك ، وهو خمسة وسبعون ألف ألف جريب ، يصير الباقي من مساحة العراق مائة ألف ألف وخمسين ألف ألف جريب ، يراد منها النصف ويكون النصف موزوعاً ، مع ما في البسيع من النخل والكرم والأشجار ، فإذا أضيف إلى ما ذكره قدامة في مساحة العراق ما زاد عليها من بقية السواد ، وهو خمسة وثلاثون فرسخاً ، كانت الزيادة على تلك المساحة قدر ربعها ، فيصير ذلك —

فكان يُعتبر ملكاً لعامة المسلمين ، وقد ترك في يد المغلوبين ووضع عليه الخراج ، وكان الواجب أن يُقسَّم الخراج في كل عام على الملاك الشرعيين للأرض ، باعتبار أنه غلة لهم . ولكن الدولة وضعت يدها عليه وصارت تدفع للمقاتلة المسلمين أعطيات تحددها على هواها ، وبذلك انطمس الفرق بين أرض الخراج وأرض الصوفاي ، وكان ما يُحتمل منهما جميعاً من غلة يجرى إلى بيت مال الدولة . وقد تم هذا التطور في فترة الفتوحات الكبرى ، وأشرف عليه عمر بن الخطاب وجعله وضعاً قانونياً في آخر الأمر . ولكن عمر بن الخطاب لم يذهب ، فيما يتعلق بأرض الخراج ، إلى حد منع الملكية الخاصة للأرض ، بالمعنى الحقيقي لهذه الملكية ، منعاً باتاً ، أما التحريم للملكية الأرض على العرب في الأمصار محرماتاً شاملاً فلم يوجد قط (١) . وقد جرى خلفاء النبي من بعده ، دون استثناء أنى بكر وعمر ، على ما كان قد جرى عليه النبي نفسه من تصرف حر في الصوفاي أو ممتلكات الدولة ، فكانوا يهبون أجزاء منها لأهل النباهة والفضل ، لا على أنها بمثابة حارية تبقى ملكاً للدولة ، بل بمثابة هبات تصير ملكاً خاصاً ، وهذه هي القطائع . وكان من أثر ذلك أن نال كل من على وطلحة والزبير ثروة كبيرة (٢) . وفوق هذا صار مقاتلة العرب في الأمصار أصحاب أرض بطبيعة الحال ، ولم تقتصر ملكيتهم على الدار وما إليها ، بل كانت لهم ضياع أيضاً في القرى المحيطة بهم : وكان أول ما اتجه إليه

= مساحة جميع ما يصلح للزراعة والفرس من أرض السواد . هذا ما يقوله قدامة كما ذكره الماوردي في الأحكام السلطانية ص ٣٠١ من طبعة إيجر ، وقد بين هــ مان فاجنر Hermann Wagner في Göttinger Nachrichten ، ١٩٠٢ ص ٢٢٤ ما بعدها أن تقدير المساحة خطأ ، وأنه أكثر مما هي عليه [ذكر المؤلف النص غير كامل ، والذي نقله ليس مساحة السواد بل مساحة العراق ، ولذلك ذكرنا النص أطول مما ذكره من أوله ومن آخره - راجع كتاب الأحكام السلطانية ص ٩٩ - ٣٠٢ . وفي كتاب المسالك والممالك لابن خردادبه ص ١٤ من طبعة ليدن أن طول السواد ٢٢٥ فرسخاً وعرضه ٨٥ فرسخاً ، ويظهر أن ثم خطأ بين تقدير مساحة أرض للعراق وأرض السواد - المترجم] .

(١) قارن في هذا Juynboll im Indischen Oids ، فبراير ١٨٩٩ .

(٢) كتاب الخراج ليعقوب بن آدم ص ٤٢ ، ٥٦ ما بعدها و ٦١ و ٦٧ .

تفكيرهم في أثناء خلافة عمر بن الخطاب هو القتال والغنيمة ، ولكن تفكيرهم
تغير في غضون ما جاء بعد ذلك من سنين أكثر هدوءاً . وكان الميل إلى
امتلاك الأرض قد ظهر عند العرب منذ العصر الجاهلي ، ولم يجرى الإسلام ،
ولا محمد عليه السلام ، مانعاً من ذلك ، بل جاء على العكس مقوياً له .
ولا شك في أن الميل إلى التملك كان أحد العوامل في حروب الفتوحات ،
والقانون القديم الذي كان يقضى بأن تكون الأرض غير المملوكة ملكاً
شخصياً لمن يستصلحها كان موجوداً ، لا في جزيرة العرب وحدها ، بل في
الأمصار أيضاً ، وقد استُغِيلَ هناك استغلالاً واسعاً . ولم تقتصر الرغبة في
تملك الأرض على أرض الفلاحين المغلوبين التي وُضِعَ عليها الخراج ، بل
كانت هذه الأرض تنتقل إلى أيدي السادة من العرب في صور شتى ، من
طريق الشراء أو ما هو شر منه . أما القول بأن العرب قد منعهم التشريع
منذ بادئ الأمر من امتلاك الأرض فلا يوجد عليه دليل قط ، ولم يكن
هناك ما يدعوه عمر بن الخطاب إلى معارضة شيء لا يكاد يكون في عهده قد
بدأ ، ولم يكن على أي حال قد أدى بعد إلى نتائج ضارة .

وكذلك لم يكن عمر بن الخطاب هو الذي وضع قاعدة أن الخراج إنما يتعلق
بالأرض لا بصاحبها ، سواء أكانت ملكاً لمسلم أو لغير مسلم ، وأن الدخول في
الإسلام لا يعني الدخول فيه إلا من الجزية ، لأن هذه الجزية تلج الطبقة
الاجتماعية ، وهي علامة تميز المغلوبين في مقابل المسلمين ، وكان كل من الخراج
والجزية ، في أول الأمر ، يعتبر خراجاً على حد سواء ، لافرق بينهما في ذلك ،
وهو خراج يدفعه الخدم إلى أعضاء الحكومة البيروقراطية ، أو أبناء الدولة (لنجبل
مقي ١٧ - ٢٥)^(١) ، وكان هؤلاء لا يدفعون ضريبة لآخر أشخاص ولا عن

(١) [تعبير المؤلف من حقيقة الجزية أو الخراج غير دقيق فيما يتعلق بالإسلام ، فالجزية
قدية أو ضريبة يدفعها غير المسلم في مقابل تمتعه بحقوق المواطن في الدولة الإسلامية وفي مقابل
حمايتها له ، وهي لذلك لم تكن تؤخذ إلا من القادر على الحرب من شأنه أن يقوم بواجب -

أرض مزارعهم ، بل إنما كانوا يدفعون عشر ما تُغِلُّه الأرض ، ولم يَكُونُوا يعطونه للناس بل يعطونه لله ، وكانت الفكرة القائلة بأنه إنما يشين المسلم أن يدفع جزية عن نفسه ، فأما إن أُلْزِمَ بدفع الخراج عن الأرض التي يملكها فلا يشينه ذلك ، فكرة بعيدة عن الأذهان : وفي الاستعمال اللغوي القديم لا توجد تفرقة ما بين الخراج والجزية ؛ فهما يدلان على شيء واحد ، هو الإتاوة التي يدفعها غير المسلم . وفي كثير من الأحيان نجد ذكر عبارة « جزية الأرض » ، وليس ورود عبارة « خراج الشخص » أقل من ذلك (١) ، أما بحسب أى تسمية كان يجب على الأفراد الذين يلزمهم الخراج أن يؤدوا ما عليهم فكان وقعته على العرب قليلا ، وخاصة عندما يفرض الخراج مبلغا إجماليا ذا مقدار ثابت على الجماعة متضامنة فيما بينها ، ويظهر أن هذا كان في أول الأمر هو القاعدة العامة ، ولم يكن شيئا شاذا نادرا .

وإذن فقد كان المبدأ المعمول به في أول الأمر هو أن الإسلام يعفى المسلم من كل إلزام بدفع جزية أو خراج ، وأن أرض الخراج تصبح معفاة من خراجها إذا ملكها عربي مسلم (٢) ، أو إذا دخل مالكتها التي ليس بعربي في الإسلام ، ولكن كان من جراء ذلك أن وُضعت إتاوة على الأرض المزروعة التي يتخذها

= الدفاع الوطني ، ولذلك أيضا كان يمن من دفعها القسس والنساء والأطفال والشيوخ الفسحاء ؛ أما الخراج فهو ضريبة ترضى بفرعها كيان الدولة . فليس دافع الجزية عادما ولا عبدة كما يفهم من كلام المؤلف ، أما النص الذي يشير إليه المؤلف في إنجيل متى فهو يتضمن التفرقة بين الأجنبي غير الحر في دولة وبين المواطن العاصي فيها ، وهذا غير موجود في الإسلام - المترجم (١) : قارن ما يقوله دى هوى في حواشيه على الطبرى وكذلك البلاذري ص ٦٥ س ٥ - ٧ ص ٦٦ س ١٥ و ص ٣٥١ س ١ ص ٣٥١ س ٥ و س ١٣ . وفي خراسان كان يقال دائما جزية ولا يقال خراج (الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٤ و ١٣٦٤ لها بعدها ١٥٠٧ لها : بعدها) ، وفي كتاب الخراج نجد استعمال كلتي الجزية والخراج دون تمييز بينهما ، ونجد في كتاب الخراج أن عبارة جزية الأرض تستعمل استعمالا جاريا تماما (٢) وكذلك كانت الأرض الزراعية عندنا تعنى من الضرائب إذا ملكها أحد الأشراف ، لأنه يحكم أنه شريف كان معنى من الضرائب .

السادة من العرب ، ثم على دافع الجزية إذا دخل في الإسلام ، وفي كلتا الحالتين انمحي الفرق بين الطبقات وبين نوع ممتلكاتها ، هذا الفرق الذي كان يبنى عليه النظام المالي على عهد عمر بن الخطاب ، ونشأت عن ذلك صعوبات وأوضاع غير سليمة ، فإذا خففت الجزية بمقدار ما ينقص منها بسبب الدخول في الإسلام أضرت ذلك ببيت المال ، وإذا أُنحلت مبلغاً إجمالياً بالمقدار الذي كانت عليه أولاً زاد العبء على الجماعة ، بعد أن تكون قد صارت بسبب دخول من دخل منها في الإسلام أقل مقدرة على دفع الجزية ، وهذا أيضاً لم يكن في مصلحة بيت المال ، إذا هجر المسلمون البلد - كما كان يحدث في العادة ، وربما في أكثر الأحيان - قراهم ومزارعهم ، فتركوها دون من يُعني بها وهاجروا إلى المدن التي كان يقطنها العرب . وكان هذا سبباً في حرمان أرض القرى من قوة اليد العاملة ، حتى تعرض بعضها للخراب ، ولكن الهجرة إلى المدن لم تكن شيئاً مرغوباً فيه . وحتى بدون هذه الهجرة كان في الكوفة والبصرة - ولدينا عن العراق فيما يتعلق بهذا كله أحسن المعلومات ، وتكاد تكون هي المعلومات الوحيدة التي بين أيدينا - عدد كبير من المسلمين الجدد أو الموالي ، وكانوا أول أمرهم أسرى حرب قد أطلقوا ، وكان معظمهم من أصل فارسي ، وكانوا يكوّنون طبقة وسطى بين السادة من العرب وبين الرعايا من غير العرب ، ولم يكونوا يدفعون لخراجاً ولا جزية ، ولكنهم لم يكونوا مقيدين في ديوان المقاتلة ، وعلى ذلك لم يكونوا يتقاضون أعطيات ، مع أنهم كانوا يرافقون ساداتهم السابقين في الحرب ويحاربون معهم ، وكانوا ملزمين أدبياً بأن يقوموا لسادتهم بكل أنواع الخدمات ، فكان موقفهم هذا ، لا هم أعلى ولا هم أسفل ، لا يرضيهم بطبيعة الحال . وكان من شأن الإسلام أن يدفعهم إلى الطموح ، فكانوا يسعون إلى المساواة الكاملة بالعرب المسلمين ، وقد أظهرت ثورتهم بقيادة المختار مدى الخطر الذي كان يهدد الدولة العربية من جانبيهم . وقد قضى على هذه الثورة بإراقة دماء القائمين بها ، ولكن مأساة الفجوة

التي أوجدها السيف في صفوفهم كان سهلاً بفضل المسلمين الجدد الذين جاءوا من القرى والرساتيق ، هؤلاء المسلمين الذين ربما كانت روحهم أكثر حباً للإسلام من غيرهم ، ولكن كانت لهم نفس المصالح التي كانت لطبقة الموالي ، وكان هذا بمثابة فجوة في النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب ، ذلك أن مدن الجليش والحكومة لم تلبث أن فقدت طابعها العربي المميز لها ،

ترك هذا النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب ، وكان نظاماً بدائياً بعض الشيء وقاصراً على الخطوط الرئيسية ، المجال لتطور كان يهدد بالقضاء عليه ، ولكنه تطور لم يحسب عمر حسابه من قبل . وفي عهد عمر نفسه بدأت تتجلى بعض نواحي القصور هذه ، ففي عهده كانت رغبة العرب في التملك متجهة في العادة إلى شيء غير اقتناء الأراضي والضياح . ولم يكن الدين يلزمهم دفع الجزية من غير العرب قد بدأوا يدخلون في الإسلام على نطاق أضرب بيت المال ، وكان بيت المال ، إلى جانب ذلك ، يفيض بما كان يحمل إليه من غنائم لا تنقطع ، ولم يكن عليه أن يواجه نفقات المطالب الكبيرة التي جددت فيما بعد : أما في الجيل الثاني ، خصوصاً في عهد الأمويين ، فقد تغيرت الأحوال : ويُروى أن الحجاج كان أول من قرر تغيير النظام الموروث لكي يقاوم النقص الذي لحق ببيت المال ، فلم يُعفى العرب الذين تملكوا أرضاً من أرض الخراج من أن يدفعوا ما عليها منه ، وفرض الخراج من جديد على قوم كان حتى ذلك الحين موضوعاً عنهم . ولا بد أنه حامل المسلمين الجدد الذي بقوا في قراهم واحتفظوا بأراضيهم من حيث ما يجب عليهم من خراج يمثل ما حامل به العرب ، ولكنه حرم عليهم الهجرة إلى حواضر الإسلام والسيادة العربية ، وكان في بعض الأحيان يعيدهم إلى قراهم بالقوة . وكانت إجراءاته الجديدة لا تنفق وما كان يعتبر حتى ذلك الحين عند الجميع على أنه الحق ، وقد أثارت صيحات إجماعية من كل من أصابه صنيع الحجاج من العرب ومن الموالي ، زاعمين أن ذلك ضربة في وجه الإسلام ، ولكن الحجاج لم يرجع عما صنع .

وكان عمر بن عبد العزيز يحكم ورعه مضطراً أن يسلك طريقاً آخر ، وهو لم يكن من حيث مقصده يختلف عن الحجاج اختلافاً كبيراً ، ولكنه حاول أن يصل إليه من طريق لا يتعارض مع الشعور الإسلامى بالحق والعدل ، فحافظ من هذا الوجه على المبدأ القديم الذى يقضى بأن المسلم ليس عليه أن يدفع جزية ولا خراجاً ، سواء أكان عربياً أم كان مولى ، وسواء أكان من الطبقة العليا أو الطبقة الدنيا . ولكى يتفادى النقص فيما يدخل إلى بيت المال فإنه ، بعد مشاورة علماء المدينة من غير شك ، استنبط من السنة السابقة أن أرض الخراج يجب أن تكون ملكاً للمسلمين جميعاً أولاً ، ثم هى بعد ذلك لأهل القرى الذين تركها لهم المسلمون مقابل خراجها ، بحيث لا يصبح أن تقتطع أجزاء منها وتعتبر بسبب انتقالها إلى أيدي المسلمين ملكة خاصاً معنى من الخراج ، وتبعاً لذلك أعلن عمر بن عبد العزيز أن بيع أرض الخراج على العرب والمسلمين غير جائز اعتباراً من سنة مائة للهجرة . ولكنه لم يجعل لهذا المنع أثراً رجحياً ، أما إذا دخل المالك المزم بدفع الجزية فى الإسلام فالظاهر أن عمر قرر رجوع ممتلكاته إلى أهل القرية التى هو منها ، وكان المالك يستطيع بعد ذلك أن يبقى فيها مستقبلاً لها - وليست المقابلة خراجاً - ولكنه كان يستطيع أن يرحل إلى العواصم ، ولا شك أنه كان فى العادة يرحل ، (وهذا ما لم يرد الحجاج أن يسمح به) : أما هل كان يصبح بسبب هجرته إلى العواصم ، صاحب حق فى العطاء ؟ فهذه مسألة ليس من السهل أن يجاب عنها إجابة سريعة .

وعلى حين أن الاعتراف بمصانة المسلمين من دفع ضريبة الرهايا لم يجعل هناك محلاً إلا للنظام المأثور الذى لم يكن قد اقتلعت أصوله بل هاد من جديد ، كان تحريم انتقال ملكية أرض الخراج لإجراء تشريعياً جديداً له أهمى الأثر ولكنه كان يستند على كل حال إلى الفكرة الأصلية فيما يتعلق بأرض الخراج ، وكان نتيجة للمبدأ الذى نحمل به فى أيام الفتح ، وهو أن الأرض لم تعتبر غنيمة ،

هل بقيت دون تقسيم ؛ ولكن هذه النتيجة العملية لم تكن في أيام الفتح نفسها قد استنبطت بعد .

ولم يستطع عمر بن عبد العزيز أن ينفذ سياسته . ونظراً للطريقة التي حاول بها ما أراد فإن الإضرار ببيت المال صار شيئاً لا يمكن تفاديه . ولم يمكن العمل بمبدأ عدم انتقال ملكية أرض الخراج ، ولم يمكن إيقاف انتقال الممتلكات ، كما لم يمكن إيقاف تغيير الدين . ثم هادئ الحال ، فيما بعد ، إلى العمل بما كان قد جرى عليه الحجاج ، لكن مع تعديل كانت له من الناحية الموضوعية أهمية قليلة ، وإن كان له من الناحية الشكلية شأن كبير ؛ ذلك أنه ظهرت تفرقة بين الخراج والجزية لم تكن موجودة من قبل ، فاعتبرت الجزية متعلقة بالشخص ، فلا تقع إلا على غير المسلمين ، وكانت تسقط عن رؤوسهم إذا دخلوا في الإسلام ؛ أما الخراج فعصار يعتبر متعلقاً بالأرض المزروعة ، كما اعتُبر أنه لا يشين الشخص ، ويجوز ، بل يجب ، أن يدفعه المسلمون أيضاً .^(١) إذا كانوا يملكون أرض خراج . ولما كانت الأرض المزروعة هي أهم ما يُدفع عنه الخراج فإن إسقاط الجزية عن الداخلين في الإسلام لم يكن في الحقيقة من جانب بيت المال تضحية كبيرة^(٢) . وهكذا أمكن أن يتقوى بيت المال بحاجة الدولة الإسلامية من غير مشقة ، وكان الأمر أمر تدقيق فقهي ، أمر تخريج هدت إليه الضرورة القاهرة : لأننا لو نظرنا بمنظار العقل السليم لوجدنا أن الذي يؤدي الخراج في الحقيقة ليس هو الأرض بل مالك الأرض .

وتسمع عن إصلاح للخراج قام به آخر أمير للأيوبيين على خراسان ، وهو نصير بن سيار ، فوضع نصير نظاماً بقضى يجعل الخراج مقدراً ثابتاً لا يتغير يُفرض على مختلف مناطق أرض الخراج ، بحيث لا يعدو خراج الأرض . ومن أجل هذا كان

(١) لم يطالب المسلمون الجدد ، أمي الموال في الكوفة والبصرة ، بدفع الجزية قط ، وهم إنما كانوا يشعرون بأنهم دون غيرهم ، لأنهم لم يكونوا يقيمون في ديوان المقاتلة ولم تكن لهم أعطيات ، وكانت مطامعهم في هذا الباب متجهة إلى مساواتهم بالمسلمين من العرب في الحقوق .

لا بد أن يساهم ملاك الأراضي جميعهم بنسبة ما يملكون ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين ، وعرباً كانوا أو فرساً . ولكن فصلت الجزية عن الخراج وأصبحت مقصورة على المجوس واليهود والنصارى ، ولا يدفعها العرب المسلمون ولا الداخلون في الإسلام . أما نقص ما يدخل إلى بيت المال بسبب ازدياد عدد من يدخلون في الإسلام وتسقط عنهم الجزية فقد حسب حسابه مقدماً ، ولم يرَ هناك بأس من أن تكون ضريبة الخراج وحدها هي الدخل الضروري للثابت لبيت المال^(١) . وكان هذا النظام جديداً وغير معروف من قبل ، وهو قد انتشر بعد قليل من الزمان أو كثير إلى سائر أنحاء الدولة الإسلامية ، لأنه كان يوفق توفيقاً بارعاً بين المصلحة المالية وبين مبدأ إعفاء مواطني الدولة التیوقراطية من دفع الإتاوة ؛ ولا شك أن الفقهاء قد قاموا في ذلك بمهمة التوليد والتخريج من النصوص ، وكان ذلك في الحقيقة نتيجة لعمل استنباطي معقد من جانبهم غاية التوفيق بين مطالب متضاربة . غير أنهم فيما بعد نظروا إليه على أنه الحق الذي لا شك فيه واعتبروه موجوداً من أول الأمر ؛ ولكن لو أنه كان في الحقيقة موجوداً من أول الأمر لما قامت صعوبات قط .

٢ - ومن عادة فقهاء الإسلام دائماً أنهم ، إذا تقررت قاعدة ما شيئاً فشيئاً تحت تأثير الحاجات أو النزعات المتجددة حيناً بعد حين ، أرجعوها إلى البدايات الأولى وجعلوها مصادرة بردهم إليها إلى سنة النبي وسنة الخلفاء الأولين^(٢) .

(١) يجد القارئ هذا الكلام أكثر تفصيلاً في الجزء الخاص بخراسان من الفصل الثامن . ويستطيع أن يرجع إليه .

(٢) لم لا شك أن فيما يقوله المؤلف هنا وفيما سبق كثيراً من المبالغة ، لأن القواعد التي كانت جديدة في صورتها أو تفاصيلها لم تكن كذلك في أسوها ومصادرها الشرعية . وطبيعي أن يكون هناك فرق بين الصورة القانونية الفقهية للأحكام وبين صورتها في النصوص الأولى أو في السنة الأولى المأثورة من النبي أو بين الصور القانونية الفرعية وبين القواعد العامة التي تتضمنها النصوص من القرآن والسنة ؛ وهذا معروف في كل العلوم الإسلامية مما لا يجعل صانع خلفاء عملاً متكلفاً أو ادعاء من غير استناد إلى نص قرآني أو سنة نبوية أو إلى ما يؤخذ منها من طريق القياس - المترجم] .

ولذلك فلمهم يردون الصورة التي لم يصل إليها نظام الإدارة والخراج إلا بعد ترده طويل إلى عمر بن الخطاب ، مع أن عمر لم يخط في ذلك إلا الخطوات الأولى الأساسية ؛ فإذا أراد الإنسان أن يحكم على ما فعله الحجاج وعمر بن عبد العزيز حكماً صحيحاً فإن من الواجب عليه أن يأخذ حذره من غلو الفقهاء في إيمانهم بأن كل شيء كان موجوداً في التاريخ السابق . والأجدر به أن يتمسك أول ما يتمسك بما يذكره المؤرخون على الحقيقة وبما يذكره أقدمهم بطبيعة الحال ، لأنهم كانوا أكثر احتراماً للوقائع ، ولأنهم اعتمدوا في بعض ما قالوا على وثائق ولم يذكروا القواعد العامة التي وضعها الحكام بقدر ما ذكروا القرارات المتفرقة ، وهنئذ لا يصح أن يتسرع الإنسان فيعتبرها قواعد عامة من غير تفكير فيها ، وهو يستطيع بعد ذلك أن يزن ما يجده عند الفقهاء من مادة تاريخية تصلح للإثبات بهذا الميزان ، ففي هذه المادة كثير مما لا يدخل في بضاعة الفقهاء ولا يتمشى مع منازعهم ؛ وإن آرائي عن هذه المسألة الصعبة اختلفت فيها إنما اقتضت لي شيئاً فشيئاً ودون تكلف ؛ والمادة التي كانت أساساً لآرائي لم أجمعها في أيام معرفتي بها ، وها أنا ذا أجمع منها ما تصل إليه يدي ، وفي ذلك مجال لإضافة هذا أو ذلك مما لم أذكره في هذا الموجز الذي قدمته :

فنعرف من البلاذري (ص ٣٦٨) أن الحجاج رد إلى الخراج أرضين كانت حشوية معفاة من الخراج بسبب إسلام أهلها أو بسبب انتقالها إلى أيدي قوم من العرب . وفي النص الذي ذكرناه في ص ٢٣٥ - ٢٣٦ مما تقدم ، نقلاً عن ابن عبد ربه ، أن الحجاج أخرج الموالي من حواضر الأمصار وأعادهم إلى قراهم وبلدانهم وقال للموالي : « أنتم علوج وعجم ؛ وقراكم أولى بكم » ، ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب وصيرهم كيف شاء ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها ، وكان الذي تولى ذلك رجلاً من بني سعد بن عجل بن لحيم يقال له خراش بن جابر ، قال الشاعر :

وَأَنْتَ مِنْ نَقَشِ الْعَجَلِ رَاحَتَهُ وَفَرَّ شَيْخُكَ حَتَّى عَاذَ بِالْحَكَمِ (١)

قال شاعر آخر :

جارية لم تدر ما سَوَّقُ الْإِبِلِ (٢) أَخْرَجَهَا الْحِجَاجُ مِنْ كَنْ وَظَل
لو كان عمرو شاهداً وابن جبل ما نقشت كفالك من غير جندل
ولما عَيَّنَ نوح بن درَّاج ، أحد الموالى ، قاضياً على البصرة فيها بعد ،
قال فيه أحد الشعراء :

إن القيامة ، فيما أحسب ، اقتربت إذ كان قاضيكُم نوح بن درَّاج
لو كان حياً له الحجاج ما بقيت صبيحة كفك من نقش حجاج (٣)

وتشهد بهذا أيضاً الروايات الموجودة في كتاب الطبرى (ج ٢ ص ١١٢٢ و ١٤٣٥ وفي كتاب أنساب الأشراف ص ٣٣٦) : فيلذَّكَرُ أَنَّهُ لما كتب
عمالُ الخراج إلى الحجاج أن الخراج قد انكسر وأن أهل اللمعة قد أسلموا
ولحقوا بالأمصار ، كتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل في قرية
فليخرج إليها . فخرج الناس فعسكروا وجعلوا يكون ويقولون : واحمداه !
وجعلوا لا يدرون أين يذهبون . فجعل قراء البصرة يخرجون إليهم متفتحين
فيكون معهم . وقدم ابن الأشعث على بغته ، فاستنصر القراء أهل البصرة
في قتال الحجاج مع ابن الأشعث (٤) .

ونجد عند البلاذرى (ص ٣٦٨) أن عمر بن عبد العزيز أبطل ما فرضه

(١) كان الحكم بن أيوب الثقفى خليفة الحجاج في البصرة .

(٢) يعنى أنها لم تدر ما سَوَّقُ قَط .

(٣) وكذلك كان حسن البصرى الذى تولى القضاء أيام عمر بن عبد العزيز أحد الموالى .

(٤) [بين النص كما ذكره صاحب كتاب أنساب الأشراف وبينه كما حكاه البلاذرى فرق

في بعض النسخات . ولا شك أن فيه خطأ أو نقصاً ، وقد اختلفنا هذه القراءة ، وليرجع القارئ
إلى الأصول العربية - المترجم] .

الحجاج على المسلمين من دفع الخراج . ولم يكن ذلك في ميسان وحدها بل في سائر ما عداها . وفي كتاب لعمر بن عبد العزيز كتبه إلى أمير الكوفة وذكره الطبري (ج ٢ ص ١٣٦٦ فما بعدها) قرر عمر القاعدة الأساسية ، وهي ألاّ خراج على من أسلم من أهل الأرض . ويقول ثيوفانيس (في أخبار حوادث سنة ٦٢١٠ من تاريخ الخليفة) أن عمر أعفى النصارى الذين اعتنقوا الإسلام من الخراج .

أما ما اتخذته عمر بن عبد العزيز من إجراء حرم به بيع أرض الخراج للمسلمين بعد مئة مائة للهجرة ، فيشهد به نص في كتاب ابن عساكر عن تاريخ دمشق ، ذكره باللغة العربية الفريد فون كريمر Alfred von Kremer في كتابه لمحات من تاريخ الحضارة في بلاد الإسلام = Kulturgeschichtliche Streifzüge auf dem Gebiete des Islams ص ٦٠ والصفحات التالية وترجم بعضه في كتابه عن تاريخ حضارة المشرق في عهد الخلفاء بعنوان Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen, 1, p. 76ss. وهذا النص متعلق بالشام ، وهو أيضاً مهم ، لأنه يبين أن الأصول التي تميل بها في الشام شبيهة بالأصول التي عمل بها في العراق . ومعلوماتنا عن العراق خير من معلوماتنا عن غيرها .

يروى ابن عساكر « أن عمر وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمع رأيهم على ما كان بأيديهم^(١) من أرضهم يعمرونها ويؤدون عنها خراجها إلى المسلمين ، فن أسلم منهم رفيع عن رأسه الخراج^(٢) ، وصار ما كان في يده

(١) [لا يدل النص على ما يعود إليه التفسير في : « بأيديهم » ، والظاهر أن المقصود ، كما بل ، المفلوبون الذين استسلموا ولم يسلّموا - المترجم] .
(٢) يلاحظ أن كلمة الخراج هنا تستعمل في الدلالة على ما تدل عليه كلمة الجزية .

من الأرض وداره بين أصحابه من أهل قريته يؤدون عنها ما كان يؤدى من خراجها ، ويسلمون له ماله ورقيقه وحيوانه ، وفرضوا له في ديوان المسلمين^(١) ، وصار من المسلمين له ما لم عليه ما عليهم ؛ ولا يرون أنه وإن أسلم أولى بما كان في يديه من أرضه من أصحابه من أهل قريته^(٢) ، لانقلابها صاقية للمسلمين : ومهوا من ثبت منهم على دينه خدمة للمسلمين ، ويرون أنه لا يصح^(٣) لأحد من المسلمين شراء ما في أيديهم من الأرضين كرهاً ، لما احتججوا به على المسلمين من إمساكهم كان عن قتالهم وتركهم مظهرة عدوهم من الروم عليهم . فهاب لذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر غشهم^(٤) وأخذ ما كان في أيديهم من تلك الأرضين ، وكرهوا للمسلمين أيضاً شراؤها طوعاً لما كان من ظهور المسلمين على البلاد وعلى من كان يقاتلهم عنها ، ولتركهم كان البعثة إلى المسلمين وولاة الأمر في طلب الأمان قبل ظهورهم عليهم ، قالوا : وكرهوا شراؤها منهم طوعاً لما كان من إبقاء عمر وأصحابه الأرضين محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين ، لا تباع ولا تورث ، قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين ولجأ ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد قوله عز وجل : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ إلى تمام الآية . فقلتُ لغير واحد من مشايخنا ممن كان يقول هذه المقالة : فمن أين جاءت هذه القطائع التي بين ظهراني القرى الراحنة^(٥) والمزارع التي بيد غير واحد من الناس ؟ فقال :

-
- (١) كان طبعياً أن يهاجر من يدخل في الإسلام إلى المدن التي أسست للجيوش العربية ولم يبق على الديانة القديمة إلا الوثليون .
 (٢) في الأصل قرابته وهو خطأ .
 (٣) [في الأصل : يصلح ، والأغلب أنه خطأ - ويشير فلهاوزن إلى خطأ وقع فيه فون كزيمر في ترجمته للأصل العربي مما لا محل للذكر هنا - المترجم] .
 (٤) في الأصل : قسمهم ، وهو خطأ .
 (٥) في الأصل : الراحنة ، وهو خطأ .

إن بدء هذه القطائع أن ناساً من بطارقة الروم ، إذ كانت ظاهرة على الشام ، كانت هذه القرى التي منها هذه القطائع ، كانت من الأرضين التي كانت بأيدي أنباط القرى . فلما هزم الله الروم هربت تلك البطارقة عما كان في أيديها من تلك المزارع ، فلحقّت بأرض الروم ، ومن قتل منها في تلك المعارك التي كانت بين المسلمين والروم ، فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يُقبِلُها وإلى المسلمين كما يقبِلُ الرجلُ مزرعته .. قالوا : فلم تزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل قِبَلَتِهَا بيت المال فتخرج نفقة مع ما يخرج من الخراج ، حتى كتب معاوية في أمرته على الشام إلى حِمّان أن الذي أجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمراءهم ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها ، ووصف في كتابه هذه المزارع الصافية وسمّاها له ، يسأله أن يُقْطِعَها لإياها ليقوى بها على ما وصّف له ، وأنها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج ، فكتب إليه حِمّان بذلك كتاباً . قالوا : فلم تزل بيد معاوية حتى قُتِلَ حِمّان وأُفْضِيَ إلى معاوية الأمر ، فأقرّها على حالها ، ثم جعلها من بعده حبساً على فقراء أهل بيته والمسلمين . قالوا : ثم إن أناساً من قريش وأشراف العرب سألوا معاوية أن يقطعهم من بقايا تلك المزارع التي لم يكن حِمّان أقطعهم لإياها ، ففعل ، ففضت لهم أموالاً يبيعون ويمهرون ويورثون ، فلما أُفْضِيَ الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، وقد بقيت من تلك المزارع بقايا لم يكن معاوية أقطع منها أحداً شيئاً ، سأله أشراف الناس القطائع منها ، ففعل ، قالوا إن عبد الملك سئِلَ القطائع ، وقد مضت تلك المزارع لأهلها فلم يبق منها شيء ، فنظر عبد الملك إلى أرض من أرض الخراج قد باد أهلها ولم يتركوا عتياً [قد] أقطعهم منها ورفع ما كان عليها من نخراجها عن أهل الخراج ولم يحمله أحداً من أهل القرى وجعلها عشراً وراه جائزاً له ، مثل إخراجها من بيت المال الجوائز للخاصة . قالوا : فلم يزل يفعل ذلك حتى لم يجد من تلك الأرض شيئاً ، فسأل الناس عبد الملك والوليد

وسليمان قطائع من أرض القرى التي بيد أهل النخعة ، فأبوا ذلك عليهم ، ثم سألوهم أن يأذنوا لهم في شراء الأرضين من أهل النخعة ، فاذنوا لهم على إدخال أثمانها بيت المال وتقوية أهل الخراج به على خراج سنتهم مع ما ضيعوا عن أدائه ، وأوقفوا ذلك في الدواوين ووضعوا خراج تلك الأرضين من باعها منهم وعن أهل قراهم وصبروها لمن اشتراها ، يؤدى العشر ، يبيعون ويمهرون ويورثون . قالوا : فلما ولي عمر بن عبد العزيز أعرض عن تلك القطائع التي أقطعها عثمان معاوية رضى الله عنهما ومعاوية وعبد الملك والوليد وسليمان ، فلم يردّها عمر على ما كانت عليه صافية ولم يجعلها خراجاً ، وأمضاها لأهلها تؤدى العشر . قال : وأعرض عمر عن تلك الأشربة بالإذن لأهلها فيها لاختلاط الأمور فيها لما وقع فيها من الموارث ومهور النساء وقضاء الديون ، فلم يقدر على تخليصه ولا معرفة ذلك : قال : وأعرض عن الأشربة التي اشتراها المسلمون بغير إذن ولاية الأمر ، لما وقع في ذلك من الموارث واختلاط الأمر ، وجعل الأشربة وغير الأشربة سواء وأمضاها لأهلها ولمن كان في يده ، كالمقطوع للأرض ، حشر ليس عليها ولا على من صارت إليه بمراث أو شراء جزية . قالوا : وكتب إليك كتاباً قرئ على الناس في سنة مائة ، وأعلمهم أنها لا جزية (١) عليها وأنها أرض حشر ، وكتب أن من اشترى شيئاً بعد سنة مائة فإن بيعه مردود ، وسمى سنة مائة المدّة ، فحياها المسلمون بعده المدّة ، فأمضى ذلك في بقية ولايته ، ثم أمضاها يزيد وهشام ابنا عبد الملك . قالوا : فتناهى الناس عن شرائها بعد سنة مائة بسلسليات ، ثم اشترى أشربة كثيرة كانت بأيدي أهلها يؤدون العشر عليها ولا جزية عليها . فلما أفضى الأمر إلى أبي جعفر صيد الله بن محمد أمير المؤمنين رقيعت إليه تلك الأشربة ، وأنها تؤدى العشر ولا جزية عليها ، وأن ذلك أضرّ بالخراج وكسره ، فأراد ردّها إلى أهلها ، [فـ] تقبل له : وقعت في الموارث والمهور واختلط أمرها [فـ] سبعت المعدلين إلى كور الشام سنة أربعين

(١) يلاحظ استعمال كلمة الجزية هنا في معنى كلمة الخراج .

أو واحد وأربعين [ومائة] ، منهم عبد الله بن يزيد إلى حمص ، وإسماعيل ابن عياش إلى بعلبك ، في أشباه لهم ، فعدّوا تلك الأشربة على من هي بيده ، شراءً أو ميراثاً أو مهراً ، وعدّوا ما بقي بأيدي الأنباط من بقية الأرض على تعديل مسمى ، ولم تعدل الغوطة في تلك السنة ، وكان من بيده شيء من تلك الأشربة من تلك الغوطة يؤدي العشر ، بحث أمير المؤمنين عبد الله بن محمد هضاب بن طوق وعمر بن ذريق ، فعدّوا [الأشربة ، وأمرهم أن لا يضعوا على شيء من القطائع القديمة ولا الأشربة خراجاً وأن يعضوها لأهلها عشربة ويضعوا الخراج على ما بقي منها بأيدي الأنباط وعلى الأشربة المحدثه من بعد سنة مائة إلى السنة التي عدل فيها . قال : وثنا ابن عازبنا الوليد بن مسلم حدثني سليمان بن عتبة أن أمير المؤمنين عبد الله بن محمد سأله في مقدمه الشام سنة ثلاث أو أربع وخمسين ومائة عن سبب الأرضين التي بأيدي أبناء الصحابة ويذكرون أنها قطائع لأبائهم قديمة ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! إن الله تبارك وتعالى لما أظهر المسلمين على بلاد الشام وصلحوا أهل دمشق وأهل حمص ، كرهوا أن يدخلوها دون أن يتم ظهورهم وإثخانهم في عدو الله ، [و] عسكروا في مرج بردى ما بين المزة وبين مرج شعبان جنوبي بردى ، وكانت مروجاً مباحة فيها بين أهل دمشق وقراها ، ليست لأحد منهم ، فأقاموا بها حتى أوطأ الله المشركين ذلاً وقهراً ، فأحيا كل قوم محلتهم وهياؤها بناء ، فرفيع ذلك إلى عمر بن الخطاب فأرضاهم ، فبنوا الدور ونصبوا الشجر ، ثم أمضاه عثمان وممن بعده إلى ولاية أمير المؤمنين . فقال : قد أمضيناه لأهله .

وابن حساكر أحد مؤلفي القرن السادس للهجرة ، وهو قد كتب في ظل الرأي الذي كان ، في أيامه ، قد مضى عليه زمان طويل على أنه الرأي السائد ، وهو أن عمر بن الخطاب والصحابة — وكانوا بعد وفاة النبي المنظمين الذين يعتد برأيهم في الحكم في الأحوال التي تجددت بسبب الفتح — هم الذين

وضعوا في كل المسائل الميزان الحق لما يحدث بعدهم ، وأن هبة أرض الصوافي وبيع أرض الخراج عمل فاسد يخالف الحق ، وأنه لم يحدث إلا منذ عصر الفساد الذي جاء مع خلافة عثمان وبنو أمية ؛ ولكن ليس هناك ما يبرر للإنسان أن يشك في أن ابن حساكر استقى ما ذكره من مراجع قديمة ، ما دام ما يذكره غير متأثر بالرأى السائد الذي تكلمنا عنه . والأشياء التي يذكرها هي أشياء إيجابية لا يمكن أن تكون مخترعة . ونستطيع أن نصدق أن عمر بن عبد العزيز بدأ بمقاومة ما قد وقع في عهد من تقدمه من الخلفاء من تمزيق صوافي الدولة وانقراض الممتلكات الشائعة للمسلمين ، وذلك بأن منع بيع أرض الخراج ، أما أن يكون عمر قد حافظ على جملة أرض الصوافي ولم يهب شيئاً منها لأحد فإن ابن حساكر لا يذكر ذلك ، ولكن يمكننا أن نفترضه مطمئنين (١)

وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد عارض في تهريب الدولة من أرض الخراج من طريق بيع أهلها لها ، فإنه لا يمكن أن يكون قد رضى بأن تفقد الدولة من طريق دخول أهلها في الإسلام . ويظهر أنه اتخذ إجراءات من شأنها أن تجعل

(١) وما يذكره ابن حساكر عن زوال وانتهاء أرض الصوافي تكلم رواية مستطفت بالنظر نجدتها عند البلاذري ص ٢٧٢ فلما بعدها روى يحيى بن آدم ص ٤٠ . ويقول يحيى بن آدم : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصنى السواد عشرة أصناف : أصنى أرض من قتل في الحرب ومن حرب من المسلمين ، وكل أرض لكسرى وكل أرض كانت لأحد من أهله وكل مريض وكل دير يريد ... وكان خراج ذلك سبعة آلاف ألف (درهم) . فلما كانت موئمة (دير) الجاهل أحرق القاص الديوان ، فأخذ كل قوم ما يليهم . [ويذكر البلاذري أن عمر أصنى عشر أرضين من السواد ... الأجام ومقايض الماء وأرض كسرى وكل دير يريد وأرض من قتل في المعركة وأرض من حرب ...] ولم يزل ذلك ثابتاً حتى أحرق الديوان أيام الحجاج بن يوسف فأخذ كل قوم ما يليهم - ولا تذكر الأصناف العشرة لا منه يحيى بن آدم ولا عند البلاذري ، وذلك بسبب سهو الرواة - المقترجم] ، ولم يكن الخطر يجدد أرض الصوافي بسبب أن الخلفاء كانوا يهبون أن يشاؤون أجزاء منها ، بل كان في الناس جميعاً غصب على الممتلكات الواسعة للدولة والخلفاء وكبار الناس ، وكانوا يجادلون أن يقضوا على الأساس التاريخي الذي يقوم عليه هذا الحق الذي لم يرغبوا منه في تملك الأرض ، أنهم كانوا يجادلونه أن يطمسوه .

تطبيق المبدأ الذى يقضى بإسقاط الجزية عن من يدخل فى الإسلام غير ضار ببیت المال ، وأن تجعل لهذا المبدأ شأنًا معنويًا أكثر منه ماديًا^(١) : فعند يحيى بن آدم (ص ٤٤) أن عمر بن عبد العزيز رفض تحويل الخراج على قوم دخلوا فى الإسلام إلى عشر ، وأنه فوق ذلك أعلن أن من بقى منهم على جدوله^(٢) يدفع ما كان يدفعه من قبل ، وأن من هاجر إلى المدين تَرَدُّ أرضه إلى أهل القرية . هل أن إلزام من بقى على جدوله من الداخلين فى الإسلام بالاستمرار فى أداء الخراج لا يتفق مع ما هو معروف لنا من جهات أخرى ، ولكن التناقض يختفى إذا عرفنا أن هذا الأداء لم يكن يعتبر خراجاً ، بل كان يعتبر بمثابة قَسْبَةٍ^(٣) ولا شك فى صدق ما يقوله الخليفة فى الموضع الذى أشرنا إليه من قبل ، من أنه يرى أن أرض الخراج وما يخرج منها للدولة من غلة إنعامها وقسمة الله على المسلمين^(٤)

(١) من السير وجود أدلة على ما يقال من أن ملايين دخلت فى الإسلام ، فى عهد عمر ابن عبد العزيز ، على أثر إسقاط الجزية .

(٢) إن أرض الخراج فى العراق هى الأرض التى تروىها الجداول ، وكانت أرض العشر لا توجد إلى خارج ما يرويه النهر .

(٣) جاء فى كتاب الخراج ليعقوب بن آدم (ص ٤٣) أن دهقاناً من أهل بين النهر أسلم ، فقال له هل عليه السلام : « أما جزية رأسك فترفعها ، وأما أرضك فالتسليمين » فإن شئت فرمناك ، وإن شئت جعلناك قهرماناً لنا ، فإخرج الله عز وجل أهلنا به . [وفى كتاب الخراج أيضاً ما يلى : أسلم دهقان من أهل السواد فى عهد هل عليه السلام ، فقال له هل : « إن أقمت فى أرضك رفعت الجزية عن رأسك وأعطنا منك أرضك ، وإن تحولت عنها فتحن أحق بها » . والمقصود من أن يكون هذا الدهقان قهرماناً هو أن يكون مسؤولاً للأرض بالنسبة عن الخليفة ، يزرعها ويحطيه ما يخرج منها ، وهذا هو المقصود أيضاً من عبارة « تقبيل » الأرض ، أى أن مالكها الحقيقى يقبلها لمن يشاء ، أى يضمها إليه بحسب الاصطلاح الحديث على مقدار يقدمه لصاحبه ، وهو المسمى القبالة - المترجم] .

(٤) [تأييد المؤلف فى كلامه بقدر الإمكان ، وفى كتاب الخراج ليعقوب بن آدم (ص ٤٤) أن أناساً من أهل السواد طلبوا رفع الجزية عن أرضهم فى أيديهم ووضع الصدقة عليها ، ومعنى هذا تحويلها من أرض خراجية إلى أرض عشرية . وسأل الوالى عمر بن عبد العزيز فى ذلك فكتب إليه : إني لا أعلم شيئاً هو أنفع لنا من التسليمين ومادتهم من هذه الأرض التى جعلها الله فيما لهم ، فانظر من كان منهم له بها أرض أو مسكن فاجر هل كل جدول منها ما كان يجرى قبل ذلك ، ومن لم يكن له بها أرض أو مسكن فارددها إلى أهلها - المترجم] .

وأيضاً إذا كان عمر بن عبد العزيز لم يستطع أن يجعل لما قرره من عدم
لإنقاص ملك الدولة أثراً رجعياً ، فإنه أراد أن يحتفظ للمستقبل بحملة أرض
التيء كما هي . وهو وإن لم يمسّ حق الإعفاء من الجزية والخراج بالنسبة
للمسلمين — قدماء كانوا أو محدثين — فإنه لم يرد الإضرار بالحق التاريخي القديم
من طريق تغييرات جاءت بعده ، ولا انتقال المزارع إلى ملكية الأفراد ، لأن
هذه المزارع في الحقيقة ملك لحملة المسلمين ، لا يصبح خروجها عن ذلك ،

أما فيما يتعلق بالولايات التي كانت قد مضى على فتحها ما يقرب من
قرن ، وكان نظام الخراج فيها ، طبقاً لقانون الفتح ولقانون الغنائم الإسلامي
في صورة معدلة بعض التعديل ، قد وُضِع وضِعاً نهائياً ، فقد حافظ عمر
ابن عبد العزيز في الحملة على الوضع المستند إلى هذا الأساس التاريخي ودراً
حته ما يهدده من مؤثرات . أما في البلاد التي لم يفرزها المسلمون إلا في عهده ،
أو على الأقل البلاد التي لم يكن قد تمّ إحضارها إخضاعاً حقيقياً ، مثل
بلاد ما وراء النهر والهند وإفريقية والأندلس ، فقد فعل عمر غير ذلك .
ويجب فيما يتعلق بصنيعه هنا أن ننظر إليه على حدته ولا يصح أن نخطئه
بغيره ، فهو يقوم على اعتبارات خاصة به . فالإسلام يقضى على المسلمين
ألا يبدؤوا بقتال قوم وثنيين إلا بعد أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام
وطاعة الله ، فإن أسلموا دخلوا في الدولة الشيوعية ، لهم ما للمسلمين
وعليهم ما عليهم ، ولا خراج عليهم . هذا ما قضى به الإسلام ، لكن
المسلمين لم يعملوا به تماماً ، بل هم أرادوا من الجهاد أن يأتي لهم بالأموال
والغنائم ، وصار هذا هو غرضهم من الجهاد ، ولم يكن الغرض نشر الدين .
أما عمر بن عبد العزيز فإنه كره الجهاد وأراد ، على العكس من ذلك ، أن
تدخل الأمم في الإسلام دخولاً سلمياً ، وفي هذه الحالة كان لا يطالبهم
بخراج . أما الكلام عن إسقاط التيء فلم يكن موجوداً لأنه لم يكن هناك فيء ،

فيحكمى البلاذرى (ص ٤١) أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك

السند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يُملِكْتَهُمْ ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وكانت قد بَلَغَتْهُمْ سيرته ومذهبه ، فأسلم هؤلاء الملوك وتسموا بأسماء العرب . ويحكى البلاذري أيضاً (ص ٤٢٦) أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم ، ورفع عمر الخراج عن أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم (١) . وجاء هند الطبري (ج ٢ ص ١٣٥٣ - ١٣٥٤) أن رجلاً من الموالي يكنى بأبي الصبياء ، وكان فاضلاً في دينه ، ذهب مع رجلين من العرب في وفد إلى عمر بن عبد العزيز ، فتكلم العربيان ، ولم يتكلم هو ، فسأله عمر إن كان من الوفد ، فلما أجاب بنعم ، طلب منه عمر أن يتكلم ، فشكا من أن حشرين ألفاً من الموالي يغزون في خراسان مع العرب بلا عطاء ولا رزق ومن أن مثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج ، كما شكوا من أن أمير خراسان رجل "عصبي" جاف ، يقوم على المنبر فيقول لأهل خراسان : « أتيتكم حثيفاً ، وأنا اليوم حصيبي » ، والله لرجل من قومي أحب إلي من مائة من غيرهم ! ، ثم قال هلما الموالي عن الوالي إنه سيف من سيوف الحجاج ، قد عمل بالظلم والعدوان . فأعجب عمر بكلامه وقال : « إذن مثلك فليؤد » . ثم كتب عمر لأمر خراسان : وكان الجراح بن عبد الله الحكي : انظر من صلتى قبلك إلى القبلة فضغ عنه الجزية . فسارع الناس إلى الإسلام ، فقبل للجراح : إن الناس قد ساروا إلى الإسلام نفوراً من الجزية فامسح عنهم بالختان ! فكتب بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر : إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ولم يبعثه نخاتناً ، ويحكى البلاذري (ص ٤٢٢) والطبري (ج ٢ ص ١٣٦٤) ما بعدها . أنه لما تولى الخلافة "عمر بن عبد العزيز وظهر عدله ، وفقد عليه قوم من أهل ممرقند طمعاً في عدله ، ورفعوا إليه أن قتيبة بن مسلم ظلمهم وأخذ

(١) [في كلام المؤلف أن عمر رفع الخراج عن أهل ما وراء النهر وفرض لهم أعطيات ، ولكننا تأبنا النص الذي اعتمد عليه وجئنا بالكلام أكثر تفصيلاً - المترجم] .

أرضهم ودخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر . فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب إليهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا ليعود الحال على ما كان قبل عهد قتيبة . فحكم القاضي بإخراج المسلمين من عرب سمرقند على أن يُنابذوا أهل سمرقند على سواء ، فيكون صلح جديد أو ظفرٌ وحنوة . فكره أهل مدينة سمرقند الحرب وأقروا المسلمين ، فأقاموا بين أظهرهم (٢) .

وكذلك كتب عمر كتباً يدعو البربر إلى الإسلام ، فقرأها عليهم واليه إسماعيل بن عبد الله ، فغلب الإسلام على المغرب . وعلى أثر ذلك حطَّ عنهم الجزية ، وكانوا يؤدون الجزية بأن يقدموا أبناءهم حوضاً عن المال ، وقد أمرهم بأن من كانت عنده بنتٌ من البنات اللاتي قدَّمنَ في الجزية بأن يخطبها إلى أبيها فيتزوجها منه ، أو أن يردَّها إلى أهلها (البلاذري ص ٢٢٥ و ٢٣١) .

وتم إجراء آخر غريب جداً في بابيه ، حكى صاحب كتاب Cont Isid 186 أن السمع بن مالك اتخذ في الأندلس ، وهو وإن لم يكن من صنع عمر نفسه فهو من غير شك يتمشى مع سياسة عمر وكان يتكليف منه ، وهو إجراء يتعلق بالأرض ، يقول الكتاب المتقدم :

Zama ulteiozem vel(=et) citiorez Iberiam proprio stilo ad vectinalia inferenda describit. Predia et manualia vel quidquit illud est, quod olim predavilliter indivisum retentabat in Spania gene omnia arabica, sorte sociis dividendo partem ex omni et mobili mobili et immobili fisco adsociat. (٢)

(١) [فصلنا ما ذكر المؤلف طبقاً لنص الذي اعتمد عليه ، لأننا لو اقتصرنا على الترجمة لأصبح الكلام متبوراً والمعنى ناقصاً . والمؤلف يقول إن عمر أبي أن يعطى مدينة سمرقند لأهل السند ، وإن كان قد عرف أن العرب أخذوها منهم غدرًا ، وأنه لم يصلح ما كان قد وقع منذ سنين . وحقيقة الأمر هي كما ذكرناه نقلًا عن النصوص - المترجم] .

(٢) قد غيرت ترقيم Mommsen ، وأصلحت كلمة *preda* ، فجعلتها *predia* طبقاً -

وإذن فعلى حين أن جزءاً من الأرض المفتوحة تُترك في يد أهله السابقين في مقابل تأدية الخراج ، فإن جزءاً آخر كان حتى ذلك الحين قد احتُفِظَ به ثم وُزِعَ على الجند بعد أخذ الخمس منه . ولا نعرف شيئاً عن نوع هذا الجزء الذي كان محجوزاً ، وربما أنه كان يتكون من نظائر تلك الأرضين التي اُعتبرت صواباً للدولة في العراق والشام^(١) . وكانت يد عمر ابن عبد العزيز فيما يتعلق بالأندلس لا تزال مطلقة بعض الشيء ، ولا شك أنه كان يقصد من هذا الإجراء الذي اتخذته أن يوثق صلة المحاربين العرب ببلاد الأندلس من طريق تملكهم أرضاً فيها . ويقال إنه فيما صنع اعتزى إلى عمر بن الخطاب قائلاً : لولا أن عمر أقطع الجند أرضاً في الثغور الهندية لما أمكن سدّها^(٢) . ولا شك أن عمر بن الخطاب لم يكن له شأن بالجند ، وأنه إنما كان يريد بوجه عام أن يجعل الأرض ملكاً للدولة ما وسعه ذلك . ولكن لا بد أن يكون صنيع عمر بن الخطاب دائماً هو المثل السابق ، ولو كان في مسره يتردد ذات البمين وذات الشمال ، على أنه مما يجدر ملاحظته مقدار تلة اتفاق المأثور القديم مع الآراء التي جاءت بعده من أن العرب لم يكن لهم حق في أن يملكوا أرضاً في الأمصار على الإطلاق .

وأضيف أخيراً إلى ما قدمت ذكره هنا بعض الروايات المتعلقة بإجراءات

= لما يلى ، وهو أن *res mobilis* منها هو *manutilla* وأن *res immobilis* معناها هو *predia*

[أما ترجمة هذا النص اللاتيني فهو : نظم السمع على طريقته الخاصة أيبرها البعيدة أو (= و) القرية ، وذلك بقصد فرض الخراج . وكان العرب في إسبانيا قد احتفظوا بالصياح والمغار المنقول ونحوه مما لم يكن قد قسم من قبل ، فقسمه السمع بالقرعة على الأصحاب بعد أن ضم جزءاً من كل شيء ثابت ومنقول إلى بيت المال - المترجم] .

(١) قارن الهامش المذكور في ص ٢٨١ ما تقدم ، وهو على كل حال لم يكن الخمس . [في النص العربي الذي اعتمد عليه دوزي أن موسى بن نصير بعد فتح الأندلس لم يكن قد أتم تقسيم أرض المنوة على البلطش بعد أخذ ثلثيها لبيت المال ، فمحجوز أن ما بقى هو المقصود . أما الإقطاعات التي أقطعها عمر لجند فكانت من الخمس - المترجم] .

(٢) Dozy, Recherches (1881), I, 76.

مالية أخرى اتخذها عمر بن عبد العزيز ، مبتدئاً بما يحسن المسلمين منها : كانت أرض فندك ، قرب المدينة ، مما أفاء الله به على رسوله ، ثم انتقلت بعد وفاته إلى ولي الأمر من المسلمين ، فتولاها الخلفاء من بعده واصطفاه الأمويون ، فأقطعها معاوية مروان بن الحكم ، ثم آلت آخر الأمر إلى عمر بن عبد العزيز ، فردّها إلى ما كانت عليه أول أمرها وأعطاه لآل النبي عليه السلام ، وهم العلويون وبذلك ألقى عمر بن عبد العزيز ما كان قد جرى عليه أبو بكر وعمر . ومعنى هذا أنه لم يكن يتبعهما اتباعاً تاماً . وكذلك ردّ عمر على إبراهيم بن محمد بن طلحة داره التي كانت قد أخذت منه في مكة (البلاذري ص ٣٠ - ٣٢ ، والطبري ج ٢ ص ١٤٨٣ لها بعدها) .

وفي اليمن كان محمد بن يوسف آخر الحجاج قد أساء السيرة وظلم الرعية وضرب على أهل اليمن خراجاً جعله وظيفة عليهم ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بإلغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر (البلاذري ص ٧٣) . وفي عمان كانت عشور التمر والحب تقسم في فقراء أهلها ومن سقط إليها من أهل البادية ومن أضافته إليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل ، فبيع مرة وحُمِلَ ثَمَنُهُ إلى بيت مال البصرة ، فأمر عمر برد الثمن ليصرف فيما كان قد أمر بصرفه فيه (البلاذري ص ٧٧ لها بعدها)^(١) . ولم يكن المأثور المعمول به في جميع أجزاء جزيرة العرب^(٢) على هذا النحو ، بل كان يختلف هنا وهناك بحسب اختلاف الظروف التي فيها دخلت القبائل والبلاد في الإسلام أول الأمر^(٣) ، وبحسب كونها ظروفاً طيبة أو غير طيبة : فمثلاً نظراً لأهمية ثغر خراسان أمر عمر بن عبد العزيز بإبقاء خراجها فيها لكي تصرف منه الأعطيات ، وكتب إلى واليه بذلك . وبأنه مستعد أن يحمل إليه أموالاً أخرى ، إن كانت أموال الخراج

(١) [جئنا بالكلام أكثر تفصيلاً بحسب الأصل ليكون مفهوماً - المترجم] .

(٢) هكذا الأصل لكن المقصود بالبلاد : البلاد التي كانت خاضعة لسلطان الدولة

العربية . [المترجم] .

(٣) راجع كتابنا 4. 96 Skizzen ...

لا تكنى (الطبرى ج ٢ ص ١٣٦٦) . ولكن لا يصح أن نعتبر ما فعله عمر بالنسبة لخراسان قاعدة عامة سار عليها ، لأن ما فعله بخراسان كانت له أسباب خاصة ،

أما فيما يتعلق بأعطيات المقاتلة من المسلمين في مدن المعسكرات وفي حاميات الثغور فقد كانت الحكومة تسير في أول الأمر على مشيتها الخاصة ، فكانت تسقط من ديوان المقاتلة من تشاء وتفرض فيه لمن تشاء ، وكانت تزيد في الأعطيات أو تنقصها كما تشاء ، وكان هذا دائماً سبباً للشكوى . وذلك أن أموال النىء التى تجرى منها الأعطيات إنما هى بحسب قانون للغانم لمورثة جنود الفتح وحدهم ، ولم يسكت لهم صوت قط [فى المطالبة بأن يُعطى إليهم كل مال النىء : ولا يصح أن نصدق أن عمر بن عبد العزيز - وعلياً من قبله ، كما يزعم البعض - عارضهم فى ذلك ، لأن عمر ما كان ليقدم أبداً على اتخاذ مثل هذا الإجراء بدون تفكير (البلاذرى ص ٤٥٨ فما بعدها) ، بل ذهب عمر فى إرضاء المطالب التى كانت توجه إلى بيت المال إلى حد بعيد ، فوسع دائرة أصحاب الأعطيات ، حتى صارت أكثر شمولاً لغير العرب مما كانت عليه من قبل ، وهو لم يقتصر على إعفاء الموالى الذين كانوا يحاربون مع العرب فى خراسان من الخراج ، بل جعل لهم أرواقاً وأعطيات ، وكتب لواليه على خراسان بعده بإرسال أموال إن لم تكشف فى ذلك أموال الخراج فى خراسان ، ولكن لم تدع الحاجة إلى ذلك (الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٤ و ١٣٦٦) . على أنه يجب أن نشك كل الشك فى صحة ما يُقال من أنه كان يعتبر كل من يعتنق الإسلام ويلحق بالكوفة والبصرة مهاجراً ويجعل له من الحقوق ما للدرارى الفاتحين العرب : ذلك لأن هذا ما لم يكن يمكن تبريره من الناحية الفقهية وكان يكون له من الناحية العملية أسوأ للنتائج . وكان عمر بن الخطاب قد فرض لعيال المقاتلة ، وأمضى هيمان ومن بعده ذلك ، وجعلوا الأعطيات موروثاً للذرية الميتة ، وجاء معاوية فضيقت دائرة

أصحاب الأعطيات من ذراري المقاتلة ، ثم جاء عبد الملك فأوقفها كُليَّةً ، فلما جاء عمر بن عبد العزيز أعادها (البلاذري ص ٤٥٨) فما بعدها والطبري ج ٢ ص ١٣٦٧) : وأمر عمر بن عبد العزيز بإعانة فقراء المسلمين ، خصوصاً من كان يريد الحج منهم ، كما أعطى الزمى أعطيات ثابتة ، ولم يفعل ما فعله الوليد الأول من قصر أعمال البرّ هل أهل الشام ، بل هو أهل ببيبره العراق وخراسان ، لأنه لم يكن يميز بعض الولايات على بعض (الطبري ج ٢ ص ١٣٣٧ و ١٣٦٤ و ١٣٦٧ و ١٨٥٤) .

أما فيما يتعلق بمعاملة عمر بن عبد العزيز لأهل الأديان الأخرى فإن تيوفانيس (في حوادث عام ٦٢١٠ من تاريخ الخليفة) يذكر في ذلك ما يأتي : « ولما حدث في تلك السنة زلزال كبير في الشام »^(١) حرم عمر النبيذ في المدن وأكره النصارى على الدخول في الإسلام ، وكان من فعل ذلك رفع عنه الجزية ، أما من لم يفعل فإنه قتلهم . وقد استشهد كثيرون ، وأمر بالآ تقيل شهادة نصراني على عربي ، وكذلك وجه إلى القيصر ليو (Leo) كتاباً يبين له فيه حقيقة الإسلام أملاً في أن يقنعه بالدخول فيه : وفي الذي يذكره تيوفانيس خلط بين باطل وحق : أما الحق فهو أن عمر بن عبد العزيز كان مسلماً متحمساً وأن النصارى أحسوا بذلك ، ولكن عمر لم يُكره النصارى على الدخول في الإسلام مهدداً إياهم بالقتل^(٢) ، لأنه لو كان فعل ذلك لكان فيه اعتداء على الحق القائم (الذي ضمنه الإسلام للنصارى) ، وهذا ما لم يكن من عمر ، لأنه مسلم حق ، وهو فيما يتعلق بالنصارى قد التزم حدود الشرع

(١) كان الزلزال في ١٥ جمادى الأولى سنة ٥٩٩ = ٢٤ ديسمبر سنة ٧١٧ م . وفي صفر (سبتمبر سنة ٧١٧ م) تولى عمر الخلافة .

(٢) يزعم ديل (Diehl) في كتابه عن تاريخ إفريقيا (Histoire d'Afrique) ، ١٨٩٦ ، ص ٥٩١) أن عمر بن عبد العزيز أمر الكاثوليك في إفريقيا أن يدخلوا في الإسلام أو يرحلوا عن البلاد ، ويستند ديل إلى ما جاء في رسائل Monum. Germ. Epsist. 3, 267 . ولكن البابا بجرمور في هذا الموضوع لا يأمر Bonifatius بأكثر من ألا يهتم بأي وجه بالإفريقيين الذين في جميع البلاد يريدون النجاة بالحياة الكنسية ، لأن معظمهم قد اعتنق مذهب ماني والبعض الآخر قد اعتنق أكثر من مرة (Afros pasaim ad ecclesiasticos ordines praetendentes nulla ratione suscipiat, quis aliqui eorum manichaei; aliqui rebaptizati saepius sunt probati) =

(١٩ - الدولة العربية)

التراماً تاماً ، وإن كان الأمر ربما بدا في أعين النصارى على غير ذلك . وقد
 حى عمر للنصارى ملكيتهم لكنائسهم القديمة التي ضمنها لهم الصلح ، ولم يكن
 يمنع إلا بناء كنائس جديدة (الطبرى ج ٢ ص ١٣٧١) (١) ، وهم "عمر بن
 عبد العزيز بأن يرد للنصارى ما أخذوا الوليد بن عبد الملك من كنيسة القديس
 يوحنا بغير حق ، لو أنهم في مقابل ذلك تنازلوا عن الكنائس التي كانت خارج
 باب دمشق ، خصوصاً كنيسة القديس ثوما ، لأن النصارى صارت لهم هذه
 الكنائس في الحقيقة خلافاً لشروط الصلح ، بحكم أن ما كان خارج دمشق قد
 فتح عنوة ولم يعط للنصارى في شروط الصلح . فلما لم يرض النصارى بذلك جعل
 عمر ما كان قد صار لهم من كنائس عوضاً لهم عما أخذوا الوليد من كنيسة القديس
 يوحنا (البلاذرى ص ١٢٥ - ١٢٦ والطبرى ج ٢ ص ١٢٧٥) (٢) ، وكان

= فهل يمكن هذا دليلاً على أن عمر أصدر ذلك الأمر الذي كان من شأنه أن يخالف الشرع
 الإسلامى مخالفة تامة ؟

(١) [كتب عمر بن العزيز في كتاب له لأحد عماله : لا تهدموا كنيسة ولا بومة
 ولا بيت نار صولتكم عليه ولا تحرقوا كنيسة ولا بيت نار - المترجم لقلا من الطبرى ج ٢
 ص ١٣٧١ - ١٣٧٢] .

(٢) [ذكر البلاذرى ص ١٢٥ أن معاوية وعبد الملك من بعده أرادا أخذ كنيسة يوحنا
 لدوسيع المسجد وبذلك للنصارى مالا عظيماً ، فلم يقبلوا حتى جاء الوليد ، فجمع النصارى وبذل لهم
 مالا عظيماً فأبوا ، فهدم الوليد بهدم الكنيسة ، فقال له بعضهم : من هدم كنيسة "جن" وأصابته
 حاقة ، فأحفظ ذلك الوليد ، ونادى بمحول وبدأ هدمها بيديه ووسيع المسجد . ثم شكى النصارى
 لعمر بن عبد العزيز ما كان الوليد قد فعله بكنائسهم ، فكتب يأمر بأن يرد على النصارى
 ما أخذوا الوليد من الكنيسة وزاد في المسجد . فكره أهل دمشق ذلك ، وأقبل الفقهاء على
 النصارى ، فسألوه أن يعطوا جميع كنائس القسوة التي أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين ،
 على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها ، فرفضوا بذلك وأعجبهم ، وأخبر عمر
 بذلك فسره وأصفاه . أما الطبرى (ج ٢ ص ١٢٧٥) فيقول إن النصارى شكوا لعمر
 أمر كنيسة يوحنا ، فقيل له : إن كل ما كان خارجاً من المدينة افتتح عنوة ، فقال عمر : أريد
 عليكم كنائسكم وتهدم كنيسة ثوما ، فإنها فتحت عنوة ونهبها مسجداً ، فلما قال لهم ذلك ،
 قالوا : بل فدع لكم هذا الذي هدمه الوليد ودعوا لنا كنيسة ثوما ، ففعل عمر ذلك .
 هذا ما يؤخذ من النصوص التي يعتمد عليها المؤلف ، وفيه تفصيل لما يقول وفيه أيضاً إصلاح
 للفكرة التي أخذها من النصوص - المترجم] .

القانون الذى طبقه عمر هنا هو ، على كل حال ، القانون الشرعى الذى لاشك فيه ، وكان لا يمكن أن يفعل غير ذلك ، إلا إذا تنكر للإسلام . أما الأحوال التى كان الأمر فيها أمر المال فقد كان عمر بن عبد العزيز أوسع صدرًا ، فكان نصارى أيلة وقبرس مثلاً قد صولحوا على إتاة ، ولكنها زيدت على مرور الزمان لأسباب مختلفة ، فلما جاء عمر بن عبد العزيز حطّ ما زيد على أهل قبرس وأمر بالآيزاد على ما صولح عليه أهل أيلة شيئاً (البلاغرى ص ٥٩ و ١٥٤ فما بعدها) . وكان النبی صلى الله عليه وسلم قد صالح أهل نجران فى اليمن على ألى حلة ، ثمن كل حلة أوقية ، ووزن الأوقية أربعون درهما ، وجعل لهم فى مقابل ذلك ذمة الله وعهده على أنفسهم وملتهم وأراضيهم وأموالهم . ولكن عمر بن الخطاب أدخل بالعهد إخلالاً منكراً ، وجد من يصوره فى صورة جميلة متنوعة ، فأكره نصارى نجران هم ومن تبعهم من اليهود على الجلاء عن جزيرة العرب إلى العراق والشام ، وذلك بأن اشترى منهم أراضيهم أو أبدلهم غيرها فى مواطنهم الجديدة ، واستمر سوادهم فى النجرانية قرب الكوفة ، ولكنهم ألزموا على أن يستمروا على دفع المقدار القديم الذى كانوا قد صولحوا عليه . وكان رئيسهم فى النجرانية هو المستول عن ذلك ، وكان يأخذ ما صولحوا عليه من النجرانيين الذين ارتحلوا إلى الشام أيضاً . فلما جاء عثمان بن عفان حطّ عنهم مائى حلة ، ثم حطّ عنهم معاوية مائة أخرى ، لأن عددهم كان قد تناقص بمن مات أو دخل فى الإسلام . فلما جاء الحجاج زاد عليهم مائى حلة ، لأنه ، كما يروى ، اتهمهم فىمن اتهم بموالاة ابن الأشعث . فلما جاء عمر بن عبد العزيز شكوا إليه فناءهم ونقصانهم وضعفهم والحاج الأعراب عليهم بالثارة وتحميلهم إياهم المؤن المحبقة بهم وظلم الحجاج إياهم ، فأمر عمر بإحصائهم ، فبين أنهم على العشر من عدتهم ، إذ وجد أنهم أربعة آلاف نفس بعد أن كانوا أربعين ألفاً ، فأراد أن يخفف عنهم ، ورأى أن ما صولحوا عليه من مال ليس صلحاً على أراضيهم التى أخذت منهم غصباً (أو هى على الأقل خرجت عن

أبدىهم) ، بل هو يجب أن يعتبر جزية على رؤوسهم مع إسقاط جزية من مات أو أسلم ، ونظراً لأن عددهم قد نقص إلى العشر فإن عمر أنقص تبعاً لذلك ما كانوا قد صولحوا عليه إلى العشر ، فألزمهم مائتي حلة بدلاً من ألفين ، أو بعبارة أخرى ثمانية آلاف درهم بدلاً من ثمانين ألفاً . وربما كان عمر ابن عبد العزيز قد أراد من وجه ما أن يصلح ظلم عمر بن الخطاب (١) (البلاذري ص ٧٦ لها بعدها) .

وأمر عمر بن عبد العزيز واليّه على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن في الكتاب الذي تقدم ذكره ، وهو عند الطبري (ج ٢ ص ١٣٦٦ لها بعدها) ، أن يعدل في معاملة الرعايا غير المسلمين أيضاً ، وأن يحسن معاملتهم ، وأن يأخذ الخراج في رفق ، وألا يحمل غريباً على حامر ولا حامراً على غريب ، وألا يأخذ من العامر سوى الخراج ، متجنباً الهدايا التي كانت منذ زمان قديم تهدى للولاة في

(١) [يجد القارئ عند البلاذري قصة هؤلاء النجرائين : وفد رؤسائهم على النبي عليه السلام ، فقدموا إلى الإسلام فأبوا ، فقدموا إلى المباحلة ففجئوها ، وصالحوه على شروط منها : إعطاء أُنّى حلة كل عام ، مع إمكان دفع ما يقابل بعضها سلاحاً أو غيلاً أو عروفاً أخرى ومنها : أن يدفعوا رسل النبي عليه السلام شهراً وأن يعمروه (عادية ترد أو يرد ثمنها) ثلاثين درهماً ثلاثين بغيراً وثلاثين فارساً ، إن كان باليمن كيد . وفي مقابل ذلك جعل لهم دمة الله وعهده ألا يفتنوا عن دينهم ومراعاتهم فيه ولا يحشروا ولا يعشروا ولا يغلوا أرضهم جيش ، وأن تكون لهم أرضهم وأموالهم . واشترط النبي عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به . ثم أجلاهم عمر ، وفي رواية أنه فعل ذلك تنفيذاً لأمر الرسول عليه السلام بألا يبق دينان في أرض العرب . وفي رواية أخرى أن النجرائين تزايد عددهم واحتلوا فيما بينهم فاحتصموا إلى عمر ، ويظهر أن بعضهم كان يريد إجلاله البعض ، لأنهم طلبوا منه أن يجعلهم ، فاهتم عمر ذلك وأجلاهم ، خوفاً منهم على المسلمين وتجنباً لوجود دين في الجزيرة . وفي رواية ثالثة أنهم خالفوا شروط الصلح ، فأكلوا الربا ، فأجلاهم عمر . ويجوز أن يكون الذي دُفد إلى ذلك أكثر من سبب ، وهو على كل حال اشترى منهم أرضهم وأموالهم ، وكتب إلى عماله أن يوسعوا لهم من الأرض ، وأن يجعلوا لهم ما يعمرونه ويستسلمونه منها ، تعويضاً لهم عن أرضهم التي كانت في اليمن . وعند البلاذري نص كتاب الصلح بينهم وبين النبي وذكر تفاصيل أخرى . ولا يمكن حل كل حال أن يكون عمر قد أجلاهم من غير مبرر لذلك ، ولا فإنه ينقض عهداً للنبي ، وهذا ما لا يمكن أن يفعله خليفة - المترجم] .

البلاد التي كانت فارسية ، مثل هدايا النيروز والمهرجان ودرهم النكاح وثمان للصحف وأجور الضرابين والآيين^(١) ، ومعنى هذه الكلمة هو العادة ، والمقصود بها الضرائب على تنوعها ، وهو ما تدل عليه الكلمة الإنجليزية (Custom)^(٢) : وهذه الهدايا لم تكن مشروعة ، وكان يصعب الإشراف عليها ، وفي معظم الأحوال كانت لا تدخل بيت المال ، ولذلك كان القضاء عليها صيراً ، وكان الولاة لا يحبون أن يأتى لهم الناس في النيروز وغيره من مناسبات بأيدٍ خالية (الطبرى ج ٢ ص ١٦٣٥ فما بعدها) .

وقد دعت عمر إلى تحريم بيع أرض الخراج اعتباراً ترجع إلى أحوال بيت المال . فهو قد أراد أن يقفادى نقص الخراج الناشئ من انتقال أرض الخراج إلى أيدي المسلمين وسقوط الخراج عنها لهذا السبب ، ولكنه بذلك وضع في نفس الوقت سداً أمام الرغبة في اقتناء الضياع ، محاولاً أن يصحى دافعي الخراج من الملاك من أن تطفئ على أرضهم شهوة التملك من جانب السادة العرب الذين كان امتلاك الأرض أكثر فائدة لهم بحكم أنهم لم يكونوا يؤدون عنها خراجاً . ومثل ذلك حدث في شمال غربي ألمانيا ، في مقاطعة « براونشفايغ - لونبرج » (Braunschweig - Lüneberg) مثلاً ، من معارضة الأمراء لأسباب مالية في انتقال الأرض الزراعية إلى يد الأشراف ، لأنها عند ذلك تعفى من الضرائب ، ولكنهم في نفس الوقت أنقلوا بذلك طبقة الزواجر دون أن يقصروا إلى إنقاذها : ولا شك في أن عمر بن عبد العزيز لم ينجح نجاح هؤلاء الأمراء ، ولكن

(١) [يحسن الرجوع إلى نص الكتاب الذي كتبه عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد وإلى الكوفة ، وهو مذكور عند الطبرى (ج ٢ ص ١٣٦٦) بنصه الكامل ، وهو أوضح وأشمل من كلام المؤلف - المترجم] .

(٢) إن فكرة الضرائب الجمركية غير معروفة في التشريع الفرائضى الإسلامى ، فلا يوجد بحسب هذا التشريع إلا الخراج والعشر . على أن المشرعين الإسلاميين عرفوا كيف يطبقون قاعدة أخذ الخراج والعشر على التاجر الذى يرتحل ببضائمه .

الأحوال في المشرق كانت أيضاً مغايرة للأحوال في ألمانيا ، فكان في المشرق قليل من الفلاحين بالمعنى المعروف عندنا ، هذا إلى أن ملاك الأرض من غير العرب كانوا في الغالب دهاقين أو بعبارة أخرى ، سادة يملكون الضياع والقرى وكان الفلاحون تبعاً لهم .

٣- وعلى الرغم من أن أشياء كثيرة لا تزال غامضة فإن ثم شيئاً واحداً واضحاً إلى حد كبير ، وهو أن المؤرخ يجلب على نفسه السخرية إذا نظر إلى عمر ابن عبدالعزيز نظرة استهزاء مقصود ، وهذا هو ما بدأه دوزي ، فأعطى بذلك الإشارة لغيره . من الجائز أن يكون عمر متأثراً بالدين ، أعني في هذه الحالة بعلم الفقه ، تأثراً أكثر مما يريد البعض ، وأن يكون تدقيقه في محاسبة نفسه قد أدى به في كثير من الأحيان إلى تشكك حاقه في تنفيذ سياسته . فبروى أنه مرة ختم خطبة له بقوله : أقول لكم هذا وما أحسن^(١) بآتي خير منكم . فلم يكن عند عمر

(١) [لا يذكر المؤلف المصدر الذي اعتمد عليه ، ولكن ثم خطبة لعمر بن عبد العزيز ذكرها الطبري (ج ٢ ص ١٣٦٨ - ١٣٦٩) ، وهي تدل على لوائح كثيرة من روحه وشخصيته ، وفيها جوهر العبارة التي يذكرها له المؤلف ، وما هي بنصها الكامل : « أيها الناس ! أنكم لم تخلقوا حيّاً ، وإن تركوا سدى ، وإن أنكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فحكم ، وقد غاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحرم الجنة التي هي رحمتها للسموات والأرض . ألا فاعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وعذابه ، وباع نادداً بهاء وقليلاً بكثير وعفوياً بأمان . ألا ترون أنكم في أسلاب المهالكين ، وسيف خلفها يهدمكم البهلوان ، حتى ترد إلى غير الوارثين ؟ وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ، قد قضى نحبه والقضى أجله ، فتعجبونه في صدع الأرض ، ثم تدعونه غير موسود ولا مهد ، قد فارق الأحبة وخلع الأسباب ، فسكن التراب وواجه الحساب ، فهو مرتين بعمله فتير إلى ما قدم ، حتى عما ترك ، فاتقوا الله قبل نزول الموت ، وأيم الله إنى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ، فاستغفروا الله وأنوب إليه ، وما منكم من أحد تبلغنا عنه حاجة إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه ، وما من أحد يسهه ما عندنا إلا رددت أنه ساوئى ولحقى الدين يلوئى ، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء ، وأيم الله لو أردت غير هذا من الغصارة والعيش لكان اللسان حتى به ذلولاً عالملاً بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب لاطق وسنة عادلة يدل فيها على طاعة وينهى عن معصية . ثم رفع طرف رداقه فبكى حتى شق وأبكى الناس حوله ، ثم نزل فكانت إياها لم يجلب بعدها حتى مات . ويظهر أن هذه هي الخطبة التي يقصدها المؤلف ، غير أنه لم يقرأها إلى نهايتها - المترجم] .

ابن عبد العزيز ذلك الشعور الوطيد بأن له سلطاناً شخصياً ، هذا الشعور الذى كان بلده عمر بن الخطاب ، وكان به يُرهب الدنيا ، ولكن عمر ابن عبد العزيز لم يكن معنياً بنفسه ، بل عنى بالخير للناس والبر بهم ، وقد دفعه ورعه إلى الحكم الصالح وإلى معالجة الأعباء الكبيرة التى كان يقتضيها الحكم الصالح بما هى أهل له .

وليس من الضروري ، بطبيعة الحال ، أن يكون عمر قادراً على تحقيق كل ما اتجهت إليه نيته الطيبة ، فثلاً يذكر بعض من لم ينصف أن الدليل الأكبر على عدم كفاءته السياسية أنه ضياع الأموال ، ولكننا قد عرفنا فيما تقدم حقيقة الأمر في ذلك ، فهو إذا كان قد أسقط الجزية عن دخل في الإسلام من الشعوب والممالك ، فإنه إنما أراد بذلك أن يتفادى شن الحروب لجرد الغنائم ، ولم يفرط في شيء يدخل في بيت مال الدولة : لأن السملك لم يكن قد وقع بعد في الشبكة ، أما في الولايات التى كانت قد فتحت قبل عهده بزمان طویل ، وتقررت جزيتها وخراجها طبقاً لقانون الفتح ، أعنى أرض السواد وأرض مصر ، فإن عمر بن عبد العزيز تمسك بالقانون المأثور الذى كان قد جرى العمل به ، وقاوم انتقاص أرض الدولة ودخلها ، كما أنه حاول أن يتفادى الضرر الذى من شأنه أن يلحق بأموال الدولة بعد إسقاط الجزية عن جميع المسلمين . ولا شك أيضاً في أنه ، إذ متّع من قبول الولاة للهدايا والعطايا بما فيها من إساءة استعمال السلطة ، إنما ناك من الغمال وحدهم ، وهم الذين كانوا يستولون على تلك الهدايا : وأقصى ما يمكن أن يؤول إليه هو أنه كان يكثر من إلقاء الأعباء على بيت المال بسبب أنواع المساعدات والبر التى قدمها للجميع أو كان يود لو استطاع تقديمها لهم ، أما فيما يتعلق بنفسه فإنه لم يستعمل شيئاً من أموال الدولة ولا جمع منها الكنوز (١) ولا هو

(١) [راجع ما تقدم في هامش ص ٢٩٤ حيث يعرب عمر عن عدم رغبته في جمع الأموال . وهنا نجد دليلاً على روح البر التى كانت تملأ نفسه ، حتى إنه كان يتنى أن يكون يعيش الناس وعيشه سواء ، أما فيما يتعلق بأنواع البر فقد قدم المؤلف ذكر بعضها . وفى -

أسرف فيها أيضاً في حملات حربية على القسطنطينية : وكان في ذلك مخالفاً^١ لسلفه كل المخالفة : وكذلك حتى عمر بالخيولة بين الولاة وبين أن يكون همهم الأول من مناصبهم جمع الأموال لأنفسهم ، والأغلب أن ذلك حوّل النفقات التي اقتضتها إصلاحاته ضعفين : أما ما يزعمه البعض (ا . موالر A. Müller 1441) من أن أموال الدولة في عهده قد تلاشت ، كما يزول الشيء بإشارة سحرية ، وأن ما يتحصل من الخراج قد المخطّ دفعة واحدة ، فلنّى لا أريد هنا أن أعرض للكلام فيما إذا كان ذلك الزعم أكثر من أن يكون نتيجة خطأ ، ولكنه على كل حال زعم لا يمكن أن يكون صحيحاً بوجه من الوجوه ، وذلك أن الأحوال المالية كانت سيئة في الأيام المضطربة لعهد عبد الملك والحجاج ، أما في عهد عمر بن عبد العزيز فقد عادت إلى حالة الصحة ، ومهما كان الأمر فإن الاهتمام بالشئون المالية ليس هو كل ما يعنى الدولة : ومن ذا الذى يكون عنده من الجرأة ما يجعله يستنكر على عمر أنه أسقط عن البربر الجزية ، جزية الأبناء - فقد كانوا يقدمون أبناءهم على سبيل الجزية - وأنه خفف العبء على نصارى نجران ، وأنه عمل على حماية الرعية من العمال ، وأنه حرص على ألا تكون إدارة الأمصار مجرد وسيلة لاستغلالها استغلالاً مالياً !

أما فون كيرمر وأوجست مولتر فرأيهما أن عمر بن عبد العزيز إنما تدخل في الأمور المالية دون أية ضرورة عملية جبرياً وراء ما صوّره له ورعه من مثل عليا خيالية ، فأفسد المجرى الطبيعي للمالية وأخرجها عن الطريق الذى أدّى بها إليه التطور السابق ، وهما يزعمان أيضاً أنه لم تكن عنده أية فكرة عن الأحوال الواقعية : أما الحقيقة فهي بالأحرى أن المؤرخين الذين ينقلون أعمال عمر هم الذين يتصورون الأحوال الواقعة لذلك العصر تصوراً خاطئاً . فلقد كانت هذه الأحوال مضطربة

- الطبرى (ج ٢ ص ١٣٦٤) زيادة على ذلك أنه أمر بعمل خانات لفقراء من يمر من المسلمين يوماً وليلة ولتمهد دوابهم ولفراء من كانت به حلة يومين وليلتين وتقوية المنقطع بما يصل به إلى بلاده . وقد كان عدل عمر وإحسانه سبباً في كثرة المطالب والشكاوى - المترجم] .

ومحتاجة إلى تنظيم جديد : ولم يكن عمر نفسه هو الذى أحدث الاضطراب فى نظام الخراج ، بل كان الاضطراب موجوداً من قبل ، وما كان يمكن أن يستمر : ولم يكن الواجب الذى أراد عمر الاضطلاع به واجباً نهائياً موهوماً ، بل كان واجباً حقيقياً ومُلِحاً . وكان أول من حاول النهوض بهذا الواجب محاولة جدّية هو الحجاج ، غير أنه قام بذلك على نحو أثار عليه بغض الناس . أما عمر فقد حاول تحقيق ذلك الواجب على طريق آخر ، مراعيّاً تلك الحساسية التى يؤيدها الإسلام أو التى تستند إليه على الأقل . وقد كان أمام كل من الحجاج وعمر نفس المشكلة التى تمخضت عنها الأيام وكان لا بد لها من حلٍّ ، وهى إنما نشأت من أن أرض الخراج أخذت تنتقل شيئاً فشيئاً إلى أيدي مالكيّن لا يلزمهم أداء الخراج .

وبذلك أيضاً يطل فى الحملة مايؤخذ على عمر بن عبد العزيز من أنه زرع أركان الدولة الأموية . فالحق أنها كانت تَمِيدُ من قبله ، وكانت من أول الأمر مزعزعة . فأما القاعدة التى تمخضت عنها الحكمة الرومانية ، وهى ! أن دولة لا يمكن أن تعيش إلا بالوسائل التى اعتمدت عليها فى قيامها ، هذه القاعدة التى بسوقها ا. مولر فى أخذه على عمر بن عبد العزيز انحرافه عن سنة سلفه من خلفاء بنى أمية ، فهى قاعدة يمكن أيضاً أن تُذكر فى معرض النقد لخلفاء بنى أمية أنفسهم ، ذلك أن حكومتهم لم تكن بأى حال من الأحوال سائرة على سنة حكومة النبی عليه السلام وأصحابه ، وهى وإن كانت قد أرادت أن تتمسك بالإسلام ، وما كان يمكنها أن تنكر له ، فإن الإسلام لم يكن من شأنه أن يؤيدها بل أن يقوّض الأساس الذى قامت عليه : وكان على بنى أمية دائماً أن يشتغلوا بالقضاء على الثورات التى كانت تقوم لمحاربة سلطانهم باسم الله وباسم الدين . وإلى جانب ذلك كانت تهددهم من جانب أهل العراق حداوة لا تلبس ، هذه العداوة التى كانت تندلع بين حين وآخر فى صورة ثورات هائلة على الاستبداد الشامى البغيض . على أن أكبر خطر كان يهددهم هو تلك الحركة الاجتماعية التى لم تكن

موجهة إليهم وحدهم بل إلى السيادة العربية على إطلاقها . وكان عمر بن الخطاب قد نظم الدولة الإسلامية طبقاً لقانون الفتح ، بحيث جعلها دولة للعرب على المغلوبين وأقامها على أساس من التمييز الدينى والقوى على السواء بين طبقتين منفصلتين : طبقة العرب المسلمين وطبقة أهل الديانات الأخرى من غير العرب ، أو بعبارة أخرى طبقة الأرستقراطية الحربية من العرب ، وطبقة دافعى الجزية والخراج من كافة غير العرب . ولكن عمر بن الخطاب بصنيعة هذا لم يُقيم بناء الدولة على أساس ثابت ، ذلك أن الحاجز الذى كان يفصل بين السادة العرب والخدام من غير العرب أخذ يتصدع بسبب دخول غير العرب فى الإسلام شيئاً فشيئاً ، وبسبب خلبتهم فى المدن التى أنشئت للجيش العربى . وكان صيغ المغلوبين بصيغة الإسلام شيئاً فشيئاً ، وهو عملية طبيعية لا يمكن إيقافها ، سبباً فى تعويض النظام الذى وضعه عمر بن الخطاب للخطر ، وإن كان ذلك لم يحصل فى عهد عمر ، بل فى عهد بنى أمية الذين أخذوا بذلك النظام . وكان الواجب ، مراعاة للأصول التى تقوم عليها الدولة التوقراطية على الأقل ، أن يكون المركز السياسى للمواطنين فيها تابعاً للدين ، وأن يكون الإسلام لا القومية ، هو الذى يجعل للمواطنين فيها حقوقهم :

وكان الموالى بالباب يتربصون الدوائر ، كانوا يتطلعون إلى المساواة التامة بالعرب . وكان الإسلام فى جانبهم ، فاجتذبتهم الثورة التى كانت تستند إلى الإسلام ، وقد حاول عمر بن عهد الأميز أن يجيب مطالبهم دون ثمن خال ، ولعل الاعتبارات التى كانت تحدوه فى ذلك قد كانت اعتبارات دينية أكثر منها سياسية ، ولم يكن من المستطاع كَسْرُ الروح الإسلامية ، بل كان لابد من أن يُجسَّب حسابها ، وكانت خصومة الإسلام للدولة الأموية تهددها بالانهيار ، وعلى هذا فإن خليفة أموياً يجتهد فى أن يتمشى مع أصول الإسلام وفى تجريد حركات المعارضة من سلاحها الإسلامى بأن يزيل أسباب الشكوى التى كان لها

ما يبررها ويستجيب إلى ما يمكن الاستجابة إليه من مطالب ، إن خليفة يعمل لذلك لا يكون قد أتى شيئاً يضر بمصلحة أسرته الحاكمة . وربما كان هذا هو البرنامج الذي وضعه عمر بن عبد العزيز ، فهو قد حاول أن يجد في الإسلام أساساً مشتركاً بين الجميع ، يمكن أن تلتقى عنده الحكومة والقوى المتحفزة الطامحة بالمعادية لها . وهو ، تمثيلاً مع هذه الغاية ، سار على سياسة التفاهم والتصالح . ولم يكن عمله في ذلك مقصوداً على الموالي وحدهم ، فقد حاول أيضاً أن يزيل أسباب التدمير في الأمصار ، وخصوصاً حاول أن يزيل ما كان في نفوس أهل العراق من شعور بأنهم تحت حكم رياسة شامية أجنبية عنهم ، وكان يبره بتسع للجميع على سواء ، بل كان يظن أنه يستطيع لإرضاء الخوارج بمناظرة لآبائهم في آرائهم^(١) ، وهو قد نجح على الأقل في أن جعلهم يغمدون سيوفهم ما امتدت حياته . ولم يكن يعاقب المجرمين السياسيين ، على حين أنه كان شديداً على غيرهم من المجرمين ، وقد أثبت يره بالعلوين ، ورداً إليهم ما كان قد أخذ منهم من ممتلكات . وفعل مثل ذلك مع ورثة طلحة ، وترك لعن على بن أبي طالب على المنبر ، وكتب للملك إلى الأفاق^(٢) أما القول بأنه كان يعترف في أعماق نفسه بصحة دعوى العلوين في الخلافة فلا يمكن أن يؤخذ من ذلك^(٣) ولا يصح تصديقه . لقد كان عمر بن

(١) [راجع في هذا الطبري مثلاً (ج ٢ ص ١٣٤٨ - ١٣٤٩) ، حيث طلب عمر من رئيس من رؤساء الخوارج أن يناظره - المترجم] .
(٢) الأغاني ج ٢ ص ١٥٣ واليهقوي ج ٢ ص ٣٦٦ ، وذلك لآل Well في مجلة هذه المسألة شكاً ليس له مبرر ، وذلك أنه ، حتى بعد عمر ، لم يصدر أمر رسمي بلعن على (الطبري ج ٣ ص ١٤٨٢ - ١٤٨٣) .
[أراد سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان أن يزين هشام بن عبد الملك ، وهو يصح بالناس سنة ١٠٦ هـ ، لعن على بن أبي طالب ، فنقل كلامه على هشام ورد عليه قائلاً : ما قدمنا لشتم أحد ولا لامت ! قدمنا حجاجاً . فلم يقع ما طلبه حفيد عثمان في نفس هشام إلا موقعاً سيئاً - المترجم فقلنا عن الطبري في الموضوع المشار إليه] .
(٣) يميل الفصل المعقود لعمر في كتاب الأغاني إلى تصويره شيعياً مستتراً ، ولكن يستطيع الخوارج ، وهم من الشيعة على طرفي نقيض ، أن يعتبروا عمر بن عبد العزيز منهم .

عبد العزيز مسلماً من الطراز القديم ، وكان الإسلام الأول لا يؤيد في الحملة ما يدعيه الشيعة من أنهم أصحاب الحق في الخلافة : وربما كان من شأن الإسلام أن يرضى عن الأمويين أيضاً - رغم أن أصل سيادتهم لم يكن متفقاً مع القانون - لو أنهم بعد ذلك لم يخالفوا الإسلام . وقد شهد المنصور العباسي لعمر بن عبد العزيز بأن أعماله مرضية في جملتها ، ولكنه كان يرى أن عمر كان أموياً ، لأنه تملك بتقديم أهل بيته (الطبري ج ٢ ص ٥٣٤) (١) .

وهذا هو حكم صاحب كتاب الصلة لتاريخ ايزيدور (الفصل ٣٨) على عمر بن عبد العزيز :

Hamer in exercitiis nihili satis prosperum nec quicquam adversum peregit, tantae autem benignitatis patientiae fuit, ut hactenus tantus ei honor lausque referatur, etiam ab externis quantus ulli umquam viventi, regni gubernacula praeroganti adlatus est. (٢)

ومهما يكن من شيء فقد كانت أغراض عمر أغراضاً طيبة ، وربما لم تكن

(١) [هذا ما يقوله المؤلف بحسب ما أهمه من النص الذي اعتمد عليه ، وهو من حيث الفكرة صحيح بعض الشيء ، أما ما يؤخذ من النص فهو هذا : وهو أن المهدي جلس للمظالم ، فتقدم إليه رجل من آل الزبير يطلب رد ضريبة كانت له من أبيه واصطفاه بعض ملوك بني أمية ، فلما أمر المهدي بالبحث عن حقيقة أمرها في الديوان العتيق اتضح أن أمرها قد عرض على عدة منهم لم يروا ردّها إليه ومنهم عمر بن عبد العزيز . فقال المهدي : يا زبيرى ! هذا عمر بن عبد العزيز ، وهو متكم مفرق ريش ، لم يَرَّ رَدُّها . قال : وكل أعمال عمر ترضى ؟ قال : وأى أعماله لا ترضى ؟ قال : منها أنه كان يفرض للسلط من بني أمية في خرقه في الشرف من لقطاء ، ويفرض للشيوخ من بني هاشم في سجين . قال للمهدي : ألكذلك كان يفعل عمر ؟ قول ! نعم . فقال : أردد على الزبيرى ضيعته . يتبين من جملة هذه الحكاية حسن ظن المهدي بعمر بن عبد العزيز ورعاه من أعماله ، لكن ما يعاب على عمر من أنه كان يحابي الأمويين إنما جاء من جانب الزبيرى في معرض نقده لأعمال عمر التي أراد المهدي أن يعتبرها صواباً كلها . ويدل السياق على أن النقد جاء على لسان الزبيرى . - المترجم نقلاً عن الطبري ج ٣ ص ٥٢٤] .

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي : « إن عمر لم يقم فيما يتعلق بتسيير الجيوش إلا بما جلب نصراً ولا بما جر نكبة ، لكنه كان وجلاً له من الرقة والحلم ما استحق له التقدير وللثناء حتى من الأعداء ، وقد قال من ذلك ما لم يتله حتى يطيح إلى الملك - المترجم] .

أيضاً بعيدة عن الحكمة ، ولا يمكن التكهن بما كان سيحقق من أعمال ، لأن خلافته لم تدم إلا نحو عامين ونصف ، فقد توفي عن تسع وثلاثين عاماً في يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ (٩ فبراير سنة ٧٢٠ م .) في الحناصرة ، قرب دمشق . ويقول أبو حبيدة إن الأمويين دسوا إليه من سقاء السم " ، لأنهم خافوا من أن يستمع إلى الخوارج ، فيخلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد ، مخالفاً في ذلك لما عهد به سليمان بن عبد الملك من أن يكون يزيد هو الخليفة بعد عمر بن عبد العزيز (١) . ولكن المؤرخين القدماء الذين يعول عليهم لا يذكرون هذه الرواية وهي لا تتم إلا عن الأسف من أن عمر بن عبد العزيز المصلح قد اختبر وفارق الدنيا قبل الأوان ، وأن النظام الذي كان سائداً قبله حاد من جديد .

(١) [تختلف الروايات في تاريخ ومكان وفاة عمر بن عبد العزيز ، وهي موجودة عند الطبري (ج ٢ ص ١٣٦١ لما بعدها) ، وعند المسعودي في كتاب التلخيص والإشراف مثلا ص ٣١٩ من طبعة ليدن . أما مسألة أن الأمويين دسوا إليه من سقاء السم فهي موجودة عند الطبري ج ٢ ص ١٣٤٨ - ١٣٤٩ . وهي تتعلق في أن بعض الخوارج ثاروا في عهده ، فكتب عمر إلى زعيمهم : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبهه ، ولدت أول بذلك مني ، لعل أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان في يديك نظرنا في أمرنا . فبحث الزعيم الخارجي رجلين لمشاهدة عمر ، فكان مما اعترضنا به عليه أنه أفر يزيد بن عبد الملك لكى على الخلافة بعده . فقال لما : صبره خير ، فقبل له : أفرأيت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه ، أترأى كنت أدبت الأمانة إلى من ائتمنتك ؟ فقال عمر : أنظراني ثلاثاً . وخرج المذنبان الخارجيان من عهده . وخاف بنو مروان أن يخرج ما عندهم وفي أيديهم من الأموال وأن يخلع يزيد ، فدسوا إليه من سقاء سم ، فلم يلبث عمر إلا ثلاثة أيام حتى مات . فإظهار أن عمر اقتنع باعتراض هؤلاء الخوارج وأراد التفكير فيما يصنع - المترجم] .

الفصل السادس

المروانيون المتأخرون

١ - كان يزيد بن عبد الملك حفيداً ليزيد بن معاوية من طريق ابنته هانكة التي تزوجها عبد الملك ، وكثيراً ما يُنسب إلى أمه النامية ، فيسمى يزيد بن هانكة^(١) . وكان يحس أنه أشرف من بقية بني مروان ، وكان يباهى بما يجزى في هروقه من دم سفياني . والحقيقة أن عرفاً من جده لأمه كان ينبض عليه ، وإن كان لم يرث من جده رفته وتلطفه مع الناس .

ولم يكده يرتقى عرش الخلافة حتى كانت كائنة^(٢) صار لها تأثيرها الحاسم في حكمته وفي العصر التالي له . فقد كانت ليزيد بن عبد الملك صلات وثيقة بالحجاج ، وهو تزوج ابنة محمد بن يوسف أخى الحجاج نفسه ، فأنجبت له في حياة الحجاج ابنه الوليد الذي صار خليفة فيما بعد ، وقد أسمت ابنتها الأول الذي توفي الحجاج على اسم خاله . ومن جراء ذلك كان يزيد بن عبد الملك يبغي يزيد بن المهلب ، وكان يزيد هذا والياً على العراق ، وقد حذب آل الحجاج . وكان يزيد بن المهلب من المستظلمين بظل سليمان بن عبد الملك ، فلما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة لم يتوقع ابن المهلب منه خيراً^(٣) . فهرب من السجن الذي كان حبسه فيه عمر بن عبد العزيز إلى أن يقضى الأموال التي كان كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك أنها صارت إليه هدية

(١) كانت لا تزال في ذلك العهد تملق تهمة كبيرة على ميلاد الرجل من أم كريمة ، وكانت أم مسلمة بن عبد الملك جارية غير عربية ، ولذلك لم ينظر إليه التشجيع للخلافة رغم أنه كان رجلاً كفواً وحاذقاً ورغم أنه كانت له في أسرة الأمويين أربع مكانة .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣٥٩ ص ١٥ - ١٣٦٠ ص ٢ ، ص ١٣٦٠ ص ١١]

١١ ، حيث يعبر ابن المهلب عن خوفه من يزيد بن عبد الملك - المترجم] .

فتحه جرجان وطبرستان^(١) ، ويقول الواقدي إن يزيد لم يهرب من السجن إلا بعد وفاة عمر^(٢) . أما أبو مخنف ، وهو عمدة الرواة الذين اعتمد عليهم الطبري ، فيقول إنه هرب بعد أن علم بأن المرض قد ثقل على عمر . وقصد يزيد البصرة ، موطن أسرته من المهالبة وموطن قبيلته أزد عمان . وقد مر في طريقه بقبيلة قيس ، فأتبعوه ، ولكن ردهم عنه الهذيل بن زفر ، وبعث إلى الكوفة جماعة من شرطة الكوفة ووجوه الناس وأهل القوة فيها ليعرضوا له ، ولكنه مرّ غير بعيد منهم ، فأشفقوا من الإقدام عليه . ومضى حتى ظهر أمام البصرة في كتيبة كبيرة من أصحابه الذين أقبل فيهم ومن رجال من أهل بيته ومواليه ، جمعهم أخوه محمد بن المهلب وخرج بهم لاستقباله . وكان حديّ بن أرمطة الفزاري وإلى الكوفة قد قبض على من وصلت إليه يده من آل المهلب ، وخرج مع قبائل البصرة ، فوقفوا أمام المدينة لكي يمنعوا ابن المهلب من دخولها ، ولكنه لما أقبل جعل لا يمر بخيل من خيولهم ولا قبيلة من قبائلهم إلا تنحوا له عن السبيل . واستقبله المهدي بن عبد الله الثقفي في خيول ، فحمل عليه محمد بن المهلب في الخيل ، فأفرج له عن الطريق . فدخل ابن المهلب البصرة ، وأقبل حتى نزل داره ، واختلط إليه الناس ، ومن الواضح أن الخليفة الجديد لم تسبق خلافته مهمة طيبة ، ويظهر أنه لم يكن من جند الشام لا في البصرة ولا في الكوفة العدد الكافي ، ويجوز أن يكون عمر بن عبد العزيز قد أحادهم إلى الشام من قبل .

وقد بدأ يزيد بن المهلب بمفاوضة حديّ بن أرمطة أمير البصرة في أن يفرج عن بني المهلب الذين كان قد حبسهم في القصر بالبصرة ، وذلك في مقابل أن

(١) زدنا كلمات على الأصل الألماني ، أخذناها من التنبيه لسمودي (ص ٣٢٠ - ٣٢١) ، زيادة في الإيضاح - المترجم .
(٢) تجد ذلك في الطبري ج ٢ ص ١٣٦١ ص ٢ - ٣ . وتجد قصة ابن المهلب وما كان منه عند الطبري ج ٢ ص ١٣٥٩ - ١٣٦١ ص ١٣٧٩ ص ١٤١٦ - المترجم .

يصالحه على البصرة ويخلفه وإياها ، حتى يأخذ لنفسه ما يجب من يزيد بن عبد الملك ، فلما لم يقبل عدى جعل ابن المهلب الحكم لل سيف ، وقد انضمت إليه قبائل اليمن ، أعنى الأزد وربيعة ، وكانوا متحالفين في البصرة وفي خراسان . وكان ابن المهلب قد استمال الناس بما فرق فيهم من ذهب وفضة ، أما قبائل تميم وقيس - وكانوا منذ القدم يتنافسون قبائل اليمن - فلمهم كانوا في جانب الوالي ، ونظراً لأن الوالي لم يكن جواداً بالأموال ، لأنه لم يكن يستحل أن يمد يده إلى بيت المال^(١) ، فإن أنصاره من قيس وتميم ، بل وبعض جند الشام ، تراخوا وتفرقوا عنه عند أول صدام بين الفريقين ، وفر عدى منهزماً ، فحوصر في القصر . وكان المهالبة محبوسين هناك أيضاً ، فلما سمعوا الأصوات تدنو والنشاب تقع في القصر علموا أن أنصارهم قد ظهر ، ونحشوا أن يقتلهم أنصار عدى ، فأغلقوا الباب عليهم ووضعوا خلفه الأمتعة وانكوا على الباب . وجاء أعداؤهم وحاجلوا الباب فلم يستطيعوا الدخول ، حتى أحجلهم أنصار ابن المهلب ، ففترقوا . وبعد أيام قليلة سقط القصر في يد ابن المهلب ، وأسر عدى بن أرطاة ، وجيء به إلى ابن المهلب ، وهو يبتسم ، لأنه كان واقعاً من أن الثوار لن يمسوا له شعرة واحدة عروفاً من جند الله (أعنى جند الحكومة) في الشام^(٢) .

(١) [جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٣٨٢ - ١٣٨٣) أن ابن المهلب كان يقطع لمن يأتيه من الناس قطع الذهب والفضة ، وأن عدى بن أرطاة كان لا يعطى إلا درهين درهين ، ويقول لأصحابه : لا يحل لي أن أعطكم من بيت المال درهماً إلا بأمر يزيد بن عبد الملك ، ولكن تطلبوا بهذا حتى يأتي الأمر في ذلك - وللفرزدق أبيات في هذا - المترجم] .

(٢) [جيء إلى ابن المهلب بعدى بن أرطاة ، وهو يبتسم ، فقال له ابن المهلب : لم تفعلك ؟ فواثق ليلبي أن يمنحك من الفصحك مصلتان : إحداهما الفرار من القتلة الكريمة ، حتى أعطيت يديك إعطاء المرأة بيدها ، والأخرى أن أتيت بك تلع كذا يقتل العهد الآتي إلى أربابه ، وليس معك مني عهد ولا عقد ، فما يظنك أن أخرب عنك ؟ فقال له عدى : أما أنت فقد قدرت على ، ولكني أعلم أن بقائي يتأولك ، وأن هلاكى مطلوب به من جرحه يده ؟ إنك قد رأيت جنود الله بالمغرب وعلبت بلاء الله عندهم في كل موطن من مواطن الفدر والنكت ، فتدارك فلتنتك وزانك بالتوبة واستقالة العثرة قبل أن يرى إليك البحر بأمواله ! ... المترجم نقلاً من الطبري ج ٢ ص ١٣٨٥ فما بعدها] .

وكان مُحَبِّبُ بن عبد الملك بن المهلب ، لما ثار عُمُه ، قد ذهب إلى يزيد بن عبد الملك ، فبعث معه بالأمان للمهالبة جميعاً ، ولكنه لما أقبل بالأمان ، ومعه خالد بن عبد الله القسري وعمرو بن يزيد الحكمي ، كان يزيد بن المهلب قد انتصر وقتل القتلى وحبس عدى بن أرحطاة وجاهر بالدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وحث الناس على الجهاد ، وكان يزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم (١) . فهو قد أراد أن يتخذ من الإسلام قوة يستند بها أزره . ولكن كان في البصرة رجلٌ تجسراً على أن يرفع صوته معارضاً ليزيد ، وذلك هو الحسن البصري ، صديق عمر بن عبد العزيز . فقد كان الحسن يُثَبِّطُ الناس عن الفتنة ويحضهم على أن يكفوا أيديهم عن قتال على دنيا زائلة وأن يكفوا بالإقبال على الله وعظيم ثوابه في الآخرة : وقد اتهم الثوار الحسن بأنه موال لأهل الشام وبأنه الشيخ الضال المرائي ، فقال فيه مروان بن المهلب مثلاً :
« والله لو أن جاراً له نزع من شخص داره قصبة (٢) لظل يرفع أنفه ، أيُنكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب خبرنا وأن ننكر مظلمتنا ! » . ولكن الحسن لم يكف عما كان يفعل ، وهولم يُفْتَنَ من رأيه كما لم يُفْتَنَ إرميا النبي في موقف مشابه لموقفه ، بل هو مضى في سبيله محاولاً أن يثبط من استمع إليه عن الاشتراك في الفتنة ، وقد كان له تأثيرٌ خصوصاً على الموالي في بعض القرى القريبة من البصرة (٣) . على أن الحسن ، بفصله بين الدين والسياسة في الدولة التيوقراطية ، قد

(١) [هذا هو مضمون خطبة ليزيد بن المهلب (الطبري ج ٢ ص ١٣٩١) . أما بهتة (الطبري ج ٢ ص ١٣٩٨) فكان يقول لمن يهايمه : " تهايمون على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلى ألا تفلأ الخنود بلادنا ولا يبيضتنا ولا تباد علينا سيرة العاصق المجرع ، فمن بايأنا على ذلك قبلنا منه ومن أبي جاهدناه وجعلنا الله بيننا وبينه " . فإذا قالوا : نعم ، بايأهم - المترجم] .

(٢) كانت الدور العادية في البصرة قنبي من القصب .

(٣) [ولذلك يقول عنه مروان بن المهلب : وأيم الله ليكفّن من ذكرنا وعن جمعه إلينا سقراط الأبله وعلوج فرات البصرة ، قوم ليسوا من أنفسنا ولا من جرت عليه النعمة من أحد منا ، أولانعين عليه مبرداً خشناً - المترجم] .

انخذ موقفاً شاذاً (٢) ، ولم يكن أتباعه من ذوى النباهة ، وإلا لكان من الصعب أن يسكت عنه ابن المهلب . وقد اتبع عامة المؤمنين في البصرة ، وعلى رأسهم القراء ، دعوة يزيد ، وتبعهم عدد كبير من الموالي ، وبهذا تضخم عدد أنصاره تضخماً كبيراً . ولكن هذه الجموع الكثيفة لم تكن لها مهارة حربية بقدر ما كان لها من كثرة العدد ، فلم تبين أن الإسلام حليفه صعب القياد .

وغلب ابن المهلب على البلاد التابعة للبصرة مثل الأهواز وفارس وكرمان ، ولكن لم تنضم إليه خراسان . وهى ولايته القديمة التى فيها قومه ، وذلك لأن قبائل تميم هناك لم تتمكن الأزدي من أن تتحرك . وقد أشار على ابن المهلب أخوه حبيب وخبره أن يخرج من العراق حتى ينزل فارس ، فيأخذ بالشعاب والمقابر . ويدنو من خراسان ويطاول أعداءه ، وفى يده القلاع والحصون ، ويكون الناس قد انضموا إليه . ولكنه لم يرد أن يترك العراق أمام جند الشام ، وكانوا

(١) [لاشك أن أهل الدين كانوا دائماً معارفين لأساليب بنى أمية ولاعابهم معهم فى الحكم ، وكثيراً ما كان همهم ينتقصون عليهم ، وكأنما كانوا يصوت أن لم الحق فى ذلك (الطبرى ج ٢ ص ١٤٠٠) . أما موقف الحسن البصرى فهو يحتاج إلى تأمل ، فقد كان صديقاً لعمر بن عبد العزيز ، وكان عمر يكره المهالبة ويقول إنهم جبابرة . ولعل الحسن أيضاً كان يكره المهالبة للسبب الذى كرههم له عمر من قبل ، والدليل على ذلك أنه وصف من اجتمع ليزيد بن المهلب بأنهم عصابة ، وأنه كان يرى فى يزيد بن المهلب أنه غير صادق فيما يدعوا إليه من الكتاب والسنة ، وأن الأول به أن يوضع قيد فى رجله ويرد إلى محبس عمر الذى حبسه فيه . ولكن لم يكن معنى ذلك أن الحسن البصرى كان راضياً عن أهل الشام ، فقد دافع عن نفسه هذه التهمة دفاعاً صريحاً (الطبرى ج ٢ ص ١٣٩١ - ١٣٩٣) . ولما كان الحسن يعتقد أن ثورة ابن المهلب ليست له فقد دعا الناس إلى الكف عنها وعن الفتنة . وقد عجب الحسن فنصر بن أسد بن مالك كيف غره ما يقول ابن المهلب من دعوة إلى الكتاب والسنة ، مع أنه كان بالأمس يضرب أعناق الناس إرضاء لبني مروان . ولا شك أن الحسن كان يهتكم المهالبة ، وإن كان ليس هناك ما يمنع أن يهتكم الفتنة خصوصاً من أجل الباطل ، ولولا أن نشأة الزهد والدعوة إلى ترك النزاع على الدنيا والإقبال على الله كانت هى الغالبة فى كلامه لكان الإنسان على حق فى رفض ما يقوله المؤلف من أن الحسن فصل بين الدين والسياسة . فربما كان العكس هو الصواب ، لأن الحسن اشترك فعلاً من طريق تثبيطه الناس عن الدخول فى فتنة لم يتوفر لها السند الدبى الصادق ، راجع أيضاً الطبرى ج ٢ ص ١٤٠٠ - ١٤٠١ - المترجم] .

قد تقدموا نحوها بل أراد أن يسبقهم إلى الكوفة بقدر الإمكان ، وف آخر سنة ١٠١ هـ (صيف ٧٢٠ م) خرج إلى الكوفة ماراً بواسط ، فاستولى عليها ، ثم مرّ بنم النيل ، ووقف عند الموضع الذي يصب فيه النيل في الفرات ، في مكان كثيراً ما يسمى حقراً قريباً من بابل القديمة (١) . وقد حاول والي الكوفة الذي كان معسكراً في النخيلة دلي الشاطئ الآخر أن يأخذ على ابن المهلب طريق الكوفة ، ولكنه لم يستطع أن يمنع الكثيرين من أهل الكوفة من الانحياز إليه ، وكان منهم طائفة تحمل أبنه الأسماء العربية ، ولم يكونوا من قبائل اليمن وربيعة فحسب ، بل من قبائل تميم أيضاً .

ولم يمض غير قليل حتى ظهر على المسرح مسلمة بن عبد الملك ، قائد الحملات الحربية في آسيا الصغرى وأرمينية سنين طويلة ، فأقبل في عظم جيش الشام ، وقد حدث من يزيد أنه عبر الفرات للقائه مسلمة وعسكر بهلواء على مقربة منه ، وذلك أن اثنين من زعماء الفرق التي كان يتألف منها جيشه ، وكان لها تأثير كبير

(١) بحسب البعث الموجود في كتاب التتبيه للمعمودي (ص ٣٢٢ س ١) كانت الموقعة بين بابل وحقرا ، وعلى هذا فإن حقراً المقصودة كانت تقع ، شأنها شأن بابل ، على الضفة الشرقية للفرات ، ولم تكن هي حقرا كربلاء التي يجب البحث عنها إلى الدرب من مدينة الهندية . على أن وصف الطريق الذي يسلكه مسلمة بحسب رواية الطبري (ج ٢ ص ١٢٩٥) يشير مشكلة ، فهو يقول : " إن مسلمة أقبل يسير على شاطئ الفرات حتى نزل الأنبار ، ثم حقه عليها الجسر ، فمر عليه من قبل قرية يقال لها فارط ، ثم أقبل حتى نزل على يزيد بن المهلب في (حقرا) " . ولما كانت الأنبار على الضفة الشرقية ، فلا بد أن يكون مسلمة قد سار أولاً من هناك ، من عند بلدة الفارط إلى الغرب ، ثم نقل راجعاً إلى الضفة الشرقية ، كما فعل لمحطبة لهما بعد . أما ما يقال من عبوره النهر مرة أخرى فلا يذكر الرواة عنه شيئاً ، ولكن يذكر جسر عليه أهل الشام إلى حقرا وأحرقوه وراهم . ويذكر نولدكه (Nöldke) أن حقراً (حقرا) هي قصر (castra) ، وهو محق في ذلك ، لأن نهر النيل القديم ، أحد روافد الفرات ، يصب في الفرات بين بلدة قصر وبين بلدة بابل ، ولأن الحصن كان يقع عند مصب النيل بين حقرا وبابل . والمعلومات الجغرافية الموجودة عند الطبري (ج ٢ ص ١٣٩٧) غير واضحة ، وهي ليست أوضح منها عند ابن ميرايون (B. Serapion) . لكن الطبري يذكر (ج ٢ ص ١٣٩٧) أن مسلمة قطع الماء ووصل إلى أعدائه .

على جمهور الجيش ، وهما السَّمِيدُ الكندي وأبو روثبة ، اعتراضاً على مهاجمة أهل الشام ليلاً ، وقال لابن المهلب : إنا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد زعموا أنهم قابِلُو هذا منا ، فليس لنا أن نغدر ولا أن نريدهم بسوء ، حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابِلُوهُ منا (١) : فاضطر يزيد بن المهلب إلى الخضوع لأمرهم على كره منه ، كما خضع على بطنه يوم صفين من قبل ، ولكنه كان قد فقد البقية الباقية من ثقلته بجنوده ، وصرح في يأس شديد بما كان يودُّه من أن يكون معه قومه من أزد نحر اسان بدلاً من تلك الجموع التي لا حصر لها .

وفي يوم الجمعة ١٤ صفر سنة ١٠٢ هـ = السبت ٢٤ أغسطس سنة ٧٢٠ م بدأ مسلمة المهجوم ، بعد أن أحرق الجسر وراه . ولم يثبت أهل العراق ، وكانت تميم الكوفة أول من لاذ بالفرار ، وقد شبه يزيد بن المهلب أنصاره ، وقد انهزموا من غير كبير قتال ، ببق دُخْن عليه فطار ، أو بغم عدا في نواحيها المذهب . ولم يندهش يزيد لذلك ، وقد أشار عليه أبو روثبة بأن يرجع إلى واسط ، فيتحصن بها حتى تأتية الأمداد ، ولكنه أنف من ذلك وآثر الموت في ميدان القتال ، طلق الموت فيه . وقتل معه اثنان من إخوته كما قُتِل السَّمِيدُ الزعيم الورع .

(١) إن الآراء التي ذكرها المؤلف لأحد المرجحة هي التي تفسرها قصيدة الشاعر ثابت قطنة ، وقد أوردها المرحوم أحمد أمين في كتابه " فسخ الإسلام " ، وهي :

| | |
|------------------------------|---------------------------------|
| يا هند فاسمعي إن سرتنا | أن تعبد الله لا تشرك به أحدا |
| فزعج الأمور إذا كانت مشبهة | وتعبدك القلوب حين جاز أو عتدا |
| المسلمون على الإسلام كأنهم | والمشركون استووا في دينهم قددا |
| حولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا | م الناس شركا إذا ما وجدوا الصدا |
| لا نسفك الدم إلا أن يراد بنا | سلك الدماء طريقا واحدا جددا |
| عن يثق الله في الدنيا فإن له | أجر التق إذا وثق الحساب قددا |
| وما قضى الله من أمره فليس له | رد وما يقض من شيء يمكن رددا |
| كل الخوارج غطر في مقاته | ولو تعبد فيما قال واجتهدا |
| أما على رعيان فأنهم | عبدان لم يشركوا بالله مذ عبدا |
| وكان بينهما شغب وله شهدا | شق العصا وبين الله ما شهدا |
| يجزي عليا وعثماناً بسبعهما | ولست أدري بحق أية وردا |
| الله يعلم ماذا يحقران به | وكل حبر سيق الله منفردا |

[المترجم]

وأُسرَ نحو من ثلاثمائة من جيش ابن المهلب ، بعد اقتحام معسكره . وقتل بعضهم بعد ذلك ، وكان منهم طائفة من تميم ، كانوا قد انهزموا بالناس أملاً في أن يعرف لهم جند الشام فضلتهم في أنهم بانضمامهم بالناس قد سهلوا على جند الشام النصر ، ولكن أملهم لم يتحقق ، فكانوا أول من ضربت أعتاقهم . ومن جهة كان معاوية بن يزيد بن المهلب في واسط ، فلما جاءه الخبر بهزيمة أبيه أخرج اثنين وثلاثين أسيراً كانوا في يده فضرب أعتاقهم ، وكان منهم حدي بن أرطاة أمير البصرة ورجال آخرون . ولم يبق معاوية منهم إلا على رجل شيخ من قومه له شرف ومعروف ، لم ينهه ولم يتخفف بتغيبه :

وتفرق سواد الهاربين مع كل ربيع ، ولكن المطاردين لم يتعقبوا إلا المهالبة الذين نفروا كالوحوش . وقد اجتمعوا أولاً في البصرة ، وكان معهم بعض أشراف الجن في الكوفة وبعض سلال ابن الأشعث ومالك الأشتر . ومن هناك ركبوا السفن ولحقوا في البحر حتى نزلوا على شاطئ كرمان . وبعث مسلمة بن عبد الملك في طلبهم هناك ، فعاولوا الاتيحاء إلى قنديل من شاطئ السند ، ولكنهم لم يجدوا هناك سبيلاً إلى الإفلات ، فقد لحقهم المطاردون ، وخرج المهالبة بأسياهم ، فقاتلوا مطاردتهم ، حتى قُتِلوا عن آخرهم إلا اثنين نجوا ولحقا بخاقان وزنيدل : وأرسلت رؤوسهم المقطوعة إلى الشام وصُلِّت في حلب ، وأُرْسِلَ نساء المهالبة وأولادهم إلى مسلمة بن عبد الملك في الحيرة . فأقسم مسلمة أن يبيع ذرية المهالبة ، مخالفاً في ذلك كل آداب الإسلام : ولكن الجراح بن عبد الله الحكمي ، وكان رجلاً من أكفأ عمال الأمويين وأخلصهم ، أنقذ ما تقضى به الآداب الإسلامية فغرض على مسلمة أن يشتريهم بمائة ألف لبرّ يمين مسلمة . ولكن مسلمة لم يأخذ المال ، وختلى سبيلهم إلا تسعة فتية أحدث بعث بهم إلى يزيد بن

عبد الملك ، فضرِب أعناقهم . أما أموال المهالبة فقد صودرت بطبيعة الحال (١) .
وقد أسندت ولاية العراق في أول الأمر لصاحب النصر في موقعة
عقر ، وهو مسلمة بن عبد الملك ، فعين ولاية جنداً في الكوفة والبصرة
ونخراسان ، ولكنه لم يلبث أن عزل لأنه لم يرسل إلى دمشق شيئاً من
خراج العراق (٢) . وعُيِّن مكانه أميراً للأسيون على العراق وعلى ولايات
المشرق عُمرُ بن هبيرة الفزاري الذي كان في عهد عمر بن عبد العزيز
واليّاً على أرض الجزيرة . وكان قيسياً من أنقى دم في قيس ، وكانت إدارته
متمشية مع ذلك (٣) ، وقد لقيت قبائل الأزد والعين بوجه عام ، خصوصاً
في نخراسان ، على يديه عنتاً ، فأبعدوا وأهينوا وعُدِّبَ المواليون للمهالبة
أو المتهمون بذلك وأخذت أموالهم ، ولكن كانت قيس هي التي انتصرت
واستطاعت أن تشعر بأنها هي السيدة في المشرق كله ، وهي وإن كانت
متنازعة فيما بينها ، فإنها أخلصت في الاتحاد أمام القبائل الأخرى . ومما له
مغزاه في هذا الصدد حكاية يذكرها الطبري (ج ٢ ص ١٤٥٣) لما بعدها ،
وإن كانت حكاية غير جديرة بالثقة . فيحكي الطبري أن عمر بن هبيرة حين
سعيد بن عمرو الحرشي ، وكان من قيس ، على نخراسان ، فكان يستخف بأمر
ابن هبيرة ويهزأ به فيقول عنه : قال أبو المنثى ، فعل أبو المنثى . فوجه ابن
هبيرة رجلاً من قيس أيضاً ، هو معقل بن عروة ، إلى هراة إما حاملاً وإما في غير

(١) قارن أبيات جرير في تعليق رايسكه (Reiske) على أبي الفداء ج ١ ص ٢٠٧ ،
وهذه الأبيات غير موجودة في طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .

(٢) وكذلك لم يرسل عبد العزيز بن مروان إلى دمشق شيئاً من خراج مصر ، ولم
يكن ثم ما يدهوه إلى ذلك . ويجوز أن يكون مسلمة قد عين أميراً على العراق على أن تكون له
هذه المزية كمكافأة له على ما أحرزه من نصر .

(٣) ويقول الفرزدق الشاعر ، وإن لم يكن يميناً بل مضرى النسب ، متهاكاً بعد أن
عين ابن هبيرة الفزاري على العراق :

ولقد علمتُ لئن فزاراً أمرت أن سوف تطيع في الإمارة أشجع
وكانت فزاره هي رأس غطفان قيس وكانت أشجع هي ذئبتهم .

ذلك ، فقصد هراة دون أن يمر بالحرشي ، وكتب هذا إلى عامله أن يحمل إليه معقل بن عروة ، فلما جرى به إليه سأل : ما منعك من إتياني قبل أن تأتي هراة ؟ فأجاب أنا عامل لابن هبيرة ، ولأني كما ولّك ! فضر به الحرشي مائتين وحلقه ، فغضب ابن هبيرة وازدادت موجدته على الحرشي ، فغزله ، ثم أسلمه إلى عدوه معقل بن عروة فعذبه وضيق عليه ، وأمره ابن هبيرة يوماً أن يعلبه حتى يموت ، فلما أمسى ابن هبيرة جلس إلى سُمّاره ، كما يفعل الأمراء ، فقال « من سيد قيس ؟ » فقيل له : « الأمير » ، فقال : « دعوا هذا ! سيد قيس الكوثر بن زفر ، لو بوق بلبل لوفاه عشرون ألفاً ، لا يقولون : ليم دعوتنا ، ولا يسألونه (١) ، وهذا الخمار الذي في الحبس ، قد أمرت بقتله ، فارسها . وأما خبر قيس لما فعسى أن أكونه ، لأنه لم يعرض لي أمر أرى أني أقدر فيه على منفعة وخير إلا جررتهم إليهم » ، فعند ذلك قال له أعرابي من بني فزارة : « ما أنت كما تقول ! لو كنت كذلك ما أمرت بقتل فارسها » . فلما سمع ابن هبيرة كلامه أرسل إلى معقل بن عروة يأمره بالكشف عما كان أمره به من تعذيب الحرشي حتى يقتله . ثم تغير وجه الصحيفة بعد حين ، فاضطر ابن هبيرة إلى الهروب من خالده بن هبيرة القسري ، وأرسل خالده عدوه الحرشي في طلبه ، فلما لحقه الحرشي ، وهو في سفينة يريد أن يقطع الفرات ، سأل : أبا المثنى ! ما ظنك بي ؟ فأجاب : ظني بك أنك لا تدفع رجلاً من قومك (قيس) إلى رجل من قريش (قسر) ، فقال : هو ذلك فالنجاه !

وكان لشبح الحجاج بعد موته من التأثير ما يصعب أن تقدر به عينه . وذلك أنه بسبب عداوته في حياته لابن الأشعث وابن المهلب قد زاد في حدة النزاع بين

(١) يوسف زفر بن الحارث رئيس قيس في أرض الجزيرة دائماً بأنه رجل ليل بنوع خاص ، وبأنه كان فوق المنازعات السياسية ، وقد ورث ابنه : هذيل وكوثر ، ما كان له من جاه ، وكان لما احترام كبير عند الخليفة . قارن الطبري ج ٢ ص ١٣٠٠ و ١٣٦٠ فما بعدها ، واللائح ج ١٦ ص ٤٢ وديوان القطامي الذي يقوم الآن بارت (Barth) بنشره .

قبائل قيس وقبائل اليمن : وقد أدى إلى ذلك تحيز الخلفاء ، أياً كان الجانب الذى مالوا إليه . ثم جاء يزيد بن عبد الملك ، فنكأ ، لاهتبارات أخرى ، ذلك الجرح الذى أحدثه سليمان والنمى لم يكن فى أيام حكم عمر ابن عبد العزيز قد اندمل إلا قليلا . وتأثر يزيد بن عبد الملك بالحجاج ، فارتاب بالمهالبة ، وكان يكنّ لهم فى قلبه بغضاً ، وكان تخوفه وارتياحه من مطامعهم فى المشرق لها ما يبررهما ، وكانت ثورتهم سبباً فى انفجار هذا البغض . ولكن إغناء جميع أفراد ذلك البيت القوى النابه ، وهو فتيلة لم يسمع بمثلها فى طول تاريخ الدولة الأموية ، كان بمثابة إعلان الحرب على قبائل اليمن . وكانت نتيجة ذلك أن حكومة بنى أمية انقلبت حزباً يحكم باسم قيس . وكان الخليفة هو الذى يحمل الوزر فى ذلك ، وقد عين ابن هبيرة أميراً على العراق وتركه فى ميدان إمرته الواسع يفعل ما يشاء ولم يكن من شيء قد بعثه على ذلك إلا مجرد الرغبة فى الانتقام ، وكان بعيداً عن أن يكون رجلاً سياسياً يدرك مصالح الدولة ، ولم يكن يدرك مدى النتائج السياسية ، لأعماله . أما فى الشام فإنه لم يحاب قيساً على قضاة ، لأن قضاة كانت نواة الجيش الذى انتصر فى موقعة عقر ، وكان الذى قتل يزيد بن المهلب ، عند ما جاء لقتال مسلمة بن عبد الملك ، رجلاً ، من كاب ، وكان الكلبيون هم الذين تعقبوا المهالبة الهاربين واستأصلوا شأفتهم .

وقد ابتعد يزيد بن عبد الملك كل البعد عن سياسة التقريب والمصالحة التى جرى عليها عمر بن عبد العزيز قبله مباشرة . ويقول ابن الأثير (ج ٥ ص ٥٠) إنه « صمد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فردّه » ، ولم يترك شناعة هاجلة ولا إثمًا آجلاً . وهو لم يكذب على الخليفة حتى عين ولاية جنداً على المدينة وإفريقية من غير أن يُقدّم من فوره على إحداث تغيير منظم وشامل ، وأخذ أهل السغد الذين دخلوا الإسلام بأداء الجزية ، بعد أن كان عمر بن عبد العزيز قد وعدهم بأن يُستقسطها عنهم . وفعل مثل ذلك مع البربر يزيد بن

أبي مسلم^(١) حامله على إفريقية ، ولكن البربر تأمروا عليه وقتلوه وولوا على أنفسهم الوالى الذى كان عليهم قبله ، وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار ، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك يبلغونه ذلك رسمياً : إنا لم نخلص أيدينا من الطاعة ، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى الله والمسلمون ، فقتلناه وأهدنا حاملك قبله . فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك : إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم ، وأقر حاملهم السابق على إفريقية^(٢) . وكان يزيد لا يمنع ولاته إذا ما تجاوزوا ما أمرهم به ، وكان ضعيفاً قليل الاهتمام والاكتراث بأمور الحكم . وإذا كان قد خاف عمر بن عبد العزيز ، فإنه لم يفعل ذلك بباحث من السياسة ، ولا عن قصد . وهو عند ما كان يريد أن يصلح من أمر نفسه أراد أن يقشبه بعمر بن عبد العزيز (الأغاني ج ١٣ ص ١٥٧) ، ولكن طبيعته كانت تختلف كل الاختلاف من طبيعة عمر ولم تكن الصفة الغالبة عليه تتمثل في الزهد والتحرر من الإثم مما هو معروف عن عمر ، بل كانت تغلب عليه خفة الأرسقراطيين^(٣) . وهو قد كان نيلاً فارساً وفقى سيداً أكثر منه حاكماً ، قترك الولايات لأمرائها ولم يهب وقته لأموال الدولة ، بل للهوى والغناء والشراب . ولذلك نجد أهل العبث الذين كان عمر بن عبد العزيز قد أقصاهم يعودون إلى الخطوة والمكانة الشريفة عنده . وهو لم يكن كثير المراهاة لكرامة البيت الذى كان يمثله ، بل هو لم يكلف نفسه مؤونة المحافظة على مظهر الخلافة ، ولقد لعبت مغنيتان ، هما : سلامة وحبابة ، دوراً كبيراً في بطلانه ، وكان

(١) [كان يزيد بن أبي مسلم مولى السجاي ، ويظهر أنه أراد أن يسير سيرته في رد من خلق بالمدن من مسلمى الموال إلى قراهم ورسائلهم وفي وضع الجزية على رعايهم ، كما كانت تؤخذ منهم وهم حل كلهم (راجع الطبرى) ج ٢ ص ١٤٣٥ - المترجم] .
(٢) الطبرى ج ٢ ص ١٤٣٥ . ويقول البلاذرى (ص ٢٢١) إن الذى قتل الوالى هم حرسه من البربر ، لأنه أراد أن يدم كل أمرئ منهم على يده : حرسى .
(٣) [يصفه المسعودى في التنبيه (ص ٣٢٠) بأنه كان فخوراً متكبراً يحب اللهو ، لا يعرف صواباً فيأتيه ولا خطأ فيدهه - المترجم] .

من يريد يلوغ شيء بلجاً إليهما . ويروى أن ابن هبيرة نفسه قد وصل من هذا الطريق إلى المنصب الرفيع الذى وصل إليه (ابن الأثير ج ٥ ص ٧٥) فما بعدها والأغاني ج ١٣ ص ١٥٧) . وقد جزع على موت حباية جزءاً أخرجه عن كرامته ، حتى أن مسلمة بن عبد الملك رجاء ألا يظهر فى الناس على الأقل فى هذه الحالة التى لا تليق بخليفة . وقد مات بعد حباية بسبعة أيام ، وظن الناس أنه مات كمداً على فقد فتاته المحبوبة (١) .

يحكى ثيوفانيس أن صمر بن عبد العزيز كان بطمح إلى أن يدخل القيصر ليو (Leo) فى الإسلام ، وهو يحكى فوق هذا أن يهودياً حراً من أهل اللاذقية قال ليزيد بن عبد الملك إن خلافته ستمتد أربعين عاماً إن هو كسر الصور التى فى الكنائس النصرانية بمملكته ، ويمضى ثيوفانيس فيقول إن ذلك بعث يزيد على إصدار أمر هام بتعظيم الصور المقدسة ، ولكن هذا الأمر لم ينفذ بسبب موت يزيد بعد ذلك بقليل ، بل إن هذا الأمر لم يبلغ إلا دوائر ضيقة ، ولكن القيصر ليو كان على هذا رأى الشنيع المخالف للدين ، وقد قواه فى ذلك نصراني اسمه بشر ، على أسماء العرب ، وكان وهو أسير حرب فى الشام قد اعتنق الإسلام ، ثم ارتد عنه بعد أن أطلق ولكنه بقيت فى نفسه آثار منه ، وهذا ما يقوله ثيوفانيس ، ولكن مما يدعو إلى الشك الكبير فى وجود هذا الأمر الشيطاني الذى يقال إن الخليفة أصدره أنه لم يعرفه إلا الأقل من الناس ، أما مجرد ما يقال من أن يهودياً ثلباً للخليفة بأن تمتد خلافته أربعين سنة فهو موجود عند الطبرى أيضاً (٢) ، ولكن النبوة لم تتحقق ، فلم تدم خلافة يزيد الثانى إلا أربع سنين . فقد توفى يوم الجمعة لخمس ليال يقين من شعبان سنة ١٠٥ هـ (٢٦ يناير سنة ٧٢٤ م) فى

(١) [مجد الثرائى أخبار حباية ويزيد فى كتاب الأغاني (ج ١٣ ص ١٥٤ - ١٦٦) ، وهو مفصلة تفصيلاً كافياً ، كما مجد شيئاً من ذلك عند الطبرى (ج ٢ ص ١٤٦٤ - ١٤٦٦ - الترجمة)] .

(٢) [الطبرى ج ٢ ص ١٤٦٣ - ١٤٦٤ - المترجم] .

البلقاء من أعمال دمشق^(١) . وتختلف الروايات في عمره بين ثلاثة وثلاثين وبين أربعين عاماً .

٢ - وكان يزيد قد جعل ولاية العهد لأخيه هشام ثم لابنه الوليد بن يزيد من بعده ، ويلاحظ المؤرخ الإسباني الذي كتب مكملاً لتاريخ إيزيدوران :

Talis enim inter Arabes tenebatur perpetim norma, ut non nisi cunctas regum successiones prerogative a principe percipiant uomina, ut eo decidente absque scandala adeant regiminis gubernacula. ^(٢)

ومما يستلفت النظر في الحقيقة ترتيب ولاية العهد من طريق الوصية ، وقد سُمي هشام بن عبد الملك باسم جده لأمه : هشام بن إسماعيل المخزومي ، وقد حابي أخوانه . وهو تسلم شعار الخلافة ، وهو العصا والخاتم ، في الرصافة^(٣) ، وهي مدينة كانت قد بنى الروم على حافة صحراء الشام ، غير بعيد من الرقة ، وكان قد جدد بناءها ، وكان - وهو خليفة - يؤثر الإقامة بها ، لأنه كان يكره هواة دمشق خوفاً من الطاعون . وتلقى هشام البيعة في العاصمة . وكان قليل الشبه بأخيه . فكان بعيد النظر متيقظاً طيب السيرة : وأول صفاته أنه كان يعرف كيف ينجح في مشروعاته ، ولكنه كان يختلف اختلافاً كبيراً عن عمر بن

(١) [يقول المؤلف إنه توفي يوم الأربعاء في إربد من أعمال شرق الأردن ، وهو بهذا يخالف ما عند الطبري ج ٢ ص ١٤٦٣ وفي التنبية المسموعة ص ٣٢٠ - المترجم] .
(٢) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي : وهكذا كانت القاعدة المرحية بين العرب دائماً ، بحيث تكون وراثة العرش من حق الخليفة ، فهو الذي يعين من يأتي بعده ، حتى إذا مات وصل من بعده إلى دفة الحكم من غير خدر - المترجم] .

(٣) [يقول الطبري خلافاً لذلك إنه تسلمها في حمص (الطبري ج ٢ ص ١٤٦٣ ص ١٦)] لا يقول الطبري في هذا الموضع أكثر من أنه لما مات يزيد كان هشام في حمص . ويذكر الطبري (ج ٢ ص ١٤٦٦ - ١٤٦٧) أن الخليفة أوت هشاماً وهو بالزيتونة في منزله في دوبرة له هناك ... فجهاد البريد بالعصا والخاتم . وسُلم عليه بالخلافة ، فركب هشام من الرصافة حتى أتى دمشق - المترجم] .

عبد العزيز ، ولم يكن عنده شيء على الإطلاق من تلك الروح المثالية المعروفة
عن عمر^(١) .

وكان أول ما فعله أن كسر شوكة القيسيين الذين كانت قد أخذتهم
العزة بالإثم في المشرق ، فعزل عمر بن هبيرة وعين مكانه خالد بن عبد الله
القسري في شوال سنة ١٠٥ هـ (مارس سنة ٧٢٤ م) ، وبذلك صار دلي
للإعراق وال يمكن أن يُعتبر في حداد زياد والحجاج إلى حد ما . وشخصه
يثير من عطفنا عليه أكثر مما يثيره شخص الخليفة نفسه ، وإن كنا نعلم عن
سقوطه وما جرم من نكبات أكثر مما نعرف عن أعماله أيام ولايته .

كان خالد بن عبد الله القسري قد بدأ حياته في عهد الحجاج ، وأُرسل
بناء على سعي الحجاج إلى مكة في سنة ٩١ هـ ، لكي يحول بين أهل الشقاق
والفتنة من سكان العراق وبين أن يتخذوا البيات الحرام مأوى لهم . وقد
قام بهذه المهمة بأن حرّم على الناس إيواء أهل الفتنة وجعل أصحاب الدور
مسؤولين ضمن ينزل فيها . وقد نال التقدير إلى جانب هذا في البلاد المحيطة
بمكة لما قام به من إجرام المياه فيها ، لكنه لم ينل من الشكر على ذلك أكثر
مما ناله بيلاتوس (Pilatus) على مثله في بيت المقدس . ونظراً لأنه كان من
صنائع الحجاج فإن سليمان بن عبد الملك عزله ، ولم يسند إليه بعد ذلك
عمل ، حتى رفعه هشام ، وعهد إليه بأهم منصب في الدولة وقد جعل خالد
مقر ولايته في واسط ، كما فعل الحجاج من قبل ، وتفرغ للأعمال السلمية .
ويظهر أنه كان رقيق الطبع ابن الجانب ، وإن كانت لم تعوزه المهمة^(٢) :

(١) يجد القارئ شيئاً كثيراً من سيرة هشام عند الطبري ج ٢ ص ١٧٢٠ -
١٧٤٠ - المترجم] .

(٢) يقول فايل (Weil, I, 620) معتمداً على الطبري : إن خالداً عامل الوالي الذي
كان قبله معاملة قاسية وإنه قتله أخيراً ، ولكن شيئاً من ذلك لا يوجد في طبعة ليدن لكتاب
الطبري ، أما الذي عند الطبري فهو أن ابن هبيرة أقلت من طلب خالد إياه وأنه عاد إلى وطنه
القسريين ، فوقع في يد الخليفة فأمر بجلده مائة سوط ، ولكنه رغم ذلك غضب كل الغضب من =

ولم يكن يعتبر في عداد أهل الحرب ، بل كان يعتبر من أجنب الناس . وكان الناس يتعجبون عليه أنه كان مرة على المنبر ، فجاءه خبر ثورة قام بها الشيعة في الكوفة ، فدهش وتحير ، فقال : « أطلعوني ماء » . وتبين فيما بعد أنه لم يهلك في هذه الفتنة سوى ثمانية من الفرس . على أنه لم تكن هناك إلا مناسبات قليلة تدعو لخالد إلى إخراج السيف من قرابه . وفي أواخر أمرته حدثت بعض الفتن من جانب الشيعة والخوارج ولكن واحدة منها فقط هي التي اتخذت صورة ذات بال^(١) . وعلى الحملة عاشت العراق في عهده فترة من الهدوء غير مألوفة في طولها ، وازدهرت الحياة الاقتصادية فيها (الطبري ج ٢ ص ١٧٧٨ ص ١٣) لما بعدها . ولكنه رغم هذا لم يكن محبوباً ، بل حوذى ألد العداء ، وقد جمع صاحب الأغاني (ج ١٩ ص ٥٢) لما بعدها) كوما كبيراً من حكايات أصحاب المثالب في حقه ، ويوجد عند الطبري أيضاً مقدار كاف من ذلك :

وكانت قبيلة قسر التي ينتمي إليها خالد فرحاً من بجيلة ، وكانت بجيلة في

= يزيد بن هبيرة لأنه لم يرع أن يزوج ابنته لابن الخليفة . وأيضاً خالد خالده بعض الثوار معاملة لينة ولم يحرمهم إلا بأمر من الخليفة (الطبري ج ٢ ص ١٦٢٨ - ١٦٢٩) . أما الكهت الشاعر فإن خالداً لم يطلقه ، فيما يقال ، إلا لكي يخرج من المصيبة إلى مصيبة أكبر منها عند هشام .

(١) كان الفرس الثمالية الذين نادى من أجلهم خالد بفتح الماء هم المسمون " وصفاء الكوفة " ، وكان على رأسهم المديرة بن سعيد " الساحر " ويوان [بن سمان ؟] . ويجوز أنهم كانت لهم صلة بالدعوة العباسية . وأيضاً يظهر أن وزير السفهاني (تاجر السفن - قارن يحيى بن آدم ص ٣٤ ص ١٨) ، وهو الذي ألقى بجماعته ناحية الكوفة ، كان مولى طارسياً وأنه كان من إحدى فرق الشيعة . أما الصحاري بن شبيب وبلول بن بشر فكانا من الخوارج العرب . أما الأول فهو ابن شبيب المشهور ، وقد أغار في ثلاثين رجلاً من بكر من ناحية جند قل على الدجلة حل ضيعة خالد المصاة " المبارك " . وأما بلول فقد قام بثورة أكبر شأماً ، وذلك بأن خرج من الموصل وانتصر مرتين على الجند الذين أرسلوا لقتاله ، ولكنه قتل بعد ذلك في موقعة الكحيل . والذي روى أمر هؤلاء الثوار عند الطبري هو أبو عبيدة [راجع الطبري ج ٢ ص ١٦١٩ - ١٦٢٩] أخبار المسيرة وبيان (و ص ١٦٢٣ - ١٦٢٤) أخبار الصحاري بن شبيب (- المترجم] .

الجاهلية قد مزقتها خلافاً داخلية كبيرة ونزلت مرتبتها حتى لم يعد لها شأن ، ولم يرتفع أمرها من جديد بعض الشيء إلا بعد الإسلام . وإذن فلم تكن لخالد قوة تؤيده من قومه ، ولم تكن وراءه قبيلة "قوية" ذات "نباهة" يستطيع أن يعتمد عليها . وهذا وإن بدا أنه كان مما يفت في عضده فقد كان مما يساعده في مقابل ذلك على القيام بأعباء منصبه أن قبيلته بجيلة لم تكن تنسب إلى مصر ولا إلى اليمن ، فهو لم يكن مضطراً بحكم نسبه أن يتخذ في النزاع بين مجموعات القبائل المتخصصة موقفاً معيناً . ولكن قيساً كانوا بطبيعة الحال مضطرين إلى أن يعتبروه عدواً لهم ، لأنه كان قد أرسل لكي يزيل ابن هبيرة "خبيث قيس لها" ولكي يزيل سلطانهم . ويظهر أيضاً أن سائر مضر لم تقبل تعيينه قبولاً "حسناً" ، وقد قُدر لأحد أشراف نعيم في البصرة ، وكان معانداً لوالها من قبيلته وهو من أبناء أبي موسى الأشعري ، أن يلقي حظه من جراء ذلك^(١) . ونعالمه نفسه ، وإن كان قد جاء بذية التمسك بالحياد ، فإنه انجبر في تيار المنازعات بين الأحزاب ، وقد دفعته حداوة مضر ، طامعاً أو مختاراً ، إلى أن يأخذ بجانب اليمن ، وهو يبدو ، بحسب الروايات ، من أول الأمر ، ميئاً لحماً ودماً^(٢) . وشديد العصبية على مضر والبغض لهم^(٣) هم ومن ينتمي إليهم من قريش حتى أنيائهم . ومن المضحك ما يحكى من أنه كان ، بما يشعر به من شرف بجيلة ، لا يلقى ما يخالف نفسه من إحساسات ، ولا شك أن فيها يحكى من ذلك مبالغة كبيرة ، ومن هذا الوجه شتان

(١) [لم أجد إلى هنا فيما قرأته من نصوص - المترجم] .

(٢) [راجع مثلاً الطبري ج ٢ ص ١٤٦٨ - ١٤٧١ - المترجم] .

(٣) [الأغاني ج ١٩ ص ٥٩ ، ٦٠ . وقد اقتبسنا هذه العبارة لتكون أبلغ في التعبير عما يريد المؤلف من أن خالد بن عبد الله القسري "كان في صدره احتقار لمضر" . ونجد ذكر تعصب أسد بن عبد الله القسري أخى خالد على مضر مما كان سبباً في عزلها من شراسان عند الطبري (ج ٣ ص ١٤٩٧ فما بعدها) ونجد لغير خالد وشرويه وما كان من عزل هشام إياه عند الطبري ، ج ٢ ص ١٦٤١ - ١٦٥٨ - المترجم] .

ما بينه وبين يزيد بن الملهب زعيم الأزدي غير مدافع ، ولم يكن أهل اليمن الضجيج في رفع شأنه إلا بعد عزله وخصوصاً بعد موته ، وانخلوه ذريعة للثورة دون أن يريدوا على ذلك ، بل على كثره منه ، أما هو فقد كان يعلم تماماً أنه لم يصب الأموال ويبلغ الرفعة إلا بفضل بني أمية (الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٦ - ١٦٥٧) وكان يشعر بأنه خادهمهم ، لا أنه رئيس قبيلة أو رئيس حزب . وقد أثبت ولاءه لبني أمية بأن اثنى في معارضة هشام ، لما أراد مخالفة وصية يزيد بن عبد الملك وإخراج ابنه الوليد بن يزيد من ولاية العهد ، وإن كان خالد لم يكن يجهل ما سيصيبه من هشام ، وقد حافظ خالد بعد سقوطه أيضاً على صدق الولاء لبني أمية ، وكان من شأن هذا الولاء ، خصوصاً في ذلك العصر ، أن يظهر كأنه في نور باهر .

وقد جرّ خالد على نفسه إلى جانب عداوة قيس عداوة الإسلام أيضاً ، فقد كانت أمه رومية نصرانية ، وظلّت على نصرانيتها ، وقد بنى لها كنيسة في الكوفة في ظهر قبلة المسجد الجامع ، وهو سمح للنصارى بوجه عام بأن يبنوا كنائس جديدة^(١) وكان متسامحاً مع اليهود أيضاً . واستعمل في أعمال الخراج وفي الإدارة كثيراً من الجوس ، وعابه بهاول الخارجي بأنه يهدم المساجد ويبنى البيعة والكنائس ويولّى الجوس على المسلمين . وينكح أهل الذمة المسلمين ، وقد حكيت عنه فضائح تقشعر لها الأبدان^(٢) ، فقليل إن أصله من يهود تيماء وإن جده كان آخياً من موالي عبد القيس من هجر ، وإنه كان في عداوته في المدينة يتخذ من ويتبع المغنين والمخنثين ، وإنه كان يمشى مع عمر بن أبي ربيعة صاحبه

(١) ولكن النصارى في الحيرة ، وهى المدينة النصرانية قرب الكوفة ، أغدوا جانبه أعداء خالد لما سقط (الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٣) .
(٢) يجد القارئ كثيراً من أخبار خالد في الأغاني ج ١٩ ص ٥٣ - ٥٦ ، قارن الطبرى ج ٢ ص ١٦٢٣ - المترجم [.

التشبيب الكثير ويرسل بينه وبين النساء ، حتى كان يقال له : خالد الخريت ، وإنه زنديق كافر فاسق ، وإنه قال عن بئر زمزم - وكان قد عرف كيف يقلل من شأنها بإنشاء مجرى مائى جديد - إنها « أم الجعلان » وإنه قال مثل هذا الفسق عن الكعبة وعن النبي عليه السلام وآل بيته وعن كتاب الله نفسه ، ويجوز أنه قال ما ينسب إليه في مقام التعريض بغيباء أهل الورع من أنه لا يوجد رجل عاقل يحفظ القرآن عن ظهر قلب . ويظهر أنه كان يشعر بتفوقه العقلى ، وأنه لم يكن دائماً يحسك لسانه الفصيح ، حتى صدرت منه عبارات نابية استغلت في التشنيع عليه (١) .

وقد فعل خالد إلى جانب ذلك ما جعله هدفاً لمطاعن أخرى ، فقد امتاز باهتمامه الشديد بأمور الزراعة ، وكان في ذلك ينافس هشام ابن عبد الملك . وهو قد مضى فيما كان الحجاج قد بدأه ، وكان الإحصائى الفنى الذى تولى في عهده أعمال التجفيف في جهة واسط في مستنقعات دجلة الأدنى هو حسان النبطى الذى خدم الحجاج من قبل . وقد عمل خالد في ذلك أكثر مما يعود عليه بالنفع ، فافتنى من طريق تجفيف المستنقعات مساحة من الأرض واسعة وعصبة جداً ، ويحصى الطبرى (ج ٢ ص ١٦٥٥) ضياعه الكبيرة بأسمائها . وقد حصل له مما أخرجته تلك الضياع خللات هائلة . ولم يكن يبالي بالمال ، وكان يسرف في الهبات خصوصاً لخدمته وخاصته ، فجعلهم بذلك موالين لشخصه . وكان يبره أن يظهر بمظهر السيد الكبير ، لكنه كان بخيلاً على الطعام لا يوسع فيه ، وكان يفتاظ ممن يأكل من الضيوف فيكثر .

ولا حجب أن ينشأ التذمر من هذا كله . وقد سحق الناس بالإجمال على حفرة الأنهار ، أعنى استصلاح مساحات كبيرة من الأرض البكر ، وكان لا يستطيع

(١) [راجع مثلاً الأغاني ج ١٩ ص ٥٩ ، ٦٠ - المترجم] .

ذلك إلا أهل الخطوة والحظ من يؤذن لهم فيه وتكون لديهم وسائل الزراعة ،
وقد أقبل على هذا العمل في ذلك العهد إقبالا كبيرا وعلى أوسع نطاق أمره
البيت المالك وخصوصاً هشام بن عبد الملك ، ولكن الناس ما كانوا يستطيعون
أن يتجرأوا بسهولة على هشام ، فتجرأوا على هامله خالده الذي كان حتى
من غير ذلك مكروهاً عند طوائف كبيرة ، وربما يكون الناس لم يتكلموا
في العيب على خالده أنه استغل نفوذه في منصبه من أجل مصلحته الخاصة ،
لأن ذلك كان هو العادة في ذلك الوقت ، ما دام صاحب النفوذ يحترم
حق الأفراد فيما يملكون ويحمل إلى دمشق مما يفضل من الخراج مقداراً
كافياً . أما الذي أخبده على خالده فهو أنه كان يؤخر بيع غلته فيرتفع
سعر القمح . وكان الناس يعتقدون أيضاً أن المال الذي يبعثه حوله لم يحصل
عليه مما يخرج إليه من ضياعه وحدها ، بل اعتقدوا أنه كان يخلص من
بيت المال الذي كان تحت يده مبالغ كبيرة ، وهكذا أثارت أموال خالده
عليه الحسد ، وجاءت طريقة التي كان يحاول بها أن يجعل لنفسه أصدقاء
مخلقت له أعداء يزدون بكثير على ما خلقت من أصدقاء .

ورغم هذا فإنه لبث في أمرته على العراق زهاء من خمسة عشر عاماً ،
وهي أطول مدة قضائها وال على العراق ، إذا استثنينا الحجاج . وربما
يحسب من الفضل للخليفة أنه استبقاه في الإمرة هذه المدة الطويلة ،
ولكن الخليفة أطاع إلحاح أعداء خالده آخر الأمر ، وذلك أن قوماً
من أشراف قريش ومن الأمويين ممن كان خالده قد استخف بهم
ووعضهم بلسانه ، تضامروا مع قيس عليه (الطبري ج ٢ ص ١٦٤٢
و ١٦٥٥ لما بعدها) ، وحاولوا أن يضموا إليهم حسناً في الدس له ، وكان
حسان علياً بأحواله . أما هشام فلم يكن في الحقيقة يرتاب به من الناحية
السياسية (١) ، ولكنه رغم هذا أحس بشيء من الغيرة منه ، وكان يستطيع في

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨١٤ - المترجم] .

الواقع أن يعتبره منافساً له من الناحية الاقتصادية . وقد ارتاب في أمره .
أيضاً بسبب ظهوره بمظهر الرياسة والكرم ، وبسبب كلمات له كان يقوله .
استخفافاً بهشام وبلغت هشاماً^(١) ، فتغير له وعزم على أن يعزله وأن يعين
مكانه يوسف بن عمر الثقفي القيسي ، أحد أقرباء الحجاج ، وكان يوسف
قد تولى إمرة بلاد اليمن سنين طويلة . وعند ما كان يحدث مثل هذا التغيير
كان الأمير المعزول في كثير من الأحيان يُفاجئ بالامر الواقع ، فلا يعلم
يعزله إلا إذا قدم عليه من سيخلفه في منصبه وأخذ له ليحاسبه على أعماله .
فكان لا يُعطى له من الوقت ما يتمكن فيه من الاستعداد للمفاجأة ، ولكن
السرية التي اصطنعها هشام في هذه الحادثة كانت شيئاً غير مألوف وتروى
في ذلك (الطبري ج ٢ ص ١٦٤٧ فما بعدها) حكاية مسلية^(٢) . وذلك أن
هشاماً أخفى تعيين يوسف بن عمر ، حتى على حامل كتاب التعيين ، وأمره
أن يُقبل في ثلاثين من أصحابه إلى الكوفة فجأة ، وذلك في جمادى الأولى سنة
١٢٠ هـ^(٣) (مايو سنة ٧٣٨ م) ، وهناك وضع نصارى الحيرة وثقيف ومعهم
آخرون من مضر في الكوفة أنفسهم تحت تصرفه ولم يقاومه أحد . أما خالد
فكان في واسط ورضي بأن يقبض عليه وأن يُوسر هادئاً . وكان حبسه في الكوفة .
ولم يعمل يوسف بن عمر مقر ولا يته في واسط بل في الحيرة . ويظهر أن الحيرة ،
وهي المدينة النصرانية الصغيرة قد بدت أكثر ملائمة لأن تكون مقر الجند من

(١) [اقل إلى هشام أن خالداً كان يقول عنه : ابن الحنفية أو الأصول (الطبري ج ٢ ص ١٦٤٦ - ١٦٤٧) . وكانت أم هشام حواء حقيقة (الطبري ج ٢ ص ١٤٦٦) . ولكن هشاماً كان عسوراً عقلاً (الطبري ج ٢ ص ١٧٣١ ص ٤) ، أما فيرة هشام من خاله لما كان قد اشتهر من أموال وضياع نهى موجودة عند الطبري ج ٢ ص ١٦٤١ - ١٦٤٧ المترجم] .

(٢) [لم تفصل هنا شيئاً وليراجع القارئ القصة عند الطبري - المترجم] .

(٣) [هذا بحسب الطبري ج ٢ ص ١٦٥٨ ، ١٨١٢ ، ولكن قارن الطبري ج ٢ ص ١٦٥٢ - المترجم] .

مدينة الكوفة الإسلامية المجاورة لها ، الحافلة بالسكان المسلمين ؛ وقد منع هشام نفسه يوسف من أن يعسكر بجند الشام بين أهل الكوفة .

ولبت خالد في السجن مع أخيه إسماعيل وابنه يزيد بن خالد وابن أخيه المنذر بن أسد ثمانية عشر شهراً ، ولم ينصره أحدٌ من الجنين بيد ولا بلسان إلا رجلاً عيسى من قيس ، فإنه قال (الطبري ج ٢ ص ١٨١٦ - ١٨١٧) :
ألا إن بحر الجود أصبح ساجياً أسير ثقيف موثقاً في السلاسل
فإن تسجنوا القسرى لا تسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه في القبائل
وكان لابد من أن يحاسب على أموال الدولة ، ومعنى ذلك أن يعترف بأنه رزأ مبلغاً كبيراً وأن يتعهد بدفعه ، وكان التعذيب للوصول منه إلى ذلك هو الوسيلة المستعملة . وقد استأذن يوسف بن عمر هشاماً في إطلاق يده على خالد وتعذيبه ، فلم يأذن له هشام ، حتى أكثر عليه يوسف وألح ، فأذن له مرة واحدة وبعث حرسياً يشهد ذلك ، وحلف لئن أتى على خالد أجله ، وهو تحت العذاب ، ليقتلنه به (١) . وفي شوال سنة ١٢٠ هـ (سبتمبر سنة ٧٣٩ م) أمر هشام بتخليه سبيله ، لأنه لم يمكن استخراج شيء منه ، فذهب خالد إلى بلدة « القرية » ، بإزاء باب الرصافة ، فأقام حيناً ، وهشام لا يأذن له في القدوم عليه ، واضطر خالد إلى الاكتفاء بمكاتبة الأبرش الكلي ، وكان مستشار هشام الذي يثق فيه . وبعد أن أقام خالد حتى شهر صفر سنة ١٢١ هـ (يناير سنة ٧٤٠ م) سار حتى نزل دمشق ، وأقام فيها بعد ذلك . على أن يوسف بن عمر لم يمسك من مطاردة الغنيمه التي أفلتت من بين مخالبه ، وأقنع الخليفة المتمنع ، في آخر الأمر ، بأن يأذن بأخذ يزيد بن خالد على الأقل ، فأذن له بأخذه ، ولكن يزيد أفلت بالفرار . وقد تحامل على خالد إلى جانب يوسف بن عمر كلثوم بن هياض القسرى ، صاحب شرطة دمشق ،

(١) [الطبري ج ٢ ص ١٨١٢ - ١٨١٣ - المترجم] .

وإن كان لا يتحتم أن يكون قد اتفق مع يوسف ، فقد كان ابن صمّ خالده ، وكان يحكم وظيفته هو الذى يراقبه . وسواء عن حسن نية أو عن تحامل وغيرة من خالد فإن كلثوماً انهم موالى خالد ، وهو وابنه يزيد فى غزوة الصيف التى كان يوجهها هشام فى بلاد الروم ، بأنهم هم الذين أحدثوا تلك الحرائق التى كانت تظهر كل ليلة فى دمشق ، حتى أتت على الكثير من دورها (١) ، بقصد الوثوب على بيت المال . وصدّق هشام ذلك ، لأنه لم ينهم كلثوماً بالتحامل على ابن عمه ، وكتب إلى كلثوم بأمره بحبس آل خالد ، الصغبر منهم والكبير ، والموالى والنساء . ولم يلبث أن ظهر أن خالد لم يكن له أية علاقة بالذين كانوا يحدثون الحرائق وأنها كانت من فعل رجل من أهل العراق يقال له أبو العمرس وأصحاب له ، فكانوا إذا وقع الحريق أغاروا بسرقة ، لكنها كانت من فعل قوم من أهل العراق على كل حال . وعند ذلك كتب هشام إلى كلثوم يشتمه ويعنفه ويأمره بتخليه سبيل جميع من حبس . حتى إذا رجع خالد ، وكان قد علم بحبس آل له ولم يعلم بتخليه سيبلهم ، غضب غضباً شديداً ، وظهر غضبه لما اجتمع الناس فى داره ، إذ قال فيهم : « خرجتُ غازياً فى سبيل الله سامعاً مطيعاً ، فتخلّفت فى حقبي وأخذت حرمي وحرم أهل بيتي ، فتحبسوا مع أهل الجرائم كما يفعل بأهل الشرك ، فما منع عصاة منكم أن تقوم فتقول : حلام حبس حرم هذا السامع المطيع ؟ لبيكفن حتى هشام أولادعون إلى عراقى الهوى شامى الدار حجازى الأصل - يعنى محمد بن على ابن عبد الله بن عباس - وقد أذنت لكم أن تبلغوا هشاماً ! » . وفى مناسبة أخرى أراد هشام سؤال خالد ، لما بلغه من أنه أذن لرجل أن يمتدحه مستقرباً إليه بعبارات فيها اجترأ على مقام الذات الإلهية . فأجاب خالد بأن الرواية تحريفاً ، واتهم الخليفة بمثل ما اتهم به أعداؤه ، فكظم الخليفة غيظه واكتفى

(١) يلكرتيرفانيس (حوادث سنة ٦٢٣٢ من تاريخ الخليفة) هذه الحرائق أيضاً .

فلا بد أنها أثارت شيئاً من السخط والذعر .

بأن قال : و خَرَفَ أبو الهيثم ،^(١) ، يعنى أنه يهذى بما لا يدرى . وكان هشام دائماً لا يتخذ خطوة مؤذية لخادمه لتقديم إلاكارها ، لأنه لم يكن فى الحقيقة يشك فى ولائه له^(٢) ، وكان يندم فى كل مرة على ما فعل . ويكنى من النبى هشام أنه كان يشعر بالحجل وأنه لم يحمل غضب خالد على عمىل سوء ، بل رأى فيه دليلاً على حسن طويته . وقد أذن له فى السنين الأخيرة من خلافته أن يقيم فى دمشق دون أن يتعرض له ، ولكن لا شك أنه لم يكن ينظر بعين الرضا لما كان يراه من محبة لخالد عند الناس .

وإذا كان الهدوء قد ساد العراق سنين طويلة فى عهد خالد ، فإنه لم تلبث بعدها أن حدثت فى العاصمة فى عهد خلفه ثورة كانت تؤذن بأحداث ، غير معروفة العواقب . ذلك أن زيد بن على بن الحسين بن على^(٣) كان قد خرج من المدينة ، موطن أسرته ، على كل شديد منه ، ووقع فى الكوفة ، لكنه بقى هناك لا يستطيع الفكك ، لأنه وقع فى أيدى الشيعة ، فأمسكوه عن الخروج ، وقالوا له إنهم يرجون أن يكون هو المنصور وأن يكون ذلك هو الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية ، وإن سيادة بنى أمية فى الكوفة لا تستند إلا إلى حدة قليلة من جنود الشام ، لا يستطيعون أن يقفوا أمام مائة ألف من أهل الكوفة يضربون دونه بسيفهم . واختر زيد بكلامهم ولكنه أخذ لنفسه الحيلة ، فكان دائماً يغير الدار التى ينزل فيها ، واستمرت إقامته فى الكوفة نحو عشرة أشهر فى الحملة ، وفى خلال هذه الفترة اتخذ الأمية للثورة وضم لنفسه أنصاراً فى البصرة والموصل أيضاً ، وبايعه الناس فى الكوفة حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألف رجل ، وكانت بيعته التى يبايع

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ، ص ١٨١٤ - ١٨١٩ - المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ، ص ١٨١٤ - ١٨٢٠ - المترجم] .

(٣) [راجع الطبرى ج ٢ ، ص ١٦٦٧ - ١٦٦٨ ، ١٦٩٨ - ١٧١٤ - المترجم] .

عليها الناس : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفء بين أهل السواد ، ورد المظالم ، وإيقاف المُجَسَّر^(١) ، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجعل حقنا » ، فإذا قبلوا البيعة على ذلك أخذ عليهم عهد الله وذمة رسوله بالوفاء وأشهد الله . ولبت يوسف بن عمر غافلاً زماناً طويلاً لا يدرى عن الحركة شيئاً ، ولكنه أفلح أخيراً في أن يحصل على معلومات عما يدبره زيد ، من رجلين من المواليين له كان يوسف قد قبض عليهما ، ثم عرف أيضاً أن زيدا ، على أثر هذا القبض ، قرر التمسجيل بالثورة مخافة أن يؤخذ ، وأنه حدد لها ليلة الأربعاء أول ليلة من صفر سنة ١٢٢ هـ (٦ يناير سنة ٧٤٠ م) ، فأمر يوسف بدعوة أهل الكوفة في يوم الثلاثاء السابق على يوم الثورة ، وجمعهم في المسجد الأعظم ، وهناك حصرهم ، وغلقت عليهم أبواب المسجد ، ووضعهم في حراسة طائفة من جند الشام . ويظهر أنهم بعد أن تبينوا خطأهم كانوا راضين كل الرضا عن نجاحهم في المسجد من حواقب ما أقدموا عليه . ولما جاء زيد ، ومعه مائتان وثمانية عشر رجلاً ، كان قد جمعهم في ليلة الأربعاء وسط الظلام والبرد الشديد ، وأراد أن يخلصهم من الحصر ، لم يتحركوا ، واضطر أن ينسحب من أمام المسجد ، لأن ألفين من جند الشام كانوا قد قدموا من الحيرة لمحاربتهم ، فردّهم زيد في يوم الأربعاء ، وثبت في الخميس أيضاً هو وأصحابه القلائل أمام رُماة النشّاب من القيقانية والبخارية حتى جاء الليل ، فأصيب زيد بسهم في جانب جبهته اليسرى ، فرجع ومعه أصحابه فدخلوا الكوفة ، ومات زيد من السهم ، ووقعت جثته في أهل الشام ، وصُلب جسده في الكوفة . وأما رأسه فقطّع وأرسل إلى هشام بن عبد الملك في الشام ، فأمر به فنُصِب على باب دمشق ، ثم أرسل به إلى المدينة ، ومكث بها

(١) [يقصد من طالت غيبته عن أهله يحارب في بلاد بعيدة عنهم - المترجم] .

مصلوباً حتى مات هشام . وأما ابنه يحيى ، وكان غلاماً حدثاً ، فقد استطاع أن يفر إلى خراسان ، فأقام مختبئاً في بلخ سنين كثيرة . ولكنه عُرِف بعد ذلك ، فصار ينتقل من مكان إلى مكان ، حتى قُتِل سنة ١٢٥ هـ ، في عهد الوليد بن يزيد ، وهو يحارب من كانوا في طلبه (١) .

ومع أن هذه الثورة قد انتهت إلى نهاية يُرى لها ، فلما كانت ثورة لها شأنها ، لأن ثوارت شيعة أخرى أعقبها . وأمام هذه الثورات سقطت دولة دمشق آخر الأمر ، ولم يلبث بعد مقتل يحيى أن نهض أبو مسلم لينتقم له ، فقتل قاتليه .

٣ - ولا شك أن المؤرخ يخطئ في تصوير هشام ، إذا ظن أنه كان خليفة لا هم له إلا أمور الإدارة والشئون الداخلية . على أن هشاماً لم يكن جندياً (٢) ، ولكنه لم يكن يهرب الحروب ، بل هو وجهها همه وبكل الوسائل ، وجهز جيوشاً كبيرة ، ولم يدخر في ذلك الأموال ولا حياة الرجال ، وكانت يده دائماً مشغولتين بالمشروعات الحربية في أكثر المواضع تباعداً .

ففي أول حكمه استأنف قتال الروم ، وكانت الحروب معهم قد توقفت بعد أن أدى غزو القسطنطينية في سنة ٩٨ - ٩٩ هـ (٧١٦ - ٧١٧ م) إلى استنزاف قوى الدولة دون أن يؤدي إلى نتيجة . ويحكى البلاذري (ص ١٦٥ - ١٦٧) أن هشاماً بنى حصوناً ومسالح في مواجهة الروم ، وكان يقوم كل صيف بغزوات كبيرة ، وكان في كل مرة يوجه غزوتين أو ثلاثاً في وقت معاً لتلتقي في نقطة واحدة ، وكان الذي يقود هذه الغزوات ابنه معاوية وابنه سليمان ، وكان كل منهما رجلاً حرب مولعاً بها . أما معاوية فهو جلد الأمويين في الأندلس ، وقد مات في سنة ١١٨

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٧١٣ - ١٧١٤ ، ١٧٧٠ - ١٧٧٤ - المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٧٣٥ - ١٧٣٦ - المترجم] .

أو ١١٩ هـ (٧٣٦ - ٧٣٧ م) في بلاد الأعداء ، ويروى أنه ثار بين يديه ثعلبٌ ، فركض خلفه ، فعثر به فرسه ، فسقط ومات ، فقال هشام متوجعاً : تالله لقد أجمعتُ أن أرشحه للخلافة ، ويتبع ثعلباً (١) . ولكن البطل الأكبر في هذه الحروب كما تُصَوِّره الروايات والأساطير هو عبد الله البطال ، وقد بذل المسلمون في حربهم للروم جهوداً كبيرة وأفلحوا في افتتاح بعض القلاع والمدن ، ولكنهم كانوا لا يستطيعون الثبات فيها في الشتاء ، يقول أحد المؤرخين الروم :

Nonnulla prospera per duces exercitus a se missos in Romania terra et pelago gessit (٢)

على أن الروم لم يحققوا في الدفاع عن أنفسهم ، ففي سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) قضوا على جيش صربي عند اكرونيوس (Akronius) من أعمال أفريجية (Phrygien) . وفي هذه الموقعة قُتِلَ عبد الله البطال . وفي السنة التالية قام الروم من جانبهم بالهجوم على عاصمة بلاد ملطية (Melitene) ، ولكنهم ارتدوا لما خرج هشام بنفسه مسرعاً من الرصافة وملبياً نداء العرب المحاصرين . وإلى جانب الحروب التي وجهها هشام إلى الروم كانت هناك حروب أخرى في الشمال الشرقي من الدولة الإسلامية وجهها إلى الترك فيما دون بحر الخزر ، وفي هذه الحروب أيضاً لم يكن الحظ دائماً موائماً للعرب ، ففي سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) هُزِمُوا هزيمة كبيرة ، ولكن الموقف تحول بعد ذلك في مصلحتهم ، ويرجع الفضل في ذلك إلى مسلمة بن عبد الملك وخصوصاً إلى مروان بن محمد . .

وفي نفس الوقت زحف المسلمون من جهة المغرب على أوروبا زحفاً يكاد يكون أشدَّ اندفاعاً من زحفهم عليها من جهة المشرق (٣) ، وبذلك وضعوا العالم

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٣٨ - ١٨٣٩ - المترجم] .

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي : وهو لم يحرز إلا بعض النصر في تلك الحملات البرية والبحرية التي وجه فيها قواد الجيوش إلى بلاد الروم - المترجم] .

(٣) إن أغنى الأعيان وأحدثها في هذا الصدد موجود في كتاب Contiuatio Isidori Hispana ، ولكن فهمها للأسف صير جداً بسبب سوء لغتها اللاتينية ، وقد جمعها ورتبها =

المسيحي بين نارين . وهم قبل خلافة هشام بسنين كانوا قد هاجموا الفرنج من جهة إسبانيا وكان الحرث بن عبد الرحمن الثقفي ، أمير الأندلس ، هو أول من عبر جبال البرانس ، وربما كان ذلك في عهد سليمان بن عبد الملك . وفي عهد عمر بن عبد العزيز فتح السمع بن مالك الخولاني مدينة أربونة (Narbonne) وظلت هذه المدينة نقطة ارتكاز وحصناً يلجأ إليه العرب زماناً طويلاً ، ولكن السمع لما تقدم إلى تولوשה (Toulouse) هزمه الفرنج بقيادة أودو (Eudo) وقتلوه في ذي العقدة سنة ١٠٢ هـ (مايو سنة ٧٢١ م) ، فلما جاء خلفه عنيسة بن سحيم الكلبي قام ، بعدة غزوات كثيرة لم يكن هو نفسه الذي تولى قيادتها ، بحملة كبيرة في سنة ١٠٨ هـ (٧٢٦ م) ومات فيها ، وكان ذلك في عهد هشام بن عبد الملك . ثم أعقبت ذلك فترة توقفت لأن الأمراء كانوا يتغيرون بسرعة وكانوا في شغل بأمور داخلية . وأحسن البربر الذين كانوا يؤلفون شطراً كبيراً في الجيوش العربية بأن العرب يؤثرونهم عن مكانتهم ويفضونهم في حقوقهم كسلمين وكجنود .

وكان العرب أنفسهم قد مزقهم الخلافات ، ولم يتغير الموقف إلا بعد أن عين هشام على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي مكان المهيم بن عبد الكافي الذي كان متشدداً ومقتة الناس . وكان لا بد لعبد الرحمن من أن يبدأ بإزالة الشوكة التي في جسمه ، وذلك أن مونوذا البربري انتفض على العرب واستقل بثمر الشمال ، وكان قد حالف أودو الفرنجي وتزوج ابنته . وبعد أن قضى عليه عبد الرحمن اتجه إلى أودو وهزمه بين نهر البغارون ونهر الدوردوني ،

دكتور لودلف شفنتكوف Ludolf Schwenkow ، في رسالة تقدم بها إلى جامعة جوتينجن سنة ١٨٩٤ م ، بعنوان *Kritische Betrachtung der lateinischen Quellen Zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber* . ولا ينقص من قيمة هذا الكتاب ، بما فيه من عمل دقيق غاية الدقة ، أن مؤلفه كثيراً ما يتحفظ فيما يتعلق بالموضوعات الشرقية الخالصة آراء معكوسة .

ثم لاحقه في جهة إقليم نهر اللوار ، فالتقى في رمضان سنة ١١٤ هـ (أكتوبر سنة ٧٣٢) فيما بين مدينتي تور وپواتيه بقلعه (بشارل مارتيل) الذي كان أودو قد دماه لتجديده . وبعد مناوشات دامت أياماً قام العرب بهجوم عام هنيف . ولكن الفرنج الشرقيين ثبتوا طول اليوم ، وفي الصباح التالي أدهشهم أنهم وجدوا العرب قد أدخلوا الميدان بعد أن قُتِل قائدهم . وهنا يقف جييون (Gibbon) ليتخيل مصير أوروبا لو أن العرب انتصروا : إذن فلربما كان القرآن يُفسَّر اليوم في جامعة أكسفورد ، ولكانت قداسة الديانة الحمديدية وحقائقها تُتلى من المنابر أمام شعب قد خُتِن . والحق أن فضل الفرنج على أوروبا النصرانية كان كبيراً ، ولكن الحق أيضاً أن الروم في شرق أوروبا احتملوا من الجهد والمشقة في حماية أوروبا أكثر مما احتمله للفرنج .

ولكن العرب لم يُدْخِرُوا عند مدينة تور دحراً حاسماً (١) ، وقد حثَّ الخليفة نفسه بحماسة شديدة على مواصلة القتال مع الفرنج . وفي سنة ١١٥ هـ (٧٣٣ م) حثَّ الخليفة عبد الملك بن قُتَيْب الفهري خليفة عبد الرحمن الغافقي على الأندلس لإبطائه في القيام بمهاجمة الفرنج . وعلى هذا صار عبد الملك لقتالهم ، لكنه لم يتقدم كثيراً ، فقد سدَّ النصراني أمامه طريق جبال البرانس (جبال البرنات) ودحروه إلى السهل . وعند ذلك عين الخليفة عقبة بن الحجاج السلوي مكانه (سنة ١١٧ هـ) ، وهو الذي نجله اسمه عند المؤرخين الإسبان محوراً في اللغة اللاتينية نحويراً جحيراً : أو كوپا (Aucupa) : ولكن عقبة سُخِّل أولاً وقتاً طويلاً بالمسائل الداخلية ، ولما تحرك بعد ذلك قاصداً بلاد غاليس (بلاد الغال) لحقته في سرقسطة الكتب لكي يعود إلى إفريقية للمساعدة على إخماد الثورة التي قام بها البربر هناك ، فرجع

(١) [موقعة تورپواتية تسمى عند العرب موقعة بلاط الشهداء - المترجم] .

وعبر الجبال (١) التي دون جبل طارق ثم جاز المضيق ومعه الجيش العربي الإسباني . وبعد أن اعتقد أنه قام بما عليه من عمل في إفريقية قفل راجعاً إلى الأندلس ومات سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) .

وقد قضت الظروف على البربر أن يصبروا على كره منهم حلفاء للفرنجة ، لهم شأنهم ، وذلك أن البربر تدمروا من أن الحال العرب ، بعد موت عمر بن عبد العزيز ، صاروا يعاملونهم ، مع أنهم مسلمون صادقون في إسلامهم ومع أنهم يشتركون في الجهاد متحمسين ، معاملة الخدم للذين يلزمهم أداء الجزية . فصارت نفوس البربر تربة نعصة لبعض دعاة الخوارج الذين جاءوا من العراق وعلى رأسهم ميسرة الصفري لبلد بذور مبادئ الخوارج بين البربر . ويحكى سيف (الطبري ج ٢ ص ٢٨١٥ فما بعدها) أنهم في أول الأمر ، ومن غير ثورة ، التجأوا إلى هشام لكي يسأله أن يرفع عنهم ما يشككون منه ، ولكن لم يؤذن لرسولهم في الدخول عليه ، فلما نفدت نفقاتهم رجعوا ، بعد شيء من الانتظار ، وهم يشعرون بخيبة الأمل ، وكتبوا أمراءهم في رقاع تركوها للخليفة . وعند ذلك اقتنعوا بأن الخوارج على حق فيما يقولونه من أن ظلم الحال لهم إنما هو بأمر من الخليفة نفسه ، وأن الخليفة بسبب جشعه للحصول على الأموال هو الذي يكرهم على أن يمتصوا دم الرعايا . ولهذا ثاروا ثورة مريعة بقيادة أحد الخوارج ، امتدت من مراکش إلى القيروان . وتبين أن أمراء إفريقية غير قادرين على أن يفعلوا إزاء هذه الثورة شيئاً . وكللك لم تنفيذ معونة عقبة ، بعد أن عاد إلى إفريقية قادماً من الأندلس ، إلا قليلاً . وكان لابد من مجيء الفيلق الثالث ، أعنى أنه

(١) . وبحسب كتاب الصلة الإسبانية لتاريخ ايزيدور وقتت عند هذه الجبال الموقفة التي قبل فيها لودزيق ملك القوط ، على مقربة من جبل طارق فيما يظهر [جاء في كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية القرطبي (ط . مدريد ١٨٦٨ م ص ٧) : وكان اجتماع طارق ولودزيق على وادي بكة (Beka) من شنونة (Sidonia) فهزم الله لودزيق
النج - المترجم] .

كان لا بد من أن يأتي جند الحكومة من الشام ، كما كان الحال في العراق ، فأرسلهم هشام . وفي سنة ١٢٣ هـ (١) (٧٤١ م) ظهرت في ميدان القتال بالمغرب الأقصى جحافلُ نخل الشام ، وكان على رأسهم كلثوم بن هيباض القسري (٢) حامل دمشق ، ولكن حتى جند الشام ، على جودة هُدُتهم وحسن مرانهم على القتال ، هُزموا أمام فرسان البربر الذين كانوا أشبه بالعراة ، وقتل كلثوم في معركة كبيرة عند نهر نوام (Nauam) (٣) ، يصفها مؤرخو الشام وصفاً فنياً رائعاً ، ولم يستطع ابن أخيه باج بن بشر أن ينجو إلى سبته ومنها إلى الأندلس إلا بثلاث جيشه ، وكانت تلك أشنع هزيمة هُزمها العرب على الإطلاق حتى ذلك الحين ، وكانت أشنع بما لا يقام من هزيمتهم عند مدينة تور ، فقد استطاع البربر باسم الإسلام أن يضربوا للعرب في المغرب أشدَّ ضربة ، وإن كان العرب في السنة التالية قد أحرزوا نصراً استطاعوا بفضلُه أن يستولوا على القيروان ، وأن يثبتوا أقدامهم فيها .

(١) هذا هو التاريخ الصحيح كما عند البلاذري (ص ٢٣٢) . أما عند الطبري (ج ٢ ص ١٧١٦ وعند ثيوفاليس (في أخبار سنة ٦٢٣١ من تاريخ الخليفة) فيجد أن التاريخ الذي يذكرانه هو ١٢٢ هـ . ولكن في هذه السنة التي كان فيها خالد القسري مشركاً في حلة حربية في آسيا الصغرى كان كلثوم ما يزال صاحب الشرطة في دمشق ، وهو يسمي عند ثيوفاليس (سنة ٦٢٣١) باسم Δαμασκηνός (الدمشق) .

(٢) هو يسمي في المادة القشيري كما عند البلاذري وابن الأثير في جميع المواضع وعند الطبري أيضاً (ج ٢ ص ١٧١٦ و ١٨٧١) ، ولكن الصواب هو « القسري » . كما يسميه الطبري (ج ٢ ص ١٨١٤) فما بعدها) لأنه كان ابن عم لخالد بن عبد الله القسري . ويقول A. Müller, 1,449) إنه « قسري بطبيعة الحال » ، كأن موالر يعرف ذلك بدهاء يفضل معرفته بنفسه العرب والأصول التي كان يجري عليها هشام في حكمته (A. Müller 1,445) . وكثيراً ما يحصل الخلط بين كلمتي قسري وقيسي ، وبين كلمتي : قشيري وقريشي ، فإذن لا طبري (ج ٢ ص ١٤٥٦ س ٧) [هل أن كلثوما هذا يسمي في تاريخ ابن القوطية (ص ١٧) هكذا : كلثوم بن هيباض القيسي - المترجم] .

(٣) [يقول ابن القوطية في تاريخه (ص ١٥) إن المعركة كانت عند موضع يقال له : تغلوره . . . المترجم] .

وكذلك في الطرف الآخر من الدولة الإسلامية ، بلاد نهر الشاش التي لم تعرف الهدوء قط ، كانت الحركة في عهد هشام أقوى منها في العادة ، ذلك أن أهل السغد كانوا قد تبعوا أمراءهم ودخلوا في الإسلام أيام عمر بن عبد العزيز ، بعد أن وصلهم عمر بالأمان^١ توخّذ منهم جزية . ولكن عمال الدولة بعد ذلك لم يتقيدوا بهذا الوعد ، وكانوا يتغيرون كثيراً ، وكان أحدهم يسير على سياسة ويسير من يخلفه على سياسة أخرى ، ولكنهم جميعاً كانوا يميلون القوة فوق الحق . فإذا أحق أحدُهم أولئك المسلمين الجدد من الجزية فإن ذلك كان يُعتبر فضلاً وإحساناً منه سرعان ما يُرتجع فيه ، حتى إذا غضب أهل السغد من ذلك وامتلأت نفوسهم حقداً رموا بأنفسهم بين أحضان الترك ، أعدائهم القدماء ودعّوهم إلى بلادهم . وكان أهل الديبابة والورع من المسلمين يعطفون عليهم ، ولم يقتصروا في التعبير عن هذا العطف على مجرد الكلام ، وصار من العسير على أمراء العرب أن يقفوا على الدفاع عن أنفسهم أمام هذا التكتل ، ووقعت جيوشهم أكثر من مرة في أشد المآزق خطراً ، وكانوا يفرحون إذا استطاعوا النجاة ولو بنحسائر كبيرة . وما يدل على مقدار تعود الخليفة على الأخبار السيئة التي كانت ترد من خراسان أنه كان لا يصدق الخبر الصحيح إذا ورد إليه مُسْتَبْشِراً بانتصار جنوده^(١) . وكان كل ما يستطيعه في تدارك الأمور هو أن يغيّر القائد ، ولكن ذلك كثيراً ما كان ينتهي بالفشل ، وكان دائماً يجرّ إلى عواقب وخيمة . ولكن الخليفة في آخر الأمر اتخذ إجراءً فعالاً ، فبعد أن عزل خالد بن عبد الله القسري ، كان يوسف بن عمر - وهو الذي خَلَفَ خالداً على العراق - يُسَمِّي نفسه بأن يسند إليه الخليفة إمارة خراسان إلى جانب إمارة العراق . ولو أنه نال ذلك لاستخلف على خراسان حاملاً قيسياً لحماً ودماً ، فزاد بذلك من حدة التنازع بين الأحزاب القيسية ، وكانت الحصومة

(١) [راجع الطبري مثلاً ج ٢ ص ١٦١٤ - ١٦١٦ - المترجم] .

بينها لا تحتاج إلى مزيد : ولكن الخليفة حال بين يوسف بن عمر وبين ما يشتهي ، فقام من جانبه بتعيين نصر بن سيار الكناني (١) ، وكان صاحب سن وتجربة وقائداً مجتهداً وحاملاً من أكفأ العمال ، ولم يكن ينتمى لأية قبيلة قوية في خراسان . وقد بذل كل ما في طاقته ، ولكنه كان يحاول أمراً مقضيئاً وموقفاً خاسراً .

ومات هشام في الرصافة يوم الأربعاء لست ليال خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ (٦ فبراير سنة ٧٤٣ م) ، ولم يكن قد تقدمت به السن كثيراً ، فكان في وسط العقد الخامس من العمر (٢) . ولكن لعل الشباب لم يتبدل عليه قط ، وكان مظهره غير رائع ، فقد كان « أحول شديد انقلاب العين » وهو وإن كان قد استطاع أن يفرض على الناس احترامه ، فإنه لم يكن له من الصفات ما يملأ نفوس الناس لأول وهلة أو يجذبهم إليه أو يملوهم رهبة منه ، وكان فيه شيء من خصال أوساط الناس من أهل التحفظ ، ولكنه كان « دقيق النظر . . . متيقظاً في سلطانه ، سائساً لرعيته » (٣) ، وهو لم يفعل بنفسه ما يفضي إلى أهل التقى ، بل كان مسلماً بحسن الإسلام ، من طراز السلف الأولين ، وكان صديقاً لرواة الحديث والأثر أمثال الزهري وأبي الزناد ، وهدواً للقدرية المبتدعة الذين أثاروا البحث في مسائل اعتقادية ، وكانوا يقولون بالاختيار (الطبرى ج ٢ ص ١٧٧٧ - قارن أيضاً ص ١٧٣٣) ، ولذلك لم يكن متعصباً على رعاياه المسيحيين . فأذن لهم (الملكانية منهم ؟) في أن يعيدوا شغل كرسي أنطاكية بعد أن كانوا قد منيعوا

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٩ فما بعدها و ص ١٧١٨ فما بعدها - المترجم] .

(٢) [للطبرى ج ٢ ص ١٧٢٨ فما بعدها - المترجم] .

(٣) [أثرت اقتباس هذه الصفات من كتاب التنبيه للسعودي ص ٣٢٢ هوضاً عن كلمتين للمؤلف ، ويجد القارئ كثيراً من صفات هشام عند الطبرى ج ٢ ص ١٧٣٠ فما بعدها - المترجم] .

من ذلك أربعين سنة . ولكنه اشترط عليهم ألا يعينوا من يحبون من أهل العلم والنباهة ، بل أن يعينوا راهباً بسيطاً هو اصطفان (Stephanus) ، صديق هشام وأن يختاروه بطريقاً عليهم . وهم قد رضوا أيضاً بذلك (١) . ويحكى أن رجلاً نصرانياً شجّ غلاماً لمحمد بن هشام ، وبدلاً من أن يرفع محمد الأمر إلى القاضي ذهب خصي محمد فضرب النصراني ، فلما بلغ ذلك هشاماً ضرب الخصي وشتم ابنه محمداً . وكان هشام في حكمته يسعى إلى أن يجعل نفسه فوق الأحزاب ، ولكن لبته استطاع أيضاً أن يغير من نفوس العرب والولاء . وكان فيه شيء من خشية الظهور أمام الناس ، فأثر أن يعتزل في الرصافة بعيداً عن الأنظار ، وكان إذا قدم عليه من الناس من يريد أن يلتقيه كلّف صديقه الأبرش الكلبي أن يتصل به ، وكان الأبرش موضع ثقة هشام (الطبري ج ١ ص ٢٨١٦ ، وج ٢ ص ١٨١٣) . ولكن هشاماً كان رغم ذلك ممسكاً زمام الأمور وكان يفهم عمله ويحب له وقته وكان ديواله مثالا للدقة والنظام ، وكان ذلك موضع إعجاب الخليفة المنصور العباسي . وقد قضى هشام على فساد كان موجوداً ، وهو أن أعطيات المقائلة كانت تُمنح لقوم من الأشراف أشبه شيء بالاستغلال من غير عمل ، فصار لا يأخذ أحد العطاء في أيام هشام ، حتى من أمراء الأمويين ، إلا إذا قام بالغزو بنفسه أو أناب أحداً عنه . وكان هشام مولى اسمه يعقوب ، فكان يأخذ عطاء سيده وينوب عنه في ميدان القتال . والحكايات الكثيرة التي تحكى عن هشام كما تحكى بكثرة عن عمر بن الخطاب ومعاوية وعبد الملك ، تصوره في صورة

(١) انظر ما يقوله تيوفانيس في أخبار سنة ٦٢٣ (من تاريخ الخليفة) ، وقارن أيضاً أخبار سنة ٦٢٣٦ . وقتل أسرى الروم إذا لم يفك أسرم أو لم يبتغوا الإسلام ، وهو ما يذكره تيوفانيس في أخبار سنة ١٢٣٢ ، ليس شيئاً غريباً ولا خاصاً ، لأنه كان من قوانين الحرب القديمة .

رجل مبالغ في الحساب في الإنفاق متعشياً بالتدبير على قواعد الاقتصاد (١) .
ولكن هذه الصفة التي ربما يكون من الممكن تبريرها ، إذا نظرنا إلى أن
من تقدم هشاماً من الخلفاء كان يخالفه فيها ، انقلبت عنده إلى صيب جرم
النكبات ، وذلك أنه أهم بأن يملأ خزانته ، ويصفه تيوفانيس بهذه الكلمات :

ἤρξατο κτίζειν κατὰ χώραν καὶ πόλιν καλὰτα καὶ κατασποράς
ποιεῖν καὶ παραδείσους καὶ θῦματα ἐκβάλλειν (٢)

وهو قد فعل ذلك جرياً وراء مصلحته الخاصة وأثار بذلك سخطاً شديداً
إلى حد أن العباسيين ، في وضعهم لبرنامج حكومتهم وفي التجنب إلى من
دخل في طاعتهم ، لم يجدوا شيئاً أحسن من أن يعدوهم بأنهم لا يريدون أن
يبنوا قصوراً ، ولا أن يحفروا أنهاراً ، ذلك أن النهر معناه امتلاك الضياع
وأن القصر من لواحق ذلك . ونظراً لأن هشاماً كان من كبار ملاك الأرض
لأنه كان ينافس خالد بن عبد الله القسري ، وكان يمنع خالداً من أن يبيع
خلته حتى تباع غلات أمير المؤمنين ، فكان السعر يرتفع ارتفاعاً كبيراً ،
والأدهى من ذلك أن هشاماً كان يعتبر الدولة نفسها أشبه بصافية من
صوافيه (٣) ، يجب أن يخرج منها أكبر ما يمكن من المال ، وانتهت سياسته
في الحكم آخر الأمر إلى تزعج ظاهرة نحو ملء الخزانة ، فكان لا بد أن
يحمل إليه عماله أكبر ما يمكن من الأموال ، ولم يكن يعا بالوسائل التي
يبتزونها بها ، وزاد في جزية أهل قبرص وضاعف جزية أهل الإسكندرية ،
ودفع برعاياه في أرض ما وراء النهر وإفريقية والأندلس إلى أحضان
البأس . يقول صاحب كتاب الصلة الأسباني الذي أكل تاريخ ايزيدور :

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٧٣٠ - ١٧٤٠ ، والمسموع في النجيه مشلا
ص ٢٢٢ - ٢٢٣ - المترجم] .
(٢) [وترجمة هذا النص اليوناني هي : شرع في بناء الدور وإنشاء الضياع في المدن
والقرى وفي عمل البساتين البديعة وفي تحفيف الأرض - المترجم] .
(٣) [يعنى الممتلكات الخاصة التي تتبع الخليفة - المترجم] .

Cupiditate praereptus tanta collectio pecuniarum per duces Oriente et Occidente ab ipso missis est facta, quanta nulla unquam : tempore in reges qui ante eum fuerant extitit congregata : unde non modicae populorum katervae cernentes in eo improbam manere cupiditatem ab eius ditione suas dividunt mentes. (§ 94)^(١)

هذا ما يقوله عن هشام صاحب كتاب الصلة ، مع المبالغة المألوفة في تقدير ما جمع من أموال : ويستطيع الفريد فون كريمز ومن تابعه أن يحكموا بأن هشاماً عاد إلى الأصول السليمة القديمة التي كان يسير عليها خلفاء بني أمية ، وذلك بعد ما يزعمونه من تزعزع في إدارة الدولة الاقتصادية على يد عمر بن عبد العزيز : ولكن مهما يكن من شيء فإن آخر حكم هشام ، وكان حكماً طويلاً مملوفاً بالجد والعمل إذا قورن بغيره ، كان تعساً إلى أكبر حد ممكن . وهو لم يكن محبوباً عند أحد ، وقد فشل فشلاً كبيراً في كل شيء ، ثم ترك وراءه تلك الدولة الشاسعة الأطراف في حال أسوأ مما أقرب إلى اليأس مما كان قد وجدها . ولم يكن من باب المصادفة أن الدعوة العباسية قويت واشتد أمرها في أيامه .

٤ — كان يزيد بن عبد الملك في وصيته التي عهد فيها بالخلافة إلى أخيه هشام ، قد عين ابنه الوليد بن يزيد ولياً لعهد هشام . وكان الوليد بن يزيد شبيهاً بأبيه يزيد ، غير أنه كان يترقى عليه فيما كان له من صفات ، وهو يسمى عند صاحب الصلة لتاريخ أيزيدور بالجميل ، وكان حسن الصورة قوى البنية إلى درجة غير مألوفة ، ولكنه كان مع ذلك قوى الحيوية ممتاز المواهب العقلية التي أبقظها ووجهها مؤدبته عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيباني اللغوى المشهور . وقد نشأ في بلاط عمه هشام ، ولكن لم يكن في صباه سعيداً ، وكان يفعل ما يشتهى ولا يأبه إلى ما سوى ذلك ، وكان مطمئناً على مستقبله ، لأنه كان يعلم من أول الأمر أنه

(١) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي : وقد استولى عليه الجشع ، وجمع له المال الذين يسمونهم إلى المشرق والمغرب ما لم يجمع للملك الذين كانوا قبله . وذلك رأى غير تحليل من الناس أنه قد ملكه الجشع المعيب ، فأنصرفت نفوسهم عن الولاء لسلطانه — المترجم] .

وارث عرش الخلافة ؛ وقد دفعه إلى التماهى في ذلك من كان حوله من أهل المحون والفسق : ووجد هشام أنه يعوزه الجحد والظهور بالمظهر اللائق بولي العهد ، فكان يترجم بأنه يقضى وقته في الصيد والشراب مع رفاق من أهل اللهو واللذات وبأن الموسيقى والشعر كانا أحب إليه من القرآن . وقد حاول هشام إصلاحه ، ولكنه لم يحسن اختيار الطريق إلى ذلك ، فأخطأ الغرض ، ولم يجد الوليد في ترم هشام به وسوء معاملته له ما يدل على نية طيبة ، وكان يُفسر ذلك بأن هشاماً يريد أن ينزعه من ولاية العهد . ولعل الوليد لم يكن في ذلك مخطئاً ، لأنه كان طبيعياً ، ومهما يكن من شيء فإن سوء سلوك الأمير الذي استعصى على الإصلاح دعا هشاماً . آخر الأمر إلى أن يخلعه من ولاية العهد وأن يجعلها في ابنة مسلمة بن هشام .

ولكن هشاماً اصطدم فيها أراد بمعارضة حاسمة من جانب بعض أشراف الأمويين وكبار النحال ، وخصوصاً أن مسلمة نفسه كان في هازلاً . ولم يرض الوليد نفسه بأن يتنازل عن حقه . ثم جاءت المضايقة التي لقها من هشام وحاشيته بسبب رفضه التنازل فجعلته أشد عناداً ، وملأت نفسه بالبغض . وأخيراً لم يطق الحياة في القصر ، وبعد أن مات مسلمة بن عبد الملك ، ذلك الرجل ذى السن والمكانة العالية الذي كان يعيب هشاماً ويكفّه عن الوليد ، خرج الوليد من الرصافة^(١) وذهب إلى مكان منعزل في البرية إلى الشرق من فلسطين^(٢) ، وهناك مضى فيما كان عليه ، بل ازداد تمادياً . ولم يكن يعوزه الزوار الذين كانوا يطمعون .

(١) ويظهر أن هذا هو الذي يؤخذ بما جاء في الأغاني (ج ٦ ص ١٠٣) . أما ما ينادى من أن ذلك حدث في السنين الأخيرة لخلافة هشام ، فهو يؤخذ بوضوح بما جاء في ذلك أيضاً . وقد مات مسلمة بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ .

(٢) ذهب الوليد إلى الأبرق أو الأزرق ، عند ما يقال له : الأغطف ، بين أرض بلاتين وأرض فزارة (أغاني ج ٦ ص ١٠٤ والطبري ج ٢ ص ١٧٤٣) من أعمال عمان (الطبري ج ٢ ص ١٧٩٥ ص ١١) . ويمكن أن يؤخذ بما جاء عند الطبري (ج ٢ ص ١٧٥٤ ص ١١) . أن ذلك المكان كان قريباً من منزل زيزاء ، لكن هذا المكان بعيد جداً إلى الجنوب .

في كرمه وفي دُنُو ملكه ، فيجدون عنده ما يرجون . وكان يرقب موت هشام ولا يُسَخِّق ذلك . ولم يكن يكتم ما يحول في نفسه من إحساسات ، بل كان يعبر عنها في أشعار لا يحتفظ بها لنفسه .

وقد اضطر أن ينتظر سنين ، ثم وقع الأمر الذي لم يكن هو وحده يرقبه . ذلك أن حكم هشام كان قد طال ، فتنفس الناس الصعداء لما أتممت المنية حيزه . ولم يكده يموت حتى خرج عياض بن مسام ، كاتب الوليد ، من السجن — وكان الوليد قد خلفه في الرصافة ليكتب له بما يكون فيها من أحداث ، فأخذه هشام وضربه وحبسه — فحتم عياض أبواب الخزان حتى لم يبق قمع لتسخين الماء لهشام ولا شيء يُكفِّئ به ، وذلك أن عياضاً أمر بإزالة هشام من على فرشه وبجمله خارج غرفته . وتلقى الوليد مع أخبار هذه الحوادث شارات الخلافة (١) . وقد احتفل بتلك الساعة على طريقته من التعمش للشراب ، ألف قصيدة مثل فيها لنفسه بنات هشام يستدبنته ، وعبر عما يضمره لمن (٢) ، وأمر أن تحصى أموال هشام وولده في الرصافة وبأن يؤخذ أبنائه وهماله وحشمتهم إلا مسلمة ابن هشام ، ذلك أن مسلمة ، وإن كان منافساً حقيقياً له وإن كان أيضاً قد سخر منه سخرية قاسية باسم مستعار ، فإنه كان يكثر الكلام مع أبيه في الرفق بالوليد ويكفُّ عنه . ولم يلبث الوليد أن ذهب إلى دمشق لكي يتاقى البيعة في العاصمة (الأغاني ج ٦ ص ١١١ س ١٢) . وجاءت الوفود من جميع الآفاق ، وكتب إليه العمال الكتب يهنئونه (٣) ويخبرونه بأخذ البيعة له في ولاياتهم ويصفون.

(١) لا يتكلم الوليد نفسه (الأغاني ج ٦ ص ١٠٩ س ١) عن شيء سوى الخاتم ، ويرد بعد ذلك (ص ١٠٩ س ١٨) ذكر الخاتم والقضيب والطوار ، ولا شك أن الطوار هو الخطاب الذي جاء فيه لئس هشام له . [لكن نجد عند صاحب الأغاني ج ٦ ص ١١٠ ذكر الخلة والقضيب والخاتم — المترجم] .

(٢) [راجع مثلاً الأغاني ج ٦ ص ١٠٨ فابعدا — المترجم] .

(٣) [راجع مثلاً الطبري ج ٢ ص ١٧٥٢ — ١٧٥٤ — المترجم] .

مرور الناس واستبشارهم وتحقق أملهم في خلافته : وكان احتفال كبير ، وقد أظهر الوليد ما يدل على تقديره لما كان وعلى عرفانه به ، كما أنه استطاع أن يحقق الآمال التي صعدت عليه بفضل الأموال التي ادخرها له هشام ، فزاد الناس جميعاً في العطاء عشرة دراهم ، وزاد لكل من أهل الشام خاصة عشرين درهماً ، وردَّ الأعطيات إلى أهل المدينة ومكة ، بعد أن كان هشام قد منعمها عنهم عقاباً لهم على ميلهم إلى زيد بن علي ، وزاد من وفد إليه من أهل بيته في جوائزهم الضعف . وأجرى الأرزاق على زَمَنِى أهل الشام وعيانتهم ، وكساهم ، وأمر لكل منهم بخادم ، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزادهم على ما كان يخرج لهم هشام^(١) .

ولكن الوليد انتقم من أعدائه ، غير أنه لم ينتقم من آل هشام مباشرة خوشية أن يثير على نفسه الأمويين ، فاكتفى بأن ضرب سليمان بن هشام مائة سوط ونفاه بعد ذلك إلى عمان وحبس بها ، وحبس الأقفم يزيد بن هشام . لكنه عاقب إبراهيم ومحمد ابني هشام بن إسماعيل الخزومي على ما اقترفاه من التخلّي عنه والانضمام إلى جانب مسلمة بن هشام ، لأن مسلمة كان ابن أخت لها ، فوجههما إلى المدينة أولاً ، وكانا قد فعلا هناك ما بغضهما إلى الناس فأقيا للناس (يوم السبت لاثني عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة ١٢٥ هـ = ١٤ يونيو سنة ٧٤٣ م) ، ثم أمر بأن يُبعث بهما إلى يوسف بن عمر بالكوفة ، وأمره أن يبسط عليهما العذاب حتى يثلغا . وقد فعل ذلك ، وكان هذا أيضاً هو مصير بني القحقاق المبرسين الذين كانوا قد أيدوا هشاماً فيما أراد من خلع الوليد من ولاية العهد وجعلها في ابنه (ابن الأثير ج ٥ ص ١٩٨) ، فعزلوا عن ولايتهم .

(١) [جاء عند الطبري أن الوليد لم يقل في شيء يُسأله : « لا » ، فقليل له : « إن في ذلك » ، أنظر ، عدة ما يقيم عليها الطالب » : فقال : « لا أعود لسانى شيئاً لم أعد » . الطبري ج ٢ ص ١٧٥٤ - المترجم] .

ففسرين وحص وأسلموا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري لينتقم منهم ، وكان بنو القعقاع قد ضربوا عمر بن هبيرة بأمر هشام قبل ذلك بعشرين عاماً . وهكذا وقع فصل دموى أخير من فصول العداوة بين قبيلتي عبيس وفزارة . وكذلك عزل الوليد مُحَمَّالَ هشام في المدينة ودمشق وحرس حمَّالاً غيرهم ، فوجهه نحاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى والياً على المدينة ومكة والطائف ، ووجه إلى دمشق رجلاً من ثقيف أيضاً من سلالة الحجاج مباشرة ، هو عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف - وهكذا صار الوليد بسبب نسب أمه موالياً لقيس :

أما فيما يتعلق بالمنصبين الكبيرين في العراق وخراسان ، فإنه أقر الواليَّين اللذين وجدتهما ، وهما يوسف بن عمر في العراق ونصر بن سيار في خراسان^(١) ، بل هو أقر حتى آخر أيامه الأبرش الكلبي ، كاتب هشام في المنصب الذي كان له من قبل ، وجعله موضع ثقته - فكان خيلافته مع هشام خلافاً شخصياً فحسب . وكان من حيث النفسك بالدين يختلف في سلوكه الشخصى عن هشام اختلافاً كبيراً ، لكن اختلافه عنه من حيث المبادئ الأساسية كان أقل من ذلك كثيراً^(٢) . أما الزهرى وأبو الزناد صديقاً هشام فكان الوليد يبغض أحدهما^(٣) ، لأنه كان يعيبه مع هشام ، فأما الآخر ، وكان قد ألزم الحكمة والنصحت في أمر يزيد ، فإن الوليد أكرمه ، وهو كان يحبه من قبل . وكذلك هادى الوليد القدرية المبتدعة ، كما حاداهم هشام من قبل ، وأقر ما كان قد صنعه هشام من نفي رسائهم إلى جزيرة دهلك (قرب مصوع) ، واعتبر ذلك عملاً ترجى

-
- (١) [لكن الوليد باع في آخر أيامه نصر بن سيار وعاله إلى يوسف بن عمر ، (الطبرى ج ٢ ص ١٧٦٤ فإبعدها) - المترجم] .
 (٢) [ربما قصد المؤلف مثلاً ما يقوله فهما إلى : من أن الوليد لم يغير شيئاً عما فعله هشام بالقدرية (الطبرى ج ٢ ص ١٧٧٧ - المترجم) .
 (٣) [هو الزهرى ، بحسب الأغاني ج ٦ ص ١٠٦ ، وقد مات قبل تولي الوليد الخلافة - المترجم] .

منه المغفرة لهشام ، وامتنع الوليد من الاستجابة إلى من كلمه في أمر القدرية ، فهو لم يرض كما لم يرض هشام من قبل بالخروج بالدين من مرحلة الأخذ بالموروث إلى مرحلة النظر العقلي . ويمكن أن يؤخذ من بعض الأخبار التي ذكرها نيوفانيس أن الوليد قد اضطهد النصارى . غير أن هذا لا يبدو متفقاً مع المعروف عن طبيعة الوليد وخليقته . ويظهر أنه في الحقيقة لم يكن له يد فيما هو مل به الأسقف بطرس الدمشقي ، وبطرس الميوني الذي كان عاملاً على الخراج . وكل من هذين الرجلين سعى إلى العذاب والاستشهاد من طريق سب الإسلام وشتم النبي عليه السلام ، أما ما كان في عهد الوليد من نقل بعض أهل قبرس إلى الشام فلم يكن له علاقة بالدين .

ويمكن القول في الحملة إن الوليد بن يزيد إنما كان يعيث بما له من سلطان . فكان ينظر إلى قيامه بشئون الحكم كما ينظر إلى نوع من الرياضة والفروسية ، ولم يشمل بأمور الحكم اشتغال جد وعناية ، وهو بعد أن تولى الخلافة لم يغير إقامته في برية شرق الأردن (الطبري ج ٢ ص ١٧٩٥ ص ١١) ، ولم يزايل روحه ذلك الإحساس المير المشرّب باحتقار الإنسانية وكراهية الناس ، وهو الإحساس الذي تكوّن في صباه . وهو بعد موت هشام أيضاً تباعد عن الجوار الذي كان ينبغي أن يكون فيه ، ونفّر من نفسه قرابته وأترابه (أغاني ج ٦ ص ١٣٧ ص ٦) . وكان لا يبالى أقل ميالة بالرأى العام ولا يجعل له سبيلاً على نفسه . وكان له بطبيعة الحال ديوان في قصره ، ولكن كان لا يفارقه الجوار الذي كان يرتاح إليه من قبل ، من خيل وكلاب وصييد ومغنيين ومغنيات وشعراء وأدباء ، وكان في أثناء النهار يركب ويجول في البادية ، وكان الإجهاد البدني بالنسبة له ضرورة أشبه شيء بلعب الأطفال . وقد بلغ من شدة قوته أنه كانت تؤتد له سكة حديد فيها حبل ويشد الحبل في رجله ، ثم يثب على دابته ، فينتزع السكة ويركب ، ما يمس الدابة بيده . أما الليل فكان يقضيه في الشراب . وكان

الوليد يتميز بشهور جنونى بماله من قوة ، ويحكى عنه أنه قال ؛ وَدِدْتُ
 أَنْ كُلَّ كَأْسٍ يُشْرَبُ مِنْ خَمْرِ بَدِينَارٍ ، وَأَنْ دُونَ كُلِّ امْرَأَةٍ أَسَدًا ، حَتَّى
 لَا يَشْرَبُ إِلَّا سَخِيًّا وَلَا يَنْكَحُ إِلَّا شَجَاعًا . ولكن الوليد لم يكن منعصبا في
 الغلظة الوضعية كل الانفاس ، بل اجتمع عنده الود^١ لشرار النساء مع العشق
 الملتب للمراة النبيلة ، يسعى طويلا لوصولها دون أن يظفر بها ، حتى إذا
 تناولها أخذها منه الموت ؛ وكانت كل مناسبة تبعث الشعرى في نفسه قصائد
 قصيرة يعبر فيها عن إحساس الساعة تعبيراً رقيقاً سهلاً في صورة مبتكرة ؛
 وربما كان يستطيع الإنسان أن يجمع تاريخ حياته من هذه القصائد ، لو أنها
 بقيت حتى وصلت إلينا كاملة ، ولكن نظراً لأنه كان خليفة فلم يكن يليق
 به أن تُجمع أشعاره وتُداع في الناس ، وإنما كانت تُختلس اختلاسا ،
 بل يُروى أن الوليد كان أحيانا يخطب الجمعة شعراً^(١) . فهو كان يقدر
 على أشياء كثيرة ، ولكن كل شيء كان عنده وليد الحالة النفسية المؤقتة
 التي يكون فيها ، وكانت أحواله تتغير بسرعة ما يتقلب كفه اليد ، فقد
 تجده يتعمق في مناقشة دينية مع أحد العلماء ، وتجده بعد ذلك يشرب
 خمرًا ويهزأ بما هو مُقَدَّس ؛ ولم يكن يرد لأحد رجاءً ، وهو لم يكن
 سريع الغضب فحسب ، بل كانت فيه أيضاً قسوة الأطفال ؛ ولقد كان
 من البلاء أنه تولى الخلافة^(٢) ؛

وقد أنفق الوليد الأموال التي كان قد جمعها هشام أسرع مما كان يظن ، وكان

(١) [راجع ما روى من خطبه وكتبه شعراً ، وخطبة من عل المنبر شعراً بأكملها ،
 في الأغاني ج ٦ ص ١١١ ، ١٢٨ ، ١٢٩ - المترجم] .
 (٢) قارن ما في الأغاني عن الوليد ج ٦ ص ١٠١ فما بعدها . وكثير من ذلك غير جدير
 بالثقة . ولقد قال خالد بن عبد الله القسري لما ذكر أمانة الوليد في معرض المجون والفسق ؛
 أمر الوليد أمر غائب عني ، ولا أعلمه يقيناً ، إنما هي أخبار الناس (الطبري ج ٢ ص ١٧٧٦)
 . (١٧٧٨) .

لا يكفيه دخله العادى ، بل كان يحتاج إلى أموال لا تتيسر عادة . وقد استفاد يوسف بن عمر من هذا لكي يشتري نصر بن سيار الذى كان قد أصبح منعزلاً عليه بما له من استقلال . فعرض على الخليفة مالاً كثيراً لكي يضم إليه ولاية خراسان : وقد حصل عليها ، فبعث الخليفة فى استدعاء نصر بن سيار وحياله أجمعين إلى الشام ، وكانّه أن يُحضّر له معه أشياء كثيرة من بزة الصيد والخبيل والبراذين والبرابط والطاير وأباريق الذهب والفضة وممايل الطباء ودهوس السباع والأيايل وكل صناجة ووصيفة حسناء . ولم يدخر نصر مالا ولا وقتاً فى الحصول على ما أراده الخليفة ، وهى كثير من الجوارى الحسان والممالك بكامل سلاحهم : ولكنه عندما خرج آخر الأمر من خراسان تاقى خبر مقتل الوليد ، فقفى راجعاً .

ومن جهة أخرى أفلح يوسف بن عمر ، هذا الشيطان المارد ، فى أن يجعل خالد القسرى فى قبضة يده ، وذلك بعد حناء طويل فى عصر هشام ، لم يظفر منه بطائل . ولقد كان لدى الوليد من الأسباب ما يستوجب عليه الشكر لخالد ، ذلك أن خالداً دافع عن الوليد لدى هشام وأنه بعد أن مات هشام لم ينقلب على الوليد ، رغم محاولة أعداء الوليد إيقاعه فى شرك الخيانة له ، ولكن الوليد ارتاب به ، لأنه كان يعلم أكثر مما كان يستطيع أن يقول (١) . فقبض عليه الوليد وحاول أن يستخرج منه أشياء ، فلم يكشف عنها لكى لا يقع غيره فى البلاء والمهنة : وقد عذبه الوليد ، فلم يتكلم ولم يتأوه ، فعند ذلك باعه إلى عدوه اللدود يوسف بن عمر بخمسين ألف ألف . فحمله يوسف بن عمر إلى الكوفة على أقصى .

(١) [لما أجمع المتآمرون على قتل الوليد جاءوا إلى خالد القسرى ودهوه إلى أمرهم ، فلم يجبه . فلما سأله أن يكتم عليهم وعدم ألا يسمى أحداً منهم . ثم أراد الوليد الحج ، وخشى خالد أن يفتكروا به فى الطريق ، فقال للوليد : يا أمير المؤمنين ! آخر الحج هذا العام ، فلما سأل الوليد خالد عن السبب لم يجبه ، فأمر للوليد بحجبه وأن يرد ما عليه من أموال العراق (الطبرى ٢ ص ١٧٧٨) ، ويظهر أن هذا هو الذى يريده المؤلف - المترجم] .

صورة ، وعذبه حتى مات دون أن يستطيع كسّر كبريائه ، أو حتى أن يبلغ منه أن يتكلم أو يعبس من الألم . ومات خالد تحت العذاب في المحرم سنة ١٢٦ هـ (نوفمبر سنة ٧٤٣ م) ودُفِن في الحيرة .

وقبل ذلك بقليل (الطبري ج ٢ ص ١٨٢٠) كان يحيى بن زيد بن علي قد قُتِل ، وحُيِل رأسه إلى الوليد ، فأمر بنصب الرأس أمام طائفة من عليه القوم كان قد دعاهم إلى وليمة . ثم ازدادت الماراة التي أحدثتها أفعاله في دوائر واسعة النطاق في المشرق ، لأنه أمر بأن يُسَجَّل بقبيلة كلب في العراق ما فعله العبرانيون من قبل في صنم لهم بأن أحرقوه وذروا رماده في الماء . ومن البديهي أن يكون السخط الذي أحدثته قتل خالد ، بعد عذاب طويل ، شديداً جداً في حينه ، ذلك أن ما فعله الوليد بخالد كان بمثابة تحدٍّ لقبائل اليمن . وكان معنى تسليط يوسف بن عمر على خالد القسري هو إغراء قبائل قيس بقبائل اليمن . وبدأ أن الخليفة قد صار هو ويوسف ابن عمر وبقية آل الحجاج حزبا واحداً لا يفصل بينهم فاصل . وبدل على أن هذا كان هو رأى الناس حقيقة أشعار بعضها حقيقي وبعضها موضوع . ولأول مرة حدث تدمير سياسي شامل في العراق وفي الشام ، وألف هذا التدمير بين اليمن هنا وهناك ، وكان أشد الناس تأثراً بذلك هم من الشام وبخصوصاً كلب ، لأن خالداً كان قد قضى سنين الأنعرة في دمشق ، ونال هناك محبة أصدقاء كثيرين . ولكن التدمير من الخليفة وخاصة كان أكثر منه من قيس بوجه عام ، وقد نفخ أعداء الخليفة الشخصيين في نار الفتنة واستغلوا لأغراضهم الخاصة . ولم يكن الاشتراك في الثورة الصغيرة التي نشأت عن ذلك اشتراكاً إجماعياً ، وهي وإن كانت قد جاءت من جانب قبائل اليمن ، فلم يكن اليمنية وحدهم في جانب والقيسيون وحدهم في الجانب الآخر ، بل نجد عبس قيس يقفون في الجانب المعادي للخليفة ، لأنه كان قد أغضبهم بما فعله مع

بنى القمعاق . ومن جهة أخرى لم يأت لنجدة الخليفة البهرانيون^(١) من حمص
فحسب ، بل جاء أيضاً قوم^٢ من كلب من قبائل عامر وسُلَيم بن كيسان .
ولم تندلع النار على الفور في قوة ، لكنها امتدت إلى أوسع نطاق بسبب مقتل
الوليد . وكانت كل مناسبة كافية في إثارة الشر الكامن ، وفي إيجاد منزع
للمصدور المسترعة ، وكان كل نزاع قابلاً لأن يتقلب نزاعاً عاماً بين القبائل .
وقد لعب الإسلام بطبيعة الحال دوراً في ذلك ، فكان أهل الديبالة والورع
خائفين على الخليفة الذي لا دين له ، خصوصاً القدرية الذين كانوا أولى
الناس بأن يسخطوا عليه (الطبري ج ٢ ص ١٨٢٧) .

وكان الوقت الذي انقضى بعد تولي الوليد ، وكان فيه خالد بن عبد الله
القسري لا يزال يقيم في دمشق ، كافياً لوضع خطة التآمر على الوليد .
وكان على رأس المتآمرين أعمامه هو ، فكانوا من أمراء بني أمية ،
وإن كان من الجائز أنهم لم يكونوا هم الرؤوس المفكرة المدبرة للمؤامرة
(الطبري ج ٢ ص ١٨٢٣) . وقد كانوا هم نصحاء الطليعيين ، لكنه
انسحب من زميرتهم ونأى بنفسه عن مشورتهم وإشرافهم ، وأصبح
مسلكه مهذباً بإضاعة ميراث آبائه ، الذي كان لهم هم أيضاً الحق فيه .
وقد أغضبهم أيضاً بأن عقد البيعة من بعده لاثنتين من أبنائه ، من غير أن
يُدخل بينهما وبينه وبين أحد ، لأنه كان قد لقي في صباه ما لقي من دخول هشام بينه
وبين أبيه ، وذلك بالرغم من أن ولديه لم يكونا قد بلغا سن الرشد ، وكانا فوق
ذلك ابنين لأم ولد كانت جارية عنده^(٢) ، فلم يكونا لهدين السبييين وبحسب

(١) بخطى ١ . مؤلف في اعتبارهم قيسين .

(٢) [لا يتفق هذا مع ما يقوله المؤلف فيما يخصه من أن أحدهما شكاً من أن أمه من

كلب - فلا شك أن ههنا خطأ - المترجم] .

ما تقضى به العادة العربية والإسلامية أهلاً لولاية الحكم^(١) . وقد شعر أبناء الوليد بن عبد الملك خاصة ، وكانوا كثيرين (الطبرى ج ٢ ص ١٧٩٤) ، أن ما فعله يزيد آذاهم أذى بالغاً ، ذلك أن الوليد بن عبد الملك ، وهو أبوهم ، كان أكبر أبناء عبد الملك ، وكانوا يأملون أن يصلوا إلى الخلافة بعد موت سليمان بن عبد الملك (الطبرى ج ٢ ص ١٣٤٥) ولكن لم يكن دورهم قد جاء بعد ، والآن يستحقهم أبناء يزيد بن عبد الملك من المكانة التي يطعمون إليها . وقد انضم إليهم أيضاً أبناء هشام وغيرهم من بني مروان . ولم يكن ابن عمهم الوليد راضياً عنهم ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم أنه قد أهدى مائة جامعة (سلسلة) من الحديد وكتب على كل واحدة منها اسم رجل من بني أمية ليقتله بها . وكان من الذين يؤيدونهم ، وربما كانوا أيضاً هم الذين كانوا يحرضونهم ، قوم من أشرف كلب^(٢) بنى دمشق ، وكانوا قواداً وعمالاً ساخطين أزيلوا عن مناصبهم ، ويقال لأنهم سعوا إلى خالد بن عبد الله القسرى لكي ينضم إليهم ، ويذكر الطبرى (ج ٢ ص ١٧٧٨) أسماءهم ، ولكن منصور بن جهمور صار أكثرهم ذكراً عند المؤرخين فيما بعد ، وكان طبعياً أن ينضم أبناء خالد القسرى إلى حزب هؤلاء المتآمرين على الخليفة ، وقد ظهر يزيد بن خالد من مخبئه ولعب في ذلك دوراً كبيراً . ومن جهة أخرى وقف السفينانيون إلى جانب الوليد بن يزيد لأنه كان ينتسب إليهم من طريق جدته بنت يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان ، وكان أبرزهم أبو محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية السفيناني . وكان إلى جانب الوليد أيضاً من بني مروان العباس بن الوليد بن عبد الملك ، وكان موضع ثقة الوليد .

(١) قارن كتابي الوليد إلى نصر بن سيار عند الطبرى ج ٢ ص ١٧٥٥ - ١٧٦٤) ، وتاريخهما الثلاث ٢٢ رجب سنة ١٢٥ هـ (٢١ مايو سنة ٧٤٣ م) والشمس ١٥ شعبان سنة ١٢٥ هـ (١٣ يوليو سنة ٧٤٣ م) . وقد كتبهما شمال والنصر . وقد رفض خالد القسرى أن يوافق على مبايعة الصبيين قبل أن يبلغا - الطبرى ج ٢ ص ١٧٧٦ .

(٢) وكان يرتبط بكلب بعض قبائل اليمن الخالصة ، وكانوا يسكنون فيما حول دمشق .

ووثب يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وكان أكثر إخوته طموحاً ، وكانت أمه إحدى بنات ملوك السغد وقعت أسيرة في يد المسلمين ، فأخذ للبيعة لنفسه وصار خليفة إلى جانب الوليد بن يزيد . وقد انضم إليه أولياءه وأنصاره بما بعثه عليهم من المال (تبوفانيس في أخبار سنة ٦٢٣٥ من تاريخ الخليفة) ، واستطاع بفضل فصاحته وبما كان يظهره من النساك والتواضع أن ينضم إليه أهل الديانة (الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٧ ، ١٨٦٧) . ولما جاء الوقت الذى واعدهم عليه تنكّر وركب حمراً ، وسار إلى دمشق في سبعة نفر ، وأخذ وهو في دمشق يتصل بأنصاره ، ولم يكن معظمهم في دمشق نفسها ، بل كانوا يسكنون في القرى المحيطة بها . وبمعاونتهم دخل المسجد الجامع في يوم الجمعة (١) ، وهو يوم الصلاة الجامعة الذى يقع عليه الاختيار عادة لمثل هذه المناسبة ، وكان في المسجد كثير من السلاح وعدة الحرب ، وقبض يزيد على عمال المدينة ، كما أمر بالقبض على أميرها الغائب (٢) وعلى أمير بعلبك . ثم دخل المدينة ، وقد فتّحت أبوابها ، ألف وخمسمائة رجل من كلب جاءوا إليه من المزة ، وجاء قوم من غسان ونلم وكندة وغيرهم من القرى الأخرى المجاورة ، وكان معظمهم من قبائل اليمن خاصة . ولم تقع في أى مكان مقاومة ذات بال ، ويظهر أن الحكومة لم يكن تحت تصرفها عددٌ يذكر من الجند المستعدين للقتال ، بل كان الجند في الأمصار بعيدين عن الشام . ولم ينتصف اليوم الثالى حتى بايع الناس في دمشق يزيد بن الوليد ، وكان فرحاً ، وكان يتمثل بأحد أبيات النابغة ، مما عجب له من كان معه من أهل الدين ، لأنه كان قبيل الصبح يسبح وهو الآن ينشد الشعر . ولكن لما انتدب يزيد المتطوعين إلى قتال الخليفة الشرعى لم يجتمع إليه إلا قليلون ، ولم يستطع رغم ما بذل من عطاء كبير أن يحصل على أكثر من ألفى رجل ، وقد

(١) لا يذكر تاريخ دقيق لذلك .

(٢) كان يخاف على نفسه من هواء دمشق ، فكان يقيم في قطن .

أمر عليهم عمه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، وأدخلوا يتناقصون
كلما تقدموا في المسير (١) ،

أما الوليد بن يزيد فإنه فوجئ بأول أخبار الثورة ، وقد حمل إليه الخبر
مولى له خرج على فرسه مسرعاً حتى بلغ الوليد من يومه ، وقد نفق فرسه ،
فكان جزاؤه من الوليد أن ضربه مائة سوط . وقد رفض ما أشار عليه
أولياؤه به من المسير إلى حمص أو تدمر أو إلى حصون أخرى كانت قريبة .
ولم يترك ماء الأهدف إلا في آخر لحظة عندما كان جيش عبد العزيز في طريقه
إليه . ولما أبلغ الوليد إلى حصن البخراء الذي لم يكن بعيداً عنه ، وكان معه
مائتا رجل ، وقد أسرع إلى فرقه كثيرة من الفرسان جاءوا من بعيد ومن
قريب ، منهم قوم من كلب ، جاءوا من تدمر (وعلى رأسهم الوليد بن أنس
الأنباري الكلبى) وبهرايون أقبلوا من حمص وغيرهم : ونهض عباس بن
الوليد أيضاً لندجته ومعه أبنائه الثلاثون ، ولكن عبد العزيز عرض له قبل
أن يبلغ الوليد ، فأمره وأرغمه على أن ينضم إلى جيشه .

وجاء الرسل الواحد بعد الآخر ينقلون إلى الوليد أخبار الأعداء الزاحفين إليه ،
ولكنه كان لا يلتفت إلى ما يقوله الرسل إلى أن رأى الأعداء أمامه . كان جند
القبائلون معسكرين بحسب العادة العربية أمام الحصن ، وكان قد أعطاهم صكوكاً
يتقاضونها فيها بعد لأن المال كان قد نفذ من يديه . وقد رأوا أن حاضرتهم ليس
فيه أمل ، وأعطاهم انضمام العباس بن الوليد إلى المعسكر الآخر مثلاً خطراً (٢) .

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٧٩٧ .

(٢) [هذه هي الترجمة الحرفية لكلام المؤلف ، والمقصود إما أنهم قلدا العباس بن
الوليد في عدوله إلى جيش عبد العزيز ، وبدأت الغيابة ، ويدل على هذا ما جاء في الطبرى
(ج ٢ ص ١٨٠٥ - ١٨٠٦) : « وإما أن منع العباس من الوصول إلى الوليد وإكراهه على
الانضمام إلى جيش الأعداء » (الطبرى ج ٢ ص ١٧٩٨ ، ١٨٠٣ - ١٨٠٤) أظهر قدانين
غلبة الأعداء . وعلى كل حال ، فقد « أسقط في يد أصحاب الوليد وانكسروا » (الطبرى
ج ٢ ص ١٨٠٥) - المترجم [.

وزاد الطين بلة أن كلب تدمر لم يريدوا أن يقاتلوا كاب دمشق . ولم يكن أمام عبد العزيز ، لما بدأ الهجوم عند طلوع الشمس ، إلا لعبة سهلة . وقد اشترك الوليد بن يزيد في المعركة بنفسه وكان أشجع من قاتل ، ولكنه لم يلبث أن وجد أن الجميع تفرقوا عنه ، فرجع إلى الحصن ودخل ، ثم جلس ونشر المصحف يقرأ ، وقال : « يوم كيوم حثان » . وتلقى الضربات التي قتله ، وهو على تلك الحال (١) . وأقبل أحد موالى خالد بن عبد الله القسري ، فسلب من جلد الوليد قنطرة الكف وأتى بها إلى يزيد بن خالد هلاماً على الثأر لخالد : أما رأسه فقد حُزَّتْ وحُمِلَتْ إلى يزيد ، وكان الذي حَزَّها رجل يلقب بوجه الفلاس (٢) . فأمر يزيد بنصب الرأس على رمح والطواف به في مدينة دمشق . وبعد شهر دُفِنَ الرأس إلى سليمان بن يزيد أخى الوليد ، فلم يجرؤ على دفنه جبناً منه ، وأخذ يتهم أخاه المقتول ويذكر ما كان منه من شرب الخمر والمجون والفسق . وكانت هذه الكارثة يوم الخميس للياليتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ الموافق يوم الخميس ١٧ أبريل سنة ٧٤٤ م (٣) . وإذا أراد المؤرخ أن يصدق يزيد بن الوليد فيما يقوله ، فهو يقول إنه ماثار إلا غضباً لله ورسوله ودينه وإنه وصل إلى الخلافة بإرادة الشعب ، ويقول

(١) تذكر أسماء الذين اقتحموا على الوليد وقتلوه عند الطبري ج ٢ ص ١٧٣٠ - قارن أيضاً ص ١٨٧٨ . [والذي يذكره المؤلف عن نهاية الوليد مضمون إحدى الروايتين اللتين ذكرهما الطبري (ج ٢ ص ١٧٩٥ - ١٨٠١) ٤ وهذا الطبري رواية أخرى : ج ٢ ص ١٨٠٦ - ١٨٠٧ - المترجم] .

(٢) [ليس هذا الرجل هو الذي احتز رأس الوليد ، والروايات مختلفة فمن ذلك - راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٠٠ ، ١٨٠٦ ، ١٨٠٩ - المترجم] .

(٣) يذكر الطبري (ج ٢ ص ١٨١٠ ص ٦) والمسموع في كتاب التنبيه (ص ٣٢٤) أن القتل كان للياليتين بقيتا من جمادى الآخرة وأنه كان يوم الخميس . وفي الطبري أيضاً (ج ٢ ص ١٨٣٦ ص ١٤) أن ذلك كان يوم الأربعاء . ويذكر ثيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٥) الخميس ١٦ أبريل سنة ٧٤٤ م ؛ هل سين أن إلياس التميمي يذكر يوم الخميس ٢٥ جمادى الآخرة .

إن الوليد إنما قُتل لأنه رفض ما عُرِضَ عليه من أن يكون الأمر شورى ، حيث ينظر المسلمون لأنفسهم من يقلدونه الخلافة ، فلم يجب الوليد إلى ذلك وبادر بالحملة على من أرسلوا إليه لدعوته إلى كتاب الله وسنة رسوله . (الطبري ج ٢ ص ١٨٣٤ فما بعدها وص ١٨٤٣ فما بعدها) (١) .

ولما علم أهل حمص بمقتل الوليد وثبوا على دار العباس بن الوليد وهدموها ، متهمين إياه بخيانة الوليد والائتمار إلى عدوه ، وقصدوا دمشق وعلى رأسهم أبو محمد السفيناني بعد أن قال لهم : « لو قد أتيت دمشق ونظرت إلى أهلها لم تُخَالِفْنِي » ، فأمروه عليهم ظناً منهم أنه لن يكاد يظهر أمام المدينة حتى تقع في يديه ، ولكن الذي وقع كان غير ذلك ، فقد هزمهم سليمان بن هشام قريباً من دمشق . وكان مصيرهم الفناء التام لولا أن يزيد بن خالد بن عبد الله القسري وقوما من كلب حالوا بينهم وبينه . أما أبو محمد السفيناني فأُخذ إلى الخضراء ، مسجون دمشق . وفيه حبس أيضاً ابنا الوليد بن يزيد وآخرون من السفينانيين ، واجتمع أمر أهل دمشق وبايعوا يزيد بن الوليد . وقد قامت ثورات أخرى في أنحاء من فلسطين ولكن قضى عليها بالعنف أو بالصالح (٢) .

هـ - وخطب يزيد بن الوليد بعد أن بايعه الناس خطبة افتتح بها عهده ، فضمنها كثيراً من المعاني ، وتشبه بعمر بن عبد العزيز ، فديس بن أمية ، فقال إنه إنما خرج غضباً لله ورسوله ودينه ، ثم هاجم الوليد بن يزيد ، وبعد ذلك وعد الناس بأن لا يضع حجراً على حجر ولا تينة على لبنة ، وألا يسكني نهراً

(١) [جاء في الطبري أن عبد العزيز قائد يزيد بن الوليد كان معه كتاب معلق في ربيع مكتوب فيه : إذا تدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يصير الأمر شورى . أما ما يقوله المؤلف فهو مأخوذ من خطاب كتبه يزيد بن الوليد إلى أهل العراق ، راجع إلى جانب الإشارة التي يذكرها المؤلف ما جاء عند الطبري ج ٢ ص ١٨٠٤ - المترجم] .
(٢) [راجع فيما تقدم مثلاً الطبري ج ٢ ص ١٨٢٦ - ١٨٣٤ - المترجم] .

ولا يكثر مالا ولا يعطيه زوجة ولا ولداً ، ولا ينقل مالا من بلدة إلى بلدة حتى يسأل نفع ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فإن فضل شيء نقله إلى البلد الذي يليه من هو أحوج إليه ، وألا يسجّم العجند في الثغور نجباً لفتنتهم وفتنة أهلهم ، وألا يغلّ بابيه دون أحد حتى لا يأكل القوى الضعيف ، وألا يحمل حل أهل الجزيرة ما يجلبهم عن بلادهم ويقطع نسلهم ، وكان مما قاله : « وإن لكم أعطياتكم عندى في كل سنة وأرزاقكم في كل شهر حتى تستدرّ المعيشة بين المسلمين ، فيكون أقصاهم كأدناهم ، فإن وفيت لكم بما قلتُ فعليكم الطمع والطاعة وحسن المؤازرة ، وإن أنا لم أف لكم فلکم أن تخلعوني إلا أن تستيبوني ، فإن ثبتت قبلتكم منى ، فإن علمتكم أحداً ممن يُعرّف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم ، فأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته ، ونعم خطبته قالاً : « أيها الناس ! إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولا وفاء له بنقض العهد ، إنما الطاعة طاعة الله فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع ، فإذا عصى الله ودعا إلى المعصية فهو أهل أن يعصى ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم (١) . » وكأنما كان الخليفة يعبر بخطبته عن أعماق نفوس القدرية الذين كانوا في مبادئهم السياسية متفقين مع المرجئة وهم الذين كان يزيد يتوود إليهم أيضاً (الطبرى ج ٢ ص ١٨٦٧ و ١٨٧٤ و ١٨٩١ ص ١٢) . ولما انتهى يزيد من خطبته قام قيس بن هاني العيسى ، وكان رجلاً صالحاً غوغائياً (ديماجوجيا) ، فأنشأ على يزيد ثناء محموتاً ، لأنه قال : « يا أمير المؤمنين ! اتق الله ودم على ما أنت عليه ، فإقام مقامك أحد من أهل بيتك ، وإن قالوا : عمر بن عبد العزيز !

(١) [خطبة يزيد عند الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٤ - ١٨٣٥ . وقد أثرنا اتباع نص الخطبة في النقط التي اختارها منها المؤلف - المترجم] .

فأنت أخذتها بجبل صالح ، وإن عمر أخذها بجبل سوء^(١) . وقد رأى مروان ابن محمد أن هذا المتعلق قد ذم جميع الأمويين وذم عمر بن عبد العزيز معهم ، محاولاً ولى مروان بعث إليه رجلاً فقتله . وإذا كان يزيد قد وعد بدفع الأعطيات في كل سنة والأرزاق في كل شهر فإن ذلك وعده لم يتحقق أكثر مما يتحقق مثله في تركيا^(٢) ، ذلك أنه نقص الناس الزيادة التي كان للوليد بن يزيد قد زادهم إياها في أعطياتهم ، فسمي لذلك : يزيد الناقص ، أو δεινός^(٣) ،

وقد اعتمد يزيد على أهل اليمن ونصوصاً كلباً ، اعتماداً ظاهراً . فلم يكن يرى أحداً من قيس بنغشاه أو يقف بإباه (الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٧) . وعين على العراق منصور بن جمهور الكلبى ، وكان أعرابياً جافياً ، مشهوراً ، ولم يكن من أهل الدين ، فذهب منصور إلى العراق في اليوم الذى قتل فيه الوليد بن يزيد . وقد تعرض له خمسة من كلب وأرادوا أن يأخذوا عليه الطريق . ولكنهم لم يهابوه ، فانزع سلاحهم منهم وأدخلهم الكوفة ، هذا مع أنه لم يكن معه سوى ثلاثين من رجاله ، وفي رواية أخرى أنه كان معه مائة نفر^(٤) . ولم يجد يوسف بن عمر من يوثقه بين جند الشام في الحيرة والكوفة ، ولم يكن من الممكن ، في ذلك الوقت ، الاعتماد على المقاتلة من أهل العراق . وأخفق يوسف في محاولته أن يفرق ما بين قيس وكتب ، فجعل يعتمد إلى من يحضرته من الحماية

(١) [راجعنا هنا ما جاء في الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٥ - ١٨٣٦ ، غير متقيد بما يقوله المؤلف ما هو استنتاج من خطبة قيس بن هافى العيسى القصيرة جداً على كل حال - المترجم] .

(٢) [ظهر كتاب المؤلف في سنة ١٩٠٢ - المترجم] .

(٣) [هذه الكلمة اليونانية معناها : المنقص] ، ولا شك أنها جاءت في كتاب تيوفانيس الذى يعتمد عليه المؤلف في بعض الأحيان ، على أن في تسمية يزيد بالناقص أكثر من وجه (الطبرى ج ٢ ص ١٨٢٥ ، ١٨٧٤) - المترجم] .

(٤) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٦ - ١٨٤١ - المترجم] .

فيلقبهم في السجون ، ثم جعل يخلو بالرجل بعد الرجل من المصيرية .
 فيقول له : « ما عندك إن اضطرب جيل » أو انفتق فتق » ، فيقول : « أنا
 وجل » من أهل الشام ، أباع من بايعوا وأفعل ما فعلوا (١) ، ذلك أن
 جند الشام لم يكن لهم إمام بعد مقتل الوليد بن يزيد ، فلم يكونوا يعرفون
 الخليفة الذي عليهم أن يقاتلوا من أجله . وتردد يوسف بين الغناد والحدادي
 وبين الشجاعة والخور ، فكان أحياناً يتعالى كأنما ينف على أطراف أصابع
 قدميه ، وأحياناً أخرى ينكمش في نفسه . وكان لا محالة واقفاً في بلد
 منصور بن جمهور ، وكان منصور يريد أخذه ، لولا أن سليمان بن سالم الكلابي
 أنقذه بأن استحثه على الفرار وسأله عليه ، فخرج يوسف إلى البلقاء ،
 من أعمال شرق الأردن ، وهناك اختبأ . ولكن اختبائه لم يطل ، فقتل
 وجهه يزيد بن الوليد محمد بن سعيد الكلابي ، أحد قواده ، للتفتيش عنه في
 البلقاء ، فأخرجته من بين أهله ونسائه وبناته ، وكان قد لبس ملابس النساء .
 ثم أخذه فزج به في سجن الخضراء . وكان يوسف بن عمر بن أعظم
 للناس ليحبة ، حتى كانت لحيته تجوز مسرته ، وكان من أصغرهم قامه ،
 فأضحك الناس لما بدا عليه من حق وخوف لا معنى له ، وأطول لحيته
 التي أغرت الخرس ، فأخذ أحدهم بها وهزها ونف بعضها (٢) .

ودخل منصور بن جمهور الحيرة والكوفة في أوائل رجب سنة ١٢٦ هـ
 (آخر أبريل سنة ٧٤٤ م) ، فأخذ بيوت الأموال وأخرج العطاء والأرزاق ،
 وأطلق من كان ألقى بهم يوسف بن عمر في السجون من العمال وأهل الخراج (٣) .
 واستولى عماله على واسط والبصرة دون مقاومة ، ولكنه لم يبق طويلاً على

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٣٧ - ١٨٣٨ - المترجم] .

(٢) محمد القارئ شير عزل يوسف بن عمر وما أصابه عند الطبري ج ٢ ص ١٨٣٦ - ١٨٤٣ مثلاً - المترجم] .

(٣) راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٤١ ، ١٨٥٤ - ١٨٥٥ ، على التوالي - المترجم] .

لمرة العراق ، فعزله يزيد في رمضان أو شوال سنة ١٢٦ هـ (بوليه سنة ٧٤٤ م) وعين مكانه عبد الله بن عمرو بن عبد العزيز . وكان يزيد يعتقد أنه بذلك يرضي أهل العراق ، لأن عبد الله كان شبيهاً بأبيه ، ولأن أهل العراق كانوا يميلون إلى عمرو بن عبد العزيز (١) .

وقد اهتمت ولايتا سجستان والسند بالخليفة الجديد ، وهين هو هانم واليا من كلب . وقد خضعت له مصر أيضاً ، فيما يقوله ثيوفانيس . ولكن ليس صحيحاً ما يزعمه المؤرخ الإسباني الذي كتب كتاب الصلة لتاريخ يزيدور إذ يقول : *Omnes suae patriae (eum) oculis recognoscunt* (= وقد تابعه كل أهل بلاده) ، ذلك أن نصر بن سيار في خراسان ومروان بن محمد في أمينية والجزيرة لم يشعرا أنهما عمال للخليفة الجديد ، واتخذوا موقف ترقب (٢) . ولم يطل انتظارهما ، لأن يزيد مات في يوم الجمعة ١٢ من ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ (٢٥ سبتمبر سنة ٧٤٤ م) ، وكان ذلك بعد أن تولى الخلافة بمائة واثنين وستين يوماً (٣) . وكان يزيد قبل موته قد أخذ لأخيه إبراهيم بن الوليد البيعة على الناس ولعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بعد إبراهيم . ويقول المؤرخون إن القدرية لم تزل تحثه على البيعة لمن يخلفه وتقول له إنه لا يحل له أن يحمل أمر الأمة ، حتى يبيع لأخيه ومن يأتي بعد أخيه (٤) . وعلى هذا فلم يكن تأثير القدرية على يزيد تأثيراً دليلاً فحسب :

-
- (١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٤١ ، ١٨٤٤ - ١٨٥٥ ، حل الولاء - المترجم] .
 (٢) [راجع الطبري مثلاً ج ٢ ص ١٨٤٥ ، ١٨٧٦ - المترجم] .
 (٣) هذا هو الصواب كما يقول إلياس النصيسي [وفي الطبري (ج ٢ ص ١٧٨٣ - ١٨٧٤) أنه توفي سلخ ذي الحجة في رواية ، ولعشر بقين منه في رواية أخرى ، وبعد الأضحي في رواية ثالثة ، وأن مدة خلافته خمسة أشهر وليثين أو خمسة أشهر واثني عشر يوماً أو ستة أشهر وأياماً] - المترجم .
 (٤) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٦٩ - المترجم] .

الفصل السابع

مروان بن محمد والحرب الأهلية الثالثة

١ - كان مقتل الوليد بن يزيد بمثابة العلامة التي آذنت بسقوط أسرة بني أمية . وكانت هذه الأسرة الحاكمة قد انتعشت عند ذلك انتصاراً سياسياً . وكان عهد الإيمان بحقها الشرعي في الملك وبقداسة خلافتها قد ولى ، حتى في الشام ، ذلك أن بلاد الشام نفسها ، وكانت حجر الزاوية في النظام الذي كان قائماً ، قد لفتها دوامة الثورة ، وكان الثوار من أهل الديانة والورع قد ثبتت قدمهم وازدادت قوتهم في الشام أيضاً . أما رجال قبيلة كلب الذين كانوا حتى ذلك الحين أخلص أولياء الدولة ، وكانوا هم الجيش الذي تعهد به الحكومة كما تعهد القبيلة برجالها ، فإنهم أيضاً خرجوا على الولاء لها وانزلوا إلى الثورة على الخليفة ، بعد أن كانوا يؤمنون بحقه الشرعي^(١) . وبسطيع الإنسان أن يحدس لفساد مقدار ما كان لتزعزع سلطان الدولة في القلب من تأثير على الأطراف ، فأعلنت تمحل في كل مكان تلك العرى التي كانت تمسكها القوة المركزية ، وقامت أنواع مختلفة من التمرد والعصيان في كل مكان . وفي وسط ذلك الاضطراب كانت تظهر تجمعات لا تلبث أن تزول . فكانت مختلف العناصر الهائجة تتجمع حول نقطة واحدة ، ثم تتفرق بعد ذلك وتدخل في تنظيمات أخرى ، وكانت تلك الفترة أنسب ما يكون للمغامرين والمتغلبين : وكان الواحد منهم تصبح له في أقصر وقت قوة كبيرة ، ثم كان يختفي من بعده من غير أن يترك أى أثر .

(١) راجع مثلاً ما قاله مروان بن محمد عما كان من أهل الشام من ولاء وطاعة ، ثم من شكك وانتقاص - الجبري ج ٢ ص ١٨٥ - المترجم .

وقد ظهر على المسرح رجل لم يولد على فراش أبيه (١) ، وهو مروان ابن محمد بن مروان بن الحكم ، من فرع جانبي في الأسرة الحاكمة ، ليحارب أبناء عبد الملك ، وخصوصاً أبناء الوليد وهشام ابني عبد الملك اللذين كانوا يحملون الوزر في مقتل الوليد بن يزيد وكانوا هم الذين استفادوا منه . وكان مروان إذذاك بين الخمسين والستين من العمر (الطبرى ج ٢ ص ٩٤٠) ، وكان يلقب على سبيل الاستمراء : بالجمار ، لأنه كان يحب أكل الفاونيا (Pauzie) ، وهي تسمى وردة الجمار (٢) . . وكان أبوه محمد ، أحد أخوة عبد الملك ، أميراً على أرض الجزيرة وأرمينية سنين كثيرة ، وكان وهو في هذا المنصب يقود الحرب مع الروم ، ثم حل محله مسلمة ابن عبد الملك وغيره . وفي سنة ١١٥ هـ ارتفع نجم مروان من جديد ، وأسندت إليه على الأقل أرمينية وآذربيجان ، وكان هذا المنصب يتطلب جندياً ، وقد كان مروان عند حسن الظن به ، فقد استطاع أن يدافع عن ثغر القوقاز أمام هجمات الترك دفافاً لا يلين ، وأن يقوم بغزوات موفقة في أرض الترك ، وكان هذا المنصب الذى لبث فيه اثني عشر عاماً بمثابة مدرسة حربية له . وكان نظام الجيوش في ذلك العصر قد أخذ يتغير شيئاً فشيئاً ، وأخذت الجيوش تنظم تنظيمياً فنياً . ذلك أن نظام المقاتلة القديم أخذ يبدو نظاماً غير صالح للغزوات الطويلة الشاقة البعيدة ، كما أخذ يتجلى أن هؤلاء المقاتلة لا يصلحون لتحقيق غايات بعيدة عن نفوسهم ، فزُحزحوا عن مكانهم وحل محلهم جنود الدولة من أهل الشام . وكانت الأعطيات المستمرة التى تُعطى لكل عربي قادر على القتال قليلة الحدوى في الأغراض العسكرية ، وكان الحاكم إذا أراد رجالاً يخفضون للنظام ويسبغون

(١) أنساب الأشراف ص ٢٦ .

(٢) هذا ما يقوله مؤرخو الشام ، أما مولر (A. Müller, I, 453) فهو ينسب هذه التسمية من عنده على أنها مدح . وهو يشير في ذلك إلى ما يقوله إلياس (II, 558) . ويسى مروان أيضاً بالحمدي ، ولا أعرف سبب هذه التسمية - قارن الطبرى ج ٢ ص ١٩١٢ [كان يسمى بالحمدي لأنه تنتمي على الجند بن درهم - المترجم] .

أيها وجوههم ، لا بد له أن يحتسبهم بالمال . فثلاً دفع يزيد بن معاوية إلى جانب
 حطاء سنة كاملة مائة دينار لكل من كان مستعداً أن يذهب في الجيش الذي
 وجهه إلى المدينة ، وعرض يزيد بن الوليد على من يتقدم لخاربة الوليد بن
 يزيد ألفي درهم ، وأعطى الوليد بن يزيد للمدافعين عنه كلاً منهم خمسمائة
 درهم ، وأعطى كل من خرج من أهل الشام لخاربة الخوارج في اليمن
 في سنة ١٣٠ هـ (٧٤٨ م) مائة دينار و فرس و حيوان للحمل ، بل يحكى
 أن الضحاك بن قيس ، وهو أحد الخوارج ، إنما حصل على أتباع له بأن
 كان يعطيهم أرزاقاً كبيرة (الطبرى ج ٢ ص ١٩٣٩) . أما الآن فقد بدأت
 تجل محل القبائل التي كانت تؤلف فرق الجيش في النظام القديم فرقاً بالمعنى
 الحقيقي لتكون صلب الجيش ، وحل القواد المحترفون محل رؤساء القبائل ،
 وكانت كل فرقة تحمل أحياناً اسم قائدها كالوضاحية والدكوانية نسبة إلى
 عمرو بن الوضاح وسلم بن ذكوان . وقد سار مع هذا التنظيم جنباً إلى جنب
 تفتتة في الخطط العسكرية ، ذلك أنه فيما سبق من الزمان كان الجند
 يحاربون صفوفاً طويلة طبقاً للعادة العربية وللنظام الذي صار سنة بعد أن
 وضعه النبي عليه السلام : وبين الصفين المتقاتلين كانت تقع المبارزات
 الفردية ، وكانت نتيجة هذه المبارزات في كثير من الأحيان هي التي تعين
 مصير المعركة : إما بالتقدم من الجانبين وإما بالفرار . أما الآن فقد انحلت
 نظام الصفوف القديم ، بعد أن تجل ما فيه من ضعف وحل محله نظام
 الكراديس ، أعني الوحدات الصغيرة التي كانت أكثر تماسكاً فيما بينها
 وكانت أسرع حركة ، وينسب إلى مروان بن محمد إنشاء نظام الكراديس
 هذا . وهو وإن كان يجوز أن بداياته ترجع إلى ما قبل ذلك فإن مروان هو
 الذي تفتتة (١) . وإذا كان مروان يعتبر هو واضع هذا النظام في ذلك
 ما يدل على مقدار كبر شهرته :

(١) [راجع مثلاً الطبرى ج ٢ ص ١٩٤١ ، ١٩٤٤ - المترجم] .

ولكن مروان كان إلى جانب ذلك علياً بالأعيب السياسة ودسائسها ، فكانت له علاقات بجميع الجهات ، وكان على علم تام بما يرسم من الخطط في كل مكان (١) . فلما ضارت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بعث يهنئه من كل قلبه ويستبشر بعهدده . ومع أن هشام بن عبد الملك هو الذي كان قد عين مروان بن محمد في منصبه فإن مروان في كتابه انتقد هشاماً وما كان منه من تصفير بالوليد ومحاولة تنحيته ، وذلك في كتاب مملوء بالجد ، بعث به مروان إلى الوليد (٢) . ولكن مروان في الحقيقة كان يرى في الوليد غير ذلك وفعل غير ما قاله له (الطبرى ج ٢ ص ١٨٥٣) . ومهما يكن من شيء فإن قتل الوليد بن يزيد جاء ملائماً لأغراضه ، فقد استطاع أن ينهض للثأر من القاتلين وأن يأخذ من أيديهم الغنيمة مستنداً إلى اعتبارات وجبة . فلم يكذب يسمع بقتل الوليد حتى أعلن العصيان على يزيد بن الوليد ، فخرج من أرمينية متجهاً إلى الجزيرة ، وكان ابنه عبد الملك قد وثب على حوران ومدائن الجزيرة فاستولى عليها (الطبرى ج ٢ ص ٨٧٠) ، لأن واليها من قبل الوليد ، وهو عبدة بن رباح الغساني ، خرج منها إلى الشام لما بلغه قتل الوليد ، ولكنه لم يكذب يسير حتى وثب في ظهره العبابون من جند الشام تحت إمرة ثابت بن نعم الجذامي . وكان مروان قد ترك هؤلاء العبابين في أرمينية على أبواب القوقاز لكي يصدوا هجمات الترك ، وخصوصاً أنه لم يكن يطمئن إليهم كل الاطمئنان . فاضطر إلى القفول راجعاً ، وقبل أن تبدأ المعركة أمر منادياً أن ينادى فيسألهم عن سبب انشقاقهم عليه وهما ينقمون منه مع حسن سيرته فيهم . وولايته عليهم ، فأجابوه : « إنا كنا نطيعك بطاعة خليفتنا ، وقد قُتِلَ خليفتنا . وبابيع أهل الشام يزيد بن الوليد ، فرضينا بولاية ثابت ورأسناه ليسير بنا على

(١) [راجع مثلاً الطبرى ج ٢ ص ١٨٥٣ : كان يقول ليس من أهل هوى إلا وقد أعطيتهم الرضا حتى أخبروني بذات أنفسهم - المترجم] .
(٢) [نجد هنا الكتاب عند الطبرى ج ٢ ص ١٧٥٢ - ١٧٥٤ - المترجم] .

أوليتنا حتى نرد على أجنادنا : ولكن مروان أمر مناديه أن ينادى فيهم :
وقد كذبتم ، وإنما أردتم أن تتركبوا رموسكم ، فتغصبوا من ممررتكم به من
أهل اللمة أموالهم وأطعمتهم وأحلافهم ، وما بيني وبينكم إلا السيف حتى
تتقادوا إلى فأسير بكم حتى أوردكم الفرات ، ثم أخلى عن كل قائل
وجنده ، فتلقون بأجنادكم ، فلما رأوا منه الجحد ، انقادوا إليه وأمكنوه
من ثابت بن نعيم وأولاده الأربعة ، فوضع السلاسل في أرجلهم . وأعطى
مروان جند الشام ما أرادوا من العودة إلى بلادهم ، فأخذهم معه وضبطهم
عن الاعتداء والظلم . وكانت جنود قيس من أهل الجزيرة يكتنون نواة
جيشه . حتى إذا ورد حران خلتى سبيل جند الشام ، أما هو فقد بقى في
حران ، ووجد أن من الحكمة أن يبايع يزيد بن الوليد ، وخصوصاً أن
يزيد كاتبه على أن يبايعه ويقول في مقابل ذلك جميع البلاد التي كان أبوه
محمد بن مروان يتولاها أيام عبد الملك ، وهي الجزيرة وأرمينية والموصل
وأذربيجان :

ولكن يزيد بن الوليد مات بعد أن تولى الخلافة ستة أشهر ، وكان قد
عقد البيعة لأخيه إبراهيم بن الوليد خلفاً له ، فلم يتم له أمره ولم يبايع له إلا أهل
جنوب الشام^(١) . فعاد مروان إلى خطته القديمة على الفور . وعبر الفرات إلى
الشام وانضمت إليه قيس قنسرين تحت قيادة يزيد^(٢) بن عمر بن هبيرة ، كما انماز
إليه عرب حمص^(٣) . ولم يجد مقاومة إلا في حين الجرح عند نهر في سلسلة جبال .

(١) [يقول الطبري ج ٢ ص ١٨٧٥ : « وكان مسلم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالإمرة
وجمعة لا يسلمون عليه بالخلافة ولا بالإمرة ... وكانت ولايته مبعين ليلة » - المترجم] .
(٢) يقول المؤلف : يوسف بن عمر . . . وهذا خلاف لما في الطبري ج ٢
ص ١٨٧٦ - المترجم] .
(٣) ويجب بطبيعة الحال تصحيح كلمة Edesa التي وردت عند يهوذا في أخبار سنة
٦٢٣٥ ، بحيث تصحح Emesa . أعني حمص . . .

لبنان الشرقية (Antilibanus) ، حيث يلتقي بنهر الليطاني (Lita) ، وهناك كان جيش جنوب الشام يقوده سليمان بن الخليفة هشام^(١) ، وكان سليمان ابن هشام هذا قد قضى كل صباه في حرب الروم ، وكان أحب شيء إليه أن يكون في ميدان القتال على رأس جنوده ، وكان الذكوانية هم الحرس للذي يحمله^(٢) ، ولكنه لم يكن كفواً مروان ، فاشتبك معه عند ذلك الحين لأول مرة ، ثم اشتبك معه بعد ذلك مرات كثيرة ، فهزم سليمان وفر راجعاً إلى دمشق ، وتفرق جيشه الكبير . ولكن مروان بعد أن انتصر اصططع الغفر والموادة ، فلم يقتل سوى اثنين من كلب وقعا في يده ، وكان لما ضلع في مقتل الوليد بن يزيد . أما بقية الأمري فقد خلى عنهم بعد أن قوى كل واحد منهم بدينار وألحقهم بأهلهم ، ولكن بعد أن أخذ عليهم البيعة للحاكم وهما ابن الوليد بن يزيد ، وكانا عند ذلك محبوبين في دمشق ، وكان من حكمة مروان أنه لم يخرج مطالباً بحق لنفسه ، بل أظهر أنه المدافع عن حق ورثة الوليد بن يزيد . وقد دفع ابنا الوليد حياتهما ثمناً لذلك ، لأنهما كانا في يد الأعداء ، فلما وصل سليمان بن هشام منهزماً إلى دمشق اجتمع إليه وإلى إبراهيم بن الوليد وعبد العزيز بن الحجاج ردوس^٣ من معهم ، مثال يزيد بن خالد القسري والأصمغ بن ذواله الكلبى ، فقال بعضهم لبعض : « إن بقى الغلامان ، ابنا الوليد ، حتى يقدم مروان ويخرجهما من الحبس ويصير الأمر إليهما ، لم يستبقيا أحداً من قتلة أبيهما ، والرأى أن تقتلهما ! » ، فوئوا ذلك يزيد بن خالد القسري ، فأرسل يزيد مولى لأبيه في هدة من أصحابه فدخل السجن وشدخ الغلامين بالعمد ، وقتل يزيد يوسف

(١) ويصف تيوفانيس ذلك الموضع ؛ وهو يسميه Garis ويترجم كلمة Sila كما لو كان

معناها : الملعون ؛ أما في السريانية فالموضع يسمى En Gara ، قارن DMZ. ، ١٨٩٧ ص

٥٨١ وعين البحر تقع على الطريق بين بعلبك ودمشق (الطبرى ج ٣ ص ٤٨) .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٩٢ ص ١٢ - المترجم] .

ابن عمر ، وكان في نفس السجن . أما أبو محمد السفياي فإنه تحصن في بيت من بيوت السجن ولم يمكن أخذه ، حتى دخلت خيل مروان بن محمد دمشق . وقبل أن يصل مروان كان سليمان قد استطاع في الوقت المناسب أن يهرب ما كان في بيت المال ويقسمه فيمن كان معه من الجنود ويخرج من المدينة^(١) ، وذهب مع إبراهيم بن الوليد إلى تل بئر ، مقر قبيلة كلب . وبعد أن أسعدت الأقدار مروان بن محمد بإزالة ابني الوليد بن يزيد من طريقه أخذ البيعة لنفسه في دمشق يوم الاثنين ٢٦ صفر سنة ١٢٧ هـ ، الموافق ٧ ديسمبر سنة ٧٤٤ م^(٢) . وكان أبو محمد السفياي أول من بايعه . وزعم أن الحكيم عثمان ابن الوليد ، وهما يعالجان الموت ، قد أوصيا بأن يكون مروان هو الخليفة بعدهما ، وأنشد أبو محمد السفياي قصيدة للحكم ابن الوليد ، قالها وهو في السجن ، يستغيث فيها بمروان ويصف يزيد بن الوليد بأنه : « الناقص القدرى » الذى أشعل نار الحرب ، وهى تنتهى بهذه الأبيات :

أَنْتُمْ كُنْتُمْ بِيَعْنِي مِنْ أَجْلِ أُمِّي فَقَسَدَ بِأَيْدِيهِمْ قَبْلِي هَجِينَا
فَلَيْتَ نَحْنُ وَنُوتِي مِنْ خَيْرِ كَلْب فَكُنَّا مِنْ وَلَاةِ آخِرِينَا
فَإِنْ أَهْلِكَ أَنَا وَوَلِيَّ عَهْدِي فَمَرَوَانَ أَسِيرَ الْمُؤْمِنِينَا

وهكذا يشكو الحكيم^(٣) من أنه ينسب من جهة أمه إلى قبيلة كلب البغيضة ومن أنه قد فقد حقه في الخلافة لهذا السبب ؛ ويزعم تيوفاني أن

(١) [راجع في هذا مثلا الطبرى ج ٢ ص ١٨٧٦ - ٧٨٧٩ - المترجم] .
(٢) هذا هو العوالم كما يقول إلياس التميمي ، غير أنه يجب تصحيح يوم الثلاثاء الذى يذكره بحيث يكون يوم الاثنين ، وذلك طبقاً لما جاء في كتاب التلبية للمسعودي ص ٣٢٥ ، وإن كان التاريخ الذى يذكره المسعودي غير صحيح .
(٣) [ظن المؤلف خطأ أن الشاكي هو أبو محمد السفياي - المترجم] .

مروان ، بعد أن دخل دمشق ، قتل كثيراً من أشرف الناس ومن كان لهم ضلع في مقتل الوليد وابنيه الحكم وعثمان ، وأنه قطع أيدي قوم آخرين وأرجلهم ، ولكن الأغلب أن هذا ليس صحيحاً . ومن الجائز أن يكون مروان قد أخذ بعض من لم ضلع حقيق في مقتل الوليد بن يزيد بجريرتهم ، إن كانوا قد وقعوا في يده . ويظهر أيضاً أن مروان قد اشتد مع الثائرين من أهل الدين ، فهو قد قتل قيس بن هاشم العباسي الذي تكلم عند بيعة يزيد بن الوليد كلاماً جاوز فيه الحدود وأذى به بنى أمية جميعاً ، كما أن مروان تعقب القدرية الذين كان يزيد قد قربهم إليه^(١) . ولكن الروايات العربية تقول إنه دخل دمشق في المرة الأولى دون قتال ، وأنه لم يظهر ، ظهر المنتقم . وإذا كان موالى الوليد بن يزيد قد ثاروا إلى عبد العزيز بن الحجاج ابن عبد الملك فقتلوه ، وإلى قبر يزيد بن الوليد فنشوه وصلبوه ، فإن ذلك لم يحدث بأمر من مروان ، بل يحكى أن مروان سمح للعرب في الأقسام الأربعة الكبرى التي كانت تتألف منها الشام^(٢) بأن يختاروا بأنفسهم من يحبون أن يولوه على أجنادهم ، وهو لم يمنع ، عملاً منه بالمبدأ الذي سار عليه ، في أن يكون ثابت بن نعيم الجندى والياً على أجناد فلسطين ، مع أن ثابتاً كان هو الذي تزعم حركة العصيان التي قام بها جند الشام في أرمينية ، وخروجاً منهم حل طاعة مروان . وقد أراد مروان بذلك كله أن يبعث الثقة في النفوس وأن يهدئ الخواطر ، حتى إذا أتم عمله واستوت له الشام وهاد إلى منزله من حران ، طلب الأمان منه نحو صهاة الكبيران : سليمان بن هشام والخليفة إبراهيم بن الوليد ، فأمنهما

(١) يصف ثيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٤١) مروان بأنه جبرى (Fatalist) ، وذلك لإذكاره القول بالاختيار ، والحقيقة أن مروان لم يكن بطبيعة الحال يراعى اعتبارات اعتقادية ، بل اعتبارات سياسية .

(٢) هي فلسطين والأردن ودمشق وحمص . أما قنشرين ، فنظراً لأنها كانت لقيس غسسى لاحقة بأرض الجزيرة وكانت تعتبر منفصلة عن الشام .

مصطنعاً الغزو والفضل . وقد قلدا عليه في حرّان وصبارا في أسكره ، وكان يكرمهما ويدنيهما ، وكان يسيران معه في موكبه (١) .

وكان قتال مروان لأبناء عبد الملك قتالاً لكلب وقضاعة ، وقد انضمت إليه قيس وحاربت معه ، وهو أيضاً اتخذ مقر إقامته بين قيس ، في حرّان بأرض الجزيرة ، وهناك كان يقيم أبوه ، وكان هناك نما هو وترهرع ، وهناك كان يشعر أنه في وطنه (٢) . ويقول صاحب كتاب التلبيه إن جميع من ملك قبله من بني أمية كانوا ينزلون دمشق ، وأن منهم من كان يتبدّى (٣) . ومهما يكن من شيء فإن بعض خلفاء بني أمية ، وإن كانوا قد آثروا الإقامة بعيداً عن دمشق ، فإنهم لم يفعلوا ذلك لأسباب سياسية ، ولم يكن مقصدهم أن يُجَرّدوا دمشق من مكانتها كعاصمة للدولة . أما مروان فيظهر أنه كان في الحقيقة يقصد ذلك . فقد نقل مقر حكومته إلى حرّان ، ونقل إليها - كما يقول ثيوفانيس - كل الأشياء والخزائن التي كانت في دمشق ، وقد جرّ هذا على مروان عواقب خطيرة ، ذلك أنه بعد حرمان دمشق من مكانتها أحسّ الشام كله - عدا الأجزاء الشمالية - أنه أيضاً قد انتزعت منه السيادة . وقد أخذت الخلافات بين الأحزاب تحتفي وسط هذا الشعور شيئاً فشيئاً ، وأخذ الناس يشناقون إلى عودة العهد السابق . وإلى جانب ذلك لم يكن من اليسير بطبيعة الحال القضاء على ما كان هناك من ميل إلى البيت الشرقي الذي أُرِبل عن العرش وكانت له علاقات وأواصر بجميع البلاد وتحويل هذا الميل إلى غاصب غريب عن أهل الشام ، أمه أم ولد .

(١) [راجع في هذه الحوادث الطبري مثلاً (ج ٢ ص ١٨٩٠ - ١٨٩٢) - المترجم] .

(٢) ويفسر ثيوفانيس ميل مروان إلى مذهب الجبورية بأنه كانت له علاقة وثيقة بالآراميين الذين بقوا في حرّان على وثنياتهم .

(٣) [راجع كتاب التلبيه والإشراف للمسمودي ص ٣٢٥ من طبعة ليدن سنة ١٨٩٣ - المترجم] .

ولم ينتقض عام ١٢٧ هـ حتى انتقض الشام على مروان^(١) . ويظهر أن الثورة نشأت من جانب أهل فلسطين ، لأن ثابت بن نعيم الجلداني كان هو روح الثورة ؛ ولكنها امتدت إلى جميع الجهات ووصلت حتى إلى مدينة حمص التي كانت حتى ذلك الحين في جانب الوليد بن يزيد وجانب مروان . وفي الثاني من شوال سنة ١٢٧ هـ ، الموافق ٧ يولييه سنة ٧٤٥ م^(٢) ، ظهر مروان أمام حمص ، فذهبت من أهلها شجاعتهم وصمحو له أن يدخل المدينة ، وغلبوا بألف فارس من كلب كانوا قد جاءوا من تدمر مسرعين إلى نجدتهم^(٣) . وعند ذلك أرسل مروان جيشاً كبيراً إلى دمشق لكي يفلت الحصار الذي ضربه عليها حرب الفوطه تحت قيادة يزيد بن خالد القسري ، فشقت شمل المحاصرين وقتل يزيد بن خالد القسري ، وأحرقت المزة التي كانت عشاً لرجال كلب . وبعد ذلك انجه الجيش إلى مدينة طبرية قسبة الأردن ، فطرد ثابت بن نعيم الذي كان يحاصرها ،

(١) يذكر الواقدي (الطبري ج ٢ ص ١٧٤٢) سنة ١٢٨ هـ . بل يذكر الحارثي التميمي سنة ١٢٩ هـ . وأما أنباغ ثيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) كما أنباغ الرواية الأساسية عند الطبري (ج ٢ ص ١٨٩٠) لا بعدها) . وسنتين أنباغ ذلك في أثناء كلامنا التالي ، وكان من الممكن الخلط في التواريخ لأن مروان حاصر حمص مرتين ١ في سنة ١٢٢ هـ ، ١٢٨ هـ .

(٢) بعد عيد الفطر يومين سنة ١٢٧ هـ (الطبري ج ٢ ص ١٨٩٣) .

(٣) يقول تيرفانوس (أعيان سنة ٦٢٣٦) إلى مروان صلب مائة وعشرين من كلب (Xeläbevos) . أما الطبرى (ج ٢ ص ١٨٩٣ - ١٨٩٤) فهو يقول إن مروان صلب النفل حول المدينة . وكان العباس بن الوليد يقيم في حصن . وفي سنة ١٢٦ هـ كان أهل حصن قد هدموا داره لأنه انحاز إلى جباب أعداء الوليد بن يزيد . ولكن يظهر أن قد صار له من جديد تأثير على أهل حصن ، وأنه غير اتجاهاهم الحساس وأثارهم على مروان ، لأن مروان بعد أن استولى على حصن أخذه وحده ، وجاء زنجي فوضع رأسه في كيس من الجير كان قد سقى به الطليخ . وقد فرح لذلك النصارى ، لأن العباس ، وكان مسلماً متحسناً ، قد أغضبهم على نفسه . وكان النصارى في ذلك الوقت لا يزالون كثيرين في حصن ، ويمحور أنهم قاموا بنصبتهم في تسليم المدينة إلى مروان التي كان بعيداً عن التمسك بالدينى - راجع تيرفانوس (أعيان سنة ٦٢٣٦) ، والمعلومات الدقيقة التي يذكرها هذا المؤرخ أجلى بالتقديم على ما جاءه في الطبرى (ج ٣ ص ٤٣) من رواية موجزة .

ثم هُزم ثابت مرة أخرى في فلسطين وأُسر آخر الأمر (١) ، فأمر مروان بـثابت وبنيه فقطعت أيديهم وأرجلهم ، ثم نُحِلُوا إلى دمشق فأقيموا على باب مسجدِها ، ثم قُتِلُوا وصُلِبُوا على أبواب دمشق . وأخيراً جاء دور مدينة تدمر ، المقر الأساسي لكلب ، وكانت هي المدينة الوحيدة التي لا تزال قائمة . وقد توجه إليها مروان بنفسه ، ولكن الأبرش بن الوليد استأذن مروان في استعمال السياسة وطريق المفاوضة والتخويف ، فأملح في تفادي الحرب ووصل إلى إقناع أهل تدمر بمبايعة مروان . وشخص كبار أهل المدينة أمام مروان ، ولم يهرب إلا أفراد قليلون خافوا على أنفسهم منه ، ففروا إلى بركة كلب (٢) .

وأخذ مروان البيعة لابنيه : عبد الله وعبيد الله ، في دمشق ، وزوجهما ابنتي هشام بن عبد الملك ، وجمع للاحتفال بالزواج جميع بني أمية ، وكان هذا الزواج بمثابة حفلة رسمية للدولة . وكان مروان يعتقد في ذلك الوقت أنه قد استطاع أن يصلح ما بينه وبين أسرة بني أمية وأن يضعها إلى جانبه . ثم دعا أهل الشام إلى الخروج في الحملة التي كان ينوي القيام بها على العراق ، ولم تكن العراق قد خضعت له بعد ، فتقدموا ، وأخذ منهم عشرة آلاف رجل ، وجهزهم بالسلاح والخيول ، وأمرهم أن يلحقوا بالجيش الآخر الذي كان يتألف من عشرين ألف رجل من أهل الجزيرة وأهل قنسرين ، وكان يسير تحت إمرة يزيد بن عمر بن هبيرة مع الفرات . أول سنة ١٢٨ هـ (ربيع سنة ٧٤٥ م) . فلما مر جيش العشرة آلاف رجل بالرصافة ، أقبلوا على سليمان بن هشام - وكان قد استأذن مروان - وهو حائد معه من تدمر ، في أن يقيم في الرصافة أياماً حتى يجم هو

(١) بحسب رواية الواقدي (الطبري ج ٢ ص ١٩٤٢) كان ذلك في شوال سنة ١٢٨ هـ ، ويتجلى من تسميته بالاسم القديم : ابن الحُلَـمى ، أن لعِم بن ثابت هو عين ثابت ابن نعيم .

(٢) [راجع في هذا الطبري مثلاً (ج ٢ ص ١٨٩٢ - ١٨٩٧) - المترجم] .

ومواليه - ودعوه إلى خلع مروان ومحاربه ، وقالوا له : « أنت أرضى منه وأولى بالخلافة » . واستزله الشيطان ، فأجابهم . ومع أن مروان كان قد آمنه وأكرمه وأنه كان عنده من الأسباب ما يدعوه إلى أن يرعى عهد الولاء له ، فإن سليمان ، وهو القائد المحب للحرب الذي لا يحتمل الحياة الهادئة ، لم يستطع أن يقاوم الفتنة التي جاءت له ، فخرج إلى الثوار بإخوته وولده ومواليه وأستولى على قنسرين التي كانت مجردة من الجند ، وتدفق إليه أهل الشام من كل ناحية ، حتى ليرى أن سبعين ألفاً كانوا في آخر الأمر تحت رايته . وعند ذلك أمر مروان فريقاً صغيراً من الجيش الذي كان في طريقه إلى الكوفة بالوقوف عند دورين تحت إمرة ابن هبيرة ، وقاد هو الجزء الأكبر من الجيش راجعاً إلى الثائر الذي وثب في ظهره . وهاجم مروان سليمان في معسكره عند قرية يقال لها خساف^(١) ، غير بعيد من قنسرين ، فهزمه ، ولم يعامل العرب الذين أمرهم بشيء من العفو ، فكان لا بد لهم من الموت ، إلا من قال منهم أنه عبيد مملوك ، ليُبقي على نفسه . ويذكر الطبري أن مروان قتل ما يزيد على ثلاثين ألف أسير ، أما عند تيوفانيس فإن عدد القتلى في حملتهم لا يتجاوز سبعة آلاف . أما سايجان بن هشام فقد انحاز مع قلول جيشه إلى حصن ، ولكنه بعد أن اقترب منه مروان فر إلى تدمر ومنها إلى الكوفة . وبقي الجيش في حصن بقيادة أخيه سعيد بن هشام ، فحاصر مروان مدينة حصن للمرة الثانية ولم يستطع أن يجبرها على التسليم في هذه المرة إلا بعد حصار أربعة أشهر واثنين وعشرين يوماً^(٢) ، وبعد أن نصب عليها نيفاً وثمانين

(١) [يقول المؤلف : الخفاف ، وهذا يخالف ما عند الطبري ج ٢ ص ١٩٠٦ ص ١٤٠ و ١٩١٣ ص ٢ - المترجم] .

(٢) هذا ما يقوله إلياس ، قارن أيضاً تيوفانيس (أخبار سنة ٦٣٣٧) . ويذكر الطبري (ج ٢ ص ١٩١٢) أن الحصار دام عشرة أشهر ، ولكن لا مجال لذلك ، ولعل حلة سنة ١٢٨ م كلها لم تقدم أكثر من عشرة أشهر .

منجنيقاً تقلعها بالحجارة ليلاً ونهاراً ، حتى تنال على أهلها البلاء والذل وطلبوا الأمان . وقتل مروان قوماً من ألد أعدائه . أما سعيد بن هشام وأبناؤه فقد أسرمهم وحبسهم^(١) . ولا يقال متى أخذ أبا محمد السفيفي وحبيه ، ولكن أخذته ثابتاً مما جاء في الطبري (ج ٣ ص ٤٣) ، وهو حادث طريف ، لأنه يدل على أن هذا الأمر أيضاً قد جرفته تيار الثورة التي لم تترك أحداً ، وقد هدم مروان أسوار حمص وبلبك ودمشق وبيت المقدس وغيرها من مدن الشام الكبرى ، إلا أنطاكية فإنه لم يهدم أسوارها ، لأن أهلها كانوا نصاري^(٢) . ويدل هدم مروان للأسوار على أنه قد لاق مقاومة من هذه المدن^(٣) . وفي سنة ١٢٨ هـ (٧٤٦ م) كان مروان قد انتهى من إخضاع الشام ، ف وقعت مزرقة تحت قدميه^(٤) .

٢ - وفي أثناء ذلك كان كل شيء في شرق الدولة مضطرباً وكان يزيد ابن الوليد في رمضان أو في شوال سنة ١٢٦ هـ قد أسند الولاية على العراق إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح ، وذلك مكان منصور بن جمهور الكلبي الذي ظل رغم هذا محتفظاً بمكانة تأثيرها في الكوفة . أما مقر الحكومة ومقر جند الشام فقد بقي في الحيرة ، وكانت الحيرة بمثابة مفتاح الكوفة . وإلى جانب هذا أمكن القبض على زمامها بفضل القصر الذي كان فيه صاحب الشرطة

(١) يقول تيوفانيس إن مروان قتل كل أقارب هشام وآله ، ولكن هذا غير صحيح (قارن بين ما جاء في الطبري ج ٣ ص ٤٣ وبين ما جاء في ج ٢ ص ١٩١٢) . وهذا كقولنا الرواية قتل السكسكي الذي كان يعتبر فارس من أهل الشام مرتين في صورتين مختلفتين (الطبري ج ٢ ص ١٩١٢) . ومن الجائز أنه يجب التمييز بين معارضة السكسكي وأبي علفة السكسكي ، والأخير حينها يسمى القضاة ، وإن كانت سكسك إنما لحقت بعهدة وانضمت إليها من غير أن يرجع نسبها إليها في الحقيقة .

(٢) راجع ما يقوله تيوفانيس في أخبار سنة ٦٢٣٧ و ٦٢٤١ .

(٣) ربما كان الواقدي غير محلي في أنه قد جعل أسر ثابت بن نعيم وقتله حوالاً لهذا الوقت .

(٤) [راجع في الحوادث المتقدمة للطبري مثلاً ج ٢ ص ١٩٠٨ - ١٩١٣ - المترجم] .

ورجاله . وطبعي أن يكون أهل الكوفة على غير "ود" مع جند الشام
الغرباء عنهم . وقد عمل عبد الله بن عمر على ما فيه استرضائهم ، وربما
كان بعض ما قصده من التغيير المستمر للعمال وأصحاب الشرطة (الطبري
ج ٢ ص ١٩٠٢) هو أن يحقق هذا الغرض نفسه ، ولكن كان المال هو
وسيلته الكبرى في ذلك ، فأعاد إلى مقاتلة الكوفة أرزاقهم وأعطيتهم ،
بعد أن كانت قد منعت عنهم لأنهم لم يكونوا في الحقيقة يؤدون واجبات
حربية ولم يكونوا يستخدمون السلاح إلا في الثورة . وبعد أن مات يزيد
ابن الوليد وتولى الخلافة أخوه إبراهيم بن الوليد زاد عمر في الأعطيات
وقد تلمس قواد أهل الشام من ذلك ونازعوه فيه قائلين : " نُقَسِّمُ عَلَى
هَؤُلَاءِ قِسْمَتَنَا ، وَهُمْ عَدُوُّنَا " (١) . ولكن أهل الكوفة لم يروا فيها بدا من
روح الخير عند ابن عمر إلا دليلاً على الضعف ، فلما مات يزيد بن الوليد
ظنوا أن مركزه قد تزعزع إلى حد أنهم اجتمعوا عليه بالثورة (٢) .

ذلك أنه كان يقيم بين أهل الكوفة في ذلك الوقت رجل " يمكن أن يعتبر من
آل بيت النبي عليه السلام ، وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن
أبي طالب . فهو أحد أحفاد جعفر بن أبي طالب أخى على بن أبي طالب (٣) ،
وكان قد وفد هو وإخوته على عبد الله بن عمر بلمس صلته ، لكنه بقي
في الكوفة لا يريد منها رحيلاً ، وتزوج من أسرة ذات نباهة . ونظراً لنسبه

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٥٤ - ١٨٥٥ لثري أيضاً كيف استطاع ابن عمر
أن يقلب على الموقف بأن أخرج جند الشام من جهة وأراد أن يكتسب بجاحهم بجند الكوفة
من جهة أخرى - المترجم] .

(٢) [وقد جاء هذا من جانب الشيعة بنوع خاص - راجع الطبري ج ٢ ص
١٨٨٣ - المترجم] .

(٣) [تجد أخبار خروج عبد الله بن معاوية والروايات المختلفة في ذلك والظروف التي
ملحها فيها لنفسه أو حسن له غيره أن يفعل ذلك ، وما كان من جميع أمره عند الطبري ج ٢
ص ١٨٧٩ - ١٨٨٧ و ص ١٩٧٦ - ١٩٨١ - المترجم] .

فقد بدا أنه أهل* للخلافة (١) ، وقد أظهر استعداداه للخروج من أجلها ، وكان الزيدية ، أحق الشيعة الذين كانوا قبل ذلك بوضع سنين قد ثاروا على حكومة هشام وعلى رأسهم زيد بن علي ، يكوّنون نواة أنصاره ، فجاءوا به وأدخلوه القصر وحالوا بين صاحب الشرطة وبين القصر ، وكان بينهم كثير من الموالي ، ولكن بقية أهل الكوفة بايعوه ، ثم خرجوا معه يريدون ابن عمر في الحيرة . ولم يكن في ابن عمر شيء من التراخي ، ولكن لم يكن من الممكن أن يخرج من حدوده شيء مهما كان . وكان إذا لم يستطع تغيير مجرى الأمور خام في تياراتها ، وقد ثبت له من التجربة أن ذلك يؤدي به إلى الغرض . وبينما كان يأكل ويشرب ترك بلعده من أهل الشام أن يصلوا المهاجرين ، ولم يكن ذلك بالأمر العسير ، فقد فرّ أهل الكوفة عند ما بدأ القتال ، وذلك في المحرم سنة ١٢٧ هـ (أكتوبر - نوفمبر سنة ٧٤٤ م) . ولكن كان الزيدية هم الذين قاتلوا قتال الشجعان ، بل صمدوا في القتال أياماً في القصر وفي شوارع الكوفة ، حتى حصلوا على الأمان لأنفسهم ولعبد الله بن معاوية ، يذهبون حيث شاءوا ، لا يمنعهم أحد (٢) :

فخرج ابن معاوية من الكوفة ، ولم يكن قد انتهى الدور الذي أراده ، وقصد إلى المدائن وبلاد الجبل (ميديا) ، فبايعه أهلها ، وكان قد أتاه قوم من

(١) [قال له : أهل الكوفة ، بعد قيام النزاع بين مروان بن محمد وإبراهيم بن الوليد ، أدع لنفسك ، فهدو هاشم أول الأمر من بني مروان الطبري ج ٢ ص ١٨٨٠ - المترجم] .
(٢) [يحكي المؤلف القصة كلها في القصاب ، فلابد من الرجوع إلى المواضع التي أشرت إليها في هامش سابق . أما ما يقوله عن عبد الله بن عمر فليس دقيقاً تماماً ، لأن الذي حصل هو أن ابن عمر كان رجلاً سياسياً نادياً ، فلما جاءه خبر قدوم ابن معاوية إلى الحيرة لقتاله ، وشاهد بين يديه ليأذن له بتقديم الطعام ، لم ينزعج ، بل ألقى ملياً يفكر ، وكأنما أراد أن يجعل فترة تناول الطعام فترة رسم الخطة ، فلما انتهى من طعامه استدعى قواده ففارق فيهم الأموال ، وخرج بنفسه مع الجند وأدار المعركة على طريقته الخاصة ، وهي كما يقول المؤلف (ص ٣٦٩ ما تقدم) تعتمد على المال كوسيلة أساسية - راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٨٥ - ١٨٨٧ مثلاً - المترجم] .

أهل الكوفة . ثم خرج إلى بلاد الجبل فغلب عليها ، وعلى حلوان وقومس وأصبهان والري ، وانضم إليه خصوصاً كثير من العبيد والموالي ، أى من الفرس . فاستقر أولاً في أصبهان ، لكنه ذهب إلى أصفخر في فارس سنة ١٢٨ هـ (٧٤٥ - ٧٤٦ م) ، ونخضعت له أجزاء كبيرة من بلاد الجبل والأهواز وفارس وكرمان ، لأنه بدأ بحكم نسبه أهلاً للخلافة . وبايعه أيضاً آخرون من صغار الثوار الذين ظهروا في ذلك الوقت في تلك الناحية ، وانوا يريدون أن يُقِرَّهم على ما غلبوا عليه ، ومنهم محارب بن موسى وسليمان بن حبيب (١) . وجاء آخرون من بنى أمية وبنى العباس ممن لم يأمنوا على أنفسهم في أوطانهم ، فاستقروا تحت جناحه ، طامعين في أن ينالوا منه صِلةً أو ولاية . أما التشيع الذى ارتفع شأن ابن معاوية بسببه فقد كان عنده شيئاً ثانوياً ، وقد انتفح حوله كل ألوان الناس : وهكذا قامت فجأة في المشرق الذى لم يكن له سِيدٌ دولة شاسعة من الدول السريعة الزوال : وهذا من العلامات التى كان يتميز بها ذلك العصر :

ثم إن ابن عمر أسعده الحظ بالتخلص من عهد الله بن معاوية (في المحرم سنة ١٢٧ هـ) : ولكن ابن عمر لم يعترف بخلافة مروان بن محمد (صفر سنة ١٢٧ هـ) ، بل هو بعد أن سقطت حكومة الأمويين في الشام كان هو الذى يمثلها في العراق دون أن يظهر بمظهر الخلافة ، وكان مُعَوِّله على قبائل البغائية من أهل الشام (قضاة وكتب) ، وهى على كل حال لم تتعلق به إلا لأنه لم يكن هناك خير منه : وكان أهل اليمن قبل ذلك يزمان طويل يؤلفون الشطر الأكبر من جنود الدولة ، وصاروا يكوِّنون ما يشبه المستعمرة في الكوفة والحيرة ، ولكنهم إذ ذاك برزوا أكثر من ذى قبل ، بعد أن ثقل عليهم العناء والسأم من أمر بلادهم ،

(١) لا شك أن هذا شخص آخر غير القاضى المسى بالاسم نفسه والذى كان قاضياً في الشام في عهد الوليد وسليمان وهشام ، أبناء عبد الملك .

وبعد أن أصبحت أبوابها موصدةً دونهم . وقد شد من أزرهم مهاجرةٌ آخرون ، لم يستطيعوا ، أو هم لم يريدوا ، أن يسالموا مروان ، كما زادهم قوةً إخوةً وأبناءً لخالد القسرى وقوادٍ من كلب ، من طراز منصور بن جهمور ، وآخرون من زعماء أحزاب الأقلية في الشام ، ممن جاءوا بأهلهم معهم ، وعندما يرد عند الطبرى ذكر أهل اليمن في حروب ذلك العصر ، فإن المقصود عادةً هم يمن الشام في الكوفة ،

ولم يستطع مروان في أول الأمر أن يفعل أكثر من أن يعين على العراق أحد كبار رجاله ليكون والياً مُستأداً لعبد الله بن عمر ، وهو النضر بن سعيد الحرشي . وكان النضر قيسياً ، وكان أبوه قائداً وحاملاً ناهياً تخرج في مدرسة الحجاج ، وقد أفلح في أن يضم إليه المُضمرين الذين كانوا في جيش الشام ، ولكن أهل اليمن ، وخصوصاً كلباً - وكانوا هم الغالبية وكان منهم الأصمغ بن ذواله القائد الكبير وأحد قتلة الوليد بن يزيد - بقوا على ولائهم لعبد الله بن عمر ، الوالى القديم . فاستطاع عبد الله أن يثبت في الحيرة ، على حين نزل الحرشي في دير هند . وقد لبث الواليان المتنافسان أربعة أشهر يتناوشان فيما بين الحيرة والكوفة ولكن لم يكد يحدث في هذه المناوشات اشتباك دموى حقيقى ، ثم اضطرها إلى الصلح خطرٌ هددهما معاً (١) .

وذلك أن الخوارج ظهوروا على المسرح واحتلوا المكان الأول حيناً من الزمان ، وكانوا دائماً فيما قبل قليل العدد . ولذلك كان لا بد لهم من الاكتفاء بالحروب الصغيرة . ومع ذلك استطاعوا أن يتعبوا أميراً كبيراً كالحجاج ، بما كلفوه بذله من جهد ، لكنهم لم يكن عندهم اهتمام جدوى بالتوصل إلى تولى الحكم ، بل كانت سياستهم « غير سياسية بحتة » ، وكانت غايتهم أن ينجوا بأرواحهم من شرور هذه الدنيا ، لا أن يسيطروا على العالم الإسلامى ، لأنهم

(١) [راجع الطبرى مثلاً ج ٢ ص ١٨٩٧ لما بعدنا - المترجم] .

كانوا يتبرؤون من غيرهم من المسلمين . فأما الآن فقد تَضَخَّصَتْ جماعتهم الصغيرة ، فصارت جماهير كبيرة ، هذا إلى أنهم تركوا ما كانوا عليه من تشدد أخرجهم على الناس وباعد الناس عنهم ، وصاروا يقبلون كل من ينضم إليهم ليعينهم على تحقيق أغراضهم . وهم وإن كانوا قد أخذوا من كان ينحاز إليهم بأن يقول بمقاتلتهم في الدين ، فإنهم لم يطردوا حليفاً أراد أن يقاتل في صفوفهم . على أنهم الآن لم يكونوا في الحقيقة يسعون إلى البلية ، بل صاروا يطعمون في ملك الدنيا ، وصاروا في ميدان التدافع من أجل السيادة المتداعية ينافسون غيرهم بنفس وسائل هؤلاء ، ولم يكن بينهم وبين الظفر إلا قليل ، ولو أنهم ظفروا لما بقوا خوارج النزعة كما كانوا .

وقد بدأت الحركة في أرض الجزيرة ، وهي الولاية التي كانت بمثابة وطن لمروان ، لكنها لم تبدأ بين قيس في الجنوب بل بين ربيعة في الشمال ، وكانت ربيعة من قبل متباعدة دائماً بعض التباعد عن بقية العرب المسلمين ، خصوصاً عن مضر ، منافسيهم القدماء . وكانت ربيعة قد اضطروا أن يتخلوا لمضر عن أرضهم القديمة ولم تكن نفوسهم راضية بأن تكون في مضر النبوة والخلافة . وكانت شيبان بكر بنو حسان — وكانوا يقطنون ناحية الموصل على ضفتي نهر الدجلة — هم مقدمة جيوش الخوارج منذ أيام شيبان ابن يزيد . وبعد أن قتل الوليد بن يزيد ثار بينهم عبيد بن هبيل الشيباني وبائع لنفسه خليفة على الخوارج ، وهو بعد أن تغلب على بسطام البهسي — وكان هذا قد خرج منافساً له في وطنه ومفارقاً لرأيه — خرج إلى الكوفة حيث كانت تلوح له آمال في النجاح أكثر مما كانت تلوح في البلاد التي كانت لمروان . ولكن سعيداً مات وهو في الطريق ، فخلفه في منصبه شيبان آخر ، هو الضحاك بن قيس ، من بيت مرة النابه الذي كان منه شيبان أيضاً ، فانحاز إليه الخوارج في شهرزور وأبينية وآذربيجان ، حتى صارت

تحت لوائه آلاف كثيرة . وتوجه معهم إلى الكوفة ، وقد تضافر عليه
الواليان المتنازعان هناك (ابن عمر والحريش) ، ولكنهما لم يستطيعا صدّه ،
فهزما في رجب سنة ١٢٧ هـ (ابريل سنة ٧٤٥ م) أقبح هزيمة . وعلى
أثرها أخليا الكوفة ، فأما الحريش فإنه توجه إلى مروان في الشام ، وأما ابن
عمر فإنه لحق بواسط^(١) ، وكان قد سبقه إليها بعض أصحابه من كلب ،
وفي شعبان سنة ١٢٧ هـ (مايو سنة ٧٤٥ م) اتبعه الضحاك وحاصره .
وقد تميز في قتال الخوارج منصور بن جمهور ، ولكنه كان أول من جنح
إليهم^(٢) وقبيل مقاتلتهم في الدين ، وذلك بأن أعلن أنه قد أسلم وامتنل
لكلام الله^(٣) . وفي أواخر شوال سنة ١٢٧ هـ (أول أغسطس ٧٤٥ م)
سلم لهم ابن عمر أيضاً بعد شيء من التردد ، ودخل في طاعة الضحاك
وصلى خلفه ، فقال أحد الشعراء في هذه البيعة :

ألم تر أن الله أظهر دينه فصلت قريش^٤ خلف بكر بن وال

(١) هذا ما جاء عند الطبري (ج ٢ ص ١٨٩٩) . أما أبو عبيدة (الطبري ج ٢
ص ١٩٠٢) فهو يقول إنها جميعاً هربا إلى واسط وعادا هناك إلى نزاعهما السابق ، ولم
يصيرا يداً واحدة إلا بعد أن ظهر الخوارج ، ولكن أبا عبيدة يقول أيضاً إن الحريش في
واسط لم يشترك في قتال الخوارج ولا في الصلح معهم . فلا بد إذن من أن يكون قد اعتنق
سريئاً وذهب من واسط إلى الشام (الطبري ج ٢ ص ١٩١٢) ، وفي هذه الحالة يجوز أن
يكون قد قتل حامل الكوفة من قبل الضحاك ، كما يحكى أبو عبيدة (الطبري ج ٢ ص ١٩٠٢) ،
(١٩١٤) . أما بحسب ما جاء في رواية عند الطبري (ج ٢ ص ١٨٩٩) فما بعدها ،
ص ١٩٣٨) فإن الذي فعل ذلك هو عطية النخعي ، وهو يشق طريقه من واسط إلى الكوفة
عاشام ، في سبعين أو ثمانين من قومه .

(٢) [كان الخوارج يقاتلون كأنهم الأسد عند أشبالها ، وقد هرب جنود ابن عمر
والحريش أمام شدة بأسهم . وقد قاتلهم منصور بن جمهور أشد قتال ، حتى إذا رأى ألا أمل
في قهرهم أشار على ابن عمر أن يرغيبهم ويحمل بأسهم على مروان بن محمد ، فتردد ابن عمر ،
فانحاز منصور إلى الخوارج وفاداهم : إلى جانب أريد أن أسلمهم وأسمع كلام الله . وكان لابد لمن
يريد أن ينضم إليهم من أن يقول ذلك ، وكان ذلك انتحانهم له . وقد لحق بهم منصور
وبأيامهم - المترجم عن الطبري ج ٢ ص ١٩٠١ ، ١٩٠٧ المترجم] .

(٣) كان الخوارج يعتبرن أنهم هم وحدهم المسلمون ، وكانوا يعتبرون من عداهم من
بجاعة المسلمين غير أهل هذه التسمية .

والشاعر يعبر هنا عن صجبه من أن أحد الأمويين بايع خارجياً من شيبان على الإمامة ، ذلك أن الانتقال السياسي في هذه الحالة كان في نفس الوقت انتقالاً دينياً . والحقيقة أن هذا التغير كان عجبياً ، وفوق هذا لم يأنف ابن عمر أن يكون والياً من قبل الخوارج على كسكر وميسان ودستيسان وكور دجلة والأهواز وفارس وفي أن يبقى في واسط . ووقع ابن عمر وهو في هذا المنصب في نزاع مع عبد الله بن معاوية ، جاره من جهة المشرق ؛

أما الضحاك فقد رجع إلى الكوفة ، ومنها صار يحكم النصف الغربي من دولته ، ويُروى أنه بعد أن بقى بعيداً عن وطنه عشرين شهراً^(١) رجع إليه في أرض الجزيرة في وقت كان فيه مروان مشغول بالذين تماماً في الشام ، ولكن لا شك أن رجوعه لم يكن قبل منتصف سنة ١٢٨ هـ (ربيع ٧٤٦ م) ؛ جاء الضحاك واستولى على الموصل وأخرج منها حاملها ، وكانت قد التفت إليه جموع كثيرة ، وعصوباً أنه كان يدفع لهم أعطيات كبيرة . ويقال إن جيشه بلغ مائة وعشرين ألف رجل . وطبعاً أن هذا العدد يستند إلى تقدير شعبي . ولكن ثيوفانيس يقول إن الضحاك كان له جيش هائل وكان معه مهاجرة كلب ومغامروهم ، ويمكن أن نعتقد منهم سليمان بن هشام ابن عبد الملك الذي كان قد أنقذ فرقة الذكوانية من هزيمة معركة يوم خصاصف والنجار في أربعة آلاف رجل إلى الخوارج ؛

وبينا كان مروان يخضع الشام كان يتعرض لخطر ضياع أرض الجزيرة من

(١) هكذا عند الطبري (ج ٢ ص ١٩٢٨) . أما أبو عبيدة (الطبري ج ٢ ص ١٩١٤) فيقول إن الضحاك خرج إلى الجزيرة في ذي القعدة سنة ١٢٧ هـ (أغسطس - سبتمبر سنة ٧٤٥ م) كما يقول أيضاً إن مروان انتفى من إخماد حمص في نفس الشهر من السنة نفسها (الطبري ج ٢ ص ١٩١٣) ، ففرغ للضحاك . والتاريخان مرتبطان ، ولكن السنة غير صحيحة . في الحالين ، أما في التاريخ الثاني فالشهر صحيح .

يده ، وهي القاعدة التي كانت تستند قوتها إليها . ولكنه لم يترك ما كان مشغولاً به من حصار حصص ، بل اكتفى مؤقتاً بأن كلف ابنه عبد الله - وكان قد خلفه وراءه على أرض الجزيرة - بأن يخرج إلى نصيبين ليشغل الضحاك . من توسط بلاد الجزيرة ، بعد أن كان مروان قد غلب على الموصل . فسار عبد الله حتى بلغ نصيبين ، ولكنه بعد قتال لم يمكنه المضي فيه لكثرة جيش الضحاك تفهقر إلى ما وراء أسوار المدينة وحوصر هناك . خبر أن الضحاك أخفق في محاولته الاستيلاء على الفرات عند الرقة . وكان مروان فيما بين ذلك قد استطاع أخيراً أن يقهر حصص ، ثم خرج بنفسه إلى الرقة لقتال الخوارج ، والتقى الجيشان عند كفترتوت ، فقتل في اليوم الأول للمعركة ، لأنه كان من عادته أن ينزل الميدان ولا يبالى . وهو في مساء ذلك اليوم ترجل في أهل الثبات من أصحابه - وأكثر جنده لا يعلمون ما كان منه - فأحدثت به نيل مروان فألححت عليه هو وأصحابه حتى قتلهم عند العتمة ، ولم يكن يعلم بقتله أحد . ولما علم مروان أرسل في البحث عنه على ضوء النيران والشمع ، فوجدوه ، وتبين أنه كان في وجهه أكثر من عشرين ضربة . وتولى قيادة الخوارج بعده رجل من بني شيبان اسمه الخبيري ، فعاود الهجوم من بعد غده ، وتقدم حتى اقتحم معسكر الأعداء ، ففر مروان في قلب جيشه ، ووصل الخبيري إلى حجرة مروان وجلس على فرشه . ولكن تكاثر عليه حبيد من أهل العسكر ، وضربوه بعمد الخيام وقتلوه . وكان ذلك في أواخر سنة ١٢٨ هـ (الموافق حوالى سبتمبر سنة ٧٤٦ م) (١) .

(١) يفتق تيفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) مع عبد الوهاب صاحب الرواية الأساسية عند الطبري ، فهو يقول إن الضحاك ثار سنة ١٢٧ هـ في Persie ، أى في العراق ، وإنه ظهر في أرض الجزيرة سنة ١٢٨ هـ ، وأرسل إليه مروان ابنه في أول الأمر ثم خرج إليه مروان بنفسه بعد فتح حصص وقتل الثوار .

ولكن الخوارج لم يُغلبوا إلا في السنة التالية^(١) ، وكان لا يزال لهم جيش في أربعين ألف رجل ، وقد يابعوا شيبان بن عبد العزيز البشكري (أبا دلف) خليفة عليهم . وأشار عليهم سليمان بن عبد الملك بأن يرجعوا إلى الضفة الشرقية من نهر دجلة يلزاه الموصل ، ولكن الموصل كانت ما تزال بأيديهم وكانوا يعبرون إليها على جسر من المراكب . وكان مروان معسكراً قبالتهم على الضفة اليمنى ، وقضى أشهراً طويلة من سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ - ٧٤٧ م) من غير أن يصل إلى انتصار حاسم . ولم يتزحزح الخوارج عن موقفهم على نهر الدجلة إلا بعد أن فقدوا سيادتهم على العراق ، فعند ذلك لم يستطيعوا أن يصدوا الجيش الذي كان مسرعاً من جهة الكوفة لمساعدة مروان وأرادوا أن يتجنبوا الوقوف بين نارين ، فتخلوا عن مركزهم في الموصل حوالي آخر سنة ١٢٩ هـ (أغسطس ٧٤٧ م) واجتازوا الجبال قاصدين جهة المشرق .

وكان حامل مروان الذي انتزع العراق من يد الخوارج ، فجعل مقامهم على الدجلة مستحيلاً ، هو يزيد بن عمر بن هبيرة ، من قيس قيسيين ، وكان أبوه في عهد يزيد بن عبد الملك أميراً على الكوفة . وكان قد خرج إلى هناك في أوائل سنة ١٢٨ هـ ، ولكنه اضطر إلى أن يقف طويلاً على الحدود عند قرقيسيا ، ولم يستطع الهجوم إلا في أواخر تلك السنة أو في أوائل سنة ١٢٩ هـ ، وبعد اشتباكات كثيرة. موفقة مع المشنقى بن عمران - وكان هو من قبل الخوارج الوالي الذي كان منصور بن جمهور يحارب تحت إمرته - أفلح في دخول الكوفة في رمضان سنة ١٢٩ هـ (مايو أو يونيو سنة ٧٤٧ م)^(٢) ، وبعد ذلك استولى

(١) تيرفانيس - في أخبار سنة ٦٢٣٩ = ١٢٩ هـ .

(٢) هذا ما يقوله أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٩٤٦) ، وهو وإن يكن مؤرخاً حليماً كالأوقدي فإنه في هذه الحكاية لابد أنه كان على علم بالأمر ، لأنه كان في ذلك الزمان يعيش في الكوفة شيئاً كبيراً ، أما أبو هبيرة (الطبري ج ٢ ص ١٩١٤) فابعداً فهو يذكر أخباراً أخرى ، ولكنه ليس أهلاً للثقة ، وهو وإن كان يعرف تفاصيل طريقة ويقص قصصاً ممتازاً فإنه من حيث هو مؤرخ لا تصح مقارنته بأبي مخنف .

على مدينة واسط وأسر عبد الله بن عمر . أما منصور بن جهمور فقد فر مع أصحابه من كلب إلى بلاد عبد الله بن معاوية ، وكان الخوارج الذين كانوا يقاتلون مروان على الدجلة قد تقهقروا هم أيضاً إلى هناك ، فارتفع شأن ابن معاوية بحكم هذه الظروف حيناً ، بعد أن لم يكن له كبير شأن ، ولا شك أنه لم يكن يحلم بذلك ، فقد اجتمع إليه الشيعة والخوارج وكتب والعباسيون والأمويون . وقد بدا أن كل الفوارق في هذه الكتلة المتعصبة الموالية لمروان قد تلاشت . ولكن لم يمض وقت طويل حتى تفرقت هذه القلوب المختلفة التي ألفت بينها الضرورة ولم تحتل الحياة معاً^(١) .

وعاد مروان إلى مقر حكومته في الحيرة ، وكان له أن يعطي نفسه شيئاً من الراحة^(٢) ، ذلك أن أهم ولايات الدولة : الجزيرة والعراق والشام ومصر ، كانت قد خضعت له ، وأيضاً كان قد تم القضاء على خوارج حضرموت الذين فتحوا صنعاء ومكة والمدينة في جزيرة العرب ، وكان القضاء عليهم في سنة ١٣٠ هـ (٧٤٨ م) . وقد لبث مروان في ميدان القتال ما يقرب من ثلاث سنين ، حقق فيها وهو يحارب دائماً له ، انتصارات غير مألوفة ، وقد فاق كل من كان قبله من ملوك بني أمية بفضل مقدراته الشخصية على احتمال الجهد والمشقة .

وهو قد ترك محاربة الخوارج ومحاربة ابن معاوية في المشرق لابن هبيرة ، حامله على العراق . أما الجيش الذي أرسله إليه ابن هبيرة لمساعدته في حرب الخوارج عندما كانوا على نهر دجلة فقد كان تحت إمرة عامر بن ضبارة ، فكلفه مروان بمطاردتهم ، ففعل حتى دخل بلاد ابن معاوية . وكان معه قائد

(١) [راجع فيما يتعلق بحرب مروان مع الخوارج منذ الفسحاك وشلقائه الطبري مثلاً ج ٢ ص ١٨٩٧ - ١٩٠٨ ، ١٩١٣ - ١٩١٦ ، ١٩٣٨ - ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ - ١٩٤٩ - المترجم] .

(٢) ومن المشكوك فيه أنه كان ينوي ذلك . وقد استفاد الروم من الحرب الأهلية ، فوسّعوا حدودهم نحو الشرق ، وربما أن مروان كان إذ ذاك يريد أن يتحول لهاربهم على أنه حاجم قبرس من مصر ، لكن دون أن يظفر بها أراه .

آخر من قواد ابن هبيرة هو نباتة بن حنظلة . وقد هُزم ابن معاوية وهو يحارب ابن ضبارة في مرو الشاذان سنة ١٣٠ هـ ، فترك دولته وشأنها وفرّ من الأعداء إلى خراسان ، وهناك قتله أصحابه . أما شيبان بن عبد العزيز اليشكري ، قائد الخوارج ، فإنه ذهب إلى الساحل الشرقي من جزيرة العرب ، وقتل أخيراً ، وهو يحارب بني جلعندى أمراء عمان ، وكانوا قد استوطنوها منذ زمان طويل ، وكان قتله سنة ١٣٤ هـ^(١) . وأما سليمان بن هشام ومنصور ابن جمهور فقد عبرا البحر متوجهين إلى أرض السند^(٢) .

حتى إذا أفلح قواد ابن هبيرة في تثبيت هذه الكتلة ، التي تألفت من مغامرين ، وكانوا على أحسن أهبة لإخضاع العرب في فارس لسيادة مروان إخضاعاً تاماً ، انبرى لهم خصوم جدد لا قِيسَل لهم بهم ، وهم أهل خراسان تحت اللواء الأسود لبني العباس . وقد حاول نصر بن سيار عامل بني أمية على خراسان في ثلثي سنين طويلة أن يحذرهم من الخطر الداهم ، وهو ألح أيضاً في طلب المعونة لإخماد النار قبل الضرام ، فلذهب سعيه سدى . ذلك أن مروان كان عنده في وسط الدولة من المشاغل ما يكفيه ، وكان لا يريد أكثر من أن يستطيع المحافظة على ما صار في يده . حتى إذا كان مروان في ذروة نجاحه برز له فجأة ذلك الشبح الأسود الذي لم يكن قد فطن إليه . واستطاع أهل خراسان أن يضيّعوا عليه ثمرة حمله الشاق ، وذلك في الوقت الذي كان يبدو فيه أنه قد وصل إلى الغرض . والواقع أنه لما ظهر أبو مسلم كان أقوى من مروان .

(١) هكذا عند الطبري ج ٣ ص ٧٨ ، ثارن أيضاً ج ٢ ص ١٩٤٥ ، ١٩٤٩ ، ١٩٧٩ ، أما أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٩٤٨) فهو يقول إن شيبان بن عبد العزيز قتل في سجستان سنة ١٣٠ هـ . والأرجح أنه يخلط بين شيبان بن سلمة الحروري الذي لعب في ذلك الوقت نفسه دوراً في خراسان وقتل بالفعل سنة ١٣٠ هـ ، لكن لا في سجستان بل في سرخس .

(٢) راجع نهاية أمرها في الأغاني (ج ٤ ص ٩٦) واليعقوبي (ج ٢ ص ٤٢٥) والطبري (ج ٢ ص ٧٢ ، ٨٠) .

الفصل الثامن

القبائل العربية في خراسان

١ - كانت ثورة الفرس من أهل التشيع في خراسان هي السبب في السقوط النهائي لدولة بني أمية ، لكن الذي مهد لهذه الثورة هو ما سبق ذلك من أحداث في تاريخ خراسان ، وخصوصاً تلك العداوة المستمرة التي كانت بين قبائل العرب هناك ، وهي عداوة كانت قد بدأت في البصرة من قبل ، وذلك أن خراسان كانت أشبه بمستعمرة تابعة للبصرة ، وإذا أراد الإنسان أن يفهم الموقف في خراسان فإن عليه أن يرجع إلى معرفة الأحوال التي كانت في البصرة من قبل أو تطورت عما كان هناك .

وفي أول العصر الأموي ، أدى التحالف بين القبائل في الكوفة إلى غروب من الثورة ، لكنه لم يؤدّ إلى انفجارات معها أعمال عنيفة ، ولم يكن انطلاقاً للدموي إلا بين الأحزاب السياسية . أما في البصرة فكانت الظروف في أول الأمر تكاد تكون شبيهة بما كانت عليه في البغدادية ، فكانت السخافم في صورتها الكامنة والظاهرة تملأ نفوس القبائل ، لكنها كانت بين مجموعات القبائل أكثر مما كانت بين القبائل منفردة . وكانت أكبر مجموعة قبلية تتألف من تميم ورياح ، وكان قد انضم إليها أصاورة القرم ، ودخل الزط والسبابة من الهند في حماها ، لأنها كانت أقوى مجموعة (١) . وكان ما بين تميم ورياح متباعداً منذ الزمن القديم ، ثم انضمت عبد القيس إلى بكر في البصرة ، وكانت عبد القيس

(١) بلذري (ص ٢٧٢ فا بعدها) ، والكامل (ص ٨٢ ص ١٦ فا بعده) .

قليلة العدد في الكوفة ، وكانت الأزدي هي التي تمثل قبائل اليمن ، على حين أن مذحج وهمدان وكندة - وهي القبائل العربية الأصيلة الناجية - كانت هي أكبر القبائل في الكوفة (١) .

ولم تنقو الأزدي في البصرة إلا من طريق هجرة جاءت متأخرة ، في أواخر أيام معاوية وفي أيام يزيد ابنه (الطبري ج ٢ ص ٤٥٠ والبلاذري ص ٣٧٣) . ولم يرض الناس أن يكون هؤلاء المهاجرين المحدثين الذين لم يشتركوا في الفتوحات الكبرى في عهد عمرو وعثمان ما كان للقبائل القديمة من حقوق (الطبري ج ٢ ص ٧٧٩) . وكان مجيء هؤلاء الأزدي سبباً في تغير ما كان للقبائل حتى ذلك الحين من قوة ، بعضها بالنسبة لبعض ، وإن كان الأزدي لم يبلغوا أوج عيظهم إلا على يد المهلب وأبنائه . وكانت تميم تريد في أول الأمر أن تكسب صداقة الأزدي وأن يجعل منهم حليفاً لها ، ولكنها لم تخطط الخطوة الأولى في سبيل ذلك ، لأن الأحنف بن قيس حكيمها الأكبر وصاحب الكلمة النافذة ، قال لها إن من يبدأ بطلب الحلف يكون له دائماً الشأن الأدنى فيه (٢) . لذلك سبقتهم ربيعة إلى ذلك ، فحالفوا الأزدي حلفاً أكدته العهود والمواثيق (الطبري ج ٢ ص ٤٥٠ ، ١٤٩٧) . ولما كانت تميم حليفة لأهل العالية ، أعني متحدة مع قيس ، فقد نشأ عن ذلك انقسام

(١) ويقابل أرباع الكوفة الخمس البصرة وغراسان وهي ١ - بكر ، ٢ - عبد القيس ، ٣ - تميم ، ٤ - الأزدي ، ٥ - أهل العالية (أهل المدينة) خصوصاً قيس - الطبري (ج ٢ ص ٤٦١ ص ٢١ ، ١٣٨٢) ، ومعنى الربع والخمس معروف ، لكنهما يستعملان كما نستعمل نحن كلمة : آخر أو القسم ، في تقسيم لا يتحتم أن يكون في الحقيقة رباعياً أو خماسياً ، ذلك أنه كان يلحق بالقبائل الكبرى التي تنسب إلى خمس طبقاتها ، أجزاء من قبائل أصغر ، مثل لحاق كندة وطى بقبائل بكر في البصرة .

(٢) [لما نزل الأزدي في البصرة قالت تميم للأحنف : بادر إلى هؤلاء قبل أن تسبقنا إليهم ربيعة ! فقال الأحنف : إن أتوكم فاقبلوهم ، وإلا فلا تأتوهم ، فإنكم إن أتيتوهم ، صرتم لهم أنبأماً . ولما سمعت ربيعة لمخالفة الأزدي ، قال الأحنف في ربيعة : أما إذ أتوهم فلن يزالوا لهم أنبأماً أذناباً - المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ٤٥٠] .

إلى قسمين ، فكان هناك الأزد (الذين) وحلفاؤهم من ربيعة في جانب ، وكانت مضرب (تميم وقيس) في الجانب الآخر . ولكن لا يصح أن يظن الإنسان أن جميع الأزد لم يهاجروا إلى البصرة إلا حوالى سنة ٦٠ هـ ، بل كان هناك أزد من قبل وكانوا هم وأزد الكوفة ينتمون إلى الفرع الغربي ، مخصوصاً إلى دوس ، وكان هذا الفرع يقطن جبال الصراة ، لكن لم يكن لهم كبير شأن حتى زادت قوتهم بفضل العدد الحديد الذى لحق بهم وكان أكبر منهم بكثير ، وهو قد جاء من عمان على الساحل الشرقى للجزيرة العرب . وكان أزد عمان ، خلافاً لأزد الصراة ، يسمون مزون ، ولكنهم كانوا يكرهون هذه التسمية لما كان يبدو فيها من إشارة إلى أصلهم المشترك ، فقد كان يقطن حُصْنان كثير من غير العرب ، وكانوا يُسَبِّحُونَ بصناعتهم القديمة ، وهى صيد السمك ، كما كان يُسَبِّحُ أزد غرب الجزيرة باشتغالهم بالحياكة .

وفى سنة ٣٨ أو ٣٩ هـ وَجَّه معاوية إلى البصرة باين الحضرمى لكى يؤتّب على حلى ، مستعيناً بتميم . ولا بد أن يكون قد أفلح أن يضم إليه شطراً كبيراً من تميم ، لأن زياد بن أبيه ، ذلك العاقل الشاب الذى كان إذ ذاك حليفاً لأمير البصرة ، طلب من بكر أن ينزلوه في جوارهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجمعوا كلمتهم ، فلجأ إلى أزد الصراة فوجد ركناً حصيناً لنفسه وليت المال عند رئيسهم صبرة بن شَيْسَمَانَ الحُدَافى (من دوس) ، ولكن حليفاً قام بمحاولات بواسطة أوليائه من تميم لكى يصرف تميم البصرة عن ابن الحضرمى ، فقتل أول رسول كلّفه بذلك ، لكن ورسوله الثانى ، وكان بجارية بن قدامة ، أصاب نجاحاً ، فتخالت تميم عن ابن الحضرمى ، وحاصره بجارية في دير سنبل وأحرقه هو وأتباعه . وقد حفظت لنا الأيام أحياناً في ذم تميم بسبب هذا الحادث الذى ظل حارّه لاحقاً بهم زماناً طويلاً (راجع رواية المدائنى عند الطبرى ج ١ ص ٣٤١٤ فما بعدها) .

وكان ذلك هو مبدأ المودة بين الأزد وبين زياد وأسرته ، وكان زياد يحفظ لهم الجميل دائماً (الطبرى ج ٢ ص ٨٠) ، وأوصى أبناءه بأن يلجأوا إليهم ، إذا ضاقت بهم ضائقة (الطبرى ج ٢ ص ٤٤٠) ، وكان الأزد في أصل الأمر عنصراً محايداً أمام التنافس بين تميم وبكر ، فكانوا الملك عنصراً من شأنه أن يكون ملائماً لاعتماد الحكومة عليه .

ولم يقع الانفجار الحقيقى فيما كان بين القبائل من سخائم إلا بعد هجرة أزد عمان إلى البصرة وإلا بعد موت يزيد بن معاوية ، وكان هذا الانفجار سبباً في زلزلة سيادة الأمويين في كل مكان . وأخبار ذلك مُفصلة تفصيلاً وافياً عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٣٣ فما بعدها) ، لكنها لا تخلو من تعقيد ، وما يعود على الباحث بالفائدة أن يحلّ العقد ويتبين الخطوط البسيطة ، ونخصوفاً أنه لا يكاد بدون ذلك أن يفهم كلمة يقال عن تلك الحوادث بما كان لها من حواقب شظيرة ولا أن يفهم كلمة عنها فهجاً صريحاً . وأكبر آرواة الطبرى في ذلك هو أبو عبيدة ، ذلك الجامع المكثر لأخبار القبائل العربية ، وروايته ، وإن لم تكن لدينا كاملة ، فإن من الممكن إكمالها بمساعدة رواية وهب بن جرير ، وهو يوافق أبا عبيدة في الجملة والجوهر :

عن أبي عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٣٥ س ١٧ وص ٤٣٦ س ١٥) (١) :
لما قتل عبيد الله بن زياد الحسين بن على وإخوته بعث برؤوسهم إلى يزيد بن معاوية ، فسُرّ بقتلهم أولاً وحسنت بذلك منزلة عبيد الله عنده ، ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى ندم على قتل الحسين ، فكان يقول : وما كان علىّ لو استملت الأذى وأنزلتُه معي في دارى وحكمتُه فيما يريد . حفظاً لرسول الله صلعم ورعاية لحقه وقرابته ، لعن الله ابنَ مرجانة ! ... قتله ، فبعضنى بقتله إلى

(١) وتقابل ذلك رواية وهب - الطبرى (ج ٢ ص ٤٣٣ س ١٢) .

المسلمين ، وزرع لي في قلوبهم العداوة ، فبغضني البر والفاجر . . . وكان
 عبيد الله مولى ، يُقال له أيوب بن حمران ، قد جعله في الشام رسولا لباتيه
 بأخبار يزيد . فلما كان ذات يوم جاء أيوب إلى البصرة مسرعا ، وأبلغ
 عبيد الله موت يزيد واختلاف أمر الناس في الشام ، فأمر عبيد الله بدهوة
 الناس إلى الاجتماع في المسجد ، فأعلن لهم النبا ، وعرض بثلب يزيد ، ثم
 تكلم عن أعماله هو في أثناء ولايته البصرة . فقال إنه لما تولى البصرة ، كان
 ديوان المقاتلة (من العرب) يشتمل على سبعين ألفا ، وكان ديوان العمال
 (من الموالي) يشتمل على تسعين ألفا ، أما الآن بعد ولايته فقد صار
 ديوان المقاتلة يشتمل على ثمانين ألفا ، وديوان العمال على مائة وخمسين ألفا .
 وقال إنه ما ترك صاحب ظننة يخاف منه على أهل البصرة — وكان يقصد
 الخوارج خاصة — إلا سجنه . ثم قال لأهل البصرة : « إن أمير المؤمنين
 يزيد بن معاوية قد توفي ، وقد اختلف أهل الشام ، وأنتم اليوم أكثر
 الناس عددا وأعرضة فينا وأوسع بلادا ، فاختاروا لأنفسكم رجلا ترضونه
 لدينكم وجماعتكم إنا أول راض من رضيتموه ، فإن اجتمع أهل
 الشام على رجل ترضونه دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك
 كنتم على جسد يلتقيكم ، حتى تعطوا حاجتكم ، فابكم إلى أحد من
 أهل البلدان حاجة ، وما يستغنى الناس عنكم » . وكان عبيد الله يقصد
 أن يرشح نفسه أميرا إلى أن يأتي أمير ، ذلك أنه بموت الخليفة انتهى
 واجب الطاعة للحكومة ، وهو واجب يلتزم بحكم البيعة لشخص الخليفة .
 فقام أهل البصرة خطباء ، وقالوا له : أبا الأمير ! إننا والله لا نعلم أحدا
 أقوى عليها منك ، فهلم نبأبعك ! فامنع عبيد الله مرارا ، فالحوا
 عليه ، حتى بسط يده وباعوه ، ثم انصرفوا . فلما خرجوا من
 عنده جعلوا يمسحون أكفهم بالباب والحيطان وهم يقولون : « يظن ابن
 مرجانة أننا نوليه وننقاد له في الفرقة » ، كذب والله ! ثم صاروا يأمرهم

ببالأمر فلا يطيعون ويرى الرأي فيردونه عليه ، وبأمر رجاله بحبس المذنب فيحولون بين رجاله وبين هذا المذنب ، ولم يلبثوا أن نبذوا كل طاعة له ووثبوا عليه^(١) ، عن أبي عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٣٧ س ١٥) : كان الذى أعطى الإشارة للثورة هو سكتة بن ذؤيب التميمي ؛ فقد ظهر في سوق الإبل على فرسه ، وقد تقنّع بسلاح ، وفي يده لواء ، وهو يدعو الناس لمبايعة العائل بمكة ، يعنى عبد الله بن الزبير^(٢) . فعند ذلك جمع عبيد الله أهل البصرة في المنسجفة وأنشأ يقص عليهم أول أمره وأمرهم ويقول إنه قد كان دعاهم إلى اختيار أمير يرضونه : فبايعة معهم ، وإنهم رغم ذلك أبوا إلا أن يبايعوه هو . ثم قال لهم : إنكم مسحتم أكفكم بالحيطان وباب الدار وقتلتم ما قتلتم ، وإني أمر بالأمر فلا يتنقل ، ويرد على رأي ، وتحول القبائل بين أهواي وبين طليستى ، ثم هذا سكتة بن ذؤيب يدعو إلى الخلف عليكم لإرادة أن يفرق جماعتكم ويضرب بعضكم بجيئة بعض بالسيف . فقال الأحنف بن قيس بن تميم والناس جميعاً : نحن نأتيك بسكتة ، فأثروا سكتة ، فإذا اجتمعوا قد كثف وكثف وإذا الفتى قد اتسع على الراقى ، وامتنع عليهم ، فلما رأوا ذلك فعلوا عن عبيد الله بن زياد فلم يأتوه .

عن أبي عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٣٩ س ٢٠) : كان عبيد الله في

(١) استطاع عبيد الله في أول الأمر أن يكسب المحبة بأن أمر عماله أن يدرقوا ما في بيت المال في القبائل والمقاتلة ليل نهار - وكان ذلك المال بحسب الطبرى (ج ٢ ص ٤٢٩) ثمانية آلاف ألف درهم أو تسعة عشر ألف ألف (قارن ج ٢ ص ٤٤٣) ، وكان للقبائل والمقاتلة الحق في مال الفء الذى أخذته الحكومة وجمعه بعد ما صرف منه من أعطيات ، ولكنه بعد أن عصوه كثف عن ذلك . ولما هرب أخذ معه ما تبقى في بيت المال ، وكانت الخنافس ذلك لا تزال تردد في آل بيته - أبو عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٣٩ س ١٠ فما بعده) .

(٢) يدعى برونوف (Brünnow) من عند نفسه أن سلعة كان ميموث ابن الزبير ، كما يدعى . مولر أنه غليظة . أما الروايات فلا تعرف عن ذلك شيئاً ، فلا يصح أن يخترعه المؤرخ ، ذلك أنه كان من اليهودى أن تنجب أنظار المعارضين لبني أمية إلى ابن الزبير . هذا إلى أنه ليس من شأن من يريد أن يدعو الناس إلى مبايعة غليظة أن يظهر في السوق على فرس ومعه لواء -

قارن الطبرى ج ٢ ص ٤٥٢ س ١٥ ص ٤٦٥ س ٢ .

(٣) تقابل ذلك رواية وهب - الطبرى ج ٢ ص ٤٤١ س ٢٠ .

(٢٥ - للدولة العربية)

موقف سيئ ، حتى إنه دعا رجال الشرطة (١) ، فأرادهم أن يقاتلوا معه ، فقالوا : إن أمرنا قوادنا . فقال له إخوانه : والله ما من خليفة فتقاتل عنه ، فإن هُزِمْتَ فبُتَ إليه وإن استمددته أمدك ! وقد علمت أن الحرب دُول ، فلا تدرى لعلها تدول عليك ، وقد اتخذنا بين أظهر هؤلاء القوم أموالاً ، فإن ظفروا أهلكونا وامتلكوها ، فلم تبق لك باقية . وقال له أخوه عبد الله لأبيه وأمه مرجانة : والله لئن قاتلت القوم لأعتمدن على ظبئة السيف ، حتى يخرج من صلي ، فلما رأى ذلك جبيد الله قرر - كما فعل أبوه من قبل ، وكما أوصاه أيضاً - أن يلتجئ إلى الأزدي ، طلباً لحايتهم من ثورة عجم . فلما جاء الليل خرج بخزائنه وذهب مع الحارث بن قيس إلى مسعود بن عمرو العتكي ، رئيس الأزدي ، وذهب معه جميع إخوانه (٢) ، ولم يمسر على الخروج نهاراً مخافة أن يقتل ، وكان في الليل معرضاً لأن تصيبه سهام الحراس الذين كانوا يخرجون لمطاردة الخوارج : وقد عرفه رجل ، فرماه بسهم وقع في كور حمامته حتى إذا وصل بسلام إلى مسعود ارتاع مسعود وقال للحارث : كان يستعوذ من سوء طوارق الليل ، فنعوذ بالله من شر ما طرقتنا به . وذلك أن مسعوداً لم يشأ أن يمادى جميع أهل البصرة من أجل جبيد الله ، وخصوصاً أن الأزدي كانوا قد أبطلوا من قبل في حماية زياد فلم يكافأوا على ذلك وأن مسعوداً وقومه كانوا قد بايعوا لابن الزبير ، فشهد الحارث من روجه وأفهمه أن إجارته لعبيد الله لا تتعارض مع البيعة التي بايعها وأن كل ما يُراد منه هو أن يسبغ عبيد الله بن زياد مكاناً آمناً بخارج البصرة (٣) .

(١) يسعون عند الطبري البخارية . (قارن أيضاً ص ٤١٤ ومخصوصاً البلاذري ص ٢٤١) ، ولا يسعون خاصة السلطان ، أهو جند الحكومة خاصة في مقابل المقاتلة .
(٢) عتيك أنه بطون أزدي عمان ، وكان مواطنهم القديم في دُها ، ومنهم أيضاً المهاجد ابن أبي صفرة .
(٣) رواية أخرى لابن عبيدة - الطبري ج ٢ ص ٤٤٥ س ٧ ، أما بحسب رواية وهب فإن مسعوداً أظهر استعداده على القور - الطبري ج ٢ ص ٤٤١ س ١٠ .

عن أبي حبيدة (الطبري ج ٢ ص ٤٤٦ س ٣)^(١) : لما هرب عبيد الله ابن زياد أصبح أهل البصرة بغير أمير ، واختلفوا فيمن يأمرهم عليهم ، ثم ارتضوا قيس بن الهيثم السلمي وثمان بن سفيان الراسبي لكي يختارا أميراً يرضيانه لهم ، وتم اختيار رجل له قرابة بالنبي عليه السلام وبمعاوية ، وهو عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وأمه هند بنت أبي سفيان ، وكان يلقب بسبّة ، ودخل بسبّة القصر في أول جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ .

عن أبي حبيدة (الطبري ج ٢ ص ٤٤٧ س ١٢ وص ٤٤٩ س ٢٠) :
وحدث بعد ذلك أن وفد على بسبّة رجل من ولد عبد الله بن عامر القرشي آنياً برسالة من عبد الله بن خازم فيها يبعثه ، وجلس القرشي في حلقة بالمسجد فيها مالك ابن ميسم . وحدث أن قام نزاع ، فأغلظ القرشي لمالك بن مسمع فقام رجل من بني بكر بن وائل ولطم القرشي . وهاج من كان هناك من مضر وربيعة ، وكادت تقع حرب حقيقية ، لولا تدخل مالك بن مسمع . ثم وقع أن رجلاً من بني يشكر كان جالساً مع رجل من بني ضبّة في المسجد ، فتذكر لطمة البكري للقرشي ، ففخر بها اليشكري وقال للضبي : « ذهبت طليقاً » ، يقصد أن القرشي احتمل اللطمه دون أن يثور لكرامته . فعند ذلك غضب الرجل الضبي ، وقام إلى اليشكري فوجأ عنقه ، ووقد الناس ذلك اليشكري فحُمِل إلى أهله ميتاً ، وعند ذلك ثارت بكر كلها وذهبت لمحاربة نعيم ، وكان على رأسهم مالك بن مسمع رئيسهم القديم ، لأن أشيم بن شقيق رئيسهم الجديد لم يشأ أن يقودهم إلا بعد أن يرسل إلى نعيم رسولا^(٢) ، واستخفت بكر مالك بن مسمع ، فتخفت ، ولكنه قبل أن يهاجم نعيم طلب إلى الأزدي أن يجددوا

(١) رواية وهب عند الطبري ج ٢ ص ٤٤٤ س ٦ و س ١٧ .

(٢) ويتجل نفس التنافس والخلاف بين القواد فيما يحكيه الطبري ج ٢ ص ٤٤١ -

قارن ج ٢ ص ٤٤٨ - أما بحسب ص ٤٥٥ س ٥ فابعدا فإن أشيم ، لا مالكا ، كان هو القائد .

الحلف الذى كان عقد قديماً بين الأزد وبكر^(١) وبلغ عبدة الله ، وهو فى بيت مسعود بن عمرو ، ما حدث من تباعد بين بكر وتميم ، فأعان مالك ابن مسعم بأموال جزيلة ، حتى أمكن التغلب على قوم كانوا معارضين فى تجديد الحلف . ولم يرض الأزد بأن يسيروا إلا أن يكون الرئيس منهم ، فرضيت بكر بأن يتولى الرياسة مسعود بن عمرو الأزدي ، فقال مسعود لعبيد الله بن زياد : سير متعناً حتى نعيدك إلى الدار ! — يقصد قصر الإمارة ، فأبى وأمر برواحله فشددت عليها أدواتها وأعدت متاعه وتأهب للاستفر ، ولكن الأزد انقضوا له كرسياً على باب مسعود ، فقعده عليه ، وبعث غلماناً له على خيل مع مسعود ليأتوه بما يحدث خيراً كان أو شراً ، وانتهى مسعود إلى المسجد فدخله وصعد المنبر وأبى ببه أن يتعرض له . ولما لم يتحمل أحد بين مسعود وبين صعود المنبر خرج مالك بن مسعم فأحرق دور قوم من بنى العدوية ، فبينما هو فى ذلك إذ أتاه من أهله قتيل مسعود .

عن أبي عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٢ س ٦) : جاء بنو تميم إلى الأحنف حكيهم ورئيسهم فقالوا له إن ربيعة والأزد قد دخلوا المسجد ، فقال لهم : لستم بأحق بالمسجد منهم ، ثم أتوه بعد هنية ، فقالوا : قد دخل القصر فقال : لستم بأحق بالقصر منهم . كل ذلك ، والأحنف هادئ ، فعند ذلك قام سلمة ابن ذؤيب ونادى : إلى يا معشر تميم ! فلانما هذا جيس لا خير لكم عنده ، يقصد الأحنف . وهدرت ذؤيبان بنى تميم ، وانتدب مع سلمة خمسمائة ، وانضم إليهم أربعمائة من الموالي (كانوا من الأساورة) على رأسهم ماه أفريدون ، ثم تناهت الأخبار السيئة ، وعند ذلك ارتأى الأحنف ضرورة استعمال السيف

(١) أوردت إحدى الرئيقتين عند الصلت بن حريث الحنفي (الطبرى ج ٢ ص ٤٤٩ : ص ١٧ — قارن التكميل ص ٦٢٧ س ١٠) .

فسأل عن حبيد بن حصين ، فلم يجده ، فسأل عن حبس بن طلق الصريمي فوجده ، فحلّ عمامته وعقدها في رمح ، وسلم هذا اللواء لعيس بن طلق ، وعند ذلك صباح الناس : « هاجت زيرا » ، ويرا هذه كانت أمة للأحنف ، وإنما كنّوا بها منه . ولما سار حبس بن طلق جاء حبيد بن حصين في سبيل فارساً . وسأل عن القائد الذي خرج على رأس القوم ، فلما عرف أنه حبس ابن طلق قفل راجعاً إلى أهله ، لأنه لم يرض أن يحارب تحت لواء حبس .

عن إسحاق بن سويد (الطبري ج ٢ ص ٤٥٤ س ٦) (١) : وأبلى ماه أفريدون وقومه أحسن البلاء في القتال إلى جانب تميم ، وكان كل واحد منهم يرى خمس نشابات في رمية ، فلم تثبت بكر أمام هذا الوابل من السهام . ودخلت تميم المسجد وأنزلت مسعوداً من على المنبر وقتلته . وبادر أشيم بن شقيق من بكر هاربا ، وكان هذا في أول شوال سنة ٦٤ هـ ويذكر أبو عبيدة (الطبري ج ٢ ص ٤٥٥ س ١٦) أن فرار حبيد الله كان في هذا التاريخ نفسه ، لأنه يرى أن حبيد الله هرب إلى الشام بعد مقتل مسعود (الطبري ج ٢ ص ٤٣٩ س ١٠) .

عن أبي عبيدة (الكامل ص ٨١) (٢) . قام بالثأر لمقتل مسعود أخوه زياد بن عمرو العنكي ، وكان لا يزال غلاماً حدثاً ، فدخل المريد في اليوم التالي وجمع جيشاً وجعل بكرأ على ميمنته وعبد القيس على الميسرة والأزد في القلب .

(١) أخفل الطبري رواية أبي عبيدة للاشتباك بين الفرزدق بن عمرو بن عبد شمس (ص ٤٥٥ س ٩) سوى ما قاله الحسن البصري متبكاً مسعود من أنه يدعو الناس إلى السنة ويهني عن الفتنة ، فقد قال له الحسن : « ألا إن من السنة أن تأخذ فوق يدك » وسوى ما روى عن أن القوم لم يلبثوا أن أنزلوا مسعوداً من على المنبر وقتلوه . وإسحاق بن سويد يملأ الفجوة ، وهو بالجملة (وأيضاً في التواريخ) يتابع أبا عبيدة ويختلف عنه في تفاصيل صغيرة ، فعنده مثلاً أن القائد لم يكن مالكاً ، بل أشيم .

(٢) وهذه القطعة الأخيرة من رواية أبي عبيدة غير موجودة أيضاً عند الطبري ، وهو يذكر مكانها رواية أخرى لمؤلف (ص ٤٦١ س ١٨) .

وزنم الأحنف نجماً وأعد جيشاً ، فووقت بجذاء الأزد سعداً ورباب ، وعلى رأسهم سعد بن طلق الصريمي . ووقفت بمحمداء بكر بنو حنظلة ، وعلى رأسهم حارثة بن بدر . ووقفت أمام عبد القيس بنو عمرو بن تميم . ولكن لم يقع قتال ، وذلك أنهم لما تواقفوا بعث الأحنف إلى الأزد وربيعة يقول لهم : « يا معشر الأزد وربيعة من أهل البصرة ! أنتم والله أحب إلينا من تميم الكوفة ، وأنتم خيرنا في الدار ويدنا على العدو ، وأنتم بدأتمونا بالأمس ووطئتم حريمنا وحرقتم علينا ، فدفعنا عن أنفسنا . ولا حاجة لنا في الشر ما أصبنا في الخير مسلماً ، فتيحموا بنا طريقاً قاصدة ! فوجهه إليه زياد بن عمرو : تَخَيَّرْ خلةً من ثلاث ، إن شئتَ فانزلْ أنت وقومك على حكتنا ، وإن شئتَ فخلْ لنا عن البصرة وأرحلْ أنت وقومك إلى حيث شئتم ، وإلا فَنَدُّوا قتلانا وأهدروا دماءكم ، ولَيُؤَدَّ مسعودٌ دية المعشرة ، يقصد أن تُدْفَعَ له حَشْرُ ديات ، شأن من كان يودي من ملوك الجاهلية . فبعث إليه الأحنف : سنختار ، فانصرفوا في يومكم هذا ! فهز القوم رأيتهم وانصرفوا ، فلما كان الغدُ بعث الأحنف إليهم : إنكم خيَّرتُمونا خللاً ، ليس فيها خيار : أما النزول على حكمكم ، فكيف يكون ، والكتلُ يقطر دماً ! وأما ترك ديارنا فهو أخو القتل ، قال الله عز وجل : « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اقْتُلُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ » ، ولكن الثالثة إنما هي حَمَلٌ على المال ، فنحن نُبْطِلُ دماءنا ونُدِي قتلاكم ، وإنما مسعود رجلٌ من المسلمين ، وقد أذهب الله أمرَ الجاهلية . فاجتمع القوم على أن يقفوا أمر مسعود ويُسَمِّدَ السيف ويؤدى سائرُ القتلى من الأزد وربيعة ، فتَضَمَّنَ ذلك الأحنفُ ، ودُفِعَ لإياس بن قتادة الجاشعري رهينة ، وقد أعطى يديه مختاراً ، وتشهد بذلك أبيات الفرزدق . وقد نهض الأحنف ، على عادته ، في هذه المناسبة بأهم واجبات السيد العربي ، وهو حفظ السلام^(١) ، على نحو نادر المثال . وإلى جانبه اشتهر لإياس بن قتادة ، أحد أثرياء

(١) قد بولغ في بيان فضل الأحنف على كل حال ، ويحكى المدائني (الطبري ج ٢ ص ٦٥ ، ص ٦٥) أن اثنين كانا هما اللذين توسطاً في الصلح .

تميم ، شهرة كبيرة ، لأنه احتمل الشطر الأكبر من الدبابات (أنساب
الإشراف ص ١٨٧) .

ويمكن تصحيح رواية أبي عبيدة في بعض النقط بالاستعانة بقطع من
روايات لرواة آخرين ، لم يكن هروب عبيد الله بعد مقتل مسعود في شوال
سنة ٦٤ هـ (الطبري ج ٢ ص ٤٥٥ س ١٨) ، بل الذي يؤخذ من أبيات
طلهيم بن الأسود (الطبري ج ٢ ص ٤٦٣ س ٥) هو أن مسعوداً بنفسه
مكثته من الخروج إلى الشام . وهذا ما يقوله أيضاً وهب بن جرير (الطبري
ج ٢ ص ٤٥٦) . وكذلك يروى عوانة (ص ٤٦١) أن عبيد الله ذهب
إلى الشام في منتصف جمادى الثانية أى بعد موت يزيد بتسعين يوماً . وهى
هنا فلم يكن عبيد الله أمام الحوادث الدامية يقف متفرجاً صامتاً ، بل هو
لم يكن حاضراً على الإطلاق ، ولم يقع في أثناء حضوره الاختيار للأمير ،
لأن من العسير أن يكون قد تم الاتفاق على ذلك في مثل تلك الفترة
للانفصارة ، بل وقع اختيار الأمير نتيجة لعقد السلام بين القبائل بعد انقسامها
انقساماً أئذ بالخطر . وهذا ما يقوله عوانة (الطبري ج ٢ ص ٤٦٣) :
بعد قتل مسعود وحسبم النزاع اجتمع أهل البصرة على أن يجعلوا عليهم
أميراً يصلى بهم ، حتى يجتمع الناس على إمام ، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله
ابن حامر أميراً ثم أمروا بسبّة إلى أن حسين ابن الزبير عليهم والياً بعد ثلاثة
أشهر ، وهذا هو الذى يفسر لنا ما جاء في رواية أبي عبيدة من أن بسبّة
الترم السكوت العام ، لما دخل الأزدي المسجد والقصر ، وما ذلك إلا لأنه
لم يكن بعد قد صار أميراً .

ويروى عوانة فوق ذلك (ص ٤٦١) أن عبيد الله بن زياد ، لما هرب ،
استخلف مسعوداً على البصرة . ومهما يكن من شيء فإن ما فعله مسعود قد وقع
أثناء الفترة التي كان فيها خليفة لعبيد الله ، بعد أن كان هذا قد هرب . فأراد أن
يقتصب منصب الإمارة الخالي (ص ٤٥٦ س ١٦) ، فلم يخرج لقتال تميم ، بل

دخول المسجد والقصر ، وأخذ على سبيل التعبير الظاهر عن ذلك مكان الأمير على المنبر ، وهو من على المنبر قد أنزل . وكانت تميم قد أخرجت عبيد الله ، فلم تشأ الأزدي أن تترك الأمر في أيدي تميم ، بل شامت أن تستسبق تميمًا وتأخذ الأمر من يدها ، ووقع القتال حول ذلك . ويتجلى من هذا أيضاً أن مسعوداً إنما تدخل من نفسه ولمصلحته الشخصية ، وأنه لم ينتظر حتى تدفعه ربيعة إلى ذلك . فأما حكاية الصفعة فهي مسألة لائوية تماماً .

ويتجلى الوضع المعنوي الإجمالي من رواية حوالة تجلياً واضحاً : فشأت محاولة قبيلة ورئيس لها ، يجوز أنه كان مقتوضاً من قبيل الأمير الهارب ، في الوصول إلى الإمارة وتعطّمت تماماً بسبب معارضة قبيلة أخرى منافسة لها ، ذلك أن الإمارة لم تكن ممكنة إلا في قريش ، لأنها كانت تقف خارج ما بين القبائل من نزاع وتنافس . ويخطئ حوالة (ص ٤٦١) في روايته : إذ يقول : إن رجلاً من عصابة الخوارج الذين انضموا إلى تميم كان هو الذي قتل مسعوداً . أما عند غيره من الرواة فالذين فعلوا ذلك هم الفرس تحت قيادة ماه أبريدون ، أو هم الأساورة على وجه التدقيق (ص ٤٦٥) ، وكانوا قد انضموا إلى تميم منذ زمان طويل . أما الخوارج فكانوا العدو المشترك لجميع قبائل البصرة ، وهذا الخطر المنتظر من جانب الخوارج هو أكبر ما دعا قبائل البصرة إلى الكف عن السير في طريق الخصام وإلى الاتفاق على أمير : وقد اضطّر الأمير الذي اختاروه إلى التنازل عن الإمارة ، لأنه لم يحقق الغرض الذي اختير من أجله ولم يجد في مقاتلة الخوارج ، ورواية المدائني حاسمة في هذه المسألة (ص ٤٦٥) فهو يقول : إن الأزدي هم الذين زعموا أن الأزارقة قتلوا مسعوداً ، لأن الأزدي أرادوا أن يمحوا عن أنفسهم حاراً أن تكون تميم قتل أميرهم وأن يكونوا قد درءوا عن أنفسهم متاعب الأخذ بثأره بقبولهم الدية . وما يلاحظه حوالة (ص ٤٦١ س ١٠) من أن الخوارج الذين قتلوا مسعوداً كانوا يقطنون عند نهر الأساورة يتم عن عدم اطمئنانه إلى ما يقول .

٢ - وهذا نشأت العداوة بين الأزد وتميم واليمن ومضر من حادثة معينة يمكن تحديد تاريخها ، كما يتجلى من الحكاية المقدمة التي لها من أجل ذلك أهميتها . ولم يقض الصلح على التوتر الذي كان موجوداً وكاد أن ينفجر بعد ذلك بعامين ، عندما شرع المختار الثقفي في ثورته بالبصرة (الطبرى ج ٢ ص ٦٨٠ فما بعدها) . على أن هذا الخصام قد تحول إلى تسابق في محاربة الخوارج ، هذه المحاربة التي كان لها أثر الدواء لما كان هناك من خصام . ولم تشأ تميم أن تتخلف وراء الأزد للذين كان يقودهم المهلب بن أبي صفرة ، على أنه إذا كان العداء بين القبائل قد خفت حدته في البصرة ، فإنه أخذ في خراسان صورة أشد خطراً ، وكان ما بين القبائل من عداء قد انتقل من البصرة إلى خراسان ، لأن فتح خراسان كان من جهة البصرة ، وكان حرب خراسان من أهل العراق ، وكان أغلبهم بصريين وكانوا مُقَسِّمين عسكرياً إلى خمسة أقسام ، كما كان الحال في البصرة . وكان والى خراسان في العادة تابعاً لأمر العراق ، رغم أن الخليفة كان في كثير من الأحيان هو الذي يعينه وكان في بعض الأحيان تابعاً للخليفة مباشرة .

وكانت خراسان بمثابة ذلك الركن من أركان الدولة الذي لا تزال القلاقل تحدث فيه ، وكان لما يقع فيه من أحداث أثر على قلب الدولة أكثر مما كان لإفريقية أو الأندلس مثلاً . ولم يندم في خراسان سلام قط ، ولا كانت لها حدود ثابتة . وكان العرب هناك في صراع دائم مع الفرس والترك ، ولكنهم فوق ذلك كانوا يفتنمون فترات الهدوء في إقناء بعضهم بعضاً . ومع أنهم كانوا معرضين للأخطار فإن طريقتهم في الحياة كانت غير سياسية وشبيهة تمام الشبه بما كانت عليه في وطنهم القديم . وبالرغم من أنهم لم يذهبوا إلى خراسان من تلقاء أنفسهم فإنهم كانوا يشعرون بالارتياح إلى أرضهم الجديدة وإلى سعة أرجائها ، لأنها صراوية من وجوه شتى . وقد كان يهددهم الخطر من الخارج ، لكن ذلك لم يجمع كلمتهم : بل هو هبَّ سبَّجهم وجعلهم أكثر خشونة وأشد غلظة . وكان الإسلام

أيضاً سبباً جديداً من أسباب الثورة والهياج (١) . فأصبحت خراسان أشبه
شئءً بجزيرة عرب ثانية مع فرق ، هو أن جزيرة العرب الجديدة هذه كانت
في أرض الأعداء وأن ظروفها كانت أكثر تعقيداً وأحداثها أوسع نطاقاً
وأنها كانت تسمح للنزعات القوضوية بالظهور على نحو بعيد عن الاكتراث
وعن التقيد بالقيود .

وروايات المدافئ ، وهو الراوية الذي لا يكاد الطبرى فيما يتعلق بحوادث
خراسان يعتمد إلا عليه تُذكرُ الإنسان إلى حد ما بحكايات الأبطال في
العصر الجاهلى ، كما هى معروفة من كتاب الأغاني . وفى كثير من الأحيان
لا يبعد الإنسان سوى مجموعة روايات مفككة تتضمن أخبار القبائل ، أو عبارة
أخرى ، مجموعة من « أيام » العرب (الطبرى ج ٢ ص ١٥١٦ س ١٦) ،
يغلب عليها الاهتمامُ بذكر ما يتعلق بالبطولة والأبطال وذكر ما يدور حول
غزوات النّب والسلب . وكان عرب خراسان ، وخصوصاً تميم ، يعتزّون
بالتمسك بقوميتهم فضموا فى الشرق الأقصى من الدولة العربية على حياتهم
القبلية القديمة وعلى تغنيهم القديم وفخرهم بما يفعلون وبه يشعرون . ولكن
كان يُعزّز ذلك تلك الصبغة الواقعة المتزنة العميقة التى تصطبغ بها الآثار
الباقية للعروبة الأصيلة القديمة .

وكان فتح إيران من جهة البصرة تحت إمرة عبد الله بن عامر الأموى
فى عهد عثمان . وكان ذلك الفتح عبارةً عن سلسلة من الحملات ، وُجّهت إلى
نواح مختلفة فى وقت واحد . ولم يتمّ الفتح دفعة واحدة فى سنة واحدة ، وكثيراً
ما كانت تعقد معاهدات صلح بمقتضاها يحتفظ مَرَاذِبَةُ الفرس بمركزهم القديم
فى صورة مُعَدَّلة ومقيّدة بعض الشئ . وإلى جانب الحملات الكبرى التى
وُجّهت تحت إمرة قواد تعيّنهم الدولة ، وهى الحملات التى أوقعت الضربات

(١) [يقصد المؤلف ، كما قد تبين من مواضع كثيرة من كتابه وكما سيّتين فيما يلى ، أن
الدولة لم تعمل بمبادئ الإسلام الاجتماعية والاقتصادية ، فدعا ذلك إلى الثورة عليها من جانب
أهل الديانة ومن جانب المظلومين . وثورة خراسان التى أسقطت الدولة كانت باسم الدين وباسم
المساواة التى جاء بها - المترجم] .

الأولى بالفرس ، كانت هناك غزوات صغرى قام بها أهل القبائل من أجل أنفسهم . لا باسم أحد ، وذلك لكي يستقرّوا أبناً أمكنهم . وفي غرب إيران ، وفيها كانت تقع العاصمة ، وهي مدينة أبرشهر (نيسابور) كانت قيس هي الغالبة ، خصوصاً في العصر الأخير (الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٩) ، أما في الشرق فقد كانت أرض بكر وأرض تميم متداخلتين : وكانت هاتان القبيلتان تتنازعا على بعض الأماكن ، تدعى كل منهما أنها هي التي احتلتها قبل الأخرى . وهما لم تكونا تتنافسان في خراسان وحدها ، بل في سجستان أيضاً . وهاتان الولايتان المتجاورتان متصلتان ، رغم أن كلاهما في كثير من الأحيان كان يديرها وال على حدة . وبعد أن كان الشأن الأكبر في أول الأمر لسجستان انتقل إلى خراسان . وكانت زرنج هي عاصمة سجستان ، كما كانت مرو عاصمة خراسان .

وكان قواد جيوش الفتح بحسب العادة القديمة يكافأون بأن تُسند إليهم إدارة الجهات التي يسعدهم الحظ بالتغلب عليها . وقد لعب الأحنف في ذلك العهد دوراً رائعاً من الناحية العسكرية أيضاً ، ولكنه لم يبق في ولاية البلاد التي فتحها مدة طويلة . ولعله ، بحكم أنه كان سيد تميم في البصرة ، قد أحس أنه أكبر من ذلك وكان أقدم أمراء خراسان (أو أجزاء منها) الذين يحدثنا عنهم التاريخ هما قيس بن الهيثم وعبد الله بن خازم ، وكلاهما من سليم إحدى قبائل قيس . وكان للاضطرابات التي أعقبت مقتل عثمان جداهما في أقصى المشرق من الدولة العربية ، فقد استطاع ماهويه ، مرزبان مرو - وكان هو الذى خان آخر شاهان شاه في فارس - أن يحصل من على بن أبى طالب على الموافقة على أن يؤدّى الدهاقنة والامساورة والدهشلازين إليه الجزية . ولكنه رغم هذا التساهل لم يحافظ على احترام سيادة على^(١) . أما كيف أعيد سلطان الدولة

(١) وفي نفس الوقت استولى الحبطات من العرب ، وقد ظهوروا بظهر المائتين إلى عثمان (أى بظهر الحياذ) على عاصمة سجستان ولم يخضعهم إلا الحصين بن مالك ، قائد على ، بعد عامين ، وعلى اسم هذا القائد سمي مولاة المشهور فيروز حصين [البلاذرى (ص ٣٩٢ - ٣٩٦ . المترجم]

العربية في شرق الدولة بعد مقتل حُمان فهذا ما لا نعرفه (قارن البلاذري ص ٤٠٩) . وفي عهد معاوية عُبَيْن قيس بن الهيثم والياً ، ثم عُبَيْن بعده مُتَنَفِسُهُ عبدُ الله بن خازم^(١) . ولما جاء زياد بن أبيه إلى البصرة والياً عليها (في سنة ٤٥ هـ) ضُمَّت إليه ولاية خراسان وسجستان ، فصار هو للذي يعيّن العمال عليهما فقسّم خراسان إلى أربعة أقسام مستقلة : مرو ، أبرشهر (نيسابور) ، مرو الروذ (ومعها فارياپ والطالقان) ، هراة (ومعها باذغيس وقادس وبوشنج) ؛ ولكنه جمعها في سنة ٤٧ هـ تحت إمرة الحكم بن عمرو الغفاري الذي توفي سنة ٥٠ هـ . فجاء بعده الربيعُ بن زياد الحارثي ، وكان آدمَ أصهب أفنوه ، وهو الذي فتح سجستان وأرغم المرازبة على طلب الصلح ، فاستقبلهم في ميدان القتال حيث جلس هو ومن معه من العرب على أجساد القتلى هادئين^(٢) . وكان الربيع مسلماً صالحاً ، ويقال إنه اغتم كثيراً لمقتل حُجْر بن عدى . وفي تلك الأيام كان قد هاجر إلى خراسان خمسة وعشرون ألفاً من أهل البصرة ، ومثلهم من أهل الكوفة ؛ ولعلهم لم يكونوا أهدأ الروؤس . وبعد موت زياد (سنة ٥٣ هـ) جاءت فترة في أثنائها بدا كأنما قد أصبح شرق الدولة العربية ضبيعة يستغلها أبناؤه . ففي أواخر أيام معاوية وفي عهد ابنه يزيد كان على خراسان عبد الله بن زياد ، ثم جاء بعده ، بعد فترة انقطاع ، عبد الرحمن بن زياد ، وأخيراً جاء سلم بن زياد . أما في سجستان فكان هناك عبّاد بن زياد ويزيد بن زياد . وكانوا جميعاً شباناً ، ولكن كان للذين يقومون بتدبير شئون تلك البلاد القواد والعمال القدماء الخبيرون بأحوالها ، أمثال قيس بن الهيثم السلمي وأسلم بن زروحة .

(١) خلافاً لما يقوله البلاذري ، ص ٤٠٨ ، قارن الطبري ج ٢ ص ٦٥ فابعدهما .

(٢) [كان الربيع بن زياد أول من شرب من نهر بلخ وأول من صلى وراءه ؛ أما ما يقوله المؤلف عن جلوسه على جثث القتلى فليس موجوداً عند الطبري ولكنه موجود عند البلاذري . ص ٣٩٤ - ولا شك أن ذلك كان يقصد إرهاب الأعداء - المترجم] .

الكلافي وغيرهما ، وكان بعضهم يتربص ببعض ولا يكف عنه الأذى ،
إذا كانت القوة في يده ،

ولما مات يزيد بن معاوية بدأت في خراسان أيضاً المنازعات القبلية ،
ووثب زنبيل كابل وهزم يزيد بن زياد وإلى سجستان ، وأسر أخاه
أبا حبيدة . وعند ذلك حلّ طلحة الطلحات ، ذلك الخراصي الثرى ،
على يزيد ، فصالح الزنبيل وافتنى أبا حبيدة من الأسر بمال كثير . ولكنه
لم يلبث أن مات ، وجاء بعده وال من قبيلة بكر ، كان قد استخلفه ، فلم
تخضع له نعيم ، بل طرده . وعلى أثر ذلك انفجر العداء بين مضر وربيعه ،
وجنى الزنبيل ثمرة ذلك (ابن الأثير ج ٤ ص ٣٨٤ والبلاذرى ص ٩٧) .
وكان لذلك أثره في خراسان . وأراد سلم بن زياد ، وكان والياً هناك ، أن
يكنم عن الناس موت الخليفة وما أصاب إخوته أبناء زياد (في سجستان
والبصرة) ، حتى إذا لم يمكن كنم الأمور دعا سكتهم الناس إلى أن يبايعوه ،
على أن يقوم بتدبير الأمور إلى أن يجتمع الناس على خليفة ، فبايعوه . غير
أنهم سرعان ما نكثوا به فاقتفى هارباً ، وخلف على مرو المهلب بن أبي
صفرة الأزدي ، وكان سلم قد حاد بالمهلب معه من البصرة . ولكن بعض
رؤساء القبائل العربية لم يرضوا عن ذلك فولى سلم سليمان بن مرثد البكري
على مرو الروذ والفارياب والطالقان والحوزجان وولى أوس بن ثعلبة بن زفر ،
وهو من بكر أيضاً ، على هراة ، حتى إذا صار سلم بنيسابور وثق عبد الله
ابن خازم السلمي سأل عبد الله : من وليت على خراسان ؟ فأخبره ، فلامه
قائلاً : « أما وجدت في مضر رجلاً تستعمله حتى فرقت خراسان بين بكر
ابن وائل ومزون عمان ! » وطلب عبد الله من سلم أن يكتب له عهداً على
خراسان ، فتمعجب سلم قائلاً : أوتى أنا خراسان ! قال : اكتب لي عهداً ،
وخلاك ذم ! وكتب سلم العهد لعبد الله ، وأعطاه فوق هذا مائة ألف درهم طلبها
منه . فخرج المهلب من مرو ، لأنه لم تكن له قبيلة تؤيده ، وذلك أن الأزدي

لم يكونوا كثيرين بخراسان ، واستخلف رجلاً من بني جشم بن سعد ابن زيد بن مناة بن تميم ، أراد هذا أن يمنع ابن خازم لما أقبل على مرو ، فكانت بينهما مناوشة أصيب فيها التميمي ثم نجا جز الفريقان ، ودخل عبد الله مرو الروذ ، ومات التميمي بعد ذلك بيومين (الطبري ج ٢ ص ٤٨٨ - ٤٩٠) .

وقد وقعت تميم إلى جانب ابن خازم بوجه عام ، وإن كان لا ينتمى إليهم بل إلى مضر ، وكان معادياً لبكر^(١) وهو بمحنة تميم بدأ يحارب بكراً . وقد خرج أولاً من مرو إلى مرو الروذ ، وحارب سليمان بن مرثد فقتله ، وتوجه بعد ذلك إلى محاربة أخيه عمرو بن مرثد في الطالقان ، فقتله أيضاً . ولحق الحارثيون من بكر إلى أوس بن ثعلبة في مدينة هراة ، وهناك تجمع هند أوس كل البكرين ، وكانوا قد حنقوا شديداً بسبب ضياع مدينة مرو الروذ والطالقان من أيديهم^(٢) ، فأرادوا أن يخرجوا جميع مضر من خراسان كلها ، وقالوا : لا تنسج خراسان لمضر وربيعه . وقد أكرمت تميم عبد الله بن خازم على أن يفاوض بكراً ، ولكن المفاوضات فشلت ، كما كان يتوقع عبد الله . وكان أحدهم قد اعترض عليه في قتال بكر ، وطالب إليه ألا يقتلهم إلا بعد الإحذار إليهم ، فبعثه رسولاً إليهم ، فلما عاد يائساً بسبب تشدد قبائل بكر^(٣) قال له عبد الله بن خازم : « لقد أخبرتك أن ربيعة لم تزل غاضبة على رجاها منذ بعث الله إليّ صلى الله عليه وسلم من مضر » . ويقال إن القتال قد استمر أمام مدينة هراة

(١) بحسب ما جاء في البلاذري ص ٤١٤ «قرأ ابن الزبير عبد الله بن خازم على الولاية . (٢) [يقول المؤلف : بسبب ضياع هراة ، ولكن هراة ، بحسب كلامه لم تكن قد سقطت بعد ، أما التي كان قد سقطت فهو مدينة مرو الروذ والطالقان . على أن الذي أحسنهم أشد الحق هو قتل سليمان وعمرو ابن مرثد (راجع الطبري ج ٢ ص ٤٨٨ - ٤٩٧ والبلاذري ص ٤١٤ - المترجم] .

(٣) [فشلت المفاوضات أمام تشدد بني صهيب بن موالى بكر ، حتى مضى البعض من ذلك ، راجع الطبري ج ٢ ص ٤٩١ - ٤٩٢ - المترجم] .

أكثر من عام^(١) . فجعلت بكر^٢ ظهرها إلى المدينة وخندق رجالها حول المدينة واحتموا بالخندق أمامهم ، واستطاعوا أن يصدوا كل هجمات ابن خازم ، حتى نال من شرفهم وشجاعتهم بأن ناداهم قائلاً : « يا معشر ربيعة ! إنكم قد اعتصمتم بخندقكم ، أفرضيتم من خراسان بهذا الخندق ! » . فأحفظهم ذلك وخرجوا من موقعهم الحصين إلى القتال في الميدان الواسع ، فهزموا ونحسروا خسائر كبيرة ، وأقسم ابن خازم ليقتلن^٣ منهم كل أسير يؤتى به ، حتى تغيب الشمس : وهرب أوس بن ثعلبة إلى سجستان ، وكانت في تلك الأيام في يد الزنجيل ، ولكنه مات هناك من جراحاته . وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الحرب دائرة بين قبائل بكر ونجم في المشرق ، كانت هناك حرب أخرى تدور بين قبائل كلب وقيس في المغرب ، وذلك في سنة ٦٤ - ٦٥ هـ (الطبري ج ٢ ص ٤٩٠ - ٤٩٦) . وقد كان من أثرها إضعاف بكر إضعافاً دائماً^(٤) .

أعانت تميم عبد الله بن خازم على من كان بخراسان من ربيعة ، حتى قهرهم وأخضع مدينة هراة وضفت له خراسان : ولكنه جفا بما رأى أن يمكنهم من الاستقرار في هراة استقرار الفاتحين . فعين على هراة ابناً صغيراً له اسمه محمد وضم إليه بكثير بن وشاخ^(٥) وجعله على شرطته ، وأمره ألا يمكن

(١) إن حكاية سليمان بن جباله ، أحد ماضري أبي مخنف ، وأبو مخنف يذكره كثيراً . هذه الحكاية المروية عند الطبري ج ٢ ص ٤٩٣ من ٦ - ٤٩٤ ص ١٧ لا تدخل فيه هذا الموضوع ، بل في عصر بعد ذلك بكثير ، أما رواية أبي الحسن الخراساني (الطبري ج ٢ ص ٤٩٤ من ١٨ - ٤٩٥ ص ٧) فهي تملأ فجوة في الرواية الأساسية لعدنان .
(٢) قتلت بكر في هراة قتلاً ذريعاً ، فحسروا ثمانية آلاف رجل (الطبري ج ٢ ص ٤٩٦ - المترجم) .

(٣) كان تميمياً من بني سعد ، أما تسميته عند الطبري (ج ٢ ص ٤٩٥ من ٧) بالنفث فهي خطأ - قارن الطبري ج ٢ ص ٨٦٠ من ١٠ فما بعده و ١٠٢٢ من ١ و ص ١٠٣٠ من ١٣ و ٢٠ فما بعده و ص ١٠٤٧ من ١٨ . [وكان عبد الله بن خازم قد جعل ثمامة ابن دثار الطاردي مع ابنه أيضاً ، وأوصى الرجلين بنصحه وتربيته والعناية بأمره . ثم انشق ثمامة وانضم إلى تميم ، وكان له شأن في الحصومة القائمة ، كما سيلي ، وقد أسقط المؤلف حكايته هذه - المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ٥٩٢ - ٥٩٤] .

تمياً من دخول هراة . وقد عرض بكبر عليهم أموالاً كثيرة على أن ينصرفوا ، ولكن هذه الطريقة للتخلص منهم زادتهم عناداً وأحدثت مرارة في نفوسهم ، فاقتحموا المدينة على محمد بن عبد الله بن خازم وشذوه وثاقاً وشربوا ليلتهم ، وجعل كلماً أراد رجل منهم البتول بآل عليه ، ثم قتلوه في الصباح^(١) . وكان معنى هذا أن تمياً نبذوا عهد الصداقة لوالده هبة الله ، فخرجوا إلى مرو وازدادوا قوة بعد أن انضم إليهم من كان فيها من قومهم ، وولوا عليهم حريش بن هلال القرشي ، وأرادوا محاربة ابن خازم : وكانت هذه الحرب على الطراز القديم ، فلم تكن هناك معارك ، بل كان هناك غرسان أبطال ، لم يدرك ميثلتهم ، « الرجل منهم كتيبة » وكانوا يغربون ويأتون المغامرات ، فيضحكى مثلاً أن الأشعث بن ذؤيب ، وهو أخ لزهير ابن ذؤيب العدوي (من تميم) ، قُتل في تلك الحرب فسل ، وكان به رمق : « من قتلك ؟ » فقال : « لا أدري ! طعنني رجل على برذون أصفر » ، فكان زهير لا يرى أحداً على برذون أصفر إلا حمل عليه ، فمنهم من يقتله ومنهم من يهرب ، فتحمى أهل العسكر الراذين الصفر ، فكانت تحلة في العسكر لا يركبها أحد ، وهذه صورة مُمَيَّزَة لأحداث تلك الحرب ، حتى إذا طالت الحرب سنتين وضججها الفريقان وملأها تفرقت تميم ، فأضعفت نفسها بذلك ، فتوجه شماس بن دثار الطاردي إلى سجستان (الطبري ج ٢ ص ٥٤٦ و ١٠٢٦) ، وحريش بن هلال إلى مرو الروذ واستطاع أن يثبت هناك زماناً^(٢) ، لكنه اضطر آخر الأمر إلى الخروج من نهراسان

(١) [هنا يمزج المؤلف بين روايتين منه الطبري (ج ٢ ص ٥٩٤) . وليس من المعقول أن يكونوا دخلوا المدينة دون معركة ، ونحن لانسجع عن هذه المعركة ، بل الأحرى أن يكونوا دخلوها بعد قتله ، وأنهم قتلوه خارج المدينة : قرصدوا له وأخذوه وهويصده وفعّلوا ما فعلوا . وهذا شطر من إحدى الروايتين . وإن قضاء ليلة شراب على النحو المتقدم لا يتيسر في مدينة ، حتى ولا بعد معركة - المترجم] .

(٢) يقول حريش (الطبري ج ٢ ص ٥٩٨ س ٣) : « حوّلين ما اغتصفت عيني بمنزلة » إلا وكفى وساد لي على حجير . ولا يتسم من هذا الطبري ج ٢ ص ٥٩٥ س ١٤) أنه ظل

«الطبرى ج ٢ ص ٥٩٣ - ٦٩٨» ولجأ الآخرون من فرسان تميم بقيادة زهير بن ذؤيب إلى قصر فترتسا ، غير بعيد من مرو الروز . وهناك حاصرهم ابن خازم واضطروهم إلى التسليم وقتلهم دون رحمة (الطبرى ج ٢ ص ٦٩٦ - ٧٠٠) : ويظهر أنه استطاع أن يحكم مرو حيناً لا يعكس حكمته شيء ، غير أنه بعد سنين قليلة اضطر إلى إخماد ثورة جديدة قامت بها تميم في أبرشهر بقيادة بحير بن ورقاء الصريمى (الطبرى ج ٢ ص ٥٩٦ س ٩) ، واستخلف ابن خازم بمرو بكير بن وشاح ، ولكنه لم يترك ابنه موسى فيها لأنه لم يأمن عليه من تميم ، فأمره أن يخرج منها بكنوزه وثقله فيعبر نهر يبلغ ويلجأ إلى بعض الملوك أو إلى حصن يقيم فيه ، ثم تقدم قاصداً أبرشهر . وبينما كان يحارب بحير بن ورقاء هناك أتاه في آخر سنة ٧٢ هـ (١) كتاب عبد الملك بن مروان ، يتعده بأن تكون خراسان له طعمة سبع سنين ، إذا بايع له . فتصور ابن خازم أن في ذلك إهانة له ، لأنه كان يريد أن يكون له الأمر بقوته الخاصة ، وأمر رسول عبد الملك بأن يأكل الصحيفة التي حملها إليه ، ولما رفض ابن خازم ما عرضه عليه عبد الملك كتب عبد الملك إلى بكير بن وشاح ، وكان ابن خازم قد استخلفه على مرو ، يعهد إليه بولاية خراسان ويعده ويمنّيه ، فقبل الولاية ، ولم يستطع ابن خازم أن يتغلب على بكير وبحير مجتمعين ، فحاول أن يلذهب إلى ابنه موسى في ترمذ ، ولكن بحيراً لحقه . وقتل ابن خازم بعد أن اهتوره بالطعن ثلاثة فرسان ، فدفعهم عن نفسه دفعا شديداً ، حتى صرعه ، فلما وقع قعد على صدره وكيع بن الدورقية ، ليلبسه (٢) . وكان وكيع أحد الموالي

- يقاتل ابن خازم مروّين . ويجوز أنه يدخل في ملين الحولين فترة الحرب مع بكر ، ذلك أننا نجد في سنة ٦٦ هـ خارج خراسان . انظر ما كتبناه عن الخوارج ص ٢٤ ، وقد نقل حريش سنة ٨٢ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١٠٦٦ س ١٥) .
(١) يذكر الطبرى (ج ٢ ص ٨٣٤) تاريخاً متأخراً عن ذلك .
(٢) يسمى باسم أمه ، وكانت من سبب دورق ، من خوزستان (راجع البلاذرى ص ٤١٥ - ٤١٦) .

الغلاظ الحفافة ، وقد ذكر ابن خازم بشار أخ له لأنه كان ابن خازم قد قتل ، فعند ذلك تنحى ابن خازم في وجه وكيع مستنكفاً من أن يكون أحد الموالى مساوياً له ، وذبحه وكيع ، واحتزّت رأسه ، فاغتصبها بكير ابن وشاح من يد بحير وأرسلها إلى عبد الملك ، مدعيّاً أنه هو الذي قهر ابن خازم وقتله . أما بحير ، وهو المنتصر الحقيقي على ابن خازم ، فقد قيده بكير وحبسه حيناً (الطبرى ج ٢ ص ٨٣١ - ٨٣٥) .

وكان هذا سبباً في حرب بين أخوين من تميم ، وخصوصاً من بني سعد بن تميم ، وكان بنو سعد في خراسان ، وخصوصاً في مرو ، أكثر منهم في البصرة ، وكان كل من بكير وبحير ينتمى إلى بني سعد . واختلفت تميم ، فتمصبت مقاهيس والبطون لبكير ، وتمصب بنو عوف (١) والأبناء لبكير ، ولكن لما تبين عرب خراسان أن الأمر أن سيادتهم على خراسان لا محالة زالت ، إن لم ينقلوها من أخطار التطاحن وإن لم تكاسبه صبغة شرعية بفضل تأييد يائنها من قبيل سلطنة عليا ، عند ذلك طلبوا هم أنفسهم من عبد الملك بن مروان سنة ٧٤ هـ أن يعين على خراسان واليائ قرشياً يكون فوق تباض القبائل وتمجسدها (٢) . فبعث عبد الملك أحد الأمويين من أسرته ، وهو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن العيص ، وكان في سيداً كريماً وسهلاً ليناً يحب العافية ، فلما بلغ أبر شهر خرج بحير بن ورقاء لاستقباله ، وحاول أن يسعى ببكير عنده وأن يحدّثه منه ومن خدره ، ولكن بحيراً لم يفلح فيها أراد ، فأقر أمية كل عمال بكير في مناصبهم وعرض عليه أن يوليه شرطته ، فلما زهد بكير أنفة منه في هذا المنصب ،

(١) [يقول المؤلف أوس والأبناء ، ويظهر أن هنا تحريفاً ، لأن الذي يؤثر عند المؤرخين هو قبائل بني عوف ، راجع مثلاً الطبرى ج ٢ ص ١٠٤٩ - المترجم] .
(٢) [جاء في الطبرى ما يأتي : خاف أهل خراسان أن تعود الحرب وتفسد البلاد . ويقهرهم عدوهم من المشركين ، فكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن خراسان لا تصلح بعد الفتنة إلا على رجل من قرش لا يحسدونه ولا يتمصون عليه - المترجم] .

مع أن صاحب الشرطة كان في نفس الوقت يقوم بخلافة الأمير إذا غاب ، عند ذلك أعطى أمية المنصب لعدوه بحير (الطبرى ج ٢ ص ٨٥٩ - ٨٦٢) ، وغضب بكير وحق ، لأنه اضطر أن يخلى المجال أمام الأمير القرشى (١) ، فاغتنم فرصة خروج الأمير في حملة حربية ، وثاؤ في ظهره بمدينة مرو (٢) ، وكان أهل الجنود الذين خرجوا في الحملة في قبضة بكير (٣) ، فسارع أمية بالعودة وتساهل في مفاوضة بكير والبير به ، ففضى عنه ديونه وأمنه أربعين يوماً حتى يخرج إلى إحدى مدن خراسان إذا شاء : ولكن بكير أبقى في مرو ، ومضى يحرّض على أمية ، فاتهمه بحير بالتدبير لأمية ونقل إلى أمية كلاماً لبكير عنه : ولكن أمية كذّبه ، حتى تأيدت له الشكوى من جانب آخر ، وعند ذلك قبض الأمير على بكير ، وتبين أن التهمة صحيحة ، لأن شهودها لا مغمز فيهم (٤) ، وقتل بكير بسيفه في يوم جمعة ، فقتله بحير ، لأن أحداً لم يرض أن يقتله . وقال بحير وهو يقتله : لا يصلح بنو سعد ما دمنّا حيين (الطبرى ج ٢ ص ١٠٢٢ - ١٠٣١) (٥) .

ولكن آخر فصل من قصة الحرب بين بنى سعد لم ينته إلا في سنة ٨١ هـ .

-
- (١) [إنما أحق بكبيراً سمي بحير بالرشابة والإفساد بينه وبين أمية سميّاً دائماً ، ذلك أن أمية حامل بكيراً معاملة السيد الكريم فقطع أسباب العداوة ، ولكن لم يزل بكير بالأمير حتى صار يتصرف مع بكير تصرفاً أفضه ، وجعله يشعر بأن الأمير يضاهيه ويرتاب به - المترجم نقلاً عن النصوص التي ذكرها المؤلف] -
- (٢) من العسير أن يكون ذلك لم يقع إلا في سنة ٧٧ هـ آخر سني أمية ، تارن بين الطبرى ج ٢ ص ١٠٢٣ وبين ١٠٢٨ ، وبين البلاذري ص ٤١٦ .
- (٣) [هدد بكير بأن يرمى كل من يرمى سبها من المحاصرين له برأس رجل من ولده وأهله ، واجع الطبرى ج ٢ ص ١٠٢٧ - المترجم] .
- (٤) [لا يؤخذ ذلك من النصوص ، فقد اتهم بكير بأنهم أعداؤه ، راجع الطبرى ج ٢ ص ١٠٣٠ - المترجم] .
- (٥) يختصر المؤلف هنا اختصاراً كبيراً ، ويرجع القارئ إلى الموضع المشار إليه عند الطبرى ليرى الرواية مفصلة ، ونحن قد تابناه في الترجمة محاولين بقدر الإمكان أن نراعى النص العربي - المترجم] .

فتعاقد سبعة عشر رجلاً من الأبناء ، وهم عشيرة بكير ، على قتل بحير ، ولكنهم لم يقصدوا إليه مجتمعين ، بل ذهب كل واحد منهم منفرداً معتمداً على يده وحدها ، وقد أفلح أحدهم ، وهو صمصمة بن حرب العوفى : فى اغتياله . فسار حتى جاور قرابةً لبجير ، ولم يزل يأتهم ويحالسهم ويلطفهم حتى أنسوا به وأعطوه كتاباً إلى بحير ، وفيه أوصوه أن يساعده على الحصول على ميراث كان له : ثم قصد إلى بحير ، ولم يزل عنده حتى أنس به . ثم طعمه غيلةً بخنجر كان قد نحسه مراراً فى ابن أتان ليزداد حدة . وكان طعمه له أمام الناس ، كما ينبغي للثائر أن يفعل ، وقد صباح ، وهو يطعمه ، قائلا : « يا لثارات بكير ، أنا لثائرٌ ببكير ! » فقُبِضَ عليه وقتل ، فاحتمل الموت صابراً سخيةً بملك نفسه . وذهب إليه الأبناء فى السجن وقبّلوا رأسه . ولكنهم بعد مقتله غضبوا وقالوا : علام قُتِل صاحبنا ، وإنما طَلَبَ بثأره ! ولم تبدأ ثأرتهم إلا بعد أن دُفِعت له دية ، وذلك بعد أن مضى وقت ، فيه أوشك الخصام بين الأبناء وبين البطون أن يثور من جديد (الطبرى ج ٢ ص ١٠٤٧ - ١٠٥١) (١) .

وكانت لاتزال هناك لثورة عبد الله بن حازم القيسى بقية لم يتم القضاء عليها ، ذلك أن سيادته وجدت من يمثلها ويرثها إلى ما بعد مقتله باننى حشر حاماً . ذلك أن ابنه موسى - وكان ثطلاً (٢) - قد استطاع أن ينجو بنفسه من مرو فى الوقت المناسب وأن يخرج ، ومعه بضعة مئات من فرسان كانوا معه ومن

(١) [لا يطل كلام المؤلف حقيقة الوضع ، ونجد عند الطبرى (ج ٢ ص ١٠٥١) أن النزاع وقع بين عوف بن كعب والأبناء وبين مداهس والبطون ، حتى شغاف الناس أنه يعظم البأس بينهم ، فقال أمل الحمير : أحلوا دم صمصمة واجعلوا دم بحير يوماً بدم بكير ، فودوا صمصمة . ثم ودى صمصمة مرة أخرى . ولأن دفع الدية وسده يكنى فى تسكين ثائرة الموتورين ، كما يؤخذ من كلام المؤلف لما بلغ الخصام عند العرب من أجل الأخذ بالثأر المبالغ الذى فخره - المترجم] .

(٢) [اللط الخفيف شعر الحمية ، وهو وصف موسى ، وهو من كلام المهلب بن أبي صفرة عنه مع أولاده - راجع مايشأ تالياً - المترجم] .

صعاليك ضووا إليه ، حتى جاوز نهر بلخ ، وقد حاول المرة بعد المرة أن يجد ملجأ يستقر فيه ، ولكنه كان لا يأتي بلداً إلا كره أهلها مقامته فيهم وسألوه أن يخرج منهم ، وذلك لما كانوا قد سمعوه من أمره . وأخيراً تمكن بدهاء وممّا كمرّة وملاطفة ، ثم بحيلة جريئة فيها شيء من الغدر ، من أن يستقر في ترمذ جنوب بلخ على الشاطئ الآخر من النهر ، في حصن يقع على صخرة بارزة تشرف على النهر . وتجمعت له فلول قيس ، حتى صار تحت تصرفه ألف ومائة رجل ، جعل يغير بهم على من حوله : وكان جيرانه يخافونه هو وفرسانه كما يخافون من الجن (١) . وقد فشلت حملة وجهها إليه أمية بن عبد الله أمير مرو . فلما جاء بعده المهلب بن أبي صفرة وابنه يزيد ابن المهلب لم يتعرضا لموسى (٢) ، ثم زاد جندهم بمن انضم إليهم من فلول جيش ابن الأشعث ، حتى بلغوا ثمانية آلاف رجل . وأخذ يقوم بغزوات أخرى أبعد مدًى ، وقد شدّ أزره في ذلك قائدان من قواد الفرس ، هما حرثيث بن قسطنطين وأخوه ثابت ، انحازا إليه بمن كان معهما ، مستشقين على الجيش العربي ، جيش المهلب ، وكانا قبل ذلك على صلوات بالأسر الحاركة من أهل البلاد ، وخصوصاً بطرخون صاحب سمرقند ، واستطاعا بمعونته أهل البلاد أن يُعيداً جيشاً ليقا تل السادة العرب مع موسى . ولم يرد موسى رغم ذلك أن يقدم بيده على مهاجمة يزيد بن المهلب في خراسان ، بل أراد أن يخرج حُصناته من أرض ما وراء النهر . وقد أمكن أيضاً تطهير أرض ما وراء النهر من بقايا السيادة العربية تطهيراً تاماً ، ولكن حريئاً وثابتاً كانا في أثناء ذلك قد قوى أمرهما ، وصار لهما التدبير الحقيقي ولومى اسم الإمارة . فثار الحسد لهما في

(١) [راجع في ذلك قصة طريفة وحيلة صجيبة لجأ إليها موسى لكي يوقع الرعب في نفوس أهل البلاد ، ذكرها الطبري (ج ٢ ص ١١٤٨ - ١١٤٩ - المترجم) .
(٢) [قال المهلب لبني : إياكم وموسى ! فإنكم لا تزالون ولاية هذا النفر ما أقام هذا القبط بمكانه ، فإن قُتل كان أول طالع عليكم أميراً على خراسان رجل من قيس - المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١١٥١ - ١١٥٢] .

النفوس ، وأراد بعض أصحاب موسى منه أن يقتلها فأبى أن يغدر بهما ، ولم يزالوا به يُلحِحُون عليه ، حتى أفسدوا قلبه عليهما . وإنهم لفي ذلك إذ جاء هجومٌ على أرض ما وراء النهر ، فخرجت على موسى الهياطة والتبَّت والتركَ ، وكان موسى قد أفلح قبل ذلك في صد هجوم لهم ، وقد ردهم عن ترمذ في هذه المرة أيضاً وأبعدهم مسافة كبيرة . ثم بدأ من جانبه في الهجوم ، وألحق بهم هتد كفتان^(١) هزيمة شتكت جمعهم ، وفي هذه المعركة قتل حرث بن قعطية ، ولم يبرز موسى لذلك ، بل ربما كانت تفرغيته لو أنه تخلص من أخيه ثابت أيضاً . وقد أراد لذلك أن يغتال ثابتاً^(٢) ، ولكن أحد حيون ثابت أبلغه ذلك ، فهرب إلى مدينة خُشُورَاغ^(٣) ، وخرج إليه كثير من العرب والعجم ، وأقبل لنجدة أيضاً طرخون صاحب سمرقند بجيش كبير وتقدم الرجلان معاً إلى ترمذ فحاصراها وضيقا الخناق على موسى ، ولكن أحد الفدائيين العرب استطاع أن يتسلل إلى ثابت وأن يقتله . وعند ذلك تَجَرَأَ موسى على بيت^(٤) معسكر الأهداء ، فتوصل إلى أن رحلوا عنه . ولكن لم يلبث المفضل بن المهلب ، أخو يزيد ابن المهلب وخليفته على خراسان ، أن حالف طرخون السغد وسبَّلَ الختل على موسى ، فلم يستطع موسى أن يثبت أمام هذا التكتل ، وقُتِل وهو يحاربهم ، هُزِتْ به فرسته ، فسقط ، فابتدروه فقتلوه . وسلمت ترمذ ، وقُتِل الأسرى من جنودها ، وكان ذلك سنة ٨٥ هـ .

٣- وفي الفترة التي كانت فيها قوة عرب خراسان تتلاشى في هذه الخلافات الدامية ، ضاعت للفتوحات الأولى التي قاموا بها في أرض ما وراء

(١) في بعض النصوص : كفتان ، وفي بعضها كفتان - المترجم] .

(٢) [يجد القارئ تفصيل حكاية موسى عند الطبرى ج ٢ ص ١١٤٥ - ١١٤٦]

المترجم] .

(٣) هكذا يجب قراءة الكلمة ، فاردن الطبرى ج ٢ ص ١٥٩٤ ص ٩ .

(٤) [يعنى الهجوم في الليل - المترجم] .

والنهر (١) ضياعاً تاماً ، بل اغتتم الترك ذلك وتجاسروا على الهجوم على خراسان حتى وصلت غارات النهب على أيديهم إلى قرب نيسابور (البلاذري ص ٤١٤) . وبعد أن عاد المدوء والنظام جدد العرب أيضاً غزواتهم السابقة ، وكان أمية بن عبد الله أمير خراسان هو أول من عبر نهر بلخ ، بعد فترة وقوف طويلة . ولكنه لم يكن رجل حرب ، ومن قبل لم يمكن بقاؤه على إبرة العراق ، لأنه هرب أمام أبي فديك الخارجي هروياً غزياً . ولم يستطع في خراسان أن يقيم شرفه المتداعي . وبعد أن أصاب شيئاً من النجاح (بلاذري ص ٤٢٦ س ١٠ فا بعده) هُزم أخيراً هزيمة حاسمة ، ولم يستطع أن ينجو بجيشه عبر نهر الشاش منصرفاً إلا بعد جهد وإشراف على الهلاك ، وجلب على نفسه استهزاء الشعراء حتى قال أحدهم :

ومن سَمَّكَ ، إذْ قَسَمَ الأسَى : أمية ، إذْ وُلِدَتْ ، فقد أصابا (٢)
وعلى أثر ذلك عزله عبد الملك من منصبه سنة ٧٨ هـ . فلما أُسندت إلى الحجاج مع ولاية العراق ولاية خراسان وسجستان ، حين مكانه المهلب بن أبي صفرة الأزدي ، وكان المهلب قد انتهى في منتصف سنة ٧٨ هـ من القضاء على الخوارج في كرمان ، ولكنه لم يأت إلى مرو بنفسه إلا في سنة ٧٩ هـ (٣) . ولم يستطع المهلب ، فيما وراء النهر ، أن يفعل ما فعله أسلافه ، وفي آخر سني ولايته - حاصر مدينة كيش فأنهق (٤) ، ورضى بأن يدفع أهلها إتاوة ، ثم انصرف عنهم -

(١) وفي عهد عبد الله بن عامر من قبل كانت قد وُجِّهت حملات إلى أرض ما وراء النهر ، ثم تجددت على يد عبيد الله بن زياد ، وكان قد جاء إلى البصرة بجيش من أسرى بخارى ثم جدد الحملات سعيد بن عثمان خليفة عبد الله . وقد قتل خمسة من السعد ، كما جدها سلم بن زياد ، وقد ولدت له امرأته ولداً في سمرقند .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٠٣١ - المترجم] .

(٣) [الطبري ج ٢ ص ١٠٣٢ - ١٠٣٥ - المترجم] .

(٤) يحكى المدائني حصار كيش مرتين في ظروف هي هي ، في سنة ٨٠ هـ ، ٨٢ هـ (الطبري ج ٢ ص ١٠٤٠ و ١٠٧٧ فا بعدها) . ويمكن تسوية هذا الفرق في التاريخ وتعليله بأنه الحصار دام عامين (من منتصف ٨٠ إلى ٨٢ هـ) .

ومات في زافول (قرب مروالروذ) وهو راجع ، وذلك في ذى الحجة ٨٨٢ هـ ، الموافق يناير سنة ٧٠٢ م . فلم يزد متجده الحربى في خراسان . عما كان عليه ، ولكن ذهابه إلى خراسان كانت له أهمية كبيرة ، فقد أخذت قبيلته معه ، وكانت حتى ذلك الحين ، محارب الخوارج تحت إمرة (١) . وقد تحالف الأزدي أيضاً في خراسان مع بكر وربيعة (٢) . وبذلك فقدت مضمر (تميم وقيس) ما كان لها من تغلب وخصوصاً عند ما كان الأمير يضع قوة منصبه الرسمي في الجانب المعادى لمضمر .

وقد استخلف المهلب في منصبه وفي رئاسة قبيلته المتنوعة في تكوينها ابنة يزيد موقتاً ، ثم أقره الحجاج في منصبه ، وقد قام يزيد بحروب في فرغانة وخوارزم ، كما حارب فيها دون النهر أيضاً في باذغيس ، ولكن دون أى كسب جديد ، أو على الأقل دون أى كسب دائم ، وكان يزيد رغم ولعه بالنساء والطعام وضخامة جسمه رجلاً نشيطاً قادراً على النهوض بالأعمال ، ولكن طموحه وزهوه كان أكثر من قدرته على العمل ، وكان يشعر بشيء من المضاضة أن يكون تابعاً للحجاج ، وخصوصاً أنه رئيس الأزدي ، على حين أن الحجاج ، ذلك الرجل المحدث ، كان من قيس وهو لم يقض على ثوار أهل العراق الذين هربوا إلى خراسان بعد إخضاع ثورة ابن الأشعث إلا كارهاً ، ولما وقع في يده الثوار نعلتي سبيل البغين منهم ولم يستسلم إلا المضمرين ، ولم يغفل الحجاج عن

(١) جاء الشاعر ثابت قطه والشاعر كعب الأشقرى ، وكلاهما أزدي ، من فارس وكرمان وكان فيهما ميدان القتال ضد الخوارج ، إلى خراسان . ويجوز أن أفراداً من الأزدي كانوا قد هاجروا قبل ذلك ، ولكن شأن قبيلة الأزدي لم يرتفع إلا بمجيء المهلب ، ولا يسع الإنسان أقل إشارة إلى الخلف بين أزدي وبكر في الحروب السابقة بين تميم وبكر .

(٢) فيما يتعلق بالنسبة بين الأقسام (الأخاس) من حيث العدد (راجع الطبري ج ٢ ص ١٢٩١) فقد كان تميم عشرة آلاف مقاتل وللأزدي مثلاً ، ولقيس (أهل العالية) تسعة آلاف وليكر سبعة آلاف ، ولعبد القيس أربعة آلاف . والجملة أربعون ألف مقاتل ، وعلى هذا فإن حملة العرب في خراسان لم تكده تتجاوز مائتي ألف .

أ. معرفة روح يزيد هذه ، فعزله في ربيع الآخر سنة ٨٨٥ هـ (إبريل سنة ٧٠٤ م) وعين مكانه المفضل بن المهلب أخا يزيد لأبيه ، وكان المفضل يسعى بيزيد . وربما كان أحب شيء إلى الحجاج أن ينزع خراسان من قبضة المهالبة والأزد جملة ، ولكنه لم يقم على ذلك طالما كان موسى بن خازم ثابهاً قوياً الجاني في ترمذ وبلاد ما وراء النهر . وقد ظن الناس ذلك على الأقل ، والأغلب أنهم في ظنهم كانوا صادقين ، وكان المهلب ويزيد ابنة مقتندين . أنهما لن يطبقا والياً قيسياً إذا ذهب موسى ، لأن موسى نفسه كان من قيس وكانت أهواء قيس إلى جانبه ، ولذلك لم يتعرض المهالبة لموسى ، بل حافظوا عليه كما يحافظ الإنسان على هدم مفيد له ، وذلك لأن الحاجة إليهم ستظل قائمة وشأنهم سيظل مرتفعاً ما دام موسى في مكانه . ولكن المفضل انصرف عن هذه السياسة التي انتهجها المهالبة . وجد في حرب موسى بن خازم ، وبذلك قوض الأساس الذي كان يستند إليه ، فإنه لم يكده ينتهي من القضاء على موسى حتى عزل من منصبه ، بعد أن قضى فيه تسعة أشهر . وكذلك عزل حبيب بن المهلب وعبد الملك بن المهلب من منصبهما أيضاً ، وحُبس يزيد بن المهلب نفسه ، ثم عين قتيبة بن مسلم والياً على خراسان (سنة ٨٥ أو ٨٦ هـ) . وكان ابناً لمسلم بن عمرو الباهلي البصري الذي كان مخلصاً للحكومة الأموية موالياً لها ، وبذلك انكسرت شوكة التغلب الذي كان للأزد وريفة في خراسان . وكانوا يسمون خاصة اليمن . وكان العرب في أيام قتيبة يسمون المضربين بوجه عام (الطبري ج ٢ ص ١١٨٥ س ٥) ، أما قتيبة فكان ينتمي إلى قبيلة مزقة غير نابعة ، هي قبيلة باهلة التي كانت خارج المجموعات الكبرى للقبائل ، وكان من العسير أن تجسد مكانها في أنساب القبائل ومناسبتها ، ولكنها انضمت إلى قيس بحكم الظروف (١) ، ولم يكن شيء

(١) وكذلك أيضاً في أرض الجزيرة ، قارن الطبري ج ٢ ص ١٣٠٠ ، وابن الأثير

ج ٤ ص ٢٥٦ فا بعدها وانظر ما تقدم ص ١٩٦ هامش رقم ١ .

أحب إلى الحجاج من أن يكون قتيبة ليست له عشرة قوية ، فيدعوه ذلك إلى أن يعوّل على الدولة .

ولم يكن العرب قبل عهد قتيبة بن مسلم قد غزوا إلا بعض البلدان الواقعة إلى الشمال وإلى الشرق من خراسان ، وهي أيضاً لم تكن قد أخضعت إلا إخضاعاً مؤقتاً . وهذا ما يتبينه الإنسان من أخبار موسى بن عبد الله بن خازم . وكان قتيبة هو أول من شق الطريق لفتح هذه البلاد ، وأقل ما يمكن أن يقال أنه هو الذي شق طريق الفتح الحقيقي لها . ولكي يتسنى لنا أن نفهم الحملات التي قام بها فهماً جيداً يحسن أن نكلم بشيء موجز من الملاحظات الجغرافية والملاحظات المتعلقة بأحوال الأمم ، وذلك فيما يتعلق بشغرتي خراسان .

كان أحد هذين الثغرين هو طخارستان أي أرض بلخ أو البكتريان (Bakterien) القديمة . وطخارستان هي في الحقيقة تلك الأرض الجبلية الواقعة على ضفتي نهر بلخ الأوسط حتى بلد تخشان ، وتدخل في ذلك أيضاً ، بحسب ما جاء في الطبري (ج ٢ ص ١١٨٠ ص ٧) شومان وآخرون . أما في العادة فلا يُفهم من طخارستان سوى الأرض الواقعة جنوب نهر بلخ . وكان العرب يعتبرون ذلك جزءاً من إقليم مدينة مرو الروذ ، وكانت أقصى مدن معسكراتهم في جهة المشرق ، وذلك أنهم لم يحتلوا مدينة بلخ (بكترا Baktra) احتلالاً دائماً ، ولكن بلخ كانت لا تزال هي العاصمة الحقيقية لتلك البلاد ، وكان يقع في منطقة بلخ إلى جهة المشرق ضلّمْ والطالقان والفارياب وغيرها من المدن ، أما إلى الجنوب وفي أعلى بلاد الغور (Paropamisus) فكانت تقع رساتيق جوزجان أو جوزستان وخرشتان أو غرجستان (مع مدينة باميان التي تتحكم في الممر بين الجبال) وإلى الغرب كانت تقع باذغيس بين وادي مرغاب وهريرود . أما إلى الجنوب الشرقي فكانت غازنين وولشتن تبتعان كابلستان وسجستان .

أما النهر الآخر الذى كان أعظم شأنًا فى خراسان فقد كان أرض ما وراء
النهر ، ويتبع ذلك بوجه عام من جهة المشرق أرض الختلان وأرض جبال
(جبل الملح ١٥٩٦) الختل التى تمتد من بلخشان إلى الغرب حتى نهر
ونخشاب^(١) ، ثم تأتى بعد ذلك أرض الصغانيان ، أو أرض الصغان^(٢) .
أما إلى الغرب ، فيما بين ترمذ على نهر بلخ وسمرقند على نهر السغد
(Polytimetus) فكانت تقع مدن شومان وآخرون ، ثم كيش ونيسف ،
والمدينتان الأخيرتان تلحقان عند المقدسى (ص ٢٦٧ ، ٢٨٢) فابعدهما
بأرض الصغانيان ، ولكنهما عادة تلحقان بأرض السغد ، وأرض السغد
تقع إلى جانبي نهر السغد الأدنى الذى يسير حتى يتلاشى فى واحة بخارى
دون أن يبلغ نهر بلخ^(٣) . والعاصمة القديمة لأرض السغد هى سمرقند ،
وإذا ذكر اسم السغد فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو سكان مدينة سمرقند
وأرضها . وإلى المشرق من أرض السغد تقع من جهة بلاد أشروسنة الجبلية
على المجرى الأعلى الضيق لنهر السغد ، ومن جهة أخرى إلى شمال الجبال
تقع أراضي الشاش وطرخان على نهر الشاش (Jaxartes) عند أبواب بلاد
الترك . أما المجرى الأدنى لنهر بلخ فهو بعد أن ينحني نحو الشمال يخترق
صحراوات حتى يكون آخر الأمر واحة خوارزم . والمعبّر الأكبر فى هذه
المسافة يكون عند آمل ، ويكون العبور على جسر من السفن .
أما سكان كل هذه البلاد الواسعة ولغتهم وحضارتهم^(٤) فقد كانت إيرانية ،

(١) وهى الآن مرهاب ، وفى تسمية ونخش - آب بقى اسم نهر (Oxus) ، وقد صار
لا يستعمل فى تسمية النهر الأكبر .

(٢) يسمى ملك هذه البلاد صغان - نخداه ، راجع الطبرى ج ٢ ص ١٥٩٦ و ١٦٠٠
فابعدهما .

(٣) يسمى الآن زرنش واسم (Polytimetus) غير مفهوم والأولى أن يكون اسمه
(Polytimetus) ، ذلك لأن النهر مؤلف من نهيرات كثيرة ينقسم إليها ، ونظام الرى القديم فى
هذه البلاد هائل ومشهور لا يفوته نظام آخر .

(٤) وإلى جانب نظام الزراعة القائم على نظام الرى الفنى كانت التجارة أيضاً (القراء ،
الحريز ، الماء ، الرقيق) مهمة جداً على الطريق إلى الصين .

وأما من الناحية السياسية فقد كان يسودها انقسام كبير ، وهذا الانقسام لم يأت مع سقوط الدولة الساسانية ، بل كان قد وقع قبل ذلك . فكانت هناك طبقة الأشراف الذين يسمون الدهاقنة ، وقد تميز من بينهم حكام ينتمون إلى أسر ويحكمون الأشراف العاديين ، وهم كبار الملاك والحكام في القرى ، ونجد في الرساتيق المتفرقة وفي المدن الكبيرة أمراء فيهم وراثية الحكم ، ولهم ألقاب خاصة بهم^(١) . وليست كل هذه الألقاب آرية ، فمنها ألقاب غير آرية ، وذلك أن الإيرانيين ، وهم قد كانوا ممزقين كل ممزق ، لم يبقوا بنجوة من الاختلاط بغيرهم ولا من الخضوع لهم ، ففي إقليم Parātacene جاء المختل وكونوا طبقة فوقهم وملكهم يسمى السبيل^(٢) . ويظهر أنهم هم الهياطل (Hephthaliten) القدماء ، وكان هؤلاء من قبل يحكمون أرض ما وراء النهر كلها ، ولذلك يسميها المقدسي بلاد الهياطل ، بإطلاق هذه التسمية . ولكن في الفترة التي تعيننا دراستها هنا كان الهياطلة قد اندسروا وراء الترك ، وكان الموطن الحقيقي لهؤلاء يقع إلى الشرق من نهر الشاش ، ولكنهم في أثناء الغارات التي كانوا يقومون بها من هناك ، متوغلين مسافات بعيدة جداً ، كانوا كثيراً ما يتقدمون إلى المدن الإيرانية ويستقرون فيها ويؤسسون أمراً حاكمة ويأخذون إتاوة من البلاد ، ونجد اللقب التركي « طرخون » أو « طرخان » موجوداً فيما دون نهر باخ وفيما وراءه ، وهو يطلق على الأمير التابع للخاقان^(٣) .

(١) كثيراً ما نجد لقب غمداء ، ونجد لقب الشاه في شوازم والأصبهاني في باخ والأشعدي في فرغانة وأشير في غرستان .
أما لقب الإشراف والقب القليك في كوش ولقب الأشقند في لصف ولقب الأفشين في أهر وسنة فهي في الحقيقة أسماء أعلام .

(٢) إن لم يكن هذا اللقب اسم علم - قارن جيش (حش) بن سبيل .
(٣) الطبري ج ٣ ص ٦٤٧ ، حيث نجد عبارة الخاقان وطراختة ، قارن لقب الرئس في رب والتسليك (الترسل) في الفارياب والبهرك (السهراب) في الطالقان والشاذ - وكلها في طخارستان . وسيد الترك يسمى دائماً بالخاقان ، كأنما لم يكن هناك سوى خاقان واحد .

فكان الترك في ذلك الزمان هم في الحقيقة الشعب الحاكم فيما وراء النهر وفي طخارستان ، وكان على العرب أن يحاربوا الترك خاصة في طخارستان على الأقل ، وقد ردّهم العرب وأخرجهم من خراسان ووضعوا حداً لغارات السلب من جانبهم . وصار العرب ينافسون الترك في السيادة على السكان الإيرانيين منافسة ناجحة . ولكن العرب أيضاً كانوا يكتفون بإخضاع البلاد إخضاعاً سطحياً جداً ، وكانوا في جميع الجهات يتركون الساطة المحلية على ما هي عليه ، ويأخلون إناوة كانت تسمى قديمة ، أى مقابل الكف عن شن الغارات وعن النهب ، فإذا لم تدفع هذه القديمة - وهذا ما كان يقع بمنتهى السهولة - فعند ذلك تبدأ الحروب من جديد . ولم يكن العرب دائماً يكرهون أن تتكرر المناسبات التي تمكنهم من القيام بغارات النهب .

ولم يحدث على يد قتيبة تغير أساسي في هذا الوضع ، ولكنه وسع نطاق السيادة العربية إلى ما وراء الثغور توسيعاً أهدأ مما كان لها من قبل ، فلبث سنين كثيرة يخرج للغزو ، وفي كل دبيع كانت تأتي المقاتلة من أبرشهر وأبيورد وسرخس ومن هراة ومرو الروز إلى مرو ، لكي يخرج في الغزو دون أن يحتاج قتيبة إلى دعوتها . وفي سنة ٨٦ هـ قام قتيبة بحملة على آخرون وشومان كان قد أعدها سلفه (بعد فتح ترمذ) ، وقد تعهد الملك بدفع الإناوة . وفي السنة التالية توجه قتيبة لغزو المدن الواقعة في واحة بخارى ، وفي سنة ٨٧ و ٨٨ هـ فتح بيكنند وتوشكيت ورامدين ، وقد غنم في مدينة بيكنند ، وهي مدينة تجارية ذات مخازن كبيرة للبضائع ^(١) ، مستودعاً غنياً بالأسلحة ، فجهز به جنده العرب ، وكانت عدته الحربية حتى ذلك الحين قليلة ، ولم يكن جنده يملكون إلا ثلاثمائة درع (الطبرى ج ٢ ص ١٨٠) فما بعدها ، وفي سنة ٨٩ - ٩٠ هـ غلب على بخارى نفسها ، وقد

(١) ويظهر أن إلياس النصيرى يقصد هذه المدينة فيما ذكره من أخبار سنة ٨٧ هـ .

حثه الحجاج على ذلك ، وكان الحجاج قد طلب أن تُرسَل إليه خريطة لتلك البلاد ، وتولى هو وضع الخطة الحربية . وفي سنة ٩١ هـ اشتغل قتيبة في طخارستان بإخضاع ثورة متشعبة تشعباً كبيراً ، وكان الطرخان نيزك هو روح هذه الثورة ، فاستدرجه قتيبة من الحصن الذي كان قد لجأ إليه بمدينة إسكيشمت^(١) ، ثم قتله غدراً هو وآخرين من الطراخنة والدهاقنة ، ثم عبر بعد ذلك نهر بلخ وافتتح مدينة شومان ، وكان ملكها أيضاً قد اشترك في الثورة التي قام بها الطرخان نيزك ، ثم تقدم قتيبة عبر الباب الحديدى^(٢) وأخضع مدينتي كيش ونسف^(٣) ، وأقام في بخارى حكومة جديدة بعد أن قام بقتل من اقتضى الحال قتلهم . وفي سنة ٩٢ هـ كان في سجستان ، ويروى أنه أُرغم زبيل كابل على دفع الإتاوة . ثم أغار في سنة ٩٣ هـ على مدينة خوارزم بإغارة لم تكن متوقعة على الإطلاق .

وقد كان دعاه إلى ذلك سرّاً شاه خوارزم ، فأخذ قتيبة في أول الأمر أيضاً جانب الشاه على أخيه الأصغر ، ولكنه بعد ذلك أخرجه من خوارزم وأقام حكومة عربية في البلاد . ومن خوارزم توجه إلى سمرقند مخفياً مقصده عن جنوده ما أمكنه ذلك ، وكان طرخون سمرقند في سنة ٩١ هـ قد صالح قتيبة على إتاوة ، ولكن رعاياه أسقطوه بسبب هذه الذلة واضطروه إلى الانتحار وحل محله أخيه خوزك ، وقد رحب قتيبة بهذا السبب للتدخل ، وتمّ الصلح بعد حصار طويل ، وتعهد الخوزك بدفع الإتاوة ، وتمّ الاتفاق على أن يدخل قتيبة سمرقند ويقيم الصلاة في مسجد جديد يؤسس لذلك ، ثم يخرج من المدينة على الفور .

(١) راجع الأسطخرى (ص ٢٧٥) ، وهذه المدينة تقع إلى الشمال قليلا من غط عرّص ٣٦° وإلى الشرق قليلا من غط ٦٩° وتسمى في المصوّرات الإنكليزية باسم إسكيشمت ، قارن Marquart : Eranschahr ، ١٩٠١ ، ص ٢١٩ .

(٢) هذا هو اسم نهر ضيق مشهور يقع على فرع النهر الذي يسمى الآن بنهر كشكه ، وقد صوره ريكلموس (Reclus, 6, 502) .

(٣) المقصود من قارياب عند الطبرى (ج ٢ ص ١٢٢٩ ص ٣) هو قرياب - قارن الطبرى ج ٢ ص ١٥٦٦ ص ٣ .

ولكن قتيبة بعد أن دخل المدينة لم يخرج منها ، بل جعلها مدينة لحاميته العربية وقاعدة لفتوحات أخرى . فن هناك تقدم في السنين الثلاث الأخيرة لولايته (من سنة ٩٤ إلى ٩٦ هـ) ، فدخل وادى زرفشان الأعلى ودخل أرض الشاش وفرغانة ، بل يروى أنه بلغ كشغر حتى اتصل بالصين^(١) . وتتفق رواية المدائني ، كما حكاه الطبري ، مع رواية البلاذري في الحملة ، غير أن المدائني لا يذكر سجستان وكشغر ، ولكن أشعاراً كثيرة من ذلك العصر تؤيد رواية المدائني^(٢) .

وكان من عادة قتيبة أن يترك الأمراء في البلاد التي يفتحها على حالهم ، إذا صالحوه على إتاوة ، وإنما كان يضم إليهم رقباء أو نوايا من العرب في كثير من الأحيان ، أما بعض المواضع التي تكون لها أهمية كبيرة فكانت « تُسْتَعْمَر » ، إذا ساغ أن تعبر بالتعبير الروماني ، أي أنها كانت تُخْضَعُ لتكون مقراً للعروبة وللإسلام ، وإن لم يُخْرِج منها أهلها السابقون وإن بقي لهم أيضاً فوق ذلك شيء من الاستقلال الإداري في ظل حكائهم القدماء . وكان هؤلاء خاصة " فرض " الضرائب وجبايتها . وقد جُمِعَت سمرقند خاصة مقراً للجيش العربي فجاءت إليها حامية قوية معدة بكل عدّة الحرب ، فاحتلتها وهدمت بيوت النار ومعابد

(١) قارن الأقسام الموجودة عند الطبري (ج ٢ ص ١٢٧٩) فما بعدها وما ذكره البلاذري

ص ٤٢٦ س ١٨ .

(٢) أهم شعراء خراسان هم ثابت قطنة الأزدي (الأغاني ج ١٣ ص ٤٩ فما بعدها) وكعب الأندلسي الأزدي (الأغاني ج ١٣ ص ٥٦ فما بعدها) ونهار بن قوسعة البكري (الأغاني ج ١٤ ص ١١٥) وزياء الأعجم مولى عبد القيس (الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ فما بعدها) والمغيرة بن حبيب التميمي (الأغاني ج ١١ ص ١٦٢ فما بعدها) ، وثم شعراء آخرون غير معروفين لا يذكرهم إلا الطبري . والفردق والكيت والطرماس ، كلهم أيضاً يتناولون بين حين وآخر أموراً من أمور خراسان ، وكان الشعراء يتعصبون دائماً لقبائلهم ، واهتمامهم بالأشياء وحكمهم عليها يتيمان ذلك ، رغم ما يقوله نهار بن قوسعة في الكامل (ص ٥٣٨ س ١٥) . وعلى هذا فلا يصح الاعتماد على ما يقوله الشعراء إلا مع الحذر ، وإن كانت أشعارهم فيما يتعلق بالحوادث الهجدة في ذاتها يمكن أن تعتبر شواهد تاريخية لها قيمتها الكاملة .

الأوثان : ويروى أنه صدر الأمر بأن يخلو عنها كل وثني من ليلته : وكذلك اتخذت فيما يظهر في خوارزم وبخارى إجراءات مماثلة ، وإن لم تبلغ من الصرامة مبلغ الإجراءات التي اتخذت في سمرقند . وقضى أيضاً على الوثنية في بخارى . أما الرواية القائلة بأنه كان فيها بيت للنار ومعبد وثني كانت الطواويس توضع فيه فلا بد من إكمالها بالرواية القائلة بأن هذه المعالم الوثنية قد اختفت بعد ذلك (١) ، وكان يقصد من هذه المدن المتقدمة أن تقوم بالنسبة لبلاد المحيطة بها مقام المدن العسكرية العربية مثل نيسابور ومرو ومرو الروذ وهراة بالنسبة لأرض خراسان . ولا شك في أن « استعمار تلك المدن كان خطرة » أبعد مما كان يطمح إليه المسلمون وبما كانوا قد وصلوا إليه في تلك البادية وكان لهذا « الاستعمار » أثره الدائم في جعل بخارى وسمرقند وخوارزم أيضاً حواضر كبيرة انتشر منها الإسلام وصارت حواضر العناية بالعلوم العربية :

وعلى هذا فلم يكن زهر العرب بما أصابوه من نجاح ، كما نعيم من ذلك الزهو الأشعار الكثيرة ، زهواً أجوف ، وذلك أن الحرب في تلك البلاد لم تكن بالأمر اليسير عليهم . فقد كانوا في أول الأمر قليلة في العدد ، ولم يكن سلاحهم كافياً ، وكان بعد المسافات وصعوبة الأرض وظروف المناخ كلها مصدراً لعقبات كبيرة قامت في مبيلهم ، وكان لا بد لهم أن يحملوا معهم المؤن والملابس التي تقيهم البرد ، ولم يكونوا يستطيعون الخروج إلى الغز وإلا في الفصل المناسب لذلك من العام ، ولم يكن أحداؤهم بالذين يستهان بهم . وكان العرب إذا حاصروا مدينة جماعت لنجدتها في معظم الأحيان جيوش جرارة ، وهي كانت تأتي من بلاد بعيدة في الغالب ، وكان معظم هذه الجيوش يتألف من الترك ، وكان يقردها للترك أيضاً . والحق أن العرب كانوا يحاربون الترك من أجل السيطرة على تلك

(١) يجب أن لا يمزب عن البال بوجه عام أن الرعايا الإيرانيين لم يطالبوا قط بالدخول في الإسلام وأنهم قد تركت لهم الحرية في الدين .

ثالثواحي ، وقد انتزعوها من أيدي الترك . وكان هذا في الواقع عملاً كبيراً استحق به العرب السيادة على الإيرانيين ، لأن هؤلاء ما كانوا يستطيعوا أن يردوا الترك عن بلادهم . ويجب أن يُعزى الشطر الأكبر من الفضل في ذلك لقتيبة بن مسلم قائد الجيوش العربية ، فقد شأى سلفه جميعاً ، وكان له عند كبار الإيرانيين من الهيبة أكثر مما كان للمهلب وابنه يزيد^(١) . ولقد كان يسلك في الحرب مسلكاً قاسياً وبعيئاً ، وكان في سبيل الله وفي سبيل الإسلام لا يرهب الغدر^(٢) ، وكثيراً ما يرجع الفضل في نجاحه إلى قلّة مبالاته بالمبادئ ، ولكنه لم يتميز بذلك عن الطراز العادي لمن تكون بيده القوة من العرب^(٣) .

على أنه لما بلغ قتيبة أوج مجده وقوته جاء سقوطه ، وقد أثار هذا الحادث دهشة كبيرة في العالم الإسلامي ، والمدايني يدخل روايته المفصلة في ذلك أجزاءً من رواية لأبي مخنف . مات الوليد بن عبد الملك منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ (أواخر فبراير سنة ٧١٥ م) وجاء بعده سليمان ابن عبد الملك وكان يبغض الحجاج وأتباعه ، لأنهم سعوا في أن يبعده عن ولاية الخلافة^(٤) . ولكن الحجاج أنقذه الموت من انتقام سليمان ، فاستطاع هذا أن يبرد نار الثأر في قتيبة ثم جاء يزيد بن المهلب وعبد الملك بن الأهم فحرضاه على قتيبة وزادا من جنقه عليه . ولما بلغ قتيبة خبر موت الوليد وولاية سليمان الخلافة بعده كان مع الجيش في ميدان القتال بأرض فرغانة ، وقد كان يعلم أن مصيره لن يقتصر على العزل ، بل إنه سيتعرض لأن ينزل به ما هو أسوأ من ذلك بكثير ، فلم يتر أن يظل ساكناً حتى يحل به هذا

(١) قال الأصمعي : « لو كان قتيبة بالمغرب بأقصى سحر في الأرض مكبلاً بالحدود يزيد (ابن المهلب) معنا في بلادنا والعلينا لكان قتيبة أحيى في صدورنا وأعظم من يزيد » . ولقد كان قتيبة في نظر الترك بمثابة ملك العرب - المترجم - الطبري ج ٢ ص ١٣٠٠ .

(٢) كتب الحجاج إلى قتيبة : اختطهم واقتلهم في الله - المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١٣٠٠ .

(٣) [ومن غير العرب أيضاً - المترجم] .

(٤) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٢٨٤ - المترجم] .

(٢٧ - الدولة العربية)

كله ، غير أنه لبث حيناً من الزمان قبل أن يتخذ قراراً حاسماً^(١) . وقد أشار عليه أحد أخوته أن يبعث غزوة ويوجه فيها كل من يخافه ، وأن يسير حتى ينزل سمرقند ويقول إن معه : « من أحب المقام فله المواساة » ومن أراد الانصرافاً فغديرٌ مستكتره ولا متبوع بسوءه ، حتى لا يبقى مع قتيبة . بعد ذلك إلا مناصح : وأشار عليه أخ آخر بأن يخضع سليمان على الفور وأن يدهو الناس إلى ذلك^(٢) . فآثر قتيبة أن يلف الجيش كله معه في الثورة على الخليفة ، فخطب في مسجد فرغانة وبين لمثلي الجيش من هو ومن سليمان . ويزيد بن المهلب ، وذكر للناس ما صنعه من التآليف بينهم والعدل فيهم وقسمه إلى وإجرائه الأعطيات وتأمينه البلاد ، وقارن بين عهده وعهد الولاة قبله^(٣) ، ثم طلب من الناس أن يؤيدوه . ولكن الناس كانوا إذذاك في آخر حملتهم الحربية لتلك السنة^(٤) ، وكانوا يحنون إلى الأهل والوالد ، فلم يشعروا برغبة كبيرة في مشروع خطر بعيد النهاية ، ولم يجبه أحد منهم . ولم يكن قتيبة يتوقع ذلك ، فغضب وفقد توازنه حتى صار لا يدري ما يقول ، وانفجر ، وهو على المنبر ، يتناول باللوم والتقريع الشديد والتشنيع المؤلم جميع القبائل ، وذكر كل ما قيل في التشنيع عابها ولم يؤثر هرض أية قبيلة . ولما نزل

(١) يروى أنه كتب لسليمان ثلاثة كتب ، ولكنه لم ينتظر جوابها ، فعلم رسول سليمان ، وهو في سلوان ، بأخبار ثورة قتيبة ، أما ما يذكره فايل (I, 556) من أن سليمان كتب لقتيبة كتابين فلا ذكر له عند الطبري ، وفي ذلك من الخطأ أن قتيبة لا يزال يعتبر موجوداً في مرو وأنه يؤمر بالمفروج إلى فرغانة . وقبيلة بأسلة ، التي كثيراً ما تعتبر هنا عند المداخلة صاحبة قراش خاص . قد حاولوا أن يردوا صاحبهم قتيبة ، انظر مثلاً (الطبري ج ٢ ص ١٣١١) . [ويوجد القاري أخبار الكتب الثلاثة التي كتبها قتيبة لسليمان عند الطبري ج ٢ ص ١٣٨٤ - ١٢٨٥ . حل أن نبيهاً تزعم أن قتيبة لم يطلع سليمان ولم يخرج من طاعته (الطبري ج ٣ ص ١٣١١ - المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٢٨٦ فما بعدها - المترجم] .

(٣) [الطبري ج ٢ ص ١٢٨٧ - المترجم] .

(٤) من السبيل أن يكون بغير وفاة الوليد قد بلغ فرغانة قبل شهر ربيعة ، ثم إنه قد مضى وقت بعد ذلك قبل أن يظهر قتيبة بمخضه .

عن المنبر ودخل منزله أتاه أهل بيته ونبّهوه إلى ما كان منه من إغصاب أعدائه وأنصاره على السواء ، فقال إنه لما لم يجبه أحد غضب حتى لم يتدّر ما يقول — ثم أراح تشجيعه على القبائل .

وبذلك أسخط قتيبة كل من في الجيش من العرب واستفزهم بشتائم من شأنها أن تغضبهم أشد الغضب ، فشى بعضهم إلى بعض سيراً يتآمرون على خلع هذا الوالى الخائن للخليفة . وكان الأزدي حائقيين عليه من أول الأمر ، لأنه أخرج المهالبة . وكانوا أشد الناس ضيقاً به ، فتفاهموا مع حلفائهم من ربيعة وجعلوا حُصَيْن بن المنذر البكري مستشاراً لهم ، ولكن حُصَيْناً عثى منافسة مضر ونعيم بما كان لهم من قوة ، وقال لهم : إن أخرجتم مضر من الأمر أهانوا قتيبة . فلما قالوا له إن تميماً مواتورة من قتيبة قال لهم : لا تنظروا لهذا ، فإنهم يتعصبون للمضربة . وهكذا ترك المجال لنعيم لتكون هى البائدة ، ونصح حُصَيْن قومه أن يجعلوا الرياسة فى نعيم وأن يختاروا وكيع بن الحسن ابن أبى سود ، لأنه مقدم لا يبالى ماركب ولأن له عشيرة كثيرة وهو مواتور من قتيبة . والحق أن تميماً كانت غاضبة من قتيبة ، لأنه وترهم بقتله ابن الأهم ، وذلك أن قتيبة كان قبل ذلك بسنوات فى أثناء غزوة بخارى قد استخلف عبد الله بن الأهم على مرو ، فاختم عبد الله ذلك للسعى بقتيبة والدرس له عند الحجاج ، ولكنه أخفق واضطر إلى أن يهرب إلى سليمان بن عبد الملك فى الشام ، وكان سليمان إذ ذاك ولياً للعهد ، يصارع من أجل المحافظة على حقه . فانتقم قتيبة من أخى ابن الأهم ومن ابن عمه ، فأثار بذلك على نفسه التهمة من جانب نعيم (١) . وفوق ذلك كان قتيبة نفسه قد أغضب وكيع بن الحسن بن أبى سود (٢) ، سيد تميم ، وذلك أن وكيعاً انتصر مرة على الترك نصراً كبيراً ، فكتب

(١) البلاذرى ص ٤٢٥ ، فابعداً ، والأغافى ج ٣ ص ١ الطبرى ج ٢ ص ٨١٧

و ١٣٠٩ فابعداً و ١٣١٢ .

(٢) لا يصح الخلط بينه وبين سميه الذى قتل ابن خازم ، وكان تميمياً أيضاً ولكنه من فرع آخر .

به قتيبة إلى الخليفة ولم يجعل مجد النصر لو كيع بن الحسن ، وهو الذي أحرزه واستحقه ، بل هو جعله لأخيه عمرو بن مسلم : ثم أغضب قتيبة وكيعاً أكثر من ذلك بأن أخذ منه قيادة الخمس (فرقة) تميم وجعلها لرجل من بني ضبة ، فتولى وكيع قيادة الثورة على قتيبة وأيده حيّان النبطي (١) ، أحد القواد الإيرانيين ، وكان قلبه مترعاً بالحق على قتيبة لأسباب لا تحتاج إلى بيان (الطبري ج ٢ ص ١٢٥٣) (٢) . وكان حيّان هذا رجلاً خطراً في مركز متوسط بين السادة العرب وبين الموالى ، له تأثير كبير ، وكان يعرف كيف يدبّر المؤامرات على نحو ما يعرفه العرب ، وكان له شأن خاص بحكم أنه زعيم الموالى ، أولئك الأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام ، وكانوا يؤثفون فرقة خاصة بهم تعارب في الجيش العربى ، وكانوا هم أنفسهم والموالى لقتيبة ، ولكن حيّاناً عرف كيف يصرفهم عنه وينفرهم منه ، فقال للعجم : هؤلاء - يقصد العرب - يقاتلون على غير دين ، فدهوهم يقتل بعضهم بعضاً ، فأجابوه إلى ذلك ٥

وقد أنزل قتيبة في أول الأمر ما وصل إليه من تحذير منزلة كلام أهل الحسد ، ولكنه دهش أخيراً من أن وكيعاً صار لا يحضر مجلسه ، فدعاه إليه ، فتأرض ، فذهب إليه رسول قتيبة ، فوجده قد طلى على رجله منخرة ، ووجد على ساقه خوراً وودماً ، وعنده رجلان يرقيان رجله ، فلما قال الرسول لو كيع : أعجب الأمير ! قال : قد ترى ما برجلى ! فرجع الرسول إلى قتيبة ، وانتهى الأمر إلى أن أراد قتيبة حمل وكيع إليه بالقوة . فلما عرف وكيع ذلك قطع الخرز الذى كان على

(١) كان يسمى النبطى لا لأنه نبطى ، بل لكنته ، أى لأنه لم يكن يحسن النطق بالعربية (الطبرى ج ٢ ص ١٢٩١) . [وكان حيّان قائد جيش الموالى بخراسان ، وكانوا سبعة آلاف ، فعرض على وكيع أن يكف عنه كل أن يجعل له وكيع خراج جانب نهر بلخ طول حياته - المترجم] .

(٢) [وكان قتيبة قد أمر بفترب حيّان وحلقه - المترجم] .

رجله ولبس سلاحه وانتقل من فراش المرض المزعوم إلى ظهر فرسه . وقد خرج وحده ، ولكنه جعل حوله جماعة كافية ، لكي يستطيع أن يهجم على قتيبة . أما قتيبة فلم يجتمع إليه إلا أهل بيته من إخوته وأبناء عمومته القلائل من باهلة وآخرون من ثقافته . أما الأعاجم وعلى رأسهم قائدهم حيتان - وكان قتيبة يعتقد أنه يستطيع أن يعول عليهم - فقد انحازوا إلى المهاجمين ، ونادى قتيبة في الناس ، فلم يجيبه أحد خفياً عليه ، فتعزى عن اليأس بالصبر ودعا بهرذون له مدرب ، كان يركبه في الزحوف ، فلما قرب إليه ليركبه جعل يقمص حتى أعياه . فعاد قتيبة إلى سريره أمام حصن فرغانة ، ينتظر ، وهو مستسلم ، تلك النهاية التي لا بد أن تنتهي إليها المعركة وشيكاً . فتشغل إخوته وأنصاره وقتل هو أيضاً ، واحتز رأسه رجل من الأزد . ولقد أخطأ قتيبة في تقدير ما ظن أنه يقدر عليه من إثارة الجيش معه على الخليفة . ولو أنه كانت له قبيلة تويته بخبري الأمر على غير ذلك (الطبري ج ٢ ص ١٦٥٩ فما بعدها) ، ولكن لم يكن له ما كان يحتاج إليه ، فقد كانت باهلة قبيلة ضعيفة ، وتخلت عن قتيبة قيس التي كان يعتز بها ، كما تخلت عن مساعدته الأعاجم . ورغم قوة تلك الفكرة التي أراد بها أن يؤثر في الجاهل فإنها لم تأت له بأنصار ، لأنه ما كان يريد سوى المحافظة على نفسه وعلى منصبه . وليس من السهل على إنسان مهما كان كفواً عظيم القدرة ، ما دام لا يربطه بالعرب إلا منصبه ، أن يستطيع ضمهم إلى جانبه عند ما يكون ثائراً على السلطة العليا التي يستند إليها في شرعية منصبه . وقد لقي عبيد الله بن زياد في البصرة وأخوه سلم بن زياد ما لقوا من عواقب هذه التجربة ، فقد أخطأ في الحسبان ، لما ظن أنهما يستطيعان المضي في حكم الولايات التي كانا عليها حكماً مستقلاً عن الخلافة ؛ وذلك أن أميراً أباً كان ، ما لم يكن في نفس الوقت رئيس قبيلة ، لا يستطيع شيئاً من غير الخليفة ، وهو أيضاً لا يستطيع شيئاً إذا أراد الخروج على الخليفة ، لأن القبيلة الشخصية للأمير ليست كافية في أن تكفل له النجاح . على أن أمراء الأعاجم قد استنكروا مسلك العرب إزاء قتيبة

واعتبروا ذلك أشبه شيء بالانتحار . وقد كانوا على حق ، لأن سقوط قتيبة ألحق بالسيادة العربية على الثغور التي افتتحها وأسس فيها القواعد العربية ضربة قاسية^(١) .

وقد وقعت الكارثة في سنة ٩٦ هـ ، بحسب ما جاء عند الطبري^(٢) ، وفي أول سنة ٩٧ هـ ، بحسب ما جاء عند ابن قتيبة . وبعد أن قُتل قتيبة ونال وكيع اعتراف القبائل بالإمارة له مؤقتاً طالب برأس قتيبة المقطوع ، فلما امتنع الأزدي الذي كانت عنده الرأس — لأن الأزدي حرضته على ذلك — أشار وكيع إلى خشب جاء به ونصبه وقال : « إن هذه الخليل (يريد الخشب المنصوب) لا بد لها من فرسان » ، ومعنى ذلك أنه يهدد الممتنعين من الإتيان بالرأس بأن يصلبهم . وقد كان لكلمته تأثيرها ، فحُمل إليه الرأس ، وأرسله إلى الخليفة ، لكنه أرسله مع رجال من قبائل شتى ولم يبعث من بني تميم أحداً ، لأن تميم لم تكن لترضى عن ذلك ، ثم خطب في المسجد^(٣) خطبة قصيرة افتتح بها هذه ، وكانت تتكون من مجموعة من أمثال بلديّة ثمّ عن روح العنف ومن أبيات من الشعر ، ولكنها كانت كافية للإفصاح عن رأيه ، وقال في آخر خطبته : « والله لأقتلن ولأصلبن ثم لأصلبن : إلى والغ دماً : إن مرزبانكم هذا ابن الزانية قد أغلى عليكم أسعاركم ، والله ليصبرن الفقيز في السوق خدأ بأربعة (دراهم) أو لأصلبنه — صلوا على نبيكم ! »^(٤) وهو يقصد من ذكر المرزبان ، فيما يظهر ، قتيبة ، كما ما كان قتيبة أحد كبار العلوج من الطراز الإيراني^(٥) . أما وكيع نفسه فقد ظهر بمظهر العربي من النموذج الأصيل

(١) [يذكر الطبري (ج ٢ ص ١٣٠٠) قول رجل من العجم : يا معشر العرب ! قتلتم قتيبة ، والله لو كان قتيبة منافات فينا لعلناه في تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا ، وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة — قارن الطبري ج ٢ ص ١٣٠٢ — المترجم] .

(٢) [تجد كل ما يتعلق بقتيبة بن مسلم وبثورته ومقتله عند الطبري مثلاً (ج ٢ ص ١٢٨٢ - ١٢٩٧) — المترجم] .

(٣) لا شك أن ذلك كان في مرو لا في فرغانة [تجد خطبته عند الطبري ج ٢ ص ١٢٩٨ — المترجم] .

(٤) حل أنه قد كان في مرو رجل يسمى المرزبان حقيقة ، وربما كان حل الشرطة في السوق .

القديم ، وكان جاداً في إسلامه ، ولكنه مثلاً لم يكن يأخذ الناس بعقوبة الجلد التي جعلها القرآن حداً لبعض الجرائم . فقد جرى له يوماً بسكران ، فأمر به فقتل ، فقيل له : « ليس عليه القتل ، إنما عليه الجلد » ، فقال : « لا أعاقب بالسياط ، ولكني أعاقب بالسيف » . ولما قتل قتيبة أمر وكيع^(١) ورجلا فنادى : لا يُسلَبَنَّ قَتِيلٌ ، فسلب رجل من العرب أحد قتل باهله ، فحضر وكيع^(٢) حنقته^(٣) ، ومنع من مثل ذلك العمل منعاً شديداً . وهكذا كانت لو كيع طريقته الخاصة . وقد أقره سليمان بن عبد الملك في الولاية في أول الأمر ، ولكن بعد تسعة أشهر أو عشرة حل محله يزيد بن المهلب ، فتمولى خراسان إلى جانب ولايته العراق ، وكان عليها من قبل . وكان ليزيد ، خلافاً لقتيبة ، قبيلة وراءه تشد أزره ، والإنسان يلاحظ ذلك . ولما ولي يزيد وصلت الأزد إلى دفة الحكم وإلى موارد الغنائم ، وأزيلت محجم عن مكانها ، ولقي وكيع من العذاب ما لقي . هذا إلى أن يزيد بن المهلب جاء بجند من جند الدولة في الشام فأدخلهم إلى خراسان ، بعد أن كان الحجاج قد تعمد أن يجعلهم بعيدين عن خراسان (الطبرى ج ٢ ص ١٢٥٧) ، وكان لا يستعملهم إلا في الهند . وملاً يزيد جميع المناصب بأبنائه وأقربائه كما هي العادة ، وكان يحس في خراسان أنه في بيته ، فكان في خراسان أقل مخرجاً مما كان في العراق . وقد أتاحت له في الولاية الجديدة فرصة أكثر مواتاة للذهب وابتزاز الأموال ، وكان لا بد له من المال في حاجاته للغالية الثمن - مثل الجواهر الحسان - لأنه كان يظهر بمظهر الأبهة الكبيرة .

ويروى أنه كلما كان قتيبة يفتح فتحاً ، كان يُسر به سليمان بن عبد الملك^(٤) ، فيقول ليزيد بن المهلب : « أما ترى ما يصنع الله على يدي قتيبة ! » ، فيجيب

(١) [تدل هذه القسوة على شطط في التوبة يتجاوز حدود الشرع مبالغة في الردع ، دون أن تدل على استنكار للحدود الشرعية - المترجم] .
(٢) [واجع الطبرى ج ٢ ص ١٢٢٧ - المترجم] .

يزيد بأن هذه الفتوح ليست بشيء وأن الشأن لجرجان التي تحول بين الناس وبين الطريق الأعظم إلى خراسان . والواقع أن البلاد الجبلية الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحر الخزر كانت منطقة تقطع اتصال الأرض الإسلامية قطعاً يضيق مواصلات الدولة . فلما ولي يزيد بن المهلب خراسان لم يكن له همٌّ غير فتح جرجان ، ولكن لم يبدُعه إلى ذلك شعوره بما يوجب عليه الشرف ، بعد أن قال في فتوحات قتيبة ما قال ، بمقدار ما دعه إليه فرصة سانحة أتاحت له فتح جرجان^(١) . وذلك أنه كان في جرجان في ذلك الوقت نزاعٌ على الملك بين الأمير فيروز بن قول مرزبان جرجان وبين ابن عم له يقال له المرزبان ، وكان المرزبان هذا حليفاً لصول التركي صاحب دهستان . ففر فيروز وقصد إلى يزيد بن المهلب وطلب المعونة منه ، وفي ربيع سنة ٩٨ هـ خرج يزيد في جيش جرار لا نظير له من قبل ، وكان الجزء الأصغر منه من أهل خراسان ، أما الأكبر فكان يتألف من أهل العراق ومن أهل الشام . فأعاد فيروز إلى عرشه من غير قتال ، وكان فيروز قد أشار على يزيد باستدراج الصول من معقله في الجبال إلى البحيرة ، ففعل ، وحاصره فغلبه ، ويقال إنه قتل أربعة عشر ألفاً من أسرى الترك صبراً وإنه غنم غنائم لا يمكن إحصائها . وبعد أن تمَّ ليزيد إخضاع أرض دهستان وبساسان تقدم قاصداً أصبهج طبرستان ، فبعث إليه الأصبهج يطالب .

(١) راجع الطبري ج ٢ ص ١٣١٧ فما بعدها ، خصوصاً ١٣٢٣ فما بعدها - المترجم] .
(٢) يروي أن ذلك كان في سنة ٩٨ هـ ، ومن البديهي أن تكون الحملة قد بدأت في الربيع ، وهو يقع في النصف الثاني من هذه السنة ، ولا يمكن أن تكون الحملة قد استمرت إلى ما بعد الخريف ، وفي الخريف كان في الشام موت سليمان بن عبد الملك ، انقلبه عمر بن عبد العزيز ، وقد أعقب هذا التغير في الخلافة سقوط يزيد بن المهلب . وإذا كان هذا هو الثابت ، فإنه لا يمكن أن يكون حصاد الصول قد دام ستة أشهر وحصار المرزبان قد دام سبعة أشهر . أما الصحيح فهو أنه لا بد أن يكون يزيد قد خرج إلى جرجان بعد وصوله إلى خراسان بثلاثة أشهر أو أربعة ووصوله كان في النصف الأول من سنة ٩٨ هـ وكان قد أرسل ابتعد محلاً له سبقه إلى خراسان .

الصلح ، فأبى يزيد ، رجاء فتح طبرستان عنوة ، لأن ذلك يؤثبه غنائم أكثر . ولكن يزيد هزم هزيمة كبيرة ، ووجد أنه في نفس الوقت مهدد في ظهره بسبب ثورة في جرجان ، وعند ذلك لجأ إلى حيّان النبطي ، رغم ما كان منه من إساءة إلى حيّان ، لكي ينصح له ويتوسط في الصلح ، فذهب حيّان إلى الأصهبهد وقال له : « أنا رجل منكم ، وإن كان الدين قد فرّق بيني وبينكم ، وأنت أحب إلى من يزيد . وقد بعث يستمد ، وأمدادُه منه قريبة ، وإنما أصابوا منه طرفاً ، ولست آمن أن يأتيك ما لا تقوم له ، فأرح نفسك منه وصالحه ، فإنك إن صالحته صيرّ حنّده على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم من قتلوا » ، فصالح الأصهبهد على إتاوة اتفق مع حيّان عليها ، ورجع حيّان إلى ابن المهلب وأبلغه شروط الصلح ، فلم يكذب ابن المهلب بصدق ، من سوء ما كان يتوقع . حتى إذا تخلص ابن المهلب من هذا المأزق رجع إلى جرجان : وكان المرزبان قد ثار فيها من جديد والتجأ إلى حصن ، فاستولى عليه ابن المهلب بعد حصار طويل . وكان ابن المهلب ، بعد أن نكث أهل جرجان وغدروا بحنّده ، قد أعطى الله عهداً لئن ظفّر بهم ألاّ يُقلّيع عنهم ولا يرفع عنهم السيف حتى يطحن بدمائهم ويختبز من ذلك الطحين ويأكل منه ، فبعد أن انتصر أراد أن يمرّ بيمينه ، فأجرى الماء في الوادي على الدماء ، وكان على الوادي أرحاء ، فطحن واختبز وأكل ، ثم بنى مدينة جرجان ، ولم تكن قبل ذلك مدينة . وكتب يزيد ابن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك يخبره بالفتح العظيم الذي تمّ على يديه ، ويقول إنه كان قد أهيّ ملوك الفرس وخلفاء الإسلام ، حتى فتحه الله سليمان ابن عبد الملك ، فافتخر بذلك الفتح الذي لم يكن راعياً ولم يكن على كل حال إلا فتحة مؤقتة . غير أنه في كتابه أخبر الخليفة أنه قد صار عنده من نخس النخس ألف بعد أن صار إلى كل ذي حق حقه من النخس والغنمية ، أربعة آلاف أو ستة آلاف ألف درهم ، ووعد بأنه سيحملها إلى الخليفة . وقد نصح يزيد كاتبه ألاّ يرتبط

فع الخليفة ببيان مقدار المال تجنبياً للتأنيج المتنوعة التي تنتج من ذلك ، فأبى يزيد ومهتد بما فعل إلى نزول القدر الذي يستحقه ، وذلك أن سليمان بن عبد الملك توفي في صفر سنة ٩٩ هـ ، في صيف (١) السنة التي كانت فيها الحملة الحربية على جرجان ، وجاء بعده عمر بن عبد العزيز ، فدعا يزيد وسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال يزيد بن المهلب إنه إنما كتب بذلك إلى سليمان ليستمع الناس به ، فقال له عمر إن تلك الأموال إنما هي حقوق للمسلمين لا يسعه تركها ، وطلب من يزيد أن يؤدّيها . فلما لم يفعل حبسه حتى يؤدى ما عليه .

٤ - لقد ارتفع شأن الأزد في خراسان بارتفاع المهالبة ، وهم كذلك سقطوا بسقوطهم ، فتأخروا إلى المثل الثاني وانتقلوا إلى جانب المعارضين للحكومة . وقد كان عمر بن عبد العزيز إنما يخالف سلفه من الخلفاء بأن لزم الحياد بالنسبة للقبائل ، ولم يظهر بمظهر العداء للأزد ، وإن كان قد قضى على سطوتهم بأن عزل رئيسهم يزيد بن المهلب . ولكن لما انتهى عهد عمر بن عبد العزيز وجاء عهد خلفه بدأ رد فعل قوامه التعصّب على الحزب الذي ماله سليمان بن عبد الملك ، وخصوصاً بعد القضاء على تلك الثورة الكبيرة التي كان المهالبة قد قاموا بها في العراق ، فلما جاء يزيد بن عبد الملك جعل الانتقام من المهالبة وأتباعهم شعار حكومته ، وقد ذاق وبال ذلك من كان من الأزد في خراسان أيضاً ، وإن لم يكونوا قد اشتركوا في تلك الثورة على الإطلاق . فأقصى المهالبة من جميع مناصبهم وعُدّ ب رؤسائهم وأسلموا لباهلة لكي ينتقموا منهم لقتل قتيبة بن مسلم ، وعادت السيادة لمضرمرة أخرى وعلى رأسهم نميم ، ولكن الأمير نفسه لم يكن من نميم ، وإن كان منها في كثير من الأحيان نائبه صاحب الشرطة ، وهم جند الحكومة الملازمين للعاصمة ،

(١) سبتمبر سنة ٨٧٧ هـ ، وكان الانتقال من سنة ٩٨-٩٩ هـ يقع في منتصف أغسطس سنة ٧١٧ م .

بل كان الولاة دائماً من قيس ، وكان منها عمل الدولة منذ أيام الحجاج ، ولكن ارتباط أمراء قيس برابطة النسب القبلى وتكوينهم حزباً واحداً لم يكفهم عن العداوة والشر فيما بينهم ، فكان الخلف منهم فى الغالب يعدّ سلفه ويبتز منه المال بدعوى أنه يطالب بما كان تحت تصرفه من أموال الدولة ، وكان الأمير يفعل مثل ذلك مع العمال الذين استعملهم سلفه ، وكانت هذه هى صورة المسئولية الوزارية عند العرب . وكان التغير المستمر المفاجئ فى الحكومة عائقاً دون تنفيذ سياسة متصلة ، وكان الحكم أمراً شخصياً محضاً ، وكان بمثابة سياسة نهب يسرع الوالى فى استنارها أو فى التهام الغنيمة التهاماً ، إذا صبح التبعير . ولم يكن ذلك مقصوداً على خراسان ، لكنه كان يجرى فيها على أوقع صورة وعلى أخطرها أيضاً ، لأن الحاجة إلى حكومة ثابتة الأركان دائمة السلطان فى تلك البلاد النائية المعرضة لهجمات الأعداء كانت أشد ما تكون ، وكان من تأثير هذه الظروف أنه لم تلبث أن تزعزت أركان الفتوحات التى قام بها قتيبة بن مسلم ، وصارت الحاجة دائماً تدعو إلى إعادة فتح ما فتح . وقد أمكن بطبيعة الحال الاحتفاظ بالقواعد الثابتة التى أسسها قتيبة للعروة والإسلام فى بلاد السغد ، خصوصاً سمرقند وبخارى ، كما أن العمل على صبغ تلك البلاد بالصبغة الإسلامية استمر هناك وازداد .

ولكن نشأ من ذلك خطرٌ جديد على السيادة العربية لم يكن متوقفاً ، ولم يزل خطبته يتفاقم باستمرار . فقد كان الأمير الذى وجهه عمر بن عبد العزيز إلى خراسان ليحل محل يزيد بن المهلب هو الجراح بن عبد الله الحكى ، وكان من مدرسة الحجاج ، فغزا الختل فى أرض Parāiacene بعد أن لم يكن قد غزاهم أحدٌ من قبل غزواً يستحق الذكر ، وكتب الجراح يخبر الخليفة بذلك (١) . وأوفد وفداً : رجلين من العرب ورجلاً من موالى بنى ضبة بكنى أبا الصبيداء . وكان أبو الصبيداء هذا رجلاً فاضلاً فى دينه ، فتكلم العربيان ، وهو جالس

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٣ لما بعدها - المترجم] .

لم يتكلم ، فقال له عمر : « أمّا أنت من الوفد ؟ » قال : « بلى » ، قال :
 « فما بمنعك من الكلام ! » . وهنا وجد أبو الصيداء — وإن كان عربياً
 بالولاء (١) — أن الدين يقضى عليه بأن يقول كلمة طيبة في مصالحة الأعاجم
 للذين دخلوا في الإسلام ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! عشرون ألفاً من
 الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ، وميثلهم قد أسلموا من أهل الذمة ،
 يؤثخلون بالخراج . وأميرنا عصبى جاف ، يقوم على منبرنا فيقول :
 « أتيتكم حقيقياً ، وأنا اليوم عصبى » ، والله لرجل من قومي أحب إلى من
 مائة من غيرهم . . . » ، وهو بعد سيف من سيوف الحجاج ، قد عمل بالظلم
 والعدوان ، فقال عمر : « إذن ميثلك فليؤفد » ، وكتب عمر إلى
 الجراح بأمره بأن يضع الجزية عن كل مسلم ، فسارع الناس إلى الإسلام (٢).
 ولما قبل للجراح . إن الناس إنما سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية ،
 ونصحوه أن يمتحنهم بالختان ، كتب بذلك إلى عمر ، فرد عليه عمر يقول :
 « إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داهياً ، ولم يبعثه خاتناً . واستدعى
 عمر الجراح ثم عزله بعد أن كان قد قضى في الولاية ما يقرب من عام
 ونصف ، وذلك في رمضان سنة ١٠٠ هـ (إبريل سنة ٧١٩ م) ، وعين
 مكانه والياً أكثر ليناً ، وكان ضعيفاً يحب العافية (٣) ، وهو عبد الرحمن
 ابن نعيم الغامدي ، وكان أزدياً ، لكنه لم يكن من أزد عمان ، أحق من
 الحزب الأزدى في خراسان . وقد جعله عمر على الحرب والصلاة ، وضم
 إليه على الخراج عبد الرحمن بن عبد الله القشيري من قيس ، وكان رجلاً
 ذا همة وإقدام . وبقي ابن نعيم بعد موت عمر في منصبه حيناً ، ثم عُيّن
 مكانه في سنة ١٠٢ هـ سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص
 أحد الأمراء الأمويين ، وهو المعروف باسم سعيد بن سعيد بن سعيد ، لأنه كان رجلاً

(١) وكان لا يعرف الفارسية (الطبري ج ٢ ص ١٥٠٧) ، أما إنه كان مولياً ،
 فإن هذا لا يجعله إيرانياً .

(٢) فدخل في الإسلام كثير من الملوك فيما وراء النهر (البلاذري ص ٤٢٦) .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣٥٦] — المترجم .

لبناً سهلاً متنعماً^(١) . وقد زاد بأمر يزيد بن عبد الملك في الإساءة إلى الأزد وفي معاداتهم ، ولكنه لم يشتد في معاملة الأعاجم ، أو على الأقل في محاربة السغد الذين كانوا قد ثاروا على العرب في ذلك الوقت بجهة ممرقند - ولم يثوروا في العاصمة نفسها - ولحقوا بالترك ، بعد أن كانوا قد عادوا إلى الهجوم على ما حولهم ، وساعدوهم على العرب . وبسبب هذا اللين الذي بدأ للعرب أنه قد وُضِعَ في غير موضعه حُزِلَ سعيد بخدينة عن منصبه ، وعُيِّن مكانه سعيد بن عمرو الخرشى^(٢) . فاشتد سعيد مع أهل الفتنة ، وخافوا على أنفسهم منه ، فأجمعوا على الخروج من بلادهم والهجرة إلى فرغانة . ولم يكن للعرب في فرغانة ما كان لهم في غيرها من سلطان : وقد هاجر منهم خاصة أهل مدن قِ وإشتيخن وببَارَكْت وبُنْجِيكْت وبُزْمَاچَن^(٣) ، وقد خرجوا ومعهم أمراؤهم وعلى رأسهم كارزنج صاحب مدينة قِ ، وكان في الحقيقة شأنه شأن غيره من أمراء السغد تركي الأصل^(٤) . وقد توجه معظم المهاجرين^(٥) إلى مدينة خجندة (خوكند) على نهر الشاش ، ولكن سعيداً اتبعهم وحصرهم في مدينة خجندة . وكان ملك فرغانة

(١) الطبري ج ٢ ص ١٢٥٧ ، ١٤١٧ ، ١٤٢١ ، ١٨٦٧ ، والبلاذري ص ٤٢٧ وكتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٢ .

(٢) ينسب إلى بن الخرش بن كعب من أهل الجاهلية .

(٣) [الطبري ج ٢ ص ١٤٢٩] وكانت اشتيخن وبزماجن لقمان غير بعيد من ممرقند ، أما بنجيكث فهي ليست مدينة أشروست ، بل المدينة المسماة بالاسم نفسه قرب ممرقند ، وكذلك كانت مدينة قِ (الطبري ج ٢ ص ١٤٢٢ ص ١٦ و ١٤٤١ ص ٤) تقع قريباً من ممرقند على نهر زرفشن . وفيها يملك باسم بياركث قازن الاسم العلم بيار عند الطبري (ج ٢ ص ١٤٤٦ ص ١٠) . والمقطع كث هو أشهر مقطع يرد في آخر أسماء المدن .

(٤) في بيت الشعر المذكور عند الطبري (ج ٢ ص ١٢٨١ ص ٥) وهو مغلوط ، كتبت كلمة كارازنج بدلاً من كلمة كارزنج ، قازن الطبري (ج ٢ ص ١٤٤٦ ص ١٠) . وبموجب الطبري (ج ٢ ص ١٤٢٢ ص ١٦) كان ملك قِ ، وكان يلقب هناك بملك ترك خاقان ، في أول الأمر صديقاً للعرب .

(٥) خلافاً لما جاء عند الطبري (ج ٢ ص ١٤٤١ ص ٧) و ص ١٤٤٦ لما بعدها ، قازن الطبري (ج ٢ ص ١٤١٨ ص ١) .

قد أخبر سعيداً بأمرهم وأشار عليه بأن يعاجلهم لأنه لم يكن لهم جوارٌ عنده ، ولم يكن قد حل الأجل المضروب للخولم في جواره ؛ وهكذا خاب ظن المهاجرين في معونة ملك فرغانة لهم ، فسلموا وطلبوا الصلح والأمان والعودة إلى بلادهم ، حتى أن يوثدوا ما عليهم من إتاوة وينفذوا شروطاً اشترطها عليهم . وكان من هذه الشروط أن يردّوا من أيديهم من نساء العرب وألا يقتالوا أحداً ولا حلت دماؤهم ، ولكن أحد أمرائهم قتل امرأة كانت في أيديهم ، فلما تبقن الحرشي من ذلك قتل أميراً لهم . ونضاف كازنج مثل هذا المصير على نفسه ، وكان نازلاً عند العرب ، فاحتال في طلب المعونة من ابن أخيه ، وقال لأيوب بن أبي حسان الذي كان نازلاً عنده : « إني ضيفك وصديقك ، فلا يحمل بك أن يقتل صديقك في سراويلي بخلتي ، فتحذ سراويلي » ، ثم قال : « وهذا لا يحمل ، أن أقتل في سراويلاتكم ، فسترح غلامك إلى بكتنج ابن أخي يميني بسراويل جديدة » . وكان قد قال لابن أخيه : إذا أرسلت إليك أطلب سراويل ، فاعلم أنه القتل^(١) . فجاء جلنج وحاول الهجوم على معسكر المسلمين ، ولكنه أخفق ؛ وكان السغد قد قتلوا أسرى من المسلمين في أيديهم ، فعند ذلك أمر الحرشي بقتل جميع جنود السغد ، الأمراء ومن معهم . وقد حاولوا أن يدافعوا عن أنفسهم بالخشب ، لأنه لم يكن معهم سلاح ؛ ولكن ذلك لم يخن عنهم شيئاً . وفي اليوم التالي قتل الحرشي عدة آلاف من الحرائين . حتى أنه كان في اليوم السابق قد عزل التجار ولم يقتلهم ، وكان معهم مالٌ عظيم قدموا به من الصين ، وكان عددهم أربعائة ، ورغم ذلك بقي في فرغانة كثير من أهل السغد ، لأنهم لم ينزلوا جميعاً في مدينة نخجندة (الطبري ج ٢ ص ١٦١٣ فما بعدها و ١٧١٧) .

(١) [نظراً لأن المؤلف يختصر اختصاراً لا يكون معه الكلام مفهوماً تماماً ، فصلته الترجمة بعض الشيء طبقاً للطبري ج ٢ ص ١٤٤١ - ١٤٤٩ - المترجم] .

وأخضع الحرشي ، وهو في طريقه راجعاً ، مدناً وقلاعاً أخرى كانت قد شقت عصا الطاعة ، وقد غلب عليها صامحاً وتسلياً في معظم الأحيان . ولكنه كان إذا عرف أن في القلعة مالاً كثيراً صالح أصحابها بعد قبض ما في القلعة^(١) . وقد أراد عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراق - وكان الحرشي تابعاً له - أن يجعل من ذلك سبباً للموجدة على الحرشي^(٢) ، ولكن هذا الغضب كانت له في الحقيقة أسباب أخرى ، وذلك أن سعيداً الحرشي كان في كثير من الأحيان يتجاهل ابن هبيرة ، وهو أيضاً لم ينفذ أمراً له باستخراج الأموال من قوم من العرب كانوا في نحر اسان ، وكانت أهواؤهم مع ابن المهلب^(٣) . هذا إلى أن ابن هبيرة وجهه معقل بن حروة إلى هراة ، فلم يمر على الحرشي ، بل قصد إلى هراة رأساً . فأمر الحرشي بحمله وسأله : « ما منعك من إتياني قبل أن تأتي هراة ؟ » فأجاب : « أنا حامل لابن هبيرة ، ولأتى كما ولأتى » ، فضربه الحرشي مائتين وحلقه ، ولهذا هزله ابن هبيرة وأمر بأن يحمل من مرو إلى الكوفة مقيداً ، وحلبه ونفخ في بطنه النمل . وكان ذلك مظهرًا من مظاهر العداء بين رجال قيس الذين كانت لهم السيطرة الكاملة في عهد يزيد بن عبد الملك ، وذلك أن كلاً من ابن هبيرة وسعيد الحرشي كان قيسياً ، وخصوصاً ابن هبيرة نفسه^(٤) ، وهذا في الوقت نفسه مثال يُقنع المتأمل ويبين كيف كان رجال قيس لا يبالون بجميع

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٤٧ - ٤٤٨ - المترجم] .

(٢) [راجع في معرفة أسباب موجدة ابن هبيرة على الحرشي الطبري (ج ٢ ص ١٤٤٦

- ١٤٥٧) - المترجم] .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٩٥ - ١٤٩٥ - المترجم] .

(٤) [لم تكن أم الحرشي هربية وهذا ما يؤخذ مما جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٤٥٦ -

١٤٥٧) - المترجم] .

الاعتبارات إذا كان الأمر أمر المناصب وأمر الخشع في طلب المال^(١) - ومع هذا كانوا يبدأوا واحدة على من هذا قيس :

وجاء بعد سعيد الحرشي مسلم بن سعيد بن أسلم الكلابي^(٢) . وهو أيضاً قيسى تخرج في مدرسة الحجاج ، وكان الحجاج قد ضم مسلماً ، بعد أن مات أبوه ، إلى أولاده فتأدب معهم وتبذل . وكان عدي بن أرطاة قد ولى مسلماً من قبل ولاية خفيفة لكي يبدأ حياته ويرتفع ، فقام بها وضبطها وأحسن ، فلما وقعت فتنة يزيد بن المهلب حمل مسلم الأموال التي كانت تحت يده إلى الشام . فلما قدم ابن هبيرة على العراق أجمع على أن يوليه ولاية^(٣) ، فدعاه ليلة إلى سمرة ، ويظهر أنه أعجيب به ، فعقد له على خراسان وهند إليه بأعد أموال من قوم أغنياء كانوا قد اقتطعوها واتهمهم أعيان العرب في خراسان بأنها عندهم ، ولم يكن ابن هبيرة يبالي من أين يأتي المال ، ما دام يصل إليه^(٤) . وواصل مسلم الحرب مع السغد والترك ، حتى ربيع سنة ١٠٥ هـ (٧٢٤ م) جهز حملة على لرغانة وخرج فيها^(٥) ، ولكن الأزد وربيعة وثبوا في طخارستان وامتنعوا من اللحاق به^(٦) ، وكان

(١) [تدل الروايات المتقدمة في الداورة بين ابن هبيرة والحرشي على أنها نشأت خصوصاً من كبرياء الحرشي واستغفانه بابن هبيرة - المترجم] .

(٢) [راجع فيما يتعلق بولاية مسلم على خراسان الطبري ج ٢ ص ١٤٥٧ - ١٤٦٣ - المترجم] .

(٣) [لا يلعل هذا بسهولة مما جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٤٥٩ - ١٤٦١) ، وقد حاولنا بقدر الإمكان التمسك مع الأصل العربي - المترجم] .

(٤) ليس من الواضح إن كان مسلم قد انتزع أفشينة في هذه الحملة ، أو هو فتحها قبل ذلك ، وأفشينة مدينة تلحق بكور سمرقند (الطبري ج ٢ ص ١٤٦٢ من ٩ و ١٤٦٣ من ١ ح ١٥١٧ من ٨) . أما البلاذري (ص ٤٢٨ من ٣) فهو يجعل اسم الأفشين اسم علم على شخص .

(٥) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٧٣ فما بعدها - المترجم] .

على رأسهم عمرو بن مسلم الباهلي ، أخو قتيبة بن مسلم^(١) ، فبعث مسلم خليفته نصر بن سيار الكناني ، فهزمهم عند بروقان ، وكانت مقراً للحامية العربية في بلخ ، ولم يكن من شأن ذلك أن يولف بين مضر واليمن : وبعد ذلك صار مسلم بنفسه حتى إذا وصل إلى بخارى بلغه الخبر بوفاة يزيد بن عبد الملك ، وتولى هشام بن عبد الملك الخلافة (شعبان سنة ١٠٥ هـ - يناير سنة ٧٢٤ م) وأن هشاماً هزل ابن هبرة القيسية وحيث مكانه على العراق خالده بن عبد الله القسري (من بجيلة) ، فكان من أثر ذلك أن هرب كثير من جنده ، ولكنه مضى في المسير حتى جاوز نخجندة ودخل أرض الترك ، ولكنهم هجموا عليه وهزموه ، فلم يستطع أن ينصرف راجعاً إلى نخجندة عبر نهر الشاش إلا بمشقة كبيرة^(٢) ، وهناك بلغه خبر عزله (سنة ١٠٦ هـ - صيف أو خريف سنة ٧٢٤ م) ، فجاء بعده أسد ابن عبد الله أخو خالده بن عبد الله القسري أمير العراق ، وكان أسد لا يزال شاباً .

وكان أسد ، شأنه شأن أخيه ، يميل إلى قبائل اليمن ، وإن لم يكن في الحقيقة يناسب إليهم من حيث القبيلة . وذلك أن بجيلة كانت مثل باهلة ، تنف خارج مجموعات القبائل المتنازعة . فغضب^(٣) قوماً من عرب غراسان أصحاب المناصب الكبيرة ، منهم البخترى بن أبي درهم البكري^(٤) (من نسل حارث بن هبادة) ،

(١) كانت باهلة تغير موقفها من مجموعات القبائل بحسب الظروف لأنها لم تكن بطبيعتها تنتمي إلى مجموعة ما .

(٢) في رواية قصيرة ذكرها الطبري (ج ٢ ص ١٤٩٢ - ١٤٩٣) مقدماً ، وهي في الحقيقة نفس الرواية التي يذكرها فيما بعد (ص ١٤٧٧) لما بعدها) ، نجد أنه يذكر نهر بلخ ، مع أنه لا يمكن أن يكون إلا نهر الشاش ، والعرب يقولون في كثير من الأحيان : " النهر " فحسب ، وبترككون معرفة أي نهر هو المقصود لمعرفة القارئ بالمقدرة .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٩٧ لما بعدها] - المترجم .

(٤) [يسمى ابن درهم وابن أبي درهم الطبري ج ٢ ص ١٤٧٣ ، ١٤٧٥ ، ١٤٩٩ ، ١٦٠٥ - المترجم] .

فاحتمل العذاب من غير جزع ، لأن نصر بن سيار لقي من العذاب مثل ما لقي . وكان البختري يبغي نصر بن سيار بسبب يوم البروقان^(١) ، وكان بعض العمال الذين عينهم أسد بن عبد الله من الأزدي ، ولكن فرح الأزدي بفرجهم من الظلام إلى ضوء الشمس لم يدم طويلاً ، وذلك أن الخليفة أمر بعزل أسد في سنة ١٠٩ هـ ، وكان أسد يواد دهاقنة خراسان ، فصحبه إلى العراق^(٢) .

[وكان المولى الذي جاء بعده هو أشرس بن عبد الله السلمي^(٣) ، وكان أيضاً من قيس ، فحاول أن يهدي ثائرة السغد المعاندين ، سالكاً في ذلك الطريق الذي سلكه عمر بن عبد العزيز . وكان الذي دعاه إلى ذلك كاتبه عميرة الشكري ، أحد الموالى من الأهاجم ، وبعث أشرس يدعو ذلك الرجل الذي كان ذهب في وفد من أهل خراسان إلى عمر بن عبد العزيز وكان سبباً في أن عمر أمر بالمساواة بين العرب وبين الأهاجم الذين دخلوا في الإسلام ، وهو أبو الصيداء صالح بن طريف مولى بني ضبة ، فوجههم إلى بلاد السغد لدعوة أهلها إلى الإسلام ، حتى أن يضع الخزمية عن يديهم في الإسلام ، فذهب أبو الصيداء ، ومعه قوم من العرب إلى رأي وطريقته ، فاصداً معرقند ، فساعدته على ما أراد ابن أبي العترة^(٤) البكتدي ، وهو ابن ذلك الشيعي الكوفي الذي كان قد خرج بسيفه من قبل يحارب من أجل حجر بن حدي ، وكان ابن أبي العترة إذ ذاك والياً

(١) قارن على كل حال الطبري (ج ٣ ص ١٥٣٠) .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٩٧ لما بعدها] . ثم رجع أسد إلى خراسان فيها بعد والياً ، والبلاذري يجمع ولايته معاً ، ورواية المدائني كما هي عند الطبري مقطوعة فيما تضمنته من ذلك ، وإذا كان أسد قد نقل مقر ولايته إلى بلخ فلا شك أن ذلك كان في أثناء ولايته الثانية ، لأننا نجد بعد ذلك أن مرو قد صارت مقراً لولايته مرة أخرى ، ولا نجد ذكراً لتغير في ذلك ، ويجوز أيضاً أن يكون عمر بن نصر قد وقع في ولاية أسد الثانية . أما ولايته الأولى فليس المعروف عنها بكثير .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٠٤ لما بعدها و ١٥٠٧ لما بعدها - المترجم] .

على حرب سمرقند وصلاتها . وقد نجحت دعوة أبي الصيداء نجاحاً كبيراً ،
فأنشئت مساجد كثيرة وأخذ الوثنيون يدخلون في الإسلام زرافات ، ولكن
من العجيب أن الدهاقين الذين كانت الحكومة العربية قد تركتهم على سلطانهم
لم يكونوا راضين بذلك ، لأنهم كانوا هم المستوفين من تحصيل الجزية ،
وكان من العسير عليهم أن يحصلوا على الأموال الكبيرة - وكانت مفروضة
عليهم بمقدار لا يصح أن ينقص - إذا سقطت الجزية بسبب الدخول في
الإسلام ممن كان يدفعها حتى ذلك الحين . ولهذا شكوا لأشرس وقالوا له :
« ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً (١) ؟ » ويذكر من
الدهاقين الذين جاءوا إلى أشرس دهاقين بخارى خصوصاً فوزك ، أنشد
سمرقند الذي عرفنا أمره أيام قتيبة . فحاول أشرس أن يتخلص من نتائج عمله ،
فبدأ بتضييق الطريق على الداخلين في الإسلام ، وذلك بأن أخذ يطالبهم
بالاختتان وإقامة الفرائض وقراءة سورة من القرآن ونحو ذلك ، فلما لم يتكف
هذا عزل ابن أبي العمرطة وعين مكانه عمالاً آخرين وأمرهم أن يأخذوا
الجزية ممن كانوا يأخذونها منهم ، فأهادوا الجزية على من أسلم ، فامتنع
هؤلاء من دفعها ، واعتزل قوم من أهل السغد ، وكانوا سبعة آلاف ،
فنزلوا على سبعة فراسخ من سمرقند ، وكانوا حائقين ، وخرج أبو الصيداء
وقوم معه من مختلف قبائل العرب (من نعيم والأزد وبكر) لينصروهم ،
وكان منهم ثابت قطنة الشاعر وأبو فاطمة الأزدي وبشر بن جرموز وغيرهم ،
ولكن أمكن صرف هؤلاء العرب بشيء من الشدة وشيء من السياسة من
القضية التي تعصبوا لها ، وبذلك فقد المتمردون في سمرقند من يؤيدهم
وأعيدوا إلى خضوعهم القديم ، وألح العمال في سبابة الجزية واستخفوا
بأشراف العجم وعظماهم وعاملوهم معاملة غير كريمة (٢) .

(١) [يقصدون أنهم قد تبرؤوا أي أصبحوا مسلمين على دين العرب - المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٠٧ - ١٥١٠ - المترجم] .

ولكن المشكلة لم تنته بذلك ، وكان العدول عن سياسة المسالمة والعودة إلى سياسة الشدة سبباً في إثارة السغد في جميع تلك الناحية وفي إسقاطهم إلى أكبر حد ، وهم لكي يتحرروا من سلطان العرب استجاشوا الترك . ويروي أن خسرو ، أحد أبناء يزدهر د آخر ملوك الساسانيين ، كان معهم . وكان مركز الثورة في واحة بخارى ، وجاء الخاقان إلى هناك ، ومعهم جيش كبير من الترك والفرس . وفي سنة ١١٠ هـ ، في أواخر هذه السنة على الأرجح (١) ، أوفى في ربيع سنة ٧٢٩ م ، خرج أشروس على رأس البلخس العربي من مرو لكي يدرأ ذلك الخطر ، ولكن الترك سدوا أمامه طريق العبور على نهر بلخ ، فلم يستطع أن يعبره ويتقدم إلى بيكند ويعسكر فيها إلا بعد فترة جهد وقتال . وعند ذلك قطع الترك عنه الماء وأصاب البلخس من العطش جهداً شديداً ، فمات منه سبعائة ، وعجز الناس عن القتال . وأخيراً قام الخارث بن سريج فحضر الناس وقال لهم : القتل بالسيف أكرم في الدنيا وأعظم أجراً عند الله من الموت عطشاً ، وتقدم بعض الفوارس فهاطروا بأنفسهم وقتل بعضهم ، ولكنهم قاتلوا الترك فكشفوهم وأزالوهم عن الماء ، وابتدر الناس فشربوا ، وقتل من فرسان المسلمين ثابت قطنة وعبد الملك بن دثار الباهلي وغيرهما . وواصل العرب سيرهم وقتلوا قتالاً شديداً ، ولحق غوزك سمرقند بالترك ، وشق العرب طريقهم إلى بخارى فعسكروا فيها ، ومن هناك قاموا بحملات أخرى (على بخوارزم مثلاً) ، ولكن بعض فرق البلخس العربي انقطعت ، فذهبت فرقة إلى كسمرتجة (قرب بيكند) ، فأنجيه الخاقان بكل قوته إليهم وحصرهم في كسمرتجة ، ولكنهم استماتوا في الدفاع ورفضوا

(١) لم يخرج أسد إلا سنة ١٠٩ هـ (في رمضان) ، وبمئة أبي الصياد وما كان لها من نتائج تحتاج أيضاً إلى حين من الزمان .

كل اقتراح من العدو ، حتى وجد الترك ألا فائدة من الحصار وأعطوهم الأمان على ألا يتوجهوا للحاق بالجيش الأساسي في بخارى ، بل حلى أن يعودوا إلى الدبوسية^(١) .

وهكذا أصبحت يد الخاقان طليقة لكي ينفذ إلى أشروس في بخارى ، ولم يستطع أشروس أن يفتح أرضاً جديدة ، ويظهر أيضاً أنه لم يكن قادراً على مثل ذلك . ولهذا عين الخليفة والياً ليخلفه بعد أن يفك عنه الحصار ، فجاء الجنيدي بن عبد الرحمن المرئي^(٢) ، وكان حتى ذلك الحين في الهند ورجع منها ومعه خمسمائة من جنده الشام ، وبادر بعد وصوله^(٣) لنجدة أشروس ، فاستطاع بعد مشقة أن يواصله ، وأفلح في هزيمة الترك عند زرمان وفي فتح الحصار عن سمرقند ، وبعد ذلك نجح في قيادة جيشه سالماً إلى خراسان ، وربما كان هذا هو غرضه الأكبر^(٤) .

وكان الجنيدي في أواخر سنة ١١٢ هـ - ربيع سنة ٧٣١ هـ^(٥) قد وجه بعوثاً من الجيوش العربية في نواح شتى ، خصوصاً إلى طخارستان ، وعند ذلك جاءته استغاثة سورة بن الحر التميمي من سمرقند ، لأن الخاقان وأمراء من الأماجم تحالفوا معه كانوا قد هاجموا سمرقند ، وعلى الرغم من أن الجنيدي لم تكن لديه قوة كافية ، فإنه نهض على الفور وسار عبر نهر بلخ حتى بلغ كيش ، وكان هناك

(١) راجع الطبري ج ٢ ص ١٥١٢ - ١٥٢٥ - المترجم [.

(٢) كثيراً ما يذكر في اسمه : الخزفي ، وهو خطأ - (مثلاً الطبري ج ٢ ص

١٦٢٧ ص ٣) .

(٣) سنة ١١١ هـ ، لكن لم يأت قبل آخر تلك السنة ، وذلك أن الطريق من بخارى إلى الشام ومن الشام إلى الهند ومنها إلى خراسان كان طويلاً شاقاً ، ولا شك أن أشروس بقى في بخار في الشتاء (سنة ١١١ هـ) .

(٤) راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٢٧ - ١٥٣٠ المترجم [.

(٥) يمكن أن يفهم من قولنا ربيع ١١٢ هـ أول هذه السنة أو آخرها ، لكن آخرها ، بحسب الظروف ، هو الأرجح هنا ، والتواريخ تختلف فيما يلى سنة ، فهي تتردد بين ١١٢ و ١١٣ و ١١٤ ، وأنا أعتبر أن الأعداد الكبرى هي الصواب .

طريقان يؤديان من كيش* إلى سمرقند : أحدهما طريق المحترقة ، يحترق منطقة المروج والحشائش والأشجار ، وقد تجنبه الجنيد ، لأن الزمان كان فصل الصيف ولأنه خاف أن يُشعل العدو النار في العشب والشجر ، وكان الطريق الثاني ، ويسمى طريق العقبة ، يحترق الجبال ، فاختاره الجنيد ، ولكن الترك هاجموا في شيبان غير بعيد من سمرقند ، ولولا شجاعة نصير ابن سيار ، وخصوصاً لولا شجاعة الغلمان من الموالي الذين كانوا تابعين للجيش ، لقتى الجنيد ومن معه ، ذلك أن هؤلاء الغلمان ، بعد أن طال القتال وسقط الأبطال وكلت السيوف حتى صارت لا تقطع ، قطعوا العمود وصاروا يقاتلون بها ، حتى ملّ الفريقان ونحاجزا^(١) . ولكن الأشرس كان لا يزال في موقفه الخطر ، وهو لكي ينقذ نفسه طلب من سورة أن يأتي إليه من سمرقند ، ولو أن سورة ومن معه من جند العرب خرجوا من سمرقند هلكوا ، ولكن الجنيد استطاع أن ينقذ نفسه وأن يدخل سمرقند . فأنجيه الخاقان إلى بخارى ، وكان عليها أحد أبناء قتيبة ، فعاصرها ، ولكن الجنيد أتبعه من أقصر طريق وهزمه جند الطواويس ، وذلك في شهر رمضان ، ودخل بخارى في يوم عيد المهرجان^(٢) . حتى إذا قرت عين الجنيد بتأمينه بخارى وسمرقند قفل راجعاً قبل دخول الشتاء . أما الجنيد المدين كان هشام قد أرسلهم إليه من

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٢٢ - ١٥٢٦ المترجم] .

(٢) لا شك أن ذلك لم يكن في سنة ١١٢ هـ كما تذكر الروايات بل في سنة ١١٣ هـ (نوفبر سنة ٧٣١ م) ، وعلى هذا فلا بد أن يكون عيد المهرجان في ذلك الوقت قد احتفل به بعد الانقلاب الخريفي الطبري ج ٢ ص ١٥٥٢ ص ٧ ، وقارن ص ١٥٥٠ ص ١٣ فابعد . وكذلك كان عيد النيروز بحسب الطبري (ج ٢ ص ١٨٤٦ ص ١٦) بعد الاعتدال الربيعي بكثير ، وعلى هذا فلا بد أن يكون خطأ ما جاء في الطبري ج ٢ ص ١٦٣٥ ص ١٨ . ويظهر أنه في أيام العباسيين أصلح تقويم الأعياد ، ففي سنة ٢٣٩ هـ وافق يوم النيروز يوم شعبانين النصاري الطبري (ج ٢ ص ١٤٢٠) . وفي سنة ٢٤٥ هـ أخصر عيد النيروز أكثر من ذلك (الطبري ج ٢ ص ١٤٤٨) ، قارن أيضاً الطبري ج ٢ ص ٢٠٢٤ و ص ٢١٤٣ فابعدا و ص ٢١٧٣) .

البصرة والكوفة ، وكانوا في الصغانيان في طريقهم إليه ، فقد وجههم إلى
سمرقند : ولا يذكر عن الجعيد شيء في أخبار سنتي ١١٤ و ١١٥ هـ (١) .
وفي أول سنة ١١٦ هـ (ربيع سنة ٧٣٤ م) عزل عن منصبه وحل محله حاصم
ابن عبد الله الهلالي (٢) ، وكان حاصم أيضاً من قيس ، ولكن هشام بن
عبد الملك حينه مكان الجعيد لكي يغلبه ويذهب نفسه لأنه كان عدواً للجعيد ،
وذلك أن هشاماً كان غاضباً على الجعيد لأنه تزوج الفاضلة ابنة يزيد بن
المهلب (الطبري ج ٢ ص ١٦٣٣) ، وكان في نظر هشام أكبر الثوار ،
ولكن الجعيد كان قد مرض بسق البطن فأت لحسن حفظه قبل أن يصل
حاصم إلى مرو ، فلم يستطع هذا أكثر من أن يحبس عمارة بن حريم ابن عم
الجعيد وخليفته وأن يأخذ عمال الجعيد ويعذبهم (٣) .

٥ - وقد تزلزلت السيادة العربية في أرض ما وراء النهر زلزلة شديدة
بسبب التردد بين الدين والشدة تردداً ليس له ضابط ، وكان عمر بن عبد العزيز
تقد حاول أن يمزج الرعايا الأعاجم بالعرب من طريق الإسلام ، وذلك بأن
سوى بين الداخلين في الإسلام وبين العرب من الناحية السياسية وبأن أسقط
عنهم الجزية ، ولكن يظهر أن هذا المبدأ لم يلبث أن ألغى في عهد خلفه ، وهذا وإن
لم تبلغنا عنه رواية صريحة فإنه يمكن أن يوثق بلا شك من أنه بعد موته أصبح
لا بد من استعمال سياسة العنف مع أهل السفد لإرغامهم على دفع الجزية ، وقد
امتنعوا عن ذلك بطبيعة الحال ، لأنهم قد صاروا مسلمين . ويمكن أيضاً
الاستدلال على مخالفة المبدأ الذي قرره عمر بأن كثيراً من أهل السفد أرادوا أن
يتخلصوا من دفع الجزية ، فتركوا البلادهم وأمرأهم وذهبوا إلى بلاد الترك

(١) [راجع بقية أخبار الجعيد عند الطبري ج ٢ ص ١٥٢٦ - ١٥٥٣ ، ١٥٦٤]

--- ١٥٦٥ - المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٦٤ لما بعدها - المترجم] .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٦٤ - ١٥٦٥ - المترجم] .

ليدخلوا في حاهم - ويجب أن نلاحظ في هذا المقام أنه وإن كان المبدأ الذي وضعه عمر كان يجب أن يظل مبدأ مقررًا فإن مسلمي الأعاجم في خراسان لم يثوروا عند ما خولف ، وذلك أنهم كانوا منذ سنين كثيرة قد تعودوا التبعة السياسية للعرب ، وأن رابطة الإسلام كانت قد ألقت بينهم وبين العرب ، ولكنهم إلى جانب ذلك لم يكونوا في الحقيقة قادرين على الثورة ، وهذا يصدق أيضاً بالنسبة للمدن مثل بخارى ومهرقند ، وكانت قد توطلت فيها قواعد السيادة العربية . أما الثوار فكانوا هم أهل السغد ، أحق أنهم كانوا خارج المدن الكبرى ولم يكونوا قد خضعوا للسيادة العربية إلا خضوعاً موهناً للغاية ، وكانوا حذريين عهد بالإسلام ، وهم لم يعتنقوه إلا ظاهراً لمزاية مادية ونفورا من دفع الجزية ، فاتبعوا أمراءهم ، ولا شك أنهم في نفس الوقت ارتدوا عن الإسلام ، لأنه لم يكن بعد قد رست هروقه في نفوسهم . ويتجلى مقدار قلة العمل بالمبدأ الذي وضعه عمر ومحاول تطبيقه تجلياً أوضح مما تقدم من أن الأشرس قرره للمرة الثانية^(١) ، وعند ذلك تكرر الموقف من جديد ، وكان أبو الصبيداء ومن على رأيه وطريقته - وهم الذين كانوا قد بعثوا عمر بن عبد العزيز على تقرير المبدأ الذي قرره - هم أيضاً الداعين من جديد إلى الإصلاح ، وقد فشل هذا الإصلاح مرة أخرى ، وذلك للأسباب المالية التي لا شك أنها كانت في المرة الأولى أيضاً هي الأسباب الحاسمة . وأيضاً لم يكن حجم خراسان بل حجم السغد هم الذين ثاروا من أجل ذلك . بل يظهر أن العهد بإسقاط الجزية في عهد الأشرس لم يكن موجهاً إلى الموالى بإطلاق معنى هذه الكلمة ، ولا كان موجهاً إلى موالى خراسان ، بل إلى من

(١) [يقصد المؤلف أن الأشرس أعاد ما فعله عمر من دعوة أهل ما وراء النهر إلى الدخول في الإسلام على أن يسقط عنهم الجزية (الطبرى ج ٢ ص ٥٠٧) ، ويقصد من تكرار الموقف من جديد أنهم دخلوا الإسلام للتخلص من الجزية ، فانكسر الخراج ، فأعاد وضع الجزية على الداخلين في الإسلام ، وكانت الثورة (الطبرى ج ٢ ص ١٠٠٧) قد بعثت المتألمين:]

دخل الإسلام في بلاد السغد فحسب . غير أن ثورة السغد في أيام أشروس كانت أوسع نطاقاً وأشد خطراً من الثورة التي كانت بعد موت عمر بن عبد العزيز ، وخصوصاً أن الترك كانوا قد دخلوا البلاد وتولوا الزعامة . وقد استطاع العرب أن يثبتوا وأن يحافظوا على سيطرتهم في المدن الكبرى وفي نقط أخرى حصينة ، وأمكن القضاء على حركة الثورة في سمرقند نفسها من غير كبير مشقة^(١) .

ثم جاءت محاولة ثالثة ترمي إلى مساعدة مسلمي الأحاجم على المساواة الكاملة بالعرب في الحقوق الوطنية في الدولة التيوقراطية ، غير أنها لم تأت من أعلى ، بل جاءت من أسفل ، من قبيل الحارث بن سريج ، من أهل الديبوسية ، وهو الذي صادفناه محارباً شجاعاً فيما تقدم^(٢) . ويقال إنه كان في أوائل أمره أحد ثوار الخوارج المتشددين في الدين ، ولكنه في الحقيقة لم يكن متشدداً في متابعة الآراء المتطرفة التي تعصب لها الخوارج ، وهو لم يعقد الخلافة لنفسه ، ولا بايع غيره عليها ، وظهر بأنه يرى رأى المرجئة ، وكان كاتبه الجهم بن صفوان أشهر متكلم لهذه الفرقة^(٣) . وأيضاً كان الحارث نفسه يدخل في مناظرات حول مبادئها الأساسية^(٤) ، وانتهى مذهب المرجئة بالفعل إلى أن صار بمثابة سياسة للتوفيق بين المتخالفين ، فترك مسائل الخلاف وخصوصاً مسألة الإمام الحق - وهي المسألة التي لم يمكن قط أن يوصل فيها إلى حل - في المجل الثاني ، وهي قد تركت لكي يحكم الله فيها . وفي مقابل ذلك صارت الجهاة الثائرة تؤكد شيئاً

(١) راجع في هذا ولهما كتاب O. van Vloten : Recherches sur la domination arabe, Verhandl. der Amsterdamer Akademie, 1894, Letterkunde I, 8.

(٢) راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٢٣ ص ٣ و ص ١٩٢٧ ص ١٢ وقارن أيضاً ص ١٨٩٠ ص ٧ .

(٣) [هذا ما يقوله المؤلف . وليس من الجهل معرفة قصده ، والأغلب أنه يقصد المرجئة ، ولكننا نعلم أن الجهم صار فيما بعد رأس فرقة بأكملها - المترجم] .

(٤) [يؤخذ من الطبري ج ٢ ص ١٥٦٧ ص ١٥٧٠ ص ١٥٧١ ص ١٥٧٧ و ١٥٨٣ ، أن الحارث أراد أن يؤيد ثورته بالدين ، وأنه طلب من يناظره فيما تار لأجله - المترجم] .

يمكن أن تتفق عليه كلمة الطوائف المختلفة لأهل الديانة من الثائرين ، وهى الدفاع عن الأسس التى تقوم عليها الدولة النبوقراطية ومعارضة الاستبداد الذى كان قائماً ونصر جانب الحق الذى قدسه الدين على جانب الظلم والعسف . وكان الولاة الذين عينتهم حكومة الأمويين من قيس قد أفقدوا هذه الحكومة فى خراسان كل ثقة عند الصديق وعند العدو ، وكانت سياستهم مع السغد خاصة سبباً فى جلب خطر خارجى عظيم ، وليس هذا فحسب ، بل هى قد تركت وراءها مسخفاً أدبياً عميقاً تجاوز الطائفة التى أصابها نتائج تلك السياسة فبلغ إلى أبعد منها بكثير . وقد بدأ الحارث ثورته^(١) مستنداً إلى هذا التذمر ، فحرض الموالى وأثارهم بأن وعدهم بإحقاق حقهم فيها وعيدوا به من إسقاط الجزية عنهم كما وعدهم بأن يشركهم فى الأعطيات التى كانت تعطى للمقاتلة . وانضوى الدهاقنة وأهل القرى تحت رايته السوداء ، وهكذا سار الحارث على أثر أبى الصبيداء ، وكان من بنى من أصحاب أبى الصبيداء فى عداد حاشيته ، مثل أبى فاطمة الأيادى (من الأزد) وبشر بن جرموز الضبى (من تميم) . وهكذا تولى العرب مرة أخرى قيادة الحركة لانصاف الأعاجم الذين دخلوا الإسلام باعتبارهم مواطنين فى الدولة النبوقراطية ، ولكن اشترك فى الثورة على الحكومة عدا هؤلاء القادة عرب كثير من تميم والأزد ، ولم تكن الثورة بوجه من الوجوه مقصورة على المرجئة ، وكان الحارث يقبل كل من يؤيده .

وكانت البلاد التى ظهر فيها هى أرض « الثغرين » ، وقد رفع الراية السوداء فى بلاد ما وراء النهر أول الأمر ، وكان ذلك فى السنين الأخيرة من ولاية الحنيد ،

(١) [راجع فيما يتعلق بثورة ابن سريج (الطبرى ج ٢ ص ١٥٦٦ - ١٥٧٢ ، ١٥٧٦ - ١٥٧٧ ، ١٥٧٩ - ١٥٨٠ ، ١٥٨١ - ١٥٨٦ ، ١٥٨٩ - ١٥٩١ - المترجم] .

وهي السنين التي لا يذكر فيها من أمره شيء . وعند مجيء عاصم بن عبد الله والياً على خراسان امتدت الثورة فشملت طخارستان أيضاً . وأقبل الحارث من جهة الشمال حتى وصل إلى الفارياب ، وسار منها إلى بلخ بعد أن قاتل حتى عبر النهر قتالاً كطُل بالنجاح ، ولم يستطع عمال بلخ ومرو الروذ وهرة وغيرها أن يثبتوا أمامه . وخضعت له طخارستان كلها ، كما خضع له أيضاً العرب أنفسهم ، وكانوا هناك يتألفون من الأزدي وبكر بنوع خاص ، وقد انضم إليه أيضاً جعفريه نائب ملك الترك في طخارستان العليا ، كما انضم إليه أمير الخُشَل .

ولم يكن قد بقي في يد حكومة الأمويين (الطبري ج ٢ ص ١٥٨٢) من مدن لم ينازعها عليها الحارث سوى مرو وأبرشهر ، وكلاهما في غرب خراسان ، وقد تضمخ جيش الحارث بعد انتصاراته في طخارستان تضمخاً كبيراً ، وفي هذا الجيش اجتمع فرسان من العرب ورجالة من جند الأعاجم ، فتقدم الحارث إلى مرو ومعه جيش جرار ، وكان قد كاتب جميعاً في مرو لأن أصله كان من هناك (الطبري ج ٢ ص ١٨٩٠) ، وكان عاصم يريد أن يتقهقر أمامه إلى أبرشهر ، أي إلى أرض قيس ، ولم يفلح رجاله في إقناعه بالثبات إلا بمشقة كبيرة ، وكان قد اطمأن تماماً بعد أن حلفوا له بالطلاق والعناق على الصديق في القتال . واستطاع عاصم أن يرد أول هجوم قام به الحارث ، ولكنه لما بلغه إقبال أسد بن عبد الله القسري ليحل محله على خراسان أو شك أن ينضم إلى الحارث ، ولكن يحيى بن حُصَيْن رده عن ذلك ، وكانت بكر في ذلك الوقت ، مع أنها كانت مع الأزدي في الحزب المعارض ، قد غيرت اتجاهها ورأىها بقيادة هذا الرجل العاقل ، لأن بكرأ قد تبينت أن المصلحة العامة للأمة العربية كانت معرضة للخطر ، وقد تميزت بكر عن غيرها في مقاتلة الحارث ، فهزم الحارث مرة أخرى ورجع عبر النهر ، وحاصر هناك مدينة ترمذ ، وكانت مدينة هامة ،

ويُذكر أن خراسان كانت في تلك الفترة خاضعة للخليفة مباشرة ، وقد كان الخليفة نفسه قد عين عاصم بن عبد الله والياً عليها ، ففعل عاصم ما كان سبياً في عزل هشام بن عبد الملك إياه عن ولايتها في أول سنة ١١٧ هـ (٧٣٥ م) ، وذلك أنه كتب إلى هشام^(١) على سبيل الإخلاص في التصديحة : أن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى صاحب العراق فتكون موادها ومنافعها ومعونتها في الأحداث والنواب قريبة إليها نظراً لبعدها الخليفة عنها ، وباطون غيابه لها . فعزل هشام ، واختتم ذلك خالد بن عبد الله القسري ، فعين أخاه أسد بن عبد الله والياً على خراسان ، ولكن كان قد آن الأوان لكي تنهى سيادة قيس في خراسان . وفي رواية أخرى^(٢) أن هشاماً نفسه أمر خالداً أن يُعين أخاه مكان عاصم ، فاستطاع أسد بن عبد الله أن يتحد من الفخر لنفسه أنه أرسل إلى خراسان للمرة الثانية وفي ظروف عصيبة ، وقد أثبت أنه كان أهلاً للثقة التي وضعت فيه ، فاستخلف جديماً الكرماني الأزدي . وهو على كل حال لم يسلم نفسه للأطماع الحزبية لأهل اليمن ، وخلص سبيل عمال الجند الذين كان عاصم قد حبسهم ، وإن كانوا يحكم أنهم من قيس أعداء لأسد بن عبد الله (الطبري ج ٢ ص ١٥٨١ من ١٣ - ١٥) .

وبدأ أسد قتاله للحارث في أرض ما وراء النهر ، فأخضع هناك كثيراً من المدن التي كانت قد وقعت في يد الحارث ، مستعملاً في ذلك السيامة والصاح أحياناً والسيف أحياناً أخرى - ويجوز أن سمرقند كانت من تلك المدن^(٣) .

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٧٣ لما بعدها - المترجم] .

(٢) [الطبري ، ج ٢ ص ١٥٨١ لما بعدها - المترجم] .

(٣) لا يذكر أن سمرقند سقطت في يد الحارث ولا أن أسداً استردها ، بل يذكر فقط أن أسداً ذهب إلى هناك وقطع الماء عن المدينة . ولكن لا يمكن أن نفهم من ذلك أكثر من عمل حدافي ، ذلك أن الماء كان يأتي من ورغسر حيث كان يوجد مركز خروج الأنهر ، وكلمة ورغس معناها السكر ، أما كلمة سمرقند معناها رأس كلمة السامية ، وهي تدل على النقطة التي ينتهي منها توزيع الماء بواسطة السكر [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٨٦ - المترجم] .

خير أن أسداً لم يفعل شيئاً مع الحارث لما كان الحارث أمام ترمذ ، ولكن أهل ترمذ ، مع أنهم عجم ، دافعوا عنها دفاع الأبطال ، حتى رأى الحارث أن ينصرف عنها قاصداً طخارستان ، وتفرق عنه أنصاره وحلفاؤه .

وعند ذلك تحول أسد إلى طخارستان ، وكانت هذه البلاد قد أخضعها حقيبة بن مسلم من قبل ، ولكن لم يكن فيها - فيما عدا مرو الروذ - قاعدة للسيادة العربية ثابتة ما سوى مدينة بلخ ، فدخّلها أسد واتخذها داراً ونقل إليها الدواوين ونقل إليها من كان بالبروقان من الجند ، وأقطع كل من كان له بالبروقان مسكن بقدر مسكنه ، ومن لم يكن له مسكن أقطع مسكناً - ويدل هذا على مقدار أهمية طخارستان في نظره . ولكنه خلط بين الجند ولم يجعلهم أقساماً (أنحاساً) كما كانوا في البروقان من قبل غير مختلطين بالأعاجم ، وإنما أراد بذلك أن يخلط بين الجند من مختلف القبائل ليتجنب تمعصب بعضهم على بعض . وهو قد حافظ على ما كان بينه وبين الدهاقنة من مودة - وكان محبوباً عندهم من قبل - وذلك لكي يستطيع من طريقهم أن يؤثر في الطبقات الدنيا للشعب . وكلف الرعايا الأعاجم إعادة بناء مدينة بلخ ، ولكنه أسقط قيمة العمل الذي بدّله في ذلك من الخراج الذي كان مفروضاً عليهم ، وعهد إلى برمك بالإشراف على البناء ، وكان برمك دهبان النوبهار ، وهو جد البرامكة الذين صار لأسرتهم شأن كبير فيما بعد^(١) . وعلى هذا فقد كان أسد يسمى إلى إيجاد روح التفاهم بين العناصر المتعادية وإلى مزجهم شيئاً فشيئاً في حدود معقولة .

وكان الحارث بن سريج قد هرب إلى طخارستان العليا لاثناً بأصهاره التغلبيين الذين كانوا في قلعة التبوشكان ، ولكن أصهاره لم يريدوا أن يضحوا

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٩٠ ، ١٥٩١ ص ١٨ - ٢٠ ، والمؤلف لا يذكر أن نقل الجند كان في سنة ١٠٧ هـ - المترجم] .

بأنفسهم من أجله ، فأخرجوه ومن كان معه ودخلوا في مفاوضات مع أسد ، ولكن أسداً عرف من مفاوضات جاءوا إليه فغدروا بقومهم أن أهل القلعة ليس عندهم طعام ولا ماء وأن القلعة لا تكاد تصمد للدفاع ، فأرسل الكرمانى لمهاجتها ، فاضطر من فيها إلى التسليم بعد أن أجهدهم الجوع والعطش ، وقتل الأمري (الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٨)^(١) وبيع النساء والأولاد - رغم أنهم من دم عربى - في سوق بلخ على من يزيد في شرائهم .

وفي سنة ١١٨ هـ (٧٣٦ م)^(٢) قام أسد بغزو الخُتَل في شمال نهر بلخ وفي مواجهة بلخ نفسها ، وكانوا لم يتم إخضاعهم بعد ، وكانوا أيضاً قد حالفوا الحارث بن سريج ، وكان أميرهم يقيم في نواكث ، فاستجاش بخاقان الترك طالباً نجده ، ولكن لما خرج الخاقان من سُوَيَات متقدماً إلى خُشْتَوْرَاخ أخبر بذلك أسداً لكي يحذره ، وكان الخاقان لا يريد النصر للترك بل كان يزاحم العرب : وبعد أن تردد أسد بعض التردد رأى أن يقفل راجعاً ، ولكن بعد أن عبر النهر ظهر الأعداء على الضفة الأخرى ، ثم ضربوا بكوساتهم وهبوا على دوابهم وهي تنخر أشد النخير ، ولكنهم لم يهاجوا الجيش الأساسى لأسد ، بل هاجوا فرقة كان قد سرتحها أمامه بالأنقال والهنائم من الشاء والماشية حتى بلغت بطن واد ، فأصابها العدو واستطاع أسد أن ينقل الجند ، وكان ذلك في آخر رمضان سنة ١١٨ هـ^(٣) .

(١) [راجع أيضاً الطبرى ج ٢ ص ١٥٨٩ - ١٥٩١ - المترجم] .

(٢) [يذكر الطبرى ذلك في أحداث ١١٨ هـ (ج ٢ ص ١٥٩٣ فابعداً) - المترجم] .

(٣) ١١ أكتوبر سنة ٧٣٦ م وتاريخ السنة هنا يختلف سنة ، ويذكر أن « يوم الأثقال » كان في سنة ١١٩ هـ ، ولكن لو حسينا السنين من الخلف لتيين أن سنة ١١٨ هـ هي الصحيحة .

ولا بد أنه قد سُرَّ بالنجاة بجلده إلى بلخ ، فتغنى الصبيان بالفارسية بأغاني
يغبطونه بها (١) .

ولكن الخاقان لم يدع أسداً يستمتع بالخدود ، فذهب الخاقان إلى جيفوية
البحر الخي (٢) في شرق طخارستان ، ويروى أن الحارث بن سريج - وكان
يقع هناك - قد استجلبه إلى طخارستان ، فخرج في وسط الشتاء ومعه
أتباعه وحلفاؤه متوجهاً إلى الغرب ، وعلم أسد بخبر ذلك في ليلة الأضحي
من سنة ١١٨ هـ (١٩ ديسمبر سنة ٧٣٦ م) ، فأمر برفع النيران على المدينة
لكي يتجوا الناس بأنفسهم إلى بلخ ، واستخاف الكرماني بن علي (٣) في
المدينة وسار بنفسه من غير تردد ، وأخذ معه من كان عنده من أهل
الشام - لأنه كان قد صرف بقية الجند إلى أوطانهم في أول الشتاء - وقصد
الخابقان . وكان الخاقان معسكراً غير بعيد من مدينة جوزجان . وكان
قد بث الغارات في جميع النواحي ، ولم يبق معه إلا أربعة آلاف ورجل ،
فهاجمه أسد (٤) ، فوجه فرقة قادها أمير الجوزجان من طريق كان يعرفه ،

(١) [مثل :]

أزعزلان آمدي بروناه آمدي
بيدل نواز آمدي

ومثل :

أزعزلان آمدي بروناه آمدي
آبار باز آمدي عشك نزار آمدي

لكن هذا أيضاً يذكر في تاريخ سابق (سنة ١٠٨ هـ) . أما ما نحن بصدده هنا فهو
من حوادث سنة ١١٩ هـ (راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٩٢ ، ١٤٩٤ ، ١٥٩٣ - ١٦١٩)
ويظهر أن ثم خلطاً بين حوادث ولائي أسد على خراسان - المترجم [:
(٢) خرلنج قبيلة تركية (ابن خردادبه ص ٣١) ويذكر في أهم نشبة أن جيفوية كان
رئيس الشاذ ورئيس طرخان أبوك الذي كان قائماً للشاذ أو منضياً إليه - قارن ما أرسل إليه
الخليفة في ذلك وهو عند الطبري ج ٢ ص ١٦١٥ .

(٣) المقصود هو جديع بن علي الكرماني ، وكلمة « بن علي » غير موجودة في الأصل
الألماني ، ولكنها موجودة في الطبري ج ٢ ص ١٦٠٥ . [المترجم]

(٤) كان علي ميمنة أسد الأزدي وبنو قديم وهو الجوزجان وأهل قشام من فلسطين وقدرين
وكان على ميسرته ربيعة وأهل حصن والأردن ، وكان في المقدمة أهل دمشق والشرطة والحرس
وغلمانته . وكان جند الشام بطبيعة الحال مع الأمير دائماً ، ولم يكتفوا بذهبهم في الشتاء إلى -

وهاجم الخاقان من الخلف ، فاضطره بذلك إلى الإسراع في الحرب ، وأراد
الخصي أن يحمل امرأة الخاقان ، فأعجله العرب ، فلم يجد طريقاً لتجنب
هز وقوعها في يد العرب ، إلا أن يطعن بها بخنجر . وظفر المسلمون
بالمعسكر ، فوجدوها تتحرك ، ووجدوا المقدور تغلي ، فأطلقوا أسرى
المسلمين الذين كانوا هناك ووقع في يدهم كثير من سبي الترك وختانهم
لانحصى من الشاء والدواب والدروع وغيرها من آنية الفضة ، فبعث أسد
بجوارى الترك إلى دهاقين خراسان^(١) ليستنقذ من كان في أيديهم من أسرى
المسلمين . وتلقف أسد^(٢) خيلاً للترك كانت منصرفة لتغير على بلخ ، فارتدت
بعد أن كانت قد بلغت بيعة مرو الروذ .

وحال الشتاء دون المضي في مطاردة الخاقان ، فكث الخاقان عند جبهوية
في طخارستان حيناً ، ثم عاد إلى بلاده من طريق أشروسنة ومعه الحارث
ابن سريج . وبعد ذلك بقليل قتله أحد كبار رجاله ، وهو كورصول
الترقش الذي يرد ذكره كثيراً ، وعلى أثر ذلك ظل الترك في خلاف فيما
بينهم^(٣) ، وتركوا العرب ينعمون بفترة من الهدوء .

وقد أمر أسد ، بعد أن عاد إلى بلخ^(٤) ، بالصوم شكراً لله لما فتحه عليه ،

أوطانهم كما يفعل عرب خراسان . وكان مع الخاقان الحارث بن سريج وأصحابه (من أهل السند
والهابة) وملك السند وأمير الشاش وخرابرة من أشروسنة (وهو جد أفشين كاس
المشهور) وصاحب الختل وجبهوية . أما ملك السند فربما أنه صاحب أشكيتن الذي تبع هو
وأشكند نسب الخاقان للحرب في بلاد الختلان ، هل حين أن صفان - خداه كان يحارب
في صفوف أسد ، وهكذا كان العجم يحاربون في الجانبين ، ولكن يلوح ما جاء في الطبري
(ج ٢ ص ١٦١٣ ص ٢ لما بعده) كأنما لو كان خرابرة قد بقى في وطنه أشروسنة ، وقد
كان في قلبه معادياً للخابان .

(١) يفسر فان فلوتن (ص ٢٥ هامش ٢) هذا الخبر البسيط (الطبري ج ٢ ص ١٦١١)
تفسيراً سيئاً - راجع كتابه ص ٢٥ هامش رقم ٢ .

(٢) راجع فيما تقدم الطبري ج ٢ ص ١٥٩٣ - ١٦١٤ - المترجم [.

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٦١٥ قارن ص ١٦١٤ - المترجم] .

«ولما بلغ خبر الانتصار على الخاقان إلى هشام في دمشق لم يكذب بصدقه ، وأبده في ذلك من كان عنده من قيس حسداً منهم لأسد ؟ ولم يكن هشام يفتق من خراسان من قبل سوى أخبار النكبات ، فطلب توجيه مقاتل ابن حبان النبطي من خراسان إليه ، وكان مقاتل رجلاً صادقاً ، فقص على الخليفة أخبار غزو أسد بلاد الختل وما كان من تطور في القتال حتى استباح المسلمون عسكر خاقان وأجلتوه عنه ، وكان هشام يستمع إلى مقاتل وهو معكئ ، فلما أخبره مقاتل باستباحة عسكر خاقان استوى جالساً :

وفي صيف سنة ١١٩ هـ (٧٣٧ م) استأنف أسد الحرب مع الختل (١) ، ولم يكن الترك قادرين على مساعدتهم ، هذا إلى أن الختل كانوا فيما يظهر مختلفين فيما بينهم ، وذلك أن بدر طرخان خرج من أرض الباميان واغتصب الحكم (قارن الطبري ج ٢ ص ١٦٩٤) وقد وقع هذا الغاصب من طريق غدر شائن في يد أسد ، فأسلمه إلى رجل من الأزد كان له عنده ثأر لكي يقتله (٢) ؛ ولكن أسداً مع هذا لم يفعل كثيراً ، بل اكتفى بتوجيه نخيله في غارات في أودية بلاد الختل ، وفي الشتاء التالي لذلك ، في أول سنة ١٢٠ هـ ، عاجله الموت بغتة ، ولكن موته نجده في الحقيقة من الوقوع في هواقب سقوط أخيه خالد (٣) .

(١) [راجع فيما يل الطبري ج ٢ ص ١٦٢٩ - ١٦٣٣ - المترجم] .
(٢) كان أسد قد أعطاه الأمان وجعل له عهداً له والنبي والخليفة والمسلمين ، فلما لم يحافظ أسد على عهده قذف بدر طرخان بحجر في الهواء وقال : هذا عهد الله ، ثم قذف ثلاثة أحجار أخرى قائلا : هذا عهد أمير المؤمنين وعهد المسلمين . [الحقيقة أن أسداً لم يقدّر الدر الذي يصفه المؤلف ، وكل ما في الأمر أنه تصاعد جدّاً مع بدر طرخان ، ظناً أراد أن يتدارك الأمر وأرسل رجلاً وراء بدر طرخان ، ظناً هذا أن أسداً نقض العهد فقال ما قال ، فعاقبه أسد] المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١٦٢٩ لما بعدها .
(٣) عزل خالد في جمادى الأولى سنة ١٢٠ هـ (مايو سنة ٧٣٨ م) ؛ ولكنه تلقى خبر موت أخيه وهو لا يزال في منصبه (الطبري ج ٢ ص ١٦٥٠) ، وفي رجب سنة ١٢٠ هـ خلف نصر بن سيار أسداً على ولاية خراسان ، وكان بينهما فترة أربعة أشهر - (٣٩ - الدولة العربية)

وكان كبار العرب وكبار العجم يجلبونه فيقدون إليه ويقدمون له الهدايا القيمة ، وقد قدم إليه في يوم المهرجان ، فيمن قدم إليه بالهدايا ، خراسان ، دهقان هراة ، فقام بين يدي أسد خطيباً وبين من كريم صفاته وشجاعته وأعماله العظيمة ما رفعه به إلى السماء السابعة (١) . ثم مرض أسد ، وأفاق إفاقةً ، فخرج يوماً ، فقُدَّت له كثري ، وأراد أن يتألف بخراسان ، دهقان هراة ، فرى إليه بواحدة وكان في جوف أسد فيما ذكره دُبَيْلَةُ ، فانقطعت عند ذلك ومات — هذا ما يحكى ، ولكن ما يذكر من أن ذلك كان بمناسبة عيد المهرجان فهو غير صحيح ، وهو يزيد الشك في القصة التي تشبه في ذاتها ما يقال في الأساطير (٢) .

٦ — وكان سقوط خالد بن عبد الله القسرى ، الذي ظل أميراً على العراق سنين طويلة ، فاتحة الفترة الأخيرة الحملة بالكوارث والتي انتهت بسقوط الدولة الأموية ، فقد خلفه على العراق وال قيساً حياً ودمياً ، متعصباً لقيس ، وهو يوسف بن عمر ، من أسرة الحجاج ، ولا شك أنه لم يكن شيء أحب إليه من أن يعين على خراسان والياً من قيس ، لولا أن هشام بن عبد الملك حال دون ذلك وحبس نصر بن سيار خلفاً لأسد ، وكان نصر من ذوى الأسنان القلائل جداً الذين ظهروا في تاريخ تلك الحقبة ، ولم تؤثر سنوه الكثيرة في حدة ذهنه وبقوته ، كما تشهد بذلك أفعاله ، بكتفه القصائد التي ظل ينشئها حتى أواخر أيامه . وكان

= الطبرى ج ٢ ص ١٦٣٨) . وعلى هذا يكون قد مات في صفر سنة ١٢٠ هـ (فبراير سنة ٦٣٨ م . أما الرواية القائلة بأنه مات في يوم عيد المهرجان فلا يمكن الأخذ بها ، لأنه ذلك العيد وقع في الحريف ، ولا يمكن أن يصلح حريف ١١٩ ولا حريف ١٢٠ هـ تاريخاً لذلك .

(١) [يجد القارئ هذه الخطبة عند الطبرى ج ٢ ص ١٦٣٦ - ١٦٣٧ ، وهي تدل على فكرة أسد دهانته إيران عن أنفسهم وعن العرب - المترجم] .

(٢) [يؤخذ من الطبرى (ج ٢ ص ١٦٣٨) أنه قد انقضت فترة بين يوم المهرجان وموت أسد - المترجم] .

قد نشأ في أرض خراسان وشاب وهو في خدمة الدولة ، وكان مما دعى الخليفة إلى إيثاره على غيره أنه لم تكن له عشيرة قوية يضطر إلى أن يستند إليها^(١) ، وذلك أنه لم ينسب إلى أي من القبائل الكبرى في خراسان ، بل كان من كنانة التي كانت قليلة العدد هناك . ولما كان كنانياً فقد كان من الطبيعي أن يميل إلى تميم ، لأن تيمياً وكنانة ينتسبان جميعاً إلى خنيدف ، فعزل العمال الذين قد حينهم سلفه وعلوه أسد بن هبد الله — ولكن من غير أن يعدلهم — وعين مكانهم خنيدفتين أي عمالاً من تميم بنوع خاص^(٢) . وإلى جانب المدن الأربعة^(٣) التي كانت في خراسان حواضر للدولة ، كانت هناك بلخ وخوارزم وسمرقند (الطبري ج ٢ ص ١٦٦٤) ، فنقل نصر مقر الحكومة من بلخ وأحاده إلى مرو ، أي من طرف أرض السيادة العربية إلى وسطها .

وقد قام نصر في الفترة الأولى من ولايته بمحاربة الترك ، وكان هو البادئ بمهاجمتهم . فعرج من بلخ وغزا ما وراء النهر من ناحية باب الحديد ، ومربدنة ورخستر قاصداً سمرقند ، وهناك وقع في يده الثمان من دهاقنة بخاري كانوا قد أسلموا على يديه ، ولكنهما ثارا ، اعتقاداً منهما بأن ظالماً وقع عليهما ، وأجعا على القتل بواصل بن عمرو القيسي عامل بخاري وببغار انحاده رئيس المسلحة ، حتى إذا كان نصر يستمع إلى أمرهما من ببغار انحاده ، قالاً : نموت كرمين ، فشدد أحدهما

-
- (١) [لما استشار هشام بن عبد الملك أصحابه في رجل يصلح لولاية خراسان استبعد من رشعوا له من كان صاحب شراب أو فيه به وطفلة أو كان موزوراً أو غير حليف أو كان متنبياً إلى قبيلة لا يعتمد عليها في سد الثغور وهكذا ، فلما قيل له إن نصر بن سيار ليست له عشيرة ، قال : أنا عشيرته — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١٦٦٠ فما بعدها] .
- (٢) [كان هشام بن عبد الملك لا يميل إلى قيس ولا إلى ربيعة (الطبري ج ٢ ص ١٦٦٢ ، ١٦٦٣) ، وكذلك لم يكن نصر بن سيار يميل إلى قيس . ويذكر الطبري (ج ٢ ص ١٦٦٤) أن نصر ظل أربع سنين لم يستعمل فيها إلا مضريناً — المترجم] .
- (٣) [راجع مثلاً ما تقدم ص ٣٩٦ — المترجم] .

على واصل فطعنه في بطنه بسكين ، فضربه واصل بسيفه ضربة أطارت قحف رأسه ، فمات واصل : وأما الثاني فطعن بخنجر اخذه ، ولكن بلوزجان بن الجوزجان شد عليه فقتله . والمظنون هو أن الظلم الذي شكوا منه هذان الدهقانان هو إلزامهما بدفع الجزية مع أنهما كانا مسلمين . وبعد أن فتح نصر سمرقند توجه إلى أشروسنة ، وقد زاد جيشه بمن انضم إليه من الأتباع ، ثم خرج إلى الشاش ، وكان في الشاش في ذلك الوقت كورصول ، قاتل الخاقان ، وكان أميراً على جماعة تبلغ أربعة آلاف قبة ، فوقع في يد العرب بعد اشتباك ، وقتله نصر وصلبه على شاطئ النهر . وكان الحارث بن سريج يقاتل العرب في صفوف الترك ، وكان معه عرّادتان ، فلم يرض أن ينصبهما تلقاء تميم ، لأن تيمماً كانوا من قبيلته ، وانتهى الأمر بأن صالح نصر أهل الشاش واشترط عليهم يُخرجوا الحارث بن سريج ، وبعد ذلك صار نصر إلى فرغانة ، ولكنه اكتفى بأن صالح أهلها وقفل راجعاً دون أن يسير إلى ما وراء نهر الشاش . ومن الجائز أن تكون هذه الحملة قد تطلبت أكثر من عام من الزمان ، أما المدائن فهو يجعلها ثلاث حملات ، وهذا غير معقول^(١) ، وهو إنما يتنوع في الروايات ويجمع كل التفاصيل الممكنة ويتم خاصة بذكر ما هو من قبيل الحكايات العجيبة ، أما البلاذري (ص ٤٢٩) فلا يذكر لنصر إلا حملة واحدة ، وهي حملة أشروسنة ، ويقول إنها انتهت نهاية غير موفقة^(٢) . أما الأعمال الرائعة التي ينسبها إلى نصر أ. مولر (A. Müller, 1, 412) متابعاً لفابيل (Well, 1, 532) ، فلا شك أن نصر لم يعملها ، ولكنه استطاع أن يرغم الترك في بلاد الشاش على التخلي عن التأثير المهيّج ، الحارث بن سريج ، وعلى إخراجه من بلادهم ، وإن كانوا لم يسلموه

(١) يقول المدائني إن نصرأ توجه إلى : أ - باب الحديد ورجع ، ب - وإلى سمرقند ورجع ، ج - وإلى الشاش ، ولكن أ وب مجرد مراحل لرج .
(٢) ويقول بأن تاريخ ذلك كان في عهد مروان بن محمد بعيد جداً عن الصواب .

له . وقد خرج الحارث إلى الفارياب وأقام حيناً إلى أن اندلعت نار الحرب الأهلية بعد مقتل يزيد بن الوليد . وكذلك سمح نصر لأهل السغد الذين كانوا قد خرجوا من ديارهم ، ولم تصبح لهم في بلاد الشاش وفرغانة شوكة بعد الاضطرابات التي أعقبت مقتل الخاقان ، بأن يعودوا إلى أوطانهم ، ولكنهم كانوا قد اشترطوا للعودة شروطاً كرهها وأنكرها أمراء خراسان ، مثل عدم معاقبة من ارتد منهم عن الإسلام وعدم أخذهم بما عليهم لبيت المال ونحو ذلك . ولم يرض نصر بهذه الشروط ، ولم يرض بها هشام بن عبد الملك ، إلا تألفا لأهل السغد وتجنباً لنكابتهم في المسلمين (الطبري ج ٢ ص ١٧١٧ - ١٧١٨) .

وإصلاح نظام الخراج الذي قام به نصر من شأنه أن يلقى ضوءاً على سياسته الداخلية ، ويروى المدائني (الطبري ج ٢ ص ١٦٨٨) ما بعدها) أخبار ذلك . وقد أعلن نصر برنامج هذا الإصلاح في خطبة خطبها في مسجد مرو فقال : « ألا إن بهرامسيس كان مانع الجوس ، يمنحهم ويدفع عنهم ويحمل ألقامهم على المسلمين ، ألا إن إشتاد بن جريجور (١) كان مانع للنصارى ، ألا إن عقبة اليهودى كان مانع اليهود بفعل ذلك ، ألا إنى مانع المسلمين ، أمنحهم وأدفع عنهم وأحمل ألقامهم على المشركين ، ألا إنه لا يقبل منى إلا توفى الخراج على ما كتبت ورفع (٢) ، وقد استعملت عليكم منصور بن عمر بن أبي الخرقاء ، وأمرته بالعدل عليكم ، فأبى رجل منكم من المسلمين كان يؤخذ منه جزية من رأسه

(١) هكذا نجب قراءة الأسماء المسيحية التي يصعب التصرف عليها مكتوبة بالبرية .

(٢) إن القراءة الصحيحة موجودة في هامش ص ١٦٨٨ مع علامة ٧ (توفير بدلا من توفى) ، [نجد في المتن عند الطبري : « توفى الخراج على ما كتب ورفع » . وبسبب القراءات التي ذكرها الناشر في الهوامش يمكن قراءة المتن هكذا « توفى الخراج على ما كتب ودفع » - ومن الين أن قراءة المتن صحيحة وإن كانت القراءة بحسب الهوامش غير صحيحة - المترجم] .

أو تُفَقِّلَ عليه في خراجِه وخُفِّفَ مثل ذلك من المشركين فكُلِّبَرَقْعُ ذلك إلى منصور بن عمر ، يحوله عن المسلم إلى المشرك . و يروى أنه لم تأت الجمعة الثانية حتى أتى ثلاثون ألف مسلم ، كانوا يؤدون الجزية عن رؤسهم ، وثمانون ألف رجل من المشركين قد أُقْبِتَ عنهم جزيتُهم ، فحَوَّلَ ذلك عليهم وألْقِيَّ عن المسلمين ، ثم صَنَّفَ نصر الخراج حتى وضعه مواضعه ، ثم وظَّفَ الوظيفة التي جرى عليها الصلح ، وكان يؤخذ من مرو في أيام بني أمية مائة ألف درهم سوى الخراج ٥

وعلى هذا صارت الجماعات الدينية غير الإسلامية هي الجماعات التي تدفع الجزية ، وكان رِبَّان اليهود يأخذ الجزية من اليهود ، وأسقف النصارى يأخذها من النصارى ، والمرزبان^(١) يأخذها من الجوس ، وكان الجوس بطبيعة الحال هم الغالبية الكبرى ، وإن كان عدد النصارى لم يكن قليلاً^(٢) . ولكن كيف كان رؤساء الجماعات الدينية هؤلاء قد استطاعوا أن يحوِّلوا الجزية من الجوس والنصارى واليهود وبلقوها على كاهل المسلمين تحت نظر الحكومة العربية ؟ إن كلام المدافعي في هذا الموضوع غير مفهوم ، ومما لا يمكن تصديقه أبداً أن تكون الجزية

(١) وإذن فالمرزبان في هذه الحالة ، هو رئيس الجوس - قارن الطبري ج ٢ ص ١٤٦٢ س ١٣ .

(٢) كان الساطرة السريان قد انتشروا في الشرق انتشاراً بعيداً ، كما هو معلوم ، وقد وضع أسقف أومطران مرو جسد يزدهر آخر ملوك الساسانيين في ناورس (الطبري ج ١ ص ٢٨٧٤ في بعضه و ص ٢٨٨١ و ٢٨٨٣ - قارن ج ٢ ص ١٤٤٨ س ٥ و ص ١٥٤٣ س ١) . وتذكر منازل الرهبان ويذكر مكان القديس ماسرجستان عند مرو ، وتذكر مهمة في مرو أيضاً ربيعة عند مرو الروذ (الطبري ج ٢ ص ١٥٧٢ س ٢ و ص ١٩٢٥ س ١٣ و ص ١٩٥٧ س ١٤ و ص ١٥٦٩ س ١٤ و ص ١٦١٢ س ١١) وفي قرية النصرانية خلف قصر بن سيار زوجة المرزبانية ، وهو يحارب الهروب من مرو الطبري ج ٢ ص ١٩٩٥ س ١٠ وقارن ١٨٨٩ س ٦) . وكان في طخارستان موضع هام يسمى اليهودية .

تحدد ألقبت عن ثمانين ألفاً كان يجب عليهم أن يؤدوها ، وأن تُتلقى على ثلاثين ألفاً لا يجب عليهم أدائها ، فلا بد أن يكون الموقف هنا بحسب كل ما هو معروف من المواقف المشابهة له . ، هو أن دخول غير العرب في الإسلام كان لا يخرجهم عن تبعيتهم للجماعة التي كان عليها أن تؤدي الجزية . وكانت الجزية بحسب ما جرى عليه الصلح من قبل قد تقرر على مقدار ثابت لا يتغير ، بحيث إن لم يدفعها الداخلون في الإسلام وجب على بقية الجماعة التي ينتمون إليها أن تدفعها عنهم حتى انتهى الأمر بأن أصبح جمع ذلك المبلغ المحدد غير ممكن ، وعلى هذا فإن واجب أداء الجزية كان قد صار عبثاً على من وقع على كاهلهم بمقتضى شروط الصلح ، يورثونه أبناءهم من بعدهم ، حتى لو دخل هؤلاء الأبناء في الإسلام بعد ذلك . وكان الرؤساء المظليون من غير العرب يعملون بهذا المبدأ بإذن من الدولة العربية ، وقد تبين أن ما حاوله عمر بن عبد العزيز قبل غيره من إحداث تغيير أساسي في هذا الوضع كان شديداً لا يمكن تنفيذه ، ولكن تبين في الوقت نفسه أن جما يخالف روح الإسلام أن يبقى الداخلون فيه - وهم بحكم إسلامهم مواطنون في الدولة التیوقراطية - مُتَفَتِلِينَ بعبء الجزية ، شأنهم شأن غير المسلمين ممن ليسوا مواطنين في الدولة الإسلامية وإنما كانوا يتمتعون بتسامح المسلمين معهم ، فكان لا بد من التمييز بين الفريقين ، ولكن بشرط أن لا ينقص مال الجزية عن المبلغ المقرر لها ، وقد قام نصر بذلك على النحو الذي لا بد منه على كل حال ، وكان الخراج من قبل يأتي من ضرائب متنوعة . وكان يشتمل على الخراج الذي يدفعه ملاك الأرض أو من يقوم مقامهم ، ولما كانت كل أنواع الضرائب تسمى خراجاً فلم يكن هناك سوى ضريبة واحدة تسمى الخراج أو الجزية ، وكان معنى هاتين الكلمتين حتى ذلك الحين واحداً (الطبري ج ٢ ص ١٥٠٧ فما بعدها) ، أما في عهد نصر بن سيار فقد وضع نظام يقضي بأن يُجبي الخراج بالمقدار الثابت لذلك تقرر على المدن والنواحي ، كل على حدها ، ومن الأرض وحدها ، وعلى

هذا حدٌ مقدار الخراج من جديد ، وصار يؤخذ من جميع ملاك الأرض .
بحسب ما يملكونه ، سواء كانوا مسلمين أو كانوا رعايا غير مسلمين خاضعين
للدولة الإسلامية^(١) . ولما كان الخراج يُؤخذ عن عين الأرض لا عن
الشخص الذى يملكها ، فلم يكن فى ذلك ما يُشعره بالصغار . وقد حدث
مع ذلك جنبا إلى جنب فصل تام بين خراج الأرض — فأصبح وحده هو
الذى يسمى خراجاً — وبين ضريبة الرأس التى بقى لها اسم الجزية . أما ضريبة
الرأس ، التى كانت تختلف فى المقدار وكان ما يتحصل منها يقل عاماً بعد
عام كلما زاد عدد الداخلين فى الإسلام ، فقد صارت باباً يمكن الاستغناء
عنه فى الخراج الثابت للدولة ، وخصوصاً أنها أسيقت عن المسلمين
بالكلىة وأصبحت لا تؤخذ إلا من غير المسلمين منهم جميعاً ، بقصد تكليفهم
ما يبين قلة قيمتهم الشخصية^(٢) . وتتجلى لأول وهلة صلاحية النظام الجديد
الذى وضعه نصر ، إذا قورن بذلك النظام الذى كان من قبل يُعتبر هو
النظام المتفق مع الشرع ، والذى بمقتضاه كان المسلمون يُعفون من دفع
الخراج : وهكذا ظل الفرق بين معاملة الدولة للمسلمين وغير المسلمين قائماً ، أما
المسلمون ، عرباً كانوا أو موالي ، فقد صاروا من حيث المبدأ والقانون ينفون على قدم

(١) انتقلت الأرض إلى أيدي المسلمين ، لا من طريق دخول مالكها السابقين فى
الإسلام فحسب ، بل أيضاً من طريق حصول العرب عليها وفرائمها . ويظهر مما جاء فى
الطبرى (ج ٢ ص ١٠٢٩ س ٦) أنه حتى قبل عهد نصر بن سيار كان على العرب الذين
اقتنوا أرضاً أن يدفعوا خراجها ، وأن يعطوه إلى الدهاقين ، وكانوا بطبيعة الحال يدفعون
الخراج عنها .

(٢) [هذا ما يقوله المؤلف ، والحق أن مشكلة دفع غير المسلمين الجزية فى الدولة الإسلامية
قد قام حولها كلام كثير ، مع أنها ليست شيئاً عجيباً فى عصرها ، وما هى إلا بمثابة ضريبة
حماية فى مقابل دفاع الدولة الإسلامية عن غير المسلمين فيها وضمان حقوقهم وإعفاتهم من الواجبات
الحربية — المترجم .

المساواة^(١) ، وعلى هذا الوجه أمكن تفادى النقص في الدخل الثابت للدولة ، وذلك أن تفاوت مقدار ما كان يتحصل من مال الجزية — وهو لم يكن كثيراً — وكذلك تناقصه المستمر شيئاً فشيئاً لم يكن له شأن له كبير . ومن الأرجح جداً أن النظم التي وضعها نصر لم تقتصر على ناحية مرو ، بل شملت كل الولاية فيما دون نهر بلخ وفيما وراءه ، لأن هذه النظم لم تكن شيئاً خاصاً ، وقد نُحِيل بها في جميع أنحاء الدولة الإسلامية التي كانت أحوالها مشابهة لأحوال خراسان وما لحق بها ، وصارت هذه النظم هي القانون الصحيح الذي زعم الفقهاء فيما بعد أنه كان موجوداً من أول الأمر ، مع أنه في الحقيقة لم يتكون إلا شيئاً فشيئاً . وهذا هو السبب في أن المدائني تأثر بمزاعم المتأخرين فلم يستطع أن يفهم ما وجدته نصر وما ألغاه وفي أنه يتصور في إصلاحات نصر أشياء عجيبة وجد أنها تخالف القانون بعض المخالفة . على أن المدائني يذكر الوقائع صحيحة : وهي أن المقدار الثابت للمخراج وُظِف على جميع ملاك الأرض حتى على المسلمين منهم ، أما الجزية فقد أُسْقِطَتْ عن المسلمين وفُرِضَتْ على غير المسلمين وحدهم .

وربما كان من الممكن على أساس هذه المساواة بين المسلمين أن يتحقق توازن دائم بين العرب والأعاجم ، ولكن لم يكن هناك وقت لذلك ، فقد عاد العرب في خراسان إلى التنازع وإهلاك بعضهم بعضاً ، وكانت الثورة في الشام هي التي بعثت في هذه المرة على الثورة في خراسان ، وكانت تلك الثورة ردّاً فعل من بجانب الحزب الثائر على طغيان حزب قيس في أيام الوليد بن يزيد . وجاء الوليد بن يزيد بعد هشام في أول ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ (فبراير سنة ٧٤٣ م) فأقرّ نصرّاً في منصبه أول

(١) ولكن بطبيعة الحال كان الأعاجم يدفعون في الواقع أكثر مما يدفعه العرب لأن معظم الأرض كانت في أيدي الأعاجم وخصوصاً في أيدي الدهاقنة الذين كانوا من جانبهم يتصورون دم الزراع . ولكن دفع الأعاجم أكثر مما يدفعه العرب لم يكن والحالة هذه ظلماً .

الأمر (١) ، ولكنه بتأثير رئيس قيس ، وهو يوسف بن عمر (٢) أمير العراق ، عزله بعد فترة ما ، ودعاه إلى دمشق وكلفه أن يحضر معه أشياء كثيرة من الجوارى والبراذين والحيل والآنية والصنوج والدفوف وغيرها من الأشياء الجميلة ، وأن يقدم عليه في وجوه أهل خراسان . فتباطأ نصر في الاستعداد لذلك متعمداً ، حتى كان لا يزال بخراسان في يوم النيروز سنة ١٢٠ هـ (٣) ، لما بلغه خبر مقتل الوليد ، فلم يعترف يزيد بن الوليد الذي ثار على الوليد بن يزيد ، ولا اعترف بأمره الذي بعثه إلى العراق ، أو على الأقل لم يعترف نصر اعترافاً عملياً ، بل دعا القبائل إلى مبايعته أميراً على العراق حتى تنتهى الفتنة وتنتفى الكلمة على خليفة وحتى يأتي أمير من قبله . وقد انضمت إليه الأزد وربيعة ، مع أنهم كانوا حتى ذلك الحين غير راضين عنه ، وصار نصر لا يقصمهم عن المناصب كما كان يفعل من قبل ، وقد عمل في الحقيقة عن جمع كلمة عرب خراسان حتى يعتبروا أن الحكومة حكومتهم جميعاً ولا يعتبروها شيئاً يتنازعون عليه ، وقد سهّل عليه ما أراد من اتخاذ موقف الحياد وعدم الميل إلى حزب دون حزب أنه كان كنانياً لا ينتسب إلى المجموعات الكبرى للقبائل ، ولكن الحكومة كانت في نفس الوقت في يده لأنه على رأسها ، ويروى أن شاعراً موالياً له تغنى باسمه قائلا : نحن بربيعة نكبح جماح

(١) [راجع في هذا وفيما يل الطبرى ج ٢ ص ١٧٦٤-١٧٦٨ ، ١٨٤٥ - ١٨٥٠ ، ١٨٥٥-١٨٦٦ المترجم] .

(٢) وكان يوسف بن عمر نفسه هو وقيس قد دعوا لنصر بن سيار (سنة ١٢٣ هـ) عند هشام بن عبد الملك ولكنهم أخفقوا .

(٣) قتل الوليد بن يزيد في أواخر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ (منتصف إبريل سنة ٧٤٤ م) ، وقد علم قتل بقتله سراً من رجل كان من عمال البريد قبل وصول الخبر الرسمى بمشرة أيام ، وذلك أن كلمة «السكك» التي جاءت عند الطبرى (ج ٢ ص ١٨٤٥ س ٢١ - قارن ١٨٤٩ ص ١٠) هي سكك البريد - قارن الطبرى (ج ٢ ص ١٧٠٩ والاسان ج ٤ ص ٥٣) . ومن العسير أن يكون الخبر وصل إلى نصر في أقل من شهر ، وعلى هذا فإن النيروز لم يقع في تلك السنة قبل منتصف مايو - انظر ماتقدم ص ٣٨ هامش رقم ٢ -

قميس وبالأزد نكسر شوكة تميم فيكون الأمر لكتانة^(١) . فغضب نصر غضباً شديداً على هذا الشاعر المفسد المجرد من كل فهم سياس ، لأنه بما قال لا يخدم إلا أغراض خصوم نصر .

ولكنه لم يمض وقت طويل حتى انتفضت الأزد على نصر ومعها ربيعة ، ويجب ألا ننسى أنهم بحكم أنهم يمانية لا بد أن يقفوا في جانب يزيد بن الوليد ومن يؤيده من قبائل كلب ، ولما لم يدفع لهم نصر أعطياتهم نقداً ، بل من آنية الذهب والفضة التي كان قد أعدها للوليد بن يزيد ، جاهروا بالثورة . وكان على رأسهم جندب بن الكرماني من الأزد ، وجهر جديع بأنه كان يرى من وراء طاعته للأمويين أن يطلب بثأر بني المهلب (الطبري ج ٢ ص ١٨٥٨ س ١١) الذين قتلهم الأمويون قتلاً لا رحمة فيه وهو بذلك قال كلمة كان لها صدغى في قلوب الأزد جميعاً : وذلك أنهم استطاعوا أيام المهلب وأولاده أن يأكلوا ، خراسان ، ولم يتمكنوا من ذلك بعد أيام المهالبة ، ولم ينالوا في أيام أسد بن عبد الله ما كانوا يريدون . وقد استطاع نصر أن يقبض على الكرماني نفسه وأن يحبس في قهنذر مرو في آخر رمضان سنة ١٢٦ هـ (منتصف يولييه سنة ٧٤٤ م) ، ولكنه هرب من الحبس بعد شهر وذهب إلى موضع بجبهة مرو ، وهناك اجتمع إليه جيش من الأزد وربيعة . وخرج نصر لقاتله ، ولكن لم يشتبك الفريقان وأشفق كل منهما من ذلك ، وبدأت بينهما مفاوضات للصلح ، لكنها لم تؤد إلى نتيجة ، لأن الكرماني كان يكره نصرأ كرهاً عميقاً ولم يرد أن يعاهد نصرأ لأنه لم يكن يأمنه .

وكانت الطامة الكبرى خروج الحارث بن سريج من بلاد الترك وظهوره

(١) [هذا معنى ما يذكره المؤلف وهو لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه حتى نستطيع ذكر كلام الشاعر بنفسه - المترجم] .

على المسرح من جديد - وربما كان ذلك قبل آخر سنة ١٢٦ هـ ، لأن يزيد.
ابن الوليد - وكان قد آمنه^(١) - مات آخر سنة^(٢) ١٢٦ هـ . ولما كان الحارث
حدوا للكرماني فإن نصرأ دعاه لكي يخرج من سمرقند^(٣) - وكان قد نزلها
أول الأمر - ويأتي إلى مرو ، فأقبل الحارث إلى مرو في آخر رمضان سنة
١٢٧ هـ (أول يولييه سنة ٧٤٥م^(٤)) . وعلى كثرة أنواع التكريم والهدايا التي
غمره بها نصر فإنه لم يلزم بجانب نصر ، وظل متمسكاً بمطالب المرجئة كما كان.
يفهمها من الناحية العملية ؛ وهو طالب بها نصرأ أيضاً^(٥) . وقد انضم إلى
الحارث ثلاثة آلاف رجل من قبيلته تميم ، والحق أن نصرأ أفرط في التساهل مع

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٦٦ - ١٨٦٩ ، ١٨٨٨ - ١٨٩٠ ، ١٩١٧ فابعدا - المترجم] .

(٢) كانت أم يزيد بن الوليد أميرة من أميرات السغد (الطبري ج ٢ ص ١٨٧٤) ،
وربما كان من أجل ذلك ميلا إلى أهل السغد [ولكن التي يقولها الطبري هنا هو أن أم يزيد
كانت أم ولد اسمها شاه أفريد بنت فيروز بن يزجرد بن شهریار بن كسرى - المترجم] .

(٣) [يقول الطبري (ج ٢ ص ١٨٨٨) إن الحارث وأبي مرو ثلاث بقين من بخاري
الآخرة سنة ١٢٧ هـ - المترجم] .

(٤) [روى رواية أن نصرأ أراد مصالحة الحارث دون إذن أمير المراق ودون إذن الخليفة ،
وذلك خوفا من بجى الحارث إليه هو وأصحابه والترك معه وطعما في مخالفته ومناصبته -
الطبري ج ٢ ص ١٨٦٧ - ١٨٦٨ - المترجم] .

(٥) [أطلق نصر أبناء الحارث ورد له أمواله وأجرى عليه خمسين درهما كل يوم.
وأنزله قصرأ ، ولكن الحارث باع ما أهدى إليه وفرقه في أصحابه ، وهرس عليه نصر أن
يولييه ولاية وأن يعطيه مائة ألف دينار فلم يقبل ، وأرسل إلى نصر يقول له : « لست من
هذه الدنيا ولا من هذه القذات ولا من تزويج عقائل العرب في شيء » وإنما أسأل كتاب الله
عن رجل والعمل بالسنّة واستعمال أهل العدل والفضل ، فإن فعلت ذلك ساعدتك على هدوك » ،
وأرسل إلى الكرماني يقول : « إن أعطاني نصر العمل بكتاب الله وما سألته من استعمال
أهل العدل والفضل قصده وقمت بأمر الله ، وإن لم يفعل استمنت عليه وأمنتك إن ضمننت
ما أريد من القيام بالسداد والسنّة » . وظل الحارث على مبدئه الذي ثار من أحله قبل ذلك ،
وقد قال لنصر : « خرجت من هذه المدينة منذ ثلاث عشرة سنة إنكاراً للجور ، وأنت
تريدني عليه » . ولكن ليس هذا مبدءاً خاصاً للمرجئة ، بل هو أولى أن يكون رأى الخوارج -
راجع فيما يتعلق بالنصوص. الطبري ج ٢ ص ١٨٨٨ - ١٨٩٠ ، ١٩١٩ - المترجم] .

هذا المنافس الخطر الذى جلبه على نفسه^(١) ، وكان الحارث من أول الأمر وضع نفسه فى خدمة قضية الأعاجم فى أرض الثغرين ، وكتب لهم كتاباً بسيرته وسياسته وأغراضه فى إحقاق الحق والعدل ، وكان رجاله يقرأون ذلك فى الطرق والمساجد ، وقد رضى نصر أن يبعث إلى ثغرى سمرقند وطخارستان من يرصده أصحاب الحارث ، كما عرض على الحارث أن يوليه ما وراء النهر . ولكن ذلك لم يغن نصراً شيئاً ، لأن الحارث لم يكن يطمئن إليه ولا يثق فى أنه سيعادى حكومة الأمويين ذلك العداء الحاسم الذى يلا نفس الحارث ومن تحت رايته السوداء من الأتباع . هذا إلى أن الحارث لم يكن من غير شك يريد بدافع الأناية أن يسمح لنصر بأن يكون له سلطان إلى جانب سلطانه ، ويروى أن الحارث ونصراً تناظرا فتراضيا أن يحكم بينهما مقاتل بن حبان وجهم بن صفوان ، فعكما بأن يعزل نصر ويكون الأمر شورى ، فلم يرض نصر . وعند ذلك بدأ النزاع الصريح ، ونزل الحارث معسكراً أمام مرو ، ومن هناك حاول أن يستولى على المدينة ، وذلك فى أواخر جمادى الآخرة سنة ١٢٨ هـ آخر مارس سنة ٧٤٦م . وفشلت المحاولة بطبيعة الحال ، فأسير جهم بن صفوان وقتل ، وكان الجهم هو الداعى إلى ملهيب المرجئة^(٢) وهو المؤلف لكتاب عن سيرة الحارث وبرنامه ، وكان يقرؤه على الناس^(٣) . ولكن الحارث بعد ذلك كتب إلى الكرماني ،

(١) [يجد القارئ اعتراف نصر نفسه بذلك عند الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٤ س ١١ قارن ص ١٩٣٠ س ١٠ - ١١ - المترجم] .

(٢) [كان جهم فى الحقيقة صاحب فرقة قائمة بلانها لها آراؤها الخاصة بها ، وهى فرقة الجهمية - قارن الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٤ - المترجم] .

(٣) [المذكور عند الطبرى (ج ٢ ص ١٩١٨ - ١٩١٩) هو أن الجهم هو الذى كتب كتاباً فيه سيرة الحارث ، وكان يقرؤه على الناس وأنه كان يقصص فى عسكر الحارث . وعند الطبرى أيضاً (ص ١٩٢٠) أن الحارث بن سريج كتب سيرته ، ابن سيرة نفسه ، فكانت تقرأ فى طريق مرو والمساجد . على أن المشهور أن جهماً كان كاتباً لابن سريج ، ولا يمكن أن يتبادر إلى الذهن أنه كان هناك كتاب بمعنى مصنف ، بل المقصود من الكتاب ما يشبه منشور الدعاية اليوم ، وفيه سياسة صاحب كدعاية وأغراضه ووسائله - المترجم] .

ونحن نسمع عنه الآن من جديد لأول مرة بعد أن اختفى من مسرح السياسة سنة ونصف سنة ، فدخل الكرمانى فى النزاع وغير وجهته ، وبعد قتال دام أياماً رأى نصر أن يرجع إلى نيسابور ، مقر قيس ، وأن يحلّى مرواً للثائرين .

ولكن الثوار من أصحاب الحارث والكرمانى لم يلبثوا حتى اختلفوا ، وذلك أن من كان من الحارث من تميم ندموا على أنهم قد أهانوا الأزد على إخوانهم الذين كانوا فى مرو يحاربون مع نصر ، وهم لا ينسوا للكرمانى أنه فى أيام ولاية أسد بن عبد الله قتل عدة مئات من أصحاب الحارث بعد الاستيلاء على قلعة التبوشكان ، وأنه بقر بطون خمسين رجلاً منهم وقطع أيدي ثلاثمائة منهم وأرجلهم إلى غير ذلك مما تقوم عليه (١) . وكان أول من قبل هذا التحالف غير الطبرى بين الحارث والكرمانى هو بشر بن جرموز ، أكبر أنصار الحارث ، فخرج يدعو إلى الكتاب والسنة وقال للحارث إنه إنما قاتل معه طلباً للعدل ، وإن انضم الحارث إلى الكرمانى معناه القتال لأجل الغلبة والعصبية . فاعتزل بشر فى خمسة آلاف أو أربعة آلاف ونسمائه ، ولما بدأ القتال بعد ذلك انضم الحارث إلى بشر وانفصل عن الكرمانى ، ولكن الأزد وحلفاءهم غلبوا تماماً ومضروا آخر رجب سنة ١٢٨ هـ (إبريل سنة ٧٤٦ م) وأخرجوهم من مرو وخربوا عسكرهم ، وقتل الحارث نفسه وصلىب جثته هند مدينة مرو بغير رأس ، فقال الجزاء العادل على أعماله ، مهما كانت آراؤه ومقاصده . فهو فى محاولته نصر الإسلام على العروبة ونصر المظلومين على الظالمين قد حالف الموت والشيطان على السلطة القائمة وحشد قوى الخير والشر جميعاً فى محاربة الحكومة الأموية ، وهو فى أول ظهوره قاد للترك لمحاربة العرب : فلما أخفق ظل لاجئاً عند الترك حينئذ كثيرة ، فلما ظهر من جديد فترق كلمة تميم ، وكان لانحاد كلمتهم فى ذلك

(١) [جاء عند الطبرى (ج ٢ ص ١٩٢٨) أن الحارث بعد أن هزم نصرأ بعث إليه أن سيكشف عن قتاله لأن البيانية عيروه بهزيمته . .

الوقت الشأن كل الشأن في المحافظة على السيادة العربية : وقد كان الحارث بذلك سبباً في أن البغائية لم يكتفوا بإسقاط الحكومة ، بل في أنهم أزدوا مضر كلها ، ويحق ما قيل عنه من أنه رجل مشهور^(١) ، وأنه كان المهمل الحقيقى لأبي مسلم^(٢) .

وعلى الرغم من أن نصراً كان من قبل قد تعصب على قيس ، فإنهم ، لما رجع إلى نيسابور ، أحسنوا لقاءه في ذلك الوقت العصيب^(٣) ، كما انحاز إليه المضرىون الذين أخرجوا من مرو . ويرى أنه حاول قبل ذلك أن يستنجد بالخلافة ، ولكن طالما كانت العراق وما يلمح بها من بلاد العجم في قبضة الخوارج وفي قبضة عبد الله بن معاوية بن جعفر فإن الطريق كان مقطوعاً بين نصر وبين مقر الحكومة الأموية في الشام ، ولم تتغير الحال إلا في سنة ١٢٩ هـ ، لما خضعت العراق لمروان بن محمد ، على يد يزيد بن عمر بن هبيرة ، فاعترف له نصر بالرياسة باختياره أنه رئيسه المباشر^(٤) ، ولم يكن من نيته قط أن يخرج حل الأمويين ، وإنما كان ينتظر أن يهدأ الاضطراب والنزاع بين بنى أمية حول الخلافة في الشام . وربما يكون قد تابع مروان بن محمد بعد توليه الأمر بقليل ولكن إمكان اتصال نصر بن سيار بيزيد بن هبيرة لم يُضَيِّه إلا قليلاً ، فبقى

(١) [راجع أحياناً تلصّب نصر بن سيار وغيرة فيما أدخله الحارث على العرب من اللد والشوم المردى ، وهي عند الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٥ - ١٩٣٦ - المترجم] .
(٢) وقد فسر لون حله الأسود (الطبرى ج ٢ ص ١٩١٩ ص ٢ لما بعده) حل هذا الوجه ، وإن كان ذلك بغير حق كامل ، أما الصحيح فإنه يوصف في الأشعار بأنه أزدى مضر^(١) وأنه حالف الكفار على العرب (الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٤ ص ١٠) لما بعدها .
و ص ١٥٧٥ لما بعدها . وقد قال له نصر بن سيار :

إرجاؤكم لزكم والشركة في قرين فأتتم أهل إشرالك ومزجونا

(٣) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٩ - المترجم] .
(٤) إن الروايات القائلة بأن ابن هبيرة قد اتصل في أول سنة ١٢٧ هـ بنصر بن سيار تعضمن خطأ كبيراً في التواريخ .

مضطراً إلى الاعتماد على نفسه ، عندما أراد في سنة ١٢٩ هـ أن يقوم بمهمة استرداد مرو^(١) . وبعد أن قام قواده بحملات كثيرة للهجوم لم تجد شيئاً تقدم نصر نفسه ، وكان في الثمانين من العمر ، ووضع كل قوته في المعركة . وخرج الكرمانى لمحاربتة ، وعسكر الفريقان خارج المدينة في « الخنادقين » اللذين بقيت آثارهما زماناً طويلاً ، وظلاً يقتتلان فترة طويلة من غير أن يقع القتال الحاسم . وقد بعث نصر إلى مروان بن محمد وإلى ابن هبيرة يلح في الاستغاثة وطلب العون ويصف الخطر وصفاً يحرك الهمم ، ولكنه لم يظفر من استغاثة بطائل^(٢) : غير أن نخوف العرب من عدوهم جميعاً دعاهم إلى العقل والاتحاد مرة أخرى^(٣) ، وقد رأوا بأعينهم أن شيعة بني العباس - ومعظمهم من الأعاجم - قد تجمعوا تحت راية أبي مسلم ونزلوا معسكراً حصيناً غير بعيد من مرو ، فدخلت ربيعة - التي مع أنها كانت حتى ذلك الحين حليفة للأزد فقد كان لها بطبيعتها موقف وسط - في الفرجة التي كانت تفصل بين اليمن ومصر ، فاتحد يحيى بن نعيم ابن هبيرة ، أكبر سادات بكر ، مع نصر بن سيار ، ووجد أن السبيل الوحيد الممكن لنجاة القبائل العربية هو في موازنة الحكومة^(٤) . وبدأت مفاوضات بين نصر وبين جديع الكرمانى ، لكنها انقطعت بسبب ابن الحارث بن مريج كان مع نصر بن سيار ، فاغتنم الفرصة ليثار من قاتلى

(١) راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٧٠ - ١٩٧٦ .

(٢) وأبيات نصر بن سيار المشهورة التي ذكرها الطبرى (ج ٢ ص ١٨٧٣) تدل على أن وصف هذا الموقف [غير أنها تشير إلى الخطر الذى جاء من قبل أبي مسلم . والمؤلف لا يشير هنا إلى الدور الذى لعبه أبو مسلم في الصلوة بين نصر والكرمانى . راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٧٢ - المترجم] .

(٣) راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٦٢ فا بعدها ١٩٧٥ فا بعدها - المترجم] .

(٤) راجع قصيدة نصر التي نادى بها ربيعة ، وهي موجودة عند Nöldeke في Delectus

أبيه ، فاغتال الكرمانى خلسة^(١) . غير أن ذلك لم يكن هو السبب الذى أدى إلى فشل المفاوضات . لكن سقوط مدينة هراة ، تلك المدينة الهامة ، فى يد أبى مسلم راع العرب كثيراً وفتح أعينهم أيضاً ، فحل محل الكرمانى رجل من أنصاره لا نعرف عنه شيئاً حتى ذلك الحين ، وهو شيبان بن سلمة الحرورى الخارجى^(٢) ، فدعاه يحيى بن نعيم^(٣) بن هبيرة إلى مودة نصر بن سيار ، فواده سنة ، فاستطاع نصر أن يدخل مرو فى آخر سنة ١٢٩ هـ (٧٤٧ م) . ولم يكن الأزرد وحدهم هم الذين دخلوا فى هذه المدينة ، بل دخل فيها أيضاً على ابن زعيمهم المقتول : جديع الكرمانى . ولم يكن من المؤكد أن ينتهى القتال بالنصارى مسلم ، غير أن أبى مسلم عرف كيف يقنع على بن جديع الكرمانى بأن قتل أبيه إنما كان بإيعاز من نصر نفسه ، وكان يريد بذلك أن يضم علياً إلى جانبه (أول سنة ١٣٠ هـ - سبتمبر سنة ٧٤٧ م) . وعلى هذا عاد الكرمانى ومن تبعه من الأزرد إلى قتال نصر من جديد . ويظهر أن القتال استمر فى ضواحي مرو وفى شوارعها مدة طويلة ، وقد

(١) والروايات تريد على كل حال أن تظهر نصراً يظهر المشترك فى مقتل الكرمانى ، هو ذلك بأن تقول إن نصراً صلبه ومعه سمكة ، وهى علامة الإزراء بالأزرد . ولكن نصراً كان جاداً فى المفاوضات ، ولم تكن هى بقصد انهيار الكرمانى ، لأن ذلك كان يهددهما بالفشل . ولو أنه صلب رؤوس الأزرد ، وخصوصاً لو أنه صلب معه سمكة ، لما أمكن أن يبقى الأزرد بعد ذلك على ود مع نصر لحظة واحدة . وإذا كان ابن الرئيس المقتول قد صالح نصراً بعد قتل أبيه على الفور فلا بد أنه فى ذلك الحين لم يكن مقتنعاً بأن القتل كان يعلم من نصر . أما أول من أوحى إليه بفكرة انهزاع نصر فى قتل أبيه فهو أبو مسلم . وعلى هذا فلا يمكن أن يكون نجد وجد دليل ثابت يدل على رضاء نصر عن الجريمة ، مثل أن يأمر بصلب جسد الكرمانى ويصلب معه سمكة . ولو أنه فعل ذلك لكانت له نتائج أخرى ولأدى إلى ضرب وجه سياسة التقادم التى أرادها نصر . أما القاعدة القائلة بأن نصراً fecit cui prodest (فعل ما يفيد) ، فلها لو طبقت هنا لكان تطبيقها خطأ .

(٢) قارن ص ٣٧٨ - ٣٧٩ بما تقدم .

(٣) [هنا وفيما سبق قبل بتلخيص يقول المؤلف : يحيى بن حنين ، والغالب أن هنا سهواً - راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٦٦ س ١٢ و ١٩٦٧ س ٢ - المترجم] .

(٣٠ - الدولة العربية)

انتهى هذا القتال بأن صار أبو مسلم سيد الموقف ، ذلك أنه تدخل في القتال
عندما بدا له أن الوقت مناسب ، وقرر مصير المعركة من غير استعمال
السيف ، وكان ذلك في ربيع الثاني سنة ١٣٠ هـ - ديسمبر سنة ٧٤٨ م^(١) .
وفي صباح اليوم التالي هرب نصر إلى سرخس وطوس ومنها إلى نيسابور ،
فكان ذلك آخر السيادة العربية في خراسان وبداية نهاية السيادة العربية
على الإطلاق .

(١) سزيد من ذكر التفاصيل والوقائع في الفصل التالي .

الفصل التاسع

سقوط الدولة العربية

١ - إن ما قلناه في الفصل السابق عن العلاقة بين العرب والأعاجم ينصب خاصة على أرض « الثغرين » ، وهو ينصب على أرض السغد أكثر مما ينصب على أرض طخارستان . وهناك كان الفريقان لا يزالان على قدم الخرب ، وكان الإسلام قد صارت له بعض المواقع الحصينة ، ولكن قدمه لم تكن قد رسخت ، أما في خراسان الحقيقية فكانت قوى الفريقين قد تعادت وتكونت من ذلك طريقة في التفاهم (modus vivendi) . وكان العمل الذي نجده لا يزال سائراً فيما وراء النهر قد تم في خراسان الحقيقية ولا نعرف عنه شيئاً ، لأننا ليس لدينا أخبار كافية عن بداية العصر الذي أمقب الفتح الأول . ولكن يمكن الإلمام إلى حد ما بالنتيجة ، أضى بالأحوال فيما بين سنتي ١٠٠ إلى ١٣٠ هـ (١) .

لم يكن العرب والأعاجم منفصلين في الحياة الظاهرة ، أضى أنهم لم يكونوا يسكنون منفصلين . وقد بقى في مدن الجيوش العربية مثل نيسابور (أبيورد) ، مريخس ، نيسابور ومرو والروذ وهرات سكانها الأصليون ، أما القلاع والحصون فقد احتلها الفاتحون بطبيعة الحال . وأيضاً لم يظل العرب متجمعين في نقاط قليلة خاصة بهم ، وهم لم يكونوا يعيشون فقط في المدن التي كانوا قد اختاروها لتكون بمثابة مستعمرات حربية ، بل كانت لهم أملاك وضياع وأهل في القرى ، ومنهم

(١) قارن كتاب فانلوتن : Recherches sur la Domination arabe : Van Vloten

وهو ضمن 1,3 Letterk Amsterdam, Afd. Verhandelungen der K. Akademie te
أستردام ، ١٨٩٤ .

من كانوا يقطنون هناك ، خصوصاً في واحة مرو . وكانت مدينة مرو حاضرة لقرى كثيرة ترتبط فيما بينها بنظام رعى موحد ، وكان للعرب طائفة وموال من الأعاجم ، كما أنهم تزوجوا نساء أعجميات ، وكان لا بد أن يظهر أثر ذلك في أبنائهم منذ الجيل الثاني . وإن كانت هجرات العرب المتتالية من العراق إلى خراسان قد زادت من قوة العنصر العربي في بلاد الحجم فإن ذلك لم يصل إلى حد أن يجعل العرب من حيث العدد مكافئين للأعاجم ، وخصوصاً أن الحروب التي لم تنقطع كانت تأكل العرب أكلا فظيماً . وفي بعض الروايات التي ترد بعد حين وآخر : أنه كان خراسان ما يقرب من خمسين ألفاً من المقاتلة العرب . ومع أن نسبة من يقومون بواجب الحرب بين العرب كانت كبيرة ، بحيث كانت تبلغ نصف مجموع الذكور ، فإن مجموع السكان العرب في خراسان لا يمكن أن يكون قد تجاوز المئتي ألف نفس بكثير . وقد تأقلم العرب في وطنهم الجديد ، وكانوا يشعرون أنه لا فرق بينهم وبين أبناء البلاد في الوطن المشترك بينهم ، فكانوا يحسون أنهم خراسانيون ، وكانوا يلبسون السراويل كما يلبسها أهل خراسان (الطبري ج ٢ ص ١٥٣٠) ، وكانوا يشربون اللبن ويحفظون بعيد النيروز والمهرجان .. وأخذ أشراف العرب يظهرون بمظهر المرازبة وأسلوبهم في الحياة ، وكان الاشتراك في الحياة العملية مما دعى إلى للتفاهم بين العرب والأعاجم ، حتى كانت الفارسية في الكوفة والبصرة لغة يتكلمها الناس في السوق كما يتكلمون العربية على الأقل . وإذا حكى لنا أن رجلاً مثل أبي الصيداء كان لا يتكلم إلا العربية وأنه لذلك لم يكن يصلح وحده رسولاً إلى أهل السخنة الذين لم يكونوا يتكلمون سوى الفارسية ، فإن أمر أبي الصيداء يبدو شاذاً . أما في جيش أبي مسلم فكان العرب يتكلمون الفارسية في الغالب (١) .

(١) الطبري ج ٣ ص ٥١ ، ص ٤ ، ص ٦٤ ، ص ١٨ ، ص ٦٥ ، ص ١٤ و ١٦ .

وكذلك لم يقف الأعاجم من جانبهم لإزاء العرب في خراسان كتلة واحدة ، ولا هم وقفوا من العرب موقف العداء أو النفور ، ولم يكن تأثير الأعاجم بعملية المزج بين العنصرين أقل من تأثير العرب بها ، وخصوصاً أن الفتح لم يغير أحوال المغلوبين ، وهو لم يزددها سوءاً . وقد أفلح العرب في حماية البلاد من الخارج ، أنهى من غزو الترك ، أحسن مما أفلح في ذلك ملوك الساسانيين^(١) . ولم يتدخل العرب كثيراً في الأمور الداخلية ، بل تركوا إدارة البلاد في يد المرازبة والدهاقنة . ولم يكونوا يتصلون بالشعب المغلوب إلا من طريق هؤلاء المرازبة والدهاقنة . وأيضاً ظلت السلطات المحلية السابقة في المدن العسكرية العربية وفي حواضر للدولة باقية إلى جانب السلطات العربية ، وكان للسلطات المحلية جباية الخراج بنوع خاص ، وكانت هي المسئولة أمام الفاتحين عن دخوله بيت المال على المقدار الصحيح المتفق عليه ، أما سواد الشعب البائس الذى عليه أن يدفع (*misera contribuens plebs*) فلا شك أنه لم يكن في عهد الساسانيين يدفع من الخراج أقل مما كان يدفع في عهد العرب . لهذا إلى أن العرب لم يتدخلوا في المسائل الدينية للأعاجم ، وكان الأساس في المعاهدات التي يفرض فيها دفع إتاوات أن يبقى أهل البلاد على دينهم ، بل كان للأعاجم أن يبقوا على دينهم حتى في المدن التي كان يسكنها العرب ، وإن كان ربما تحتم عليهم أن يخفوا المظاهر الخارجية لاثنية . ولكن يظهر أن الأعاجم لم تكن تربطهم بدين زرادشت رابطة جدية ، وكان أهم ما يعينهم هو الشعائر المصطنعة بصيغة المرح والمرور بالحياة ، وكانت هذه الشعائر تتجلى في أعظم صورها في الاحتفال بعيدى النور والمهرجان ، وكان للأعاجم أن يحتفلوا بهذين العيدين حتى بعد دخولهم في الإسلام ، لأن العرب أنفسهم كانوا يشتركون في الاحتفالات الدينية للأعاجم ، ما دامت هذه

(١) ولم يسطع الترك أن يصلوا في غاراتهم إلى مقربة من نهساود إلا في أثناء الحرب بين قبائل تيم (البلادى ص ٤١٤ - ٤١٥) .

الاحتفالات بمجالس للسرور والفرح . وإذا كان الأعاجم قد أقبلوا في بادئ الأمر على الدخول في الإسلام فإنهم لم يفعلوا ذلك من أجل الإسلام بقسمة بمقدار ما فعلوه ابتغاء المزايا التي كان يُسَكِّسُهُمْ منها ، فهم قد اتخذوا الإسلام وسيلة للتقرب من الطبقة الحاكمة وللمشاركة فيما كان لها من مزايا ، أي هم اتخذوه وسيلة لكي يستعربوا وينالوا . ما كان للعرب من حقوق ومزايا ، ثم سموا أنفسهم بأسماء عربية وألحقوا بالقبائل العربية (١) . وقد استطاع بعض أهل الطلوح منهم أن ينالوا حظوة عند العرب ، وأن يلعبوا دوراً ذا وجهين في التوسط بين القوميتين العربية والفارسية ، وكانوا يسمون النصحاء ، وأشهرهم سليم وحيان النبطي .

ونظراً لاستمرار الحروب في تلك الحقبة وتلك البلاد ، فقد كانت أكثر المناسبات ملازمة للدخول في الإسلام ما يتعرض من النهوض بأعباء الحرب في الجيش الإسلامي . وقد اقتدى السادة من العرب بأشراف الأعاجم ، فكانوا يأخذون معهم إلى الميدان حاشية من الغلمان تكون لهم نخاعة (وهم الشاكزية) ، وكان هؤلاء الغلمان أيضاً يشتركون في القتال ، وكانوا يقررون مصير المعركة في بعض الأحيان . وإلى جانب ذلك كانت هناك في الجيش العربي فيرق من الأعاجم نخاعة على رأسها قواد منهم ، ومن أمثلة ذلك حريث بن قلبية وأخوه ثابت في الحقبة الأولى ، وحيان النبطي وابنه مقاتل في الحقبة الأخيرة (٢) . فكان الموالي — وهذه هي بوجه عام التسمية التي كانت تطلق على من دخل في الإسلام

(١) قارن البلاذري ص ٤٤١ : أسلم بعض الملوك وتسموا بأسماء عربية ، على أننا لا نجد في ذلك الوقت مسلمين أعاجم بأسمائهم الأصلية ، وكثيراً جداً ما نجدهم يستعملون الكنية ، مثل : أبو داود ، أبو هون ، أبو مسلم ، أبو نصر ، وهكذا ، والكنية عند حرب غزوات هي من وجه ما اسم حرب (بالمعنى الحقيقي) راجع الطبري ج ٢ ص ١٢٨٩ ص ١٥ و ١٤٣٠ ص ٣ و ١٥٩٣ ص ١٦ (أبو مزاحم) و ١٦٢٧ ص ٤ (أبو الموت) و ١٦٣١ ص ١٥ وتجد اسم آخر من أسماء الحرب في ص ١٥٣٨ ص ٧ .

(٢) وإلى جانب ذلك كانت هناك فرق الأمراء التابعين للدولة العربية ، وكان عليها أن يجاروا إلى جانب العرب ، ولكنهم كانوا في الغالب لا يزالون على وثقتهم .

من غير العرب وألحق بالقبائل العربية - يحاربون إلى جانب العرب ويحاربون
بالأعداء القدماء لوطنهم ، وهم الترك ، ولكنهم أيضاً كانوا من أجل الإسلام
يحاربون أبناء وطنهم من السغد ، إذا عادى هؤلاء الإسلام وحالفوا الترك .
وهكذا تأصل الإسلام في قلوبهم ، بعد أن كانوا في أول الأمر قد اعتنقوه
لأسباب خارجية . ولقد كانوا في إسلامهم أكثر إخلاصاً من العرب
أنفسهم (١) .

ولكن العرب رغم ذلك لم يكونوا ينظرون إلى الموالى نظرهم إلى
أنفسهم ، فإذا كان الموالى في الجيش فلأنهم كانوا يحاربون مترجلين لا على
الخيول ، وكانوا إذا برزوا يُستظر إليهم بشيء من الرية . وهم وإن كانوا
يتقاضون رزقاً ويأخذون نصيباً في الغنمة فلأنهم لم تكن لهم أعطيات ثابتة ،
فلم يكونوا مقيدين في الديوان ، أعني في سجل المقاتلة الذين تُعرض لهم
الأعطيات . ومع أنهم كانوا قد اندمجوا في القبائل العربية ، فلأنهم كانوا
يسمون « أهل القرى » تمييزاً لهم عن « أهل القبائل » . ومع أنهم كانوا
مسلمين ، فلأنهم لم تسقط عنهم الجزية . أما الخراج الذي كان يؤديه كل من
يملك أرضاً حتى العرب منهم ، فيظهر أنه على كل حال لم يُحدث من
التدريس بين أهل خراسان ما أحدثه بين أهل ما وراء النهر ، لأن هؤلاء لم
يدخلوا الإسلام إلا على أمل أن تسقط عنهم الجزية ، ولكن لا شك في أن
حدوى التلمز تسربت من أهل السغد إلى أهل خراسان - وقد عمل الحارث
ابن سريج وغيره على ذلك .

ولو أن العرب عاملوا من دخل في الإسلام من الأعاجم معاملة المساوين لهم

(١) الطبري ج ٢ ص ١٢٩١ من ٩ : لم يرد الأعاجم أن يحاربوا في صفوف العرب
إلا إذا كان ذلك لأجل الدين [الحقيقة أن استنتاج المؤلف فيه تعسف . وحتى لو فرضنا أن
بعض الأعاجم كان أشد تحمساً لدين من بعض العرب فهل كان ذلك لأنهم أعاجم ؟ أما النص
فلأنه يستند إليه المؤلف فهو يتخلص في أنه في أثناء فترة من القرن أراد قائد فرقة الموالى في الجيش
أن يفتن الفرصة ليناك ولاية بأكملها طول حياته واتفق مع أحد قواد العرب على ذلك
وقال لمواليه : هؤلاء العرب يقاتلون على غير دين ، فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً - المترجم] .

لكان من الممكن أن يتحقق مزج* بين الأمتين ، لكن العرب بما صنعوه ربّوا في أحضانهم أعداء لأنفسهم ، حتى كبر هؤلاء الأعداء . ثم إن الإسلام لم يساعد على إزالة الخصومة بين الفريقين ، بل جعلها أشد خطراً^(١) ، لأنه أحب الأعداء من جليده وشد أزركم ووضع في يدهم سلاحاً على ساداتهم العرب ، وذلك أن إسقاط الدولة العربية لم يأت من أهل ما وراء النهر الذين بقوا على صفتهم وعلى عداوتهم للعرب ، بل جاء من قبل من أسلم من أهل خراسان ، وهم إنما قاموا بمحاربة السيادة العربية مستندين إلى الإسلام ، والإسلام هو الذي جمع كلمتهم وكلمة أولئك العرب الذين كانوا يعارضون حكومة بني أمية مهتدين بالمبادئ التي يجب أن تقوم عليها الدولة التيقراطية في نظر الإسلام - والعرب هم الذين كانوا أول من أثار الموالى ونظمهم .

والإسلام الأول يجعل المحافظة على وحدة الجماعة ، ، أعنى على وحدة الأمة الإسلامية ، فوق كل شيء ، وهو أيضاً يدعو إلى شد أزركم حكومة وإلى طاعتها^(٢) ، ولكن بعد أن حادت الحكومة عن المبادئ التي يجب أن تقوم عليها الحكومة التيقراطية جاء الإسلام الناصر فجعل تلك المبادئ أساساً لمحاربة نظام الحكم الذي كان قائماً إذ ذاك ، وجعل يدعو للحرب نصراً لله على بني أمية وعلى عمالهم ، ونصراً للحق على الظلم والعسف . أما الخوارج فلا تسمع عنهم في شرق الدولة الإسلامية إلا قليلاً ، ولكن لا شك في أنهم كان لهم من الشأن .

(١) [يقصد المؤلف أن الإسلام بما تضمنه من تقرير مبدأ المساواة التامة بين المسلمين ، بصرف النظر عن الجنس أو اللغة ، في جميع الحقوق والواجبات كان هو السند الذي استندت إليه الثورة التي أسقطت الدولة الأموية استناداً إلى أنها لم تراعى مبدأ المساواة بين المسلمين - المترجم] .
 (٢) [يأمر الإسلام بالتمسك بالوحدة في الجماعة الإسلامية ويمنع من الفرقة والشقاق ، كما أنه يأمر بطاعة ولي الأمر أيما كان ، ما دام يهكم بالحق والعدل ، وينفذ أحكام الدين . ولكن الإسلام لا يقر الخضوع للظلم ، ولا يقر الحكومة الظالمة ، وقد دخل هذا في مبادئ الفرق السياسية والدينية - المترجم] .

هناك أكثر مما يمكننا أن تأخذه من الأخبار القليلة التي تذكر عنهم . وليس من الممكن أن ينشأ شيان بن سلمة الحروري وأتباعه الكثيرون من الأرض فجأة ، على ما بدا عليه ظهورهم في خراسان . ولكن المرجحة كانوا من غير شك أكبر شأناً من الخوارج [في ذلك الوقت وفي تلك الجهة من الدولة الإسلامية] ، وقد تدخلوا بقيادة الحارث بن سريج في تاريخ تلك الحقبة تدخلًا كان له أثره الكبير . وكل من الخوارج والمرجحة قد استذكروا ، من حيث المبدأ ، كل تمهيد للعرب على الموالى المسلمين . ولكن كلاً من الخوارج والمرجحة تراجعوا آخر الأمر إلى الهل الثاني تماماً أمام الشيعة الذين كانوا قد انتشروا في خراسان في وقت مبكر ، ثم جاءوا بالعمل الحاسم في إسقاط الدولة العربية .

وكان مقر الشيعة في العراق ، شأنها شأن الأحزاب التي كانت تتخذ من الدين سنداً لمقاومة حكومة بني أمية ، على أن فتح شرق بلاد العجم كان من جهة العراق ، ومن العراق كانت قبائل العرب لا تزال تهاجر إلى بلاد العجم . ثم ظل الاتصال بين العراق وبلاد العجم قويا على الدوام ، وكان لا يزال يأتي من جهة العراق سيل القبائل العربية إلى أرض النهر ، ولم يكن هؤلاء المهاجرون أهدأ العرب نفوساً . ويظهر أن أمراء الأمويين في العراق ، ولا سيما زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف ، أرادوا أن يصرفوا العناصر الخطرة عن الكوفة والبصرة فيوجهوها إلى خراسان ويستنفدوا توكتها وطاقتها على العمل في جهاد المشركين ويتخلصوا بذلك من شرها . ومما له مغزاه أن الحجاج كان حريصاً على إبعاد جند الشام عن بلاد الأعاجم لكيلا تنتقل إليهم حدوى روح الشر . أما بدايات ظهور الشيعة في خراسان فليس عندنا عنها روايات دقيقة ، وهذا طبيعي . ويبدو كأنما كانت بلور مبادئهم تطير في الهواء وتنتشر من تلقاء نفسها ، أما إلى أي حد كانت أهواء الناس مع الشيعة في خراسان فهذا ما يمكن أن يتبينه الإنسان من أن زيد بن علي لما أخفق في محاولته الثورة في الكوفة أشار البعض

على ابنه يحيى بأن يخرج إلى خراسان . وقد عمل يحيى بهذه المشورة ، وهو وإن كان قد قُتل وهو يقاتل ضد الدولة ، فإن استشهاده أثار سخطاً عند الجميع ، حتى يروى أن كل الصبيان الذين ولدوا في خراسان في تلك السنة سُمِّوا باسمه (المسعودي ج ٦ ص ٣٠) . وإذا كان أبو مسلم قد ظهر بمظهر المطالب بثأر يحيى فإنه كان لا شك يعلم تأثير ذلك في النفوس ، وهو بذلك ضرب نفمة وجدت صدقاً عند الجميع (الطبري ج ٢ ص ١٩٨٥ و ج ٣ ص ٥٠٦ لما بعدها) . وأيضاً كان عبد الله بن معاوية بن جعفر يعتقد أنه إذا خرج إلى خراسان فهو مصيب مكاناً أميناً ، ولكن أخطأ ظنه في أبي مسلم ، لأن أبا مسلم لم يكن عنده مكان لعلوى حتى أكثر مما كان عنده لعلوى ميت ، فدرس على بن معاوية من قضى عليه سراً . ولكن ابن معاوية أيضاً ظل يعتبر في خراسان شهيداً يقدسه الناس زماناً طويلاً ، وكان قبره هناك يزار كثيراً .

ولو أن العرب في خراسان انحسروا فيما بينهم وشدوا أزر الحكومة لما استطاع الشيعة بطبيعة الحال أن يتندسوا في الفجوات التي أوجدتها الشقاق . ولكن كما أن العرب لم يريدوا أن يقاسموا الموالي السلطان فإنهم أيضاً لم يُمتنع بعضهم به بعضاً . وكانت المناصب والمغانم التي كانت في يد الدولة تمنحها وتمنعها موضوعاً وسبباً للتحاسد الشديد بين القبائل ، وظلت العصبية داء العرب الباقي على الزمان ، حتى إذا بدأ يتزلزل عرش بني أمية آخر الأمر اشتدت العصبية اشتداداً مروعاً ، كما رأينا . وقد استغل الشيعة — بالمعنى الخاص للكلمة — هذا الموقف ، وكان العباسيون قد انحسروا معهم منذ أن انفصلوا عن العلويين وخرجوا من المدينة إلى الحُمَيْمِيَّة في الأرض الجبلية (أرض الشراة) الواقعة بين جزيرة العرب وبين الشام^(١) ، حيث لا يمكن أن ينافسهم العلويون .

(١) يرجع نسب العباسيين إلى عداقة بن عباس ، المحدث الورع ، ابن عم النبي عليه السلام وابن عم علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وبعد أن قتل علي وصالح ابن عباس معاوية —

وكان الشيعة فرقتين كبيرتين ، وإن كان التمييز بينهما لم يكن دائماً تمييزاً حقيقياً : فرقة معتدلة لا تختلف عن سائر المسلمين إلا في المبدأ السياسي القائل بأن الخلافة يجب أن تكون في بيت النبي عليه السلام ، وفرقة متطرفة لها مذهبها الخاص في العقائد ، وهو مذهب غريب تماماً عن الإسلام الأول ، وقد سمي الشيعة الغلاة بأسماء مختلفة ، ولكنها لا تدل إلا على فوارق قليلة الشأن . ففي أول الأمر سُموا السبئية ، وفي رأى سيف بن عمر أن هؤلاء السبئية كانوا من أول الأمر أصل الشر والبلاء كله في تاريخ الدولة الإسلامية ، وهم قتلة عثمان وفاتحو باب الفتنة والحرب الأهلية ، ومؤسسو حزب الخوارج الثائرين ، وهم السبب في قتل المسلمين بعضهم بعضاً ، والحقيقة أن السبئية لم يصبح لهم شأنهم التاريخي إلا على يد المختار الثقفي ، وإن كانوا قد كانوا موجودين قبل ذلك (١) ، وكان موطنهم الكوفة وسوادها ، ولم يكونوا من العرب فحسب بل كان معظمهم من الموالي ، وكانوا يؤمنون بما ذهب إليه ابن سبأ من الرجعة ، أصنى رجعة الأرواح في أجساد مختلفة — وخصوصاً رجعة روح النبي عليه السلام في أبنائه . وهذه النقطة الثلاثة هي النقط الجوهرية التي تميزهم . أما أشراف العلويين ، أصنى أبناء السيدة فاطمة بنت النبي عليه السلام ، فإنهم لم يخرجوا عن أصول الإسلام

ظل على علاقة طيبة مع الأمويين ولم يكن يعمل ضدهم إلا خفية . فلما جاء ابنه علي بن عبد الله بعده ، وكان مثله في الورع وكان يلقب بالسجاد أو بلى الثقات ، لم يفعل غير ما فعله أبوه . وفي عهد عبد الملك بن مروان انتقل إلى دمشق . ولكن الوليد بن عبد الملك ، بعد أن مات عبد الملك أساء به ، فانتقل في سنة ٩٥ هـ مكرهاً كما يروى ، وسكن الحنيفة عند أذرح على طريق الحق الآن من الشام ، ومات وهو شيخ كبير في سنة ١١٨ هـ (الطبري ج ٢ ص ١٥٩٢) . وكان لابنه محمد بن علي شأن أكبر منه بكثير ، حتى وهو على قيد الحياة ، فظهر أولاً بدهوى إمامة الشيعة ، وكان هو مؤسس الدعوة العباسية السرية ، وجعلها تعمل من أجله في الكوفة وخراسان ، في حين أنه لم يترك مكانه في الحنيفة ، ومات في ذي القعدة سنة ١٢٥ هـ (الطبري ج ٢ ص ١٧٦٩) ، وبعد وفاته جاء ابنه إبراهيم بن محمد إماماً ثانياً للعباسيين . وقد ولد إبراهيم هذا في سنة ٨٢ هـ .

(١) راجع فيما يتعلق بالمختار ما قلته عن الشيعة في كتابي ، ص ٧٤ فما بعدها .

الأول ولا عن أصول العروبة ، ولذلك نبدوا السبئية فتمسك هؤلاء السبئية بأحد أبناء علي من زوجة أخرى له ، وهو يسمى محمد بن الحنفية باسم أمه . فلم يعترض هذا علي أن اتخذ السبئية بمثابة الصنم الذي كانوا يحتاجون إليه في مذهبهم ، ولم يكن هناك بأس من أن يتوارى ابن الحنفية دون أن يفعل شيئاً ، لأنه حتى لو كان ميتاً لما كانت فائدته أقل منه حياً . ولقد قيل حيناً من الدهر إنه لم يمض ، بل كان لا يزال حياً غائباً في جبل رضوى عند المدينة ، مستعداً للظهور في الوقت المناسب . ولكن صار ابنه أبو هاشم عبد الله هو الإمام ، ولم يكن شأنه من حيث وراثة الإمامة أكبر من شأن أبيه . ولم يجد خلافة الشيعة الكوفيين ما كانوا يريدونه عند زيد بن علي ابن الحسين : هل أن أبا هاشم انتقل إلى الحميصة وأقام بها واتصل هناك بالعباسيين^(١) ، ويروى أنه لما مات سنة ٩٨ هـ أوصى وصية صريحة بأن تكون الإمامة لمحمد بن عبد الله بن العباس .

وقد نبه فان فلوطن (van Vloten) على أهمية هذه الرواية الأخيرة تنبيهاً شديداً^(٢) ، ومهما يكن من شيء فالراجح أنها في صورتها هذه مغترفة^(٣) ، ولكن اغترافها كان منذ زمن مبكر ، لأن لها شواهد قوية^(٤) ، ولولا ذلك لحدروا العباسيون فيما بعد من أن يقيموا حقهم على مثل ذلك الأساس . وهذه

(١) ربما كان هناك قبل العباسيين وانضموا إليه (٨٩٥) ولم يكن هو الذي انضم إليهم .

(٢) راجع كتاب فان فلوطن *Opkomst der Abbassiden* ، ليدن ١٨٩٠ ص ١٨ فابعداها ص ١٤٨ .

(٣) جاء في الشهرستاني (ص ١١٢ ص ١٩) أن أبا هاشم ، في رأى بعض فرق الهاشمية ، أوصى الآخرين منهم عبد الله بن عمرو بن حرب الكنتلى .

(٤) انظر رواية المدائني عند الطبري (ج ٣ ص ٢٤) ، ورواية ابن سعد في *Wüstenfeld Register* ص ١٩ و ١٣٠ . وعند فان فلوطن في كتابه *Opkomst* ص ١٤٨ .

الرواية تتضمن أيضاً قدراً من الحق ، فقد كان أبو هاشم في الواقع سلفاً لمحمد ابن علي ، وإن كان يجوز أنه لم يعينه خليفة له تعييناً حقيقياً . وقد كان لأبي هاشم حزبه الخاص ، وكان أتباعه يسمون الهاشمية^(١) ، وهم بعد أن مات أبو هاشم قد صاروا إلى محمد بن علي (الطبري ج ٢ ص ٢٥٠) وبحسب ما جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٥٨٩) كان علي رأسهم خلدش ، وهو من أكره دعاة الشيعة نجاحاً ، وكان في أول الأمر يدعو إلى محمد بن علي . وعلى هذا ففي غير تلك الوصية شيء من الحق : فالعباسيون والواليا هاشم لكي يضموا الهاشمية إلى دعوتهم .

وفي هذا ما يدل على الصلة بين العباسيين وبين السبئية أصحاب المختار ، ذلك أنه من بين أصحاب ابن الحنفية ظهر أصحاب ابنه وهم الهاشمية . ولم يُقتضَ على السبئية في الكوفة بقتل المختار ، بل هم بقوا بين الطبقات الدنيا للشعب . والآراء التي كان يكتبها الهاشمية ، كما يذكرها الشهرستاني ، لا تختلف عن آراء ابن سبأ في شيء . وتآمر العباسيين يشبه تآمر السبئية كما يصفه سيف^(٢) شياً تاماً ، وكان مقر العباسيين في الكوفة أيضاً ، ومن هناك كانوا ينشرون دعوتهم في خراسان ، وفي كلا الدعوتين : دعوة الهاشمية ودعوة العباسيين ، استندت الحركة إلى الموالي من الأماجم وصارت موجهة إلى محاربة العروبة باسم الإسلام . وإذن فالشبه بين الدعوتين يشمل كل النقط الهامة ، فيشمل الآراء وطريقة الدعوة ومقرها والحزب الذي كونه . ويستطيع الإنسان أن يزيد على ذلك نقطتين من حيث التفاصيل : كانت العمدة الخشبية هي السلاح الوطني عند أهل الطبقة الدنيا من سكان بلاد

(١) راجع الشهرستاني ص ١١٢ فإ بعدها ، أما عند الطبري فلا يرد اسم الهاشمية على أنه تسمية واضحة لفرقة إلا في ج ٢ ص ١٥٨٩ و ١٩٨٧ و ١٩٨٩ . أما في العادة فيستعمل اسم الهاشمية مشتقاً من هاشم لا من أبي هاشم ، ويقصد منه ما يقصد من قول الهاشميين ، ويجوز أن العباسيين لم يكرهوا هذا المعنى المزدوج لكلمة الهاشمية . وأما شياطين في شعر الكيت فصائد عن أبناء فاطمة .

(٢) راجع كتابنا ... Skizzen ، قسم ٦ ص ١٢٤ ، والكتب اليهودية الأولى في الملاحم تلعب دوراً في الحاليين .

العجم ، وقد سميت هذه العمدة باسم كفرة كوبات عند خشية المختار ، فكانت هذه التسمية عندهم سابقة لتسميتها عند خشية أبي مسلم^(١) . وكان أقدم أتباع المختار هم الموالي الذين كانوا في ضيعته في قرية الخطرنية من سواد الكوفة ، وبحسب ما جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٩٦٠) أن أبا مسلم كان من أهل الخطرنية (راجع المسعودي ج ٢ ص ٥٩) . وإذا شك الإنسان في صحة هاتين الروايتين فإن ذلك لا يفقدهما شأنهما ، لأن الاختراع هو الذي بعث عليهما ، ونحن يكفينا الباعث . أما إذا كان العباسيون بعد أن كانوا قد ارتفعوا على أكتاف الشيعة تنكروا لهم ونبذوهم (ج ٣ ص ٢٩ س ١٧) فليس ذلك حجباً ، لأنهم تضايقوا منهم ، وكان على الشيعة أن ينصرفوا بعد أن أدوا مهينتهم .

بدل هذا كله على وجود علاقة وثيقة بين ثورة المختار التي أخفقت وثورة أبي مسلم التي نجحت . وبالرغم من أن نار الثورة التي قامت في ٦٧ هـ قد أطفأتها الدماء فيما يظهر ، فإنها ظلت تومض تحت الرماد ، وانقالت من الكوفة إلى خراسان . وكانت أرض خراسان أكثر ملائمة ، لأن الموالي كانوا فيها أكثر تماسكاً ، وكان العرب بالنسبة لهم أقل مما كانوا في الكوفة بكثير . ولقد كان المختار رجلاً من أكبر شخصيات التاريخ الإسلامي ، وقد توقع ما يحدث في المستقبل . وإذا صحت نظرية الرجعة فإن روح العربي الذي ثار في قرية الخطرنية قد رجعت في أبي مسلم ، أحد موالي هذه القرية .

٢ - وفي سنة ١٠٠ هـ وجه^(٢) محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو بأرض الشراة ميسرة إلى العراق ، ووجه محمد بن خنيس وأبا حكرمة السراج الذي يسمى أيضاً أبا محمد الصادق ، وحيثان العطار خال إبراهيم بن سامة ، وكلهم من أهل

(١) راجع الطبري ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٢) الوجه بحسب الطبري (ج ٢ ص ١٣٥٨) هو محمد نفسه ، ولكن بحسب

(ج ٢ ص ١٤٣٤) الذي وجه في الحقيقة ميسرة - [قارن الطبري ج ٢ ص ١٩٨٨ - المترجم] .

الكوفة ، إلى خراسان ، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته . فلقوا من لقوا ، ثم انصرفوا يكتبون من استجاب لهم ، فدفعوا الكتب إلى ميسرة ، فبعث بها إلى محمد بن علي ، واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر نقيباً ، واختار سبعين رجلاً غيرهم (من أهل خراسان) ، وأعطاهم محمد بن علي كتاباً ليكون لهم مثلاً وسيرة يسرون بها . وهذا ما يحكيه الطبري (ج ٢ ص ١٣٥٨) ، ولكن كون ذلك في سنة ١٠٠ هـ ، كما يقول الطبري (ج ٣ ص ٢٤) وكذلك ذكر أن عدد النقباء كان اثني عشر وأن عدد التابعين لهم كان سبعين رجلاً ، كل ذلك يثير الشك^(١) . والروايات المذكورة في حوادث السنوات التالية تتضافر على إثبات أن أمر الدعوة لم يكن بدون تنظيم ، ومعظم الروايات غير مؤسدة لأسمائها ، ولا يذكر المدائني أسماء الرواة إلا في ثلاث روايات ، وها أنا ذاكر ما تضمنته :

الطبري ٢ ص ١٤٣٤ (في أحداث سنة ١٠٢ هـ) : وجه ميسرة رسوله من العراق إلى خراسان ، وظهر أمر الدعوة بها ، فجاء رجل من بني تميم إلى سعيد خديجة ، أمير خراسان من قبيلة يزيد بن عبد الملك ، فقال له : ها هنا قوم قد ظهر منهم كلام قبيح ، فبعث إليهم سعيد فأتى بهم ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : لا ندري ، قال : جئتم دعاة ؟ فقالوا : إن لنا في أنفسنا وفي تجارتنا شغلاً من هذا ، فسأل سعيد : من يعرف هؤلاء ؟ فجاء أناس من أهل خراسان جلّهم من ربيعة

(١) بحسب الطبري ج ٢ ص ١٩٨٨ ، أرسل محمد بن علي في سنة ١٠٢ هـ أو ١٠٣ هـ رسوله (في سيرة المفرد) إلى خراسان . وبعد أن استجاب له سبعون رجلاً أخذ منهم اثني عشر نقيباً ، وتختلف أسماء هؤلاء النقباء في هذا الموضع من كتاب الطبري عنها في الموضع الآخر (ج ٢ ص ١٣٥٨) بعض الاختلاف ، وفي أسماء بعضهم اختلاف أيضاً ، هذا إلى أن ترتيب ذكر الأسماء ليس واحداً ، ويجوز أن يكون ما جاء في كتب الملاحم اليهودية من ذكر وقته المائة قد لعب دوراً . [عند الطبري ، في الموضع الذي يشير إليه المؤلف من حيث أنه أن إرسال الرسول كان في سنة ١٠٣ هـ أو ١٠٤ هـ - المترجم] .

والذين ، فقالوا : نحن نعرفهم ، وهم علينا ، إن أذاك منهم شيء تكرهه ،
فخلى سعيد سبيلهم .

الطبري ج ٢ ص ١٤٦٧ (في أحداث سنة ١٠٥ هـ) قدم بكير بن ماهان
من السند ، وكان بها مع البلخيد بن عبد الرحمن ترجماناً له (١) ، فلما حُزِلَ
البلخيد بن عبد الرحمن قدم الكوفة ومعه أربع تسيئات من فضة ولبنة من
ذهب ، فلقى أبا عكرمة الصادق وميسرة ومحمد بن خنيس وسالم الأحمين
وأبا يحيى مولى بني سلمة ، فذكروا له أمر دعوة بني هاشم ، فقبل ذلك ورضيه
وأففق ما معه عليهم ، ودخل إلى محمد بن علي . ومات ميسرة ، فوجه محمد
ابن علي بكير بن ماهان إلى العراق مكان ميسرة ، فأقامه مقامه .

الطبري ج ٢ ص ١٤٨٨ (في أحداث سنة ١٠٧ هـ) وجه بكير بن ماهان
أبا عكرمة وأبا محمد الصادق (٢) ومحمد بن خنيس وعماراً العبادي ، في عدة
من شيعتهم ، معهم زياد بن خالد الوليد الأزرق ، دعاءً إلى خراسان ، فجاء
رجل من كندة إلى أسد بن عبد الله ، فوثق بهم إليه ، فأقْبَلَ بآبي عكرمة
ومحمد بن خنيس وعامة أصحابه ، ونجا عمار ، فقطع أسد أيدي من ظفر به
منهم وأرجلهم ، وصلبهم . فأقبل عمار إلى بكير بن ماهان ، فأخبره الخبر ،
فكتب به إلى محمد بن علي ، فأجابه : « الحمد لله الذي صدق مقالكم
ودعوتكم ، وقد بقيت منكم قتل مستقل » .

الطبري ج ٢ ص ١٤٩٢ : نجد هنا نفس الرواية المذكورة في أحداث
سنة ١٠٧ هـ المذكورة في أحداث سنة ١٠٨ هـ ، ولكن مع فرق : هو أن أسد
ابن عبد الله أخذ عماراً فقطع يديه ورجليه ، ونجا أصحابه وأخبروا بكير بن ماهان

(١) بحسب الطبري ج ٢ ص ١٧٢٦ ص ١٠ كان بكير كاتباً لبعض عمال السند .

(٢) بحسب الطبري ج ٢ ص ١٣٥٨ ص ٤ و ص ٤٦٧ ص ٧ أبو عكرمة
هو أبو محمد .

ياخبر ، فكتب به إلى محمد بن علي ، فأجاب محمد بن علي : الحمد لله الذي صدق دعوكم ونجى شيعتكم ،

الطريق ج ٢ ص ١٥٠١ - ١٥٠٣ (في أحداث سنة ١٠٩ هـ) ،
رواية المدائني : أول من قدم خراسان من دعاة بني العباس زياد أبو محمد مولى همدان ، في ولاية أسد بن عبد الله الأولى ، بعثه محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس وقال له : أَدْعُ الناسَ إلينا ، وانزل في اليمن ، والطف بمُحْسَرٍ ، ونهاه عن رجل من أبرشهر (نيسابور) يقال له غالب ، لأنه كان مفترطاً في حب بني فاطمة . ويقال : أول من جاء أهل خراسان بكتاب محمد بن علي ، حرب بن عثمان مولى بني قيس بن ثعلبة ، من أهل بلخ ، قال : فلما قدم زياد أبو محمد دعى إلى بني العباس وذكر سيرة بني مروان وظلمتهم وجعل يطعم الناس الطعام ، فقدم عليه غالب من أبرشهر ، فكانت بينهم منازعة : غالب يُفَضِّلُ آل أبي طالب ، وزياد يُفَضِّلُ بني العباس ، ففارقه غالب ، وأقام زياد بمرو شتوةً ، وكان يختلف إليه من أهل مرو يحيى بن حنبل الخراساني وإبراهيم بن الخطّاب العدوي : وكان حلّ خراج مرو الحسن بن شيخ ، فبلغه أمره ، فأخبر به أسد بن عبد الله ، فدعا به وكان معه رجل يكنى أبا موسى ، فلما نظر إليه أسد قال له : أهرفك ؟ قال : نعم ، قال له أسد : رأيتك في حانوت بدمشق ، قال : نعم ، قال أسد لزياد : فما هذا الذي بلغني عنك ؟ قال رُفِعَ إليك الباطل ، لما قدمت خراسان في تجارة ، وقد فرقت مالي على الناس ، فإذا صار إلى خرجت ، قال له أسد : اخرج عن بلادى ! فانصرف فعاد إلى أمره ، فعاد الحسن أسداً وعظّم عليه أمره ، فأرسل إليه ، فلما نظر إليه قال : ألم أنهك عن المقام بخراسان ؟ قال : ليس عليك أمها الأمير مني بأس ، فأحفظ ذلك أشداً ، وأمر بقتلهم ، فقال له أبو موسى : فاقض ما أنت قاض ! فازداد أسد غضباً ، وقال له : أنزلني منزلة فرعون ! فقال له : ما أنزلتُك ، ولكن الله أنزلك ! فقتلوا وكانوا عشرة من أهل الكوفة ، فلم ينبج منهم يومئذ إلا غلامان استصغرا ...

وقال آخرون : عرض عليهم أسد البراة ، فن تبرأ منهم مما رُفِع عليه خطي سبيله ، فأبى البراة ثمانية منهم ، وتبرأ اثنان ، فلما كان الغد أقبل أحدهما ، وأسد في مجلسه المشرف على السوق بالمدينة العتيقة ، فقال : أليس هذا أسيرنا بالأمس ؟ فأتاه ، فقال له : أسألك أن تلحقني بأصحابي فأشرفوا به على السوق ، وهو يقول : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه نبياً ، فدهله أسد بسيف بخار خذاه ، فضرب عنقه بيده ، قبل الاضحية بأربعة أيام . ثم قدم بعدهم رجل من أهل الكوفة يسمى كثيراً ، فنزل على أبي النجم ، فكان يأتيه الذين لقوا زياداً ، فيحدثهم ويدهوهم ، فكان ذلك سنة أو سنتين ، وكان أمياً ، فقدم عليه خدش ، وهو في قرية تدعى مرهم ، فغلب كثيراً على أمره ، ويقال كان اسمه حمارة (١) ، فسمى خدشاً لأنه خدش الدين (٢)

الطبري ج ٢ ص ١٥٦ (في أحداث سنة ١١٣ هـ) : سار من دهاعة بني العباس جماعة إلى خراسان ، فأخذ الجعيد بن عبد الرحمن رجلاً منهم فقتله ، وقال : من أصيب منهم فدمه هدر .

الطبري ج ٢ ص ١٥٨٦ فيما بعدها (في أحداث سنة ١١٧) : أخذ أسد أبي عبد الله جماعة من دهاعة بني العباس بخراسان ، فقتل بعضهم ومبيل بعضهم وجلس بعضهم . وكان فيمن أخذ سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وموسى ابن كعب ولاهز بن قريظ (من عجم) وخالد بن إبراهيم (من بكر) ، وطلحة بن زريق ، فأبى بهم ، فقال لهم : ألم يتقّل الله تعالى : « حقا الله عما سلف ، ومن عاد . فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام » ؟ فلو كان أن

(١) حسب الطبري ج ٢ ص ١٥٨٨ من ٩ : اسمه حمار بن يزيد ، أما خدش فهو يسمونه في المادة خدش ، لا خدشاً ، ولو أن اسمه كان خدشاً لزم استعمال الأداة مع الاسم فقول الخدش [هذا ما يقوله المؤلف ، ولكن يسمى خدش بهذا الاسم لأنه خدش الدين . — نقلنا عن الطبري ج ٢ ص ١٥٠٣ من ١٠ - ١١ - المترجم] .

(٢) زدنا في بعض النصوص التي يذكرها المؤلف مستندين إلى الأصل - المترجم [-

سليمان بن كثير قال : أنكلم أم أسكت ؟ قال : بل تكلم ! قال : نحن والله كما قال الشاعر :

لو بغير الماء حكني شرق^١ كنت كالغصان بالماء احتصاري
 فدرى ما قصتنا ؟ صيدت والله المقارب بينك أيها الأمير ، أنا أناس من قومك ، وإن هذه المضربة إنما رفعوا إليك لهذا لأننا كنا أشد الناس على قتية ابن مسلم ، وإنما طلبوا بثأرهم ، فتكلم ابن شريك بن الصامت الباهلي ، وقال : إن هؤلاء القوم قد أخذوا مرة بعد مرة ، فقال مالك بن الحيثم : أصليح الله الأمير ! ينبغي لك أن تعتبر كلام هذا بغيره ، فقال : كأنك يا أخا باهلة تطالبنا بثأر قتية ، نحن والله كنا أشد الناس عليه ، فبعث بهم أسد إلى البجليس ، ثم استشار في أمرهم ، وانتهى الأمر بأن أطلق أسد من كان منهم من خزاعة وبكر وهاقب من كان منهم من تميم ، أما موسى بن كعب فأمر به فأجلم بلجام حار ، وأمر بجلب اللجام حتى تحطمت أسنان موسى ، ثم عاد بلاهز بن قريظ ، فاحتج لاهز على ترك الخزاعين والبكرين ، فأمر أسد بغيره ثلاثمائة سوط ، ثم قال : أصليوه ، فتدخل رجل من الأزد كان سبياً فخلية سبيل لاهز والآخرين^(١) .

الطبري ج ٢ ص ١٥٨٨ (في أحداث ١١٨ هـ) : وجه بكير بن ماهان همار بن يزيد إلى خراسان والياً على شيعة بني العباس ، فنزل مرو وغير اسمه ، وتسمى بخنداش ، ودعا إلى محمد بن علي ، فسارع إليه الناس ، وقبلوا ما جاءهم به ، وسعدوا إليه وأطاعوا . ثم غيّر ما جاءهم إليه وتكلم وأظهر دين الخرمية ودعا إليه ، ورخص لبعضهم في نساء بعض ، وأخبرهم أن ذلك عن أمر محمد بن علي ، فبلغ أسد بن عبد الله خبره ، فوضع عليه العيون حتى ظفربه ، فسأله عن حاله .

(١) لم يكن يستطيع أن يقتل حرب خراسان ، كما فعل مع الموالي .

فأغلق خدّاش له القول ، فأمر به أسد فقطعت يده ، وخلع لسانه ،
وسمّلت عينه .

الطبري ج ٢ ص ١٥٨٩ : رواية المدائني : لما قدم أسد آمل في سنة
١١٨ هـ أتوه بخدّاش صاحب الهاشمية ، فأمر به قرعة الطيب : فقطع لسانه
وسمّلت عينه ، ثم دفعه إلى حامل آمل ، فقتله وصلبه .

الطبري ج ٢ ص ١٦٣٩ لما بعدها (في أحداث سنة ١٢٠ هـ) :
وجّهت شيعة بني العباس بخراسان سليمان بن كثير إلى محمد بن علي
ابن العباس ليعلمه أمرهم وما هم عليه ، وكان السبب في ذلك أن محمد بن علي
ابن العباس كان واجداً على من كان بخراسان من شيعة من أجل طاعتهم
خدّاش وقبولهم منه ما روى عن محمد من الكذب ، فترك مكائبتهم : فلما
أبطأ عليهم اجتمعوا فذكروا ذلك بينهم ، فأجمعوا على الرضا بسليمان بن كثير
ليلقاه بأمرهم ويخبره عنهم ويرجع إليهم بما يردّ عليه . فقدم سليمان بن كثير
على محمد بن علي ، وهو متنكر لمن بخراسان من شيعة ، فأخبره عنهم ،
غتمهم في اتباعهم خدّاشاً وما كان دها إليه وقال : لعن الله خدّاشاً ومن
كان على دينه ، ثم صرف سليمان إلى خراسان وكتب إليهم معه كتاباً ،
فقدم عليهم ومعه الكتاب غتموا ، ففقدوا خاتمه فلم يجدوا فيه شيئاً إلا :
بسم الله الرحمن الرحيم ، فغلظ ذلك عليهم ، وعلموا أن ما أبلغهم خدّاش عن
محمد بن علي كان عن غير أمر محمد . وبعد ذلك وجّه محمد بن علي بكير
ابن ماهان إلى شيعة بخراسان بعد انصراف سليمان بن كثير من عنده إليهم ،
وكتب معه كتاباً إليهم يعلمهم أن خدّاشاً حلّ شيعة على غير مناجاه ، فلما
قدم بكير بالكتاب لم يصدقوه واستخفّوا به ، فرجع بكير إلى محمد بن علي
فبعث معه بعضي مضمّنة ، بعضها بالحديد وبعضها بالشبه ، فقدم بها بكير وجمع

النقباء والشيعة ودفع إلى كل رجل منهم عصاً ؛ فعلموا^(١) أنهم مخالفون لسيرته ، فرجعوا وتابوا .

الطبري ج ٢ ص ١٧٢٦ (في أحداث سنة ١٢٤ هـ) ، رواية المدائني :
قدم جماعة من شيعة بني العباس ، من خراسان ، الكوفة ، وهم يريدون مكة ، وكان معهم بكير بن ماهان ، وكانوا يجتمعون في الكوفة في دار ، فتميز بهم فأخيلوا ، فحبس رئيسهم بكير بن ماهان ، وكان في الحبس يونس أبو عاصم وعيسى بن معقل العجلي ، وكان مع عيسى أبو مسلم يخدمه ؛ فدعاهم بكير ، فأجابوه إلى رأيه . وسأل بكير عيسى عن الغلام الذي معه ، فقال إنه مملوك له ، ثم اشتراه بكير بأربعمائة درهم ؛ ثم خرجوا ، فبعث ابن ماهان بأبي مسلم إلى إبراهيم بن محمد بن علي فدفعه هذا إلى موسى السراج ، فسمع منه وحفظه ، ثم صار إلى أن اختلف إلى خراسان^(٢) .

ولنذكر إلى جانب ما تقدم رواية أخرى جاءت عند الطبري ج ٢ ص ١٧٢٦ فابعداها وص ١٧٦٩ : وقال غير المدائني : توجه سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قريظ وقحطبة بن شبيب ، وكانوا نقباء شيعة بني العباس في خراسان ، وهم يريدون مكة في سنة ١٢٤ هـ ، فلما دخلوا الكوفة أتوا عاصم بن يونس العجلي ، وهو في الحبس قد اتهم بالدعاء إلى ولد العباس ، ومعه عيسى وإدريس ابنا معقل - حبسهما يوسف بن عمر فيمن حبس من عمال خالد بن عبد الله القسري - ومعهما أبو مسلم يخدمهما ، فأروا فيه العلامات فقالوا : من هذا ؟ قالوا : « غلام معنا من السرايين » . وقد كان أبو مسلم يسمع عيسى وإدريس يتكلمان في هذا

(١) لابد أنهم فهموا معنى المص أحسن مما أفهمه أنا ، ولا يمكن أن تكون المعنى مجرد علامة تفويض لابن ماهان .

(٢) فيما يتعلق بالعبارة التي ليست واضحة تماما عند الطبري ج ٢ ص ١٧٢٦ ص ١٧٢٦ قارن

بقية الرواية ج ٢ ص ١٩٤٩ ص ١٤

الأمر، فإذا سمعهما بكى، فلما رأوا ذلك منه دعوه إلى ما هم عليه، فأجاب وقبل: وقدم القوم مكة^(١)، فلقوا، في قول بعض أهل السر، محمد ابن علي، فأخبروه بقصة أبي مسلم وما رأوا منه، فسألهم: أحرّ هو أم هبذ؟ قالوا: أما هيسى فيزعم أنه هبذ، وأما هو فيزعم أنه حر، قال: فاشتروه وأعتقوه. وأعطوا محمد بن علي مائتي ألف درهم وكسيت بثلاثين ألف درهم، وقال: ما أظنكم تلقوني بعد عامي هذا، فإن حدثتني حدث فصاحبكم إبراهيم بن محمد (ابنه)، فإني أتي به، وأوصيكم به خيراً، فقد أوصيته بكم، فصعدوا من عنده، وتوفي محمد بن علي في مستهل ذي القعدة سنة ١٢٥ هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة. وكان بين وفاته وبين وفاة أبيه على سبع سنين.

الطبري ج ٢ ص ١٨٦٩ (في أحداث سنة ١٢٦ هـ): وجه إبراهيم ابن محمد الإمام أبا هاشم بكبير بن ماهان إلى خراسان، وبعث معه بالسيرة والوصية، فقدم مرو وجع النقباء ومن بها من الدعاة، فنهى لهم الإمام محمد بن علي ودعاهم إلى إبراهيم ودفع إليهم كتاب إبراهيم فقبلوه، ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة، فقدم بها بكبير علي إبراهيم ابن محمد.

الطبري ج ٢ ص ١٩١٦ فما بعدها (في أحداث سنة ١٢٧ هـ): كتب بكبير ابن ماهان إلى إبراهيم بن محمد يخبره أنه في أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا، وأنه قد استخلف أبا سلمة حفص بن سليمان بن الخلال مولى السبيع، وهو رضى للأمر، وكتب إبراهيم إلى أبي سلمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه، وكتب إلى أهل خراسان يخبرهم أنه قد أسند الأمر إليه. ومضى أبو سلمة إلى خراسان فصدقه وقبلوا أمره، ودفعوا إليه ما اجتمع قبيلهم من نفقات الشيعة

(١) في آخر سنة ١٢٤ هـ، وإذا كان الطبري يذكر ذلك في أخبار سنة ١٢٥ هـ فليس لذلك كبير شأن، لأن الحج يقع في نهاية العام وأول العام الذي يليه.

ونحس أموالهم ، وكان يلقب : « وزير آل محمد » (الطبرى ج ٣
 ص ٢٠ و ٦٠) .

في كل هذه الروايات نجد أن الكوفة مهد دعوة العباسيين ومركزها ،
 خفي الكوفة كان نواب الإمام الغائب وخلفاؤه ، وهم ميسرة وابن ماهان
 وأبو سلمة ، وكان بالكوفة أيضاً عدتهم وأعوانهم ، وكلهم موال ومن
 أمة الأعاجم ، ومهنتهم التجارة والصناعة . ولا شك أنه قد كان هناك
 حرب في شيعة بنى العباس ، لكنهم لم تكن لهم الرياسة ، وكانت الدعوة تشر
 في خراسان ، أضحى في مرو آتية من الكوفة . وبعد سنة ١٠٠ هـ بزمان طويل
 كان الدعاة هناك من أهل الكوفة خاصة ، وكانوا تجاراً عرباً ، وكانت
 مبادئ الدعوة غير ظاهرة ، وكاد يقضى عليها في مهدتها ، وكان أول من نجح
 في الدعوة خدش ، وأول ما نجد ذكره في سنة ١٠٩ هـ ، وبلى أن يشك
 الإنسان في أنه في ذلك الوقت كان قد بدأ يقوم بالدعوة فعلاً ، ولكن من
 البعيد عن الحقيقة أيضاً أن يكون إنما قدم من الكوفة إلى خراسان في سنة
 ١١٨ هـ ، وهي السنة التي قتل فيها . وقد تدفق إليه أهل مرو كالسيل ،
 وقبلوا كلامه واتبعوه ، فالظاهر أنه هو المؤسس الحقيقي لشيعة بنى العباس
 في مرو . ويظهر أيضاً أنه هو الذي نظمهم ، فلا عجب إذن أن نسجع في
 سنة ١١٧ هـ ، لأول مرة ، أخبار الدعاة النقباء من أهل خراسان ، وهم الذين كان
 محمد بن علي بن العباس نفسه قد اختارهم في سنة ١٠٠ هـ ، كما نسجع أن هؤلاء
 الدعاة النقباء صاروا أكثر تعلقاً بخدش منهم بمحمد بن علي نفسه . وعلى حين
 كان سواد شيعة بنى العباس في مرو من الموالى كان الدعاة الأولون عرباً ، ويذكر
 الطبرى (ج ٢ ص ١٥٨٦) ستة منهم ، وكان أكبرهم ، وهو الذي صار رئيسهم
 بعد موت خدش ، سليمان بن كثير . وكان سليمان من خزاعة ، وكان لخزاعة
 قرى في واحة مرو ، وقد كان فيهم وفيمن كان معهم من الأكراب الأعاجم طائفة
 كبيرة جداً تؤيد دعوة شيعة العباسيين ، وكان يربط بين خزاعة وبين آل بيت

النبي عليه السلام حلفاً قديم ، هذا إلى أنهم كانوا ينتسبون إلى الأزد ، وكان الأزد منذ سقوط المهالبة يقفون على الدوام تقريباً في صفوف الحزب المعارض لحكومة بني أمية ، فكانوا أقرب للتأثر بالثورة على هذه الحكومة من قبائل مضر . على أنه كان من بين الدعاة الستة الذين أخذهم أسد في سنة ١١٧ هـ ثلاثة من خزاعة وواحد من بكر واثنان من قميم ، وعلى هذا لا يصح أن يعلق الإنسان كبير شأن على الفوارق بين القبائل . وكان هؤلاء الشيعة ، ومن بينهم العرب أيضاً ، يعارضون روح القومية العربية ، وكانوا يرون أن الإسلام ، لا العروبة ، هو الذي يجعل للإنسان حقوق المواطن في الدولة التيقراطية ، ولم يكن الموالي أيضاً يحرّمون من أن يكون لهم مكان الزعامة في الحزب ، ونجد من بين الدعاة الاثني عشر الذين يذكّرهم الطبري : (ج ٢ ص ١٣٥٨) ، أربعة من الموالي إلى جانب ثمانية من العرب .

ولكن محمد بن علي لم يترك خلدش إلا بعد موت خلدش ، وهو لم يبتكر له قبل ذلك ، فقبل حنه إنه الخارج المضل الذي يلد بدور الفساد في الدعوة وحمل الشيعة والدعاة على غير منهاج الإمام ، كأنما كان خلدش قد وجد حزب الشيعة أمامه ، وكأنما كان قد وجده مُنظّماً قبل أن يدخل هوفيه . وقيل أيضاً إن الخليفة أو العلم الذي رعى به بين مبادئ الحزب هو مذهب الحرّمية ، ولا شك أن الحزب الذي نشر مبادئه خلدش وتزعمه كان هو حزب الهاشمية ، أما الحرّمية فلم تكن حزباً ، بل كانت نزعة إباحية عامة . وكان الحرّمية ، كما يزعمون ، لا يرضون بها في الإسلام من نزعة يهودية ، أعنى أنهم كانوا يعترضون على روح التطهر والتشدد الحزينة في ذلك ، فكانوا يريدون أن يجعلوا للطبيعة والمرح مكانهما في الدين . وهم في ذلك يصلون مذهبهم بالديانة الوثنية التي كانت في بلاد العجم من قبل ، ويموّل أنهم كانوا إلى جانب ذلك متأثرين بمبادئ اجتماعية كانت تلائم ما يطمح إليه الموالي أحسن ملائمة . ويروى أن الحرّمية والراوندية قد

جددوا الدعوة إلى الشيوعية . النساء ، وهى الشيوعية التى كان مزدك قد دعى إليها من قبل . وعلى هذا فإن مما يمكن تصديقه كل التصديق أن يكون خداس لم يحارب هذا الاتجاه الشيوعى ، بل أن يكون قد آتته واستفاد منه . غير أنه يجب على الإنسان أن يستبعد القول بأن يكون ذلك بمثابة حجر العثرة الذى من أجله نفر العباسيون من خداس ، لأن العباسيين فى ذلك الوقت جمعوا الزنادقة حولهم ، وهم لم يبدؤهم إلا فيما بعد ، ولم يظهروا بمظهر المتحمسين بمذهب الجماعة وأهل السنة إلا بعد أن وصلوا إلى غايتهم (١) ، أما فى أول أمر دعوتهم فإنهم كانوا يحاولون أن يستغلوا كل معارضة من جانب فرق الشيعة لحكومة بنى أمية ، أيا كان لون مذهب هؤلاء الشيعة ، وكانت الغاية الأولى للعباسيين هى الناحية السلبية ، أعنى إسقاط حكومة الأمويين ، فأما الناحية الإيجابية ، وهى التغلب على الخلافة ، فقد جعلوها فى المحل الثانى ، وهم لم يكونوا فى الحملة يظهرون أمام أتباعهم بأنهم طلاب خلافة بقدر ما كانوا يزعمون أنهم الأداة التى أرادها الله لقلب حكومة بنى أمية . فهم لم يقدّموا أشخاصهم بل قدّموا القضية التى أرادوا الدفاع عنها ، وهى الكفاح لنصر الحق والعدل على الباطل والظلم . وهم لم يكونوا يأخذون البيعة لأنفسهم وبإسمهم ، بل كانوا يأخذونها لمضى مجهول من آل بيت النبى عليه السلام ، ستبقى عليه الكلمة فيما بعد . بل إنه فى بعض الأحيان لم تفتح عين أنصارهم الذين اتخذوهم وسيلة لذلك ، حتى رأوا الغرض الحقيقى ، إلا فى وقت متأخر عن بدء الدعوة . وكان العباسيون يعملون ما استطاعوا على أن يخفوا عن الناس أنهم كانوا يريدون تنمية بنى فاطمة ، بل هم كانوا يظهرون أنهم يعملون من أجل بنى فاطمة . وهم قد ظهروا فى خراسان .

(١) [إن كلام المؤلف هنا مبالغ فيه دون أى شك ، ولقد كان غرض بنى العباس أن يصلوا إلى الخلافة ، ولكن أسلوب بنى أمية فى الحكم وسيرة بعضهم هو الذى مكّنهم بحق من النجاح فى دعوتهم ، أما أنهم استعانوا بالزنادقة كما يقول المؤلف ، فليس عليه دليل تاريخى ولا حقيقى - المترجم] .

وفي غيرها بدعوى أنهم يريدون أن يثأروا لشهداء أبناء فاطمة ولذلك لم يكونوا يستطيعون أن يتنكروا للحزب الآخر من الشيعة^(١) ولا أن يبدلوه ، لأنهم كانوا لا بد لهم أن يتخذوه عماداً لهم إزاء بنى فاطمة ، فأما أن يعتقد الشيعة ما يشاءون ، وأن تكون سيرتهم في الحياة كما يحبون ، فكان العباسيون يعتبرون ذلك مسألة يمكن حلها فيما بعد . وكان همهم الأول هو أن يتعلق الشيعة بهم ، فلم يعباؤا بالإباحية التي كانت موجودة عند الهاشمية . أما الذي كان يقلقهم فهو التنظيم الذي صار للشيعة بخراسان وصار مستقلاً عنهم وجاء على أثر اشتداد أمرهم اشتداداً كبيراً برئاسة خداش هناك . وقد تكوّنت في مرو رئاسة محلية من أهل خراسان ، وهي لم تنشأ - وهذا ما يستطيع الإنسان أن يتبينه بوضوح تام - أن تخضع لتوجيه رئاسة الكوفة وتأمر بأمرها ، وإن كان ذلك على كل حال لا يؤثر على الولاء لعمد ابن علي نفسه . ولكن نشأ أيضاً خطراً بالنسبة لعمد بن علي ، وهو أن يفلت من يده زمام أهل خراسان ، ذلك أنه إنما كان يسيطر عليهم من طريق شيعته الكوفة ، ولذلك استعمل مكانته وسلطته الشخصية التي كانت له على دعائه في خراسان في أن يحملهم على النزول عن استقلالهم والخضوع للوزير في الكوفة . وقد أفلح بمشقة في آخر الأمر في أن يضم إليه رئيسهم سليمان بن كثير . وعلى حين أن أهل خراسان ردوا وزير الكوفة سنة ١٢٠ هـ ، لما جاء إليهم في مرو ، فلما نجد أنهم رحبوا به في سنة ١٢٦ هـ ، وأعطوه أيضاً ما اجتمع قبيلهم من نفقات الشيعة وخمس أموالهم ، وكانوا من قبل يحملون الأموال إلى الإمام نفسه ، وكانوا لا يزورونه في الحميمة بل كانوا يلقونه في مكة : وكان الحج إلى مكة فرصة مواتية لاجتماع العناصر الشائرة دون أن تلتصق إليهم الأنظار ، وقد صارت العلاقة الشخصية بين الأتباع

(١) [يقصد المؤلف في الغالب شيعة خداش - المترجم] .

وبن الإمام تأخذ طابعاً أكثر حيوية ، كما صارت من طريق المال تأخذ طابعاً أكثر واقعية .

٣ - وقد اتخذ إبراهيم بن محمد بن علي وخليفته خطورة حاسمة لكي يقبض على زمام الأمر في خراسان قبضاً تاماً ، وذلك بأن وجه أبا مسلم إلى خراسان (١) . وأصل أبي مسلم خامض والروايات فيه مختلفة ، أما الذي لا شك فيه فهو أنهم يكن حربياً بل كان أصحميّاً ، وكان مملوكاً أوموي في الكوفة . وقد استرحى ، وهو ما يزال في سن الصغر ، انتباه شيعة بني العباس هناك ، مما دعا إلى إرساله إلى إبراهيم بن محمد ، فأخذه إبراهيم وضمه إلى أسرته وعلمه نفسه وجعله من خاصته . وفي سنة ١٢٨ هـ صار أبو مسلم هو الممثل الدائم لبيت ابن العباس في خراسان ، فأقام هناك وجعل رئيساً للدولة ، وكان قد أصبح معروفاً في خراسان بعد زياراته المتكررة إليها . ثم آن الأوان ، فكانت القبائل العربية الثائرة في خراسان قد أخرجت نصر بن سيار من مرو وأصبحت أيدي الحكومة الأموية مشغولة بثورات من كل نوع وفي كل مكان (٢) .

وقد بدا أن مولى يتخلده العباسيون أليق وأجدر بالثقة في خراسان من عربي حر كان حتى ذلك الحين على رأس الهاشمية هناك . ولم يكن المقصود من توجيه أبي مسلم هو أن ينحى سليمان بن كثير عن مكانه ، لأن الإمام إبراهيم بن محمد أوصاه ألا يخالفه ولا يعصيه وأن يكتفي عند ما يشكل عليه أمر بالرجوع إليه . ولكن صار لسليمان ، في شخص أبي مسلم ، منافس يهدد مركزه . ومن السهل أن نفهم أن سليمان ، تجريباً على ما فعله غيره من

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ٩٤٧ - المترجم] .

(٢) يحيى ثيوفانيس (في أخبار سنة ٦٤٠ من تاريخ الخليفة) : « ولما كان بدو أمية منذ مقتل الوليد قد وقّعوا في حروب بينهم وكانوا مشغولين بذلك إلى أقصى حد ، فقد اغتتم ذلك بنو هاشم وأبناء علي ، وهم أيضاً قرابة لقبى عليه السلام ، ولكنهم كانوا يعيشون خائفين وهاربين في جزيرة العرب الصغرى ، فالتحدوا تحت راية إبراهيم ، وبعثوا أبا مسلم مولاهم إلى خراسان ، إلى رجال لم نفوذ هناك لكن يدعمهم إلى الاشتراك في محاربة مروان » .

قبل ، لم يستقبل أبا مسلم فائحاً ذراعيه ، وكان من أثر ذلك أن صعب على أبي مسلم المقام في مرو : وهو لم يفده زواجه من ابنة أبي النجم — وكان هذا من أسرة أحد الدعاة — شيئاً ، وظل أبو مسلم يُعْتَبَر دُخِيلاً ، ولم يستطع أن يقف لإزاء سليمان ، فرأى أن يخلو الميدان .

فخرج أبو مسلم من مرو راجعاً إلى الكوفة^(١) ، ولكنه لما بلغ مدينة قومس وأوشك أن يخرج من أرض خراسان ، أمره إبراهيم بن محمد بالعودة وأرسل له راية النصر. وذلك أن تغيراً حدث في مرو ، وأبدت شيعة بني العباس استعدادها لطاعة أبي مسلم نائباً مفوضاً من قبيل آل البيت . فتولى أبو مسلم إعداد الثورة بنجاح كبير ، وبظهر أن نشاطه في ذلك قد انقطع بسبب رحلة قام بها في جمادى الآخرة سنة ١٢٩ هـ إلى مكة ، ومعه بعض أصحابه ، ليلقى الإمام هناك ويحمل إليه ما اجتمع من أموال^(٢) . ولكنه لما بلغ الحدود الغربية لخراسان وجه قمحطبة بن شبيب الطائي إلى مكة^(٣) ، وعاد هو إلى مرو . فهو لم يكن يقصد من الحج سوى غرض ظاهر ، أما ما كان يريد في الحقيقة فهو أن يزور الشيعة المتفرقين ، على اختلاف ألوانهم ، لكي يدعوهم إلى الدعوة العباسية ، ويهيئهم إلى الثورة القريبة . وهو لكي يفصل بزعمائهم جاب كل خراسان الغربية حتى بلغ حدود جرجان ذهاباً وإياباً ، وكان يقيم في كثير من المواضع الهامة للشيعة بعض الوقت ، حتى إذا عاد إلى مرو بدأ في الظهور بجمهرة . وإلى فيما يتعلق بالتمييز بين رحلتين قام بهما أبو مسلم أتابع تلك الرواية التي ذكرها الطبري (ج ٢ ص ١٩٦٠) فما بعدها دون أن ينسبها إلى أحد : ففي الرحلة الأولى نخرج أبو مسلم من مرو ، لأنه

(١) [يجد القارئ تفصيلاً في هذا عند الطبري ج ٢ ص ١٩٤٩ فما بعدها — المترجم] .

(٢) التاريخ الذي يذكره الطبري (ج ٢ ص ١٩٦٢) هو بالنسبة للقيام بالحج تاريخ مبكر بعض الشيء .

(٣) [وكان هذا أيضاً بأمر من الإمام نفسه — الطبري ج ٢ ص ١٩٥١ — المترجم] .

لم يستطع المقام هناك بسبب رد الشيعة له لحدائثة سنة خوفهم ألا يقوى على المدعوة وفي الرحلة الثانية جاب غرب خراسان بقصد إثارة الناس ، لكنه كان يظهر الخروج للحج . أما المدائني (الطبري ج ٢ ص ١٩٤٩ فما بعدها) فهو لا يعرف لأبي مسلم سوى رحلة واحدة : هي الرحلة الثانية ، والمدائني لا يذكر شيئاً عما كان بين أبي مسلم وبين سليمان بن كثير من تعاهد يصهل أن يكون سبباً في النزاع . لكن كل القرائن والأسباب ترجح وجود هذا النزاع ، كما أبرز ذلك فان فلوتن بحق^(١) . ولكن يستطيع الإنسان رغم هذا أن يكتفي برحلة واحدة ، وأن يفترض أن أبا مسلم ، بعد أن لم يستطع المقام في مرو ، حاول بمجهوده الخاص أن يوجد لنفسه مركزاً في غرب خراسان . ولكن خروجه للحج مع قوم من أهل مرو لا يتفق مع هذا الغرض ، وخصوصاً أن صعوبات ترجع إلى التواريخ تقوم دون ذلك ، لأن أيام الحج الذي كان هو الغاية من السفر كانت ستحل في آخر سنة ١٢٩ هـ ، وأن قحطية لم يرجع من مكة إلا في سنة ١٣٠ هـ . ولكن في هذا الوقت كانت الثورة قد نظمت في مرو تحت رئاسة أبي مسلم تنظيمياً تاماً ، وهي قد بدأت على الفور بعد عودته من رحلته التي قام بها لل دعوة الناس ، ولإعدادهم للثورة . فلا بد أن يكون خلاف أبي مسلم مع سليمان بن كثير واضطراره إلى الخروج من مرو على أثر هذا الخلاف قد حدث بعد ذلك ، أي قبل وصوله إلى مرو لأول مرة سنة ١٢٨ هـ ، وربما كان بلوغ أبي مسلم في تينكما الرحلتين إلى الحدود الغربية لخراسان ، ثم عودته من هناك ، قد دها إلى اعتبار الرحلتين رحلة واحدة .

وفيما يتعلق بالثورة في قرى خراة عند مرو في النصف الثاني من سنة ١٢٩ هـ (صيف ٧٤٧ م) يذكر الطبري رواية المدائني (ج ٢ ص ١٩٤٩ فما بعدها ،

(١) قارن نص المقرئ الذي ذكره فان فلوتن عن أصل الكافية وذلك في كتابه

وص ١٩٦٥ فا. بعدها ؛ وص ١٩٨٩ فا بعدها) ورواية أبي الخطاب (ص ١٩٥٣ فا بعدها وص ١٩٦٧ فا بعدها و ١٩٨٤ فا بعدها) وأيضاً رواية لقوم لا يذكر أسماءهم (ص ١٩٦٠ فا بعدها و ١٩٧٠ فا بعدها و ١٩٩٢ فا بعدها) ، وهذه الروايات متفقة في بعض الخطوط الكبرى ، وأيضاً في بعض التفاصيل التي تسترعي النظر ، ولكنها تختلف فيما بينها بعض الاختلاف ، وهي أيضاً ليست متسقة فيما بينها ، وكلها بعيدة كل البعد عن أن تكون كافية .

وأقرب الروايات للصواب وأحقها بالثقة رواية أبي الخطاب ، وهي تبدو عند النظرة الأولى أكثر الروايات تماسكاً ؛ فهو يقول إن أبا مسلم عاد إلى مرو عنصرفاً من قومس في يوم الثلاثاء ٩ شعبان سنة ١٢٩ هـ (الثلاثاء ٢٥ إبريل سنة ٧٤٧ م) فنزل أول الأمر قرية تدعى قتيين ، وهي قرية أبي داود بن إبراهيم البكري^(١) . وفي الثاني من رمضان (١٧ مايو) خرج أبو مسلم من هناك إلى قرية سيقلدنج ، وهي قرية سليمان بن كثير الخزاعي ، وجعل يوم ٢٥ رمضان هو يوم الظهور بالثورة ، وأخبر بذلك الأتباع في مرو الروذ وطخارستان وغوارزم . وفي هذا اليوم في الحقيقة صدّد اللوآمان اللذان كان الإمام قد بعث بهما ، ورفعا في سيقلدنج وأوقدت النيران للشيعة من سكان القرى المجاورة ، وكانت هي العلامة بينهم ، فجاءوا في اليوم التالي واجتمعوا أولاً في قرية سقاديم في ٢٧ رمضان ، وبلغ عدد العسكر ألفين ومائتين من الرجال وستة وخمسين من الفرسان . وفي يوم عيد الفطر ، وهو يوم الجمعة أول شوال سنة ١٢٩ هـ ، أقيمت في سيقلدنج أول صلاة على مذهب العاسيين ، وصلى بالناس سليمان بن كثير . وبعد الصلاة والخطبة انصرف أبو مسلم والشيعة معه إلى طعام كان قد أحده لهم أبو مسلم ، فطعموا مستبشرين ، وبعد ظهور أبي مسلم بالدهوة بمائة عشر يوماً^(٢) أقبلت إليه خيل عظيمة بعثها نصر

(١) قارن الطبري ج ٢ ص ١٩٦٠ س ١٤ - ١٥ .

(٢) ما جاء عند الطبري (ج ٢ ص ١٩٥٧ س ١٧) من ذكر أن نصرأ توجه خيله لمحاربة أبي مسلم بعد ثمانية عشر شهراً من ظهوره خطأ .

ابن سيار أمير خراسان بقيادة مولى له يسمى زيدا ، لقتال أبي مسلم ، فوجه أبو مسلم أبان نصر مالك بن المهيم الخراساني ، فهزم خيل نصر عند قرية آلين ، وجرح زيد وأسر ، وأمر أبو مسلم أحد رجاله بأن يعالج هذا القائد من الجراحات التي أصيب بها وأن يحسن تعهده ، حتى إذا اندملت الجراح دعاه أبو مسلم وخيَّره بين الإقامة معه والدخول في الدعوة أو الرجوع إلى مولا نصر بن سيار ، على أن يُعطي عهد الله ألا يحارب أبان مسلم وقومه ولا يكذب عليهم ولا يقول لهم غير ما رأى ، فاختار الرجوع إلى مولا وخُلى له الطريق ، وإنما كان أبو مسلم يقصد من حسن معاملة قائد نصر أن يكون شاهداً على أبي مسلم وشيعته في إقامتهم الصلاة وتلاوتهم القرآن ... الخ . وأن يكون ذلك سبباً في رد أهل الورك والصلاح عند محاربة الثائرين . وقد شهد مولى نصر أمامه بذلك ، وصرح بأنه لولا ما يربطه بنصر من رابطة الولاء لما رجع إليه ولأقام عند أبي مسلم (١) .

وفي أول ذي القعدة استولى غازم بن خرزعة القمي على مدينة مرو الروذ ، وقتل حاملاً نصر بن سيار الذي كان عليها ، ومكث أبو مسلم في الجملة اثنين وأربعين يوماً في سيقذنج ، وفي يوم الأربعاء ٩ من ذي القعدة (السنت ٢٢٠٢) يوليه نقل عسكره إلى المناخوان التي ضارت بعد ذلك مقراً لقوم من كبار الشيعة ، وهنا أحد أبو مسلم نفسه بمقام طويل وحسن المال وحسن المكان . ولو أنه كان رجلاً من طرز آخر لأخذ عند ذلك الخيل مظهر الأمراء . وكان جيشه يبلغ سبعة آلاف رجل ، فأمر بأن يُقيد في السجل كل جندي بحسبه اسم أبيه واسم قريته ، وكان الرزق الذي يعطيه لكل منهم يتراوح بين ثلاثة وأربعة دراهم في الشهر ، ووجه أبو مسلم أهل سقادم - وكانوا تسعمائة رجل - إلى جيزنج ، لكي يتخذوا هناك ويقطعوا مادة نصر بن سيار من مرو الروذ وكور بلخ وطخارستان . أما العبيد فقد جعلهم في خندق خاص بهم ، ثم وجههم

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٥٣ - ١٩٥٩ - المترجم] .

بعد ذلك إلى موسى بن كعب التميمي في أبيورد ، وبعد أربعة أشهر انتقل أبو مسلم من الماخوان ، لأنها كانت سافلة الماء فخاف أن يقطع نصر بن سيار عليه الماء ، وكان يخشى هجوماً من جانب حرب مرو الذين عقدوا صلحاً فيما بينهم لمحاربتة ، فتنحول إلى آلين ، واحتفل فيها بعيد الأضحى (٢٢ أغسطس سنة ٧٤٧ م) ، وقد صبح ما توقعه ، فجاءت جند الحكومة بالفعل لمحاربتة ، وعاثوا في القرى وأفسدوا كل أنواع الفساد ، حتى وجه أبو مسلم إليهم خيلاً هزمتهم . وقد وقع في يده بعض الأسرى مجروحين ، فأمر بأن يعالجوا ، حتى اندملت جروحهم كسأهم وغلّى سبيلهم (١) . ولكن اتحاد أعداء أبي مسلم لم يدم طويلاً ، لأن سليمان بن كثير أقمع علي بن جندب عن الكرماني بأن ينقض الصلح الذي كان بين القبائل (٢) . فقد بعث نصر بن سيار إلى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل مع مضر ، وبعثت ربيعة وقحطان إلى أبي مسلم بمثل ذلك ، فطلب أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين لكي يختار أحدهما ، وأمر من عنده من الشيعة أن يختاروا قحطان وربيعه ، فلما أقبل الوفدان أدخل وفد قحطان في بستان أدخلهم فيه ، وقعد هو في بيت ، وأذن لوفد مضر فدخلوا عليه . وكان مع أبي مسلم سبعون رجلاً من الشيعة ، وكان قد أوعز إليهم بما يقولونه ، فقام رجال منهم فقالوا إن مضر قتل آل النبي عليه السلام وأهوان بني أمية وعمل مروان الجعدي (مروان بن محمد) ، وإن دماء المسلمين في أعناقهم وأموالهم في أيديهم ، وإن نصر بن سيار عامل مروان ينفذ أمره ويدعوله ويسميه أمير المؤمنين ، واتهوا بأن اختاروا علي بن الكرماني وأصحابه من ربيعة وقحطان على نصر بن سيار

(١) راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٦٥ - ١٩٧٠ - المترجم [.

(٢) [اتحدت قحائل العرب على محاربة أبي مسلم وإلى الوقوف إلى جانب نصر بن سيار . ولكن سليمان بن كثير استطاع بتدبير أبي مسلم أن يقنع علي بن الكرماني بالانتقام عن نصر بن سيار فقتل أبيه جديع الكرماني وبصلبه ، فأدركت الحفيظة علي بن الكرماني فانشق على الحلف وانتفض صاحب العرب (الطبري ج ٢ ص ١٩٨٤ - ١٩٨٥ - المترجم] .

وأصحابه من مضر : فنهض وفد مضر ، وعليهم الذلة والكآبة ، ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين : وبعد أن أقام أبو مسلم في آلين تسعة وعشرين يوماً رجع إلى الماخوان وأمر أصحابه أن يبنيوا المساكن ويستعدوا للشتاء ، لأن الله قد أحفاهم من اجتماع كلمة العرب . وكان رجوع أبي مسلم إلى الماخوان في يوم الخميس للنصف من شهر صفر سنة ١٣٠ هـ (٢٥ أكتوبر سنة ٧٤٧ م) : فأقام أبو مسلم في الماخوان ثلاثة أشهر ، ثم دخل مرو في يوم الخميس ٩ جمادى الأولى (١) . وكانت مدينة مرو نفسها في يد نصر بن سيار ، فعند ذلك هاجم هلى بن جديع مرواً من جهة ، وهاجها أحد قواد أبي مسلم من جهة أخرى ، ثم دخلها أبو مسلم والقتال دائر . ووادع نصر أبا مسلم ، ولكنه هرب في اليوم التالي ومعه أصحابه ، وقتل أبو مسلم أربعة وعشرين من العرب من بينهم سلم بن أحوز التميمي (٢) .

وليس في هذه الرواية دقة ولا كبير تماسك ، وذلك يتجلى مثلاً في التكرار المتعلق برد هجوم قام به أعداء أبي مسلم على آلين ، ويتعهد أبي مسلم للأسرى بالرحى وحسن معاملته لهم . خبر أنه يتجلى خاصة في بعض المعلومات المتعلقة بتحديد التواريخ ، وهذه المعلومات هي التي تتضمن أكبر التناقض ، والفترات الطويلة المذكورة خاصة لا تتفق مع تواريخها المحددة لها في تقويم التواريخ : يأتي أبو مسلم إلى سيقذنج في ٢ رمضان سنة ١٢٩ هـ (١٧ مايو سنة ٧٤٧ م) ويمكث فيها اثنين وأربعين يوماً ، أى حتى

(١) عند الطبرى ج ٢ ص ١٩٨٦ ص ١٨ و ص ١٩٨٧ ص ١٤ ، كان ذلك في جمادى الأولى ، ولكن ولكن محسب ص ١٩٨٤ ص ١٤ كان ذلك في جمادى الآخرة . وإذا كان أبو مسلم تقدر في الماخوان ثلاثة أشهر تبدأ في منتصف صفر فإن الأصح هو جمادى الأولى ، أما إذا كان دخوله مرواً يوم الخميس فإن جمادى الآخرة يكون هو الأصح ، وذلك أن التاسع من جمادى الأولى كان يوافق يوم اثنين ، والتاسع من جمادى الآخرة يوافق يوم الأربعاء ، و فرق يوم واحد وليس له شأن ، لأن أول الشهر كثير ما يختلف يوماً .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٨٤ - ١٩٩٥ - المترجم] .

(٣٢ - الدولة العربية)

منتصف شوال (آخر يونيه) : ولكنه لا يخرج من سيقانج إلى الماخوان إلا في ٩ من ذى القعدة (٢٢ يولييه) ، ومن جهة أخرى يُذكر أن الفترة الأولى التي أقامها أبو مسلم في الماخوان كانت أربعة أشهر ، ولكن نجد في آئين في أول ذى الحجة (منتصف أغسطس) أي بعد شهر أو أقل ، ثم هو يقيم في آئين ٢٩ يوماً ، أي حتى أول المحرم سنة ١٣٠ هـ (منتصف سبتمبر) ، لكنه لا يرجع إلى الماخوان إلا في منتصف صفر (آخر أكتوبر) .. أما الفترة الثانية التي يقيمها أبو مسلم في الماخوان فهي ثلاثة أشهر ، أي حتى منتصف جمادى الأولى ، ويتفق مع هذا على وجه التقريب تاريخ دخوله مرو ، إذا قبلنا القول بأن ذلك كان في التاسع من جمادى الأولى لا في التاسع من جمادى الثانية .

وعلى هذا لا بد من تصحيح رواية أبي الخطاب بالرجوع إلى رواية المدائني . أما الرواية التي يذكرها الطبري ولا ينسبها إلى أحد بعينه فهي تقف في موقف وسط بين الروایتين . فأما المدائني فهو يقول إن أبا مسلم لم يذهب إلى الماخوان مرتين بل مرة واحدة ، أما الأربعة أشهر التي يذكرها أبو الخطاب للفترة الأولى التي أقامها أبو مسلم فهي في الحقيقة كل الفترة التي أقامها أبو مسلم هناك ، وعلى هذا فإن الثمانية أشهر (أربعة أشهر + ٢٩ يوماً + ثلاثة أشهر) ، التي يحسبها أبو الخطاب منذ أول مجيء أبي مسلم إلى الماخوان حتى خروجه منها نهائياً تنخفض إلى النصف . هل أن مقام أبي مسلم في الماخوان قد قطعه ، بحسب رواية المدائني أيضاً ، رحلة قام بها أبو مسلم نفسه إلى مرو . ويقول المدائني إنه بعد أن رجع من هذه الرحلة أقام في الماخوان ثلاثة أشهر ، وهذا ما يتفق مع التسعين يوماً التي يذكرها أبو الخطاب . وكانت عودة أبي مسلم ، بحسب رواية المدائني وبحسب بعض رواية أبي الخطاب ، في أول سنة ١٣٠ هـ . فإذا حسبنا ثلاثة أشهر أو تسعين يوماً مبتدئين بأول سنة ١٣٠ هـ ، فإن أبا مسلم يكون قد خرج بعسكره من الماخوان

في أول ربيع الثاني وتوجه إلى مرو : والواقع أن المدافني يذكر أن أبا مسلم دخل مرو في ٩ ربيع الثاني ، ويوافقه على ذلك صاحب الرواية التي لم يذكر اسمه الطبري^(١) . ويؤيد هذا التاريخ ، إلى جانب ما تقدم ، ما يذكر من أن النهار كان إذ ذاك قصيراً (الطبري ج ٢ ص ١٩٩٠ سطر ٢٠) ، وذلك أن يوم ٩ ربيع الثاني سنة ١٣٠ هـ كان يوافق يوم ١٧ ديسمبر سنة ٧٤٧ م ، أما اليوم الذي يذكره أبو الخطاب بدلاً من ذلك ، وهو يوم ٩ من جمادى الأولى أو جمادى الآخرة (١٥ يناير أو ١٤ فبراير سنة ٧٤٨ م) فكان بعد الانقلاب الشتوي للشمس بمدة طويلة إلى حد ما أو إلى حد كبير ، وإذا رجعنا إلى الوراء أو أكثر من ذلك وصلنا إلى أول ذي الحجة سنة ١٢٩ هـ ليكون أول فترة مقام أبي مسلم في الماخوان ، وهي الفترة التي تبلغ في جملتها أربعة أشهر . وإذا كان أبو مسلم قد حسكر في آلين فإن ذلك لم يقطع فترة الإقامة في الماخوان ، بل كان قبلها . وبحسب رواية المدافني كان أبو مسلم هناك^(٢) في ذي القعدة سنة ١٢٩ هـ ، والروايات متفقة على أنه كان في سيقندنج وفنين في شوال ورمضان . فالإثنان والأربعون يوماً التي يقول أبو الخطاب إن أبا مسلم أقامها في سيقندنج ، يقول المدافني إن أبا مسلم أقامها في آلين ، ولكن لا شك أن أبا الخطاب هو المصيب ، ويستطيع الإنسان أن يأخذ بما يقوله أبو الخطاب أيضاً من أن أبا مسلم ذهب إلى فنين قبل أن يذهب إلى سيقندنج^(٣) .

وإذا كان هذا هو الوصف الإجمالي للحوادث استطاع الإنسان أن يحصل

(١) ويذكر أيضاً أن دخول مرو كان في السابع من ربيع الثاني ، وكثيراً ما يحدث الخلط بين السابع والتاسع في الكتابة العربية .

(٢) بالين (الطبري ج ٢ ص ١٩٥٢ س ١٠) هي آلين أو آئين ، ولعلها نشأت من آين + آئين ، أي في آلين .

(٣) قارن كتاب Opkomst der Abbasiden : van Vloten ، ص ٧٩ .

على الصور التالية عن مجراها . إن قرى خزاعة^(١) التي كان أبو مسلم يغير معسكره فيما بينها كانت تقع متقاربة في أرض خرقان ، وكان المهدي الأصلي للثورة في قرية سيفلنج التي كان يقيم فيها سليمان بن كثير رئيس دعاة الهاشمية ، وفي قرية سيفلنج عقد اللوآعان الأسودان اللذان بعث بهما إبراهيم بن محمد ، وفيها أيضاً أوقدت النيران لتنبيه الشيعة ، وفي سيفلنج تجمع هؤلاء الشيعة الذين كانوا في القرى المجاورة ، من قرب ومن بعد ، وفي سيفلنج أيضاً أقيمت في يوم عيد الفطر سنة ١٢٩ هـ أول صلاة جامعة لشيعة بني العباس وعلى مذهبهم ، وأمّ الناس في ذلك اليوم سليمان بن كثير . أما القول بأنه إنما فعل ذلك بأمر من أبي مسلم فهذا ما لا يصح تصديقه ، بل كان لا يمكن في سيفلنج ، في ذلك الحين ، تنحية سليمان عن المكانة الأولى ، فكان له مظهر الرئيس على الأقل ، وإن كانت قيادة الثورة قد خرجت من يده . وكان أبو مسلم يشعر بأن سليمان يضيق بسلطانه ، ولذلك خرج من سيفلنج بعد اثنين وأربعين يوماً ، إلى آلين أولاً ، ومنها توجه ، قرب آخر سنة ١٢٩ هـ ، إلى الماخوان . وفي الماخوان ظهر بمظهر الرئيس والأمير ، وزاد جيشه وزادت بذلك قوته ومكانته . وعند ذلك أثار لأول مرة القلق في نفوس العرب الذين كان يحارب بعضهم بعضاً في مرو . وقد زاد قلق العرب بسبب النجاح الذي أحرزته حركة الشيعة في نفس الوقت مواضع أخرى في إيبورد ومرو الروذ ، وبخصوصاً في هراة (الطبري ج ٢ ص ١٩٦٦) . وقد دعت بكر أولاً شيان الحروري ، وكانت بكر تحت إمرته ، إلى مصالحة نصر ، ويظهر أن علي بن جديع الكرمانى حلوا شيان . وكانما أدرك العرب أخيراً ذلك الخطر الذي كان يهددهم ، فأرادوا أن يواجهوه متحدلين ، ولكن الريبة كانت تملأ نفوسهم بعضهم من بعض ، فلم يجدوا في التضافر على حرب أبي مسلم ، وأكثر ما قاموا

(١) هذه هي التسمية المشهورة . لأن قريتي ذنين والماخوان لم تكونا خزاميتين خاصة .

به أنهم أغاروا مرة على جهة من البلاد التي كانت خاضعة له ، فرد أبو مسلم هذه الغارة من غير مشقة^(١) ، وبعد فترة قصيرة أفلح أبو مسلم في إفساد الحلف بين أولئك الإخوان المتعادين ، فتوجه بنفسه من الماخوان إلى مرو ، واستطاع أن يؤثر على علي بن جديع الكرماني ومن معه من ربيعة وقحطان ، حتى نقضوا عهدهم مع نصر بن سيار وانقلبوا عليه وعلى مضره

وعاد أبو مسلم في أول سنة ١٣٠ هـ إلى الماخوان ، وكان إذ ذاك آمناً كل الأمن من خطر العرب ، فاستطاع مطمئناً أن يترك بعضهم لبعض ، حتى يحين الوقت الذي يحق هو فيه ثمرة نزاعهم وقتلهم بعضهم بعضاً . وإذا كان قد أفلح في ضم ربيعة وقحطان إلى جانبهِ فإن ذلك لم يفسد علاقته بمضر بأي وجه من الوجوه . فيروي أنهم على خلاف ذلك كانوا قد حاولوا أن يبعدوه عن ربيعة وقحطان وأن يضمروه إلى جانبهم : وإذن فقد كان الجميع يسعون إلى كسب مودته ورضاه . ومهما كان الأمر فلأنهم قد أصبحوا لا يتجاسرون على أن يعاملوا أبا مسلم معاملة العدو ، وهكذا أمكن أن يحدث أن أبا مسلم دخل مرواً قاضياً وحكماً ، وأنه بتدخله أنهى النزاع القاسي الذي امتدت فيه القبائل العربية قوتها . وقد حكم أبو مسلم لربيعة وقحطان على مضر ، وهذا ما بدا لأول وهلة على الأقل . أما المنظر الذي يصفه أبو الخطاب لهذه الواقعة الحقيقية وبيان كيف ظهر وفد ربيعة وقحطان ووفد مضر أمام أبي مسلم وهو معسكر في الماخوان ، وكيف وضعوا أمامه نزعهم ليسكنهم فيه ، وكيف قضى بينهم ومعه السبعون رجلاً من الشيعة ، فهو تصوير

(١) وقد أشرت من قبل إلى أن أبا الخطاب يذكر روايتين في الواقعة لديها (الطبري ج ٢ ص ١٩٥٨ فأبعدها و ١٩٧٠) في آيتين ، وكل منهما تنتهي بأن أبا مسلم أحسن معاملة الأسرى الجرحى لكي يكونوا دعاة له ، وكلا الروايتين فيها تكافؤ وبإلغة . أما حسب ما جاء في الطبري (ص ١٩٧٠) فقد كان القتال يقتلخص في أن بعض جند نصر بن سيار أدروا القهلاحين وحسبهم وذبحوا الدجاج والبق والحمام وكلّفوا الناس الطعام والملف .

لا يخلو من تحريف ، وأيضاً فإن أبا مسلم لم يفاوض جديعاً الكرمانى ، بل هو لم يفاوض إلا ابنه عالياً . وذلك فى آخر سنة ١٢٩ هـ أو فى أول سنة ١٣٠ هـ ، وكان أبو مسلم هو البادى وكان الساعى إلى كسب مودة الكرمانى ولم يكن الكرمانى هو الساعى إلى مودته ، وقد لاحظ ذلك فان فلاتون يحقّ هـ وكأنا تبيين للناس فيما بعد مقدار ما لحق بسمعة أبى مسلم من جراء هذا الموقف ، لأنه لم يكن يتفق مع الفكرة التى كونوها لأنفسهم عنه أن يذل نفسه على هذا الوجه ، فمالوا إلى أن يعتبروا أن قوة موقف أبى مسلم والسااطان الذى لم يصل إليه إلا فى آخر الأمر قد كانا له فى وقت سابق على ذلك . ولكن إذا قبلنا هذا لم نستطع أن نفهم لماذا انتظر طويلاً حتى تدخل آخر الأمر : فالحقيقة أن أبا مسلم لم يكن له فى أول الأمر من القوة ما يمكنه من أن يتحدى العرب تحدياً صريحاً ، بل هو تصرف بحكمة سياسية ، فاستوقفهم وذر الرماد فى عيونهم ، بل هو لم يفسد ما بينه وبين مضر إلى حد يجعلهم يعتبرونه عدواً صريحاً لم^(١) . وإذا كان قد دعا إلى الثورة على حكومة الأمويين فإن ذلك كان فى ذلك الحين شيئاً مألوفاً لا يستنكره أحد . على أن أبا مسلم لم يضع أوراقه مكشوفة على المائدة ، ويحكى المدائنى (الطبرى ج ٢ ص ١٩٦٥) أن فتية نساءً من أهل مرو كانوا يطلبون الفقه أتوا إليه فى معسكره ليسألوه عن نسبه ، فقال لهم : « خبرى خبركم لكم من نسبي » ، فلما سألوهم عن أشياء فى الفقه ، قال لهم : « أمركم بالمعروف ونهيتكم

(١) [يحمد القارئ فى رواية عند (الطبرى ج ٢ ص ١٩٩٢) أن أبا مسلم بعد أن نزل قرية الماشوان فافوض كلا من على بن جديع الكرمانى ونصر بن سيار ومرض عليهما المسألة واجتماع الكلمة والدخول فى الطاعة ، فقبل ذلك منه على بن جديع الكرمانى . فلما استوثق منه كتب إلى نصر بن سيار أن يبعث إليه رداً يسمعون مقالته ومقالة أصحابه ، وهذا مما يؤيد رأى المؤلف فى حاجة أبى مسلم إلى السياسة والمصانعة . حتى قوى مركزه بضم البيانية وحلفائهم من ربيعة إليه ونصرهم على المضربة أنصار الدولة الأموية - المترجم] .

عن المنكر خير لكم من هذا ، ونحن في شغل ، ونحن إلى معونتكم أحوج منا
إلى مسألتكم ، فأعفونا .

وكان أكثر أتباع أبي مسلم من الزراع الأعاجم ، من الموالي في قرى مرو ،
ولكن كان بينهم بعض العرب ، وكان لمعظمهم مكان الرياسة ، وكانت
الرابطة التي تربط بين أنصار أبي مسلم هي الدين والمذهب ، وكانت نواة
جيش خراسان ، أعني « جند » بني العباس ، تتكون من الهاشمية ، كما
يصرح الطبري بذلك (ج ٢ ص ١٩٨٧) : وقد دخل أبو مسلم في مرو
على رأس الهاشمية ، ومن الهاشمية أمر أن تؤخذ البيعة بعد دخوله ، وكان
الذي يأخذ البيعة منهم هو أبو منصور طلحة بن رزيق الخزازي^(١) - أما هذه
البيعة فكانت : « أبايعكم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه
وسلم والطاعة للرضا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه ، عليكم بذلك
عهد الله وميثاقه والطلاق والعاق والمشي إلى بيت الله ، وعلى ألا تسألوا
رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأ بكم ولانكم^(٢) ، وإن كان عندكم أحدكم تمت
قدمه فلا تمجوه إلا بأمر ولانكم » . ومما يستلفت النظر في البيعة التي
كان يأخذها أبو منصور ، وهو الذي يذكر أنه كان رجلاً فصيحاً مستوهاً
حالمًا بصحج الهاشمية وغوامض أمورهم ، أنها لا تطلع الجند على غايتها
الحقيقية ، بل هي بيعة إجمالية في صيغتها ، وهي لا تصرح بشخص
الإمام العباسي من بين أهل بيت الرسول عليه السلام ، وأول ما أخذته على
الجند هو الطاعة التامة لولايتهم ، والواقع أن هؤلاء الثائرين قد استخدما
الدين على مبادئ حربية ، فلم يكن الرجل العادي بحاجة إلى أن يعرف
أسرار قاداته ، بل كان يكفي الإيمان بالراية السوداء . وكان للأحزاب
الإسلامية قبل ذلك بزمان طويل ألوية من كل لون^(٣) ، ولكن لم يبرز شأن

(١) قارن في هذا ما قاله فان للون من أهل الكفاية (الكفاية ٢) في كتابه :

Recherches ، ص ٦٦ ، ٨٠ .

(٢) [راجع فيما يلي الطبري (ج ٢ ص ١٩٨٧ - ١٩٨٩ - المترجم] .

(٣) كان لون العلم أحمر عند الخوارج (الأغاني ج ٢ ص ٢٠ ص ١١٢ ص ٢١) وكان أسود =

اللواء ولونه وأهميته عند أحد بروزه عند شيعة بني العباس في خراسان، وكانوا يحملون اللواء الأسود على أبدانهم ، ويسمىهم نيوقانيس Χουρσάνιοι (١) *μαυροφόροι* أى : الخراسانيون لابسو السواد ، كما يسمون عند صاحب كتاب الصلة لتاريخ إيزيدور (نشرة Mommsen ، فصل ١٣٤) : *Persarum pullata demonia* ، أى الشياطين السود من أهل فارس . ويقال إن لواء النبي عليه السلام كان أسود ، لذلك اتخذ العباسيون لواء أسود . وفي كتب النبوءات ورد ذكر الرجل صاحب العلم الأسود الذى يبدأ عصرأ جديداً . ولكن الحارث بن سريج ، وكان أول من قاد ثورة الموالى باسم الإسلام ، كان له أيضاً علم أسود : ويجوز أن أبا مسلم أخذ عن ابن سريج دون غيره العلم الأسود لأن هذا العلم كان قد أصبح محبباً إلى نفوس الموالى .

خطب نصر بن سيار ، أمير مرو من قبيل بني أمية ، العرب بالآيات التالية التى حفظها لنا الدينورى (ص ٣٦٠) ،

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتها أن يغضبوا قبل ألا ينفع الغضب

= بحسب الأغاني أيضاً وبحسب ص ٩٩ من ٩ ، فارن أيضاً (الطبرى ج ٢ ص ١٩٨١ و ص ٢٠٠٧ ، ولسان العرب ج ١١ ص ٣٢٩) . أما خصوم العباسيين فقد اختاروا اللون الأبيض ، ولم يقتصر ذلك على أهل الشام الموالين لبني أمية ، بل اختار الموالون أيضاً اللون الأبيض (الطبرى ج ٣ ص ٢٢٣ و ٢٧١ و ٢٩٥ و ٢٩٨ و ٣٦١ و ٥٠٨) . وكان بعض الثوار (الحرورية) في بلاد الجبل يلبسون اللون الأحمر ، فسماوا لذلك بالحرورية (الطبرى ج ٣ ص ٤٩٣ و ٦٤٥ فما بعدها و ١٢٣٥) . وكان مع الحسن بن على بن الحسن المعروف بالأناس علم أسفر له صورة حية (الطبرى ج ٢ ص ٢٣٧) . وكان لبعض الرجال العظاماء اللون الخاص الذى اتخذوه شعاراً لهم ، وكان يلبسه أيضاً مولاهم وأتباعهم (الطبرى ج ٣ ص ٥١٦) . أما عند العرب القدماء ، فكان اللون الأسود هو لون الأخس بالثأر (الأغاني ج ٨ ص ٧٥ من ٢٠) .

(١) الكتابة الصحيحة لهذه الكلمة هي Χορσάν أو Χορσάν ، ذلك أن تيوفانيس يجرى على ما جرى عليه السريان من استعمال ou على أنه حرف قصير ، أما كتابة الكلمة هكذا Χορσάν فهي خطأ ، وكذا الـ α حرف مبدود .

ما بالكم تُلقيحون الحرب بينكم
وتركون عدواً قد أظلمكم
ليسوا إلى عرب منا ، فنعرفهم
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به
فمن يكن سائلي عن أصل دينهم
كان أهل الحمى عن فعلكم غيباً
من تأشب ، لا دين ولا حسب
ولا صميم الموالي ، إنهم تُسيبوا
عن الرسول ، ولا جاءت به الكتب
فإن دينهم أن تُقتل العرب

وفى رواية عند الطبرى (ج ٢ ص ١٩٣٧ و ١٩٧٤ و ج ٣ ص ٢٥)
أن الإمام إبراهيم بن محمد نفسه أوصى أبا مسلم وصية صريحة : بأنه إن
استطاع ألا يدع في خراسان من يتكلم العربية فليفعل ، وأن يقتل كل غلام
بلغ خمسة أشبار يتهمه (١) . ويحكى توفانيسر (فى أخبار سنة ٦٢٤٠ من تاريخ
الخليقة) أن العبيد الذين أثارهم أبو مسلم في خراسان قتلوا سادتهم في ليلة
وأخذوا أسلحتهم وخيولهم وأموالهم ونهبوا بها للحرب . أما فيما يرويه
الطبرى من أخبار تاريخية لدخول أبي مسلم مدينة مرو فلا يجد الإنسان شيئاً
من ذلك ، وكل ما يقال هو أن أبا مسلم قتل أربعة وعشرين من ثقات
أصحاب نصر وصناديدهم (٢) بعد أن هرب نصر . أما جند أبي مسلم فقد أمرهم
أبو مسلم بالانزاع أدق نظام ، وحرّم عليهم أن يقتلوا أحداً من تلقاء أنفسهم .
وإذن فمن الجائز أن تكون الروايات هنا كما فى أحوال أخرى قد نطقت
من ذكر الحوادث ، مراعاةً لجانب بنى العباس وإرضاء لهم ، ومن الجائز
أن يكون الموالي قد أطلقوا لغضبهم العنان فى عنف أشد مما يبدو من
الروايات التى ذكرها الطبرى . ولكن لا يجوز أن يبالغ الإنسان رغم ذلك
فى تأكيد القول بعبادة الموالي للعرب على أساس الشعور القوى عند
الموالي ، وذلك لأن حركة الثورة لم تأت من بجانب أمة الأعاجم ،
بل من جانب فرقة ضيقة النطاق إلى حد ما ، ولم يكن العرب يُستعون من

(١) [قارن أيضاً الدينورى ٣٥٨ - المترجم] .

(٢) راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٨٩ ، ١٩٩٥ - المترجم] .

الدخول فيها ، وكانت الثورة تستند إلى مبادئ دينية ذات طابع سياسى واجتماعى ، وأصلها فى الإسلام . ولم تكن حركة الثورة من حيث مبادئها موجهة ضد الأجانب ، بل كانت موجهة ضد الزنادقة . ولذلك سميت أسلحة الموالى بأنها كافر كوبات (١) . وكان أخص أخصاء أبى مسلم ، وهم أبو نصر وأبو داود وغيرهم ، ولم يكن القتال موجهاً إلى العرب من حيث هم عرب ، بل إلى العرب الحاكمين وبلاستناد إلى الإسلام ، لأنهم كانوا لا يحكمون بالعدل ولا يستندون فى حكومتهم إلى الحق والشرع ، ولأنهم كانوا يؤيدون حكومة بنى أمية الخارجة على الدين ، ولا يعترفون بمبدأ المساواة فى الحقوق بين المسلمين من العرب وغير العرب فى الدولة التیوقراطية . أما الأحزاب العربية التى كانت معارضة لبنى أمية كأهل العراق وقبائل اليمن فى خراسان فكان الأعاجم يعتبرونهم حلفاء لهم أولاً وقبل كل شيء . على أن مجاربة العرب فى الدولة الإسلامية باسم الإسلام قد انتهت فى الواقع بأن علا شأن الأعاجم وبأن صار العرب منذ انتهت سيادتهم بانتهاء سيادة بنى أمية أمة مضطهدة . وقد ثبأ بذلك نصرين سيار . وكان ذلك أيضاً مما تقضى به طبيعة الأشياء ، لكنه لم يكن المقصد الأصلى . وقد غلبت فومية الغالبين على الإسلام نفسه ، بعد أن كبرت وترعرعت بين أحضانه . ولكن الإسلام ، لا فكرة القومية ، هو الذى كان القوة الدافعة فى نهوض أهل خراسان ، كما أن الإسلام كان من قبل هو القوة الدافعة فى نهوض العرب أنفسهم ، وهنا فى خراسان كان الإسلام مفهوماً فهماً جديداً حليفاً لأمة جديدة (٢) .

(١) الأغانى ج ٤ ص ٩٣ والدينورى ص ٣٦٠ ، أما الطبرى فهو لا يذكر الكافركوبات إلا عند الكلام عن خشية المختار ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٢) [هذا رأى المؤلف . ولكن عداوة الموالى للعرب على أساس الشعور القومى شيء طبيعى ، ولا شك أنه قد كان له تأثير ، أما الإسلام الجديد الذى يتكلم عنه فهو الإسلام الأول تماماً ، وهو دين المساواة بين معتقيه . ولكن لم يكن من طبيعة الأشياء ولا مما تقتضيه سياسة الدولة وتمكينها أن يكون العرب دولة ثم يسلموها للأعاجم فى أول الأمر - المترجم] .

٤ - وجهه أبو مسلم أبا داود محالد بن إبراهيم البكري ، أحد أنصاره المخلصين ، إلى طخارستان . وكان أبو داود في هذه البلاد من قبل يقوم بالدعوة (الطبري ج ٢ ص ١٩٦٠ ص ١٤ لها بعده) . وبعد أن أفلح أبو داود في إخراج زياد بن عبد الرحمن القشيري ، حامل بني أمية ، من مدينة بلخ ، كتب إليه أبو مسلم بأمره بالقدوم إليه ، ووجهه مكانه يحيى بن نعيم البكري : ولكن يحيى كاتب زياداً في أن " تصير أيديهم واحدة " ، وكان زياد لا يزال ثابتاً محتفظاً بسلطانه في مدينة ترمذ الحصينة ، غير بعيد من بلخ . وعند ذلك أخذت كلمة جميع للعرب في تلك الناحية ، مضربهم وجماعيتهم ، على قتال المسودة ، شيعة بني العباس ، وانضم إليهم الأعاجم هناك ، وجعلوا الولاية عليهم لمقاتل بن حبان النبطي ، كرامة أن يكون القائد من الطوائف الثلاث : وإن اتحاد كلمة العرب والأعاجم على قتال شيعة بني العباس يمكن أن يتخذ سنداً لفصوات خاطئة ، وما يستحق الانتباه أن بعض أعلام هؤلاء المتحالفين كانت سوداء - فلا شك أنها كانت أعلام الحارث بن سريج : وجهه أبو مسلم صاحبه أبا داود إلى الميدان من جديد ، وبعد معركة على نهر السرجقان خرج المتحالفون من بلخ مرة أخرى وتراجعوا إلى مدينة ترمذ . ثم كتب أبو مسلم إلى أبي داود بأمره للمرة الثانية بالقدوم عليه ، ووجهه النضر بن صبيح المري إلى بلخ ، وقدم أبو داود على أبي مسلم ، واجتمع رأيهما على أن يفرقا بين علي وعثمان ابني جديع الكرمان ، فبعث أبو مسلم عثمان عاملاً على بلخ ، ولكنه لم يستطع الثبات هناك لأن المضربة أقبلوا من ترمذ بقيادة مسلم بن عبد الرحمن الهاهلي ابن أخي حنيفة بن مسلم المشهور ، فأخرجوه من بلخ ، فكان لا بد أن يعود أبو داود إلى هناك للمرة الثالثة ، لأنه لم يكن عنه غنى . هذه هي الرواية التي يذكرها الطبري

(ج ٢ ص ١٩٩٧ فما بعدها) ، وهي رواية لا يمكن أن تقوم رواية مقامها أحسن منها^(١) .

وصارت في يد أبي مسلم في أرض خراسان الحقيقية الولايات الشرقية الثلاث : وهي مرو ومرو الروذ وهراة ، أما في القسم الغربي من خراسان ، وهو ولاية نيسابور ، فلم يكن في يده سوى مدينتي نسا وبيورد : وكان نصر بن سيار ، عامل خراسان ، يقيم في مدينة نيسابور : أما في سرخس فكان هناك شيبان بن مسلمة الحروري^(٢) ، وكان قد تنحى هو أيضاً عن مرو بعد هروب نصر بن سيار منها ، ذلك أن شيبان لم يكن يستطيع البقاء هناك ، لأنه كان يرى رأى الخوارج ، وكان من قبل حليفاً لعلي بن جديع الكرمانى على قتال نصر ، لأن نصراً كان من عمال مروان بن محمد . فلما صالح على* أبا مسلم اضطار شيبان إلى الخروج من مرو ، علماً منه أنه لا طاقة له بحرب أبي مسلم وعلى بن جديع مجتمعين . فأرسل أبو مسلم إلى شيبان يدعوهُ إلى البيعة ، فأجاب شيبان قائلاً : أنا أدعوك إلى بيعتي ، فأرسل إليه أبو مسلم أن يختار بين الدخول في البيعة وبين الرحيل ، فسار شيبان إلى سرخس واجتمع إليه جمع كثير من قبائل بكر ، ولما لم يستجب إلى دعوة وجهها إليه أبو مسلم مرة أخرى بعث أبو مسلم جيشاً إليه فهزمه وقتله ، وفر جند شيبان ، وكان معظمهم من بكر ، إلى نيسابور ، ولحقوا بنصر بن سيار . ثم بدأ أبو مسلم في قتال نصر ، فلشأت الحرب الكبيرة التي أدت إلى انهيار دولة الأمويين أمام الشياطين السود ، ولم يتول أبو مسلم نفسه القيادة في هذه الحرب ، بل ولى قحطبة بن شبيب ، وكان عربياً من طي^(٣) . وكان قحطبة في

(١) فيما يتعلق بثورات حل أبي مسلم ، قامت بعد ذلك في بلاد السند ، راجع الطبري . ج ٣ ص ٧٤ و ٧٩ فما بعدها ، وكان قهاسبين يد في ذلك ، ولم يمكن إخضاع ما وراء النهر لسلطان الإسلام إخضاعها تماماً إلا على يد أبي مسلم والعباسيين .

(٢) [فيما يتعلق بشيخان ومقتله راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٩٥-١٩٩٧ - المترجم] .

(٣) قرن الحساسة ص ٣٠٣ فما بعدها .

أثناء الثورة غائباً في مكة وكان قد ذهب إليها للقاء الإمام إبراهيم بن محمد في أيام الحج ، ولم يعد إلا بعد أن استولى أبو مسلم على مدينة مرو . ولما انصرف قحطبة من عند إبراهيم بن محمد عقد له إبراهيم لواء وجعله على مقدمة أبي مسلم ، وجعل له القيادة والعزل والاستعمال ، وكتب إلى الجنود بالسمع والطاعة له (١) . وأقر أبو مسلم ذلك ، وأسند إليه القيادة : فخرج قحطبة في الجيش (٢) ، ومعه أو تحت إمرته أبو هون عبد الملك بن يزيد الأزدي ونخازم بن خزيمة التميمي ونخالد بن برمك البلخي وغيرهم من القواد (٣) ، فوجه نصر بن سيار ابنه تيمناً للقاء جيش أبي مسلم : وبعد أن قاتل تميم وقتل في طوس ، خرج نصر من نيسابور في آخر شوال سنة ١٣٠ هـ ، الموافق آخر يونيو سنة ٧٤٨ م (الطبري ج ٢ ص ٢٠١٦) . وبعد ذلك بتقليل من الزمان محمول أبو مسلم من مرو إلى نيسابور فنزلها (٤) ، وأخذ معه حليفه علي بن جديع الكرمانى وقتله في الطريق : وفي نفس الوقت قتل أبو داود البكري هيثم بن جديع الكرمانى في طخارستان (الطبري ج ٢ ص ١٩٩٩ فما بعدها) . وهكذا أدى الحلف بين ربيعة وقحطان وبين شيعة العباسيين مهمته ، وهو الحلف الذى أمكن بفضل الاستيلاء على مرو ، وأمكن القضاء على منافسة مقلقة بفضل قتل زعيم ربيعة وقحطان ، لأنه يظهر أنه كان لا يزال له في مرو مكانة قوية توازى مكانة أبي مسلم .

وكان نصر بن سيار قد خرج من نيسابور إلى قومس على حدود جرجان ، وكان معه العرب الذين هربوا من خراسان ، من قبائل تميم وبكروقيس ، وكتب مروان بن محمد إلى يزيد بن هبيرة أمير العراق بأن يوجه نُباتة بن حنظلة الكلبي

(١) راجع في هذا الطبري ج ٢ ص ٢٠٠٠ - المترجم [.

(٢) راجع الطبري أيضاً ج ٢ ص ٢٠٠٠ - ٢٠٠٣ - المترجم [.

(٣) نجد عند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤) أنه يفتح قحطبة في مكانة ليست أقل من مكانة أبي مسلم .

(٤) الطبري ج ٣ ص ٢ ، لكن قارن ج ٣ ص ٥٩ .

إلى جرجان^(١) : ولكن نبانة لم يتعاون مع نصر ، بل زاده ضعفاً ، لأن من كان في جيش نصر من قيس انحازوا إلى نبانة ، فقصده قحطبة إلى نبانة أولاً ، فدخل جرجان في ذى القعدة سنة ١٣٠ هـ ، ثم قاتل نبانة في يوم الجمعة مستهلاً ذى القعدة (الخميس أول أغسطس سنة ٧٤٨ م) ، وكانت معركة انهزم فيها نبانة وقتل ، ويظهر أن نصراً كان في أثناء ذلك قد أفلح في مقاومة الحسن بن قحطبة الذي كان قد توجه لقتاله ، وذلك أنه لما اقترب الجيش من نصر انحاز إليه أبو كامل - وكان أحد قواد الشيعة - وصار مع نصر وأعلمه مكان الحسن ، ولكن بعد أن قتل نبانة لم يحكث نصر في قومس طويلاً ، فهرب مخترباً المغازة حتى بلغ همدان ، ولكنه لم يجد في أي مكان تأييداً من حمال بن أمية^(٢) . وفي أحد الشهور الأولى من سنة ١٣١ هـ التقى قحطبة مع ابنه الحسن في قومس ، وخرج من هناك متوجهاً إلى الغرب ، وأرسل ابنه أمامه ، وسلمت له الرى وهمدان . ولكن جند الشام الذين كانوا في همدان فروا منها بقيادة مالك بن أدهم ، حامل همدان ، وكذلك جند خراسان الذين كانوا مع نصر بن سيار ، اجتمعوا جميعاً في نهاوند^(٣) وقاتلوا الحسن ابن قحطبة قتالاً شديداً لما جاء وحاصروهم هناك ، ثم أقبل حاصر بن ضبارة المرئي ، ومعه جيش كبير العدد حسن العدة من أهل الشام ، ليفك الحصار عن نهاوند ، فدخل أرض كومان بجيشه ، وذلك بعد أن كان قد هزم عبد الله بن معاوية واضطره إلى الفرار ، ولكن بينا هو في طريقه إلى نهاوند هاجمه قحطبة بنفسه فهزمه وقتله^(٤) . ووقعت هذه المعركة الدامية عند جابلق من

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ٢٠٠٢ - ٢٠٠٦ ، ٢٠١٩ ، ٢٠١٧ - المترجم] .

(٢) مات نصر في ساءه قرب همدان في ربيع الأول سنة ١٣١ هـ (٩ نوفمبر سنة ٧٤٨ م) وهو ابن خمس وثمانين سنة [راجع في ذلك وفي وفاة نصر الطبري ج ٣ ص ١ - ٢ - المترجم] .

(٣) [راجع الطبري ج ٣ ص ٣ - ٩ - المترجم] .

(٤) يجب بدلاً من كلمة *Isivdaqa* عند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤٠) أن نقرأ كلمة *IsivdaPaqa* بحسب ما جاء عند أنسطاسيوس ، لأن المقصود هو ابن ضبارة لا نبانة ، كما يظن رابسكه (Abulfeda, I, adn. 238) خطأ .

أعمال أصبهان في يوم السبت لسبع بقين من رجب سنة ١٣١ هـ (الثلاثاء ١٨ مارس سنة ٧٤٩ م) ، وبعد ذلك التقى قحطبة وابنه أمام نهاوند ، وبعد أن حاصرها ثلاثة أشهر (الطبري ج ٣ ص ٧ س ١٨) طلب أهل الشام الأمان لأنفسهم ، وأهل خراسان لا يعلمون ، فنالوا الأمان دون زملائهم من أهل خراسان ، فنجوا ، وقتل أهل خراسان ٥

وعند ذلك أصبح الطريق إلى العراق مفتوحاً أمام قحطبة^(١) ، فوجه ابنه الحسن أمامه ، ثم خرج من نهاوند ولحق به ، ماراً بقرماسين ، حتى بلغ حلوان وخانقين ، وكان ابن هبيرة ، أمير العراق من قبل مروان بن محمد ، قد خرج بجيش كبير عبر الفرات للقاء قحطبة ووصل إلى جلولاء وعسكر بها ، فتجنبه قحطبة بمهارة ، وعبر دجلة وتقدم إلى الكوفة من غير أن يمر بمعسكر ابن هبيرة ، ووقف حيناً عند الأنبار على الفرات ، فأمرع ابن هبيرة في اللحاق به وعسكر إلى الجنوب على الشاطئ الأيسر لنهر الفرات ، عند الموضع المسمى فم الفرات في الفتوحة العليا حيث يتفرع النهر إلى الكوفة ، وأرسل حوثة بن سهيل الباهلي في مقدمة أمامه إلى الكوفة ، ولكن قحطبة عبر الفرات عند ديمصا وسار مع الضفة اليمنى حتى بلغ الحائرة ، في مواجهة المكان الذي كان ابن هبيرة قد عسكر فيه ، وفي ليلة الأربعاء ٨ المحرم سنة ١٣٢ هـ (الأربعاء ٢٧ أغسطس سنة ٧٤٩ م) عبر قحطبة الفرات عند مخاضة ، ومنعه فرقة صغيرة ، وهاجم معسكر ابن هبيرة^(٢) ، فانهزم جيش ابن هبيرة وأصحابه مأخوذون ، فانسحبوا إلى فم النيل أولاً ، ولكن ابن هبيرة لم يملك هناك ، بل سار مع جدول النيل حتى لجأ إلى مدينة واسط الحصينة التي كانت مقر الحكومة . ولما علم حوثة بذلك ، وكان قد تقدم حتى بلغ قصر

(١) [راجع الطبري ج ٣ ص ١٠ - ١٨ - المترجم] .

(٢) وكل هذا جاء مشبهاً للخطط الحربية التي عمل بها سلمة بن عبد الملك ، وهو يحارب يزيد بن المهلب سنة ١٠١ أو ١٠٢ هـ .

ابن هبيرة^(١) ، لم يجرؤ على دخول الكوفة ، بل هو لحق بابن هبيرة في
 واسط ، وانتصر قحطبة انتصاراً تاماً ، ولكنه دفع حياته ثمناً لهذا النصر ،
 وذلك أنه في أثناء اضطراب الليل قُتِلَ على صورة خفية^(٢) ، ولا شك أن
 قحطبة قد قام ، من الناحية العسكرية ، بالعمل الأكبر في نصر العباسيين ،
 ولقد عقد النصر للواء الأسود ، ووطد في الأذهان أن هذا اللواء لا يُغلب ،
 وتولى القيادة بعده ابنه الحسن ، وكان قد بقي على الضفة اليمنى ، فاستطاع
 أن يدخل الكوفة من غير قتال ، وذلك أن محمد بن خالد القسري - وهو
 ابن خالد بن عبد الله القسري الذي قُتل بنو أمية ، وجعلوه من الشهداء -
 كان قد تجاسر ، ومعه اليمانية ، على القيام بالثورة تأييداً لبني العباس
 واستولى على القصر^(٣) . وبعد أن كان حوثرة قد خرج لم يتعرض له أحد ،
 وكتب محمد بن خالد إلى قحطبة ، ولم يكن يعلم به لكانه ، يخبره أنه قد ظفر
 بالكوفة ، فوقع الكتاب في يد الحسن بن قحطبة ، فجاء ودخل الكوفة في
 يوم الثلاثاء ١٤ محرم سنة ١٣٢ هـ^(٤) (٢ سبتمبر سنة ٧٤٩ م) . أما في
 البصرة فقد حاول سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، ومعه اليمانية
 وحلفائهم من ربيعة ، أن يقوم بثورة لإسقاط حكومة الأمويين^(٥) ، ولكنها
 أخفقت ، وذلك أن أحياء قيس ومضر ومن كان معهم من أهل الشام ومن
 بني أمية ومواليهم ناضهوه تحت قيادة سالم بن قتيبة الباهلي ، حامل البصرة ،
 فأخذوا حركة اليمانية وربيعة . فأخذ هؤلاء في كل مكان ينضمون إلى ثورة أهل

(١) [اسم مكان بني فيه ابن هبيرة قصرأ ، فسمى فيما بعد قصر ابن هبيرة - المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤ - ١٨ - المترجم] .

(٣) [راجع الطبري ج ٣ ص ١٨ فا بعدها - المترجم] .

(٤) [عند الطبري (ج ٣ ص ٢ ص ١) أن الحسن بن قحطبة صبح محمد بن خالد في

الكوفة يوم الاثنين - المترجم] .

(٥) [راجع في ذلك الطبري (ج ٣ ص ٢١ - ٢٣ المترجم] .

خراسان ، على حين ظلت مضر تحارب وحدها من أجل سيادة العروبة (١) .

وعند ذلك ظهرت الحكومة السريّة لبني العباس أمام الناس في الكوفة (٢) ، وخرج أبو سلامة « وزير آل محمد » من محبته وتسلم مقاليد الحكومة . فأقام في حمام أعين ، حيث كان يعسكر جند خراسان . وكان قد آن الأوان لبني العباس ، لكي يخرجوا من الركن الذي كانوا منزوين فيه ويتقدموا إلى الرياسة . ولكن كان قد وقع في يد مروان بن محمد كتاب من إبراهيم بن محمد بن العباس إلى أبي مسلم يوصيه فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية في خراسان ، فأمر الخليفة مروان بن محمد بالقبض على إبراهيم ابن العباس وبجعله من الحميمة إليه . وپروی أن إبراهيم بن العباس حين أخذ الممضى به إلى مروان بن محمد نعى نفسه إلى أهل بيته حين شيعوه ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد وأمرهم بالسمع والطاعة له ، وأنه أوصى إلى أخيه أبي العباس وجعله الخليفة بعده . وإذن فلا بد أن يكون القبض على إبراهيم بن محمد قد وقع قبل دخول أهل خراسان في الكوفة بوقت قصير . وذلك لأنه لم يكبد بمضى شهر بعد هذا الحادث حتى وصل العباسيون إلى الكوفة في صفر سنة ١٣٢ هـ . وكانوا أربعة عشر رجلاً ، من أجيال مختلفة ، منهم أولاً أبناء علي بن عبد الله بن عباس : داود وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد ، وموسى بن داود ، ثم أبناء محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : أبو العباس وأبو جعفر ويحيى ، وأحفاد محمد بن علي : عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد وأخوه محمد وعيسى بن موسى

(١) أخذت هنا برواية الراوية القديم أبي مخنف ، وهذه آخر رواية على لسانه عند الطبري (ج ٣ ص ١٠ و ١٤ و ١٥ و ٢٠) وحمل هذا فإن أبا مخنف قد شهد الكوفة ، ولكن لا بد أنه قد كان إذ ذاك قد بلغ من الكبر عتياً . والمدافئ وهو أكبر الرواة الذين يذكروهم الطبري يخالف أبا مخنف في نقط غير ذات شأن ، وهو يذكر تفاصيل أيق . قارن بالمسعودي ج ٦ ص ٧٣ واليعقوبي ج ٢ ص ١٢ والحماسة ص ٢٠٣ فابدها .

(٢) [راجع في هذا وفيما يلي الطبري ج ٢ ص ٢٤ - ٣٧ - المترجم] .

(٣٣ - الدولة العربية)

ابن محمد ، وأخيراً يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس من أحد فروع بني العباس (١) .

حتى أن هؤلاء العباسيين لم يُستقبلوا في الكوفة بل راعين مفتوحين . وذلك أن أبا سلمة « وزير آل محمد » ، بعد موت إبراهيم بن محمد ، لم يعتبر حقهم في الخلافة حقاً بديهيّاً ، وخصوصاً أن أبا سلمة كانت تربطه بيني العباس البيعة التي أعطاهها للإمام إبراهيم بن محمد نفسه . وقد ضاق أبو سلمة بالعباسيين ، وحاول أن يكتّم أمر مجيئهم إلى الكوفة ، فأخفاه نحواً من أربعين يوماً عن جميع القواد والشيعه ، ومنع الناس من الاتصال بالعباسيين ، وكان يأمرهم بالاختفاء ، وكان إذا سُئل عن ظهور الإمام يدعى أن وقت ظهوره لم يحن بعد ، وأن واسطاً لم تُفتّح بعد ، بل هو لم يبحث لأبي العباس بمائة دينار سألته إياها ليعطيها للرجال كراء الجبال التي حلتهم إلى الكوفة . وكان أبو سلمة يفكر ، بعد موت الإمام إبراهيم ، ابن محمد ، في تحويل الأمر إلى آل أبي طالب . ولكن أبا الجهم ، أحد

(١) داود بن علي وابنه موسى لم يكونا مع الذين جاءوا من الحجة ، بل هم لم ينضموا إلى العباسيين الذين خرجوا من هناك إلا وهم في طريقهم عند دومة الجندل . وقد حاول داود أن يظلمهم عن عزمهم في الذهاب إلى الكوفة .

[وخصوصاً أن شيخ بني مروان ، مروان بن محمد ، كان يحرّث مطلقاً أهل العراق ومنه أهل الشام وأن شيخ العرب ، يزيد بن عمر بن هبيرة ، كان في العراق في حلبة العرب . ولكن بني العباس لم يستمعوا إليه وصاروا وشعارهم كلمة قالها رئيسهم وهى : من أحب الحياة ، ذل ، وبيت للأعشى وهو :

فَمَا مَسِيَّتُهُ إِنْ مَسِيَّتْهَا غَيْرَ هَاجِرٍ بَعَارٍ إِذَا مَا غَالَتْ النَّفْسُ نَحْوَهَا

فعند ذلك التفت داود إلى ابنه موسى وقال له : صدق والله ابن عمك ، فارجع بنا منه . نعيش أحراراً أو نحت كراماً - الطبرى ج ٢ ص ٣٢ - ٣٤ - المترجم] . على أن الأسرة العباسية لم تكن دائماً مجمعة على الإمام إبراهيم بن محمد ، وقد انضم عيسى وعبد الله أبنا علي بن عبد الله بن عباس ، وأيضاً أبو جعفر ، أخو الإمام إبراهيم ، إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر لما خرج علي بن أمية (الطبرى ج ٢ ص ١٩٧٧) . ويظهر أن سليمان بن علي أيضاً ، لا داود بن علي وحده - وسليمان لا يذكر بين العباسيين الأربعة عشر - لم يكن في الحجة ، بل كان يقيم في العراق - قارن أيضاً اليعقوبى ج ٢ ص ٤١٩ - .

خاصة أبي مسلم الخراساني ، استطاع أن يتصل بالإمام إبراهيم دون علم أبي سلمة ، وركب معه اثنا عشر من قواد أهل خراسان ، وخرج من معسكر حمام أعين فتوجه إلى الكوفة ودخل على العباسيين وسلم هو ومن معه على أبي العباس بالخلافة ، فاضطر أبو سلمة ، بعد أن علم ذلك ، إلى أن يذهب إلى هناك ويسلم هو أيضاً على أبي العباس بالخلافة^(١) . وكان أبو جهم ، بعد أن عاد ، قد خلف بعض أصحابه هناك ليروا ما سيفعله أبو سلمة وليضربوا عنقه إن لم يُسأج الإمام ، فلما فعل قال له أبو حميد أحد القواد : على رغم أنفك يا . . . فقال له أبو العباس : مه . وفي يوم الجمعة ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٢ هـ (الجمعة ٢٨ نوفمبر سنة ٧٤٩ م) تمت البيعة العامة لأبي العباس وللأسرة الجديدة في المسجد الجامع بالكوفة . وصعد أبو العباس المنبر وخطب ، وكان موهوكاً ، فاشتد به الوعل فجلس على المنبر . وعند ذلك صعد عنه داود بن علي ، وكان دونه على مراقب المنبر ، فخطب أيضاً ، والخطبتان قد وصلتا إلينا ، لكنهما غير صحيحتين ، وإن كان ما تضمنتهما يناسب الموقف ، فقد جاء فيهما بيان فضل بيت الرسول وحقوقهم ، وذكر آيات من القرآن في ذلك ، كما أشارت خطبة الإمام إلى الدعوة الباطلة التي يدعيها البعض في أن غير العباسيين أحق^(٢) منهم بالرياسة والخلافة^(٣) ، والمقصود هنا هم العلويون . وقد تضمنت الخطبتان تأكيد المودة والمصلحة المشتركة بين العباسيين وبين أهل الكوفة^(٤) ، فخطبهم الخليفة قائلاً : « يا أهل الكوفة ! أنتم محل

(١) هكذا يروى المدائني (الطبري ج ٣ ص ٢٨ لما بعدها) . وثم رواية أخرى تختلف عن ذلك (الطبري ج ٢ ص ٣٤ لما بعدها) ، قارن المصمودي ج ٦ ص ٩٢ لما بعدها والمعتوف ج ٢ ص ٤١٣ .

(٢) جاء في خطبة الإمام : وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة منا . الخ . . . (الطبري ج ٣ ص ٢٩ ص ١٧) . [والمؤلف على حق فيما يراء من أن السبئية كلمة تشنيع تطلق على بعض شجرة حلّ الأولين - المترجم] .

(٣) قارن ما جاء على لسان خالد بن عبد الله القسري (الطبري ج ٢ ص ١٨١٦ ص ٧) من تهديده هشام بن عبد الملك بالدعوة إلى « عراق الهوى شام الدار حجازي الأصل » ، بقصد محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

حببتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنيكم عن ذلك محامل
أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا وأناكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس
بنا وأكرمهم علينا . وخطبهم داود بن علي قائلاً : « يا أهل الكوفة !
إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتباع الله لنا شيعتنا
أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجبنا ، وأظهر بهم دولتنا ،
وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تتشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة
من هاشم ويبيض بهم وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم
السلطان وعز الإسلام ، ومن عليكم بإمام منحه العدالة ، وأعطاه حسن
الإيالة . فخذلوا ما آناكم الله بشكر وألزموا طاعتنا ، ولا تُخذلوا من
أنفسكم ، فإن الأمر أمركم ، وإن لكل أهل بيت ميصراً ، وإنكم
ميصرنا . وهكذا نجد بني العباس يقولون إن شيعتهم من أهل خراسان ،
وهم إذ قضوا على سلطان بني أمية حرروا أهل العراق أيضاً من نير أهل
الشام . وهكذا أيضاً انتهى الصراع الذي دام بين أهل العراق وبين أهل
الشام قرابة قرن ، دون أن يصل إلى نتيجة ، بنصر أهل العراق . وعاد
مقر الخلافة إلى الكوفة التي كانت مقر علي بن أبي طالب من قبل . والعبارة
البارزة في خطبة داود بن علي هي قوله لأهل الكوفة : « إن لكل أهل
بيت مصراً ، وإنكم ميصرنا » . وكان لا بد من ذلك بطبيعة الحال
لإرضاء شعور أهل الكوفة ، ولكن محور الثقل في الدولة الإسلامية قد
انتقل بالفعل من دمشق إلى الكوفة والعراق ، وكان ذلك حادثاً له شأن
حاسم (١) .

على أن أبا العباس لم يكن عظيم الثقة بأهل الكوفة (٢) ، فلم يجعل مقامه في
مدينتهم ، بل أقام في حام أعين ، بين أهل خراسان . وبعد حين من الزمان

(١) راجع فيوفانييس (في أخبار سنة ٦٢٤١) .

(٢) [راجع في هذا أو فيما يلي الطبري ج ٢ ص ٣٧ ، ٥٨ فابعدا - المترجم] .

انتقل إلى الحيرة ، ثم انتقل منها إلى الهاشمية ، وذلك ، فيما يذكر ، لكي
يبعد بنفسه عن أبي سلمة : وكان أبو سلمة يقيم في حمام أعين ، وظل ما بين
الإمام وبين أبي سلمة متباعداً ، فكان أبو سلمة يميل إلى العلويين ، وكان
يجاهر بذلك حتى ثبتت الريبة به وثبت أنه لم يكن في ذلك وحده ، وخصوصاً
أن أزمة قيادة حزب الشيعة كانت في يده حتى ذلك الحين : ولم يجرؤ
الخليفة على أن يفرد بمواجهته ، وذلك أن الخليفة لم تكن له قوة وكان
في الواقع من صنع القوم الذين كان في الظاهر يستخدمهم في الوصول إلى
غاياته - كان من صنع أهل خراسان ، صناع الملوكة ، وكان هؤلاء
الخراسانيون ، إلى جانب ذلك يعلمون حتى العلم ضعف السند الشرعي
لخلافته ، فكان الخليفة متفقراً كل الافتقار إلى حسن نوايا قوم آخرين كان
لهم من النفوذ والقوة أكثر مما كان له ، فأرسل أخاه أبا جعفر عبد الله بن محمد
إلى خراسان ليعلم له رأى أبي مسلم ، صاحب النفوذ الأكبر على جيش
خراسان ، وليعرف هل كان مسلك أبي سلمة إزاءه عن رأى أبي مسلم
أم لا . وكان من حسن الحظ أن أبا مسلم لم تكن له يد فيما صنع أبو سلمة ،
ولا شك أنه قد أقرّ عين العباسيين ، لما بعث لأبي سلمة من قتله . وفي
الوقت نفسه قتل أبو مسلم منافسه القديم ساجان بن كثير رئيس النقباء ،
وذلك أن أبا مسلم بلغه عن ساجان كلام يدل على ميله مع أبي سلمة إلى
العلويين ، فاغتم أبو مسلم ذلك وقتله ، شفاء لما كان في قلبه من بغض
له . وكان أبو جهم ، وهو من نخاسة أبي مسلم ، عند الخليفة أبي العباس
ليراقب ما يصنع ، وكان غالباً على أبي العباس (١) :

وبينا كانت هذه الأمور تجري في المشرق ، كان المغرب أيضاً مسرحاً
لحوادث تهم النفوس (٢) . فبعد سقوطها وند في ذى القعدة سنة ١٣١ هـ ، وجه

(١) المقربى ج ٢ ص ٤٣٣ والطبرى ج ٢ ص ٦٧ و ٨٨ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٩ فا بعدها و ص ٣٨ فا بعدها ففلا عن المدائني في الغالب .

قحطبة أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدي إلى شهرزور ، وبعد معركة كان له فيها النصر في ذي الحجة سنة ١٣١ هـ (١٠ أغسطس سنة ٧٤٩ م) أخرج أبو عون جند الشام من شهرزور ، ونزل أرض الموصل إلى شمال نهر الدجلة وثبت أقدامه هناك ، وبعد الاستيلاء على الكوفة جاءته إمدادات من هناك ، لكنه اضطر إلى أن ينزل عن القيادة إلى عبد الله بن علي بن العباس . وسار الخليفة مروان بن محمد من حران ومعه جنود الجزيرة والشام من العرب وتقدم عبر الفرات لقتال أهل خراسان . ووقعت المعركة على ضفة نهر الزاب الكبير ، وبدأت في ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ . وانتهت في يوم السبت ١١ جمادى (الأحد ٢٥ يناير) بهزيمة مروان هزيمة قبيحة . ويقول تيوفاني إن جيش مروان كان يتألف من ثلاثمائة ألف رجل ، وأنه قد فرّ من جيشه آلاف أمام ألف واحد وعشرة آلاف أمام ألفين من جيش أعدائه . ونجد في روايات أخرى ذكر الفارق الكبير بين عدد كل من الجيشين المتقاتلين . ومن السهل أن نفهم المقصود من ذلك ، وهو إثبات القاعدة الكبرى ، وهي أن النصر من عند الله ، فهو الذي ياقى الرعب في قلوب الفئة الكبيرة من الكافرين أمام الفئة القليلة من المؤمنين . أما بحسب رواية للمدائني (الطبري ج ٣ ص ٤٧) فلم يكن جيش مروان يزيد عن اثني عشر ألف رجل ، وكانت كفة مروان في أول الأمر هي الراجحة ، ولكن الهزيمة القبيحة جاءت من أن قيساً لم تشأ أن تقايل دون قضاعة (١) . على أنه مما لا شك فيه أن الثقة في النصر وصدق العزم على القتال كانا في جانب أهل خراسان ، وكان العرب قد فقدوا الثقة ، ولم يريدوا أن يضحوا بأنفسهم . وقد أخرج مروان الأموال ووعدهم أن يعطيها لهم ، إن

(١) [لما هجم أهل خراسان قال مروان لقضاعة : انزلوا ! فقالوا : قل لبي سليم فليزولوا . فأرسل إلى السكاسك أن اخلوا ، فقالوا : قل لبي حاصر فليحملوا ... وهكذا (الطبري ج ٢ ص ٤٠ - ٤١) المترجم] .

صبروا وقاتلوا ، ولكنهم مالوا على الأموال فأخلوها ، حتى إذا قيل : « الهزيمة » ، انهزموا . وغرق كثير من الهاربين في نهر الزاب ، لأن الجسر كان قد قطع .

وعبر مروان نهر الدجلة راجعاً إلى حران ، فبقى هناك نيفاً وعشرين يوماً ، ومما يحسب له من الفضل والنبل أنه عند ذلك سأل سبيل المعتقلين السياسيين الذين وجدهم في الحبس أمامه ، أما الذين كانوا قد حاولوا الهروب قبل وصوله فقد قتلهم أولياؤه من أهل حران . وذهب مروان من حران إلى قنسرين ومنها إلى حمص ثم إلى دمشق ثم إلى حصن أبي فطرس عند Jope (يافا ؟) ، ونزل هناك في جوار رجل من أمراء جذام بنى روح ابن زباغ ، وذلك لأن أرض فلسطين كانت قد خرجت من يد حكومة بنى أمية . ومن أبي فطرس هرب مروان إلى مدينة الفرما من ساحل مصر ، لما اقترب مطارده مهدي بن له : وتبعه عبد الله بن علي ، في جند خراسان ، وانضم إليه في أثناء الطريق أخوه عبد الصمد وأخوه صالح ، فسار إلى الموصل ومنها إلى حران فنبج قنسرين فبعثك فعين البحر ، حتى بلغ الهزة قرب دمشق ، وهناك نزل ، فاستولى على مدن الشام من غير قتال . وطبيعي أن هذه المدن لم تكن متعلقة بمروان (المسعودي ج ٦ ص ٨٤ لما بعدها) ، ولكن عبد الله اضطر أن يحاصر دمشق ، وكان مروان قد استخلف فيها الوليد ابن معاوية بن مروان بن الحكم ، وكانت له القيادة ، غير أن أهل دمشق لم ينفوا إلى جانبه بقوى متحدة ، ثم تعصب الناس فيها ، فقتل بعضهم بعضاً وأخيراً قاتلوا مروان وفتحوا أبواب المدينة لعبد الله بن علي في يوم الأربعاء العاشر من رمضان (١١) سنة ١٣٢ هـ . وبعد أربعة عشر يوماً سار عبد الله إلى فلسطين ، ومنها التحل إلى الأردن . ثم أتى نهر أبي فطرس ، وبعد ذلك وجه أخاه صالح بن علي في طلب مروان في مصر ، ومعه أبو عون . فخرج صالح في ذي القعدة سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) فاصداً مصر ، وفر مروان أمامه من مكان إلى مكان حتى انتهى إلى بوسير عند

(١) [يقول المؤلف في ١٤ رمضان . وقد تابعنا الطبري ج ٣ ص ٤٨ - المترجم] .

الروضة في جهة الأشمونين من بلاد الصعيد ، وهناك حُرِف مكان مروان ،
وتفرق عنه أصحابه بعد قتال شديد (تيوفانيس) وقتل (١) . وقد هاجمه
حربى من أهل خراسان من بلحارث الجمنين في جماعة من أصحابه ، وكان هذا
الخراساني وهو يهاجم مروان يقول لأصحابه بالفارسية : دهيد با جوانسكان ،
أى اضربوا أيها الفتيان ! وقتل مروان ، وكان ذلك في آخر سنة ١٣٢ هـ -
أول أغسطس سنة ٧٥٠ م (٢) - وأُرسل برأسه وشارات الخلافة أيضاً ،
بحسب رواية المسعودي ، إلى أبي العباس . وفي بيت شعر يذكره ابن الأثير
(ج ٢ ص ٣٢٧) أن لسان مروان قد أكله هر . وبنى أبو حن في مصر ،
وكان هو في الواقع القائد الحقيقي للحملة .

أما مدينة واسط ، وهي الحصن الذي كان الحجاج قد بناه في أرض القصب
من وادي دجلة ، فلإنما لم تكن قد خُلِبَت بعد . وكان ابن هبيرة ، ومعه أهل
الشام ، قد لاذ بها ، بعد أن هزمه قحطبة عند بابل . وقد اجتمع إليه أيضاً بعض
حرب خراسان ، خصوصاً من بكر ، تحت قيادة يحيى بن نعيم (٣) ، فأتبعه الحسن
ابن قحطبة وحاصره هناك . وبعد حين أمر الخليفة أبو العباس أخاه أبا جعفر أن
يتوجه إلى واسط مع الحسن وأن يتولى القيادة ، ولكن الحسن كان في الواقع
هو المندبر للعسكر . ولم يكن الحسن في الحقيقة تابعاً للخليفة ، بل لأبي مسلم ، وقد

(١) [أنظر أسرى من جند مروان وقوموا في يد الخراسانيين بمكان مروان حل أن
يؤمنهم الخراسانيون ، وبلغه الخراسانيون في آخر الليل ، ه لهرب أبانده وخرج إليهم مروان في
لفريسير فأحاطوا به فقتلوه ه . راجع الظهري ج ٢ ص ٤٩ ، وتجد تفاصيل ما يقوله المؤلف من
أمر قاتل مروان في ص ٤٩ - ٥١ - المترجم] .

(٢) قارن الأغاني ج ٤ ص ٩٢ والمسعودي ج ٦ ص ٧٦ فابدها ، والتلخيه ص ٣٥٨ ،
وابن الأثير ج ٥ ص ٣٢٦ فابدها ، واليعقوبي ج ٢ ص ٤١٤ ، وياقوت ج ٤ ص ٦٧٠ ،
ويوم الاثنين (٢٧ الحجة) ، الذي يذكر هنا لا يتفق مع يوم الأسبوع ، لا الأحد
ولا الاثنين .

(٣) لا يصح الخلط بينه وبين يحيى بن حلفين .

أرسل أبو مسلم أبا نصر مالك بن الهيثم الخزازي ، ومعه جند من أهل خراسان ، لشدة أزر الحسن . ولم يكن الاتحاد سائداً بين أهل المدينة المحصورين ، وتشاجرت اليمن ونزار (أي مضر وربيعة) ، ولكن المدينة رغم ذلك قاومت الحصار أحد عشر شهراً . ولم يدخل ابن هبيرة في مفاوضات إلا بعد أن علم بمقتل مروان ، أي في أحد الشهور الأولى من سنة ١٣٣ هـ (خريف ٧٥٠ م) ، ودامت المفاوضات أربعين يوماً ، إلى أن وضع العلماء الأمان الذي كتب على نحو يرضى الطرفين (١) . وقد أقره أبو العباس ، ولكن بنى العباس لم يقفوا بما جاء في كتاب الأمان الذي كتبه لابن هبيرة ، فقتلوا القواد الذين كانوا أسرى في أيديهم ، وكانوا يحملون الخواتيم دلالة على مناصبتهم ، وقتلوا الزاريين دون البغاثيين ، وأخبراً لقي ابن هبيرة نفس المصير ، بعد أن جرد من حرسه وأخذ ما كان في يده من أموال (٢) .

ويروى الطبري أيضاً هذا الحادث الذي تتجلى فيه القسوة والغدر الشائن :
على أن الطبري يؤثر السكوت عن رواية الاحتفالات الدامية التي جعلها

(١) [لما طال الحصار على ابن هبيرة تجنّس عليه أصحابه ، فقال البغاثية : لا نعين مروان وآثامه فيها . وقالت النزارية : لا نقاتل حتى يقاتل معنا البغاثية . وكان إنما يقاتل معه الصماليون والفتيان . وهم ابن هبيرة بأن يدعو إلى أحد العلويين ، فكتب إليه ، لكنه أبعث في الجواب . ثم كاتب أبو العباس أصحاب ابن هبيرة البغاثية وأطمعهم ، وخرج إلى أبي العباس يهفهم ، ووعدوا ابن هبيرة أن يصلحوا له ناحية أبي العباس ، انكهم لم يفعلوا . ووجرت السفراء بين أبي جعفر وبين ابن هبيرة ، حتى جعلوا له أماناً ، وكتب به كتاباً مكث يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضى ابن هبيرة ، ثم أئذنه إلى أبي جعفر ، فأئذنه أبو جعفر إلى أبي العباس ، فأمره بإحضاره . وكان رأى أبي جعفر الوفاء لابن هبيرة ، ولكن أبا العباس اضطر أن يأخذ رأى أبي مسلم ، لأنه كان لا يقطع أمراً دون ، فقال له أبو مسلم : « إن الطريق السبل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد . لا والله ! لا يصالح طريق فيه ابن هبيرة » . الطبري (ج ٣ ص ٦٧) . وتجدر قصة الغدر باين هبيرة وقتله في ص ٦٧ - ٧٠ - المترجم] .

(٢) تجد مرآتي لابن هبيرة عند الطبري ج ٤ ص ٧٠ وفي الحاشية ص ٣٧٢ فابعدا والاعاني ج ١٦ ص ٨٣ فابعدا .

بنو العباس من مظاهر الاحتفال بانتصارهم^(١) . ولقد كان الأمويون حاملوا
بنو العباس بكرم وحنو لم يكن لهما داع^(٢) ، فشكر لهم بنو العباس ذلك بأن
استأصلوا شأفتهم واستصفوا أموالهم ولم يراعوا في ذلك أى اعتبار لإنسانى ،
بل صلبوا جام الغضب الإلهى والانتقام الشرعى على رموس بنى أمية . ولما
كان ليس لديهم من موجبات الأخذ بالتأثر إلا قليل ، فلأنهم استعاروا شيئاً
من أسباب التأثر التى كانت عند العلويين وظهروا بمظهر الثائرين لهم^(٣) ،
فأتاهم ذلك فى الوقت نفسه وسيلة لتنحية العلويين ، وذلك لأن الذى يمهّد
الطريق إلى الرئاسة ، بل الذى يزيد الحق فيها^(٤) ، ليس هو أن يكون عند
الإنسان ما يوجب الأخذ بالتأثر ، بل هو الأخذ بالتأثر بالفعل . أما الباحث
الحقيقى للعباسيين فقد كان سياسياً بطبيعة الحال ، لأنهم كانوا يريدون أن
يقضوا على شر الأسرة الأموية بعد أن أسقطوها قضاءً تاماً . وكل ما فعله
العباسيون يعيد إلى الأذهان ما صنعه « الأنبياء » من إفناء بيت حمرى^(٥) .

وكان المسرح الأكبر للنظائير التى ارتكبتها العباسيون مع بنى أمية هو بلاد
الشام ، وكان عبد الله بن على هو الذى تولى القيادة فى الشام . أما وزير هذه

(١) تجد أخبار ذلك عند الهقبولى والمسعودى وابن الأثير وفى كتاب الأغاني . ومن
الأهمية بمكان أيضاً قصيدة من ذلك العصر لرجل من العلويات أو المولى لهم ، وقد بقيت منها
أجزاء كبيرة عند ياقوت ج ٤ ص ٢٣٩ و ٢٣٦ و ٨٣١ ، وفى كتاب الأغاني ج ٤ ص ٩١
وج ١٠ ص ١٠٥ ، والعلويات أحد فروع بيت بنى أمية .

(٢) [لم يقتل بنو أمية من العلويين والعباسيين إلا من ناز على دولتهم ، وقد أحسن
عمر بن عبد العزيز إلى آل البيت كما كان سليمان بن هشام يقضى حوائج العباسيين ويبرحهم -
الأغاني فى ج ٤ ص ٩٣ - ٩٦ - المترجم] .

(٣) [راجع مثلاً الهقبولى ج ٢ ص ٤٢٥ - ٤٢٦ والمروج للمسعودى ج ٢ ص ٢٠٧ ط
القاهرة ١٣٤٦ هـ - المترجم] .

(٤) [بما يقصده المؤلف استناد بنى أمية فى محاولتهم للوصول إلى الخلافة ، إلى أنهم أصحاب
التأثر لقتل عثمان - المترجم] .

(٥) [فى تاريخ بنى إسرائيل - المترجم] .

الغنائم فلا يقع على كاهل أهل خراسان ، ويدل على ذلك ما جاء في كتاب الأغاني (ج ٤ ص ٩٤ و ٩٦) : وذلك أن أهل خراسان كانوا جنوداً يلتزمون روح النظام الدقيق ، ولم يكونوا يفعلون شيئاً إلا إذا أمروا به ، بل وقعت الأعمال الفظيعة بأمر من العباسيين (اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٧) . ومما له مغزاه أنه لم يفلت من العقاب موقى الأمويين أنفسهم ، فشُيشت قبور الخلفاء وغيرهم من بني أمية في دمشق ودايق والرصافة وفي قنسرين وغيرها من الأماكن ، وأحرقت جثثهم بالنار ، إن كان قد بقي في قبورهم شيء منها . ومما يستلفت النظر أن عمر بن عبد العزيز ومعاوية بن أبي سفيان لم يُمسَّسَا بسوء ، وقد صَبَّ بنو العباس جام غضبهم على هشام بن عبد الملك ، وكان هشام قد فعل ما دعا بني العباس إلى ذلك (١) ، ولم يكن قد مضى على موته وقت طويل ، فنَبَشَ عبدُ الله بن علي قبره وأخرج جثثه ولم يكن قد بلى منها إلا أرنبة أنفه ، وضربها بالسوط وصلبها ، ثم حرقت بعد ذلك وأُذرى رمادها في الريح (المسعودي ج ٥ ص ٤٧١ فما بعدها) ، وقد فعل عبد الله بن علي بمن كان على قيد الحياة من بني أمية أفظع فظلة في أبي فطرس ، وكان قد أقام هناك حيناً بعد أن كان قد أخرج مروان . فقد استدرج ، فيما يذكر ، أكثر من ثمانين من بني أمية ، فأمرهم أن يحضروا لأخذ الجوائز والعطايا ، ثم دهاهم إلى طعام ، كأنه قد اتخذ Jahu (ياهو) مثلاً له يحتديه ، ثم ألقى بعض موالى العباسيين . وبني هاشم أحياناً من الشعر ، يخرضون بها عبد الله على الفتك ببني أمية والثأر لمقتل العلويين والإمام إبراهيم بن محمد ، فلما سمعها عبد الله بدا كآتما التهاب قلبه بنار الثأر ، فأمر بالأمويين فشُدَّ نحوهم بالعمد وبُسيطت الأنطاخ على جثث القتلى ونصبت عليها مائدة الطعام ، فأكل ، وهو

(١) [جاء في كتاب اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٧ - ٤٢٨ أن هشام بن عبد الملك كان قد ضرب على بني عبد الله بن العباس ستين سوطاً ، فلما جاء ابنه عبد الله بن علي ثار لأبيه ، فنَبَشَ قبر هشام وضربه مائة وعشرين سوطاً ، وهو يتنثر ، ثم جمعه وأحرقه - المترجم] .

يستمع إلى أنبن الضحايا (١) حتى ماتوا جميعاً . وهذا المنظر ، بما فيه من استدراج الضحايا بدعوتهم إلى وليمة ومن إنشاد قصيدة تدعو إلى انفجار غضب يبدو غير مصطنع ، يتكرر في مناسبة أخرى تُضاف إلى أبي العباس أو داود بن علي بدلاً منه (٢) . وهذا مما يدعو إلى الشك في صحتها . أما وقائع المذابح والتمثيل نفسها فهي لا شك فيها . وقد بقيت في نفوس عرب الشام ولم تنمح ذكراها ، كما لم تنمح من ذاكرة الإسرائيليين القدماء تلك المذبحة التي قُضِي فيها على بيت عمرى . وقد وضع يوم أبي فطرس طابعه في جبهة بني العباس ، كما وضع يوم هزريل طابعه في جبهة بيت Jehu . ويذكر المسعودى (ج ٦ ص ٧٦) أن ذلك الحادث المروع كان في ١٥ ذى القعدة سنة ١٣٢ هـ (٢٥ يونيو سنة ٧٥٠ م) . أما تيوفاليس فهو يخطئ في جعله بعد ذلك بعامين (٣) . ولكن إشارته القصيرة التي لم يثبته إليها أحد حتى الآن لها أهميتها ، لأنه يتضح منها أن الموضع المسمى بأبي فطرس هو المكان القديم الذي كان يسمى باسم أنتيپاتريس (Antipatris) :

أما في المدينة ومكة فقد كان داود بن علي هو جلاّد بني أمية (٤) ، وكان

(١) الكمال ص ٧٠٧ ، ابن الأثير ج ٥ ص ٣٢٩ ، فابعدا ، وثم رواية أخرى عند اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٥ ، فابعدا ، وفي الأغاني ج ٤ ص ١٦٠ فابعدا .
(٢) الأغاني ج ٤ ص ٩٤ ، وقيل الأسماء ، وهم مدهون إلى طعام ، ظاهرة تروى كثيراً .

(٣) يقول تيوفاليس : « في سنة ٦٢٤٣ ، قتل الحاكم الجديد معظم (المسيحيين باعتبارهم) أقرباء الأسرة السابقة ، وذلك بأن قسوا عليهم في أنتيپاتريس في فلسطين بحيلة . هربوا » . والتي يدل على أن الموضع المسمى عند العرب بأبي فطرس هو نفس المكان القديم الذي كان يسمى أنتيپاتريس هو اسم فطرس (Putrus=Patris) والحادث نفسه . والموضع القديم الذي كان يسمى أنتيپاتريس أو كفسرنا Kapharsaba (راجع Josephus Ant. 16, 149. 13, 390) كان يقع في وادي الموجة عند الموضع الذي يجب أن نلتصق فيه حصن أبي فطرس بحسب وصف العرب . أما الشيء الذي لا يفهمه الإنسان فهو وصف الأمويين بأنهم نصارى فلا بد أن يكون هناك خطأ أو إدخال كلمة أضيفت إلى النص فهما بعد .

(٤) تجد مناظر مذابحهم في كندا عند صاحب الأغاني ج ٤ ص ٩١ فابعدا . وعند ياقوت ج ٤ ص ٢٤٤ .

سليمان بن علي جلادهم في البصرة ، أما في الحيرة فقد أمر أبو العباس نفسه بقتل من يُحِلُّ إليه من بني أمية أو من جاء إليه يلتمس الأمان . وكان من هؤلاء سليمان بن هشام ، الذي كان ألد أعداء مروان بن محمد ، فكان لذلك يعتقد أنه سينال الأمان التام . بل إنه بعد أن كثف العباسيون آخر الأمر عن تعقب بني أمية كان من بقي من هؤلاء لا يأمنون على أنفسهم لو ظهروا ، فظلموا متسترين ، وقضوا حياتهم في الشدة والضرب ، وكانوا دائماً يخشون أن يُؤخذوا فيقتلوا إن عرفهم الناس . ولم ينبج منهم إلا حفيد هشام بن عبد الملك ، هرب إلى إسبانيا ووصل هناك إلى الرياسة .

ولكن أهل الشام الذين كان ملكهم حتى ذلك الحين ملوكاً سلبياً أحقتهم آخر الأمر قتل أسرهم السابقة واستئصال شأفتها على هذا النحو الفظيع ، ولم يكن حتى قيس على ذلك بأقل من حتى كلب . فثار قيس في قنسرين خاصة ، وكان على رأسهم أشرف رجل فيهم ، وهو أبو الورد متجزأة بن كوثر ، أحد أحفاد زفر بن الحارث . وقد انضمت إلى قيس قبائل كلب في تدمر ، كما انضم إليهم عرب حمص ، فبايعوا لأبي محمد السفيفاني الذي كان مروان بن محمد قد نطى سبيله في آخر لحظة . وقد بايعه أبو الورد على أنه الوارث الشرعي للخلافة ، ولكن هؤلاء الثالين هُزموا وشقت شملهم على يد عبد الله بن علي عند مرج أنهرم قرب قنسرين ، وذلك في آخر سنة ١٣٣ هـ ، أي في آخر يوليو سنة ٧٥١ م ، وقتل أبو الورد ومعه خمسمائة رجل من أهل بيته وقومه ، وهرب أبو محمد السفيفاني في أنصاره من كلب ، فتوجه إلى تدمر أولاً ، ثم هام في أرض الحجاز هارباً ،

(١) بحسب الطبري ج ٣ ص ٥٥ كان ذلك في آخر يوم من ذي الحجة سنة ١٣٣ هـ ، لكن ذلك اليوم لم يكن يوم الثلاثاء كما هو مذكور ، بل كان يوم الخميس . أما ثوراليس (في أخبار سنة ٦٢٤٢) فهو لم يكن يذكر أن ذلك في قنسرين بل حمص - ومن الجائز أن يكون قد وقع هناك قتال أيضاً .

حتى قبض عليه آخر الأمر ، وقتل في أيام أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء
بنى العباس . وما يستلفت النظر أن أهل الشام انصروا عن بنى مروان الذين
كانت فيهم الخلافة إلى السفينيين الذين كانوا قد أزيلوا عنها ، وذلك أن
المكانة التي وصل إليها أبو محمد السفيناني بعد مقتل الوليد بن يزيد على
الفور ، لم تكن ترجع إلى صفاته الشخصية ، بل كانت ترجع إلى أنه لم يكن
من أبناء مروان بن الحكم وعبد الملك ، بل من أبناء معاوية ويزيد ابنه .
وهو لم يشتهر باسمه الخاص به بل بنسبته إلى بيت أبي سفيان ، فكان يسمى
السفيناني ، بإطلاق هذه التسمية . ولم يختلف شأنه بموته ، بل هو زاد ، فكان
السفيناني يعتبر في أول الأمر ، عند أهل الشام ، المهدي المنتظر ، وكان أهل
الشام يملقون آمالهم السياسية على عودته إلى الظهور من جديد . وفي آخر
الأمر ، لما آلت الرئاسة إلى أعداء أهل الشام ، صار يقال إن السفيناني
هو الرجل الذي سيظهر قبل ظهور المسيح الدجال ، وعلى هذا فإن شبح
بيت الأمويين قد بقي بعد سقوطهم أحد مظاهر اقتراب نهاية الدنيا (١) .

٥ - وسمى العباسيون حكومتهم باسم الدولة ، أعني العهد الجديد (٢) .
والواقع أن الانقلاب الذي كان قد تم في ذلك العصر كان هائلاً .

وبسقوط بنى أمية اندحر أهل الشام أيضاً إلى الوراء ، وقد كانوا قبل ذلك
قد أسلموا مروان بن محمد الذي كان بغيضاً إليهم ، إلى مصيره المقدر له . وهم

(١) راجع كتاب Snouck Hurgronje, Mahdi, p. 11 وجملة DMZ ، سنة ١٩٠١
ص ٦٩٠ فما بعدها .

(٢) الطبري ج ٣ ص ٨٥ من ١٦ و ٩٦ من ١٩ ص ١٤٥ من ٩ ، وأبناء الدولة
هم أهل غراسان الذين كانوا في خدمة بنى العباس ، وكتاب الدولة - الطبري ج ٣ ص ٤٩٧
س ١ - اسم لكتاب كانت فيه نبوءات عن مستقبل بنى العباس . أما فيما بعد فإن كلمة الدولة
أصبحت تدل بوجه عام على الأسرة المالكة ، أو على الملكة . ويوجد شبهة لذلك في تدير معنى
كلمتي نوبة وعقبة (Hudh. 47, 38) ، ولكن المعنى الأصل لكلمة ظل باقياً إلى جانب ذلك ،
فكان يقال مثلاً : صار المال دولة ، أي انتقل من يد إلى يد أخرى .

لم يهتوا لمقاتلة بنى العباس قبل فوات الوقت المناسب ، وهم بعد ذلك لم يستطيعوا أن يغيروا الموقف ، فانصر السواد وفقد البياض ملكه ؛ ولكن أهل الشام ظلتوا في الحقيقة على محبتهم لأسرتهم السابقة^(١) ، وقد عبروا عن ذلك بالفعل أيضاً ، ولكن جهودهم ذهبت سدى ، لأنه كان يعوزهم التنظيم ، ولم يبصروا الحقيقة إلا فيما بعد ، وهى أن القضية كانت قضيتهم وأنهم هم الذين خسروا ، فانقل مقر الحكومة من دمشق إلى الكوفة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد ، وفقدت الشام سيادتها ، وتحمرت العراق من نير السيادة الأجنبية بعد أن ظلت تحاول أن تطرحه عن عاتقها مائة عام فذهبت جهودها سدى . وبداي الآن أنها قد استعادت السيادة التى كانت لها في أيام علي بن أبي طالب . وقد صرح بنو العباس في وصف نزعتهم السياسية بأنها عراقية مضادة للسياسة الشامية ؛

ولكن انتهت في الوقت نفسه سيادة العرب بالمعنى الحقيقى ، تلك السيادة التى كان يمثلها بنو أمية وأهل الشام ، وغرب وطن العرب القديم ، وأوحش إحصاشاً تاماً ، حتى صار الحج غير آمن ، ولم تصبح القبائل العربية هى العناصر التى تتكون منها الدولة التيوقراطية . وفقدت القبائل مكان الصدارة فقدأ تاماً ، وتحمر الموالي ، وزال الفارق بين المسلمين من العرب ومن غير العرب . وبعد أن نُحيت العروبة عن مكانها الذى كان يستند في الأصل إلى قانون الحرب ، هذا القانون الذى لم يكن فيه محل لغير العرب ، تراجعت العروبة إلى الميدان المدنى المسالم ، وصارت حضارة عالمية يشترك فيها كل المسلمين . وكان أساس تلك الحضارة هو الدين . ولكن دين العرب لم ينهدم بانهدام الأمة العربية ، بل هو ازداد قوة ، وظلت اللغة العربية لغة الإسلام وابتلعت لغات أهم الأمم النصرانية في

(١) زمن الطريف تلك الأخبار التى ذكرها الطبرى (ج ٣ ص ٢١٦٤ فـ ١٢٤) ، وكانت الذكريات تتصل بمعاوية خاصة ، وقد رأينا أن خبره ظل يزار إلى ما بعد وفاته بقرون .

آسيا القريبة وإفريقية ، وإلى جانب ذلك رسخت قدمها بين الكتاب والعلماء من أهل إيران ، أما شعرهم فقد ظل باللغة الإيرانية وبلغ بها مكانة رفيعة . بل قد رجع شأن الموالى على شأن العرب ، لا بوجه عام بطبيعة الحال بل من بعض الوجوه . وكان أهل خراسان قد أعانوا العباسيين على النصر ، فقام بهم الغنime ، وصاروا من وجه ما ، هم الورثة لسلطان أهل الشام ، وإن كان موقفهم من رئاسة الدولة موقفاً غير موقف أولئك . فكانوا يسمون الشيعة والأنصار ، أو أبناء الدولة (١) ، وكانت في يدهم القوة الظاهرة ، وكانوا منظمين تنظيمًا حربيًا ، وكانت في أيديهم مناصب القيادة ، واستطاع قوادهم أن يظهرُوا بمظهر السادة الكبراء . وكان يتألف منهم الجيش الم رابط حول الخليفة ، وكان الخليفة يقيم بين حرسه هذا ، هذا ولم يكن ابتداء بغداد في الحقيقة لكي تكون حاضرة عالمية ، بل لتكون معسكراً لجند خراسان . وقد أراد الخليفة أن يقيم في هذا المعسكر بعيداً عن الكوفة . ولكن أهل خراسان كانوا ، يوم في معسكرهم ، على صلة بوطنهم ، ثم صار رُجحان شأنهم ، من حيث هم حزب وجيش في خدمة بني العباس ، رُجحاناً لأنهم وبلادهم ، أى أن الكفة الراجحة صارت لبلاد العجم الشرقية ، وانتصرت العجمة (الإيرانية Iranismus) على العروبة تحت ستار الإسلام ، لا باعتباره ديناً للعرب ، بل ديناً للأمم .

وقد تغيرت بتغير الأسرة الحاكمة طريقة الحكومة الداخلية أيضاً . أما إن النفوذ الفارسي كان هو الراجح في ذلك فهو غير مؤكد ، فأما الذي لا شك فيه فهو أن نظام الحكم الداخلى لم يصبح عربياً على الإطلاق ، وكان العرب يحكم أنهم الأمة الفاتحة قد أصبحوا طبقة أرستقراطية حاكمة ، وكانت شبكة القبائل بما كان بينها من أنساب تمتد في الظاهر على البلاد التي تكونت منها دولة العرب ، وظل

(١) قارن إنجيل متى ، الأصحاح السابع عشر ، الفقرة الخامسة والعشرين .

هذا النظام القديم موجوداً في خطوطه الكبرى أيام الأمويين ، وإن كان قد تبين بعد قليل أنه نظام لا يمكن الاحتفاظ به في أيام بني العباس فقد زال هذا النظام بزوال ما كان يستند إليه من فوارق بين الطبقات ، ولم يكن بنو العباس ، كما كان الأمويون قبلهم ، يقفون على رأس طبقة أرسقراطية واسعة النطاق وينسبون إليها ، وذلك أن أهل خراسان الذين كان ينو العباس يستنلون إليهم لم يكونوا بمثابة عصبية لبني العباس أساسها وحدة الدم والاشترار في النسب ، بل كانوا مجرد أداة لهم . وكان جميع المسلمين أمام بني العباس سواء ، ليس بينهم تفاوت طبيعي في الحقوق السياسية ، وكان للعباسيين وحدهم الحق المقدس في الرئاسة باختيار أنهم ورثة النبي عليه السلام ، ولم يكن أمامهم عقبات في سبيل تنظيم الحكومة طبقاً للاعتبارات الفنية ، التي يبدو أنها تلائم طبيعة الأشياء وتلائم مصلحتهم الخاصة ، فأصلحوا من نظام الإدارة إصلاحاً كبيراً وأصلحوا خاصة نظام الخراج والقبض . وقد أبدوا عناية كبيرة في الاستماع إلى شكوى من يلجأ إليهم باعتبارهم السلطة العليا وفي إزالة أسباب هذه الشكوى ؛ ولكن بني العباس أخذوا في الناس روح الاهتمام بمسائل السياسة ، بعد أن كان هذا من قبل جزءاً من الدين ، وأفلحوا في إضعاف هذا الاهتمام أكثر بكثير مما أفلح الأمويون ، فأصبح المسلمون جميعاً ، العرب منهم وغير العرب ، مجرد رعايا ، ولم يكونوا يستطيعون أن يأخذوا بنصيبهم في تدبير الأمور العامة للدولة ، فاندحروا إلى ميدان الصناعات أو الاشتغال بالعلوم والفنون ، ولم يكونوا يستطيعون أكثر من التأمراً سرّاً . وانكشفت الدولة حتى أصبحت مقصورة على بلاط الخليفة ، وكان يحيط بالخليفة في أول الأمر عدد كبير متنوع من الخدام من الأمتين العربية والفارسية ، ثم أصبح محوطاً بطائفة كبيرة جداً أيضاً من أبناء الأسرة من الهاشميين . ولكن كان ينتمى لبلاط الخلافة إلى جانب ذلك الجيش أيضاً ، وكانت نواة الجيش متجمعة دائماً في مقر الخليفة ، فكانت بغداد من هذا الوجه لا تختلف عن مدينة الرسول

فمحبس ، بل عن دمشق أيضاً : وكان في بلاط الخليفة بعد هذا عدد كبير من الموظفين المدنيين ، ليسوا من قواد الجيش ، ومعظمهم كانوا صنائع للخليفة وأصحاب حظوة عنده ، وكانت غالبيتهم من الموالي ، وكان لهم في أول الأمر تأثير من طراز تأثير أهل البطانة والمشورة الخاصة ، ثم وصلوا بعد ذلك إلى أعلى المناصب الرسمية ، وكان الخليفة يرفعهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم ينقصهم فلا يعمل لهم شأناً . وكانت الكوارث والدياسات التي تؤدي إلى ذلك شيئاً جارياً في بلاط الخليفة ، وكان الخليفة لا يقرب إليه رجالاً من ذوى النباهة ، لهم شأنهم ونباهتهم التي لا ترجع إلى مجرد المنصب ، إلا على كره منه ، ولم يكن العباسيون يهتمون بالأرومة والنسب حتى فيما يتعلق بنسائهم ، فلم يكن كرم المهند هو السبيل إلى الرفعة ، بل كان الخليفة هو الذي يرفع من يشاء ، فكان يمنح المكانة والجاه والكرامة بأنواع الكسب والحلل المميزة (الطراز) ، فكان الخياطون والذين يوشون الخلال يجدون ما يشغلهم : وقد حل محل الأرستقراطية السابقة موظفون في بلاط الخليفة بعضهم فوق بعض ، وكان بعضهم يتميز عن البعض ويترف على عمله ، وكان على رأسهم وزير يدير الديوان ، وقد صار هذا الوزير في عصر متأخر هو الممثل المرئي للخليفة غير المرئي ، بحيث صار الخليفة لا يظهر على المسرح إلا أشبه بممثل بين حين وآخر ، وصار يوضع على عرش الخلافة بعد حاصفة من النزاع والتوتر الشديد . ثم أخذ يظهر شيئاً فشيئاً نظام يعلى أمراء الأمصار يلبون عنهم من يدبر أمور الولايات التي تسند إليهم ، أما هم فكانوا يقيمون في بلاط الخليفة ، خصوصاً إذا كان لهم ما يميزهم من التسابح إلى بيت الخلافة . وكان صفار الموظفين في الديوان من اليهود والنصارى ، وكان من السهل أن يجلبوا على أنفسهم بعض جمهور المسلمين وحسبهم ، وربما كان السيف هو أبرز شخص بين الموظفين في بلاط الخليفة بعد الوزير ، ولم يكن

العرب يعرفون هذا السيف ، ولا كان للأمويين سيف : أما بنو العباس فلم يكن لهم عنه غنى ، وكان النطع^(١) الذى يوضع إلى جانب كرسى الخلافة ويقوم مقام خشبة الصلب من شارات الخلافة ، وكان القتل الذى ينفذ على الفور ، وكذلك تعمّد التعذيب القاسى ، مما يزيد فى الرهبة من جلال الخلافة : وإذا كان العباسيون قد فعلوا ذلك فهم إنما كانوا يحلون محلّو الفرس ، وذلك أن شاه الفرس كان له الحق فى أن يقتل رعاياه أو يقيهم على قيد الحياة : وكذلك قلد العباسيون الفرس فى اتخاذهم للمنجّم الذى كان للبلاط ، فكان يُسأل فيما يراد الشروع فيه من الأعمال الهامة ، بل كان يصحب الجيش فى الحملات الحربية : وأخيراً يجب التنبيه إلى أن استعمال عمال البريد كان من مميزات حكومة بنى العباس ، وكان أصحاب البريد فى الأمصار بمثابة حواس مرسلّة من دار الخلافة إلى جميع النواحي ، وكانوا يُختارون من بين أهل الثقة ، وكانوا أيضاً عيوناً تراقب أمراء الأمصار دون أن يشعروا . فكان البريد فى خدمة الجاسوسية ، وكان نقل الأخبار فى تلك الدولة المترامية الأطراف منظماً أحسن تنظيم ، حتى نجد المطبوع فى أواخر كتابه لا يكتفى بذكر تاريخ الحوادث ، بل هو يهتم بأن يذكر تاريخ بلوغ أخبارها إلى دار الخلافة .

وأهم ما يميز بين العهد الجديد وبين العهد القديم هو العلاقة بين الدولة وبين الدين ، فكان العباسيون يستندون فى حقهم فى الخلافة إلى أنهم جعلوا كلمة الإسلام هى العليا بعد أن عطل الأمويون أحكامه فى زعمهم ، وكانوا يقولون : إنهم يريدون إحياء السنة النبوية التى قد درست ، فدعوا علماء الشريعة من المدينة ، وكانت مقرراً لهم حتى ذلك الحين ، إلى بغداد ، وكانوا دائماً يسألونهم : وذلك بأن كانوا يحرصون على وضع المشكلات السياسية فى ثوب فقهي

(١) الأنطاع هو فرش تتخذ من الجلد ، كان يوضع عليها من يراد قتله .

ويعملون على أن يكون الحكم فيها طبقاً للقرآن والسنة : أما الحقيقة فهي أنهم كانوا يستغلون الإسلام في أغراضهم الخاصة ، وكانوا يربون علماء الشريعة في قصورهم ، وكانوا يحصلون منهم على الإفتاء بصحة أشد الإجراءات بعداً عن الحق . وهكذا تخلص العباسيون من مناهب المعارضة من جانب أهل الديانة بأن ساعدوهم على النصر وجعلوهم مرجعاً لهم : ولما كانت معارضة أهل الديانة قد وصلت بإسقاطها حكومة الأمويين إلى غايتها فهي تستطيع الآن أن تطمئن ، وذلك أن السياسة قد أصبحت في أيدي أمينة ، وليس على المسلمين بعد هذا أن يشتغلوا بها . ولما كان قد تحقق قيام الدولة التيوقراطية فيجب أن يزول مبدأ الثورة على السلطة القائمة : وقد أفلح العباسيون في أن يوجهوا الرأي العام هذه الوجهة ، وقد ساعدوهم على ذلك حاجة أهل ذلك العصر إلى الراحة بعد ثورات وحروب لم تنقطع ، وذلك أن العرب كانوا قد استفرغوا في القتال كل طاقة كانت لهم واستنزفوا دماء أنفسهم .

ويجب أن يتوقع الإنسان من العباسيين أن يحابوا الشيعة ، بعد أن كانوا حلفاء لهم في أصل الأمر ، ولكن العباسيين غيروا سياستهم . وبعد أن كانوا يعتبرون العلويين وأنفسهم حزباً واحداً صاروا يعادون العلويين تفادياً لأطرافهم ، وكذلك نبذ العباسيون خاصة أنصارهم ، وهم الشيعة الغلاة (الراوندية) الذين كانوا منتشرين في فارس بنوع خاص . وعلى هذا فإن العباسيين فيما يتعلق بالدين قد انصرفوا عن الفرس إلى العرب ، وتذكروا لأصل نشأتهم في طرف من الدولة بعد أن استقروا في وسطها وأصبحت في أيديهم السيادة على أرض الدولة كلها ، وانقادوا المذهب الجماعية التي ليس لها آراء خاصة ، بل تأخذ الدين بالقبول على أنه مأثور منقول ، وتكتفي بالمأثور المنقول الذي ينظم الحياة العامة لجميع الناس على نحو واحد من طريق أداء العبادات وتطبيق أحكام الشريعة .

على أن العباسيين من هذه الوجهة صاروا في الطريق الذي سار فيه الأمويون ، رغم ما يبدو خلافاً لذلك ، غير أنهم كانوا أشد من الأمويين تمسكاً بما عليه الجماعة وأشدّ ضرباً على أبدى الفيرق التي تنحرف عن مذهب الجماعة وتفسد الوحدة الدينية والسياسية ، ولما كان العباسيون ورثة الرسول عليه السلام فإنهم استفادوا أكثر مما استفاد الأمويون من الفكرة القائلة بأن واجبهم لا يقتصر على التوحيص بأعباء الرياسة الدنيوية بل هو يشمل الرياسة الروحية ، أحق الإمامة ، وعلى حين أن أكبر ما اعتمد عليه الأمويون هو القومية العربية ، فإن بني العباس أقاموا سيادتهم على الدين وعلى حرس انخلوه لهم ، ويستطيع الإنسان أن يصف خلافتهم بأنها سيادة الدولة على الدين (Caesareopapie) . وقد استعملوا من يطارد الزنادقة ، وأنشأوا نظاماً في امتحان عقائد الناس ، وذلك بقصد تعقب الزنادقة في أول الأمر ، ويظهر أن هؤلاء كانوا من نايغة الشيعة الغلاة في فارس .

وكل ذلك آل أمر أهل خراسان إلى أن صاروا فيما بعد قذى في أعين العباسيين ، فتخلص المنصور من وصاية أبي مسلم بعد أن أصبح غير محتاج إليه . ولم يكن للمنصور من الصفات الكبيرة ما يداني به ما كان لأبي مسلم ، ولكن المنصور عرف كيف يكيد لأبي مسلم حتى قتله . على أنه في أول الأمر لم يكن لبني العباس من الناحية الحربية غنى عن أهل خراسان ، بل لم يمكن القضاء على أهل خراسان أو تنحيهم جانباً ، حتى فيما بعد ، وقد حاول العباسيون بعد موت الرشيد محاولة من هذا النوع ، ولكنها لم تؤد إلا إلى تثبيت أقدام الخراسانيين وزيادة قوتهم ، وكذلك لم يقلح بنو العباس في أن يتحرروا من سلطان أهل خراسان بانخاضهم حدوداً كبيراً من الجند المرتزقة من البربر والصقالبة وأهل السغد والترك وتسليحهم وتنظيمهم للاستعانة بهم على الخراسانيين ، وكل ما أفلحوا فيه لا يعدو أنهم أوقفوا أنفسهم تحت رحمة هؤلاء المماليك واستبدادهم ، خصوصاً

الترك من بينهم ، وانتهى الأمر بأن فقد العباسيون كل حول وقوة
وانحلت دولتهم .

وقد احتفظ الأعاجم بمركزهم الذى جعلهم أصحاب السلطان فى الدولة
نحواً من قرنين ؛ ولكنهم لم يستطيعوا ، على مرور الزمان ، أن يحتفظوا
بسلطانهم فى وطنهم ، ولم يستطيعوا أن يصدوا تقدم الترك فى أرض
ما وراء النهر وفى طخارستان وخراسان ، لهذا التقدّم الذى كان للعرب قد
ردوه ووقفوا سداً منيعاً فى سبيله حقبة من الدهر . وهكذا صار الترك
آخروا لأمور دولة الإسلام ، بعد أن كانوا قد عشنوا فيها ممالك
من قبل ، ويستطيع الإنسان بالإجمال أن يعتبر المفلول منهم ، هؤلاء المفلول
الذين لم يوطنوا على كل حال فى بلاد الإسلام توطناً حقيقياً ، بل
اجتاحوها كالعاصفة المدمرة دون أن يتركوا وراءهم سوى آثار الخراب .

(انتهى الكتاب بحمد الله)

فهرس الأشخاص

(١)

أبن صبيحت : انظر فيروز حسين
 أبن السوداء : انظر عبد الله بن سبأ
 أبن شريك بن القصاص الباهلي : ٤٨٣
 أبن حائل : ٢٨٠
 أبن عباس : انظر عبد الله بن عباس
 أبن مرجانة : انظر عبيد الله بن زياد
 أبن أبيه
 أبن مُفَرَّغ (الملقب) : ١١٥
 أبن مُلجَم : انظر عبد الرحمن بن ملجم المرادي
 أبو الأسود الدؤلي : ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٥
 أبو الأحرور السلسي : ٩٣
 أبو أمامة : ٧٦
 أبو بكر (رضي الله عنه) : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٨٧
 أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : ٢٥٦
 أبو بكرة : ١١٣
 أبو بلال الخارجي : ١٢٢
 أبو جعفر (المنصور) : ٩٩ ، ٢٤٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٠٠ ، ٣٢٥ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٧ ، ٥٢٠ ، ٥٢٣ ، ٥٢٦ ، ٥٢١
 أبو الجهم : ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٧
 أبو خنيد : ٥١٥
 أبو خراش : ٥٤
 أبو داود البكري : انظر خالد بن إبراهيم
 البكري
 أبو الدرداء : ٧٦

أبان بن حبة بن أبي ميمون : ١٨٧
 إبراهيم (عليه السلام) : ١ ، ٣ ، ١٧ - ١٩
 إبراهيم بن الأشتر : ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٢
 إبراهيم بن الخطاب العدوي : ٤٨١
 إبراهيم بن سلمة : ٤٧٨
 إبراهيم بن محمد بن طلحة : ٢٨٧
 إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : ٤٧٥ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٥٠٠ ، ٥٠٥ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ - ٥١٥ ، ٥٢٣
 إبراهيم بن هشام بن إسماعيل الخزومي : ٣٤٠
 إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك : ٣٥٥ ، ٣٦٠ - ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠
 الأورد بن قرة التميمي : ٢٣٠
 الأبرش الكلبي : ٣٢٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٩
 الأبرش بن الوليد : ٣٦٦
 ابن أبي العرصة الكندي : ٤٣٤ ، ٤٣٥
 ابن أبي عباس المرادي : ٩٨
 ابن أثال (الطبيب) : ١٣١
 ابن الأشعث : انظر عبد الرحمن بن محمد
 ابن بجدة : انظر حسان بن مالك
 ابن الحضرمي : ١٢٠ ، ٣٨٢
 ابن الزبير : انظر عبد الله بن الزبير

أبو دلف : انظر شيخان بن عبد العزيز
اليشكري
أبو ذر النفاري : ٤٢
أبو روية : ٣٠٨
أبو الزناد (الفقيه) : ٣٣٤ ، ٢٦٣ ، ٣٤١
أبو سعيد الحمداي : ٢٣٩
أبو سفيان بن حرب بن أمية : ١٩ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ١١٥ ، ١٥٨
٥٢٦ ، ١٨٧
أبو مسلمة الخلال : ٤٨٧ ، ٤٨٦ ، ٥١٣ ، ٥١٧
أبو صخر (الشاعر الحنلي) : ١٩٥
أبو الصيداء (مولى بني ضبة) : ٢٨٤ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ - ٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٦٨
أبو العاص : ١٧٠
أبو العباس (السجاس) : ٥١٣ - ٥١٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥
أبو عبيدة بن زياد بن أبيه : ٣٩٧
أبو حكرمة السراج : انظر أبو محمد الصادق
أبو حكرمة : ٤٨٠
أبو السرحس : ٣٢٤
أبو علاقة السكسكي : ٣٦٨
أبو علاقة القضاعي : انظر أبو علاقة السكسكي
أبو حون : انظر عبد الملك بن يزيد الأزدي
أبو فاطمة الإيادي الأزدي : ٤٤٢ ، ٤٣٥
أبو فديك الخارجي : ٤٠٧
أبو طليقة : ١٥٩
أبو كامل (أحد قواد الشيعة) : ٥١٠
أبو لؤلؤة : ١٠٩
أبو محمد السفياي : انظر زياد بن عبد الله
ابن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان
أبو محمد الصادق : ٤٧٨ - ٤٨٠

أبو مسلم الحراساني : ٢٧٩ ، ٤٦٣ - ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ، ٤٨٥
٤٨٦ ، ٤٩١ - ٥٠٩ ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٥٢١ ، ٥٢٣
أبو موسى : ٤٨١
أبو موسى الأشعري : ٤٥ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٤ - ٨٨ ، ١٠٣ ، ٣١٨
أبو النجم : ٤٨٢ ، ٤٩٢
أبو يحيى (مولى بني سلمة) : ٤٨٠
الأحنف بن قيس التميمي : ١٢٠ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ٣٨١ ، ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩٥
الأشطل (الشاعر) : ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩
أبو مراد : انظر عبد الرحمن بن ملجم المرادي
إدريس بن معقل العجلي : ٤٨٥
أرتابيل : ٢٢٣
أرميا (النبي) : ٣٠٥
إسحق بن محمد بن الأشعث : ٢٢٥
أسد بن عبد الله القسري : ٣١٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٤٣ - ٤٥١ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٨٠ - ٤٨٤
أسام بن زرعة الكلابي : ٣٩٦
أسماء بنت أبي بكر الصديق : ١٩٤
إسماعيل (عليه السلام) : ١٧
إسماعيل بن الأشعث : ٢٣٧ ، ٢٣٨
إسماعيل بن جرير بن عبد الله القسري : ٣٢٣
إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر : ٢٦٢ ، ٢٨٥
إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس : ٥١٣
إسماعيل بن عياش : ٢٨٠
إشبوشتا : ١٦٦
إشداد بن جرمجور : ٤٥٣

بدر طرخان : ٤٤٩
برمك : ٤٤٥
البريق بن عياض : ٥٤
بسر بن أوطاة : ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١١
بسطام الجبسى : ٣٧٣
بسطام بن مصقلة بن هيرة الشيبانى : ٣٣٩
بشر بن جرمول الفبسى : ٤٤٢ ، ٤٤٣
٤٦٢
بشر بن مردان : ٢٠١ ، ٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٠
بشر النصرانى : ٣١٤
بطرس الدمشق (الأسقف) : ٣٤٢
بطرس الميوسى : ٣٤٢
بكير بن حران : ١٤٤
بكير بن ماهان : ٤٨٠ ، ٤٨٣ ، ٤٨٧
بكير بن وشاح : ٣٩٩ - ٤٠٤
بلج بن بشر : ٣٣٢
بهراميس : ٤٥٣
بهلول بن بشر : ٣١٧ ، ٣١٩
بهاث بن سمعان : ٣١٧
بيلانوس : ٣١٦

(ب)

بهم بن نصر بن ميار : ٥٠٩

(ث)

ثابت بن قنبرة : ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٣٦ ، ٤٧٠
ثابت قنطرة الأزدي (الشاعر) : ٤٠٨ ، ٤١٥ ، ٤٣٥
ثابت بن نعيم الجناى : ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨
ثور بن معن بن يزيد بن الأخنس السلى : ١٦٩

أكرس بن عبد الله السلى : ٤٣٤ - ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٦
الأشعب : ١٥٩
الأشعث بن ذؤيب المدوى : ٤٠٠
الأشعث بن قيس الكنتى : ٨٠ ، ٩٩
أشيم بن شقيق : ٣٨٧ ، ٣٨٩
الأصمغ بن ذؤالة الكلى : ٣٦١ ، ٣٧٢
اصطفتان (الواهب) : ٣٣٥
أهدى همدان (الشاعر) : ٢٣٩ ، ٢٤٠
الأفشين : ٤٣٢
أفشين كاس : ٤٤٨
الأنعم : انظر يزيد بن هشام
الله (جل جلاله) : ٣٠٢ ، ٨ ، ١٠ ، ١٣
أمانة بن قنطرة : ٥١٠
أم أيوب بنت حمادة بن عقبة بن أبي معيط : ١٢١
أم حاصم بنت حاصم بن حمر بن الخطاب : ٢٥٩
أمين سلامة : ١٦٦
أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن العيص : ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧
أودو (قائد الفرنج) : ٣٢٩ ، ٣٣٠
أوس بن ثعلبة بن زفر : ٣٩٧ - ٣٩٩
أوكوبا : انظر عقبة بن الحجاج السلولى
إياس بن قتادة الهجاشى : ٣٩٠
أيوب بن أبي حسان : ٤٣٠
أيوب بن حران : ٣٨٤
أيوب بن سليمان بن عبد الملك : ٢٥٦

(ب)
بيته : ٣١١ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩١
بجير بن ورقاء الصرمى : ٤٠١ - ٤٠٤
بخار خذاه : ٤٥٩ ، ٤٥٢ ، ٤٨٢
البختوى بن أبي هدم البكرى : ٤٣٣ ، ٤٣٤

(ج)

- جابر بن وهب الراسبي : ١٢٠
 جارية بن قدامة : ٩٦ ، ٣٨٢
 الجايستار : ٩٠
 جعفر بن الحرثي : ٤٤٣ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨
 جبلة بن زحر : ٢٤٠
 جبلة بن مسروق : ٩٣
 الجحاف بن حكيم السلمي : ٢٠١ ، ٢٠٢
 جديع الكرماني الأزدي : ٤٤٤ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧
 ٤٥٩ - ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٥٠٢ ، ٤٩٦ ، ٤٦٥
 الجراح بن سنان : ١٠٢
 الجراح بن عبد الله الحكي : ٢٦٠ - ٢٦٢ ، ٢٨٤ ، ٤٢٧ ، ٣٠٩ ، ٤٢٨
 جرير (الباها) : ٢٨٩
 جرير (الشاعر) : ٢٤٩
 جرير بن سعيد بن قيس : ٢٣٩
 جرير بن عبد الله البجلي : ٧١
 جعفر بن أبي طالب : ٣٦٩
 جندب بن عبد الرحمن الحرثي : ٤٣٧ - ٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢
 الجهم بن صفوان : ٤٤١ ، ٤٦١
 الجوزجان بن الجوزجان : ٤٥٢
 جوسنيان (الثاني) : ٢٠٩ ، ٢١٠
- (ح)
- الحارث الأصغر الفسافي : ١٢٨
 الحارث بن بدر اللفداني : ١٢٤
 الحارث بن سريج : ٤٣٦ ، ٤٤١ - ٤٤٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٩ - ٤٦٤ ، ٤٧١ ، ٥٠٤ - ٥٠٧
 الحارث بن عبد الله الأزدي : ١١٢

- الحارث بن قيس : ٣٨٦
 حارثة بن بدر : ٢٩٠
 حباية (المغنية) : ٣١٣ ، ٣١٤
 حبيب بن عبد الله بن الزبير : ١٩٤
 حبيب بن المهلب : ٣٠٦ ، ٤٠٩
 الحفلات بن يزيد : ١٢٠
 الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل الثقفي :
 ٥٨ ، ١٠٧ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٦ - ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ - ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ - ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ - ٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ - ٣٢٢ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٧٢ ، ٤٠٧ - ٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٤٥٠ ، ٤٧٣ ، ٥٢٠
 حمور بن علي الكندي : ١١٠ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ٣٩٦ ، ٤٣٤
 حذيفة المدائني : ٧٨
 حرب بن حبان : ٤٨١
 الحر بن عبد الرحمن الثقفي : ٣٢٩
 حرث بن قلبة : ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٧٠
 حريش بن هلال القريني : ٤٠٠ ، ٤٠١
 حسان بن مالك بن بحيدل الكلبي :
 ١٦٧ - ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ٢٠٥
 حسان النبطي : ٢٤٤ ، ٣٢٠ ، ٣٢١
 الحسن البصري : ٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٧٥ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٨٩

(خ)

- خازم بن عزيمة القيسي : ٤٩٥ ، ٥٠٩
خاقان : ٣٠٩
خالد بن ابراهيم البكري (أبو داود) :
٤٨٢ ، ٤٩٤ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩
خالد بن برمك البلخي : ٥٠٩
خالد بن جرير بن عبد الله القسري : ٣٥٧ ،
٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦
٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ،
٣٥٠ ، ٣٧٢ ، ٤٣٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٨٥ ، ٥١٢ ، ٥١٥
خالد الخريت : أنظر خالد بن جرير بن
عبد الله القسري
خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد : ٣١٥ ،
٣١٩
خالد بن الوليد : ١٣١
خالد بن يزيد بن معاوية : ١٦٩ - ١٧١ ،
١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٠٠ ، ٢١٠ ، ٢١٥
خداش : ٤٧٧ ، ٤٨٢ - ٤٨٤ ، ٤٨٧ - ٤٩٠
خراهمرة : ٤٤٨
خراش بن جابر : ٣٧٤
الخريت بن راشد : ٨٠ - ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٤
محسرو بن يزيد جرد : ٤٣٦
الخيري : ٣٧٦

(د)

- داود (عليه السلام) : ١٦٦
داود بن سليمان بن عبد الملك : ٢٥٧

- الحسن بن شيخ : ٤٨١
الحسن بن علي بن أبي طالب : ٥٧ ،
٩٩ - ١٠٦ ، ١١٤ ، ١٧٨
الحسن بن علي بن الحسن (الأفطس) :
٥٠٤
الحسن بن قحطبة : ٥١٠ - ٥١٢ ، ٥٢٠ ، ٥٢١
الحسين بن علي بن أبي طالب : ١٠١ ، ١٣٦ ،
١٣٩ - ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ،
١٦١ ، ١٦٥ ، ١٧٨ ، ٣٨٣
الحسين بن قميم القمي : ١٥٦
الحسين بن مالك : ٣٩٥
الحسين بن نعيم السكوني : ١٤٧ ، ١٥٥ ،
١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٢
حطين بن المنذر البكري : ٤١٩
الحطيفة (الشاعر) : ١٣٤
حلف بن سليمان بن الخلال : أنظر أبو سلمة
الخلال
الحكم بن أيوب الثقفي : ٢٧٥
الحكم بن عمرو الغفاري : ٣٩٦
الحكم بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك :
٣٦١ - ٣٦٣
هجران بن أبان : ١١١
حزة بن عبد الله بن الزبير : ١٩٤
حميد بن حريث بن سعد : ١٩٧ - ٢٠١ ، ٢٠٤
حميد بن عبد الملك بن المهلب : ٣٠٥
حوشرة بن سهيل الباهلي : ٥١١ ، ٥١٢
حيان العطار : ٤٧٨
حيان النبطي : ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٥ ، ٤٧٠

٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥ ،

٢٤٦ ، ٣١٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،

٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٧٣ ،

زياد الأعجم (الشاعر) : ٤١٥

زياد بن عبد الرحمن القشيري : ٥٠٧

زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية ابن

أبي سفيان (أبو محمد) : ٣٤٧ ،

٣٥١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٨ ، ٥٢٥ ،

٥٢٦

زياد بن عمرو التنكي : ٣٨٩ ، ٣٩٠

زيد (ولي نصر بن سيار) : ٤٩٥

زيد بن ثابت : ٤٤

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب و

٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٠ ، ٣٧٠ ،

٤٧٣ ، ٤٧٦

زيبرا (أمة الأحنف بن قيس) : ٢٨٩

(س)

سالم الأعمى : ٤٨٠

سرجون بن منصور : ١٢٨ ، ١٢٩ ،

٢١٢

سعد بن أبي وقاص : ٢٩ ، ٤٠ ، ٨٤

سعد بن طارق الصرمي : ٣٩٠

سعد بن هبادة : ٨٩

سعيد بن جندل الشيباني : ٣٧٣

سعيد خديجة (خديجة) : ٤٢٨ ، ٤٢٩ ،

٤٧٩ ، ٤٨٠

سعيد بن العاص : ٤٥ ، ١٣٠

سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم ابن

أبي العاص : انظر سعيد خديجة

سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن صفان و

٢٩٩

سعيد بن عثمان : ٤٠٧

داود بن علي بن عبد الله بن عباس :

٥١٣ - ٥١٦ ، ٥٢٤

(ر)

الربيع بن زياد الحارثي : ٣٩٦

رجاء بن حيوة الكندي : ٢٠٩ ، ٢٥٦ -

٢٥٧ ، ٢٥٨

الرهيد (هارون) : ٥٢٣

روح بن زبائح الجذامي : ١٧٨ ، ٢٠٥

(ز)

زاذان فروخ بن بيري : ٢١١ ، ٢٢٧

زائدة بن قدامة : ١٩٢

الزبير بن العوام : ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٨ - ٤٥٣

٥٥ ، ١٢٩ ، ٢٦٦ ، ٣٠٠

زراذشت : ٤٦٩

زكريا بن الحارث الكلبي : ١٥٢ ، ١٦٧ ،

١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٠ ،

١٨١ ، ١٨٥ ، ١٩٦ - ١٩٩ ،

٢٠٥ ، ٣١١ ، ٥٢٥

الزكيلي : ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ - ٢٣٤ ،

٢٣٨ ، ٢٥٣ ، ٣٠٩ ، ٣٩٧ ،

٣٩٩ ، ٤١٤

زككييل الجني : ٢٢٣

الزهرى (الحداد) : ٣٣٤ ، ٣٤١

زهير بن قزيب المدني : ٤٠٠ ، ٤٠١

زياد (خال الوليد الأزرق) : ٤٨٠

زياد أبو محمد (مولى همدان) : ٤٨١ ،

٤٨٢

زياد بن أبيه : ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ،

١١٢ - ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ،

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٥٧ ،

سليمان بن يزيد بن عبد الملك : ٣٥٠
السمح بن مالك الخولاني : ٢٨٥ ، ٢٩٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦
سمرة بن جندب القزاري : ١٢٢ ، ١٢٥
السميدع الكنسي : ٣٠٨
سمية (أم زياد) : ١١٣
سورة بن الحر القمي : ٤٣٧ ، ٤٣٨
سولون : ٢٢

(ش)

شارل مارلل (قارلة) : ٣٣٠
شاه أفريد بنت فيروز بن يزديجرد بن شهريار
ابن كسرى (أم يزيد بن الوليد) :
٤٦٠
شارل (ملك اليهود) : ٨ ، ١٦٦
شيث بن ربي الرياحي : ٧٨ ، ٨٠
شبيب بن يزيد : ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٤٠ ، ٢٧٣
شريح بن هاني الحارثي : ٨٤
شريك بن الأحمور الحارثي : ١٢٢
الشهمي (القاضي) : ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٦٣
شحاس بن دثار المطاودي : ٣٩٩ ، ٤٠٠
شير بن ذي الجوشن : ١٥٦
شغل الألماني (الدكتور) : ١٤
شهبان بن سلمة الحارثي : ٣٧٩ ، ٤٦٥ ، ٤٧٣ ، ٥٠٠ ، ٥٠٨
شهبان بن عبد العزيز البشكري : ٣٧٧ ، ٣٧٩

(ص)

صالح بن طريف : انظر أبو الصبيح
صالح بن عبد الرحمن : ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٥٨ ، ٢٥١

سميد بن عمرو الحرشي : ٣١٠ ، ٣١١ ، ٤٢٩ - ٤٣٢
سميد بن مالك بن بحدل الكلبي : ١٦٧
سميد بن المسيب : ٥٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
سميد بن هشام بن عبد الملك : ٣٦٧ ، ٣٦٨
سفيان بن الأبرد الكلبي : ١٦٩ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠
سفيان بن حوف : ٩٥
سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب : ٥١٢
سكينة (السيدة حفيدة الرسول) : ١٥٩
سلامة (المنقية) : ٣١٣
سلم بن أحمر القمي : ٤٩٧
سلم بن زياد : ١٦٦ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٧ ، ٤٠٧ ، ٤٢١
سلم بن قتيبة الباهل : ٥١٢
سلمة بن ذؤيب القمي : ٣٨٥ ، ٣٨٨
سليمان بن حبيب : ٣٧١
سليمان بن سعد : ٢١٢
سليمان بن سلم الكلبي : ٣٥٤
سليمان صرمد : ١٨١
سليمان بن عبد الملك : ٢١٧ ، ٢٤٩ - ٢٥١ ، ٢٥٣ - ٢٦١ ، ٢٧٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٢٩ ، ٣٤٧ ، ٣٨١ ، ٤١٧ - ٤٢٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٩
سليمان بن حنيفة : ٢٨٠
سليمان بن حل بن عبد الله بن عباس : ٥١٤ ، ٥٢٥
سليمان بن كثير : ٤٨٢ - ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ - ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٥٠٠ ، ٥١٧
سليمان بن مرثد البكري : ٣٩٧ ، ٣٩٨
سليمان بن هشام بن عبد الملك : ٣٢٧ ، ٣٤٠ ، ٣٦١ - ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٥٢٥ ، ٥٢٢ ، ٣٧٩

عاموس (النبي) : ٢ : ٢٠٢
عائشة بنت أبي بكر (أم المؤمنين) : ٤٠٠

٩٣ : ٥٥ : ٥٢ : ٥٢

عائشة بنت عثمان بن صفان : ١٥٧

عباد بن حصين : ٢٢٧ : ٣٨٩

عباد بن زياد بن أبيه : ٣٩٦

العباس بن الوليد بن عبد الملك : ٣٤٧

٣٦٥ : ٣٥١ : ٣٤٩

عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي : ٢٦١

٢٩٣ : ٢٩٢ : ٢٦٣

عبد الرحمن بن أبي بكر : ١٣٦ : ١٣٩

١٤٠

عبد الرحمن بن أبي ليلى : ٢٢٨

عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي : ١٢٥

عبد الرحمن بن الحكم : ١١٥ : ١٨٦

عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الخزاعي

١٣٠ : ١٣١

عبد الرحمن بن زياد بن أبيه : ٣٩٦

عبد الرحمن بن العباس الهاشمي القرشي :

٢٢٨ : ٢٣٢ : ٢٣٩

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي : ٢٢٩

٣٣٠

عبد الرحمن بن عبد الله القشيري : ٤٢٨

عبد الرحمن بن هديس البلوي : ٤٩

عبد الرحمن بن عوف : ٤٠ : ٥١

عبد الرحمن بن قطن الفهري : ٣٣٠

عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : ٢٢٤

٢٢٦ - ٢٤٢ : ٢٤٤ : ٢٤٦

٢٥٢ : ٢٧٥ : ٢٩١ : ٣٠٩

٣١١ : ٤٠٥ : ٤٠٨

عبد الرحمن بن ملجم المرادي التجوي :

٩٨ : ٩٩

عبد الرحمن بن موسى بن نصير : ٢٥٢

عبد الرحمن بن نعيم الغامدي : ٤٢٨

صالح بن علي بن عبد الله بن عباس : ٥١٣

٥١٩

صبرة بن شيخان الخدافي : ١٢٠ : ١٢١

٣٨٢

الصمغاني بن شبيب : ٣١٧

صمصمة بن حرب العوفي : ٤٠٤

صفية (روضة عبد الله بن عمر) : ٢٤٢

الصلت بن حريث الحنفي : ٣٨٨

صموئيل (ملك اليهود) : ٨

صول التركي : ٤٢٤

(ض)

الضحاك بن قيس الفهري : ٩٥ : ١٢٥

١٣٦ : ١٣٩ : ١٦٧ - ١٧٧

٣٧٣ - ٣٧٦

(ط)

طارق بن عمرو : ١٩٣

الطرماح : ٤١٥

طلحة بن الزبير : ٤٥٠ : ٤٤٤ : ٤٨٠ : ٥١٠

٢٩٩ : ٢٦٦ : ١٢٩ : ٥٥ : ٥٣

طلحة بن زريق الخزاعي (أبو منصور) :

٤٨٢ : ٥٠٣

طلحة الطلمحات الخزاعي : ٣٩٧

(ع)

عائكة بنت يزيد بن معاوية : ٢١٥ : ٣٠٢

عاصم بن عبد الله الحلال : ٤٤٣ : ٤٤٤

٤٤٤

عاصم بن يونس المعجل : ٤٨٥

عامر الشعبي : أنظر الشعبي القاضي

عامر بن ضبارة المري : ٣٧٨ : ٣٧٩

٥١٠

- عبد الله بن عبد الأعلى الشيباني (القوى) :
٣٣٧
- عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس :
٥١٢ ، ٥١٩
- عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك :
٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٣
- عبد العزيز بن مروان : ١٤٦ ، ١٧٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٥٩ ، ٣١٠
- عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك : ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨
- عبد الله بن بديل بن ورقاء : ٧٦
- عبد الله البطلان : ٣٢٨
- عبد الله بن الجارود : ٢٣٦
- عبد الله بن الحارث بن لوئلي بن الحارث
أبو عبد المطلب : انظر إليه
- عبد الله بن حفظة الأنصاري : ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣
- عبد الله بن عازم السلمى القهبي : ٦٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨
- ٤١٩
- عبد الله بن عاتق بن أسيد : ١٢٥
- عبد الله بن جناب بن الأرت : ٧٩
- عبد الله بن الزبير : ٨٤ ، ٩٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٢١ ، ٢٤٨ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٨٦
- عبد الله بن زياد بن أبيه : ٣٨٦
- عبد الله بن سبأ (ابن السوداء) : ٤٣ ، ٤٤٨ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧
- عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ٤٥ ، ٤٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠
- عبد الله بن عامر الأسي القريشي : ١١١ ، ١١٢ ، ٣٨٧ ، ٣٩٤ ، ٤٠٧
- عبد الله بن عباس : ١٨ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤
- عبد الله بن عبد الملك بن مروان : ٢٢٩
- عبد الله بن عطاء الأشعري : ١٤٦ ، ١٤٧
- عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس :
٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٩ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥
- عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٨١ ، ٨٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٤٢ ، ١٧٨ ، ٢٠٢
- عبد الله بن عمر بن عبد العزيز : ٣٥٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨
- عبد الله بن عمرو بن حرب الكندي : ٤٧٦
- عبد الله بن عمرو بن الحصري : ٩٥
- عبد الله بن عمرو بن هيلان : ١٢٥
- عبد الله بن الكواء البشكري : ٧٨
- عبد الله بن محمد بن الحنفية (أبو هانم) :
٤٧٦ ، ٤٧٧
- عبد الله بن محمد بن علي بن عباس :
(أبو العباس) : ٥١٣
- عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس :
انظر أبو جعفر المنصور
- عبد الله بن مروان بن محمد : ٣٦٦ ، ٣٧٦
- عبد الله بن مسعدة القرظي : ٩٥ ، ١٤٦
- عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :
ابن أبي طالب : ٣٦٩ ، ٣٧١

١٥٦ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧١ - ١٧٥
 ١٨١ - ١٨٣ ، ١٩٢ ، ٢٠٣
 ٢١٣ ، ٢٨٣ - ٢٨٩ ، ٢٩١
 ٢٩٢ ، ٣٩٦ ، ٤٠٧ ، ٤٢١
 عبيد الله بن زياد بن عليان البكري : ١٨٥ :
 ١٨٠ ، ١٩٢
 عبيد الله بن عباس : ١٠٢ - ١٠٦
 عبيد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس القرشي :
 ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩
 عبيد الله بن كعب الغفيري : ١٣٥ ، ١٣٨
 عبيد الله بن مروان بن محمد : ٢٦٦
 عتاب بن ورقاء القيبي : ١٩٢
 عتبة بن غزوان : ١٠٩
 عثمان بن سعيد الكرماني : ٥٠٧ ، ٥٠٩
 عثمان بن حيان المري : ٢٤٣
 عثمان بن حسان (رضي الله عنه) :
 ٣٩ - ٥٣ ، ٥٥ - ٥٧ ، ٥٩
 ٦١ ، ٦٢ ، ٧٠ - ٧٢ ، ٧٧ - ٨٤ ، ٩٠
 ٩٢ - ٩٤ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٩
 ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٥٢
 ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٧٠ ، ١٨٠
 ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٢٩ ، ٢٥٦
 ٢٧٨ ، ٢٧٩ - ٢٨١ ، ٢٨٨
 ٢٩١ ، ٣٠٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٦ - ٣٩٨
 ٤٧٥ ، ٥٥٢
 عثمان بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك :
 ٣٦١ - ٣٦٣
 عدي بن أرطاة الفزاري : ٢٦١ ، ٢٦٢
 ٣٠٣ - ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٤٢٢
 عروة بن المقبرة : ١٣٥
 عروة بن هاني المرادي : ١٤٤
 عطية التغلبي : ٢٧٤
 عقبة بن الحجاج السلولي : ٣٣٠ ، ٣٣١
 عقبة بن زرة : ٢٦٢
 عقيبة اليهودي : ٤٥٣

٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٤٦٣
 ٤٧٤ ، ٥١٠ ، ٥١٤
 عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي : ٧٩
 عبد الله بن يزيد : ٢٨٠
 عبد الله بن يزيد بن معاوية : ١٦٩ ، ١٧٨
 عبد الملك بن الأحمم : ٤١٧ ، ٤١٩
 عبد الملك بن دينار الباهلي : ٤٣٦
 عبد الملك بن عبد الله بن حامر : ٣٩١
 عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف
 الثقفي : ٣٤١
 عبد الملك بن مروان (الخليفة) : ٩٥
 ١٠٧ ، ١٢٨ ، ١٤٦ ، ١٥٣
 ١٥٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ - ١٨٨
 ١٩٠ - ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧
 ١٩٩ - ٢٠٢ ، ٢٠٤ - ٢٢٠
 ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩
 ٢٣٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦
 ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩
 ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩
 ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٢ ، ٣٣٥
 ٣٥٧ ، ٣٦٥ ، ٣٦٤ ، ٤٠١
 ٤٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٧٥ ، ٤٢٦
 عبد الملك بن مروان بن محمد : ٢٥٩
 عبد الملك بن المهلب : ٤٠٩
 عبد الملك بن يزيد الأزدي (أبو عون) :
 ٥٠٩ ، ٥١٨ - ٥٢٠
 عبد المؤمن بن شيب بن ربيع : ٢٣٩
 حودة بن رباح النساني : ٣٥٩
 عبد الرحاب بن إبراهيم بن محمد بن حل
 ابن عبد الله بن عباس : ٥١٣
 حوس بن طلق الصريمي : ٣٨٩
 حبيب الله بن أبي بكرة : ١١٣ ، ٢٢٣
 ٢٣٨
 عبيد الله بن الحر الجعفي : ١٨٥
 عبيد الله بن زياد بن أبيه : ١٢٢ ، ١٢٥
 ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤

عقيل بن أبي طالب : ٧٧
 علقمة النخعي : ٧٨
 علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) : ٧٧
 ٣٨ : ٤٠ ، ٤٣ - ٤٦ ، ٤٨
 ٥١ - ٥٧ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤
 ٧٠ - ٧٤ ، ٧٦ - ٨٢ ، ٨٤
 ٩٩ ، ١٠١ - ١٠٦ ، ١١٠
 ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٠
 ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٨
 ٢٨٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣٥٠
 ٣٦٩ ، ٣٨٢ ، ٣٩٥ ، ٤٧٤
 ٤٩١ ، ٥١٦ ، ٥٢٧
 حل بن جندب الكرماني : ٤٦٥ ، ٤٩٦
 ٤٩٧ ، ٥٠٠ - ٥٠٢ ، ٥٠٧ - ٥٠٩
 حل بن الحسين بن حل بن أبي طالب : ١٥٢
 ١٥٨
 حل بن عبد الله بن عباس : ٤٧٥ ، ٤٧٦
 ٥٤٣ ، ٥١٨ ، ٥٢٣
 حمار البهادي : ٤٨٠
 حمار بن ياسر : ٧٦ ، ٧٨ ، ١٠٩
 حمار بن تميم النخعي : ٢٣١ ، ٢٣٢
 حمار بن حريم : ٤٣٩
 حمار بن حنيفة بن أبي ميثم : ١٢١
 حمار بن يزيد : النظر خدافي
 حمر بن أبي ربيعة : ٣١٩
 حمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : ٢٣ ، ٢٦
 ٢٩ - ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٣
 ٥٦ ، ٥٤ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٨٥
 ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٤١ ، ١٥٧
 ٢٠٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ -
 ٢٩٧ ، ٣٩٩ ، ٣٢٠ ، ٢٧٤
 ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
 ٢٨٦ - ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٢
 ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٣٥ ، ٣٨١
 حمر بن شبة : ١٢٢ ، ٢٢٠
 عمرو بن عبد العزيز : ٢٠٨ ، ٢١٦
 ٢١٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠
 ٢٥٥ - ٢٦٤ ، ٢٧١ - ٢٧٣
 ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ -
 ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٦
 ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٧
 ٣٥١ - ٣٥٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦
 ٤٢٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩ - ٤٤١
 ٤٥٥ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣
 عمرو بن هيرة الفزاري القيسي : ٢٩١
 ٢٦٢ ، ٣١٠ - ٣١٢ ، ٣١٤
 ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٤١ ، ٤٣١ -
 ٤٣٣
 عمرو بن الوضاح : ٣٥٨
 عمرو بن الحريث : ١٨٨
 عمرو بن الزبير : ١٤٨
 عمرو بن سعيد بن العاص : ١٤٢ ، ١٤٥
 ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٧٠ -
 ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٩ ، ١٨١
 ١٨٤ - ١٨٦
 عمرو بن سعيد بن مرزبان : ٢١٤
 عمرو بن العاص : ٤٣ ، ٤٥ ، ٧١
 ٧٢ ، ٧٤ ، ٨٤ - ٨٧ ، ٩٠
 ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠١
 ١٢٩ ، ١٣١
 عمرو بن عثمان بن عفان : ١٥٣ ، ١٥٨
 عمرو بن مرثد : ٣٩٨
 عمرو بن مسلم الباهلي : ٢٦٢ ، ٤٢٠
 ٤٣٣
 عمرو بن يزيد الحكيم : ١٦٩ ، ٣٠٥
 عمير بن الحباب : ١٧١ ، ١٨٢ ، ١٨٧
 ١٩٧ - ١٩٩ ، ٢٠١
 حميرة الليثكري : ٤٣٤
 حمزة بن سميع الكلبي : ٣٢٩
 حوف بن كعب : ٤٠٤
 (٣٥ - الدولة العربية)

عقيل بن أبي طالب : ٧٧
 علقمة النخعي : ٧٨
 علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) : ٧٧
 ٣٨ : ٤٠ ، ٤٣ - ٤٦ ، ٤٨
 ٥١ - ٥٧ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤
 ٧٠ - ٧٤ ، ٧٦ - ٨٢ ، ٨٤
 ٩٩ ، ١٠١ - ١٠٦ ، ١١٠
 ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٠
 ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٨
 ٢٨٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣٥٠
 ٣٦٩ ، ٣٨٢ ، ٣٩٥ ، ٤٧٤
 ٤٩١ ، ٥١٦ ، ٥٢٧
 حل بن جندب الكرماني : ٤٦٥ ، ٤٩٦
 ٤٩٧ ، ٥٠٠ - ٥٠٢ ، ٥٠٧ - ٥٠٩
 حل بن الحسين بن حل بن أبي طالب : ١٥٢
 ١٥٨
 حل بن عبد الله بن عباس : ٤٧٥ ، ٤٧٦
 ٥٤٣ ، ٥١٨ ، ٥٢٣
 حمار البهادي : ٤٨٠
 حمار بن ياسر : ٧٦ ، ٧٨ ، ١٠٩
 حمار بن تميم النخعي : ٢٣١ ، ٢٣٢
 حمار بن حريم : ٤٣٩
 حمار بن حنيفة بن أبي ميثم : ١٢١
 حمار بن يزيد : النظر خدافي
 حمر بن أبي ربيعة : ٣١٩
 حمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : ٢٣ ، ٢٦
 ٢٩ - ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٣
 ٥٦ ، ٥٤ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٨٥
 ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٤١ ، ١٥٧
 ٢٠٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ -
 ٢٩٧ ، ٣٩٩ ، ٣٢٠ ، ٢٧٤
 ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
 ٢٨٦ - ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٢
 ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٣٥ ، ٣٨١
 حمر بن شبة : ١٢٢ ، ٢٢٠

(ق)

قارله : انظر شارل مارتل

قبصة بن جابر الأسدي : ١٣٣

قبة بن مسلم الباهل : ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢

٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧

٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢

٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧

٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢

٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧

٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢

٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧

٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢

٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧

٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢

٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧

٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢

٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧

٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢

٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧

٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢

٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧

٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢

٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧

٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢

٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧

٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢

٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧

٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢

٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧

٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢

٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧

٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢

٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧

٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢

٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧

٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢

٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧

٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢

٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧

٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢

حريج الطائي (الشاعر) : ٢٠٤

حيات بن مسلم : ٣٣٩

حيي بن حل بن عبد الله بن عباس : ٥١٣

٥١٤

حيي بن مصعب : ١٩٢

حيي بن مقل المجل : ٤٨٥ ، ٤٨٦

حيي بن موسى بن محمد بن حل بن عبد الله

ابن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

حيي بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

(غ)

غالب (من أهل نيسابور) : ٤٨١

غزوك (الأشيد) : ٤١٤ ، ٤٣٥

٤٣٦

(ف)

فاغحة (أرملة يزيد بن معاوية) : ١٧٢

١٧٩

فاغحة بنت يزيد بن المهلب : ٤٣٩

فاطمة بنت النبي عليه السلام : ٣٨

٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨١

٤٨٩

الفرزدق : ١٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦

٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩

٤١٥

فروة بن نوفل : ٨٠

الفصل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن

عبد المطلب : ١٥٤

فيروز حسين : ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٩

فيروز قول : ٤٢٤

فيلكان اسكوياد : ١٠٩

(ك)

كاوندنج (صاحب مدينة قم) : ٤٢٩

٤٣٠

كثير (من أهل الكوفة) : ٤٨٢

الكرمان (بن حل) : انظر جديع الكرماني

كسرى أنوشروان : ٧١٣ ، ٧١٤

كسرى برويز : ٢٤٤

كسرى قباد : ٢٤٤

كعب الأشعري الأزدي (الشاعر) : ٤٠٨

٤١٥

كعب بن جميل : ٧٨

٤ ٥١ ٤ ٤٨ ٤ ٤٥ — ٤٣ ٤ ٣٩
 ٤ ٦٤ — ٦٢ ٤ ٦٠ ٤ ٥٩ ٤ ٥٤
 ٤ ١٠٧ ٤ ٩٧ ٤ ٨٤ ٤ ٧٨ ٤ ٧٦
 ٤ ١٤٢ ٤ ١٣٤ ٤ ١١٥ ٤ ١٠٨
 — ١٥٦ ٤ ١٥٤ ٤ ١٥٠ ٤ ١٤٧
 ٤ ٢١١ ٤ ٢٠٧ ٤ ١٧٨ ٤ ١٥٨
 ٤ ٢٧٣ ٤ ٢٦٧ ٤ ٢٦٦ ٤ ٢٥٩
 ٤ ٢٨٤ ٤ ٢٨٠ ٤ ٢٧٧ ٤ ٢٧٦
 ٤ ٣٠٥ ٤ ٢٩٧ ٤ ٢٩٢ ٤ ٢٩١
 ٤ ٣٤٢ ٤ ٣٢٦ ٤ ٣٢٠ ٤ ٣٠٨
 ٤ ٣٦٩ ٤ ٣٥٨ ٤ ٣٥١ ٤ ٣٥٠
 ٤ ٤٢٨ ٤ ٣٩٨ ٤ ٣٨٧ ٤ ٣٨٣
 ٤ ٤٨٢ ٤ ٤٧٥ ٤ ٤٧٤ ٤ ٤٤٩
 ٤ ٤٩٦ ٤ ٤٩١ ٤ ٤٨٩ ٤ ٤٨٨
 ٥٠٣ — ٥٠٢ ٤ ٥٠١ ٤ ٥٠٠

محمد بن إبراهيم بن محمد بن حل بن عبد الله

أبن عباس : ٥١٣

محمد بن أبي بكر : ٤٦ ٤ ٥٠ ٤ ٨٩
 ٩٤ — ٩٢ ٤ ٩٠

محمد بن أبي حذيفة : ٤٥ ٤ ٤٦ ٤ ٧٢
 ٨٧ ٤ ٨٨ ٤ ٩٠ ٤ ٩١ ٤ ٩٤

محمد بن أبي سفيان : ١٤٩

محمد بن الأشعث : ١٤٣

محمد بن الحنفية : ٤٧٦ ٤ ٤٧٧

محمد بن خالد بن عبد الله القسري : ٥١٢

محمد بن حنيس : ٤٧٨ ٤ ٤٨٠

محمد بن زريق : ٢٨٠

محمد بن السائب الكلبي : ٢٣٩

محمد بن سعد بن أبي وقاص : ٢٣٩

محمد بن سعيد الكلبي : ٣٥٤

محمد بن عبد الله بن خازم : ٣٩٩ ٤ ٤٠٠

محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : ٣٢٤

٤٧٥ — ٤٨١ ٤ ٤٨٣ ٤ ٤٨٤

٤٨٦ — ٤٩٠ ٤ ٥١٣ ٤ ٥١٥

كلثوم بن عياض القسري : ٣٢٣

٣٢٦ ٤ ٣٢٤

الكنيت (الشاهر) : ١٣٣ ٤ ٣١٧

٤١٥ ٤ ٤٧٧

كنانة بن بشر التميمي : ٩٣ ٤ ٥٠

كثير بن زهر بن الحارث : ٢٠٥ ٤ ٣١١

كور صول الترقى : ٤٤٨ ٤ ٤٥٢

كوسنانس (الهرقل) : ٤٦ ٤ ٩٥

(ل)

لاهر بن قريظ : ٤٨٢ ٤ ٤٨٣ ٤ ٤٨٥

لوزريق : ٣٣١

ليو (قيصر الروم) : ٢٨٩ ٤ ٣١٤

(م)

مابر جسدان (القدس) : ٤٥٤

مالك بن آدم : ٥١٠

مالك الأشتر : ٤٥ ٤ ٥٢ ٤ ٧٣ ٤ ٧٤

٧٦ ٤ ٧٧ ٤ ٨٩ ٤ ٩٠ ٤ ٩٢

٩٤ ٤ ١٣١ ٤ ٣٠٩

مالك بن مسمع : ٣٨٧ — ٣٨٩

مالك بن هيرة : ١٧١

مالك بن الحارث الخزاعي : ٤٨٢ ٤ ٤٨٣

٤٨٥ ٤ ٤٩٥ ٤ ٥٠٦ ٤ ٥٢١

الأمون (الخليلة) : ٢٠٦

ماني : ٢٨٩

ماه افريدون : ٣٨٨ ٤ ٣٨٩ ٤ ٣٩٢

ماهوش : ٢٢٤

ماهويه : ٣٩٥

المثنى بن همران : ٣٧٧

مجزاة بن كوثر (أبو الورد) : ٥٢٥

محارب بن موسى : ٣٧١

محمد (صل الله عليه وسلم) : ١ — ١٣

١٥ — ٢٥ ٤ ٢٨ — ٣٦ ٤ ٣٨

محمد بن عمرو بن حزم : ٢٥٦
 محمد بن عمرو بن عطار : ٢٢٠
 محمد بن القاسم الثقفي : ١٠٨ ، ٢٤٤ ،
 ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
 محمد بن مروان بن الحكم : ١٨٦ ، ١٩٢ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢٢٩ ، ٣٥٧ ،
 ٣٦٠
 محمد بن المهلب : ٣٠٣
 محمد بن هشام بن إسحاق الهذلي : ٣٤٠
 محمد بن هشام بن عبد الملك : ٣٣٥
 محمد بن يزيد (مولى الأنصار) : ٣١٣
 محمد بن يوسف الثقفي : ٢٨٧ ، ٣٠٢
 المختار الثقفي : ٦٤ ، ١٠٨ ، ١٨١ ،
 ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
 ٢١٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٩ ، ٣٩٣ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧ ،
 ٤٧٨
 محمد بن يزيد بن المهلب : ٤٢٤
 مرداشاه بن زاذان فروخ : ٢١١
 المرزبان (من أهل مر) : ٤٢٢
 المرزبانة (زوجة نصر بن سيار) : ٤٥٤
 مروان بن الحكم : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٨ ،
 ٩١ ، ١١٥ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ،
 ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،
 ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ،
 ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،
 ١٧٠ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ٢٠٦ ،
 ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٨٧ ، ٥٢٦
 مروان بن محمد (الخليفة) : ٣٢٨ ، ٣٥٣ ،
 ٣٥٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٩ ،
 ٤٥٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٩١ ،
 ٤٩٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ،
 ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥٢١ ،
 ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦
 مروان بن المهلب : ٣٠٥

مريم (السيدة) : ٩٧ ، ١٢٨
 مزدك : ٤٨٩
 المستورد بن علفة التميمي الخارجي : ١١٠ ،
 ١١١
 مسعر بن فديك التميمي : ٧٩
 مسعود بن عمرو العتكي الأزدي : ٢٠٣ ،
 ٣٨٦ ، ٣٩٢
 مسلم بن ذكوان : ٣٥٨
 مسلم بن سعيد بن أسلم الكلبي : ٤٣٢
 مسلم بن عبد الرحمن الباهل : ٥٠٧
 مسلم بن عقبة المري : ١٣٩ ، ١٥٢ ،
 ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧٥
 مسلم بن عقيل بن أبي طالب : ١٤٣ ،
 ١٤٤
 مسلم بن عمرو الباهل البصري : ٤٠٩
 مسلمة بن عبد الملك : ٢٤٤ ، ٢٦٢ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ،
 ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٨ ،
 ٣٥٧ ، ٥١١
 مسلمة بن مخلد الأنصاري : ٨٨ ، ٩٢
 مسلمة بن هشام بن عبد الملك : ٣٣٨ ، ٣٤٠
 المسيح (عليه السلام) : ٢ ، ٢١٠
 المسيح (الدجال) : ٥٢٦
 مصعب بن الزبير : ١٨١ ، ١٨٨ ،
 ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ،
 ٢١٨ ، ٢١٩
 مطر بن لائحة التميمي : ٢٢٨
 معاوية بن أبي سفيان : ٢٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ،
 ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ،
 ٥٥ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٩ ، ٧٤ ،
 ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،
 ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ،
 ١٢٥ ، ١٢٢ ، ١٥٠ ، ١٥٩ ،
 ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ،
 ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٠

المهدي (الخليفة) : ٣٠٠
 المهدي المنتظر : ٥٢٦
 المهلب بن أبي صفرة الأزدي : ١٩١ ، ٦٥
 ٣٠٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣
 ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٨
 ٢٩٣ ، ٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥
 ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٧ ، ٤٥٩
 موسى بن داود بن علي بن عبد الله ابن
 عباس : ٥١٣ ، ٥١٤
 موسى السراج : ٤٨٥
 موسى بن عبد الله بن عازم : ٢٤٢ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٤ - ٤٠٦ ، ٤٠٩
 ٤١٠
 موسى بن كعب التميمي : ٤٨٢ ، ٤٨٣
 ٤٩٦
 موسى بن المغيرة : ١٣٥
 موسى بن نصير : ٢٥٢ ، ٢٨٦
 مولود البربري : ٣٢٩
 ميسرة الصنبري : ٣٣١ ، ٤٧٨ - ٤٨٠
 ٤٨٧

(ن)

الغاية (الشاعر) : ١١ ، ١٢٨
 نائل بن قيس الجذامي : ١٦٧ ، ١٦٩
 ١٧٢ ، ١٨٢
 ناطقة اللبي : ١٦٨
 نائلة الكلبي (أرملة حنان رضي الله عنه) :
 ٥٠ ، ٧٠ ، ١٢٧
 نباتة بن حنظلة الكلبي : ٣٧٩ ، ٤٥٠٩
 ٥١٠
 النجاشي (الشاعر) : ٧٦
 نجيعة بن حامر الخارجي : ١٦٢ ، ١٩٥
 نصر بن سيار الكثاني : ٦٩ ، ٢٧٢
 ٣٣٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧

٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٤
 ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٤٤ - ٢٤٦
 ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩
 ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
 ٣٣٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧
 ٣٩٦ ، ٤٧٤ ، ٥٢٣ ، ٥٢٦
 ٥٢٧
 معاوية بن حديج السكوني الكتني : ٨٩ ،
 ٩٢ ، ٩٣
 معاوية السككي القضاي : ٣٦٨
 معاوية بن هشام بن عبد الملك : ١٣٣ ،
 ٢٢٧
 معاوية (الثاني) بن يزيد : ١٦٦ - ١٦٩
 ١٧٣ ، ١٧٨
 معاوية بن يزيد بن المهلب : ٢٥١ ، ٣٠٩
 معقل بن سنان الأشجعي : ١٥٤ ، ١٥٧
 معقل بن عمرو : ٣١٩ ، ٣١١ ، ٤٣١
 معقل بن قيس التميمي : ٨١
 المغيرة بن حبياء التميمي (الشاعر) : ٤١٥
 المغيرة بن زياد بن أبيه : ١٢١
 المغيرة بن سعيد (الشاعر) : ٣١٧
 المغيرة بن ثمة : ١٠٢ ، ١٠٦ - ١١٥ ،
 ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥
 ١٣٨
 المغيرة بن عبد الله الثقفي : ٢٠٣
 المغيرة بن المهلب : ٤٠٦ ، ٤٠٩
 مقاتل بن حيان النبطي : ٤٠٩ ، ٤٦١ ،
 ٤٧٠ ، ٥٠٧
 المنذر بن أسد بن جبر بن عبد الله القسري :
 ٢٢٣
 منصور بن جمهور الكلبي : ٣٤٧ ، ٣٥٣
 ٣٥٤ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤
 ٣٧٧ - ٣٧٩
 منصور بن هرم بن أبي النضر : ٤٥٣ ،
 ٤٥٤

الحميم بن الأسود : ٣٩١
الحميم بن عبد الكافي : ٣٢٩
الحميم بن وائل : ٢٥٦

(و)

واصل بن عمرو القيسى : ٤٥٢ ، ٤٥١
وجه القيس : ٣٥٠
وزير السجستاني : ٣١٧
وكيع بن الحسن بن أبي الأسود : ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣
وكيع بن الدورقية : ٤٠١ ، ٤٠٢
ولادة بنت عباس القيسى : ٢١٨
الوليد (ابن أخي الأبرش الكلبي) : ٣٤٩

الوليد الأزرق : ٤٨٠

الوليد بن عبد الملك : ٢٠٦ - ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٤٣ - ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ - ٢٦١ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٣٥٧ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٧٥
الوليد بن عتبة بن أبي سفيان : ١١١ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٦٨ ، ١٦٩

الوليد بن عتبة بن أبي معيط : ٧١

الوليد بن مسلم : ٢٨٠

الوليد بن يزيد بن عبد الملك : ٣٠٢ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٣٧ - ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ - ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٤٥٧ - ٤٥٩ ، ٤٩١ ، ٥٢٦

٣٥٥ ، ٣٨٩ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٨ ، ٤٤٩ - ٤٦٦ ، ٤٩١ ، ٤٩٤ - ٤٩٧ ، ٥٠٠ - ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ -

٥١٠

النفسر بن أنس بن مالك : ٣٠٦

النفسر بن سعيد الخزازي : ٣٧٢ ، ٣٧٤

النفسر بن صبيح المري : ٥٠٧

النعمان بن بشير الأنصاري : ٧٠ ، ٩٥ ، ١١١ ، ١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٤٦ -

١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٦٧ ، ١٧٢

نعمان بن سفيان الراسبي : ٣٨٧

نهاد بن قوسمة الكري (الشاعر) : ٤١٥

نوح بن دراج : ٢٧٥

ليثك (الطرخان) : ٤١٤ ، ٤٤٧

(ه)

هاشم بن عتبة : ٧٦

هذيل بن زفر بن الحارث : ١٨٧ ، ٢٠٥

٣٠٣ ، ٣١١

هشام بن إسماعيل الخزوي : ٢٠٨ ، ٢١٦ ، ٢١٥

هشام بن عبد الملك : ٣٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٩ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ - ٣٢٩ ، ٣٣١ - ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ ، ٤٤٩ - ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٥١٥ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥

هضاب بن طوق : ٢٨٠

هيان بن حدي السدوسي البكري : ٢٢٤

هند بنت أبي سفيان : ٣٨٧

هند بنت معاوية بن أبي سفيان : ١١٢

هوفان فون فائزليين : ١٤

٣١٠ ، ٣١٢ - ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣١٠

٣٢٧ ، ٣٤٧ ، ٣٤٦ ، ٣٢٩ ، ٣٢٧

٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٧٩ ، ٣٣١

يزيد بن عمر بن هيرة الفزاري : ٣٤٣

٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩

٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١١

٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥٢٠ ، ٥٢١

يزيد بن قيس الأرحسي : ٧٨

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان : ٢٦

٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٣ ، ١١٠

١١٢ ، ١١٥ ، ١٢٧ ، ١٢٩

١٣٣ - ١٤١ ، ١٤٥ - ١٥٤

١٥٦ - ١٦١ ، ١٦٣ - ١٦٧

١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨

٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢

٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٥٩ ، ٣٠٢

٣٤٧ ، ٣٥٨ ، ٣٧٧ ، ٣٨١

٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٩٧

٥٢٦

يزيد بن المهلب : ٢٣٢ ، ٢٣٤

٢٤٢ ، ٢٤٧ - ٢٤٩ ، ٢٥١ -

٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٠٢

٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١

٣١٢ ، ٣١٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦

٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٧ ، ٤١٨

٤٢٣ - ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٣٢

٥١١

يزيد الناقص : انظر يزيد بن الوليد ابن

عبد الملك

يزيد بن هيرة : ٣١٧

(٥)

جامع الإسرائيل : ٥٢٣ ، ٥٢٤

يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس : ٥١٥

يحيى بن حصين : ٤٤٣ ، ٤٦٥ ، ٥٢٠

يحيى بن الحكم : ١٨٦

يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي

ابن أبي طالب : ٣٢٧ ، ٣٤٥

٣٧٤

يحيى بن عقيل الخزازي : ٤٨١

يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس :

٥١٣

يحيى بن نعيم البكري : ٥٠٧ ، ٥٢٠

يحيى بن نعيم بن هيرة : ٤٦٤ ، ٤٦٥

يزدجرد (آخر ملوك الساسانيين) : ٤٣٦

٤٥٤

يزيد بن أبي سفيان : ٣٩

يزيد بن أبي مسلم : ٣١٢ ، ٣١٣

يزيد بن أبي الحسن الفدائي : ١٦٩ ، ١٧٠

يزيد بن الحارث الكنتاني : ٨٨

يزيد بن خالد بن جرير بن عبد الله القسري :

٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠

٣٥١ ، ٣٦١ ، ٣٦٥

يزيد بن زمة : ١٥٧

يزيد بن زياد بن أبيه : ٣٩٦ ، ٣٩٧

يزيد بن عبد الملك : ٢٥٣ ، ٢٥٦

٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٩ ، ٣٠١

٢٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩

| | |
|-----------------------------------|--------------------------------------|
| يوسف التقي (والد الحجاج) : ١٨١ | يزيد بن هشام بن عبد الملك : ٣٤٠ |
| يوسف بن عمر التقي القيس : ٣٢٢-٣٢٤ | يزيد بن الوليد بن عبد الملك : ٣٤٨ |
| ٣٢٦ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٤٠ | ٣٥٠ - ٣٥٨ ، ٣٦٠ |
| ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٣ | ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ |
| ٣٥٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٤٤٠ | ٤٥٢ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ |
| ٤٨٥ ، ٤٨٥ | |
| يوسف بن محمد بن يوسف التقي : ٣٤١ | يقتوب (مولد هشام بن عبد الملك) : ٣٣٥ |
| يونس بن هاشم : ٤٨٥ | يوسفا (القديس) : ٣٩٠ |

فهرس الأماكن والمواضع

| (١) | |
|----------------------------------|----------------------------------|
| أبرق = الأزرق (مكان) : ٣٣٨ | إسكندرية : ٣٣٦ |
| أبرق (حصن) : ٥١٩ ، ٥٢٣ | إسكبيشت : ٤١٤ |
| ٥٢٤ | إسوس : ٣١٧ |
| أبرق (نهر) : ٥١٩ | آسيا : ٥٢٨ |
| أبيورد : ٣٠٥ | آسيا الصغرى : ٣٠٩ ، ٣٠٧ ، ٣٣٢ |
| أحد (جبل) : ١٦ | إثنيون : ٤٤٨ ، ٤٢٩ |
| إحدم : ٨٣ | أفروسة : ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤٢٩ |
| أذربيجان : ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ٢٢٢ | ٤٤٨ ، ٤٥٣ |
| ٢٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٧٣ | الأشوليين : ٥٢٠ |
| أذرح : ٨٣ ، ٤٧٥ | إسطخر : ١١٢ ، ٣٧١ |
| أربلة = نربولة : ٣٢٩ | أسفهان : ٧٨ ، ٩٩ ، ١٩١ ، ٣٧١ |
| الأردن : ١٦٧ ، ١٦٩ ، ٢٤٢ ، ٣١٥ | ٥١١ |
| ٣٤٢ ، ٣٥٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ | الأخلاف (مار) : ٣٣٨ ، ٣٤٩ |
| ٥١٩ | أفرنجية : ٣٣٨ |
| أرض الترك : انظر الترك (بلاد) | إفريقية : ٧٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢٤٠ |
| أرض الفارين : انظر : الفاران | ٢٦٢ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ٣١٢ |
| أرض الختل : انظر الختل (بلاد) | ٣١٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ |
| أرض الروم : انظر الروم (بلاد) | ٣٩٣ ، ٥٢٨ |
| أرض الشراء : انظر : الشراء (أرض) | أفنة : ٤٣٢ |
| أرميلية : ٣٠٧ ، ٢١٤ ، ٢٠٩ | أكرونيوس (مكان) : ٣٢٨ |
| ٣٥٥ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ | ألمانيا : ٢٩٣ ، ٢٩٤ |
| ٣٧٣ | آلين (قرية) : ٤٩٥ ، ٥٠٠ |
| الأساور (نهر) : ٣٩٢ | آمل : ٧١١ ، ٤٨٤ |
| أسبانيا : ٢١٦ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦١ | الأنبار : ٩٥ ، ٣٠٧ ، ٥١١ |
| ٢٨٦ ، ٣٢٩ ، ٥٢٥ - انظر أيضاً : | أنتياتريس : ٥٢٤ |
| الأندلس | الأندلس : ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ |
| | ٢٨٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ - ٣٣٢ |
| | ٣٣٦ ، ٣٩٣ - انظر أيضاً : أسبانيا |
| | أفطاكية : ٣٣٤ ، ٣٦٨ |

١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٢
 ٢١٩ ، ٢١٨ - ٢٢٠ ، ٢٢٣
 ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١
 ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨
 ٢٤٠ - ٢٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٦١
 ٢٦٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥
 ٢٧٨ ، ٢٠٣ - ٢٠٦ ، ٢٠٩
 ٢١٠ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٥٤
 ٢٨٠ - ٢٨٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
 ٢٩٢ - ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧
 ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٦٨ ، ٤٧٣
 ٥١٢ ، ٥٢٥
 بطنان حبيب : ١٨٣ - ١٨٥
 بطيك : ٢١٧ ، ٢٨٠ ، ٣٤٨ ، ٣٦٨
 ٥١٩
 بنداڊ : ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣١
 البقيع : ٥٠
 البكرمان : انظر بلخ
 بكة (واهى) : ٢٣١
 بلخ : ٢٢٧ ، ٢٥٥ ، ٢١٠ ، ٢١٢
 ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨
 ٤٥١ ، ٤٩٥ ، ٥٠٧
 بلخ (نهر) : ٢٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٥
 ٢٠٧ ، ٢١٠ - ٢١٢ ، ٢٢٠
 ٢٢٦ - ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ٢٥٥
 البلقاء : ٣١٥ ، ٣٥٤
 بلقين (أرض) : ٣٢٨
 البليخ (نهر) : ١٩٩
 بنجيكت (مدينة) : ٢٢٩
 براتيه : ٣٢٩
 بوشنج : ٣٩٦
 بوسير : ٥١٩
 بوسب (مكان) : ٧٢
 بياركت : ٤٢٩
 بيسان : ٤٢٤
 بيكته : ٤١٣ ، ٤٢٦

الاهواز : ٨٠ ، ٨١ ، ٩٤ ، ١٠٩
 ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٤١ ، ٣٠٦
 ٣٧١ ، ٣٧٥
 أوروبا : ٣٢٨ ، ٣٣٠
 إيبريا : انظر : أسبانيا
 إيران : ٣٩٤ ، ٣٩٥
 إزقياد (مكان) : ٢٣١
 أيلة : ٢٩١
 إيلياء (بيت المقدس) : ٩٧

(ب)

الباب الحديدى : ٤١٤ ، ٤٥١ ، ٤٥٢
 بابل : ٣٠٧ ، ٥٢٠
 باجيرا : ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٠
 باغوس : ٣٩٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٠
 باميان (مدينة) : ٤١٠ ، ٤٤٩
 البحرين : ٨١ ، ١١٥
 بخارى : ٤٠٧ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٤
 ٤١٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٣ ، ٤٣٥ - ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٥١
 البخراد (حصن) : ٣٤٩
 بدر (مكان) : ١١ ، ١٦
 بدخشان : ٤١٠ ، ٤١١
 البرانس (جبال) : ٣٢٩ ، ٢٣٠
 براونشفيج - لونبرج : ٢٩٣
 بردى (مكان) : ٢٨٠
 البروقان : ٤٢٣ ، ٤٤٥
 بزماجن : ٤٢٩
 بست (مكان) : ٢٢٦
 بشر = الرهوب (مكان) : ٢٠٢
 البصرة : ٢٥٠ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٩٥ - ٩٧ ، ١٠٦
 ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٢٠
 ١٢٢ ، ١٢٤ - ١٢٦ ، ١٣٨
 ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٨٥

٢٥٢ : ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٥٥
 ٣٥٩ : ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤
 ٣٧٣ : ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨
 ٤٠٩ : ٤١٨
 جزيرة العرب : ٩ ، ٧ ، ١٦ ، ١٧
 ١٩ - ٢٣ : ٢٧ ، ٣٦ ، ٥٢
 ٥٤ : ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٩٥
 ١٩٩ : ٢٠٢ ، ٢٦٧ ، ٢٨٧
 ٢٩١ : ٢٩٢ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩
 ٣٨٢ : ٣٩٤ ، ٤٧٤ ، ٤٩١
 جسر الفرات : ٢٣٧
 جسر صنع : ١٨١
 جسر النهروان : ٧٩
 الخليفة (جبل) : ٩٧ ، ١٢٨ ، ٢٠٧
 جلنج : ٤٣٠
 جلولا : ٥١١
 جليقية : ٢٤٤
 جوشي : ٧٩ ، ٢٢٢
 الجوزجان : ٣٩٧ ، ٤١٠ ، ٤٤٧
 جوزستان : ٤١٠
 جيههاني : ٩٧ ، ٢٠٧
 جيلنج : ٤٩٥
 جيرون : ١٧٤

(ح)

الحائرة (مكان) : ٥١١
 الحبيشة : ٢١٤
 الحجاز : ٨٨ ، ٩٦ ، ١١٢ ، ١٣٨
 ١٤٠ : ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٧٢
 ١٨٨ : ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢١٤
 ٢٤٨ : ٢٥٩ ، ٢٥٥
 حران : ٦٦٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣
 ٣٦٤ : ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥١٩
 الحرة (مكان) : ١٥٣ ، ١٥٤

(ت)

التبوشكان (قلعة) : ٤٤٥ ، ٤٦٢
 تدمر : ١٧٢ ، ١٧٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠
 ٣٦٢ : ٣٦٥ - ٣٦٧ ، ٥٢٥
 الترك (بلاد) : ٣٥٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٩
 تركيا : ٣٥٣
 ترمذ : ٢٤٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦
 ٦٠٩ : ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤٤٣
 ٤٤٥ : ٥٠٧
 تدمر (مكان) : ٢٢٧ ، ٢٣٤
 تكريت : ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٩٩ ، ٢٣١
 تور : ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢
 تولوشة - تولوز : ٣٢٩
 توشكان (مدينة) : ٤١٣
 تيماء : ٩٥

(ث)

الاثار (نهر) : ١٩٩
 الثفران : ٤٤٢ ، ٤٦١ ، ٤٦٧
 الثغور : ٢٨٨

(ج)

الجابية (مكان) : ١٦٩ - ١٧١
 ١٧٣ - ١٧٦ : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٤
 جابلق (مكان) : ٥١٠
 الجارون (نهر) : ٣٢٩
 الجبل (بلاد) : ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٩
 ٥٠٤
 جبل (مكان) : ٣١٧
 جرجان : ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٣٠٣
 ٤٢٤ - ٤٢٦ : ٥٠٩ ، ٥١٠
 الجزيرة : ٢٣ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٩٠
 ٩٩ : ١٦٧ ، ١٨١ ، ١٨٤
 ١٩٦ : ١٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢
 ٢٠٩ : ٢١٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٢

٢١٠ ، ٣١٨ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤
 ٣٣٤ ، ٣٤٤ ، ٣٤١ ، ٣٥٥ ، ٣٧٩
 ٣٨١ - ٣٩٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠١
 ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤١١ ، ٤١٣
 ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢
 ٤٢٤ - ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣١
 ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠
 ٤٤٤ - ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥١
 ٤٥٣ ، ٤٥٩ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩
 ٤٧٥ - ٤٧٧ ، ٤٧٩ ، ٤٨١
 ٤٨٧ - ٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٥٠٨
 ٥٠٦ - ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٣
 ٥١٧ ، ٥٣٤

عبرتنا (قرية بمصر) : ٨٨

عبرقان (مكان) : ٢٢٧

عبرقان (نهر) : ٥٠٠

الخزور (بحر) : ٢٦١ ، ٣٢٨ ، ٤٢٤

الخزور (بلاد) : ٢٦١

خضاف (قرية) : ٣٦٧

خطورايخ (مدينة) : ٤٤٦ ، ٤٠٦

الخطيراء : ٣٥٤ ، ٣٥١

الخطيرفة (قرية) : ٤٧٨

خلم : ٤١٠

الخناسرة (مكان) : ٣٠١

خوارزم : ٤٠٨ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٦

٤١٦ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ ، ٤٩٤

خوزستان : ٤٠١

(٥)

دابق : ٢٥٥ - ٢٥٨ ، ٥٢٣

دارابجرد : ١٠٢

دار الهجرة : انظر : المدينة

الدبوسية : ٤٣٧ ، ٤٤١

الدجلة (نهر) : ٧٣ ، ٧٩ ، ٩٥

حروراء (مكان) : ٥٦ ، ٧٨ ، ٨٠

الحشاك (مكان) : ١٩٩

حش كوكب : ٥٠

حلب : ٣٠٩

حلوان (المشرقة) : ٤١٨ ، ٥١١

حمام أمين : ٥١٣ ، ٥١٥ - ٥١٧

حصن : ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣١ ، ١٦٧

١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٠ ، ١٨٧

٣١٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩

٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧

٣٦٨ ، ٣٧٦ ، ٥١٩ ، ٥٢٥

الحمية : ٤٧٤ - ٤٧٦ ، ٤٩٠ ، ٥١٣

٥١٤

سورارين : ١٦٥

الخيرة : ٣٠٩ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦

٣٤٥ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٨

٣٧٠ - ٣٧٢ ، ٣٧٨ ، ٥١٧

٥٢٥

(خ)

الخابور (بلاد) : ١٩٨

الخابور (نهر) : ١٩٩

خالقين : ٥١١

الخفيل (بلاد) : ٤٤٩ ، ٤١١

الخفيل (جهال) : ٤١١

خجندة = خولند : ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣

خراسان : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩

٩٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٠

١٦٦ ، ١٨٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥

٢٢٣ ، ٢٣٢ - ٢٣٤ ، ٢٤١

٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣

٢٥٤ ، ٢٦٠ - ٢٦٢ ، ٢٦٨

٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧

٢٨٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨

(ج)

رامدين : ٤١٣
 رامهرمز : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٨١
 راب : ٤١٢
 رستاقباد : ٢٢٧ ، ٢٢١
 الرصافة : ٣٢٨ ، ٣٢٣ ، ٣١٥ ، ٣٢٤ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨ ، ٣٣٥ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٦
 رشوى (جبل) : ٤٧٦
 الرقة : ٣٧٦ ، ٣١٥ ، ٣٧٣ ، ٧٢
 الرملة : ٢٥٥ ، ٢٤٩
 الرهوب (مكان) : انظر : بشر
 الروضة : ٥٢٠
 الروم (بلاد) : ٢١٠ ، ٢٠٩ ، ٢٠٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٤ ، ٢٧٨ ، ٢٦١
 الروى : ٧٨ ، ٩٤ ، ٣٧١ ، ٥١٠

(ز)

الزاب الأكبر (نهر) : ٥١٨ ، ٥١٩
 زابل (مكان) : ٢٢٣
 زاقول (مكان) : ٤٠٨
 الزاوية (مكان) : ٢٢٧
 زرفشان (وادى) : ٤١٥
 زرفشن (نهر) : ٤٢٩
 زرمان (مكان) : ٤٣٧
 زربيج (مدينة) : ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٣٩٥
 زمزم (بحر) : ٣٢٠
 الزيتونة (مكان) : ٣٠٩
 زيزاء (مغزل) : ٢٣٨

(س)

ساباط (قلعة) : ١٠٢

٩٩ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٩ ، ٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٥١١ ، ٥١٨ - ٥٣٠
 دجيل (نهر) : ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣١
 الدردوى (نهر) : ٣٢٩
 دسليمسان : ٣٧٥
 الدسكرة : ٨٠
 دمشق : ٥٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٩ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٥ - ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ - ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ - ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٦ ، ٢٩٠ ، ٣٠١ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ - ٣٢٧ ، ٣٣٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ - ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٦١ - ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٨ ، ٤٧٥ ، ٤٨١ ، ٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٢٣ ، ٥٢٧ ، ٥٣٠
 دما (مكان) : ٥١١
 دمسكان : ٤٢٤
 دملك (جزيرة) : ٣٤١
 دورق : ٤٠١
 دورين (مكان) : ٣٦٧
 درمة الجندل : ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ٥١٤
 دير الجاثليق (مكان) : ١٩٢
 دير الجمال (مكان) : ٢٢٩ ، ٢٣٧
 دير سنبل : ٣٨٢
 دير قرة : ٢٢٩
 دير هند : ٣٧٢

الميم (بلادي) : ٤٧٣ ، ٤٦٨ ، ٤٦٣ ، ٤٧٧

٥٢٨ ، ٤٨٨ ، ٤٧٨ ، ٤٧٧

الصراة : ٤٥٠ ، ٣١ - ٢٩ ، ٢٥ ، ٢٤

٤٧٤ ، ٧٢ ، ٦٣ ، ٥٧ ، ٥٣

٤٨٨ ، ٩٤ - ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٠٨

٤١١ ، ١١١ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣

٤١٢٣ ، ١٢٧ - ١٢٥ ، ١٢٣ ، ١٢٣

٤١٦٧ ، ١٨٥ - ١٨٢ ، ١٨٠ ، ١٦٧

٤١٨٦ ، ١٩٦ ، ١٨٨ ، ١٩٧ ، ١٨٦

٤٢١١ ، ٢١٨ ، ٢١٩ - ٢٢٣ ، ٢١١

٤٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٤٠ - ٢٤٠

٤٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٣

٤٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٦

٤٢٦٩ ، ٢٧٦ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٦٩

٤٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٢٩١

٤٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٠

٤٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٢١ - ٣٢٣ ، ٣٢١

٤٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٣ ، ٣٤١

٤٣٥٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٥٥

٤٣٧٢ ، ٣٧٦ - ٣٧٨ ، ٣٩٣ ، ٣٧٢

٤٤٠٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣١ ، ٤٠٧

٤٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٤٤ ، ٤٥٠ ، ٤٣٢

٤٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٨ ، ٤٤٨

٤٤٧٣ ، ٤٧٨ - ٤٨٠ ، ٥٠٩ ، ٤٧٣

٥١١ ، ٥١٤ ، ٥١٦ ، ٥٢٧ - ٥٢٧

انظر أيضاً : السواد

عرة (جبل - جبل) : ١٩٣

العريش : ٩٠

العقبة (طريق) : ٤٣٨

عقر (مكان) : ٣٠٧ - انظر أيضاً : نصن

حان : ١١٥ ، ٢٨٧ ، ٢٤٠ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢

٣٨٢

العوجا (وادي) : ٥٢٤

عين التمر : ٩٥ ، ٢٢٩ ، ٢٨٢

(ص)

الصراة (جبال) : ٣٨٢

الصعيد : ٥٢٠

صفا - صفانيان : ٤١١ ، ٤٣٩

صفين (موضع) : ٥٥ ، ٥٦ ، ٨٢ ، ٨٣

٨٣ ، ٨٠ ، ٧٩

صنماء : ٣٧٨

الصين : ٤١٩ ، ٤١٥ ، ٤٣٠

(ط)

طارق (جبل) : ٣٣١

طالقان : ٣٩٦ - ٣٩٨ ، ٤١٠ ، ٤١٢

٤١٢

طائف : ١٠٨ ، ١٠٧ ، ٥ ، ٤ ، ٤ ، ١٠٨

١٢٩ ، ١٥٢ ، ١٩٣ ، ٢٣٧ ، ٢٤١

٢٤١

طبرستان : ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٢٠٣ ، ٤٢٤

٤٢٤ ، ٤٢٥

طبرية : ٩٥٤ ، ٣٦٥

طبرستان : ٤١٠ ، ٤١٢ - ٤١٤ ، ٤١٤

٤٢٢ ، ٤٣٧ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٢٢

٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٧ ، ٤٤٧

٤٤٩ ، ٤٩٥ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥٣٤

٥٣٤

طرابلس : ٢١٤

طواله (حصن) : ٢١٦

طنابريس (مكان) : ٤٣٨

طوس : ٤٦٦ ، ٥٠٩

(ع)

عادم (سجن) : ١٤٨

السا (مكان) : ٢٠٠

١٧٧ : ١٧٦ : ١٨٠ : ١٨٢ :
١٩٨ : ٢٤٩ : ٢٥٥ : ٣٢٨ :
٢٥١ : ٣٦٣ : ٣٦٦ : ٤٤٧ :
٥١٩ : ٥٢٤ :

الفلوجة : ٥١١

فم الفرات (موضع) : ٥١١

فم النهر (مكان) : ٣٠٧ : ٥١١

فنين : ٤٩٤ : ٤٩٩ : ٥٠٠

(ق)

قادس (المشرق) : ٣٩٦

قادس (المغرب) : ٢١٤

قبا : ١٥٤

قبرس : ٢٩١ : ٣٣٦ : ٣٤٢ : ٣٧٨

قونيسيا (مكان) : ٧٣ : ١١٠ : ١٦٧

١٧١ : ١٧٢ : ١٨٥ : ١٨٧

١٩٦ : ١٩٧ : ٣٧٧

قرمانين : ٥١١

القرية : ٣٢٣

القسطنطينية : ١٦٥ : ٣١٦ : ٣٤٩

٢٥٥ : ٢٥٧ : ٢٦١ : ٢٩٦

٣٢٧

القصب (أرض) : ٥٢٠

قصر : ٣٠٧ - انظر أيضاً : قصر

قصر ابن هيرة (مكان) : ٥١٦ : ٥١٢

قصر قرنتا : ٤٠١

القسطنطينية : ٩٥

قلن : ٣٤٨

القلزم : ٩٠

قندابل (مكان) : ٣٠٩

قنبرين : ١٢٨ : ١٦٧ : ١٦٩ : ١٨٠

١٨٣ : ٣١٦ : ٣٤١ : ٣٦٠

مين البحر : ٣٦٠ : ٥١٩

مين وردة : ١٨١ : ١٨٤ : ١٨٧

(غ)

غازلين : ٤١٠

الغداد - خاليس (بلاد) : ٣٣٠

غرجستان - غرجستان : ٤١٠ : ٤١٢

الغور (بلاد) : ١٩٨ : ٤١٠

الغورطة : ٢٨٠ : ٢٩٠

(ف)

فارس : ٢٧ : ٩٤ : ١٠٣ : ١١٢

١٣٣ : ٢٢٦ : ٢٦٣ : ٣٠٦

٣٧١ : ٣٧٥ : ٣٧٩ : ٣٩٥

٤٠٨ : ٥٣٢ : ٥٣٣

فارط (قرية) : ٣٠٧

الفارياب : ٣٩٦ : ٣٩٧ : ٤١٠

٤١٢ : ٤١٤ : ٤١٣ : ٤٥٣

فلك (أرض) : ٢٨٧

الفرات : (نهر) : ٧٢ : ٧٣ : ٧٨

١٤٤ : ١٦٧ : ١٨٠ : ١٨١

١٨٤ : ١٩٦ : ١٩٨ : ١٩٩

٢٣١ : ٢٢٩ : ٢٤٤ : ٣٠٧

٣٠٨ : ٣١١ : ٣٦٠ : ٣٦٦

٣٧٦ : ٥١١ : ٥١٨

غرفالة : ٤٠٨ : ٤١١ : ٤١٢ : ٤١٥

٤١٧ : ٤١٨ : ٤٢١ : ٤٢٢

٤٢٩ : ٤٣٠ : ٤٣٢ : ٤٥٢

٤٥٣

الفرما : ٥١٩

فرنسا : ٢٦١

الفسطاط : ٢٥

الفلاليج (مكان) : ٢٢٩

فلسطين : ٨٨ : ١٢٨ : ١٦٧ : ١٦٩

١٤٥ ١٤٣ ١٣٥ ١٣٤
١٨٨ ١٨٥ ١٨١ ١٥٦
١٩٩ ١٩٣ ١٩١ ١٩٠
٢١٤ ٢١٢ ٢١١ ٢٠١
٢٢١ - ٢٢٨ ٢٢٣ - ٢٢١ ٢١٩
٢٢٨ ٢٢٦ ٢٢٥ ٢٢٢
٢٤٨ ٢٤٧ ٢٤١ ٢٤٠
٢٨٢ ٢٦٩ ٢٦٢ ٢٦١
٢٩٣ - ٢٩١ ٢٨٨ ٢٧٦
٣١٩ ٣١٧ ٣١٥ - ٣٠٧
٣٢٦ ٣٢٥ ٣٢٣ ٣٢٢
٣٥٤ ٣٥٣ ٣٤٤ ٣٤٠
٣٨٠ ٣٧٧ ٣٧٥ - ٣٦٧
٤٦٨ ٤٢٩ ٤٢١ ٣٨١
٤٧٨ ٤٧٧ ٤٧٥ ٤٧٣
٤٩٢ - ٤٩٠ ٤٨٧ ٤٨٥ ٤٨٠
٥٢٧ ٥١٨ ٥١٦ - ٥١١

٥٢٨

كوم شريك : ٩٣

(ل)

اللاذقية : ٣٤٤

لبنان (جبال) : ٣٦٠ ٣٦٢

الصفاء = الصف (ماء) : ٢٢٢

الكام (جبال) : ١٨٢

الوار (نهر) : ٢٢٠

لوتية : ٤٦

اليطاني (نهر) : ٣٦١

(م)

الماخوان (مدينة) : ٤٩٥ - ٥٠٢

مادون للنهر (أرض) : ١٢٠ ٥٠٨

(٢٦ - الدولة العربية)

٥١٩ ٤٤٧ ٣٦٧ ٣٦٣

٥٢٥ ٥٢٣

عنطرة دجلة : ٢٢١

القوقاز : ٣٥٧ ٣٥٩

قوس (مدينة) : ٤٩٢ ٤٩٤ ٣٧١

٥١٠ ٥٠٩

ق (مدينة) : ٤٢٩

الغدير أو ان : ٣٣١ ٣٣٢ ٢٥

(ك)

كابل - كابل ستان : ٢٢٣ ٢٢٢ ٢٢٢

٤١٠ ٣٩٧

كابة (أرض) : ١٩٨

الكحول (مدينة) : ١٩٩

كريلان (مكان) : ١٤٤ ٣٠٧

كرمان : ٢٢٢ ٢٢٤ ٢٢٣ ٢٢١ ٣٠٦

٤٠٨ ٤٠٧ ٣٧١ ٣٠٩

٥١٠

كسكس : ٢٤٤ ٣٧٥

كش (مدينة) : ٤٠٧ ٤١١ ٤١٢

٤٢٨ ٤٣٧ ٤١٤

كشور : ٤١٥

كشكة (نهر) : ٤١٤

كشوروثا : ٣٧٦

كشجة : ٤٣٦

الكوكبة : ٢٥ - ٢٧ ٤٤ ٤٥

٥٨ - ٥٦ ٦٣ ٦٤ ٦٧

٨٨ ٨٢ - ٧٨ ٧٢ ٦٨

١٠٣ ١٠٢ ٩٥ ٩١ ٨٩

١١٥ ١١٣ ١١٠ ١٠٦

١٢٦ ١٢٣ ١٢١ ١٢٠ ١١٨

مرو : ٢٩٥ — ٢٩٨ : ٤٠٤ — ٤٠٤

٤٠٧ : ٤١٣ : ٤١٦ : ٤١٨

٤١٩ : ٤٢٢ : ٤٣١ : ٤٣٤

٤٣٦ : ٤٣٩ : ٤٤٣ : ٤٥١

٤٥٣ : ٤٥٤ : ٤٥٨ : ٤٥٩

٤٦٥ : ٤٦٧ : ٤٦٨ : ٤٨١

٤٨٣ : ٤٨٦ : ٤٨٧ : ٤٩٠

٤٩٤ : ٤٩٧ — ٥٠١ : ٥٠٣

٥٠٥ : ٥٠٨ : ٥٠٩

مرو الروز : ٣٩٦ — ٣٩٨ : ٤٠٠

٤٠١ : ٤٠٨ : ٤١٠ : ٤١٣

٤١٦ : ٤٤٣ : ٤٤٥ : ٤٤٨

٤٥٤ : ٤٦٧ : ٤٩٤ : ٤٩٥

٥٠٠ : ٥٠٨

مرو الشاذان : ٣٧٩

المزة : ٢٨٠ : ٣٤٨ : ٣٦٥ : ٣١٩

مسكن : ٩٩ : ١٨٤ : ١٨٨ : ١٩٠

٢٣١

المسناة (مكان) : ٩٣

المشلل (مكان) : ١٥٥

مصر : ٤٥ : ٤٦ : ٥٧ : ٤٧١

٧٢ : ٨٧ — ٩٠ : ٩٢ : ٩٣

٩٥ : ١٠٣ : ١٣١ : ١٨٠

٢٠١ : ٢١٠ — ٢١٢ : ٢١٤

٢١٦ : ٢٥٩ : ٢٦٣ : ٢٩٥

٣١٠ : ٣٥٠ : ٣٧٨ : ٥١٩

٥٢٠

مصوع : ٣٤١

المصيف (مكان) : ١٩٧

المصيبة : ١٨٢

المقرب (بلاد) : ٣٨٥ : ٣٣٢

حاوراء النهر (أرض) : ٢١٦ : ٢٤٤

٢٦١ : ٢٨٣ : ٢٨٤ : ٣٣٦

٤٠٥ — ٤٠٧ : ٤١٠ : ٤١٣

٤٢٨ : ٤٢٩ : ٤٤٠ : ٤٤٢

٤٤٤ : ٤٥١ : ٤٦١ : ٤٦٧

٥٠٨ : ٥٣٤

المخترة (طريق) : ٤٣٨

الملائق : ٧٩ : ١٠١ : ١٠٣ : ٢٤١

٣٧٠

المدنية : ٧٤٥ : ١١٠ — ٢٠ : ٢٢ : ٢٥

٣١ : ٣٣ : ٣٦ — ٤٦ : ٥٢ — ٥٤

٥٩ : ٦٩ : ٨٨ — ٩١ : ٩٧

١٠٣ : ١٠٧ — ١٠٩ : ١٢٩

١٣٠ : ١٣٥ — ١٣٨ : ١٤٠ : ١٤٢

١٤٥ : ١٤٦ : ١٤٨ — ١٥٠

١٥٢ : ١٦١ : ١٦٤ : ١٦٨

١٧١ : ١٧٨ : ١٨١ : ١٩٣

١٩٩ : ٢٠٧ : ٢٠٨ : ٢١٠

٢١٥ : ٢١٦ : ٢١٨ : ٢٤٣

٢٥٠ : ٢٥٥ : ٢٥٦ : ٢٥٩

٢٦٢ : ٢٨٧ : ٣١٢ : ٣١٩

٣٢٥ : ٣٢٦ : ٣٤٠ : ٣٤١

٣٥٨ : ٣٧٨ : ٤٧٤ : ٤٧٦

٥٢٤ : ٥٢٩ : ٥٣١

المدار (طريق) : ٨٠

مراكش : ٣٣١

مرج أخرم : ٥٢٥

مرج بردى : ٢٨٠

مرج راحط : ١٦٩ : ١٧٢ : ١٧٦

مرج شمبان : ٢٨٠

مرعم (قرية) : ٤٨٢

مرغاب (واى) : ٤١٠

| | |
|------------------------------------|---|
| نصيبين : ٩٠ ، ١٨٧ ، ٣٧٦ | مكة : ٤٠١ - ١٧ ، ٢٢ ، ٣٦ |
| نقدورة (موضع) : ٣٣٢ | ٣٩ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٨٦ ، ٩٨ |
| نهارند (مدينة) : ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٧ | ١٠٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٧ |
| الهروان (مكان) : ٧٩ ، ٢٢٢ | ١٤٠ ، ١٤٢ - ١٤٨ ، ١٥٣ |
| لواكت : ٤٤٦ | ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٢ - ١٦٤ |
| نوام (نهر) : ٣٢٢ | ١٧٢ ، ١٨٨ ، ١٩٣ - ١٩٥ |
| النوهار : ٤٤٥ | ٢٠٢ ، ٢٠٩ - ٢٠٨ ، ٢١٨ |
| نيسابور : ٣٩٥ - ٣٩٧ ، ٤٠٧ | ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٨٧ |
| ٤١٦ ، ٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٦٦ | ٣١٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٦ ، ٣٧٨ |
| ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٨١ ، ٥٠٨ | ٣٨٥ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩٠ |
| ٥٠٩ | ٤٩٣ ، ٥٠٩ ، ٥٢٤ |
| ليل الفرات : ٣٠٧ ، ٥١١ - انظر | الملاح (جبال) : انظر : الختل (جبال) |
| أيضاً : قم النيل | ملطين (بلاد) : ٣٢٨ |
| (هـ) | منج : ٥١٩ |
| هاربورج : ١٨٣ | الموصل : ٩٩ ، ١٨١ ، ٢٢٢ ، ٢٣١ |
| هجر (مكان) : ٣١٩ | ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ |
| هراة (مدينة) : ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ | ٣٧٥ - ٣٧٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ |
| ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٩٦ - ٤٠٠ | مهديا : الظر ، الجبل (بلاد) |
| ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤٣١ ، ٤٤٣ | ميسان : ١٠٩ ، ٢٧٦ ، ٣٧٥ |
| ٤٥٠ ، ٤٦٧ ، ٥٠٠ | (ن) |
| ٥٠٧ | نهران : ٢٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ |
| هريرود (وادي) : ٤١٠ | النجرانية (قرية) : ٢٩١ |
| هندان (مدينة) : ٥١٠ | النفذ : ٤٤٣ |
| الهند : ١١٥ ، ٢١٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ | النفيلة (مكان) : ٧٢ ، ٧٩ ، ٨٢ |
| ٢٥٠ ، ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، ٤٢٣ | ٩٣ ، ٣٠٧ |
| ٤٣٧ | نربولة (مدينة) : انظر أربولة |
| الهندية (مدينة) : ٣٠٧ | نسا (مدينة) : ٤٦٧ ، ٥٠٨ |
| هيت : ٩٥ | نسف : ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤٤٨ |
| | النصرانية (قرية) : ٤٥٤ |

| | |
|--------------------------------|-----------------------------|
| ورخسر : ٤٤٤ ، ٤٥١ | |
| ولشتن : ٤١٠ | (و) |
| (ی) | واسط : ٥٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤١ |
| بالا : ٥١٩ | ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ |
| یثرب : ٢٠ ، ٥ | ٣٠٧ — ٣٠٩ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ |
| ایمن (بلاد) : ٩٦ ، ٩٠٤ ، ٩١٢ | ٣٢٢ ، ٣٥٤ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ |
| ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٢٢ ، ٣٥٨ | ٣٧٨ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٤ |
| الیهودية (موضع) : ٤٥٤ | ٥٢٠ |
| | ونخشاب (نهر) : ٤١١ |

فهرس الموضوعات والمواد

٨٤ ، ٨٥ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ،
١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،
١٣٧ ، ١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،
١٦١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،
٢٧٨ ، ٢٩٨ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ،
٣٦٣ ، ٤٦٨ ، ٥٢٨ - ٥٥٠

أرض الخراج : انظر : الخراج

أرض العشر : انظر : العشر

أرض العنوة : انظر : العنوة

أرض الفتح : انظر : الفتح

الأزارقة : ٢١٩ ، ٢٢١ - ٢٢٣

الأزد (قبيلة) : ٣٧ ، ٦٥ ، ٦٦ ،

٩٥ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،

١٢٦ ، ١٧٧ ، ٢٠٣ ، ٢٢٦ ،

٢٤٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ،

٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١٩ ، ٣٨١ -

٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٩٣ ، ٣٩٧ ،

٤٠٨ ، ٤١٩ ، ٤٢١ - ٤٢٣ ،

٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ ،

٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ،

٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ،

٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٨٣ ،

٤٨٨

الأساقفة : ٢٧ ، ٤٥٤

الأساورة (من الفرس) : ٣٨٠ ، ٣٨٨ ،

٣٩٢ ، ٣٩٥

الاستعمار (بالمعنى الروماني) : ٤١٥

استغلال (النفوذ) : ٣٢١

الاستقلال (الإداري) : ٤١٥

(١)

أبناء الدولة : ٥٢٦

الأنباء (من تميم) : ٤٠٢ ، ٤٠٤

الاتحاد (الألماني) : ١٤

الاجتماعات العامة : ١٠

الاحتلال العسكري (نظام) : ٣١

الأحزاب (دينية - سياسية - قبلية) :

٦٩ ، ١٢٧ ، ١٦١ ، ١٧٧ ،

١٨١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٣١٨ ،

٣٢٣ ، ٣٣٥ ، ٣٦٤ ، ٣٧٢ ،

٤٧٣ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ ،

الأحباء : ٤٣

الاحتجار (ضد الجبر) : ٣ ، ٣٢٤

الاعتبار : ٢٣ ، ٣٨

الاخريد (لقب) : ٤١٢

الاعشىد (لقب) : ٤١٢

الآداب الإسلامية : ٣٠٩

إدارة الدولة : ٢٦ ، ٣١ ، ٢٦٣ ،

٢٩٦ ، ٣٣٧ ، ٤١٣ ، ٤٣٥ ،

٤٥٤ ، ٤٦٩

الأذان : ٢١

الآراميون : ٣٦٤ ، التأثير الآرام : ٦

الأزلاق : ٣١ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ٢٧٨ ،

٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٣٥٢ - ٣٥٤ ،

٣٥٨ ، ٣٦٩ ، ٤٢٨ ، ٤٧١ ،

٤٩٥ - قارن أيضاً : أعطيات

الأرستقراطية (عربية ، إسلامية) : ٢٧ ،

٣٧ ، ٣٨ ، ٥٤ ، ٦٣ ، ٦٤ ،

الأعاجم : ٦٦ ، ٤٠٦ ، ٤٧٠ - ٤٢٢

٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥

٤٣٧ ، ٤٣٩ - ٤٤٣ ، ٤٤٥

٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥

٤٥٧ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧ -

٤٧٢ ، ٤٧٧ ، ٤٨٧ ، ٥٠٣

٥٠٥ - ٥٠٧ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩

٥٣٤

الأصواب : ٢٥ ، ٣٧ ، ٢٩١

الأعطيات : ٣١ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥

٥٨ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٦

١٦٠ ، ١٧١ ، ٢٢١ ، ٢٢٤

٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠

٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧١

٢٧٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ - ٢٨٩

٣٠٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤٨

٣٥٢ - ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨

٣٦٩ ، ٣٧٥ ، ٣٨٥ ، ٤١٨

٤٢٨ ، ٤٤٢ ، ٤٥٩ ، ٤٧١ -

قارن أيضاً : الأوزاق

الأصباغ :

الأصباغ : ١٧٠

الأفريقيون : ٢٨٩

الأفشين (لقب) : ٤١٢

الأقباط : ٢١٠

الأقباط (بمعنى غير المتحضرين) : ٢٤١

أكرونيوس (موقعة) : ٢٢٨

أكسفورد (جامعة) : ٣٣٠

الإسكندر (موقعة) : ١٩٧

إله : اللغات الإلهية : ٢ - ٣

للسلطة الإلهية : ٨ - ١٠ ، ١٣

العدل الإلهي : ٣ ، ٩

القدرة الإلهية : ٢ ، ٣

إله الإسلام : ٢

الأسرة : ٣ ، ٤ ، ٧

الأسرى : ٣٠

إسقاط الدينون : ٢٢

الإسلام : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٩ ، ١١

١٣ ، ١٥ - ٢٥ ، ٢٣ ، ٣٥

٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤

٥١ ، ٥٣ - ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩

٦١ - ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٨ ، ٨١

٨٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٣

١١٦ ، ١٣٦ - ١٣٩ ، ١٣٤

١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٥٥

١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٧٦

٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨

٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦

٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ -

٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧

٢٨١ - ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢

٢٩٤ ، ٢٩٧ - ٣٠٠ ، ٣٠٥

٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٤

٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ -

٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٩٣

٣٩٤ ، ٤١٥ - ٤١٧ ، ٤٢٠

٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤

٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٥٣

٤٥٥ ، ٤٥٦ - ٤٦٢ ، ٤٦٧

٤٦٩ - ٤٧٢ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧

٤٨٣ ، ٤٨٨ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦

٥٠٨ ، ٥١٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨

٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٤

الأسواق :

أشجع (قبيلة) : ١٥٥

الأشعريون : ١٤٧

الأشفت (لقب) : ٤١٢ ، ٤٤٨

الإسبيد (لقب) : ٤١٢

١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ ،

١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ٢٥٦ ،

٣١٣

أهل الأردن : انظر : حرب الأردن

أهل الإسكندرية : ٣٣٦

أهل الأمصار : ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٣

أهل الأهواز : ٨٠

أهل إيران : ٥٢٨

أهل أيلة : ٢٩١

أهل البحرين : انظر : حرب البحرين

أهل البصرة : انظر : حرب البصرة

أهل بلخ : ٤٨١

أهل (آل) البيت : ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٠ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٣١ ، ١٧٨ ،

٢٣٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٦ ، ٣٦٩ ،

٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٦ ، ٥٠٣ ،

٥٢٢ ، ٥١٥

أهل تدمر : انظر : حرب تدمر

أهل ترمذ : ٤٤٥

أهل جرجان : ٤٢٥

أهل الجزيرة : انظر : حرب الجزيرة

أهل الجزيرة : ٣٥٢

أهل الحجاز : ١٣٧ ، ١٣٩

أهل حران : ٥١٩

أهل الحظوة والحظ : ٣٢١

أهل الخل والمقد : ٣٣

أهل حصص : انظر : حرب حصص

أهل خراسان : ٦٨ ، ٢٨٤ ، ٣٧٩ ،

٤٠٢ ، ٤٢٤ ، ٤٣٤ ، ٤٥٨ ،

٤٦٨ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٩ ،

٤٨١ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ،

٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥١١ ، ٥١٢ ،

١١٣ ، ٥١٥ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ،

إله الفرسفة : ٢

الإمام : ١١ ، ١٤ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٠ ،

٥١ ، ٦١ ، ١٦٤ ، ١٤١ ،

٤٧٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ،

٤٩١ ، ٥١٤

إمام الصلاة : ١٠ ، ٢٦

الإمامة : ٣٧٥ ، ٤٧٦ ، ٥٣٣

الأمّة : ٣ ، ٤ ، ٦ ، ١١ ، ١٥ ،

٢٠ ، ٢٦

الأمّة (سيادة الأمّة) : ٩ - ١٤

الأمّة الإسلامية : ١٥ ، ٥٩ ، ٨١ ،

٩٨ ، ١٣٥ - ١٣٧ ، ١٤٢ ،

١٧٣ ، ١٧٨ ، ٢٣٨ ، ٣٥٥ ،

٤٧٢

أمّة الله : ٧

الأمصار : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٨ -

٥١ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ١٤٢ ، ١٥٨ ،

١٦٦ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ،

٢٣٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ،

٢٦٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٦ ،

٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٤٨ ، ٥٣١ ،

٥٣١

الأمويون : انظر : بنو أمية

أمير المؤمنين (لقب) : ٣٥

أنباط القرى : ٢٤١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠

أفنياء إسرائيل : ٥٢٢

الانتخاب : ٩ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٨٥

الإنجيل : ١ ، ٢ ، ١٨ - الاتجاه الإنجيلي :

٥٩

الإنسانية الموحدة : ٥

الأنصار : ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ،

٣٥ - ٣٨ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥١ ،

٨٨ ، ١٠٧ ، ١٣١ ، ١٤٦ ،

أهل اللادقية : ٣١٤
 أهل ما وراء النهر : ٤٧١ ، ٤٧٢
 أهل المجرى والفسق : ٣٤٣ ، ٣١٣
 ٣٣٨
 أهل المدينة : ١٢ ، ١٥ ، ٣٧ ، ٤٤
 ٤٦ - ٤٨ ، ٥١ - ٥٣ ، ٨٣
 ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ -
 ١٦٠ ، ١٦٢ ، ٢٠٨ ، ٢٥٩
 ٣٤٥
 أهل مرو : ٤٨١ ، ٤٨٧ ، ٤٩٣
 ٥٠٢
 أهل مصر : انظر : حرب مصر
 أهل مكة : ٣ ، ٦ ، ١١ ، ٣٣ ، ٣٥
 ٣٤٠ ، ٣١٩
 أهل المياه : ٥٢
 أهل النباهة والفضل : ٢٦٦ ، ٣٣٥
 ٤٠٤ ، ٤٦٠ ، ٥٠٥
 أهل نجران : ٢٩١ ، ٢٩٢
 أهل الهند : ٣٥١
 أهل اليمن : انظر : حرب اليمن
 الأوس : ٧ ، ١٦ ، ٣٦
 أيام العرب : ٣٩٤
 الإيرانيون : ٢٢٣ ، ٤١٢ ، ٤١٣
 ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٢٠
 الإيجان (رباط الاتحاد) : ١ ، ١٢ ، ٣١

(ب)

الباية : ٤٤٨
 الباب المفتوح (مثنى رضى الله عنه) : ٥٠
 باهلة (قبيلة) : ١٩٦ ، ٢٥٢ ، ٤٠٩
 ٤٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣٣
 ٤٨٣
 البتراء (حطبة زهاد) : ١١٦ ، ١١٨
 بجيله (قبيلة) : ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٤٣٣
 البخارية : ٣٢٦

٥٢٦ ، ٥٢٣ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨
 ٥٣٣ ، ٥٢٩
 أهل خربت : ٨٩
 أهل دمشق : انظر : حرب دمشق
 أهل الديانة والورع : ٣٧ ، ٥١ ، ٥٤ -
 ٥٦ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٧ ، ٨٤٠
 ١٢٢ ، ١٩٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧
 ٢٤٠ ، ٢٥٦ ، ٣٠٦ ، ٣٢٠
 ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨
 ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٣ ، ٣٩٤
 ٤٤٢ ، ٤٩٥ ، ٥٣١ ، ٥٣٢
 أهل اللمة : ٢٦٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨
 ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٣١٩ ، ٣٦٠
 ٤٢٨
 أهل الردة : ١٦٠
 أهل الرها : ١٢٨
 أهل سقادم : ٤٩٥
 أهل حرقلند : ٢٨٤ ، ٢٨٥
 أهل السواد : ٢٨٢ ، ٣٢٦
 أهل الشافى : ٤٥٢
 أهل الشام : انظر : حرب الشام
 أهل الشرك : ٣٢٤
 أهل الشقاق والفتنة : ٣١٦
 أهل العالية : ٣٨١ ، ٤٠٨
 أهل المراق : انظر : حرب العراق
 أهل عين الحمير : ٢٨٢
 أهل فارس : ٩٤ ، ٥٠٤
 أهل فلسطين : انظر : حرب فلسطين
 أهل نونيتية : انظر : حرب قينيتية
 أهل قبرس : ٢٩١ ، ٣٣٦ ، ٣٤٢
 أهل القرى : ٤٤٢ ، ٤٧١
 أهل قنسرين : انظر : حرب قنسرين
 أهل الكافية (الكفاية) : ٤٩٣ ، ٥٠٣
 أهل الكتاب : ٢٤
 أهل كرمان : ٩٤
 أهل الكوفة : انظر : حرب الكوفة

٢٥٢ : ٢٤٥ : ٢٤٢ : ٢٣٨
 ٢٦٠ : ٢٥٩ : ٢٥٧ : ٢٥٦
 ٢٧٢ : ٢٧٠ : ٢٦٤ : ٢٦٣
 ٢٩٨ : ٢٩٧ : ٢٨٧ : ٢٨١
 ٣٠٠ - ٣٠٨ : ٣٠٦ : ٣٠٢ : ٣٠٠
 ٣١٢ : ٣١٩ : ٣٢١ : ٣٢٥
 ٣٢٧ : ٣٢٥ : ٣٢٥ : ٣٢٧
 ٣٤٦ : ٣٤٧ : ٣٥١ : ٣٥٢
 ٣٥٦ : ٣٦٤ : ٣٦٣ : ٣٦٦
 ٣٧١ : ٣٧٥ : ٣٧٨ : ٣٧٩
 ٣٨٣ : ٣٨٥ : ٤٠٢ : ٤٢٨
 ٤٥٤ : ٤٥٩ : ٤٦٣ : ٤٧٢ - ٤٧٥
 ٤٨٩ : ٤٩٦ : ٥٠٤ : ٥٠٦
 ٥٠٧ : ٥١٠ : ٥١٢ : ٥١٤
 ٥١٦ : ٥٢٢ - ٥٢٧ : ٥٢٩
 ٥٣١ : ٥٣٣ - انظر أيضاً : الدولة

الأصوية

بنو جشم (بن معد بن زيد بن مناة بن قهم) :

٣٩٨

بنو جلدني : ٣٧٩

بنو الجوزجان : ٤٤٧

بنو حارثة : ١٥٤

بنو حرب : ١٢٩

بنو الحريش بن كعب : ٤٢٩

بنو حنظلة : ٣٩٠

بنو سعد : ٣٧٤ : ٣٩٩ : ٤٠٢ : ٤٠٣

بنو سلمة : ٤٨٠

بنو سليم : ٥١٨

بنو شيان : ٢٢١ : ٢٢٢ : ٢٧٦

بنو صهيب : ٣٩٨

بنو ضبة : ٢٨٧ : ٤٢٠ : ٤٢٧

٤٣٤

بنو عامر : ٥١٨

بنو (موقنة) : ٩١ : ١٥ : ١٦ : ٤

١٨ : ٣٩ : ١٣٠

البراة (من المشركين) : ٣٩

البرامكة : ٤٥٥

البربر : ٢٨٥ : ٢٩٦ : ٣١٢ : ٣١٣

٣٢٩ - ٣٣٢ : ٣٣٣

البروقان (موقنة) : ١٣٤

البريد : ٥٣١

البحريون : الفطر : حرب البصرة

بطارقة الروم : ٢٧٨

البطانة : ٥٣٠

بطانة عثمان رضي الله عنه : ٤٠ : ٤٤

الطون : ٤ : ١٠

بكر (قبيلة) : ٦٥ : ٦٦ : ٧٨

٢٠١ : ٢٢١ : ٢٣٩ : ٣١٧

٣٧٤ : ٣٨٣ - ٣٨٧ : ٣٩٠

٢٩٥ : ٢٩٧ - ٢٩٩ : ٤٠٩

٤١٨ : ٤٣٥ : ٤٤٣ : ٤٦٤

٤٨٢ : ٤٨٣ : ٤٨٨ : ٥٠٠

٥٠٨ : ٥٠٩ : ٥٢٩

بلاط أخليفة : ٥٢٩ : ٥٣٠

بلاط دمشق : ٢٠٥

بلاط الشهداء (موقنة) : ٣٣٠

بلحارث (قبيلة) : ٥٣٠

بنات لبن (موقنة) : ٢٠٠ : ٢٠٦

بنو إسرائيل : ٥٠٣ : ٥٢٢ : ٥٢٣

بنو أمية : ٢٠ : ٣٧ : ٣٩ : ٤٠

٤٦ : ٤٨ : ٥٠ : ٥٧ - ٦٠

٦٢ : ٦٨ : ٨٨ : ٩١ : ١٠٧

١٠٨ : ١١٠ : ١١٥ : ١٢٤

١٢٦ : ١٢٩ - ١٣١ : ١٤٤

١٤٥ : ١٤٩ - ١٦٠ : ١٦٤

١٦٦ : ١٦٨ : ١٧٥ : ١٧٧ - ١٧٩

١٩٤ : ٢٠٠ : ٢٠٤ - ٢٠٦

٢٠٨ : ٢٩٣ - ٢٩٦ : ٢٧٩

بيت المال : ١٣ ٤ ٢٧ ٤ ٣١ ٤ ٤١ —
 ٤ ٤٣ ٤ ٥٨ ٤ ٨١ ٤ ١٠١ ٤ ١٠٥
 ٤ ١١٤ ٤ ١٢٠ ٤ ١٢٦ ٤ ١٧٠
 — ٢٦٩ ٤ ٢٦٦ — ٢٦٤ ٤ ٢٥٨
 ٤ ٢٧٣ ٤ ٢٧٨ ٤ ٢٧٩ ٤ ٢٨٢
 ٤ ٢٨٦ — ٢٨٨ ٤ ٢٩٣ ٤ ٢٩٥
 ٤ ٣٩٦ ٤ ٣٠٤ ٤ ٣٢١ ٤ ٣٢٤
 ٤ ٣٤٤ ٤ ٥٦٢ ٤ ٣٨٢ ٤ ٣٨٥
 ٤ ٤٢٧ ٤ ٤٥٣ ٤ ٤٦٩

بيت المقدس : ١٨ ٤ ٨٧ ٤ ٩٦ ٤ ٩٣
 ٤ ١٢٨ ٤ ٢٠٦ ٤ ٢٠٧ ٤ ٢١٧
 ٣٦٨ ٤ ٣١٦

البيمة (بولاية العهد) : ٣٨ ٤ ٥١ ٤ ٥٣
 ٤ ٩٧ ٤ ١١٠ ٤ ١٣٤ — ١٤٢
 ٤ ١٤٥ ٤ ١٤٨ ٤ ١٥٤ ٤ ١٥٧
 ٤ ١٦٤ ٤ ١٦٦ ٤ ١٧٠ — ١٧٣
 ٤ ١٧٨ ٤ ١٧٩ ٤ ١٩٣ ٤ ٢٢٨ ٤ ٢٢٧
 ٤ ٢٤٩ ٤ ٢٥٦ — ٢٥٨ ٤ ٣١٥
 ٤ ٣٢٦ ٤ ٣٢٩ ٤ ٣٤٦ — ٣٤٨
 ٤ ٣٦٠ — ٣٦٢ ٤ ٣٧٤ ٤ ٣٨٤
 ٤ ٤٨٦ ٤ ٤٨٩ ٤ ٥٠٣ ٤ ٥٠٨
 ٥١٤ ٤ ٥١٥

البيمة النبوية : ٢٢

(ت)

النايسون (التقاء) : ٤٧٩
 تألف القلوب : ٣٠
 التبت (قبيلة) : ٤٠٦
 التحالف للسياسي : ٢٢٧
 التحكم (بين علي ومعاوية) : ٧٨ — ٨٧
 ٨٩ ٤ ٩٢ ٤ ٩٩

بنو العباس : ٦٨ ٤ ١٠٣ ٤ ١٢٢
 ٤ ٢١٣ ٤ ٢٤٥ ٤ ٢٣٦ ٤ ٢٧١
 ٤ ٣٧٨ ٤ ٣٧٩ ٤ ٤٢٨ ٤ ٤٦٤
 ٤ ٤٧٤ — ٤٧٨ ٤ ٤٨١ ٤ ٤٨٢
 ٤ ٤٨٩ — ٤٩١ ٤ ٤٩٤ ٤ ٥٠٤
 ٤ ٥٠٥ ٤ ٥٠٨ ٤ ٥١٢ — ٥١٧
 ٥٢١ — ٥٢٤

بنو عبد المطلب : ٣ ٤ ٣٩

بنو عبد مناف : ٣٩

بنو العدوية : ٣٨٨

بنو عمرو بن تميم : ٣٩٠

بنو عوف : ٤٠٢

بنو فاطمة : ٤٨١ ٤ ٤٨٩ ٤ ٤٩٠

بنو فزارة : ٣١١

بنو القمقاج : ٣٤٠ ٤ ٣٤١ ٤ ٣٤٥
 ٣٤٦

بنو قيس بن ثعلبة : ٤٨١

بنو مروان : الفطر : المروانيون

بنو المهاب : ٤٥٩

بنو هاشم : ٣ ٤ ٣٩ ٤ ١٣٨ ٤ ١٤٤

٣٧٠ ٤ ٤٩١ ٤ ٥١٦ ٤ ٥٢٣

٥٢٩

بنو يشكر : ٣٨٧

الجهانودن : ٣٥٦ ٤ ٣٤٩

بويوب (موقفة) : ٧٢

بيت عمرو (الإسماعيلي) : ٥٢٢ ٤ ٥٢٤

البيت الحرام : ١٧ — ١٩ ٤ ١٤٥

١٤٧ ٤ ١٥٦ ٤ ١٥٧ ٤ ١٦٢

١٦٣ ٤ ١٩٣ — ١٩٥ ٤ ٢٠٢

٢٠٦ — ٢٠٨ ٤ ٢٤٧ ٤ ٣١٦

٣٢٠

٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٨

٥٠٩

التوحيد : ٣

التوحيد : ١٨ ، ١٩ ، ٢١

التوحيد : الإسلامي : ٢ ، السامى : ١٩ ،

٢١ ، العربي : ١٩ ، ٢١

التوراة : ١٠ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٥٧

التوسيع الخارجى : ٢٣

(ث)

النار : ٧ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢١ ، ١٩٦ -

٥٢٢ ، ٢٠٢

ثقيف - ثقيفون : ٤ ، ٥ ، ٦٤ ،

٦٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ٢٢٧ ،

٢٣٧ ، ٢٥٢ ، ٢٢٢ ، ٢٤١

الفرقة : ٤١ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٢ ،

٥٥ - ٥٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٩ ،

٧١ ، ٧٢ ، ٩٥ ، ١١٠ ، ١١٣ ،

١١٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٥١ ،

١٥٩ ، ١٦١ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،

٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ،

٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ،

٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ - ٣٢٧ ،

٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ،

٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ،

٣٨٠ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٣ ،

٣٩٤ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨ ،

٤١٤ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٥ ،

٤٣٦ ، ٤٣٦ ، ٤٤٠ - ٤٤٣ ،

٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٧٢ ، ٤٨٣ ،

التدريب المسكرى : ١٠

التراث (الدينى الإسلامى) : ٣٧ ، ٥٤ ،

١٥٩ ، ٢٥٩

التراث (المسيحى) : ١٢٨

التراث (النبوى) : ٢٠٨

التوسل : انظر : التمسك

التورك : ٢٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٠٥ ، ٢٢٣ ،

٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٩٣ ، ٤٠٦ ،

٤٠٧ ، ٤١١ - ٤١٣ ، ٤١٦ ،

٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ ،

٤٣٢ ، ٤٣٦ - ٤٣٨ ، ٤٤١ ،

٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ،

٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ،

٤٦٢ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٥٢٣ ،

٥٣٤

التمسك (لقب) : ٤١٢

تستر (موقعة) : ٢٢٣

تقلب (قبيلة) : ٢٣ ، ١٧٧ ، ١٩٨ ،

١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩ ،

٤٤٥

تقسيم : ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٨ ، ٩٥ ،

١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ،

٢٠٣ ، ٢٢٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥٠ ،

٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ،

٣١٨ ، ٣٧٠ - ٣٨٣ ، ٣٨٦ -

٣٩٥ ، ٣٩٧ - ٤٠٢ ، ٤٠٤ ،

٤٠٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ،

٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢ ،

٤٤٣ ، ٤٤٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،

٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٩ ،

٤٧١ ٤ ٢٠٧ ٢٠٤ ٤ ٢٠٠
 الجماعة الدينية : ١ ٤ ١٠ ٤ ١١ ٤
 ٤٥٤
 الجماعة السياسية : ٨ ٤ ٥
 جماعة الله : ١٢
 الجماعات القديمة المقدسة : ١١ ٤ ١٠
 الجبل (موقعة) : ٨٠ ٤ ٥٥ ٤ ٥٣
 الجمعة (يوم) : ٢٦ ٤ ١٧
 الجمهورية : ٩
 الهند : ٢١ ٤ ١٥٤ ٤ ١٥٨ ٤ ٢٥٦
 ٢٢٢ ٤ ٣٤٨ ٤ ٣٥٢ ٤ ٣٥٧
 ٢٧٠ ٤ ٣٧١ ٤ ٢٤٥ ٤ ٤٤٧
 ٤٩٦
 جند احتلال : ٥٨ ٤ ٩٤ ٤ ٢٤١
 جند - جيش البصرة : ١١٣ ٤ ٢٢٠
 ٢٢٦
 جند - جيش بني العباس : ٥٠٣
 جند - جيش خراسان : ٥٠٣ ٤ ٤١٠
 ٥١٣ ٤ ٥١٧ ٤ ٥١٩ ٤ ٥٢٨
 جند - جيش الشام : ٤٩ ٤ ٥٦ ٤ ٧٣
 ٩٣ ٤ ١٤٧ ٤ ١٥٤ ٤ ١٦٢
 ١٦٤ ٤ ١٨٢ ٤ ١٩٣ ٤ ١٩٧
 ٢٢٢ ٤ ٢٢٧ - ٢٣٠ ٤ ٢٣٢
 ٢٣٣ ٤ ٢٤٠ ٤ ٢٤١ ٤ ٢٤٦ -
 ٢٤٨ ٤ ٢٥١ ٤ ٢٥٤ ٤ ٣٠٣
 ٣٠٤ ٤ ٣٠٩ ٤ ٣٠٧ ٤ ٣٠٩
 ٣٢٣ ٤ ٣٢٥ ٤ ٣٢٦ ٤ ٣٣٢
 ٣٥٣ ٤ ٣٥٤ ٤ ٣٥٩ ٤ ٣٦٠
 ٣٦٣ ٤ ٣٦٨ ٤ ٣٦٩ ٤ ٣٧٢
 ٤٢٣ ٤ ٤٣٧ ٤ ٤٤٧ ٤ ٤٧٣
 ٥١٠ ٤ ٥١٨

٤٧٨ ٤ ٤٩٨ ٤ ٤٩٣ ٤ ٤٩٤
 ٥٠٠ ٤ ٥٠٢ ٤ ٥٠٥ ٤ ٥٠٦
 ٥٠٩ ٤ ٥١٢ ٤ ٥٢٢

(ج)

جابلق (مركبة) : ٥١٠
 جار - جوار : ١٢ - ١٤ ٤ ٤٣٠
 الجاسوسية : ٥٣١
 الجاهلية : ٦٥ ٤ ١١٧ ٤ ٤١٨ ٤ ٤٨٠
 ٣٩٠ ٤ ٤٢٩ - انظر أيضاً :
 الشرك
 الجبر (ضد الاختيار) : ٢
 الجبرية : ٣٦٤
 جدام (بنو روح بن زلباخ) : ٥١٩
 الجراحة : ١٨٢
 الجزية : ٥ ٤ ٢٤ ٤ ٢٩ ٤ ٢٣٥
 ٢٣٦ ٤ ٢٦٤ ٤ ٢٦٥ ٤ ٢٦٧ -
 ٢٧٣ ٤ ٢٧٦ ٤ ٢٧٩ ٤ ٢٨٣ -
 ٢٨٥ ٤ ٢٨٩ ٤ ٢٩٢ ٤ ٢٩٥
 ٢٩٦ ٤ ٢٩٨ ٤ ٣١٢ ٤ ٣١٣
 ٣٣١ ٤ ٣٣٦ ٤ ٣٥٢
 ٤٩٥ ٤ ٤٢٨ ٤ ٤٣٤ ٤ ٤٣٥
 ٤٣٩ ٤ ٤٤٠ ٤ ٤٤٢ ٤ ٤٥٢ -
 ٤٥٥ ٤ ٤٥٧ ٤ ٤٧١
 الجفرية (جماعة) : ١٨٥ ٤ ١٨٦
 الجماعة : ٣ - ٧ ٤ ١٠ - ١٤ ٤ ٢٦
 ٤٨٩
 الجماعة الإسلامية - المحمدية : ١ ٤ ٣
 ١٠ ٤ ٢٤ ٤ ٣٨ ٤ ٤٨ ٤ ٥٥
 ٥٩ ٤ ١٠٦ ٤ ١٥١ ٤ ١٩٥

(ح)

جند - جيش العراق : ١٠٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠
 جند - جيش علي : ٩٩ ، ٧٣ ، ٥٦ ، ١٠٠
 جند - جيش الكوفة : ٢١٩ ، ١٤٤ ، ١٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦
 جند محليون : ٥٨
 جند - جيش مروان بن محمد : ٥١٨ ، ٥٢٠
 جند - جيش معاوية : ١٠٤
 الخنة : ٢٤
 الجهاد : ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ٢٦١ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٣٠٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣١
 الجهمية : ٤٦١
 جيرون (موقعة) : ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٣
 الجيش : ٨ ، ١٠ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٥٢ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٥٩ ، ٣٥٨ ، ٣٠٥ ، ٣١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤٣ ، ٤٦٧ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٥٠٩ ، ٥٢٩ ، ٥٣١
 قارن أيضاً : جند
 جيش الطواويس : ٢٢٤ ، ٢٣٧
 جيش أقد : ٨

دارث بن عباد (قبيلة) : ٤٣٣
 الحطاط (قبيلة) : ٣٩٥
 الحجج : ١٨ ، ٢١ ، ٥١ ، ١٠٣ ، ١١٠ ، ٢٨٩ ، ٢٠٦ ، ٢١
 حجة الوداع : ٢١
 الحجر الأسود : ١٨
 الحديث : ٤ ، ٢٤ ، ٦٠ ، ٢٦٣
 الحرب : ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٦١ ، ٢٨٥ ، ٣١٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٨٦ ، ٤٢٨ ، ٤٦٧ ، ٤٧٠ ، ٥٠٦
 الحرب (العامة العربية في الحرب) : ٣٤٩ ، ٣٥٨ ، ٣٩٥ ، ٤٠٠
 الحرب الأهلية الأولى : ٥٧ ، ٧٠ ، ١٨٢ ، ١٠٧ ، ١٨٢ ، ٣٨٧ ، ٤٧٥ ، ٤٥٣
 الحرس الخاص : ١٦
 الحرم : انظر : البيت الحرام
 الحرة (موقعة) : ٣٧ ، ١٥٩ ، ١٦٢
 حروب الردة : ٢٣ ، ٣٧
 الحروب : ٥٦ ، ٧٩
 الحشونون : ٦٠
 الحصار اليوناني الروماني : ١٢٩
 حق الرئاسة : ٣٨
 الحق الشرعي : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥
 الحقوق الوطنية : ٦٧ ، ٤٤١ ، ٤٨٨
 الحكومة الإسلامية الأولى : ١٠
 الحكومة الأموية : ٣٧١ ، ٤٠٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٧٣ ، ٤٧٣ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٦ ، ٥١٢
 الحكومة البيزنطية : ٦ ، ٨ ، ١١ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٧

خرائج (قبيلة تركية) : ٤٤٧
 الحرمية : ٤٨٣ ، ٤٨٨ ، ٥٠٤
 خزازة : ٤٨٣ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٣ ، ٥٠٠
 الخورج : ٧ ، ١٦ ، ٣٦
 خساف (موقعة) : ٣٧٥
 خشبية أبي مسلم : ٤٧٨
 خشبية المختار : ١٨٧ ، ٤٧٨
 خطبة الجبل : ٢
 الخلافة : ٣٤ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ - ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٨٤ - ٨٨ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٩ - ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ - ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ - ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٤١٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٣ ، ٤٨٩ ، ٥١٤ - ٥١٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٣١
 الخلافة الجديدة : ٥٣ ، ١٥٨
 الخلافة الشرعية : ١٥٨
 الخلافة القديمة : ٥٣

٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ١٢٧ ، ٢٠٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ - انظر أيضاً : الدولة
 التيوقراطية .
 الحكومة الجمهورية : ٩
 الحكومة الدينية الإسرائيلية القديمة : ٨ ، ١٠
 حكومة القديسين : ١٠
 الحنفية : ١ ، ٣
 الحياة العامة والسياسية : ١١

(خ)

خازر (موقعة) : ١٧٢ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ١٩٧
 خلقان الترك : ٣٠٩ ، ٤١٢ ، ٤٢٩ ، ٤٣٦ - ٤٤٨ ، ٤٤٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣
 الخليل - الخليلان : ٤٠٦ ، ٤١٢ ، ٤٢٧ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩
 خنعم : ٩١ ، ٢٣٠
 خذناه (لقب) : ٤١٢
 الخراج : ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١٦٦ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٣٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٣ - ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ - ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ - ٢٩٨ ، ٣١٠ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٤٢ ، ٣٥٤ ، ٤٢٠ ، ٤٣٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٥٣ - ٤٥٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٤٨١ ، ٥٢٩
 الخراسانيون : انظر أهل خراسان

ربيعة (قبيلة) : ١٠٢ ، ٦٦ ، ٦٥ ، ١٨٥ ، ٢٤٢ ، ٢٠٣ ، ١٩١ ، ٣٠٤ ، ٣٨٠ ، ٣٧٣ ، ٣٠٧ ، ٣٨٢ ، ٣٩٠ ، ٣٨٨ ، ٣٨٧ ، ٣٩٧ ، ٤٠٩ ، ٤٠٨ ، ٣٩٩ ، ٤٣٣ ، ٤٥٨ ، ٤٥١ ، ٤٤٧ ، ٤٥٤ ، ٤٩٦ ، ٤٧٩ ، ٤٦٤ ، ٤٥١ ، ٥٠٧ ، ٥٠٤ ، ٥٠٢ ، ٥٠١ ، ٥٢١ ، ٥١٣

الرجة : ١٠٧ ، ٣٧ ، ٢٣

الرسل : ١

الرسول : ٥

الرجية : ٦٤ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٢٧ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٣١ ، ٤١٦ ، ٤٥٦ ، ٥٢٦

للقريق : ٣ - قارن أيضاً : عبدة

ركوع : ٣

دعفان (شهر الصوم) : ١٧

الرميان : ١٠

للروح الإسلامية : النظر : الإسلام

للروح الوثنية : النظر : الوثنية

الروم : ١٠٧ ، ٩٥ ، ٧٣ ، ٧١ ، ٦٩ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٨٤ ، ١٨٢ ، ١٦٥ ، ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢١٩ ، ٢١٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦١ ، ٢٢٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٣١٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٦١ ، ٣٥٧

رومان (التأثير الروماني) : ٥٤ ، ٦ ، ٢١١ ، ٢٢٦

للقناة : ٥١٣ ، ٣٨ ، ٢٠ ، ٨ ، ٦ ، ٥١٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٢ ، ٥١٥

للقناة الإنسانية : ١٢٦

الدين : ٤ ، ٦ ، ٨ ، ١٠ ، ١٥ ، ٥٨ ، ٥٣١ ، ٥٩

دين إبراهيم : ١٨ ، ١٧ ، ٣ ، ١ ، ٢١

دين الأنبياء : ٩

دين الكائنات : ٩

الدية : ٣٩٠ ، ٢١ ، ١٣

الديوان (تعريب الديوان) : ٢١١ - ٢١٣

ديوان الأعطيات : ٢٣٥

ديوان البصرة : ١٠٩

ديوان الجيش : ٢٤

ديوان دمشق : ٢١٢

ديوان المال : ٢١١

ديوان المقابلة : ٢٨٨ ، ٣٨٤ ، ٤٧١

(ذ)

ذبيان (قبيلة) : ١٧٧

الذكورية : ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٧٥

(ر)

رابطة الإسلام : انظر : الإسلام

رابطة الدم : ١٣ ، ١٠ ، ٧ ، ٤

٣٥ ، ١٧٨ ، ٢٠٤ ، ٢٢٩

رابطة الدين : ٣٥٥ ، ١٥ ، ٧ ، ٤

٥٢٢ ، ٥٠٣

رابطة النسب : ٣٥ ، ٩١ ، ٧ ، ٤

١٧٧ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩

لراوندية : ٤٨٨ ، ٤٣٢

روباب (قبيلة) : ٣٩٠ ، ٣٨٠

روبان اليهود : ٤٥٤

لرئيس (لقب) : ٤١٢

الرئيس : ٢١

سكك (قبيلة) : ١٧٠ ، ١٧٧ ،

٣٦٨ ، ٥١٨

السكون (قبيلة) : ١٧٠ ، ١٧١ ،

١٧٧

السلام : ٧ ، ٨ ، ١٢ - ١٤ ، ٣٩٠ ،

٣٩١

السلطة المحلية : ٤١٣ ، ٤٦٩

سليم (قبيلة) : ١٧٢ ، ١٧٧ ،

١٩٦ - ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٣٤٦ ،

٣٩٥ ، ٤٧٠

السنة : ٥ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٦٠ ، ٦٣ ،

١٥٧ ، ٢٢٦ ، ٢٧٣ ، ٣٠٥ ،

٣٠٩ ، ٣٠٨ ، ٣٢٦ ، ٣٥١ ،

٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٨٩ ، ٥٣١ ،

٥٣٢

المهرلك = السهرج (لقب) ٤١٢

السياحة (من الغنود) : ٣٨٠

السجادة العربية : ٢٥ ، ٦٧ - ٦٩ ،

٢٧٠ ، ٢٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤١٣ ،

٤٢٠ ، ٤٢٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ،

٤٤٥ ، ٤٥١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٦ ،

٤٦٩ ، ٤٧٢ ، ٥١٣ ، ٥٢٧

السياسة : ٦ ، ٥٩ ، ٦٨

السياسة الدنيوية : ٦

السياسة الدينية : ٦

السياف : ٥٣٠ ، ٥٣١

السيد (العربي) : ١٣٢ ، ٣٩٠

(ش)

الشاكزية : ٤٧٠

الشاميون : انظر حرب الشام

الشاه (لقب) : ٤١٢

الشرك (الحامل) : ١ ، ١٧

الشورى : ١٠ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٥١ ،

(٣٧ - الدولة العربية)

الرئاسة الدنيوية ، السياسية : ٥ - ٨ ،

٥٣٣

الرئاسة الدينية : ٧ ، ٥٣٣

(ز)

الزاوية (موقعة) : ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،

٢٤٨

الزجاج المصريون : ٢٩

الزط : ٣٨٠

الزكاة (الصدقات) : ٢١ ، ٢٧ ، ٨١ ،

٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٨٢ ،

الزنادقة : ٤٨٩ ، ٥٠٦ ، ٥٣٣ ،

زنبيل كابل : ٣٠٩

الزيدية (فرقة) : ٣٧٠

(ص)

الساد : ٦٤

الساسانيون : ١٣٤ ، ٤٦٩

السهلية : ٥٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٢٢٦ ،

٢٣٦ ، ٤٧٥ - ٤٧٧ ، ٥١٥

سجود : ٣

المریان : ٤٥٤

سعد (قبيلة) : ٣٩٠

السند : ٢٨٥ ، ٣١٢ ، ٣٣٣ ، ٣٤٨ ،

٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١١ ، ٤٢٩ ،

٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ - ٤٣٦ ،

٤٣٩ - ٤٤٢ ، ٤٥٣ ، ٤٤٨ ،

٤٦٠ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧١ ،

٥٣٣

السفانيون : ١٠٧ فما بعدها ، ١٩١ ،

١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،

٢١٣ ، ٣٠٢ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ،

٥٢٦

الصقالية : ٥٣٣
 الصلاة : ٣٠٠ ، ٢١٠ ، ٢٤٠ ، ٢٦٠ ، ٢٨٠ ، ٣٠٠
 الصلاة : ٢٣٠ ، ٢٤٠ ، ٢٥٠ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠ ، ٢٨٠ ، ٢٩٠ ، ٣٠٠
 الصلاة الجامعة : ١٧
 الصلح : ٢٣ ، ٢٤
 الصواري (موقعة) : ٤٦
 الصواني (الأملاك) : ٢٨ ، ٢٩٦
 ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٧ ، ٣٠٠ ، ٣٢٦

صوم عاشوراء : ١٧
 صوم الفجران : ٢٧
 الصدور المقدسة : ٣١٤
 صيام رمضان : ١٧ ، ٢٤
 صيام الأربعين : ١٧

(ض)

الضرائب : ٢٩٣ ، ٤١٥ ، ٤٤٥
 الضرائب الجمركية : ٢٩٣
 ضريبة الرأس : ٤٥٦

(ط)

الطالبيون (آل أبي طالب) : ٤٨١ ، ٥١٤
 طرخان - طرخون - طراخنة : ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤٤٦
 طيء (قبيلة) : ١٧٧ ، ٣٨١ ، ٥٠٨

(ع)

المادة (الضرائب المتنوعة) : ٢٩٣
 عاشوراء : ١٧
 عامر (قبيلة) : ١١٧ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٣٤٦
 العباسيون : انظر : بنو العباس

٨٥ ، ٨٧ ، ١٢٩ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٦١
 الشورى (أصحاب الشورى الستة) : ٣٨ ، ٤٠ ، ١٠٩
 شيبان (قبيلة) : ٣٧٣ ، ٣٧٥
 الشيمة : ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٤٤ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٩٩ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠ ، ٤٧٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣
 شعبة بن العباس : ٤٨٣ - ٤٨٧ ، ٤٩٠ - ٤٩٣ ، ٥٠٠ ، ٥٠٤ ، ٥٠٩ ، ٥٠٧
 الشيوعية (المزدكية) : ٤٨٩

(ص)

الصائبون : ٣
 الصحابة : ٢٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ - ٥٣ ، ٥٩ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٦١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠

الصحيفة : انظر : الكتاب بين النبي وأهل يثرب
 الصخرة (قبة) : ٢٠٩
 صدر الإسلام : ٦٩ ، ٧٨ ، ٨٤
 الصدقات : انظر : الزكاة
 صغان - خداه (لقب) : ٤١١ ، ٤٤٨
 صفين (موقعة) : ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١٩٢ ، ٣٠٨

٤٥٢ ، ٤٥٥ - ٤٥٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢
 ٤٦٢ - ٤٧٥ ، ٤٧٨ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨
 ٤٨٨ ، ٤٩٧ ، ٥٠٠ - ٥٠٧ ، ٥٠٩
 ٥٠٩ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ، ٥٢٧
 ٥٢٧ - ٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤
 ٥٣٤ - انظر أيضاً : أمراء
 حرب الأردن : ١٧٠ ، ١٧١ ، ٤٤٧
 حرب البحرين : ٩٤
 حرب البصرة : ٥٣ - ٥٥ ، ٧٢ ، ٨٦ ، ٩٤
 ٩٤ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٨٥
 ١٨٥ ، ١٩١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨
 ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٤ - ٢٨٧
 ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٩
 حرب قنبر : ٣٦٦
 حرب الجزيرة : ٣٦٦
 حرب الجنوب : ١٧٦
 حرب حصن : ١٧٣ ، ٢٨٠ ، ٢٥١
 ٢٦٠ ، ٣٦٥ ، ٤٤٧ ، ٥٢٥
 حرب خراسان : ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٤٠٢ ، ٤٠٦
 ٤٠٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٣ ، ٤٥٨ ، ٤٧٠
 ٤٨٣ ، ٤٨٣ : ٥٢٠
 حرب دمشق : ١٦٩ ، ١٧٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠
 ٢٩٠ ، ٤٤٧ ، ٣٥١ ، ٤١٩
 حرب حمركنة : ٢٨٥
 حرب الشام : ٥٥ - ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣
 ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ - ٧٥ ، ٧٧
 ٧٧ - ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦ - ٩٠ ، ٩٩
 ٩٩ - ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٢٥
 ١٢٥ - ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢
 ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٥١ ، ١٥٢
 ١٥٢ - ١٥٩ ، ١٥٧ ، ١٦٤ ، ١٦٦
 ١٦٦ - ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣
 ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٠ ، ١٩٤
 ١٩٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٢٢ ، ٢٠٨
 ٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٢

عبد القيس (قبيلة) : ٣١٩ ، ٨١ ، ٣٨٠
 ٣٨٠ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٤١٥
 عبد ود (قبيلة) : ٢٠٠
 العبرانيون : ٣٤٥
 عيس (قبيلة) : ٢٥٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٥
 العيلات (قبيلة) : ١٧٠ ، ٥٢٢
 العبيد : ٣ ، ٥٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٦
 ٤٩٥ ، ٥٠٥
 عتيك (قبيلة) : ٣٨٦
 المعجم : انظر : الأماجم
 المعجمة (الإيرانية) : ٥٢٨
 العراقيون : انظر : حرب العراق
 العرب : ٣ ، ٨ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ - ٢٦
 ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٧
 ٣٧ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٨
 ٥٨ ، ٦٣ - ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٠
 ٨٠ ، ٨١ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٢١ ، ١٢٣
 ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩
 ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٥٠
 ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٩
 ١٧٩ ، ١٨٣ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ - ٢١٣
 ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨
 ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٣
 ٢٦٣ ، ٢٦٥ - ٢٧٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦
 ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ ، ٣١٤
 ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٨ - ٣٣٢
 ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧
 ٣٧٣ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤
 ٣٨٤ ، ٣٩٣ - ٣٩٦ ، ٤٠٤ ، ٤١٠
 ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤١٥ - ٤١٧ ، ٤١٩
 ٤١٩ - ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ - ٤٣٢
 ٤٣٢ ، ٤٣٤ - ٤٣٦ ، ٤٣٨ - ٤٤٣
 ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠

حرب مرو : ٤٩٦

حرب مصر : ٤٥ - ٤٩ ، ٥١ ، ٧١

٨٣ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢

حرب اليمن : ٣٧ ، ٤٥ ، ٦٦ ، ١٠٢

١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٩٦ ، ٢٢٦

٢٣٢ ، ٢٨٧ ، ٣١٩ ، ٣٥٣

٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٤٤٤

العرش : ١٢٧ ، ١٧٨ ، ٢١٦ ، ٢٦٤

٣٠٢ ، ٣١٥ ، ٣٣٨ ، ٣٦٤

٤٧٤ ، ٥٣٠

العروبة : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٠٩ ، ٢٣٧

٣٩٤ ، ٤١٥ ، ٤٢٧ ، ٤٦٢

٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٨ ، ٥٠٦

٥١٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨

الغدير : ٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩

٢٨٢ ، ٢٩٣

غدير - عشائر : النظر : قبيلة

العصبة : ٤ ، ٥ ، ٢١ ، ٤٧٤

عصر الفتوحات : ٢٩

الغطاء : النظر الأعطيات

عقاب المفل : ١٣

عقر (موتة) : ٣١٠ ، ٣١٢

علماء المدينة : ٢٥٩ ، ٢٧١ ، ٥٣١

٥٣٢

البلويون : ٣٧ ، ٨٦ ، ٢٥٦ ، ٢٨٧

٢٩٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٥٠٤

٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٣

٥٣٢

علم : ٢٠٠

عمري : النظر : بيت عمري

العملة (الدنانير والدرهم) : ٢١٠

٢٤٦ ، ٢١١

العنايس (قبيلة) : ٢٧٠

العاصر الأجنبية : ١٥٠

العنوة (في الفتح) : ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٠

٢٦٥

٢٢٧ ، ٢٢٩ - ٢٣١ ، ٢٣٧

٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٦

٢٤٨ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٨٩

٣٠٥ - ٣٠٨ ، ٣٢٦ ، ٣٤٠

٣٥٤ ، ٣٥٩ ، ٣٥٦ ، ٣٦٤

٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٣٨٤ ، ٤٢٤

٤٤٧ ، ٥٠٤ ، ٥١٠ ، ٥١٢

٥١٤ ، ٥١٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤

٥٢٨

حرب الشمال : ١٧٦

حرب العراق : ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ - ٥٨

٦١ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٧٧

٧٨ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٠

١٢٦ ، ١٣٩ ، ١٦٠ ، ١٨٣

١٩٠ ، ٢٠٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١

٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ - ٢٣١

٢٣٦ - ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١

٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ - ٢٥٤

٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩

٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣٢٤ ، ٣٥١

٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٩٣ ، ٤٠٨

٤٢٤ ، ٥٠٦ ، ٥١٤ ، ٥١٦

حرب الدولة : ٣٦٥

حرب فلسطين : ١٧٦ ، ٣٦٥

حرب ليبية : ١٧٦

حرب قنشرين : ٣٦٦

حرب الكوفة : ٤٥ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦

٧١ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٤

٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٩

١١١ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٥

١٤٣ - ١٤٥ ، ١٩١ ، ٢٢٠

٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦

٢٢٩ ، ٣٠٧ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥

٣٢٦ ، ٣٦٩ - ٣٧١ ، ٣٩٦

٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٤٨٢

٥١٥

٣٨٥ ، ٤١٨ ، ٤٢٥ - انظر
أيضاً : غنية
الفيلك (لقب) : ٤١٢

(ق)

القادية (موقعة) : ٧٤
قبالة - قبالات : ٢٧٨ ، ٢٨٢
القبائل العربية : ٤ ، ١٠ ، ١٥ - ١٦ ،
٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٦٣ - ٦٥ ،
٦٧ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ٢٠٤ ،
٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ - ٢٥٣ ،
٣١٨ ، ٣٤٦ ، ٣٥٨ ، ٣٨٠ -
٣٨٥ ، ٣٩١ - ٣٩٤ ، ٣٩٧ ،
٤٠٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٢٣ ،
٤٣٥ ، ٤٥١ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤ ،
٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ،
٤٨٨ ، ٤٩١ ، ٤٩٦ ، ٥٠١

٥٢٧

القبائل اليهودية : ١١
القبيلة : ١٨
القبيلة : ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١٠ ، ١٢ -
١٤ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٦٣ ، ١٣٤ ،
٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤
قحطان : ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٩ ،
القدرية : ٣٣٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ،
٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٦٣
القرآن : ١ - ٦ ، ١٠ ، ١٨ ، ١٩ ،
٢٤ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ،
٤٣ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٦٠ ،
٦٣ ، ٧٤ ، ١١٦ ، ١٢٥ ،
١٢٧ ، ١٥٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ،
٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩

(غ)

غرقة (شجر) : ١٥٦ ، ١٥٨
قسان (قبيلة) : ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ،
٢٤٨
الغسانيون : ٥٤
خططان : ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٧٧
غني (قبيلة) : ١٩٦
الغنيمة - الغنائم : ٢٥ ، ٢٨ - ٣٢ ،
٣٥ ، ٤١ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ،
٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٨ ،
٢٩٥ ، ٢٩٦

(ف)

الفاروسيون : ٦٠
الفتح (قانون الفتح) : ٢٨ ، ٢٩ ،
٢٨٣ ، ٢٩٥ ، ٣٩٥ - انظر أيضاً :
حرب
فتح مكة : ٢٠ ، ٣٥ ، ٣٦
الحذاء الأسرى : ١٣
الفرس : ٣١ ، ٦٤ ، ٦٦ - ٦٨ ،
١٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٤٤ ، ٢٧٣ ،
٣١٧ ، ٣٧١ ، ٣٨٠ ، ٣٩٢ -
٣٩٥ ، ٤٠٥ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ،
٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٢
فرعون : ٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٨١
الفرانج : ٣٢٩ - ٣٣١
الفرارة (قبيلة) : ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٣٤١ ،
٣٣٨
الفرقة (علماء الشريعة) : ٦٠ ، ٢١١ ،
٢١٧ ، ٢٦٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤
الفرق : ٢٥ ، ٢٩ ، ٣١ - ٤١ ، ٤٣ ،
٦٠ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ٢٨٢ ،
٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٢٦

١٧٥ ١٧٣ ١٧١ ١٦٩
١٨٤ ١٨٢ ١٨٠ ١٧٧
٢١٨ ٢٠٥ ١٩٦ ١٨٥
٢٦٢ ٢٥٣ ٢٥١ ٢٤٢
٣١٢ ٣١٠ ٣٠٤ ٣٠٣
٣٢١ ٣١٩ ٣١٨ ٣١٦
٣٥٣ ٣٤٥ ٣٤١ ٣٣٣
٣٧٣ ٣٦٤ ٣٦٣ ٣٦٠
٣٩٥ ٣٨٢ ٣٨١ ٣٧٧
٤١٨ ٤٠٨ ٤٠٥ ٣٩٩
٤٣١ ٤٢٨ ٤٢٧ ٤٢١
٤٤٤ ٤٤٣ ٤٣٤ ٤٣٢
٤٥٧ ٤٥١ ٤٥٠ ٤٤٨
٤٥٩ ٤٦٣ ٤٦٢ ٤٥٩
٥٢٥ ٥١٨ ٥١٢ ٥١٠

القيطانية (جاعة) : ٣٢٦

قين (قبيلة) : ١٧٧

(ك)

الكائولوك : ٢٨٩

الكتاب (الصحيفة) بين النبي وأهل

يُحرب : ١١ - ١٣

كتاب الديوان : انظر : الديوان

الكحيل (موقعة) : ٣١٧

كربلاء (موقعة) : ١٥٢

الكمة : انظر : البيت الحرام

الكمار - الكافرون : ٥١ ٤٦٣

٥١٨

كلب (قبيلة) : ٣٧ ٦٥ ٦٦

١٢٦ ١٢٧ ١٥٢ ١٦٠

١٦٧ - ١٧٤ ١٧٢ - ١٧٧

٢٤٠ ٢٤٨ ٢٦٣ ٢٧٣

٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٨ ٣٢٠

٣٣٦ ٣٣٨ ٣٣٥ ٣٥١

٤٢٣ ٤٢٥ ٤٦٠ ٤٦٢

٤٩٥ ٥٠٥ ٥٣٢

القرآن (علماء القرآن) : ٦٠ ٧٦

٧٧ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٤٠

٢٧٥ ٣٠٦

القرشيون : انظر : قريش

قريش : ٣ - ١٢ ١٣ ١٥

١٦ ١٩ ٢٠ ٣٧ - ٣٧

٤٠ ٤٤ ٤٦ ٨٤ ١٠٧

١٣٠ ١٣١ ١٣٩ - ١٤١

١٥١ - ١٥٤ ١٥٧ ١٥٩

١٦١ ١٦٢ ١٧٣ ٢٠٤

٢٢٧ ٢٢٩ ٢٧٨ ٣١١

٣١٨ ٣٢١ ٣٧٤ ٣٩٠

٣٩٢ ٤٥٢ ٤٤٢

قصر (قبيلة) : ٣١١ ٣١٧

القضاء : ١٠ ١٣ ٢٦ ٥٢٩

قضاة : ٦٦ ١٢٦ ١٧٦ ١٧٧

١٨٧ ١٩٦ ٢٠٤ ٢٤١

٣١٢ ٣٦٤ ٣٦٨ ٣٧١

٥١٨

القطائع - الإقطاعات : ٢٦٦ ٢٧٧ -

٢٨٠ ٢٨٧

القطيفة (خلة) : ١٧٠ ١٧١

القهرمان : ٢٨٢

القوط : ٣٣١

القومية العربية : ٤٧٠ ٤٨٨ ٥٢٣

القومية الفارسية : ٤٧٠

قيس (قبيلة) : ٦٥ ٦٦ ١١٠

١٢٦ ١٢٧ ١٥٢ ١٦٧ -

الحميرة : ٥٠٤
 المحيط الأطلسي : ٦٩
 المحيط الهندي : ٢٩
 مخزوم (قبيلة) : ٣٩ ، ١٣٠ ، ١٣١
 ١٥٩
 مدن المستعمرات : ٢٥ ، ٢٨ ، ٥٣
 ٢٧٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٨ ، ٤٤٦
 ٤٦٦
 المدنيون : انظر أهل المدينة
 المدينة الدولة (Polla) : ٤
 ملحج (قبيلة) : ٧٧ ، ٢٤٠ ، ٣٨١
 مرج راعط (موقعة) : ١٦٨ ، ١٧٢
 ١٧٦ - ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٩٦
 المرجثة : ٣٠٨ ، ٣٥٢ ، ٤٤١
 ٤٤٢ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٧٣
 درزيان - مرازية : ٣٩٦ ، ٤٥٤
 ٤٦٨ ، ٤٦٩
 مرة : ٣٧٣
 المروانيون : ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٧
 الأولون ١٩٩ لما بعدما : المخاضرون
 ٣٠٢ لما بعدما : ٣٠٦ ، ٣٤٧
 ٣٧٠ ، ٤٨١ ، ٥١٤ ، ٥٢٦
 مزدكية : انظر : شيوعية
 مزون (قبيلة) : ٣٨٢ ، ٣٩٧
 مساعدات اجتماعية : ٢١٧ ، ٢٨٩
 ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٤٠
 المساواة : ١١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦
 ٢٦٩ ، ٣٩٤ ، ٤٤١ ، ٤٥٧
 ٤٧٢ ، ٥٠٦
 المستشار الأول (لقب) : ٢١٣
 المسجد : ١٠

١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٦ -
 ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٤١
 ٣١٢ ، ٣٤٥ - ٣٥١ ، ٣٥٣
 ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦١ - ٣٦٦
 ٣٧١ - ٣٨٥ ، ٣٧٨ ، ٣٩٩
 ٤٥٩ ، ٥٢٥
 كنانة (قبيلة) : ٤٥١ ، ٤٥٩
 كلدة (قبيلة) : ٣٧ ، ١٧٧ ، ٢٢٤
 ٢٣٧ ، ١٤٠ ، ٣٤٨ ، ٣٨١
 ٤٨٠
 الكنيسة المسيحية : ١٠ ، ١٢٦ ، ١٢٩
 الكولونيون : انظر حرب الكوفة

(ل)

للغات (صنم) : ١٠٨
 لخم (قبيلة) : ٣٤٨

(م)

المارونية ١٢٨
 ماكس = ماكسين (موقعة) : ١٩٨
 مال الله : ٤٢
 المهرمون السياسيون : ٢٩٩
 مجلس الرسول : ٣٣
 مجلس الكرادلة : ٣٨
 المجرس : ٢٧٣ ، ٣١٩ ، ٤٥٣
 ٤٥٤
 الماريون ، ٤١٠ ، ٤١٦ - انظر أيضاً :
 مقاتلة
 المحصول (تأخير بيته) : ٣٢١ ، ٣٣٦
 الحكم والمتشابه : انظر القرآن

المشيئة الإنسانية : ٣

المصادرة : ٤٣

مصنف دمشق الأعظم : ٧٥

المصريون : انظر : حرب مصر

مصر (قبيلة) : ٦٦ ، ١٠٣ ، ٢٠٢

٢٠٤ ، ٢٢٦ ، ٤٤٢ ، ٢٥٢

٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٢٥٤ ، ٣٧٢

٣٧٣ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ ، ٣٩٣

٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩

٤١٩ ، ٤٢٦ ، ٤٣٣ ، ٤٦٢ -

٤٦٤ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٨

٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٢

٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٢

٥٠٧ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥٢١

المطلق : ٢

المعارضة الدينية والسياسية : ٦ ، ٣٧

٤٠ ، ٤٤ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢

٦٤ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ١٢٤ ، ١٥٩

٢٣٥

المستعمرات الحربية : انظر : مدن المستعمرات

المغول : ٥٣٤

المقاتلة : ٢٤ ، ٢٨ ، ٣١ ، ١٢ ، ٤٥

٦٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٦٥

٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩

٣٣٥ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦٩

٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤١٣ ، ٤٨٢

٤٦٨ - انظر أيضاً : جند - جيش

مقاس (قبيلة) : ٤٠٢ ، ٤٠٤

المكايل : ٢٤٦

المكيون : انظر أهل مكة

الملاحم اليهودية : ٤٧٩

مسكن (موقعة) : ٢٢٣

المسلمون : ٣ ، ٥ ، ١٠ ، ١١ ،

١٦ ، ٣٥ ، ٢٧ - ٣١ ، ٢٣ ،

٣٤ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ،

٤٧ ، ٣١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ،

٨٥ ، ٩٦ ، ١٢٣ ، ١٢٧ - ١٢٩ ،

١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ،

١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ،

١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ،

١٨٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،

٢٢٧ ، ٢٢٥ ، ٢٣٨ ، ٢٥٧ ،

٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ - ٢٦٧ ،

٢٧١ - ٣٧٣ ، ٢٧٦ - ٢٨٦ ،

٢٨٨ - ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،

٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ ،

٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ،

٣٣٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،

٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ،

٤١٦ ، ٤٢٦ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ،

٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ،

٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٧٠ ،

٤٧١ ، ٤٧٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠٦ ،

٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٢ ،

المسودة : ٥٠٧

المستوليد الوزارية : ٤٢٧

المسيحية : انظر : النصرانية

المسيحيون : انظر : النصارى

المشركون : ١٢ ، ١٥ - ١٧ ، ٢١ ،

٢٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٨٠ ، ٤٠١ ،

٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٧٣

المشيئة الإلهية : ٣

| | |
|------------------------------|---------------------------------|
| ٤ ٥٢٧ ٤ ٥٠٦ - ٥٠٤ ٤ ٤٨٨ | الملكانية : ٢٢٤ |
| ٥٣٠ ٤ ٥٢٨ | الملك الديوي : ٨ |
| الموظفون الدينيون : ١٢ | ملكية الأرض : ٢٦٦ ٤ ٢٦٧ ٤ ٢٧١ |
| المؤمنون : ٧ ٤ ١٠ ٤ ١٢ ٤ ١٤ | ٢٨٦ |
| ٤ ٥١ ٤ ٤٠ ٤ ٣٣ ٤ ١٧ ٤ ١٥ | مالوك : ٥٣٣ |
| ٤ ٢٦٣ ٤ ١٦١ ٤ ١٦٠ ٤ ٦١ | الناقرون : ١٥ |
| ٥١٨ ٤ ٣٠٦ ٤ ٢٦٤ | المنجم : ٥٣١ |
| (ن) | المهاجرون (المهاجرة) : ٨ ٤ ١١ |
| لاجية (قبيلة) : ٨٠ ٤ ٨١ | ١٢ ٤ ١٦ ٤ ٢٠ ٤ ٢٥ ٤ ٣٦ |
| النبط : ١٣٢ | ٣٧ ٤ ٨٤ ٤ ١٤٢ ٤ ١٤٦ |
| النيرة : ٣٢ ٤ ٦٤ ٤ ٢٠٩ ٤ ٢٧٣ | ١٤٧ ٤ ١٥٠ ٤ ١٥٩ |
| النبي : ٨ - ١٠ | المهابة : ٢٤٢ ٤ ٢٤٤ ٤ ٣٠٣ - |
| نخع (قبيلة) ٧٧ | ٣٠٦ ٤ ٣٠٩ ٤ ٣١٠ ٤ ٣١٢ |
| نزار (قبيلة) : ٥٢١ | ٤٠٩ ٤ ٤١٩ ٤ ٤٢٦ ٤ ٤٥٩ |
| النساطرة : ٤٥٤ | ٤٨٨ |
| النسبة : انظر : رابطة النسب | المهرجان (عيد) : ٤٣٨ ٤ ٤٦٨ |
| النصاري : ٨١ ٤ ١٢٨ ٤ ٢٠٩ | ٤٦٩ |
| ٤ ٢٨٩ ٤ ٢٧٦ ٤ ٢٧٣ ٤ ٢١٧ | المواطن : ٥ ٤ ٢٣ - ٢٥ ٤ ٤٨٨ |
| ٤ ٣٣٤ ٤ ٣٣٠ ٤ ٣١٩ ٤ ٢٩٠ | الموالي : ٣ ٤ ٦٧ - ٦٩ ٤ ٢١٨ |
| ٤ ٣٦٨ ٤ ٣٦٥ ٤ ٣٤٢ ٤ ٣٣٥ | ٢٣٥ - ٢٣٧ ٤ ٢٤١ ٤ ٢٤٨ |
| ٥٣٠ ٤ ٤٥٤ ٤ ٤٥٣ ٤ ٤٣٨ | ٢٥٩ ٤ ٢٦٩ - ٢٧٥ ٤ ٢٨٤ |
| نصاري أهلة : ٢٩١ | ٢٨٨ ٤ ٢٩٨ ٤ ٢٩٩ ٤ ٣٠٥ |
| نصاري الحيرة : ٣٢٢ | ٣٠٦ ٤ ٣٧٠ ٤ ٣٧١ ٤ ٣٨٤ |
| نصاري قبرص : ٢٩١ | ٢٨٨ ٤ ٢٩٨ ٤ ٤٠١ ٤ ٤٠٢ |
| نصاري نجران : ٢٣ ٤ ٢٩١ ٤ ٢٩٢ | ٤٢٠ ٤ ٤٢٨ ٤ ٤٣٤ ٤ ٤٣٨ |
| ٢٩٦ | ٤٤٠ ٤ ٤٤٢ ٤ ٤٥٦ ٤ ٤٦٧ |
| النصحاء : ٤٧٠ | ٤٧٠ - ٤٧٨ ٤ ٤٨٣ ٤ ٤٨٧ |

(٩)

- الواجبات الحربية : ٥
 الوثنية : (العربية) : ١٩ ، ١٧ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢٠٧ ، ٢١
 (المعجمة) : ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٨٨
 الوثنيون : (العرب) : ١٥٨ ، ٤٠ ، ٢٨٣ ، ٢٧٧ ، ٢٣٥
 (الأمازيغ) : ٢٨٣ ، ٢٧٧ ، ٢٣٥
 الوحي : ١٨ ، ١٧ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢١٠
 الوثق (القراطيس) : ٢١٠
 الوزير : ٥٣٠
 وصفاء الكوفة : ٣١٧
 الوضاحية : ٣٥٨
 الولاء : ١٣
 الولايات الفارسية : ١٠٣ ، ٩٤ ، ١١٨

(١٠)

- البنافقة : ١٢٨
 اليمن (قبائل) : ١٧٧ ، ٧٣ ، ٣٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٦٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣٢٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٣ ، ٣٥٩ ، ٣٧١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣

- النصرانية : ١٩ ، ١٧ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢٠٢ ، ٢١ ، ٢٠٧
 النصرانية (التأثير النصراني) : ٦ ، ١٢٦
 النقباء : ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٨٥ ، ١٧٨ ، ٥١٧
 نهارند (مرقمة) : ٧٤ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٤ ، ١٠٩
 النهر وان (موقمة) : ٩٨ ، ٨٢ ، ٨٠ ، ١٠٥
 قوام (مرقمة) : ٣٣٢ ، ٤٦٩ ، ٤٦٨
 القيروز (عهد) : ٤٦٩ ، ٤٦٨

(١١)

- الطاشية (فرقة) : ٤٧٧ ، ٤٧٦ ، ٤٩١ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٥١٧ ، ٥٠٣ ، ٥٠٠
 الهجرة : ٦١ ، ٢٥ ، ٥٠
 الهدايا المحكام : ٢٩٥ ، ٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٤٥٠
 الحرير (ليلة في صديق) : ٧٣
 همدان (قبيلة) : ٧٨ ، ٧٧ ، ٣٧ ، ٣٨١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩
 الحنود : ٣٨٠
 هوازن : ١٧٧ ، ٢٠ ، ٤١٢ ، ٤٠٦
 الحياطة : ٤١٢ ، ٤٠٦

| | |
|---------------------------------------|--------------------------------|
| ٤ ٤٥٣ ٤ ٣١٩ ٤ ٢٩١ ٤ ٢٧٣ | ٤ ٤٣٣ ٤ ٤٠٩ ٤ ٤٠٨ ٤ ٣٩٣ |
| ٥٣٠ ٤ ٤٥٤ | ٤ ٤٨١ ٤ ٤٨٠ ٤ ٤٦٤ — ٤٦٢ |
| اليهودية : ٢١ ٤ ١٩ ٤ ١٧ ٤ ٦ ٤ ١ | ٤ ٥١٣ ٤ ٥٠٧ ٤ ٥٠٦ ٤ ٥٠٢ |
| اليونان : ٣١ | ٥٢١ |
| اليونان (التأثير اليوناني) : ٤ ٥٤ ٤ ٦ | اليونانيون : انظر : حرب اليمن |
| ٣١١ ٤ ١٢٦ | اليهود : ٨ ٤ ١٠ — ١٢ ٤ ١٩ — ١٥ |
| | ٤ ٣٠٧ ٤ ٦٠ ٤ ٥٠ ٤ ٣٥ ٤ ٢٢ |

Edinburgh Alexandria



9387314

مطبعة بحسب المؤلف والترجمة والنشر
٩ شارع الكرداسي - بعابدين